٩٤

بقلم

أبو الفتوح محمد التوانسي

أعلام العرب
٩٣

ياقوت الحموى

الجغرافى الرحالة الأديب

بقلم
أبو الفتوح محمد التوانسى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه الحضارة العربية الاسلامية قد احتلت مكانها المرموق بين الحضارات الانسانية عقب انهيار الحضارتين الرومانية والفارسية وحين أشرقت على العالم بأضوائها الباهرة ـ كانت تستند الى قواعد وأصول دينية ، تشمل أسمى نظام عرفته الانسانية فى تاريخها الطويل ، هذا النظام الجديد الفريد جاء يدعو الى عمارة الأرض ، واستثمار خيراتها المباركة ، ويجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، ويوفق بين مطالب الروح وحاجات الجسد ، ويسوى فى العزة والكرامة بين الأسود والأبيض ، ويبنى العقيدة على الحرية والاختيار ، ويتيح للنفس الانسانية مجالات الرقى الروحى والخلقى .

ذلك النظام هو الاسلام الذى ساد أكبر جزء من العالم فى ذلك الحين فى سنوات قليلة ، وبنى فلسفته الآلهية ، وأسسه الحضارية على المؤاخاة بين العقل والدين ، واستخدام الفكر والمنطق فى خدمة قضايا الانسانية وحل مشكلاتها .

وكانت الانسانية يومئذ فى أدق مرحلة من تاريخها ، فوجدت

فيه علاجا حاسما لاضطرابها ، ودواء ناجعا لعللها وأسقامها ، وعندئذ سلك سبيله الى الانتشار السريع ، الذى أثار الدهشة والاعجاب فى العالم كله .

ومما يلفت النظر فى النظام الحضارى الاسلامى أنه فى أصل تكوينه قام يدعو الى احترام العقل ، ويحث على طلب العلم ، والانتفاع بثمرات الفكر ، فكانت أول آية نزلت من القرآن الكريم دعوة كريمة الى تعلم القراءة :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علَق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (١) .

وقد كانت القراءة ـ ومازال ـ أداة التحصيل العلمى ، ومفتاح أبواب الحكمة وكنوز المعرفة الانسانية ، فما لبث أن تدفق تيار الحركة العلمية فى الاسلام ، يحمل معه علوم الدنيا والآخرة ، وأخذت الحضارة العربية الاسلامية تزحف الى الأقاليم المفتوحة ، وتظلل بأجنحتها القوية بلدانا كثيرة ، حتى وصلت الى جنوبى فرنسا غربا والى غربى الصين شرقا .

ونحن حينما نطلق كلمة (الحضارة) فاننا نريد منها الاجتماع البشرى ، وما يصحبه من رقى وتأخر ، وتأثير وتأثر ، ويذهب علماء

---

(١) سورة العلق الآيات من (١ ـ ٥) .

تاريخ الحضارة الى أن المدنية تستهدف النواحي العلميـة والمادية ، وما يتصل بها من اختراع وابتكار فى حياة الأمم •

وأما (الثقافة) فيراد منها الجـوانب الروحيـة والمعنوية ، التى تتمثل فى الدين والعادات والتقاليد والفنون والآداب والفلسفات ، ومذاهب الحياة ، غير أنهم قد يعدلون عن هذا أحيانا ، ويقولون : ان الحضارة مرادفة للمدنية وجامعة لمعانى الثقافة •

وعلى هذا الأساس اذا تحـدثنا عن حضـارة العرب والمسلمين فاننـا نقصـد منها الأسس التى وضعها الاســلام متمثلة فى العقائد والأخلاق والآداب ونظم الحياة ، وما أبدعه المســلمون فى البيئـات التى أظلتها راية الاسلام من علم وفن وأدب وفلسـفة وحكمة ، وما ابتكروه من مخترعات ، ووصلوا اليه من مكتشفات أثرت علم الانسانية ، وزادته خصبا ، حتى غدا علما واسعا ، يتناول كل شئون الحيـاة ، وعلما عمليـا تطبيقيـا ، يستخدم فى النهوض بالبشرية ، وتوفير الخير للانسانية ، واذا رجعنا الى المصـادر العـربية ـ وفى مقدمتها معاجم اللغة ـ وجدناها تفسر الحاضرة بأنها خلاف السكنى فى البـادية ، ويعرفها ابن خلدون بالتوسع والتـأنق فى أســباب المعاش ، فى حين أن البداوة هى الاكتفـاء بالضرورى من أسـباب المعاش ، ثم اذا ألقينا نظرة سريعـة على تاريخ الحضـارة العـربية الاســلامية ـ وجدنا العـرب والمسـلمين قد أضـافوا الى التراث الانسـانى ثروة ضخمـة فى مختلف العلوم وقد حـاول كثير من

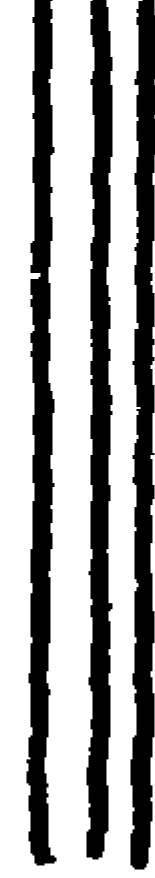
العلماء والمؤلفين من العرب والمسلمين ـ أن ينوهوا عن هذا التراث العظيم ، فنرى ابن خلدون يعقد فصولا ممتعة فى مقدمته المشهورة عن علوم العرب والمسلمين ، ونجد (حاجى خليفة) يفعل مثل ذلك فى كتابه (كشف الظنون) ، وصديق حسن خان العالم الهندى المسلم يؤلف موسوعته الضخمة فى ذلك وهى كتابه المشهور (أبجد العلوم) ، ثم ابن النديم فى فهرسته ، وكذلك حاول علماء عصرنا العرب فى مصر وفى الأقطار العربية تسجيل انطباعاتهم عن مضمون الحضارة العربية الاسلامية فى كتبهم ومحاضراتهم .

أما علماء الغرب فقد تحدث كثير منهم عن علوم العرب والمسلمين ، ومنهم (ألدوميلى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) ، وسارطون العالم الأمريكى فى كتابه (تاريخ العلم) وجوستاف جرونباوم فى كتابه (حضارة الاسلام) وغيرهم ، ولكن مما يدعونا الى الأسف البالغ أننا نرى الغربيين يهتمون اهتماما بالغا بدراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية فى مؤلفاتهم الضخمة فى عصرنا ، ونحن أبناء تلك الحضارة نعزف عنها كل العزوف ، مع أن ثورتنا التى نعيش فيها ، ومجتمعنا الجديد الذى نؤمن بمبادئه، وندين بقيمه واتجاهاته ـ يقومان على احياء النظم الاسلامية ، وتجديد شباب الاسلام ، ويستمدان أهدافهما من الحضارة العربية الاسلامية ، ولا شك أن ذلك مما يدفعنا فى حماس واصرار الى دراسة تاريخ هذه الحضارة .

وفى كتابى هذا أقدم للقراء العرب والمسلمين ياقوتا الحموى، وهو أحد أعلام الجغـرافية المسـلمين ، الذين يكونون ببحوثهم فى الجغرافية الوصفية والطبيعية والفلكية حلقـات مترابطة فى سلسلة تاريخ الأدب الجغرافى العربى والحضارة العربية الاسلامية ، لعلى بذلك أرسـم خطا واضحا فى الطريق ، لتوجيـه شـباب العـرب والمسلمين الى الاقبال على الدراسات العربية الاسلامية ، فى مختلف صورها ، باعتبارها الآن الأساس القوى لمنطلقنا الثورى فى الميدان العلمى ، وفى جميع نواحى الحياة ، وليس فى هذا التوجيه دعوة الى الرجوع الى العلم القـديم ، وانمـا هو تنبيه خالص على ما فى حضارتنا العربية الاسلامية من جوانب كثيرة صالحة للبناء ، يمكن وصلها بالعلم الحديث ، والسير فيها قدما الى الأمام ، والعـرب قد خاضوا فى اقتـدار وأصـالة فى نواح كثيرة من مختلف الثقـافات الانسانية، وسجلوا فى كل ناحية انتاجا عظيم القيمة، اذ بعد أن نقلوا التراث اليونانى وغيره من تراث الأمم القديمـة نقلا أمينـا دقيقا ــ أخذوا يتوافدون على دراسـته ، وتصحيح ما فيه من أخطاء ، ثم انتقلوا من هـذه المرحلة الى مراحل الاسـتيعاب والهضم والتوليد والابتكار ، حتى وصـلوا الى تراثهم الضخم العظيم ، الذى ينسب اليهم ، وكانت علوم الجغرافية من العلوم التى اشـتغلوا بها بدافع حاجتهم الى التنقل والأسـفار وركوب البحـار ، ولبعض البواعث الدينية الأخرى .

وقد التزمت فى هذا الكتاب تقسيمه الى أربعة فصول بعد المقدمة تيسيرا لدراسته ، فالفصل الأول فى الجغرافية عند العرب فى الجاهلية والاسلام والقرآن والجغرافية والفصل الثانى فى عصر ياقوت فى ميزان التاريخ ، وفى حياة ياقوت ونشأته وثقافته ، وتفوقه فى وضع الموسوعات الجغرافية والتاريخية والأدبية ، والفصل الثالث فى نماذج من معجم البلدان ، وفى مادة المعجم وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية ، والفصل الرابع فى ياقوت بين الجغرافيين ، ومعجم الأدباء والرأى فيه ، وفقنا الله فيما فيه مستقبل وطننا العربى الكبير و ورحم الله الزعيم الخالد فقد كان رائدا للعروبة وحامى حمى الاسلام •

الفصل الأول



العرب والجغرافية فى عصر ما قبل الاسلام :

كانت العـرب فى الجاهليـة تعرف الجغـرافية بمعنى وصف الأرض ؛ لأنهم كانوا على خبرة واسعة بوصف بلادهم ومواطنهم ، مما لا تعرف أى أمة من وصف بلادها ، ولما اتسعت فتوحاتهم بعد الاسلام سموا هذا الفن : « علم المسالك والممالك » أى الجغرافيـة الوصفية التخطيطية ، أما الجغرافية الرياضية التى تبحث فى شـكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، فقد نقلوها عن الهنود ، ثم عن اليونان •

ويرجح الباحثون أن معلوماتهم الجغرافيـة تقوم أسـاسا على التجارب العملية ، التى يحتاج اليها التجار عادة ، والتى يستعين بها العرب الرحل على تتبع مساقط الغيث ومنبت الكلأ والعشب ، وقد كان العرب ــ وبخاصة سكان القسم الجنوبى من الجزيرة العربية ــ

يقومون بدور الوسيط التجارى بين الهند وأفريقية الشرقية وبلاد دجلة والفرات والامبراطورية الرومانيـة ، ولا شك أن المعلومات الجغرافية التى كانت وليدة هذه الحـاجة ـ وكانت تتنـاول وصف الطرق والآبار وموارد المياه والجبال والقبـائل وغيرها ـ قد تردد صداها بين المؤلفين العرب وغيرهم ، ممن عاشوا فى هذه الأعصار ، ويشير (كراتشوكوفسكى) فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» الى بعضهم ، ومنهم العالم الكلاسيكى القديم (ايزيدور الحركى) ، ويقول : انه وضع مصنفا وصف فيه طرق القـوافل بين انطاكيـة وحدود الهند ، وهو من سكان سواحل الخليج (الفارسى) العربى ، وربما كان عربى الأصل ، ويعلق على ذلك الأستاذ صلاح الدين هاشم مترجم كتاب العلامة الروسى بقـوله : « انه لا يُعلم من أمر (ايزيدور) هذا شىء يذكر ، ويبدو أنه من مدينة تجارية تقع على فم الخليج (العربى) ويظن بعضهم أنها (المحمرة) ، وأنه عاش أيام (أغسطس قيصر) فى القرن الأول الميلادى » •

ولكن هذا الكتاب وغيره من الكتب التى يقال انها قد ألفت فى ذلك العهد البعيـد ـ لم تعكس بالدقـة المعلومات الواضحة عن التصورات الجغرافية للعرب فى جاهليتهم ، ولكن الشعر الجاهلى قد حفظ لنا كثيرا من هذه المعلومات ، كما سنوضحه بعد ، ومن الواضح أن هذه المعلومات كانت محدودة ؛ لأنها كانت داخل الاطار الذى رسمته طبيعة الحياة فى العصر الجاهلى •

لقد كان العـرب فى جاهليتهم على علم دقيق بأحـوال الجـو والكواكب والنجوم ، وقد ساعدهم على هذا واقع حياتهم ، اذ كان عليهم أن يعلموا شيئا عن النجوم الثابتة وسير الكواكب المتحركة ، وغيرها من الأجرام السماوية ، كما كان عليهم أن يتابعوا تغيرات الطقس ، فعرفوا مدارات الكواكب وهى السـموات ، وقد عرفوا السماء بأنها كل ما علاك فأظلك ، ويتفق اعتقادهم فى السماوات مع معتقـدات أصحاب الأديان السـابقة ، فأطلقوا على السماء الدنيـا (الرقيع) وعلى السماء الثالثة (الصاقورة) أو (الحاقورة) وعلى السماء الرابعة (الخضراء) ، وعرفوا الفلك بأنه مدار النجوم الذى يضمها ، والمجرة بأنها (أم النجوم) ومن كواكبها الشمس ، وأطلقوا على القمر (الهلال) من أول أن يهل الى ثلاث ليال ، ثم هو قمـر بعد ذلك الى أن يهل عليهم ثانيا ، ويبدو أن القمر كانت له أهمية خاصة فى حياتهم تفوق غيره من النجوم ، وقد عبر عن ذلك ابن منظور الافريقى بقوله : « أنسوا بالقمر ؛ لأنهم يجلسـون فيه للسمر ، ويهديهم السبل فى سرى الليـل والسـفر ، ويزيل عنهم وحشـة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » .

ولأهمية القمر عندهم جعلوا له منازل وأنواء ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون ؛ لأن القمر يقطع فلك البروج فى رأيهم فى سبعة وعشرين يوما وثلث يوم ، ولكنهم حذفوا الثلث ؛

لأنه ينقص عن النصف ، كما هو فى اصطلاح علماء التنجيم .

وأما عند العـــرب وســكان البـادية فهو يقطعها فى ثمـانية وعشرين يوما ، وكانوا يقســمون هذه المنـازل الى أنواء ويقول أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجى فى كتاب الأنواء :

« السنة عند العرب أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، ولكل نوء ثلاثة عشر يوما ، الا نوء الجبهة فانه أربعة عشر يوما ، فزادوا فيه يوما ، حتى تكمل الســنة ، وتصبح ثلاثمائة وخمســة وستين يوما » .

والعرب يجعلون النوء للغـارب من الكواكب ؛ لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، ويقول المنجمون منهم : انه الطالع وذهب المبرد الى أن النــوء هو على الحقيقــة الطالع من الــكواكب لا الغارب . وللأنواء ارتباط وثيق بالظواهر الجوية ، ولذلك نراهم فى أكثر الأحيان يريدون من النوء المطر ، وان كان قد عرف فىالمصطلحات الحديثة بمعنى العاصفة البحرية ، وعرف العرب كثيرا من الكواكب غير القمر ، عرفوا (الزهرة) « Venus » وعطارد Mercury وعرفوا من النجوم ما يناهز مائتين وخمســين نجما ، وقسم العرب منطقة فلك البروج الى اثنى عشر برجـا ، جمعها بعض الشــعراء فى قوله :

حمل الثَّوْرُ جوزةَ السرطانِ ورعى الليثُ سنبل الميزانِ

وزنوا عقربا وقوسا بجدْى ومن الدلو مشربُ الحيتانِ

وقسموا السنة أربعة فصول : الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وعرفوا أحوال الجو المختلفة ، وما يعقب ذلك من الظواهر الجوية .

ومن معارف العرب فى جاهليتهم ما يسمونه (علم نزول الغيث) ، وقد كانوا بما لهم من تجارب فى هذه الناحية يستطيعون أن يستدلوا بأحوال الرياح والسحاب والبرق على نزول المطر ، ولعلهم كانوا أبرع من غيرهم من الأمم القديمة فى التنبؤ بوقت نزول الغيث ؛ لأنهم كانوا فى أشد الحاجة اليه ، اذ كانت حياتهم من سقى وزرع متوقف عليه ، ويروى صاحب الأغانى قصة ان دلت على شيء ـ فانما تدل على هذه الحاسة القوية الغريبة فى التنبؤ بالوقت الذى يجيء فيه الغيث يقول : خرج أعرابى مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له ، لرعى غنم لهما :

قال الشيخ لابنة عمه : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظرى .

فقالت : أراها كأنها ربرب (١) معزى هزلى .

---

(١) (الربرب) : القطيع من بقر الوحش ، والمراد قطيع من المعزى الموصوفة بالهزال والضعف .

قال : ارعى واحذرى •

ثم قال بعد ساعة : انى أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك وانظرى •

قالت : أراها كأنها بغال دهم (١) ، تجر جلالها (٢) •

قال : ارعى واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجد ريح النسيم قد دنا ، فانظرى•

قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر (٣) ، فقال : ارعى واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجد ريح النسيم فماذا ترين ؟

قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرضِ هيدبُهُ يكادُ يدفعه من قام بالرّاحِ (٤)
كأنما بين أعلاهُ وأسفلِهِ ريطٌ منشّرةٌ أو ضوءُ مِصباحِ (٥)

---

(١) (بغال دهم) بغال سود •

(٢) (جلالها) : الجلال واحد هاجل ، وهو للدابة كالثوب للانسان ، تصان به •

(٣) (حمار أصحر) : حمار أبيض وفيه حمرة ، وصحر الحمار : نهق نهاقا شديدا •

(٤) (المسف) الدانى من الارض ، والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة .

(٥) (الريط) : جمع ريطة : وهى كل ثوب لين رقيق .

فمن بمحفله كمن بنَجْوَتِهِ والمستكِن كمن يمشى بِقِرْوَاحِ (1)

فقال : انجى لا أبالك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليها .

وهذه القصة فى جملتها تدل على أن العرب لشدة ذكائهم وقوة حاستهم الفلكية ـ كانوا يستدلون بأوصاف السحب وألوانها المختلفة على قرب نزول الغيث ، كما تترجم عن سرعة بديهة ابنة عم الشيخ ، وقدرتها العجيبة على وصف النسيم بأوصاف دقيقة ، وتشبيهه بهذه التشبيهات المحكمة ، كذلك تدل على قوة حاسة الشم عند الشيخ المكفوف البصر والارتباط الغريب بين هذه الحاسة وأحوال النسيم المختلفة ، كذلك تدل أبيات الشعر التى وردت فى القصة على مدى احتفاظ الشعر العربى فى الجاهلية بكثير من معلومات العرب فى الجغرافية الفلكية ، وكأن ابنة عم الشيخ تقول فى هذه الأبيات التى تمثلت بها : ان السحب قد دنت من الأرض ، حتى لأكاد أدفعها بكفى ، وكانت الأضواء تخترقها فتفصل بين أعلاها وأسفلها ، وهى تريد أضواء البرق الخاطف، ثم هى لتزاحمها

---

(1) (فمن بمحفله كمن بنجوته) : المحفل : مجرى معظم السيل ، يريد ان أى ناحية منه سواء لكثرة المطر . والقرواح : الفضاء .

وكثرتها ترى كأنها قطعة سوداء فى كل نواحيها ، ولا يمكن أن يستتر منها انسان ـ الا اذا كان سائرا فى فضاء لا تحجبه تلك السحب •

وعرف العرب الرياح ، وهى عندهم أربع : الشمال والجنوب والصبا والدبور ، وقد أشاروا اليها فى شعرهم ويقولون : ان الشمال تهب من مطلع بنات نعش الى مغرب الشمس صيفا ، وكانوا يكرهونها لبردها ، ولأنها كانت تذهب بالغيم والحيا والخصب فى زعمهم ، وقد يسمونها أحيانا الشآمية ، وقد كانوا فى أثناء هبوبها يتمدحون بالانفاق والكرم ، وأما الجنوب فقالوا فيها :

انها تهب من مطلع سهيل الى مطلع الشمس شتاء ، وأما الصبا فمهبها من مطلع الشمس الى مطلع العيوق ، والعيون كوكب مضىء أحمر ، يقع شمالى مطلع الثريا بقدر ثلاث قامات رمح ، أو أرجح بالنسبة للرائى من الأرض ، ويطلقون عليها رقيب الثريا •

وكانت العرب تفضل الصبا من الرياح وتحبها ؛ لأنها ريح لطيفة رقيقة ، تأتى بالسحاب والمطر ، وفيها الرى والخصب ، ويسمونها أيضا اليمانية •

وقالوا فى سبب تسميتها بالصبا : ان النفوس كانت تصبو اليها ؛ لطيب نسيمها وروحها ، والصبوة عندهم الميل ، يقال : صبا الى كذا اذا مال اليه ، وجاء فى الأثر الشريف : « ما بعث نبى الا والصبا معه » •

وأما الدبور فمهبها من مغرب الشـمس الى مطلع سهيل ، وما بين كل واحدة من هذه الرياح الأربع صفات وخواص ، يعرفها ذوو الخبرة منهم •

ومما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فالرعـد اذا أرزم : أى صوّت صوتاً غير شديد ـ استدلوا به على بعد نزول المطر ، واذا تهزم : أى صوت أشد الصوت ـ استدلوا به على قرب نزول المطر •

وكانت العـــرب فى الجاهليـة على علم دقيق بفنـون الملاحة البحرية ، مما يدل على أنهم ركبوا البحار ، لأن كثيرين منهم كانوا يعيشون على سواحل (بحر القلزم) البحر الأحمر ، وعلى السواحل المطلة على المحيط الهندى فى جنـوب الجـزيرة ، ومنهم من كان يعيش على شواطىء الخليج العربى ، وفى الجزر التى تقع فيه •

وهؤلاء جميعا كان منهم عدد كبير من التجار ، وكانت لهم تجارات واسعة فىالهند والحبشة وبلاد الروم ، وقد أشار (القرآن الكريم) فى كثير من آيه البينات الى ركوب العرب البحر ، وجريان الفلك بهم فوق ميـاهه المضطربة وأمواجه المتلاطمـة ، والشـعر الجاهلى ملىء بالأمثلة الناطقة ، التى تدل على الملمهم الدقيق بفنـون الملاحة ، التى هى من وحى خبرتهم وتجاربهم العملية •

قال عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته المشهورة :

ملأنا البرَّ حتَّى ضاقَ عنَّا وماءَ البحر نملؤه سفينا
إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبي تخِرُّ له الجبَابِرُ ساجدينا

فالشاعر يقول : ان قومه لكثرتهم قد ضاق عنهم البر ؛ ولذلك ملئوا البحر بسفنهم الغادية والرائحة ، واذا بلغ صبيهم الفطام سجد له الجبابرة من غير العرب لشجاعته ، وخوفا من بأسه •

ولا يخلو قول الشاعر فى البيت الثانى من مبالغة ظاهرة •

ويدل اهتمام العرب ـ وبخاصة سكان سواحل الممرات المائية ـ بالسفن على علمهم الدقيق بصناعتها •

وقد صنعوها لتكون مركبا لهم فى البحر ، والسفينة مأخوذة من سفنه بسفنه اذا قشره ، وقد سميت بذلك ؛ لأنهـا تقشر وجه الماء ، وصاحبها (السفان) ، والدسار واحد الدسر ، وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هى المسامير ، ويشير اليها (القرآن الكريم) فى قوله تعـالى : « وحملنـاه على ذات ألواح ودسر » ، والمجـداف ما تجـدف به السـفينة ، والجؤجؤ : صدر السفينة ، والمرساة : آلة ترسى بها السفينة ، والنوتى : الملاح ، وهو الذى يلى الشراع ، والشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة ، تصفقه الريح ، فتمضى بالسفينة •

ومن أسماء السفن عنـدهم : الفلك والقـرقور ، والجارية ، والخلية ، وهي أسماء السفن الكبيرة •

ومن أسماء السـفن الصـغيرة : الزورق ، والبوص ، وقال الجوهري : والبوصي ضرب من السـفن ، وهو معرب والقـارب سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية الكبيرة ، تستخف لحوائجهم •

لا شك أن هذه الثقافة اللغوية دليل على مبلغ علم العرب في العصر الجاهلي بفنون الملاحة البحرية ، وقد كانت عنايتهم الواضحة بوضع أسماء لأنواع السفن المختلفة وأجزائها ـ نتيجة طبيعية لهذه الثقافة ، حتى قيل : ان علم الملاحة من أوسع علوم العرب ، وكان قائما على معارف ومعلومات ، كسبوها بخبرتهم ، ومنها معرفة سموت البحر ، ومهاب الرياح وعواصفها ، ورخائها ، وممطرها ، وغير ممطرها ، وجميع الأنواء ، وما في البحار من جبال وجزر ، هذا بالاضافة الى أن العلم بصناعة النجارة،كان ضرورة يفرضها الاشتغال بالملاحة ، وقال ابن خلدون : « وقد يحتاج الى صناعة النجارة في انشـاء المراكب البحـرية ذات الألواح والدسر ، وهي أجـرام هندسية ، صنعت على قالب الحوت ، ليكون ذلك الشكل أعون لهـا على مصادمة الماء » •

ان من المؤكد أن عرب الجاهليـة كانوا على علم بالجغرافيـة

الفلكية والوصفية ، وأن هذا العلم كان نابعا من تجاربهم ومما أملته عليهم ظروف حياتهم وبيئتهم .

الجغرافية الوصفية في لغة العرب وشعرهم قبل الاسلام وبعده

بالرغم مما أشرنا اليه من علم العرب بصناعة السفن ، وأنهم قد أثروا لغتهم بأسمائها ، وأسماء أجزائها المختلفة ، فانهم أضافوا الى لغتهم ثروة أخرى ، كالتعريف ببعض المصطلحات الجغرافية ، وضمنوا شعرهم الكثير من أسماء الأماكن ووصف البقاع والمدن ، فهم يقولون : والجزيرة ما ارتفع عنها الماء ، وهي مأخوذة من الجزر ، الذى هو ضد المد ، ثم توسعوا فى ذلك فأطلقوا اسم الجزيرة على كل ما دار عليه الماء ، ويلاحظ أنهم لم يفرقوا بين الجزيرة وشبه الجزيرة ، بدليل أنهم سموا بلادهم جزيرة ، و لايحيط بها الماء الا من ثلاث جهات ، ويقولون فى وصف مدينة الرسول (صلوات الله عليه) .

فأما الحجاز ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة ، وأكمل السلام ، وقيل هى من نجد ، وهى بلدة طيبة مباركة ، كثيرة الخيرات ، عذبة المياه ، وافرة النخيل والثمار ، أهلها وسكنتها يودون الغرباء ، ويحبون من هاجر اليهم ، ويقولون فى الطائف :

وهو بطن من جبل غزوان بشرقى مكة ، وهو شديد البرد ،

كثير الفواكه ، لما فيه من كثرة البساتين ، التى تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال .

وأما نجد فهى أطيب أراض فى الجزيرة ، وقد لهج الشعراء قديما وحديثا بذكرها ، مترنمين برباها الجميلة ، وريا عطرها ، يقول شاعرهم :

أقولُ لصاحبي والعيسُ تَهْوِى ... بنا بين المُنيفة فالضِّمارِ (١)
تمتَّعْ من شَميم عَرار نجـــدٍ ... فما بعدَ العشيَّة من عرارِ (٢)
ألا يا حبَّذا نفحاتُ نجدٍ ... ورياً روضه غِبَّ القِطَارِ (٣)

وقال ابن الدمينة :

ألا يا صَبا نجْدٍ متى هِجْتِ من نجدٍ
لقد زادنى مَسْراكِ وجْداً على وجْدِ (٤)

(١) (المنيفه) : ماء لتميم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار من حق العطف أن يكون بالواو ، لان بين لاتدخل الا بين شيئين متباينين ، وتأويل ذلك انه أراد بين أجزاء المنيفة .

(٢) (الشميم) : مصدر من شم يشم ، والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة .

(٣) (النفح) : تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة ؛ والقطار : جمع قطر وهو المطر .

(٤) الصبا : ريح القبول ، وهاجت : ثارت : والمعنى ألا ياصبا نجد=

وقال الصمة بن عبد الله :

قفا ودِّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى
وقلَّ لنجد عندنا أن يُوَدَّعا

بنفسى تلك الأرضُ ! ما أطيبَ الرُّبا !
وما أحسن المصطاف والمتربَّعا !

ويقولون : ومن المدن المشهورة باليمن (صنعاء) وكانت من أحسن البلاد مساكن ، وأطيبها وأصحها هواء ، يقال : ان شتاءها فى غاية البرودة ، ومع ذلك لا يحصل منه ضرر لأحد ، وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها ، وكانت تحاكى دمشق الشام لكثرة مياهها وأشجارها ، وهى معتدلة الهواء ، حسنة الأسواق ، واسعة التجارة .

وقالوا فى (مأرب) : وهى من مدن اليمن القديمة ، كانت لطيفة الهواء حسنة التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى ان الغريب اذا دخلها وفى ثيابه (قمل) أو (براغيث) ماتت ولذلك وصفها القرآن الكريم بأنها بلدة طيبة ، وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها ، وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وأنه ليس فيها حر يؤذى فى الصيف ، ولا برد يؤذى فى الشتاء ، وكان عن

= متى كان هبوبك من نجد ، التى هى أرض الاحباب ، فلقد زادنى مسراك حزنا على حزن ، فما كان منك هبوب الا كان منى وجد .

يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال ان لكل منزل من منازل البلد جنة عن اليمين ، وأخرى عن الشمال ، وذلك بسبب كثرة ما كان من المياه فى أرضها ، وقالوا ان (بلقيس) ملكة سبأ — لما أقامت السد جعلت له أبوابا ، بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة ، فيها اثنا عشر مخرجا على عدة أنهارهم ، وكان الماء يخرج لأهل اليمن بالسوية ، الى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان ، وقيل ان الذى بنى السد (حمير) أبو القبائل اليمنية ، وقيل بناه (لقمان الأكبر بن عاد) ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، وكان فرسخا فى فرسخ ، ولم يزالوا فى أرغد عيش ، وأخصب أرض ، حتى ان المرأة تخرج وعلى رأسها (المكتل) (١) ، فتعمل بيديها ، وتسير ، فيمتلىء المكتل ، مما يتساقط من أشجار بساتينهم ، الى أن أعرضوا عن الشكر ، وكذبوا الأنبياء عليهم السلام ، فسلط الله على سدهم (الخلد) (٢) ، توالد فيه فخرقه ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سيلا عظيما ، فحمل السد ، وذهب بالجنان وكثير من الناس ، ويعرف (بسد مأرب) ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، ويلاحظ فى النماذج السابقة أن الجغرافية الوصفية عند العرب تتصل أقوى اتصال بالتاريخ ، وأن العرب يجعلون الشعر فى خدمتها .

---

(١) المكتل : بكسر الميم : الزنبيل وهو ما يعمل من الخوص ، يحمل فيه التمر وغيره .

(٢) (الخلد) : بالضم والفتح : الفأر الأعمى .

كذلك نلاحظ أن ثقافة العرب الجغرافية تجمع بين الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكيـة ، وكان ذلك واضحا فى حيـاتهم فى الجاهلية ، ثم ظهر ذلك بشكل أكثر عمقا واتساعا بعد الاسلام •

الجغرافية عند العرب بعد الاسلام :

اشتد اقبال العرب والمســلمين على الدراسـات الجغرافية بعد الاسلام ، وكانت الحوافز التى دفعتهم الى ذلك أول الأمر ترجع الى أسباب دينية ، لها صلة وارتباط ببيان أحوال البـلاد ، التى فتحت صلحا أو عنوة ، ليتقرر فى ضوء ذلك ما يؤخـذ منها من الجـزية والخراج ، والى هذا ذهب أصحاب السير والمغازى ورواة الأخبار ، ذلك لأن البحوث الجغرافية العربية الاسـلامية قد نشـأت فى بداية تكوينها متصلة بأخبار الفتوح والغزوات ، ويضاف الى ذلك أن أداء فريضة الحج كانت عاملا آخر ساعد على التعرف على المسالك والطرق البرية والبحرية المؤدية الى مكة والمدينة وبخاصة اذا قدم الحجاج من أقطار نائية بعيدة ، كذلك كانت الرحلة فى طلب العلم استجابة لدعوة القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » • ثم لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » • و « اطلبوا العلم ولو بالصين »•

ويؤكد العلامة الايطالى (نللينو) ما سبق أن أشرنا اليه من جمع العرب بين الجغرافية الوصفية والفلكية ، فيقول فى كتابه (تاريخ الفلك عند العرب) فى القرون الوسطى (ص ١٠٥ — ١٠٨) : « ان قدماء أهل بابل قد تصوروا السماء كأنها سبع طبقات منضدة ، وجعلوا فى كل طبقة أحد النيرين والكواكب الخمسة المتحيرة ، على حسب قدر أبعادها من الأرض ، وهو فى طبقته كأنه ساكنها وربها ، فانتشر هذا الرأى عند أمم أخرى ، مثل اليونان والسريان ، وراج عند عوامهم أيضا ، حتى أخذه أهل الحضر من الجاهلية ، كما يظهر من ورود ذكره فى جملة من النصوص القرآنية :

« تُسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » (سورة الاسراء) .

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » (سورة الطلاق) .

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » (سورة المؤمنون) .

« فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » (سورة فصلت) .

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا » (سورة نوح).

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا » (سورة النبأ) .

قال : ومن المحتمل أن العرب كانوا يسمون سماء الكوكب فلكه ، كما ورد فى الآية (الشريفة) : « وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » (سورة الأنبياء)

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » (سورة يس) •

ولفظ الفلك مأخوذ على المحتمل من كلمة بابلية Palakka ولكن لا نعرف شيئا مما كانت العرب تقوله فى طبيعة السموات •

ثم قال : وكان العرب قد ميزوا الكواكب الخمسة المتحيرة من النجوم الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة قديمة الأصل ، مجهولة الاشتقاق ، لم يزل استعمالها الى الآن • انى لا أجهل أنه فيما وصل الينا من أشعار الجاهلية لا يوجد ذكر للكواكب الخمسة المتحيرة غير الزهرة وعطارد ، ولكنى لا أشك فى قدم أسماء زحل والمشترى والمريخ أيضا ، لأنها مذكورة عند المؤلفين المسلمين ، قبل أن تنقل اليهم العلوم الدخيلة (١) ، ولأن عدم معرفة اشتقاقها ، مع عدم مشابهة ظاهرة بينها وبين أسمائها باللغات الأخرى ـ السامية والفارسية ـ يدل على أنها قديمة الأصل عند العرب •

أما عطارد فقيل ان عرب تميم كانوا يعبدونه ، وأما الزهرة

---

(١) وردت بعض أسماء هذه الكواكب فى شعر الكميت الاسدى المتوفى سنة (١٢٦ هـ) فقد روى انه قال يصف ثورا وحشيا «كأنه كوكب المريخ أو زحل» .. ارجع الى كتاب (نثار الازهار فى الليل والنهار) لجمال الدين محمد الافريقى المعروف بابن منظور ص ١٨٣ من طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ •

فقد قال المؤلفون السريان واليونانيون : ان بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها فى الغدوات ، وكانوا يسمونها اذ ذاك (العزى) .

ثم قال : وكان أهل البادية من أحوج الناس الى معرفة الكواكب الثابتة الكبرى ، ومواقع طلوعها وغروبها ، لأنهم كثيرا ما اضطروا الى قطع الفيافى والقفار ليلا ، مهتدين برؤية الدرارى ، فلولاها لضلت جيوشهم ، وهلكت قوافلهم فى الكثبان والبرارى ، كما ورد في سورة الأنعام : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » . فلا غرو أن عرفوا عدة من الكواكب الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة ، يذكر منها جزء فى أشعارهم مثل : الفرقدين والدبران ، والعيوق ، والثريا ، والسماكين ، والشعريين ، وغيرها ، ولكن لا يتوصل الى فهم سعة معرفتهم بالكواكب الثابتة الا من اطلع على كتاب أبى الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى (١) المتوفى (سنة ٣٧٦ هـ - ٩٨٦م)

---

(١) فى «كتاب تراث العرب العلمى» الصوفى من أفاضل المنجمين ومصنفى الكتب الجليلة فى الفلك ، وقال فيه ابن العبرى : كان الصوفى فاضلا نبيهانبيلا، واعترف علماء الفرنجة بقيمة مؤلفاته فى الفلك ، ودقة وصفه لنجوم السماء ، مما يساعد على فهم التطورات التى تطرأ على النجوم ، وقال (سارطون) انالصوفى من أعظم فلكيي الاسلام ، ومن كتبه : كتاب الكواكب الثابتة (مصورا) وكتاب الارجوزة فى الكواكب الثابتة (مصورا) ، ويمتاز كتاب الكواكب الثابتة برسومه الملونة للابراج وبقية الصور السماوية ، وقد مثلها على هيئةالاناس والحيوانات ، ويقرر (سارطون) ان هذا الكتاب أحد الكتب الرئيسية الثلاثة ،التى اشتهرت فى علم الفلك عند المسلمين .

فى الـكواكب والصــور فانه عند وصف كل صورة على طريقـة الفلكيين يجمع أسماء الكواكب المستعملة عند عرب البادية ، وقد بلغت هذه الأسماء نحو مائتين وخمسين وأكثر •

فمن كتاب عبد الرحمن الصوفى ، ومن أقوال العرب فى منازل القمر — نرى أنهم فى اثبات الصور النجـومية قد سـلكوا طريقة الفلكيين اليـونانيين ، حتى لنجـد توافقـا بين صــورهم والصــور اليونانية » •

ونجد فى القرآن الكريم اشارات فى كثير من آيه الى الثقافة الفلكية ، التى كان العرب على علم بها ، فقد خاطبهم الله تعالى فى هذه الآيات بتوجيـه نظرهم الى التدبر فى خلق الســماوات والأرض ، وما أبدعه سبحانه فيهما ، مما فيه سعادتهم فى الحياة الدنيا ، وعبرة لهم فى الحياة الأخرى ، وفيما يلى تفصيل هذا الموضوع •

القرآن الكريم والجغرافية

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أنزله الله على رســوله محمد النبى الأمى ، يدعو الناس الى الحق والى صراط مستقيم ، وقد خاطب القلوب بالموعظة الحسـنة والعقول بالدليل القاطع ، ولفت نظر الناس الى ما فى الكون من آيات باهرة وعبر وعظات بالغة ، وهذا مما يحدد لنـا مهمـة كتاب الله الكريم ، فهو يستهدف دعوة النـاس الى الاقرار بوحـدانية الله

وعبادته ؟ ولذلك حرص القرآن الكريم على اقناع العقول بالاشارة الى بعض الآيات الكونية ، التى تتضمن الاستدلال على قدرة الله ، وأنه المستحق للعبادة وحده ، وقد أقر هذا الكتاب العظيم الخالد مبادىء سامية لاقامة مجتمع انسانى ، تسوده العدالة والمساواة واحترام الحقوق ، والتمتع بالسعادة ، ولذلك لم يكن القرآن قط كتابا فى الجغرافية ، أو فى أى علم من العلوم ، وما جاء فيه من الارشادات الصادقة الى علوم الحضارة الانسانية ، فانما كان الغرض منه لفت العقول الى النظر الواعى والتأمل العميق والايمان بقدرة الله تعالى ، فاطر السموات والأرض .

وذلك مما يدعو الى العجب من بعض علماء الاستشراق الذين حاولوا أن يخرجوا القرآن فى بحوثهم عن طبيعته ، بادعائهم أنه جاء يقرر بعض النظريات العلمية ، ثم يتخذون هذه الدعوى الباطلة وسيلة الى اثبات أن القرآن قد استعاد هذه النظريات مما عرفته الأمم الماضية ، وتقوم هذه الدعوى عندهم على أن القرآن من عند محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه جمع فيه المعلومات التى نقلها عن مصادر غير عربية ، ومما يؤيد جهلهم بطبيعة القرآن ومهمته التى نزل من أجلها على سيد الخلق أنهم يجهلون بالاضافة الى ذلك أسرار اللغة التى نزل بها القرآن ، والتى تقوم على استخدام المجازات فى التعبير فمثلا نجد المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بالرغم من دقته وانصافه للعرب فى كثير من المواطن يتصور أن القرآن قد

وصف السماء وصفا ماديا حسيا ؟ اذ خيل اليه أن كلمة (بنينا) فى قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » وكلمة (سقف) فى قوله تعالى: « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » قد وضعتا على حقيقتهما ، وهذا ولا شك خطأ جسيم وقع فيه العلامة الروسى لجهله ببلاغة القرآن الكريم وحسن استخدامه للأساليب الفنية المجازية ، فقد فاتته هذه الدقائق البلاغية ، كما عزت على غيره من علماء الاستشراق ، هذا بالاضافة الى اقحامهم العقيدة الدينية فى مجال البحث العلمى ، وتصورهم أن القرآن الكريم انما هو كتاب فى التاريخ أو الفلك أو الجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وغاب عنهم أنه كتاب رسول ورسالة ، وأنه وحى من السماء .

ونلاحظ أن (كراتشكوفسكى) فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى (الفصل الأول) ـ الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى ـ قد جره تصوره الخاطىء الذى أشرنا اليه الى الوقوع فى أخطاء أخرى ، منها أن القرآن حينما تحدث عن الشمس والقمر كان ذلك الحديث بقصد بيان مهمتهما الأساسية، وهى تحديد الوقت اليومى أو السنوى ، كذلك نراه ينظر الى الآيات التى ذكرت المشرقين والمغربين بأنها آيات غامضة ، ويزعم أن القمر ذكر فى القرآن مرتين فقط ، مع أنه قد ذكر سبعا وعشرين مرة ، وأن لفظ النسىء لم يتضح معناه الى الآن ، مع أنه لو رجع الى أى معجم من معاجم اللغة العربية لعرف معنى

النسيء ، وهو التأجيل والتأخير ، وقد ورد لفظ النسيء في معلقة الشاعر العربي الجاهلي (عمرو بن كلثوم) :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

ثم يزعم أن القرآن جاء بنظرية رئيسية ، وهي أن الأرض مسطحة ، وليست كروية ، ويحاول أن يربط بينها وبين ما عرفه اليهود عنها واليونان في عهد هومير ، وقد حمله على هذا الزعم الغريب جهله ببلاغة اللغة العربية في موضوع السماوات فقد تصور كلمات القرار والمهاد والفراش والبساط تصورا حسيا ، كما سبق أن تصور كلمتي (بينا) و (سقفا) وقد جاءت كلمات القرار والمهاد والفراش والبساط وصفا للأرض في الآيات الكريمة التي استشهد بها وهي :

١ ــ « أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا » (سورة النمل ــ ١٦) .

٢ ــ « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا » (سورة النبأ ــ ٦) .

٣ ــ « والله جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » (سورة البقرة ــ ٢٢) .

٤ ــ « والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (نوح ــ ١٩) .

٥ ـ « الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، لعلكم تهتدون » (سورة الزخرف ـ ١) •

واستدلاله بهذه الآيات على أساس التفسير الحسى لمدلول كلمات المهاد والقرار والفراش والبساط ـ دليل على جهله بأسرار الأسلوب البيانى ، الذى تميز به القرآن الكريم ، هذا الى أنه قد حيرته نظرية البحرين ، فذهب يلتمس تفسيرا لها فى كلام المستشرقين قبله ، ومنهم « بارتولد » الذى يقول : انهما نهر الفرات والخليج الفارسى ، « وفنسنك » الذى يزعم أن الآيات المتعلقة بالبحرين تفترض وجود محيط سماوى ، وتلك تأويلات وتفسيرات بعيدة عن المعنى القرآنى ؟ اذ كل الآيات التى وردت عن البحرين هى :

١ ـ قوله تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (سورة فاطر ـ ١٢) •

٢ ـ وقوله تعالى : « أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أ اله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (سورة النمل ـ ٦١) •

٣ ـ « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا

ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (الفرقان ـ ٥٣) .

٤ ـ وقوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان » (الرحمن ـ ١٩) .

هذه الآيات الكريمة واضحة منكشفة المعنى لدى كل عربي مثقف يقرأ القرآن ، فهي لا تحتمل لبسا ، وليس فيها شيء من الغموض ، والغرض منها التدليل على قدرة الله تعالى ، ولفت النظر الى أثرهما في الكون والحياة ، ومن المألوف في لغتنا أننا نثنى الشيئين بتثنية أحدهما ، فنحن نطلق البحرين على البحر الملح والنهر العذب معا على التغليب ، ونطلق الأبوين على الأب والأم ، والقمرين على الشمس والقمر على التغليب أيضاً ، ولم ترد الآيات بقصد تحقيق نظرية جغرافية ، ولذلك كان الحديث عن تحديد البحرين خارجا على مهمة الكتاب الكريم ، ثم يسوقه الحديث الى أن القرآن قد أتى بنظرية البحار السبعة مؤيدا قوله بنص الآية الكريمة :

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله » (لقمان ـ ٢٧) ويحاول ارجاع الاشارة الى البحار السبعة ـ الى أنه ترجمة لحكمة عبرية قديمة ، ويتهم المقدسي بأنه فهم هذا الفهم ، كما يشير الى التأثير السحرى للرقم سبعة ، والحقيقة التي لا شك فيها أن

(كراتشكوفسكى) يجهل التعبير البيانى فى الآية وأن الرقم (سبعة) يراد به فى لغتنا العربية مطلق التعدد، على أننا لو أخذنا الآية الكريمة بمنطوقها الحسى لدلت على وجود بحار ثمانية ، وعندئذ تنهار نظرية البحار السبعة ، كما هى فى وهم العلامة الروسى ، والواقع الذى لا يحتمل شكا أن هذا المستشرق العظيم باحث دقيق ، يميل الى الاستيعاب ، ولكنه لم يسلم من خطأ شائع وقع فيه جميع المستشرقين، وهو اقحام العقيدة الدينية فى مجالات البحث العلمى ، فسيطرت عليه فكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد ، الى جانب عدم فهمه لسر الاعجاز البيانى فى القرآن ، فذهب الى ما ذهب اليه من آراء خاطئة ثم يستمر فى زيادة حجم حصيلة أخطائه ، فيتحدث عن ذى القرنين ويأجوج ومأجوج ، ويزعم أن معلومات محمد (صلوات الله عليه) فى القرآن قد وصلت اليه عن طريق الأساطير السريانية.

وحينما يحاول الموازنة بين القرآن الكريم والشعر العربى القديم من حيث المادة الجغرافية ـ يدعى أن الشعر العربى أكثر واقعية ودقة وأغزر مادة من القرآن فى النواحى الجغرافية ، ولكن بالرغم من قلة المادة الجغرافية فى القرآن فانه أتى بنظريات جغرافية استعارها من مصادر أجنبية ، وبدهى أنه ما دام قد افترض من أول الأمر فى بحثه أن القرآن هو مجموع المعلومات التى حصل عليها محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ فانه ليس غريبا أن يقرر ما ذهب اليه من آراء لا تتفق مع الحقائق ، ثم يخلط العلامة الروسى بين

أحاديث الرســـول والمرويات ، التى تتناول تفصيلات خرافيــة لا أساس لها ، وينسب الى ياقوت الحموى أنه أتى بشىء من هذه المرويات ، ومنها ما يتعلق برحلة عبادة بن الصامت الى الرقيم (١)، وهو المكان الذى يرقد فيه أهل الكهف ، ولكن ياقوتا حين نقـل بعض هذه المرويات الخرافية لم يكن غافلا ، فقد نبه فى مقدمة معجم البلدان على ما فيها مما تأباه العقول ، ولا يقبله المنطق الصحيح ، وسنشير الى ذلك بالتفصيل عند الحديث عن مقدمة كتابه (٢). نمو المعلومات الجغرافية لدى المسلمين .

ان من المؤكد أن معلومات العرب الجغرافية بعد الاسلام قد أخذت تنتقل الى دور النضج والاكتمال ، بعد أن عكف المسلمون على ترجمة الثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، فازداد حجم هذه المعلومات وعمقها ؛ لأن اطلاعهم على معارف الأمم القديمة فى هذا الميدان عمق دراستهم ، وأمدهم بأساليب وأنماط من البحث الجغرافى ، وما كاد يقع فى أيديهم كتاب (المجسطى) لبطليموس الجغرافى ، بعد ترجمته الى اللغة العربية ، حتى درســوه دراســة واعية ، واستعانوا بخبراتهم التى كسبوها من أسفارهم وأرصادهم

---

(١) (الرقيم) لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على باب الكهف، وقيل الرقيم هو الكتاب ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وكتاب مرقوم أى مكتوب، والرقيم ايضا اسم الوادى الذى فيه الكهف .

(٢) ارجع الى تعليق على تاريخ الادب الجغرافى العربى للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ــ الاستاذة بجامعة عين شمس .

وبأساليبهم العلمية السليمة على تصحيح كثير مما ورد فى هذا الكتاب من آراء ، ثم قاموا بدراسات واسعة عن طريق قيامهم بكثير من الرحلات الى مختلف البلاد والأقطار شرقا وغربا ، فتكونت لديهم مادة جغرافية مخصبة ، استخدموها فى وضع مؤلفات قيمة فى علوم الجغرافية ورسم الخرائط ، التى تصور الكرة الأرضية ، وما عليها من يابس وماء ، وأثناء ذلك ظهر عدد من الملاحين والتجار المسلمين ، الذين عرفوا بالمغامرة والجرأة فى ركوب البحار ، ومنهم تاجر مشهور يدعى (سليمان البحار) ، وكان من أشد المغامرين ، الذين لا يرهبون البحار ، وقد وفق بجرأته وشجاعته فى معرفة الخطوط البحرية ، التى بين الهند والصين ، وقد تمكن بذلك من السير فى هذه الخطوط بسفنه عدة مرات ، تردد خلالها على الصين مرة بعد مرة ، وقام بوصف البلدان التى زارها فى مذكراته ، وقد أثارت بعاداتها وتقاليدها دهشته ، وتعتبر مذكراته البذرة الأولى فى تكوين علم الجغرافية الوصفية العربى الاسلامى ، ومن الملاحظ أن المسلمين العرب قبل رحلات (سليمان البحار) كانوا قد درسوا الجغرافية العلمية ، واعتمدوا فى هذه الدراسة على كتاب (بطليموس) .

ويقال ان المسلمين فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب وبتوجيه منه ـ لم يحاولوا أول الأمر التوغل فى البحار البعيدة ، وقد روى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر ، كتب الى الخليفة (عمر) كتابا

يصف فيه البحر ، ومما جاء في هذا الخطاب « واعلم يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، كدود على عود » ؛ لذلك منع الفاروق المسلمين ركوب البحر اشفاقا عليهم ، وحفظا لأرواحهم ، وابقاء على جند المسلمين الذين يحتاج اليهم في حماية الثغور ومواطن المخافة في ديار المسلمين ، ولكن فريقا من أهل مصر ومن ساكنهم لم يعملوا بأمر الخليفة عمر ، لأنهم كانوا يمارسون صناعة السفن والاتجار بركوب البحار منذ أزمان طويلة قبل الاسلام ، وكانوا قد كسبوا خبرة واسعة ، فاستمروا بدافع الحاجة يعملون على بناء السفن في ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية وغيرها ، وكانت لهم تجارات مع أهل اليمن وسكان سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولما بلغ ذلك عمر رضى الله عنه لم يشدد النكير عليهم ، وأغفل ذلك ، وبعدئذ أخذ المسلمون في خلافة عثمان رضى الله عنه • وفي عهد (عبد الله بن أبي سرح) أمير مصر وقتئذ يعملون على اعداد أسطول عربي اسلامي من مائة سفينة حربية ، وقد تصدى للأسطول الروماني في معركة مشهورة تسمى (ذات الصواري) ، وانتصر الأسطول العربي الناشيء على أضخم أسطول معروف في البحار في تلك الأيام برهبته وقوته ، فدل ذلك على جرأة المسلمين ومهارتهم النادرة في الحروب البحرية •

ويبدو لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أمر

المسلمين بعدم ركوب البحر ، وحين سكت عن ذلك ، كانت له وجهة نظر سياسية ، ترتبط بصالح المسلمين ، ويتولى العلامة ابن خلدون شرح ذلك بقوله : « ان العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافة البحر وركوبه ، وأما الروم والافرنج فانه لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه ، وأحكموا الدراية بثقافته ، فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم الأعاجم خولا لهم وتحت أيديهم ، تقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النوتية فى حاجتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، فأصبحوا بصراء بها ، فشرعوا فى الجهاد فى خضمه ، وأنشئوا السفن فيه ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم النصارى ، واختصوا بذلك فى ممالكهم وثغورهم ، ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » .

فابن خلدون يقرر أن عمر لم يأذن للمسلمين فى ركوب البحر أولا ، بسبب عدم درايتهم بالثقافة البحرية فى ابان نهضتهم ويؤيد رأى عمر أن عمرو بن العاص لما ولى مصر للمرة الثانية كان المسلمون وقتئذ قد وصلوا الى درجة كبيرة من العلم بفن سلوك البحار والسير فى أعاليها ، واقتحامها فى جرأة ، فأوضح ذلك لعمر ، فلم يقف عند رأيه الأول ، بل أذن لعموم المسلمين بركوب

البحر والغزو فيه ، ولعل الحكمة فى ذلك قد وضحت لنا ، فيما قصده الفاروق من الحظر أولا ، ثم الاذن ثانيا .

ومنذ ذلك الحين أقبل المسلمون على دراسة الثقافة البحرية وفنون الغزو فى البحار ، وانشاء السفن وبناء الأساطيل التجارية والحربية ، حتى كان ما لدى المسلمين فى عهد معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى ألفا وسبعمائة سفينة من جميع الأنواع ثم أخذت القوة البحرية العربية الاسلامية تقوى تدريجا ، حتى أصبحت مرهوبة الجانب فى البحر الأبيض المتوسط ، فغزا المسلمون أكثر جزره وسواحله ، وساعدهم ذلك على فتح الأندلس ، فاتسعت بذلك دائرة معارف المسلمين الجغرافية ، وظهر فى العصور الاسلامية المختلفة مشرقا ومغربا جغرافيون مسلمون ، برزوا فى مجال الجغرافية الوصفية وغيرها ، وكانت أكثر معلوماتهم الجغرافية نتيجة مباشرة لرحلاتهم وأرصادهم العلمية ، هذا بالاضافة الى نشاطهم العلمى البارز فى تصحيح آراء القدماء ، وقد أبدى المأمون العباسى اهتماما كبيرا بالنواحى الجغرافية والفلكية ، فأمر بتأسيس دار الحكمة، وزودها بمكتبة حافلة بالمراجع والمخطوطات والخرائط، وأنشأ مرصدا فلكيا ، ثم كلف علماء الفلك فى عصره قياس فلك البروج ، وعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين ، لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذى قبل ، ثم رسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم المعروف وقتئذ ، وكان محمد

ابن موسى الخوارزمي من العلماء الذين استعان بهم على ذلك ، وينسب الى الخوارزمي أنه وضع كتابا عظيم القيمة فى علم الجغرافية، يسمى (صورة الأرض) ويبدو أنه اعتمد فى وضعه على كتاب (المجسطى) ، ولكن مع توسع واضافات جديدة ، وصل اليها العرب المسلمون عن طريق أرصادهم ، وتصحيحات لكثير من آراء بطليموس .

واستمر الأدب الجغرافى ينمو نموا سريعا عند مسلمى العرب، مما يدل على النزعة القوية ، التى سيطرت على نفوسهم فى التنقل والرحلة ، وقد بدأت هذه النزعة ملونة بلون دينى أثناء رحلتهم الى الأراضى المقدسة ، ولكن سرعان ما تطورت بعد اتساع الفتوحات الاسلامية الى رحلات واسعة النطاق بقصد التجارة ، ثم التعرف على ما خلقه الله تعالى فى هذه المعمورة من يابس وماء ، فدفعهم ذلك الى دراسة الجغرافية الرياضية مع تطبيقاتها المتصلة برسم الخرائط ، وتتميز معلوماتهم فى الجغرافية الوصفية من معلومات غيرهم من الأمم بأنهم أضافوا الى ما كسبوه من معارف الاغريق والرومان عن الأراضى والبحار ـ التعرف على أربع مناطق أخرى من العالم ، كانت المعلومات عنها يشوبها كثير من الغموض ، ومن هذه المناطق الأقاليم الواسعة الواقعة حول بحر قزوين ، والبقاع والأماكن التى تمتد الى الشمال الشرقى من البحر الأسود ، ولم يكن أحد من الجغرافيين قبل المسلمين يعرف شيئا عن بحر Aral آرال ،

ولم تجد بحيرة (خوارزم) آرال مكانها على الخرائط الا فى عهـد المأمون لأول مرة ، وقد زار ابن فضلان هذه الأصقاع أثناء وفادته الى ملك (البلغار) موفدا من قبل المقتدر الخليفة العباسى ، وكان العرب وقتئذ يطلقون كلمة (بلغار) (١) على بلاد الصقالبة ، وهم الروس، ثم على الشعب نفسه ، وعلى عاصمتهم، التى كانت تقع شرقى نهر (الفولجا) ، وهو الذى كان يسميه الجغرافيون المسلمون نهر (أتل) ، وتعتبر كتابة ابن فضـلان عن هذه الجهـات أول مصـدر موثوق به ، فقد وصف شعوب الصقالبة وصفا دقيقا، تناول حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتجـاراتهم ، وعرض للظواهر الطبيعيـة فى بلادهم .

ويقال ان ياقوتا انتفع كثيرا بما كتبه ابن فضلان ، ونقل عنه كل ما يتعلق بكلمة (بلغار) فى كتابه معجم البلدان ، مما سنعرض له فيما بعد ، ونجد البيرونى يتعرض لوصف شعوب اقليم (بيكال) Baikal كما وصف أهـل ورنج باسكندنافيا وتناول بالوصف الدقيق الصناعات المعدنيـة فى أوربا الشمالية ، وأمدنا بمعلومات دقيقة ، ذات قيمة علمية عن بحر الثلج Ice-sea فى الشمال الشرقى من أوربا ، فكان ذلك تمهيدا لارتياد التجار العرب لتلك

---

(١) (بلغار) قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الاتل (الفولجا) ، وتمثـل ولاية (قازان) الروسية ، وهى بلاد بلغار التى يرد ذكرها فى كتب الفقه الاسلامى، ولاتزال أطلالها وآثارها باقية ، اما بلغار الحالية فهى مملكة فى البلقان معروفة الآن .

الأنحاء البعيدة ، وأما بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن افريقية فقد كانت معلومات اليونان لا تتجاوز المناطق الساحلية ولكن العرب لما فتحوا مصر أخذوا يتوغلون فى كشف الأراضى الداخلية والصحارى الافريقية الشاسعة ، بقصد التجارة ونشر الاسلام فى داخل القارة الافريقية ، وكان من نتائج ذلك وضع بعض المؤلفات الجغرافية عن افريقية ، وفى مقدمتها كتاب (المهلبى) عن السودان، ومن الراجح أن ياقوتا اعتمد عليه فى جغرافيته عن السودان فى كتابه (معجم البلدان) . أما عن آسيا وأقاليمها الداخلية فقد كانت المعلومات السابقة على الجغرافيين المسلمين ضئيلة ومحدودة ، فلما قام المسلمون برحلاتهم الى هذه الديار دفعهم حب الكشف والتعرف على مختلف البلدان أن يبعدوا فى رحلاتهم فى قلب القارة الآسيوية ، فتعرفوا على جميع بلدان آسيا الوسطى ، وامتدت رحلاتهم الى الصين ، فوصلوا اليها عن طريقى البر والبحر ، وفى عصر المغول ظهر بشكل واضح أثر الجغرافيين المسلمين فى العلم الجغرافى عن الصين ، وعندما وضعت الخريطة الرسمية لبلاد الصين اعتمد فى وضعها على معلومات المسلمين الجغرافية ، وقد أشار الى ذلك « ألبرت هرمان » Albert Hermann ، وقيل ان الذين قاموا بوضعها واعدادها الجغرافيون المسلمون .

كذلك كانت المعلومات الجغرافية عن بلاد الهند ما تزال قليلة ، وتحجبها أوصاف غير واضحة ، حتى فتح المسلمون بلاد

السند والجنوب الغربى للبنجاب (Sina, S.W. Punjab) ، ووقتئذ بدأت المعلومات الجغرافية عن هذه البلاد تتضح ، وتتسع ، بفضل الجهود العلمية التى قام بها الجغرافيون المسلمون ، والجاليات العربية من التجار ، الذين أقاموا على سواحل (كنكان) Kankan ومليبار Malabar وكان لمعلومات (سليمان البحار)أو التاجر عن الصين والهند أثر كبير فى نمو الثقافة الجغرافية ، التى استمدت منها قصص السندباد ، كذلك كان أبو زيد السيرانى من الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين أضافوا الى تاريخ الأدب الجغرافى العربى بكتابه (سلسلة التواريخ) معلومات وافية عن الجغرافية الهندية ، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى هذه البلاد ، وبذلك تجمعت معلومات غزيرة فى الجغرافية الوصفية وغيرها ـ انتفع بها الجغرافيون الذين جاءوا بعد ذلك أمثال ابن خرداذبة والاصطخرى والمقدسى وياقوت وابن بطوطة وغيرهم .

الأثر الذى تركه العرب فى العالم الغربى

أما الآثار العلمية والفلسفية ، التى تركها العرب فى العالم الغربى ـ وبخاصة العلوم الجغرافية ـ فاننا نترك العلامة المستشرق (جون درابر) J. Draper يحدثنا عنها فى كتابه (تطور أوربا الفكرى) الجزء الثانى ص (٤١ ـ ٤٢) (١) « ينبغى على أن أنعى

(١) ارجع الى كتاب (مآثر العرب على الحضارة الاوربية): جلال مظهر ـ تقديم كمال رفعت ، وسعد عفرة » مكتبة الانجلو ١٩٦٠

على الطريقة المنظمة ، التي تحايل بها الأدب الأوربى ، ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ، أما هذه الآثار فانها على اليقين سوف لا تظل كثيرا بعد الآن مخفية عن الأنظار ؛ ان الجور المبنى على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمرا الى الأبد ، ماذا يقول فلكي حديث عندما يتذكر همجية أوربة فى ذلك الزمن ويجد (أبو الحسن الفلكي العربى) يتحدث عن أنابيب توضع فى احدى نهاياتها عدسة عينية أو العين ، وفى النهاية الأخرى عدسة شيئية ، كما استعملت فى مرصد المراغة ؟ وماذا يقول اذن عند ما يقرأ عن محاولات عبد الرحمن الصوفى فى تحسين طريقة تقدير لمعان النجوم ؟

ألا يكفى زيج بن يونس الفلكى (١٠٠٨) م المسمى بزيج الحاكم ، أو زيج نصير الدين الطوسى ، الذى ألف فى المرصد المذكور آنفا فى المراغة (١٢٥٩) م ، أو قياس الزمن (بواسطة) ذبذبات البندول ، أو طرق تصحيح الجداول الفلكية (بواسطة) الأرصاد المنظمة ؛ لكى تكون مسائل تدل دلالة قاطعة على مبلغ ما وصل اليه العرب من النبوغ الفكرى ؟ لقد ترك العربى طابعه الفكرى فى أوربة منذ زمن طويل ، قبل أن ينبغى على أوربا أن تعترف بذلك ؛ اذ طبع فكره على قبة السماء بطريقة لا تمحى ، تعبر عنها أسماء النجوم المتناثرة فيها ، ويستطيع أن يدركها كل من يعرف أسماء النجوم » .

ولكى يؤكد هذا العلامة المنصف الأثر العربى بطريقة علمية لا تقبل جدلا ـ كشف عن أسماء بعض النجوم والمصطلحات التى وصل اليها العرب فى بحوثهم الجغرافية الفلكية ، وسموها بأسماء عربية خالصة ، وقد بقيت حتى نقلها الغرب عنهم فى غير تورع منكرا الأثر العربى فيها ، مع أن أسماءها تتحدى هذا الانكار الجائر .

ولذلك يقول (درابر) : وهنا نستطيع أن نذكر قائمة طويلة من أسماء النجوم والمصطلحات ، التى ما زالت تعرف فى اللغات الأوربية بأسمائها العربية ، وهذا قليل من كثير .

أما نحن فنكتفى بذكر بعضها فيما يأتى على سبيل المثال :

(الدبران) Aldebaran ، و (رأس الغول) Algol

و (النصل) Alnasl (النسر الطائر) : Altair

و (السماك الأعزل) Azimech و (منكب الجوزا) Betelgeuze

الفصل الثانى



عصر ياقوت فى ميزان التاريخ

لم يكن انقسام الدولة العباسية بعد عصر المتوكل على الله العباسى ، والانحلال السريع الذى بدأ يتسرب الى جسم هذا العملاق الضخم ، والتفكك الذى أصاب أجزاء الدولة العربية الاسلامية الكبرى ـ نذير سوء بالنسبة للتفكير العلمى ، واستمرار حركة النمو فى العلم العربى ، بل على العكس رأينا الحكام الجدد فى الدول والامارات التى انفصلت عن خلافة بغداد ، وأصبح لها كيان مستقل ـ يعملون فى نشاط دائب متصل على دعم ملكهم ، بكل مقومات الحضارة ، وقد ساعدهم على ذلك أن قوة الدفع للحضار العلمية فى بغداد فى عصر المأمون ـ كانت وما تزال على درجة من القوة ، بحيث أفسحت المجال أمام هؤلاء الحكام للاستعانة بعدد كبير من العلماء فى كل علم وفن ، لتأسيس ملك لهم يقوم على

دعائم وطيدة واسخة ، تضمن له البقاء والاستمرار ، ولذلك نلحظ بقوة في العصر العباسي الثاني الذي يمتد في التاريخ من (٤٤٧ هـ ـ ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من يوم أن وضع السلاجقة (١) أيديهم على زمام الحكم في بغداد الى أن سقطت عاصمة الخلافة العباسية فى أيدى التتار ـ أن الحركة الفكرية كانت ما تزال ناشطة في هذا العصر، وقد تردد صدى هذه النهضة الفكرية في بلاط الغزنويين فى الشرق ، والفاطميين والأيوبيين فى مصر ، والأمويين في الأندلس ، وكان من بواعث هذه النهضة ظهور بعض الفرق الدينية من شيعة وسنية، وقد استعانت هذه الفرق بالعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، عن طريق الحجاج والجدل ، واستخدام الأدلة العقلية ، اذ كان كل فريق ينتصر لآرائه ، ويؤيدها بسيل من الحجج المنطقيـــة والأدلة النقلية ، وقد كانت هذه النهضة الفكرية تسير في طريقها ، فى حين كان العالم الاســلامى يشــكو من الضعف والتصــدع والانحلال السياسى •

---

(١) (السلاجقة) ينسب هؤلاء القوم الى سلجوق (بفتح السين) بن تقاق (بضم التاء) وهو أحد رؤساء الاتراك وكانوا فى أول امرهم يســكنون بلاد ما وراء النهر فى مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخا ، والسلاجقة نوع من الاتراك الغز ، ويتصل نسبهم بالجد الاكبر بســلاطين الاتراك العثمانيين ، ويعتبر عصرهم بالنسبة لعصر الغزنويين اكثر ازدهارا وكان ملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطانا ومنعة ، واليهم يرجع الفضل فى تجديد قوة الاســلام ، واعادة تكوين وحدته السياسية (تاريخ الاسلام الســياسى والدينى والثقــافى والاجتماعى) د ٠٠ حسن ابراهيم حسن ٠ الجزء الرابع ٠

وذاعت شهرة بعض المدن فى هذا العصر ؛ اذ كانت تعد مراكز للثقافة العربية الاسلامية ، ومنها أصبهان والرى حيث يقيم بنو بويه ، الذين عرفوا بتشجيع العلماء واجزال الصلات لهم ، وبخارى حيث يحكم السامانيون ، وكان منصور بن نوح السامانى قد أسس مكتبة زاخرة بالنادر من الكتب والمخطوطات ، وفى طبرستان نجد شمس المعالى قابوس بن وشمكير يجذب الى بلاطه العلماء والأدباء والفلاسفة ، ومثل ذلك نراه فى خوارزم وغزنة ، وغيرها من المراكز الثقافية ، كذلك فى (مرو) حاضرة خراسان حيث بلاط السلاجقة ، وقد أقام ياقوت فى هذه المدينة فترة من حياته ، ويقول فيها : « وقد أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم » . كما أطنب فى وصف خزائن الكتب فيها ، حين فارقها أمام غارات التتار سنة (٦١٦ هـ) فقد قال : « وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة » .

وفى حلب حاضرة الحمدانيين كان يتردد على بلاط سيف الدولة بن حمدان أشهر الفلاسفة والعلماء والأدباء ، كالفارابى وابن خالويه وأبى الطيب المتنبى ، وفى مصر فى أيام الطولونيين والاخشيد والفاطميين تعددت مراكز الثقافة فكانت فى الفسطاط ، ثم فى القطائع والقاهرة ، وقد نافست قرطبة بغداد وغيرها من المراكز الثقافية الأخرى فى المشرق ، أما معاهد الدراسة التى كانت موئل العلماء والدارسين ، ومقر حلقات الدرس والمناقشة ـ فكانت

المساجد فى مقدمتها وقد ظل المسجد النبوى الشريف مأوى لفقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم على طلب العلم ، وقد كان المسجد فى ذلك العصر فضلا عن أهميته الدينية ، باعتبـاره مكانا مقدسـا لتـأدية العبـادة ، كان فى الوقت نفســه المكان الذى يؤمه خليفـة المسلمين لادارة شئون الدولة والخلافة ، وكان المنبر أشبه بالعرش، يلقى منه بيان الخليفـة لشرح سـياسة الدولة ، وكانت تذاع منـه القرارات الهامة ، وكان المكان الذى يتخذه العلماء والدارسـون مقرا لهم ، والمعهد الذى يتلقى فيه الناشئون اللغة العربية وأصول الدين الاسلامى .

وكان مسجد عمـرو بن العـاص فى مصر من أهم المعاهد الثقافية فى عهد الطولونيين والاخشيد ، ثم خلفه الأزهر الشريف فى عهـد الفاطميين ، وبذلك أضحى أعظم المراكز الثقـافية فى الشرق ، والى جانب هذه المساجد مسجد القرويين بفاس ، وقد أنشىء حول منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولا شك أن المساجد وقتئذ كانت تعتبر معاهد كبرى وجامعـات ، تشـهد بديمقراطيـة التعليم عند المسلمين ، ويليها فى الأهمية والثقافة الزوايا ، ومفردها (زاوية) ، وهى مأخـوذة من الفعـل (انزوى ينزوى) ، بمعنى اتخـذ ركنا من أركان المسـجد للاعتكاف والتعبد ، وقد نشـأت الزوايا أول الأمر مساكن ملحقة بالمساجد ثم تطورت الى (أبنية صغيرة) منفصلة ، يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويعقدون

حلقات الدرس فى علوم الدين وما يتصل بها من العلوم العقليـة والنقلية ، كما كان يعقد فيها مشايخ الصـوفية حلقـات الذكر ، وتطلق الزاوية أحيـانا على المعهـد والرباط الذى تقيمـه احـدى الفـرق الدينيـة كالصــوفية والقادرية والتيجانية والسـنوسية ، والشاذلية ، والخلوتية ، وفى المغـرب العـربى أطلقت الزاوية على مسجد خاص بطائفة من طوائف الصوفية ، أو على ضريح لأحـد الأولياء ، وكان يلحق بكل منهما مقبرة يدفن فيهـا من لهم عـلاقة بالطريقة أو كانوا من أقارب الولى بعد وفاتهم ، وبالاضافة الى ذلك كانت تضم اليها حجرات ، ينزل فيها الضيوف ، والمنقطعون للعلم والعبادة .

وقد تطورت الزوايا ، وازدادت أهميتها الثقافية والعلمية ، وبخاصة فى بلاد المغرب .

ومن معاهد الثقافة الاسلاميةالعربية الكتاب والمدرسة، والكتاب مشتق من كتب وهو المكتب أيضا ، وأما المدرسـة فاسم مكان من درس الذى مصدره درسا ودراسة ، ولم تسمع التاء فيها فى شعر قديم ، ولم نجد من علماء اللغة بعد بناء المدارس من أنكرها مع أن المفعلة سماعية فى اللغة ، ولم تنشـأ المدرسـة قبل القـرن الرابع الهجرى ، وأول مدرسة عرفت بهذا المعنى هى المدرسـة البيهقيـة بنيسابور ، ثم تتابع انشـاء المدارس بعد ذلك ، ومن معـاهد التعليم

والثقافة فى العصر العباسى الثانى (البيمارستان) (١) ، وقد كان المدرسة التى تعلم فيها العلوم الطبية ، ثم بيوت الحكمة ، وفى مقدمتها (بيت الحكمة) الذى أنشىء فى عهـد هـرون الرشيد ، ثم أنشئت مدارس الحكمة لنشر المذهب الاسماعيلى ، ثم دار الحكمة فى القاهرة التى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى .

تلك مراكز الثقافة ومعاهدها التى اشتهرت فى العصر العباسى، وقد كانت وما تزال ذات أثر فى دفع تيار الحركة العلمية ، وان لم يكن ذلك بالدرجة والقوة التى كانت عليها فى القرون الأولى من عصور الازدهار العلمى ؛ اذ ما كاد القـرن السـادس الهجـرى ينتصف حتى بدأت العوامل ، التى كانت تدفع تيارات العلوم الى الزحف الى الأمام ـ تضعف كثيرا عما كانت عليه فى القرنين الثالث والرابع ، وسبب ذلك ازدياد عناصر الفوضى والاضطراب وانتشار بواعث الفتنـة بين الحكام المستقلين ، ثم بين هؤلاء الحكام أنفسهم وخليفة (بغداد) ، الذى لم يبق له من سلطان الخلافة الا اسمها ، مما أفقد النشاط العلمى كثيرا من الحوافز الطبية ، وأدوات التشجيع والنمو ، وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين العصر الذهبى للمأمون وما وصل اليه الحال فى القرنين السادس والسابع قد ضعفت، لذلك

---

(١) (بيمارستان) لفظة فارسية ، استعملها العرب ، ومعناها (مجمع المرضى ؛ المستشفى) لان « بيمار » معناه المريض ، « وستان » : الموضع ، وأول من صنعه (بقراط) الحكيم اليونانى ، وكان يسميه (اخشندوكين) .

توقفت قوة الدفع ، ولكن ليس معنى هذا أن الحـركة العلمية قد جمدت تماما ، وأن العلم العربى قد توقف فعلا ، ذلك لأن ومضات قوية سريعة كانت تلمع هنا وهناك ، فهى ما تلبث أن تخبو وتنطفىء فى مكان ، حتى تشرق وتضىء فى مكان آخر • وقد عاش ياقوت فى الربع الأخير من القرن السادس ، وامتدت حياته الى نهاية الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، فحيـاته جمعت بين قرنين من قرون التخلف العلمى والحضارى بالنسبة الى القرون السابقة ، التى ازدهرت فيها الحضارة العربية الاسلامية ، فمثلا نرى القرن السابع قد شهد مصرع الخلافة العباسية فى بغداد ، والقضاء على كثير من معالم الحضارة العربية الاسلامية على أيدى التتار •

وكان التأليف فى العـلوم الجغرافيـة قد بدأ يبرز فى اطار لامع ، وفى صورة واضحة زاهية ، منذ القرن الثالث الهجرى بظهور طائفة من الجغرافيين البارزين ، منهم جغرافيو المدرسـة اليونانيـة والزيجات الكبرى كالخـوارزمى والبتـانى والجغـرافيون اللغويون كهشـام بن الكلبى وأبى زيد السـيرافى ، وجغـرافيو المدرسـة الكلاسيكية كالبلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، ونلاحظ فى الفترة التى عاش فيها ياقوت فى العصر العباسى الثانى ، أو فى العصر السلجوقى الأول ــ أن العلم العربى أخذ يضعف تدريجا ، وقد بدأت مظاهر الضعف تظهر بشكل واضح منذ القرن السابع ، فى هذه الفترة من تاريخ العلم بدأ ياقوت حيـاته العلميـة بالرحـلة

والأسفار في تجارة سيده ، ولكنه أثناء ذلك وجد نفسه مدفوعا بقوة ذاتية ، منبعثة من أعماق نفسه الى الاشتغال بنواح ، لا تمت بأى صلة الى العمليات التجارية ، وحساب الأرباح والخسائر ، فاندفع بهذه القوة الى التعرف على أسماء الأمكنة والبقاع والبلدان ، التى يمر بها وما توالى عليها من أحداث ، ومن نشأ فيها ، أو اتخذها دار اقامة من العلماء والأدباء ، وبهذه القوة أيضا أضحى مشغوفا بالالمام بمعلومات وافية عن كل هذه الأشياء ، وكان يسجل مايستحق التسجيل فى مذكراته ، ثم سيطرت عليه رغبة عارمة فى التردد على دكاكين الوراقين فى كل بلد ، للاطلاع على ما فيها من مراجع ومخطوطات جغرافية ، وكان يبذل بسخاء فى شراء بعضها ؛ للتزود منها بعد عودته الى بغداد ، كما كان يتردد على خزائن الكتب المشهورة ، وفى مقدمتها مكتبات (مرو) .

كان ياقوت يفعل ذلك بدافع من الرغبة الملحة فى تزويد نفسه بالمعارف الجغرافية ، والاستعداد الفطرى لهذا النوع من الدراسة العلمية ، وأخذ تفوقه يظهر واضحا فى علوم الجغرافية ، ولا شك أنه كان متأثرا فى ذلك بعوامل مختلفة ، لا تمت كثيرا بصلة الى عصره ، كان متأثرا بالعلماء الذين سبقوه فى هذا الميدان ، كما كان متأثرا بميوله الخلاقة ودوافعه النفسية ؛ لذلك خطا ياقوت بالتأليف الجغرافى فى عصره خطوات فسيحة، متخطيا كل الحواجز، التى تحول بينه وبين الأصالة والابتكار فمضى فى طريقه يتأمل ، ويلاحظ ، ويدرس ، ويؤلف .

ومن الراجح أن حياته بدأت ببداية عصر الناصر لدين الله وولده وحفيده فى بغداد ، فقد تولى أبو العباس أحمد بن المستضىء خلافة بغداد فى سنة ٥٧٥ هـ ، وقد طالت مدة خلافته ، التى استمرت ستة وأربعين عاما ، وأطلق على نفسه لقب الناصر لدين الله، ويبدو من قصة حياة هذا الخليفة العباسى أنه كان طموحا مقداما ، يجرى الدم العربى الحر الجرىء فى عروقه ولكن هذه البداية الطيبة لم تلبث الا قليلاً ؛ اذ انقلب طموحه طمعا وحقداً ، واقدامه جبنا شائنا ، وقد مهد لهذه النهاية المزرية بارتكابه خطأين جسيمين: الأول يتمثل فى استعانته بشاهات خوارزم للقضاء على نفوذ السلجوقيين الذى كان يؤرقه ، ويقض مضجعه ، وقد نسى وهو يرتكب هذا الخطأ أنه لجأ الى دولة فتية ناهضة ، لها أطماع واسعة فى الخلافة نفسها ، فكان مثله فى ذلك كمثل المستجير من الرمضاء بالنار .

وأما الخطأ الثانى الذى لا يمكن أن يغفره له التاريخ فهو اتصاله بالمغول ؛ لكى يعاونوه على التخلص من (خوارزم شاه محمد) وهو أحد شاهات خوارزم الناهضين ومن ذوى البأس والشجاعة ، وكان يعلم أن الناصر يريد التخلص منه ، فسعى فى الحصول على فتوى من طائفة من أشهر علماء المسلمين ، تقضى بخلع الناصر ، واقامة خليفة أصلح منه للمسلمين من العلويين ، يتولى زمام الخلافة فى بغداد ، واعتمد (خوارزم شاه محمد) على

هذه الفتوى ، وتحرك فى عسكر جرار نحو بغداد ، يريد الاستيلاء عليها ، وعندئذ فقد الناصر صوابه ، وجانبه السداد فى الرأى ، وحسن التصرف فى الأمر ، واحسان المشورة ، وتغلب على تفكيره سلطان الهوى والرغبة فى الحكم ، فلجأ من فوره الى (جنكيزخان) سلطان المغول وقائدهم ، ولقد كان فى هذا التصرف الأثيم بداية النهاية لحكم خلفاء بنى العباس ، وزوال سيطرتهم الباقية ، والقضاء التام على خلافتهم فى دار السلام ؟ اذ ما كاد رسل الناصر يصلون الى سلطان التتر ، حتى تحول المد التترى نحو الغرب ، والحقيقة أن رسل الناصر وان كانوا قد نبهوا العاهل التترى الكبير الى انهاء مصير الخلافة المتداعية والاستيلاء على ميراثها - الا أن التتر أنفسهم لم يكونوا فى غفلة عن سلب ميراث الخلافة ، ولكن الناصر قد هيأ لهم الفرصة للاسراع فى تنفيذ مخططهم بغزو جميع أراضى الخلافة العباسية فى وقت لم يكن موضوعا فى حسابهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف نحو بغداد ، وحاربوا (شاه خوارزم) ، وقضوا على مملكته الناهضة ، كما استولوا على الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى ودخلوا بغداد سنة (٦٥٦ هـ) ، وكان آخر خليفة للعباسيين فى بغداد وقتئذ - المستعصم بالله ، وقد روى أن (هولاكو) أمر بقتله مع ولديه وستة من الخصيان ، ويقول (دوسون) : « ان تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ، ووحشيتهم لا تترك الا صورا بغيضة ، وأن حكمهم كان انتصارا للفوضى والفساد » .

وقد يختلف سير (هنرى هاوارت) مع (دوسون) فى وصف المغول ، ولكن النتائج المترتبة على حكمهما تكاد تكون واحـدة ، يقول سير (هنرى هاوارت) : « ان المغـول جنس من الأجناس ، التى درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش ، يجرى فى دمائهم مزيج قوى من الحـديد ، ينبعث فى فترات منظمـة ، ليقضى على الترف والثراء اللذين ســـادا فى ذلك العصر ، وتحطيم الفـن والثقافة ، التى لا تترعرع الا فى ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن، ويحول هذا الجنان الذى جهد الانسان فى غرسها وتعهدها ـ الى صحراء جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، أو أشبه بآلة تدمير وتخريب ، أتت على شعوب كانت غارقة فى بحار من الترف والنعيم ، فذهبت ضحية غارات المغول » .

هذه الصورة السريعة تلقى ضوءا على عصر ياقوت ، فقد كان عصرا مشحونا بعـوامل الفتن والاضطرابات والفوضى ، وفى هذا الجو المضطرب لا يمكن أن تتوافر أسباب الهدوء وعوامل الاطمئنان النفسى ، والتشـجيع المـادى ، وهى بواعث البحث العلمى ، التى تهيىء فرص الدراسة للعلماء ، وسيتضح لنا فيما بعد من سيرة ياقوت أنه فر هاربا من (مرو) أمام التتار خوفا على حياته ، وبالرغم من كل ذلك رأينا ياقوتا يخرج على المألوف فى عصره ، ويخطو بالتأليف الجغرافى خطوات عظيمـة ، لفتت نظر البـاحثين ، يقـول العـالم الايطالى (ألدوميلى) فى كتابه « العلم عند العرب وأثره فى تطور

العلم العالمى » : « ان كتب الجغرافية تضاءلت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (الميلاديين) بصورة ملحوظة ، بعد نمو وانتعاش ظاهرين ، وذلك بالرغم من أننا نجد فى هذا العصر كتابا من أعظم الكتب ، الذى صنف فى بابه ، ذلك الكتاب الزاخر الكبير ، والقاموس الجغرافى العظيم (معجم البلدان) الذى صنفه أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين البغدادى » • ونلاحظ أن «ألدوميلى» لا ينسى أن يشير فى كتابه الى أن ياقوتا قد نقل قسما كبيرا من كتابه من مؤلفين سابقين وعندما نرجع الى حديث ياقوت عن هؤلاء المؤلفين نراه لم يحاول تحديد القدر الذى نقله ، وينبغى أن نشير الى أن عصر ياقوت لم يكن مجدبا كل الاجداب ، ففيه برز فى المشرق والمغرب معا العالم النباتى والعشاب المشهور (ابن البيطار) المتوفى سنة (٦٤٦ هـ) والطبيب النباتى والرحالة عبداللطيف البغدادى (٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ) ، وهذا مما يرجح أن تيار العلم العربى فى عصر ياقوت كان ما يزال سائرا فى طريقه ، ولكن بخطوات بطيئة ، وفى صور باهتة أحيانا كثيرة وزاهية أحيانا قليلة ، وذلك بالنسبة لسيره فى عصور الازدهار السابقة •

ياقوت

نشأته وحياته

نشأ ياقوت عالما موسوعيا ، شأنه فى ذلك شأن غيره من علماء سلفنا الصالح ، الذين وضعوا أسس الحضارة العربية الاسلامية .

والموسوعية بالنسبة لعلمائنا القدامى كانت الطابع الذى يتميز به المبرزون والراسخون فىالعلم منهم، وعصرنا الحاضر وان برزت فيه فكرة التخصص فى العلم أو فى بعض فروعه ـ الا أن اتجاها جديدا بدأ يتضح ، ولا يمكن أن نغفله فى مجال الدراسات العلمية العالية فى الدول الأوربية المتقدمة ، وهو يبدو لنا من أن العلماء فى هذه الدول يعلقون اليوم أهمية كبرى على أن العالم أو الدارس وان كان ينبغى أن يركز على مادة التخصص أو فرع التخصص ـ الا أن ذلك يقتضيه فى الوقت نفسه أن يلم الماما جيدا بكل مايتصل بهذه المادة أو ذلك الفرع من العلم من معلومات وثقافات قريبة أو بعيدة ، ويثور العلماء اليوم بصفة خاصة فى الاتحاد السوفييتى على فكرة التخصص الضيق ، ويرون أن المهندس مثلا لا بد أن يعد اعدادا عمليا ونظريا واسعا ، وأن يدرب على النظرة الفلسفية الى الحياة ، ولهذا يجب أن يدرس الفلسفة العملية ، وأن يتعمق فى العرف على أسس علم الادارة ، والاقتصاد السياسى ، والاقتصاد العملى ، وأن يضيف فضلا عن ذلك الى مادة التخصص التىاختارها معلومات واسعة ، تتميز بالجدة والقيمة الفنية ، حتى يكون مبدعا ،

ولا شـك فى أن هذه الاتجـاهات من ملامح الموســـوعية العـربية الاسلامية •

وانه لمن الانصاف لعلمائنا أن تنبه على أنهم كانوا يلمون الماما كافيا وواسعا بمعارف كثيرة متنوعة فى استقصاء وعمق ، ولكن كان يغلب على كل منهم بالرغم من ذلك نوع خاص من المعرفة ، فابن سينا برز فى الطب وان كان يعد من الفلاسفة ؛ لأن الحكمة الطبية شديدة الاتصال بالحكمة النفسية ، ومن أجل ذلك عرف عن ابن سينا أنه كان يستخدم التحليل النفسى فى علاج بعض الأمراض ، وهو أسلوب من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

كذلك نجد (الرازى) طبيبا يشار اليه بالبنان ، وان كان فى الوقت نفسه كيمائيا بارعا ، وفنانا يعتمـد على نغمـات الموسيقى فى علاج أنواع من الأمراض ، وكذلك يعتبر هذا الاتجاه فى العلاج الطبى من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

وعلى هذا الأساس كان العرب يفهمون الموسوعية فى العلم ، مما ساعدهم على الخلق والابتكار فيـه ، وقد كان ياقوت الحموى عالما من علماء العرب الذين جمعوا بين معارف كثيرة ، فقد جمع بين الجغرافية والأدب وعلوم الشريعة واللغـة العـربية وغيرها ، ولكن شهرته كانت بارزة فى علوم الجغرافية ، ومن المؤكد أن اهتمامه بفن التراجم كان وثيق الصلة بطريقته التى جـرى عليها فى التعريف بالأماكن والبلدان ؛ لأنه كان حريصا على تسجيل أسـماء العلمـاء

والأدباء ، الذين ينسبون اليها ، ولعله رأى أن المجال لم يتسع امامه فى معجم البلدان للتراجم المفصلة للعلماء والأدباء وأمثالهم - فأحب أن يفرد لهم ولغيرهم معجما خاصا ، سماه (معجم الأدباء) .

وياقوت هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب البغدادى ، وقيل ابن عبدالله الرومى الجنس ، ونسبته الى حماة وان كان بغدادى الدار ، ولد سنة (٥٧٥ هـ) وقيل سنة (٥٧٤ هـ) ببلاد الروم (آسيا الصغرى أو بلاد الأناضول) ثم أسر وهو صغير من بلده فقيل له (الرومى) ، وقد يكون من المرجح أن أباه (عبد الله الرومى) قد أسره الروم ، وعاش زمانا فى بلادهم ، وليس فى ذلك موضع لعجب أو استغراب ، فان طبيعة النضال والكفاح القائمة بين القومية العربية وأعدائها من الروم وغيرهم فى سبيل الحفاظ على كيانها - كانت تقتضى حتما التحاما مسلحا عنيفا ومستمرا بين الجانبين : الروم والعرب ، وليس ببعيد أن يكون عبد الله الرومى قد اسره الروم من قبل ، وظل زمانا فى بلادهم ، حتى ولد له ياقوت فى أرض الروم ، ثم أسره العرب وهو طفل ، فعاد الى وطن ابيه ، ولكى يسير فى خط حياته المرسوم ، اشتراه تاجر بغدادى يدعى (عسكر ابن أبى نصر الحموى) ، فنسب ياقوت اليه أو الى حماة ، كما أشرنا من قبل ، ولذلك سمى (ياقوتا الحموى) .

ويزعم (ألدو ميلى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) : أنه ولد من أبوين يونانيين فى (آسيا الصغرى) وتوفى فى حلب

سنة (١٢٢٩ م) ، ولكنه لم يأت بما ينهض دليلا على صحة زعمه ، كما يزعم الأستاذ (جاك• س• ريسلر) بالمعهد الاسلامى بباريس فى كتابه (الحضارة العربية) أن ياقوتا كان عبدا يونانيا ، ثم أعتق ، وتجول فى أنحاء العالم العربى ، وشرع يعلم نفسه بنفسه ، ويلاحظ أن الأستاذ (ريسلر) لم يشر الى صلة ياقوت بعسكر بن أبى نصر الحموى ، وهى صلة كانت على جانب كبير من الأهميـة فى تطوير حياة ياقوت العلمية ، وتمكينه من القيـام برحلاته التجـارية ، التى استغلها فى التأمل العلمى ، والتعرف على البلدان ، ثم يقول (ريسلر) وانه اطلع على مكتبات (طشقند) و (مرو) و (بلخ) ، وعرف كل مافيها من كنوز المعرفة ، وبخاصة فى ميدان العلوم الجغرافية ، وقد فرض عليه وهو ذو عقـل مبتكر أن يشـتغل بنسخ الكتب ، لكى يعيش ، والحقيقة أن (ياقوتاً) لم يلجأ الى الاشتغال بالنسخ الا بعد أن وقعت الجفوة بينه وبين سيده ، مما سنشير اليه فى موضعه ، ثم انه لم ينسخ الكتب من أجل أن يعيش فحسب ، وانما فعل ذلك رغبة فى تحصيل المعرفة ، والاطلاع على المخطوطات النادرة •

٢ ـ شخصية ياقوت وما يوحى اليه اسمه :

يتميز ياقوت بسعة الأفق والاطلاع الواسع : فقد استطاع أن يضع فى معجمه لبنات قوية فى بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية فى عصره ، واسمه وان كان يحمل معنى العبودية والاسترقاق ـ الا أن ذلك لم يغض من قيمته كعالم عربى مسلم ، أسهم فى احياء التراث

العربى الاسلامى، وقد جرت العادة عند العرب أن يطلقوا على الأرقاء أسماء الحجارة الكريمة وبعض أنواع الطيب ، كالزمرد والياقوت والكافور ، وقد حاول علامتنا الجغرافى بعد أن أعتقه سيده ـ أن يستبدل باسمه اسما آخر ، لا يحمل معنى العبودية الذى يكرهه ، فاختار لنفسه اسم (يعقوب) ، ولكنه أخفق فى محاولته ؟ اذ لزمه اسمه القديم ولصق به ، ولم يعرفه معاصروه الا به ، ولم تذكره الدوائر العلمية الا بهذا الأسم الذى أراد التنصل منه .

ومن الواضح أن نسبته وهى (الرومى) تشعر بأنه رومى الأصل ، نشأ أول ما نشأ فى بلاد الدولة البيزنطية ، وربما كان اغريقى الأصل ، وقد أشرنا الى هذه النسبة من قبل ، ويمكن أن نضيف الى ذلك أنه كان من تقاليد العرب التى تتسم بالطابع الانسانى ـ أنهم اذا وجدوا أنفسهم أمام شخص مجهول الأب ذكروه بأنه (ابن عبد الله) ، وهذا ما حدث بالنسبة لياقوت فى رأى بعض الباحثين ، وأنا لا أستبعد ما سبق أن حققته من قبل ، وقد شارك (ياقوت) فى اسمه مشاركة تامة اثنان من علماء العرب ، أولهما أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى ، وهو شاعر وأديب توفى سنة (٦٢٢ هـ ـ ١٢٢٥ م) والثانى ياقوت بن عبدالله الرومى ، وقد عاش بالموصل ، وكان أديبا نحويا وخطاطا ، وقيل انه ينسب الى مدرسة ابن البواب المشهور ، واتفاق عالمين فى الاسم مع ياقوت ليس أمرا غريبا ، وقد وقع هذا التوافق بالنسبة الى علماء كثيرين ، ومنهم

جابر بن حيان ، وكان لتعــدد اسم جابر أثر كبير فى تلك الحملة التى شنها بعض المستشرقين وفى مقدمتهم (ألدوميلى الايطالى) على الوجود التاريخى لجابر بن حيان ، والقاء ظلال كثيفة من الشـك فى وجود (أبو الكيميا العربية) • ولياقوت نسـبة أخـرى وهى (الحموى) وقد استعارها من سيده التاجر (عســكر بن أبى نصر الحموى) ، وكان من أهل حماة ، ثم انتقل الى (بغداد) ، وأقام فيها •

وقد أفاد ياقوت من صحبـة سـيده (عســكر بن أبى نصر الحموى) ، فقد عنى بتعليمه وتدريبه على الأسفار ، مما كان له أثر عظيم فى مستقبله العلمى ؛ اذ كانت هذه الأسفار تستهلك القليل من وقته فى ممارسة الشئون التجارية لسيده ، وأما الكثير منه فقد كان يقضيه فى دكاكين الوراقين ، واقتناء الكتب وجمعها ونسخ بعضها اذا تعذر الحصول عليها •

وقد يبدو هذا أمرا عجيبا فى حياة ياقوت بعد أن أعده سيده للتجارة ، وشحن ذهنه بالثقافات المتصلة بالأعمال التجـارية ، غير أن هذا قد يتبدد اذا علمنا أن الرحلات والأسفار عند العرب كانت من دواعى التأمل العلمى هذا الى ما لدواعى الفطرة والميول الطبيعية من أثر فى الاســتجابة ، التى وجهت ياقـوتا ، ولذلك نراه يعطى دكاكين الوراقين ، وملاحظة الأماكن التى يمر بها ، والتعرف عليها - أكبر نصيب من عنايته واهتمامه ، ويركز على الاطلاع على تلك

الثقافات التى تلائم مزاجه الفطرى ، تلك هى الثقافات الجغرافية ، التى أولع بها ، واستمر حاله على هذا النحو وقتا ، ليس بالقصير ، الى أن وقعت بينه وبين سيده جفوة مفاجئة ، أعقبتها القطيعة وانفصام عرا الروابط التى كانت بينهما ، وانتهى الأمر بعتق ياقوت ، واطلاقه من أسر عبوديته سنة (٥٩٦ هـ) •

وعندئذ وجد ياقوت نفسه حرا طليقا ، واتسع لديه الوقت ، الذى عاونه على تحقيق مآربه واشباع ميوله ، فاغتنمها فرصة ذهبية ، وراح يعمل فى صبر دائب ونشاط متصل على الاطلاع والبحث والدراسة ، فاشتغل أولا بنسخ الكتب لقاء أجر يتقاضاه ليعيش منه ، وليزود مكتبته بما ليس فيها ، واستمر فترة من حياته يشق طريقه مكافحا فى سبيل لقمة العيش والعلم معا ، ولو قدر لياقوت أن يستمر طويلا سائرا فى هذا الخط ، الذى ألجأه اليه سيده لكان له شأن آخر ، ولكن ما تلبث العلاقات أن تعود بينه وبين سيده على نحو ما كانت ، ويتصل ما انقطع بينهما لأن عسكرا الحموى شعر بعد هجر ياقوت له ـ بأنه وقع فى خطأ جسيم ، وأنه ينبغى أن يصلح خطأه ـ بأن يحاول استرجاع ياقوت ، فيستدعيه ويسترضيه ، ويعيده الى خدمته معززا مكرما ، ثم يعطيه مالا وتجارة واسعة ، ويأمره بالسفر ، ويطول سفر ياقوت فى هذه المرة فوق العادة ، فقد أغرته الأرباح الطائلة ، التى ظلت تتدفق الى جيبه ثم يعود من سفره بعد غيبة طويلة الى بغداد ، ليجد سيده قد توفاه

الله ، ويستطيع ياقوت أن يرضى زوج سيده وأولاده ببعض المال، ويحتجز الباقى لنفسه ، فيصبح بعد عشية وضحاها صاحب رأس مال ضخم ، ولكن ماذا يصنع بهذا المال ؟ انه لم يفكر كثيرا ؛ لأنه وجد أن تجارة الكتب هى السبيل الى تحقيق آماله ، ولعله اختار هذا النوع من التجارة ، ليجمع بين الخبرة التى كسبها من الاتجار فى مال سيده واشباع دوافعه النفسية وميوله الى القراءة والاطلاع على أكبر عدد ممكن من المراجع والمخطوطات •

وقد كانت الوراقة يومئذ المدرسة الكبرى والجامعة العريقة والمعهد الذائع الصيت ؛ لأنه كانت تتوافر فيها وقتئذ جميع أدوات التثقيف والتحصيل العلمى ، فوجد ياقوت فى رحابها كل ما ساعده على ارضاء طموحه العلمى ، وتزويد نفسه بالثقافات الجغرافية ، ولذلك بدأ يقوم برحلاته المشهورة •

٣ ـ رحلاته وأثرها فى مادته الجغرافية

يقال ان سيد ياقوت ـ عسكر بن أبى نصر الحموى ـ بدأ يصطحبه فى أسفاره ، وكان ما يزال حدثا صغيرا ، فلما اكتمل جسمه ونضج عقله أخذ يبعث به وحده فى أسفار كثيرة ، وكان ياقوت فى أول عهده برحلاته يكثر من التردد على جزيرة (كيش) وقيل (كرش) « Krish » ، وتقع فى بحر (عمان) فى الخليج العربى ، وكانت وقتئذ تعتبر من أهم المراكز التجارية العربية

الاسلامية ؛ اذ كان يفد اليها كثير من تجار العالم العربى الاسلامى وغيره من الأقطار ، حتى أصبحت مركزا كبيرا لتجمع أعداد كبيرة من ممثلى التجار من مختلف الأقطار والشعوب ، وقد اكتسبت هذه الجزيرة تلك الشـهرة لموقعها التجارى الفـريد ، ولتوافر الخصب فيها ، فقد عرفت بكثرة نخيلها وثمارها وعيونها التى يتدفق منها الماء العذب ، مما كان يقوم بحاجة أهلهـا وتلك الأعـداد الكبيرة من التجـار الذين كانوا يأتون اليها من بلدان شتى ، ويجتمعون فيها للتبادل التجارى •

ومما يؤكد ما كان لهذه الجزيرة العجيبة من شهرة تجارية ، وصل خبرها الى العالم الغربى ـ أن الرحالة (بنيامين التُطيلى) Benjamin of Tuoela قد زارهـا قبـل ياقوت ، فسر منهـا ، ومدحها كثيرا فى مذكراته ، مبينا أهميتها التجارية ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبعد مائة عام من زيارة (بنيامين) لها أى فى القرن الثالث عشر ، وفى النصف الثـانى منه ـ زارها (ماركوبولو) البندقى Marco Polo

وما لبثت هذه الجزيرة العربية تتمتع بشـهرتها زمانا ، حتى بدأت تفقد أهميتها التجارية تدريجا ، بسبب منافسة (هرمز) لها على الساحل الفارسى للخليج العربى • وفى أثناء ذلك بدأ ياقوت يقوم بعدد من الرحلات ، وبخاصة بعد انفصاله من سيده ، فكانت

رحلته الأولى في سنة (٦١٠ هـ) ، وقد زار خلالها تبريز والموصل والشام ومصر .

وفي سـنة (٦١٣ هـ) خرج من دمشـق الى حلب فاربل فارمنيه ، ومنها الى تبريز ، ثم ايران الشرقية ، وقيل انه أمضى عامين بنيسابور وأثناء اقامته بها علق قلبه حب فتاة من أهلها ، وكان أول حب له ، وفي رواية أخرى تقول : انه لما قدم هذه المدينة طاب له المقام فيها ، فاشترى جارية تركية من أحد أسواقها ، لم ير أن الله تعالى قد خلق أحسن منها خلقا وخلقا ، وقد ارتاح اليها ، وصادفت من نفسه محلا كريما ، ومن قلبه شغفا وحبا ، غير أنه لم يلبث أن أبطرته النعمة ، فاحتج بضيق ذات اليد وباعها ، فامتنع عليه القرار ، وجانب المأكول والمشروب ، حتى أشرفت نفسه على البوار ، فأشار عليه النصحاء باسترجاعها ، فعمد الى ذلك، ولكنه أخفق، ولم يجد سبيلا الى تحقيق غايته ، لأن الذي اشتراها كان غنيـا ، وقد حلت في قلبه ، ونالت منه أضعاف ما نالت من قلب ياقوت ، فأسف أشد الأسف وندم غاية الندم ، ثم لم يلبث أن ترك (نيسابور) متجهـا الى (هراة) و (سرخس) ، حتى بلغ (مرو) ، وفي هذه المدينة أمضى عامين ، حيث أعجبته مكتباتها المشهورة ، فظل يتنقل بينها ، ويتردد عليها ، مستغلا كل أوقاته في القـراءة والاطلاع وتدوين المذكرات ، ويبدو أن (ياقوتا) قد اطمـأن كثيرا الى (مرو) ، فأثنى عليها كل الثناء ، وسره المقام فيها ، بالرغم مما تناقله الرواة وتحدثوا

به عن بخل أهل هذه المدينــة ، حتى ذمهــا الجاحظ فى بخــلائه ؟ ولكنه قرر الاقامة فيها وقضــاء بقية أيامه ، كما روى أنه فكر فيها لأول مرة فى وضع (معجم البلدان) سنة (٦١٥ هـ - ١٢١٩ م) غير أن الرياح تأتى أحيانا بما لا تشتهى السفن ، فقد أفسد عليــه المقام فيها والعمل على تجميع مواد معجمــه المشــهور - ما نقل الى مسامعه من فظائع التتار ، واجتياحهم لكثير من البلاد الاســلامية ، واستيلائهم على بخارى وسمرقند ، وارتكابهم أشنع الجرائم ، ففر هائما على وجهه من مرو قاصدا خراسان ، وقد كان لهذا الهرب المفاجىء من مرو تأثير كبير على مادته العلمية الجغرافية ، التى بدأ يجمعها استعدادا لوضع كتابه المشهور (معجم البلدان) ، اذ ترك هذه المادة مرغما فى مكتبات مرو • وفى طريقه مر بالرى وقزوين وتبريز الى أن بلغ الموصل ، فدخلها فقيرا معدما ، لا يملك شيئا ، ولكنه لم يلبث أن غادرها متجها الى (حلب) حيث وجد فى عطف الوزير الفيلسوف (القفطى) وزير الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى ما ساعده على تحسين حاله ، وفى كنف هذا الوزير العالم الفيلسوف صاحب كتاب (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) وجد الفرصة سانحة للعمل السريع فى اعداد مادة معجمه من جديد ، واســتمر يعمل جادا نشيطا ، حتى أتم التسويدة الأولى للمعجم فى سنة (٦٢١ هـ - ١٢٢٤ م) ، ثم رفعها اليه ، ومن الواضح أن (ياقوتا) كان يستهدف من ذلك الحصول على اجازة الوزير لكتابه ، وأن يكسب رضاه ،

لأنه شــمله بعطفه ، وقد ذكر هذا الوزير ، وكان يعرف بالقاضى الأكرم ، وهو جمال الدين بن الحسن على بن يوسف بن ابراهيم ابن عبد الواحد الشيبانى فى كتابه (انباء الرواة على أبناء النحاة) أن ياقوتا كتب اليه رسالة من الموصل بعد وصوله اليها هـاربا من التتر ، يصف فيها حاله ، وما جرى له معهم ، وهو يبدأ رســالته بما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أدام الله على العـالم وأهليه والاســلام وبنيــه ـ ما ســوغهم وحبـاهم ومنحهم وأعطاهم من ســبوغ ظل المولى الوزير أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتـداره ، ونصر ألويتــه وأعـلامه ، وأجرى باجراء الأرزاق فى الآفاق أقلامه ، وأطال بقـاه ، ورفع الى عليين علاه ، فى نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عـددها ولا عديدها ، وأدام دولته للدنيا والدين ـ يلم شعثه ، ويرفع مناره ، ويحسن بحسن أثره آثاره ، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ويضاعف أنواره ، وأسبغ ظله للعلوم وأهلها ، وللآداب ومنتحلها والفضائل وحاملها ...

ثم يقول : وكان المملوك لما فارق الجناب الشريف ، وانفصل من مقر العز اللباب والفضل المنيف ، أراد استعتاب الدهر الصالح، واستدرار (خلف) الزمان الغشوم الجامح ، اغترارا بأن الحـركة

بركة ، والاغتراب داعية الاكتســاب ، والمقام على الاقتار ذل واتقام •

إن الليالىَ والأيام لو سُئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرَا

وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر ، أو ادراك أرب ، ومع عبوس الحظ ابتسـام الدهـر الفظ ، ولم أزل مع الزمان فى تقييد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالاياب •••

ثم يقـول : الى أن حدث بخراسـان ما حدث من الخراب والويلَ المبير والتباب ، وكانت ــ لعمر الله ــ بلادا مونقـة الأرجاء رائعة الانحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة ، قد تغنت أطيـارها ، فتمايلت طربا أشـجارها ، وبكت أنهـارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمهـــا ••• الى أن يقول : فجاس خلال تلك الديار أهل الـكفر والالحـاد ، وتحكم فى تلك الأستار أهل الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو من السـطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصـداء والغـربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيها الريح السموم ، فانا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت فى العضـد ، وتشيب الولد ، وتنخب لب الجليد ، وتسـود القلب ، وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الأوبة الى حيث تسـتقر فيه النفس بالأمن آيسـا ••• فتوصـل ، وما كاد حتى اسـتقر بالموصـل ، بعد مقاسـاة أخطار ، وابتـلاء

واصطبار » ••• ويقـول السيد أمين الخانجى فى كتـابه (منجم العمران) عنها : وهى رسالة طويلة ، ذكر فيها تجوله فى الأصقاع ، وتنقله فى البلاد ومن أرادها فليرجع الى وفيات الأعيان لابن خلكان•

ويهمنا ونحن أمام رسالة نسبت الى ياقوت ، أن نقف وقفة قصيرة ؛ لأنها وثيقة تاريخية تلقى ضوءا على أحداث العصر ، ويمكن أن نستنبط منها ما يلى :

١ ـ لقد رسم ياقوت فى هذه الرسالة صورة واضحة لما كان يلقيـه التتر (١) فى قلوب النـاس من الرعب والفزع ، ثم ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ، وما أصاب أهلها ونزل بهم من خطوب وويلات ، وما تعرض له ياقوت نفسه من الأخطار ، التى كانت تلاحقه الى أن وصل الى الموصل •

٢ ـ وواضح فى الرسالة اهتمام ياقوت بوصف أحوال البلاد الاسلامية ، قبل اجتياح التتار لهـا ، وقد كانت تنعم بما فيهـا من

---

(١) (التتر والتتار) : اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور ، وقد ورد فى الكتابات الاراخونية القديمة ، التى ترجع الى القرن الثامن الميلادى ذكر طائفتين من القبائل التترية ، وهما التتر التسـع ، والتتر الثـلاثون ، ويذهب (Thomsen) الى ان اسم تتر كان يطلق فى ذلك العهد على المغل او فريق منهم ، وليس على الشعب التركى ، ويقول : ان هؤلاء التتر كانوا يعيشون على وجه التقريب فى الجنوب الغربى من بحيرة (بيكال) واطلق ابن الاثير فى كتابه (طبعة تورنبرج) جـ ٢ ص ١٧٨ وما بعدها هذا الاسم على اسلاف (جنكيز خان) ، ويقال ان (جنكيزخان) نفسه استعمل هذا الاسم رسميا .

جنات ذات أعنـاب ، وما تميز به هواؤها من اعتـدال ولطف ، ثم ما صارت اليه بعد أن غـزتها جحافل التتار ، وأحدثتـه فيها من تخريب وتدمير وقتل وسفك دماء ، وقد وصف التتر بأنهم من أهل الكفر والزيغ والالحاد ؛ لأنه لا يفعل بأرض الاسلام وأهلها مثل ما فعلوه الا الكافرون الضـالون ، ممـا يدل على أن ياقوتا كان ذا عقيدة اسلامية صافية ، ويؤيد ذلك ما أبداه من أسف شديد على تفكك عرا الدولة العربية الاسلامية ، وانهيارها الساحق أمام هذه الجحافل الملحدة المتبربرة ، ثم حزنه الدفين العميق على تركه مدينة (مرو) الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وهو الذى وصف كتبها النادرة من قبل بأنها أنسته الأهل والأحباب والوطن والأصحاب •

٣ ـ وياقوت بالرغم من أنه رومى الأصـــل ـ الا أن لغتـه العربية فى الكتابة ، قد وصلت الى مستوى يجارى فيه أدباء عصره فهو يؤثر السجع ويلتزمه ، ويستخدم المحسنات البديعية ، ويستشهد بالشعر ، فلم يخرج فى ذلك على مألوف عصره ، وان بدا متكلفا بعض التكلف •

٤ ـ وياقوت وهو العالم الكبير والجغرافى العظيم ـ يزل زلة كبيرة فى رسالته؛ اذ جعل نفسه مملوكا لوزير حلب ، والمعروف أن سيده قد أطلقه منذ زمن بعيد ، وتمتع بحريته وقتا ليس بالقصير ، ولكن يبدو انه لم ينس عبوديته الأولى ، وكان ينبغى عليه أن يحرر نفسه من كل قيد من قيود الرق ، بالرغم من كل الاعتبارات التى

تحمله على استعمال صيغ وعبارات مخصوصة فى مخاطبة من يظنهم أعلى مقاما وأسمى مكانة منه .

٥ ـ ولكننا نلاحظ أن أسف ياقوت لم يكن كافيا ، بالنسبة لانهيار الممالك الاسلامية ، وأقاليم الخلافة العباسية الكبرى أمام التتر ؛ اذ كان من واجبه وواجب غيره من الكتاب والمؤلفين الذين كانوا يندبون وقتئذ حظ الخلافة العباسية ـ أن يدعوا فى كتابتهم الى تكتل العرب والمسلمين ، ووقوفهم صفا واحدا ضد أعدائهم ، ولا يمكن أن نقبل عذر أصحاب الأقلام آنئذ ، بأنهم لم يكونوا على درجة من الوعى والنضج السياسى ـ تتيح لهم أن يوجهوا كتاباتهم وجهة وطنية قومية ، بدليل أن ياقوتا نفسه كان متعصبا ضد على كرم الله وجهه ، ويقال انه طالع كتب (الخوارج) (١) ، واقتنع

---

(١) (الخوارج)

جماعة من المسلمين ، كانوا فى أول امرهم من رجال على كرم الله وجهه ، يحاربون معه ضد معاوية فى الشام ، ولما نشأت بدعة التحكيم ـ وافقوا عليها اول الامر ، ثم رجعوا عنها ، فقالوا : لا حكم الا لله ، واعتزلوا عليا ، ونزلوا (حروراء) بظاهر الكوفة ، ثم أوقع بهم على بالنهروان قرب المدائن سنة ٣٨ هـ لانهم كانوا يعيثون ويفسدون ، ويرتكبون المحارم ، غير انهم صاروا فيما بعد حزبا سياسيا ودينيا ، له شأنه الخطير فى التاريخ الاسلامى ، ومن آرائهم :

ـ ان الامارة يجب ألا تكون مقصورة على أسرة بعينها ، وان كل مسلم صالح لان يلى الخلافة ، متى كان متصفا بالتقوى والشجاعة .

ـ وان كل خليفة يسيء السيرة يجب عزله .

ولذلك وصفت مبادئهم السياسية بانها ديمقراطية ، اذ كانوا من هذه الناحية يستهدفون اقامة حكومة جمهورية اسلامية . =

بما فيها ، وكان يصوب آراءهم فيما ذهبوا اليه من آراء فى التحكيم وغيره .

ولما قدم دمشق اتصل بنفر من أهلها فيأحد أسواقها، وكانوا من غلاة (الشيعة) (١) ، فأخذ يناظرهم ، وجرى بينه وبينهم ، حديث ذكر فيه عليا (رضى الله عنه) بما لا يرضون ، فسخطوا عليه ، وثاروا به ، وكادوا يقتلونه ، لولا أنه أسرع فى الفرار من دمشق قاصدا حلب ، وروى أنه غادرها بعد ذلك قاصدا فلسطين

= ولكن مذهبهم الدينى يقوم غالبا على التعصب الشديد ، والاسلام بظاهر القرآن ، وانهاك الجسم بالصلاة ، والشدة على من ليس من مذهبهم من المسلمين .

ومن فرق الخوارج الازارقة ، وكانوا يقولون بتكفير المسلمين ، وهم بخلاف الاباضية ..

(١) (الشيعة) طائفة من المسلمين تؤمن بمبدأ التشيع ، وهو بدعة طارئة على المسلمين ، واول من ابتدعها (عبد الله بن سبأ اليهودى) ، وهو يهودى من اليمن ، أسلم واظهر الاسلام فى ايام عثمان رضى الله عنه ، ثم انتقل الى الحجاز ، وقام بنشر التشيع بعده (المختار بن أبى عبيد) ، وقد مالت نفوس الفرس الى آراء الشيعة ، وآمن الكثيرون منهم بهذا المذهب ، واذا كان مذهب الخوارج هو المذهب الديمقراطى فى الاسلام ، لانه يرمى الى عدم حصر الخلافة فى أسرة معينة ـ فان التشيع هو المذهب الارستقراطى لانه يرمى الى حصر الخلافة فى آل على بن أبى طالب ، والفرق بين مذهبى الشيعة والخوارج : ان مذهب الشيعة سياسى ودينى معا ، أما مذهب الخوارج فمذهب سياسى فحسب ، وترى النظرية الشيعية وجوب اتصال حق الخلافة ببيت النبوة ، فالخلافة فى رأى الشيعة منصب دينى ودنيوى ، اذ يتعين القائم فيه بتعيين الامام الذى سبقه ، مستدلين على ذلك بأن الرسول صلوات الله عليه ، قد أوصى بالخلافة الاولى للامام على ، والامام فى رأيهم معصوم ، لا تحل مخالفته ، ولا يجوز عزله .

ومصر ، ولكنه فى نهاية المطاف عاد الى حلب أخيرا ، وبدأ فيها منذ أول يناير سنة (٦٢٥ هـ ـ ١٢٢٨ م) يعمـل على تهـذيب معجم البلدان ، غير أن منيته قد عاجلته قبل أن يفرغ من عمله ، وكانت وفاته فى ٢٠ من أغسطس سنة (٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م) بخان عند أحد أبواب حلب ، ولم يتجاوز الخمسين من عمره وقيل انه وقف مكتبته الكبيرة على مسـجد ببغـداد ، وقام ابن الأثير المؤرخ بتنفيذ وصيته •

٤ ـ أساتذة ياقوت وشيوخه

أشرنا من قبل الى أن (عسكر بن أبى نصر) كان فى حاجة ماسة الى تعليم ياقوت ، لكى يضبط له حسـاب تجـارته ، وما كاد ياقوت يجلس بين أيدى المؤدبين والمعلمين ـ حتى ظهرت فطرته المخصبة ، وانكشفت ميوله واستعداداته ، فبدا تفوقه فى دراسـته واضحا ، وقد دفعه ذلك الى مزيد من الاطلاع والأخذ عن العلماء ، فكان من أساتذته المشهورين (العكبرى) الأديب اللغـوى ، شارح ديوان أبى الطيب المتنبى ، والمطلع على شرح العكبرى لهذا الديوان يلمس فيه النزعة اللغوية ، ثم كان من أساتذته وشيوخه (ابن يعيش) النحوى ، شارح كتاب المفصـل فى النحو للزمخشرى ، وهذا الشرح مشهور ، ويقع فى عدة أجـزاء ويلاحظ أن شـيوخه كانوا من اللغويين والنحويين ، لأنه أراد أن يدعم ثقافته اللغوية ، لكى يتغلب على عجمة لسانه ، ولكنه بالرغم مما بذله فى ذلك فان

لغته لم تصل الى مستوى عال من البلاغة ، ولكننا برغم ذلك نجد كتابته فى التأليف وفى انشاء الرسائل ـ وقد درسنا له نموذجا منها ـ على درجة طيبة من الاجادة الفنية .

ومن العجيب أن يروى عنه أنه كان شاعراً رقيقاً، وقد رويت له أشعار ـ وان كانت قليلة ـ الا أنها تدل على خيال مخصب وطبع أصيل ، قال الكمال الموصلى فى كتاب (عقود الجمان) أنشدنى أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى ، صاحب تاريخ بغداد ، قال أنشدنى ياقوت فى غلام تركى ، وقد رمدت عينه ، وعليها رفائد سوداء .

وَمُوَلَّد للترك تحسب وجهه بدراً يضىءُ سناهُ بالإشراقِ
أرخى على عينيه فضل وقايةٍ ليرد فتنتها عن العُشّاق

٥ ـ ياقوت كما يراه المستشرقون

وصفه المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بأنه الجغرافى العربى الوحيد ، الذى ظهر فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وأنه قد حاول محاولة جادة وضع مرجع كبير ، يجمع ما تفرق من المادة الجغرافية المعروفة فى عصره ، وكان ذلك فى وقت كادت فيه هذه المادة وغيرها من مواد التراث العربى الاسلامى ـ توشك أن تضيع فى طوفان من الفتن المتلاحقة والمصائب المتتابعة ، التى بدأت تجتاح العالم الاسلامى كله ، بسبب

الغزو التترى المخرب المدمر لكل مظاهر الحضارة والمدنية ، ولقد كان هذا المعجم فى الصورة التى رسمها فيه ياقوت ، وفى المادة التى جمعها فيه ـ ممثلا بكل دقة لآخر انعكاس للوحدة الاسلامية ، التى كانت قائمة فى عصور ازدهار الاسلام .

ويهتم المتحدثون عن ياقوت من المستشرقين بتقرير مسألة هامة ، وهى وجود الارتباط القوى بين ياقوت ومعجم البلدان فالحديث عن كل منهما يعتبر تعبيرا عن الآخر ، ويقول الأستاذ (نفيس أحمد) فى كتابه (جهود المسلمين فى الجغرافية) : « ان أهمية معجم البلدان ترجع الى أنه يصور العالم الاسلامى فى الفترة السابقة على الخراب ، الذى أصاب ثقافته وثروته بأيدى المغول » .

ولا شك فى أن معجم البلدان فى الوقت الذى ألف فيه كان من أفضل المصنفات الجغرافية ، التى قام بها مؤلف عربى فى العصور الوسطى ، ومن الأدلة على ضخامة هذا العمل الجليل الذى قام به ياقوت ـ أن ذلك المعجم يتألف من ثلاث آلاف وثمانمائة وأربع وتسعين صفحة ، وتتناول هذه الصفحات الكثيرة بين سطورها مادة علمية للجغرافية فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات، كذلك تعكس هذه الصفحات الكبيرة ألوانا وصورا دقيقة للجغرافية التاريخية ، وما يتصل بها من دين وحضارة ، وأجناس ، وفصائل بشرية ، وأدب شعبى (Folklore) وأدب فنى ، وفى هذه الصور التى جمعها ياقوت ، وأنفق فى سبيل جمعها الكثير من الطاقة والجهد

ـ خلاصة المعلومات الجغرافية التي وصل اليها العرب والمسلمون في مدى القرون الستة الأولى للهجرة وما قبلها ، وذلك بالاضافة الى طائفة كبيرة من النصوص الأدبية والشواهد الشعرية ، التي تقرب من خمسة آلاف بيت ، وهي ولا شك تكون مادة أدبية ، ذات قيمة فنية •

تلك مادة معجم البلدان في اجمال ، ولا ريب في أنها تلقى ضوءا قويا على الجهود التي بذلها ياقوت في احياء ناحية من نواحي التراث العربي الاسلامي •

وقد بدأ المستشرقون في أوربة يتعرفون على ياقوت، ويقومون بدراسات له منذ القرن التاسع عشر ، وكانت المخطوطات التي تحمل آثاره العلمية والأدبية قد تسربت الى المكتبات الأوربية المعنية بالتراث الشرقي ، وبخاصة التراث العربي الاسلامي ، ومن أوائل علماء الاستشراق الذين وجهوا عنايتهم الى دراسة ياقوت العالمان (راسموسن) Rasmussen (١٨١٤ م) و (فرين) Frahn (١٨٢٧ م) ، فقد نسب الى هذين العالمين أنهما نقلا عن معجم البلدان القطعة الخاصة بابن فضلان ، وهو الرحالة العربي الذي رأس البعثة ، الموفدة من المقتدر العباسي الى ملك (بلغار) ، هذه البعثة التي كان لها أثر قوي في دعم الصلات والروابط بين الروس والعرب منذ العصر العباسي الثاني •

وكان العلامة (فرين) أول من كتب عن شخصية ياقوت ،

وعرف به ، غير أن المتن الكامل لكتاب معجم البلدان ظل مخبوءا لم ير النور الا فى سنة (١٨٦٠ م) •

ومن علماء الاستشراق الذين قدروا جهود ياقوت العالم (سنكوفسكى) ، فقد وصف ياقوتا بالدقة والاجتهاد واعترف بأن علم الاستشراق مدين له ، لأن ياقوتا فى معجمه حفظ وسجل بكل دقة آثارا قيمة فى جغرافية وتاريخ العصور الوسطى ، ولأنه كان من علماء العرب غير المتحمسين الذين عنوا بدراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية التى كانت معروفة فى عصره (١) •

بيد أن العالم المستشرق (فرديناند فستنفلد) كان فى مقدمة المستشرقين الذين قاموا بجهود صادقة متصلة فى اخراج أول طبعة كاملة لمعجم البلدان ، وترجع أهمية هذه الطبعة فى أوربة الى العمل العلمى البارز الذى اضطلع به (فستنفلد) فى تحقيق الشخصيات التاريخية ، التى ذكرها ياقوت ، ولكى يتمكن من النهوض بهذا العمل الثقافى الكبير اضطر الى مراجعة عدد كبير من المصادر والمراجع المختلفة ، ولذلك اعتبرت طبعته من أفضل الطبعات ، التى كانت المصدر الوحيد لجميع المشتغلين بالدراسات العربية فى الميدان الجغرافى •

ويشير (كراتشكوفسكى) الى طبعة الخانجى للمعجم فى مصر ،

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ـ للمستشرق الروسى الكبير (اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى) ـ دار النشر والترجمة والتأليف .

ويرى أن الاضافة التى قام بها الخانجى ، وهى (منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان) لا تمثل قيمة كبيرة من وجهة النظر العلمى ، وقد يكون العلامة الروسى على حق فيما ذهب اليه ـ اذا وضعنا في اعتبارنا أن أسلوب ياقوت في تأليف معجمه والعمل العلمي الذى قام به كان ملائما للاتجاهات العلمية فى عصره ، أما القيام بعمل يعتبر امتدادا لهذا الأسلوب فى عصرنا ـ فانه من غير شك يعد عملا خاليا من الابتكار ويوضح العلامة الروسى رأيه فى منجم العمران بقوله : ان عمل الخانجى لا يزيد على أن يعطينا فكرة عن أن الأوساط المثقفة فى الشرق العربى ـ ما تزال تسير على الأنماط القديمة فى تأليف المعاجم الجغرافية التقليدية •

ومن الذين شغلوا بدراسة المادة الجغرافية لياقوت (باربييه دى مينار) ، فقد اعتمد على معجم البلدان فى وضع دراسة منسقة عن ايران ، وقد أفادت المادة التى جمعها (دى مينار) فى نواح أخرى ، اذ كانت عونا لمن قاموا بدراسة الحروب الصليبية ، ووضع فهرس منظم للموضوعات الأدبية الشعبية الفلكلورية **(Folklore)** كذلك قام (مدنيكوف) (١) **Mednikov** بتحليل عام لمعجم البلدان ، القاه فى محاضرة له ، ولكنها لم تطبع ، وقد تناول فيها

(١) (مدنيكوف) : هو نيقولاى ميدنيكوف ، مستشرق روسي ، كان أستاذا لكراتشكوفسكى (١٨٥٥ م ـ ١٩١٨) ، وقد ترجم وجمع وشرح اخبار جميع رجال التاريخ والجغرافية العربية القديمة عن (فلسطين) ، واخرج ذلك فى كتاب ، يقع فى اربعة اجزاء كما الف كتابا كبيرا ضمنه الأفعال العربية على نظام الجداول •

طريقة ياقوت فى جمع ودراسة المصادر ، التى اعتمد عليها ، ومنهجه العلمى فى نقد النصوص ، التى أوردها فى معجم البلدان •

ويقول (نفيس أحمد) : ولقد قام ياقوت بدراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، والحق أنه هدانا باشاراته التى وردت فى ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، ويبدو استعماله المنهج النقدى ، الذى يأخذ به الجغرافى الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواضع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه قد فشل فى تحقيق كثير من الأماكن التى وردت فى كتابات بطليموس ، لأنها لم تعد بعد قائمة •

وسنشير الى ذلك بشىء من التفصيل حينما نتناول مقدمة ياقوت لكتابه (معجم البلدان) فى موضعها من هذا الكتاب •

وقد اعترف بأسبقية ياقوت وأصالته فى التأليف الجغرافى المستشرق الأمريكى (سارتون) فى كتابه (المدخل لتاريخ العلم) والمستشرق الفرنسى (كارادىفو) فى كتابه (مفكرو الاسلام) •

٦ ـ العوامل التى ساعدت ياقوتا على التفوق فى وضع الموسوعات الجغرافية والأدبية •

أشرنا من قبل الى أن ياقوتا نشأ كغيره من علماء العرب

والمسلمين عالما موسوعيا ، بيد أن شهرته فى تأليف الموسوعات الجغرافية والأدبية كانت تفوق شهرة غيره من علماء عصره ، ولذلك عوامل يمكن اجمالها فيما يأتى :

١ ـ قالوا ان الجفوة التى وقعت بينه وبين مولاه (عسكر بن أبى نصر الحموى) لأول مرة ـ كانت سببا فى عكوفه على نسخ الكتب والاشتغال بالوراقة ، وياقوت وان كان قد قام بهذا العمل باعتباره وسيلة من وسائل كسب العيش والارتزاق ـ الا أنه قام به فى الوقت نفسه تلبية لدوافع نفسية على درجة من القوة ، قد استولت عليه ، واستجابة لميول طبيعية ، سيطرت على تفكيره ، فتوفر على الاشتغال بعلوم الجغرافية ، وقد ساعده على ذلك رغبة ملحة فى التحصيل والدراسة .

٢ ـ ثم قيامه بعمل عظيم كان ذا أثر قوى فى اشباع دوافعه النفسية ، فانه لما توفى مولاه عسكر بن أبى نصر ، نال منه أموالا كثيرة ، فلم يجد وسيلة نافعة فى رأيه ، وأجدى فى تقديره ، لاستخدام هذا المال وتثميره من الاتجار به فى الكتب والمخطوطات، فأدى ذلك الى نمو مكتبته وازدحامها بمختلف المراجع ، وعندئذ اتسعت أمامه مصادر المعرفة ومراجعها ، وهو الرجل الطلعة ، فثقف منها ، وأروى غلته ، وبذلك ازداد علما وثقافة وقدرة على تأليف الموسوعات .

٣ ـ هذا بالاضافة الى كثرة أسفاره ورحلاته ، التى استغرقت

شطرا كبيرا من حياته ، مترددا أثناءها على كثير من البلدان، والأقطار المتعددة ، وقد استغل هذه الرحلات فى زيارة أكبر عدد ممكن من دور الكتب وخزائنها النفيسة والاطلاع على ما فيها من المراجع ، ونسخ ما فيها من كتب ، هذا الى أن هذه الرحلات قد هيأت له فرصة التعرف بنفسه على الأماكن والبقاع والبلدان ، التى مر بها ، أو أقام فيها .

٤ ـ وكان ياقوت بطبيعته محبا لاقتناء الكتب ، ولا شك أن هذا الحب كان نابعا من رغبة عارمة فى القراءة والاطلاع ، ويقول ابن خلكان فى نهاية ترجمته لياقوت : أنه وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار بمدينة السلام (بغداد) ، وسلمها الى الشيخ عز الدين بن الأثير صاحب الكامل فى التاريخ .

٥ ـ وفضلا عن أن ياقوتا كان عالما غزير المادة فى ميدان العلوم الجغرافية ـ فقد كان الى جانب ذلك أديبا كبيرا ، ومؤرخ آداب ، برز فى كتابة فن (تراجم الأشخاص) بوضعه موسوعته الثانية المشهورة ، وهى (معجم الأدباء) غير أن تراجمه الأدبية فى هذا المعجم لم تسلم من بعض النقد ، مما سنشير اليه فى موضعه عن هذه الموسوعة الأدبية الكبرى .

جاء في تاريخ (اربيل) الذى عنى بجمعه أبو البركات بن المستوفى أن ياقوتا قدم (اربل) فى رجب سنة (٦١٧ هـ) وكان مقيما فى (خوارزم) ، وفارقها للواقعة التى جرت بين التتر والسلطان (محمود بن تكش خوارزم شاه) ، وكان قد تتبع التواريخ ، وصنف كتابا سماه (ارشاد الألباء الى معرفة الأدباء) يدخل فى أربعة جلود كبار •

ومن تصانيفه : معجم البلدان ، ومعجم الشعراء ، وكتاب (المشترك وضعا المختلف صقعا) ، وهو من الكتب النافعة ، وكتاب (المبدأ والمآل) فى التاريخ ، وكتاب « الدول » ، وكتاب (أخبار المتنبى) ، ومجموع كلام أبى على الفارسى ، و «المقتضب فى النسب» يذكر فيه أنساب العرب •

ويقول (كراتشكوفسكي) : ان ياقوتا وضع كتابين ، أتم طبعهما قبل أن يؤلف معجمه الكبير (معجم البلدان) وقد هبطت قيمتها العلمية بعد ظهور معجم البلدان ، ولكنه يناقض نفسه حين يقول ان أحد الكتابين وهو (المشترك وضعا المختلف صقعا) وضعه بعد المعجم ، ويزعم أنه قد استخرجه من المعجم ، ليكون أسهل عند المراجعة ، ولذلك كانت مادته مختصرة ، ووجه التناقض واضح فى كلام العلامة الروسى ، فقد ادعى أن كتاب (المشترك وضعا لمفترق

صقعا) ، وضع قبل المعجم الكبير ، ثم رجع وقال : انه وضع بعد المعجم ، وكان بمثابة مختصر له ، ولا يفوتنا أن نشير الى أن ياقوتا قد ذكر فى مقدمة معجم البلدان ـ أنه ينفر من المختصرات ، ولا يؤمن بفائدتها ، ويطالب بأ لايقدم أحد على اختصار معجمه ، فان ذلك يفقده قيمته العلمية ، وقد أجمع أكثر الباحثين على أن ياقوتا هو صاحب كتاب (المشترك وضعا والمفترق صقعا) ، ولكن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مختصرا ؛ لأنه شمل ألفا وواحدا وتسعين اسما ، عالجت أربعة آلاف ومائتين وواحدا وستين موضعا جغرافيا .

أما الكتاب الثانى فهو (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) ، ونلاحظ أن المستشرق الروسى كان مضطربا فى نسبته الى ياقوت ، فقد زعم بأنه من وضعه ، ثم عاد يتشكك ، ويقول : ان (وينبول) Juynboll طبع مسودة هذا الكتاب ، وهو موجز للمعجم الكبير ، وقد ألفه صفى الدين بن عبد الله المؤمن بن الحكم المتوفى سنة (٧٣٩ هـ ـ ١٣٣٧ م) ، ثم يقول : ان (رينيو) Reinaud عثر على ثلاث مسودات لهذا الكتاب ، وقد نسب الأولى الى ياقوت ، وان كانت لم تصل الينا ، ولكنه يرتاب فى قول (رينيو) بدعواه أن ياقوتا له موقف خاص من المختصرات ، فاذا وضعناه فى اعتبارنا كانت نسبة هذا الكتاب اليه موضع شك كبير ، وأما المسودة الثانية فيرى (رينيو) أنها منسوبة الى صفى الدين ،

ثم ينسب الثالثة الى السيوطى ، والحقيقة التى لا تحتمل شكا أن كتاب مراصد الاطلاع من وضع ياقوت ، وأن صفى الدين بن عبدالمؤمن هو الذى قام باختصاره •

ومع هذا فان ياقوتا لم يشتهر الا بمعجميه العظيمين : (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) لأنهما من الموسوعات التى طارت شهرتها شرقا وغربا ، اذ هما حافلان بألوان من الثقافات الجغرافية والدينية والأدبية والتاريخية واللغوية ، وغيرها ، وانصافا لياقوت، وتقديرا لمكانه بين الجغرافيين المسلمين ـ سأبدأ بدراسة (معجم البلدان) •

(١) معجم البلدان

ان النسخة التى بأيدينا عنى بتصحيحها وترتيب وضعها ، وكتابة المستدرك عليها ـ محمد أمين الخانجى الكتبى ، وقد قرأها على الأستاذ الأديب النحوى والراوية الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى ، نزيل القاهرة ، وتقع فى ثمانية أجزاء ، وقامت بطبعها مطبعة دار السعادة ، بجوار محافظة مصر (القديمة) ، وتقع فى ثمانية مجلدات ، وملحق بها مجلدان لمنجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، وهما يمثلان الجزأين التاسع والعاشر •

عرض وتحليل لمقدمة الكتاب

بدأ ياقوت كتابه (معجم البلدان) بمقدمة طويلة ، جرى فيها على مذهب السلف الصالح من علمائنا الأجلاء ، وهى تعطى فكرة واضحة عن أسباب وضعه ، والغرض من وضعه ، وتلقى ضوءا على منهجه العلمى وطريقته فى البحث • وقد افتتحها بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ونراه فى تحميده يبدو متأثرا الى حد كبير بموضوع كتابه فى الجغرافية ، وان كان قد تناول الى جانب ذلك فى معجمه هذا ضروبا أخرى من مختلف العلوم والفنون •

قال رحمه الله تعالى متحدثا عن قدرة الله تعالى فى ابداع خلقه للأرض ، التى جعلها مهادا وسكنا لخلقه :

الحمد لله الذى جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وبث من ذلك نشورا ووهادا ، وصحارى وبلادا ، ثم فجر خلال ذلك أنهارا ، وأسال أودية وبحارا ، وهدى عباده الى المساكن ، واحكام الأبنية والمواطن ، فشيدوا البنيان ، وعمروا البلدان ، ونحتوا من الجبال بيوتا ، واستنبطوا آبارا و (قلوتا) (١) وجعل حرصهم على ماشيدوا ، واحكام ما بنوا وعمدوا ـ عبرة للغافلين ، وتبصرة للغابرين ، فقال وهو أصدق القائلين : « أفلم يسيروا فى الأرض

(١) القلوت اسم الجنس منه قلت باسكان اللام ، وهو النقرة فى الجبل تمسك الماء .

فينظروا كيف كان عاقبة ، الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » •

أحمده على ما أعطى ، وأنعم ، وهدى الى الرشد ، وألهم ، وبين السداد وأفهم ، وصلى الله على خيرته من أنبيائه والمرسلين ، وصفوته من أصفيائه الصالحين ، محمـد المبعوث بالهـدى والدين المبين » •

واذا تأملنا هـذا التحميد نرى ياقوتا يشـير الى أن الله تعالى خلق الأرض ، وما فيها من جبال ووهاد وصحارى وبلاد ، وأنهار وبحـار وأودية ، وأنه تعالى لحكمـة يعلمها قد هـدى النـاس الى الاستقرار فى المدن ، ولا شك أن الاستقرار فى الأرض باتخـاذ المسـاكن والأبنيـة للاقامة ـ كان أول مظهـر من مظاهر الحيـاة الانسانية الراقيـة ، وكان الخطوة الأولى فى سـبيل سـير القافلة الانسانية فى معـارج الرقى البشرى ، وينسب الى قدماء المصريين أنهم كانوا أول الأمم التى اهتدت الى ابتكار (القالب) المصنوع من (اللبن) الطين ؛ اذ كان هـذا القالب هو الوحـدة فى التشـييد والبناء •

ويتخذ ياقوت من هداية الله تعالى لخلقه بتشييد المبانى واقامة المساكن ، والتنظيم الذى اتبعوه فى تعمير مساكنهم ثم ما حدث لهذه المبانى المشيدة من انهيار وخراب وفناء ، بسبب ظلم أهلها وضلالهم ـ عبرة للناس أجمعين ، فالله تعالى قد علم خلقه اتخاذ المساكن ،

لكى يقيموا فيها عمرانا ومدنية ، حتى يشعروا بأنهم يحيون حياة طيبة ، فاذا مافتنوا بالحياة الناعمة ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم .. أخذهم الله بذنوبهم ، وخرب بيوتهم بأيديهم ، وفى ذلك موطن العبرة فى سلوك الأمم الماضية التى ضلت سواء السبيل، لكى يتعظ الآتون بعدهم .

ولذلك نرى ياقوتا يستدل بالآية الكريمة على أن الناس ينبغى عليهم أن يسيروا فى الأرض ، ليتأملوا ما كان عليه من قبلهم من الأمم ، حين بغوا وأفسدوا فى الأرض ، فأهلكهم الله تعالى ، وما أغنى عنهم ملكهم الكبير الذى أقاموه وشيدوه ، ويلاحظ أن الآية الشريفة قد ربطت بين الحث على الرحلة فى الأرض ، وتأمل ما كانت عليه الأمم السابقة ، ونستطيع أن نفهم من هذا أن ياقوتا جعل الهدف الدينى أول أهداف كتابه ، وهو الرحلة للدراسة والتأمل والعبرة والعظة .

موضوع الكتاب :

ثم يحدد ياقوت موضوع كتابه، فيقول : « أما بعد فهذا كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيصان والقرى والمحال والأوطان ، والبحار ، والأنهار ، والغدران ، والأصنام ، والأبداد (١) ، والأوثان .

---

(١) (والابداد) واحده بد ، قال ابن دريد : الصنم نفسه الذى يعبد (فارسى) وجمعه بدده وابداد ، وقيل : البد : بيت الصنم والتصاوير (معرب)

وسنورد فيما بعد أمثلة ونماذج من هذا المعجم الكبير ، لتوضيح منهج ياقوت العلمى فى عرض ما تناوله من هذه الموضوعات التى أشار اليها .

الدوافع النفسية التى حملته على تاليف كتابه :

يوضح لنا ياقوت هذه الدوافع فى قوله : « ولم أقصد بتأليفه، وأصمد ، لتصنيفه لهوا ولا لعبا ، ولا رغبة حثتنى اليه ولا رهبا ، و لاحنينا استفزنى الى وطن ، ولا طربا حفزنى الى ذى ود وسكن، ولكن رأيت التصدى له واجبا ، والانتداب له مع المقدرة عليه فرضا لازبا ـ أوقفنى عليه العزيز الكريم ، وهدانى اليه النبأ العظيم ، وهو قوله عز وجل حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته ، ويقيم الحجة عليهم فى انزاله بهم أليم نقماته : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

فهذا تقريع لمن سار فى بلاده ولم يعتبر ، ونظر الى القرون الخالية فلم ينزجر ، وقال وهو أصدق القائلين: قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» . أى انظروا الى ديارهم كيف درست ، والى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست ، عقوبة لهم على اطراح أوامره ، وارتكاب زواجره ، الى غير ذلك من الآيات المحكمة والزواجر المبرمة .

ثم يقول : وقد ورد في الأثر عن السادات ممن غبر قال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا محل مثلة ومنزل نقلة ، فكونوا فيها سياحين واعتبروا ببقية آثار الأولين •

وقال قس بن ساعدة الايادى ، الذى حكم له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يبعث أمة واحدة : « أبلغ العظات السير فى الفلوات ، والنظر الى محل الأموات » • وقد مدح الشعراء الخلفاء والملوك والأمراء بالسير فى البلاد وركوب الحزن والوهاد فوجب علينا لذلك اعلام المسلمين بما علمناه ، وارفادهم بما أفادنا الله بفضله فأتقناه ؛ اذ كان الافتقار الى هذا الشأن يشترك فيه كل من ضرب فى العلم بسهم ، أو اختص منه بنصيب أو قسم ، أو اتسم منه باسم ، أو ارتسم بفن أو وسم » •

وفيما يقوله ياقوت تفسير واضح للدوافع التى أثارت فى نفسه القيام بوضع هذا المعجم الكبير ، ولكنه يحرص أولا على أن ينفى عن نفسه أنه قام بذلك اشباعا لرغبة ذاتية ، أو ابتغاء قربة من أحد ، وانما انتدبه الى تأليف هذا المعجم ما كان يحسه فى قرارة نفسه ، من أن الواجب الذى دفعه الى تأليفه ـ يتمثل فى دينه القويم وقرآن ربه الكريم ؛ لذلك قام بهذا العمل استجابة لما يدعو اليه القرآن الكريم من السير فى الأرض ، للعلم والمعرفة والعظة والعبرة ؛ لأن فى ذلك زجرا للنفس وتهذيبا لها ، ودعوة الى العمل بكتاب الله الكريم ، ويؤيد قوله بما روى عن عيسى (عليه السلام)،

وبمـا نسب الى (قس بن سـاعدة الايادى) ، وبمـا قاله بعض الشعراء •

ومن هنا يتضح للبـاحث أن ياقوتا ربط بين البحث الجغرافى والقرآن الكريم ، والخبر المأثور ، وشعر الشعراء ، وحاول جاهدا أن يثبت أن القرآن يدعو اليه ، ويحث على طلبه ؟ لما فى ذلك من التعرف على الديار والأماكن والبقاع وصلتها بالأمم الماضية، وماتوالى على كل من أحداث ، وفى هذا تصوير للعقلية العربية ، التى تتميز بالربط بين الحقائق المتشابهة ، واستقطاع المعرفة عن طريق الملاحظة والمشاهدة والاستقراء والبحث والتجربة ، وكل ذلك تهيئة الرحلة فى مناكب الأرض •

وفى مناهج التربية الحديثة ما يؤيد أن الرحلة من أحـدث الأساليب التربوية فى تحصيل الخبرة المباشرة ، والحقـائق العلميـة على الطبيعة ، ولا ريب أن ياقوتا ، وهو يدعو الى الرحلة للدراسة، يضع مبدأ جديدا فى الثقافة العربية الاسـلامية ، هذا المبـدأ وهو الرحلة لتحصيل الخبرة من أهم مبادىء التربية التقدمية فى عصرنا الحاضر •

ونخرج من هذا بأن الدافع الدينى هو الذى حمل ياقوتا على وضع كتابه (معجم البلدان) ، ويزيد ياقوت هذا الدافع وضوحا فيما بعد •

اهمية علم الجغرافية في الحياة

ثم يشير ياقوت الى أن العلم بما في الأرض من بلاد وحزون ووهاد ـ يشترك فيه العالم وغيره ، استكمالا للحياة في الأرض ، وفي هذه الاشارة بيان لأهمية علم الجغرافية في حياتنا ، وضرورته للناس على اختلاف درجاتهم ، اذ لا تكمل حياتهم الا بمعرفته ، وتطبيقاته ، ولعل هذا هو الذي دفع أبناء الأمم الغربية من شيوخ وشبان الى الرحلة في الأرض ، وركوب المغامرات في سبيل التعرف على أجزاء العالم شرقه وغربه ، ومعرفة طبيعة أرضها وأهلها وعامرها وغامرها ، في حين أن المسلمين والعرب قد نسوا ما يأمرهم به دينهم .

ويحرص ياقوت على تطبيق المناهج السليمة في البحث ، مثله في ذلك مثل غيره من علماء المسلمين ، لا يتعرض الى معلومة ما الا اذا سلط عليها أشعة قوية من الفحص الدقيق تكشفها وتوضحها، وتزيل ما يحيط بها من لبس أو غموض ، وتبرز أهميتها من الناحية العملية ؛ لذلك يقول : فاني رأيت نقلة الأخبار وأعيان رواة الأسفار والآثار ، من عني بها دهره ، وأنفذ فيها غرضه وعمره ، مع شدة حاجتهم اليها ـ أثناء رواية الأخبار ؛ لذلك نراهم عندما يمر ذكر بقعة من الأرض ، أو بيان وقعة وقعت ، يختلط عليهم الأمر ، وحالهم اما أن يكونوا غالطين أو مغالطين » .

ثم يقول : « وقلما رأيت الكتب المتقنة الخط ، المحتاط لها

بالضبط والنقط ـ الا وأسماء البقاع فيها مهملة أو محرفة ، وعن محجة الصواب منعطفة أو منحرفة ، قد أهملهـا كاتبها جهـلا ، وصورها على التوهم نقلا ، وكم من امام جليل ، ووجه من الأعيان نبيل ، وأمير كبير ، ووزير خطير ـ ينسب الى مكان مجهول ... فاذا سئل أهل المعـارف أخـذوا بالنصف الأرذل من العلم ، وهو « لا أدرى » وبئست الخطة للرجل العاقل ... لاغفالهم عن هذا الفن من العلم الخطير مع جلالته ، واعراضهم عن هذا القصد الكبير مع فخامته ، ومن ذا الذى يستغنى من أولى البصـائر عن معـرفة أسماء الأماكن وتصحيحها ، وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس فى الافتقار الى علمها سواسية » .

فياقوت يأخذ على غيره ممن سلف اهمالهم لعلوم الجغرافية ، ويضرب مثـالا لذلك ببعض الـكتب التى بولغ فى اتقـان خطهـا وضبطها ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من التحريف فى أسماء البقاع ، التى وردت بها ، ولا شك فيما فى ذلك من اضعاف لقيمتها العلمية وبخاصة اذا ورد فيها اسم عالم جليـل ، أو امام لـه خطره بين الناس ، أو عظيم ذو سلطان ، ثم نجد هؤلاء الأعلام ينسبون الى أمكنة مجهولة ، فاذا سئل المختصون من العلماء عن ذلك ـ أجابوا بما يسميه ياقوت « النصف الأرذل من العلم » وهو لا ندرى .

فمثل هذا المنهج فى التأليف العلمى فى نظر ياقوت غير لائق

بأهل الفضل من العلماء ، الذين يهملون فى كتبهم تحديد الأماكن والأصقاع وضبط أسمائها ضبطا دقيقا .

وواضح من كلام ياقوت أنه يشير الى أهميـة علم الجغرافية الوصفية ، وأنه من الضرورى أن توجه عناية شديدة الى التعريف بالأماكن والبقاع تعريفا موضوعيا ، يقـوم على الدقة فى الرواية ، والوصف المبنى على استقصـاء الحقـائق وتمحيصـها ، والمشـاهدة الفاحصة ، والنقل عن الثقات .

ولا يلبث ياقوت حتى يزيد الحاجة الى علوم الجغرافية وضوحا بقوله :

« لأن هـذه الأمـاكن ما هى الا مواقيت للحج والزائرين ، ومعالم الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ومشـاهد للأولياء الصالحين ، ومواطن غزوات وسرايا سيد المرسلين ، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين ، وقد فتحت هذه الأماكن صلحا وعنوة وأمانا وقوة ، ولكل من ذلك حكم فى الشريعة فى قسمة الفىء (١) وأخذ الجزية (٢) ، وتناول الخـراج (٣) لا يسـع الفقهاء جهلها ،

---

(١) (الفىء) ما بعد الزوال من الظل ، سمى فيئا لرجوعه من جانب الى جانب ، وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفىء ما نسـخ الشمس والفىء هو الخراج .

(٢) (الجزية) ما يؤخذ من أهل الذمة ، وهم المعاصرون من النصارى وغيرهم ممن يقيم فى دار الاسلام .

(٣) (الخراج) مثلثة الخاء الاتاوة وأصـله ما يخـرج من غلة الارض والمال ، وهو المال المضروب على الارض .

ولا تعذر الأئمة والأمراء اذا فاتهم فى طريق العلم حزنها وسهلها ؟ لأنها لوازم فتيا الدين ، وضبط قواعد الاسلام والمسلمين » •

وفى العبارة السابقة نرى ياقوتا ما يزال شديد الحرص على توضيح أهمية علوم الجغرافية ، فيجلو لنا أهمية جديدة لها فى ميدان حياتنا الدينية ، وهى أنها شديدة الارتباط بأحكام الفقه الاسلامى، والفتاوى الدينية ، وضوابط قواعد الدين ، مما يكشف أمام الباحثين أن الجغرافية عند المسلمين من العلوم الخادمة لقضايا الشريعة والفقه والأحكام الدينية ، ويبين أن القرآن الكريم كان من أقوى البواعث والدوافع التى حملت المسلمين على الاشتغال بالعلوم الدينية وغيرها من العلوم الدنيوية ، التى تتصل بالدين من ناحية ، وتساعد على وضوح المعرفة الدينية ، والقاء ضوء ساطع على قضاياها من ناحية أخرى •

ولا يكتفى بهذا القدر من الاحتجاج لمزايا هذه العلوم ، فيضيف الى ما تقدم أهمية أخرى ، وهى حاجة أهل السير والأخبار والحكمة والتنجيم اليها •

حاجة أهل السير والأخبار والحكامة والتنجيم الى علوم الجغرافية :

يقول ياقوت : « فأما أهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار فحاجتهم الى معرفتها أمس من حاجة الرياض الى القطار غب اخلاف الأنواء ، والمشفى الى العافية بعد يأس من الشفاء ، لأنها

معتمد علمهم ، الذى قل أن تخلو منه صفحة بل سطر من كتبهم ».

وأما أهـل الحكمـــة والتفهيم والتطبيب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم الى معرفتها عمن قدمنا ، فالأطبـاء لمعـرفة أمزجة البلدان وأهوائها ، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ؛ اذ كانوا لا يحكمون على البلاد الا بطوالعها ، ولا يقضون لها أو عليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها ، ومن كمال المتطبب أن يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها أو سقم منبتها ومائها ، فصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية ، وكشفهم عن حقائقها فلسفية » .

لذلك صنف كثير من القدماء كتبـا سـموها (جغرافية) ، ومعناها صورة الأرض ، وألف آخرون كتبـا فى أمزجـة البلدان وأهوائها مثل (أبقراط) ، و (جالنيوس) وغيرهما » .

ونرى ياقوتا بعد أن أفاض فى توضيح حاجة الأطباء والحكماء والمنجمين الى علوم الجغرافية ـ ينتقل الى بيان ضرورتها الى أهل الأدب أيضا .

حاجة أهل الأدب الى علوم الجغرافية

يقول ياقوت : « وأما أهـل الأدب فناهيك بحاجتهم اليها ، لأنها من ضوابط اللغوى ولوازمه ، وشـواهد النحوى ودعائمـه ويعتمد الشاعر فى تحلية جيد شعره بذكرها ، وتزيين عقود لآلى نظمه بشـذرها ، فان الشـعر لا يروى ، ونفس السامع لا تشـوق

حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء وهبود ، ويتحنن الى رمال رضوى ، فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه ؟ وما اشتقاقه ونزهته وقفره وحزنه وسهولته ؟ فانه ان زعم أنه واد ، وكان جبلا ، أو جبل وكان صحراء ، أو صحراء وكان نهرا ، أو نهر وكان قرية ، أو قرية وكان شعبا ... سفل قدره ، ونزر كثره ، وأمن ضحكه وجعل هزأة ، واستقل فضله ، واستجهل ، فقد ذكر بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذا البيت .

إن بالشِّعْب الذى دون سَلِع لقتيلا دمُه ما يُطَلّ[1]

ليس من شعر (تأبط شرا) ـ بأن سلعا ليس من دونه شعب

لقد أبدع ياقوت فى تصوير حاجة رجال الأدب الى الجغرافية ، وان فيما ذكره بالنسبة لهم يجعلنا نقف وقفة قصيرة امام كلامه للاشادة بهذا العلامة الجغرافى الأديب ، الذى أشار منذ قرون الى أحدث نظرية فى دراسة (النصوص الأدبية) وتقوم هذه النظرية على أساس وجود علاقة قوية بين أسماء الأماكن والبقاع والانتاج الأدبى ، وبخاصة الشعر الجاهلى ، فنقاد الأدب فى عصرنا يرون أن العلم بأسماء الأماكن وتحديد مواقعها ، والظروف التى ربطت بين

---

(١) (الشعب) : الطريق فى الجبل ، والسلع بالكسر : الشق فى الجبل ، وبالفتح : اسم مدينة ، قيل هى مدينة الانباط ، ويسميها (بطرا) او (بترا) بالطاء والتاء ، وهو اسمها اليونانى ، واطلالها الى الآن بوادى موسى وتعرف باسم (حصن سلع) ، كانت مدينة عامرة ، لها شهرة ايام الرومان ، وملوكها من قضاعة .

الأديب وهذه الأماكن ـ تلقى ضوءا ساطعا على النص الأدبى ، وتساعد على شرحه شرحا دقيقا ، ولقد كان شعراؤنا الأقدمون يتغنون بهذه الأماكن ، ويزينون بها شعرهم ، لاثارة العواطف والأشجان بذكرها ؛ لأنهم فيها التقوا بعزيز ، أو ارتبطوا بحبيب ، لذلك كان من الضرورى لنقاد الأدب ، وشراح نصوصه القديمة والحديثة ـ أن يتعرفوا على هذه الأماكن تعرفا دقيقا ، بالاطلاع على المراجع المعروفة بدقتها . وهذه اللفتة التى استنبطناها من كلام ياقوت ، فيها دلالة واضحة على أن هذا الرحالة الجغرافى كان ذا حس أدبى ، وتبصر بالمناهج الأدبية السليمة ، ولهذا نراه يطالب الأدباء بأن يكونوا على علم بضبط الأماكن وتحديد مواقعها بكل دقة ، لما لها من صلة قوية بالدوافع التى تثير العاطفة ، وتحرك الشاعرية ، ولأن الانتاج الأدبى ، وبخاصة فى العصر الجاهلى ـ قد كان أكثره بوحى منها ، ولا شك أن فى الجهل بوصف هذه البقاع، والارتباطات التى بينها وبين الأدباء ـ حطا لقيمة الفن الأدبى ، والأديب الذى لا يعرفها يكون موضع السخرية ، ومما يزيد من أهمية العلم بها أنها تساعد على تمييز الانتاج الأدبى ، ونسبته الى صاحبه .

أغاليط القدماء فى ذكر الأماكن والبقاع

ثم يحاول ياقوت أن يؤيد ما ذهب اليه من ضرورة حاجة الأدباء الى علوم الجغرافية بمثال حى واقعى ؛ ليزيد رأيه وضوحا ،

وقوة ، فيقـول : « وقد صنف فى عصرنا هذا امام من أهل الأدب جليل ، وشيخ يعتمد عليه ، ويرجع اليه فى حل المشكلات الكلامية ـ يقصد أحد الشراح الذين قاموا بشرح مقـامات محمد القاسم ابن على بن محمد الحريرى ـ ثم يصـفه بقـوله : فطبق مفصل الاصابة فى شرح أفانين ضروبها ، وغبـَّر فى كل وجه كل من فرغ باله لايضاح مشكلها وغريبها ، فانه بهر العقول ، وأدهش الأذهان بما ذكره من أسرار بلاغتها ، وأظهـره من مخـزون براعتهـا ، وأوضحه من مكنون معانيهـا ، وأبانه من فتق الألفاظ التى فيها ، وأورده من الأشباه والنظائر والعيون النواظر ... وسارت النسخ فى الآفاق ... فلم يقدم مقدام متعنت ، ولا هجم مهجـام متبكت على مؤاخذته بشىء مما فيه ، حتى ذكر أسماء الأماكن ، التىأسس عليها أبو محمد المقامات ـ فانبتَّ سـلك در عقد لآليـه ، وتداعى ما شيده فضله من مبانيه ، وعاد روضه الأريض مصوِّحاً ، وقريب احسانه مطوَّحاً ... وأخذ يخلـِّط تارة ويخلط ، ويتعثر فى عشواء الجهالة ويخبط ، فانه قال فى المقامة (الكرجية) :

وكرج بلدة بين (همذان) و (أذربيجان) ، وانما هى بين (همذان) و (أصفهان) .

وقال فى المقامة (البرقعيدية) : وبرقعيد قصبة الجزيرة، وانما هى قرية من قرى ... الموصل ، لا تبلغ أن تكون مدينة فكيف تكون قصبة ، وقال فى (التبريزية) : وتبريز من عواصم الشام ،

بينها وبين ميبنج عشرون فرسخا ، وتبريز بلدة أشهر وأظهر من أن تخفى ، وهى اليوم قصبة نواحى (أذربيجان) وأجل مدنها ، الى غير ذلك من أغاليط ، فلو كان له كتاب يرجع اليـه ، وموئل يعتمد عليه لخلص من هذه البلية نجيا » .

ولا شك أن فيما ذكره ياقوت توضيحا لأغلاط الأدباء والنقاد، حين يتعرضون لشرح النصوص الأدبية ، فشارح مقامات الحريرى بالرغم من قدرته اللغوية والأدبية ـ وقع فيما وقع فيه من أخطاء ـ قللت من قيمة مادته اللغوية والأدبية ؟ لأنه لم يجد مرجعا يعتمـد عليه فى تحديد مواقع الأماكن ، التى ذكرها الحريرى ، ومن هنـا تتضح العـلاقة التى بين علوم الجغرافيـة والأدب ، وحينما ترتبط الثقافة الأدبية بالأماكن والبقـاع ـ فلا بد للأديب أو النـاقد من الرجوع الى كتب الجغرافية ، التى تعنى كل العناية بضبط أسماء المواقع ، وتحديد مواضعها تحديدا دقيقا على سطح الأرض .

السبب المباشر فى وضع معجم البلدان

يقول ياقوت : وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب أننى سئلت (بمرو الشاهجان) سنة خمس عشرة وستمائة فى مجلس شيخنا الامام السعيد الشهيد (فخر الدين أبى المظفر عبد الرحيم ابن الامام الحافظ تاج الاسلام أبى سعد عبد الكريم السـمعانى) عن (حباشة) اسم موضع ، جاء فى الحديث النبوى ، وهو سـوق من أسواق العرب فى الجاهليـة ، فقلت : (حباشة) بضم الحـاء ،

قياسا على أصل هذه اللفظة في اللغة ، لأن الحباشة : الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشة : جمعت له شيئا ، فانبرى رجل من المحدثين وقال : انما هي حباشــة بالفتح ، وصمم على ذلك ، وجاهر في العناد بغير حجة ، وناظر ، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ؟ اذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل .

كانت هذه المناقشة بين ياقوت والرجل المحدث ، الذى تعصب لرأيه ـ السبب المباشر ، الذى جعله يعكف على الاطلاع على غرائب الكتب والمراجع ، ودواوين اللغات ، ومن ثم شرع يضع كتـابه (معجم البلدان) ، ويحتج لذلك بقـوله : فألقى حينئـذ في روعى افتقار العالم الى كتاب في هذا الشأن مضبوطا ، وبالاتقان وتصحيح الأغلاط بالتقيد مخطوطا ، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا ، والى ضوء الصواب داعيـا ، ونبهت على هذه الفضـيلة النبيلة ، وشرح صدرى لنيل هذه المنقبة الجليلة ، التى غفل عنها الأولون ، ولم يهتد لها الغابرون ، وما أحسن ما قال أبو عثمان : ليس أضر على العلم من قولهم : لم يترك الأول للآخر شيئا ، فانه يفتر الهمة ، ويضعف المنة » .

في العبارة السابقة يتحدث ياقوت عن الطريقة التى سيسلكها في وضع كتابه ، ثم يشير في الوقت نفسه الى مبدأ جديد في التأليف والبحث العلمى ، يعزوه الى أبى عثمان الجاحظ ، ويتلخص في ان أبا عثمان ينكر على من يزعمون أن الأول من العلماء لم يترك لمن

يأتي بعده شيئا ، لأن هذا الزعم في رأيه زعم فاسد ؟ اذ هو ضار بتقدم العلم والابتكار في أساليب البحث وتجميد العلم ووقف تياره ، وياقوت يسجل رأى أبي عثمان مؤيدا له ، لأنه اذا صح أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، فان ذلك يدعو ولا شك الى فتور الهمم وضعف العزائم في ميدان العلم ومجالات البحث ، وهذا مما يصيب العلم بضرر بالغ ؟ اذ العلم بطبيعتـه نام ومتطور • ومن خلال هذه الاشارة يتضح لنا مدى ما كان لعلماء العرب والمسلمين من طاقات ذهنية وعلمية ، وقدرة على النقد البناء وتزييف كل ما يقف في سبيل انحراف البحث العلمي عن طريقه السليم •

ونلاحظ أن ياقوتا ــ في كل موضع من مقدمته ــ يدعو دائما الى استخدام المناهج السليمة في الدراسة والبحث ، وابراز الحقائق العلمية الجغرافية في صور مضيئة ، لا يحجبها الخلط والاضطراب والخطأ في الضبط ، حتى تكون بريئة مما يشوبها من أغلاط •

العلماء الذين صنفوا في علوم الجغرافية

ثم يتحدث في المام ودقة عن المتقدمين من الجغرافيين ، الذين ألفوا كتبا في هذا الميدان العلمي ، فيقول :

على أنه قد صنف المتقدمون في أسماء الأماكن كتبا ، وبهم اقتدينا ، وبهم اهتدينا ، وهي صنفان :

١ ـ منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة ، والبلدان المسكونة المشهورة .

٢ ـ ومنها ما قصد به ذكر البوادى والقفار ، واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار .

فأما من قصد ذكر العمران فجماعة وافرة : منهم القدماء والفلاسفة والحكماء ، كأفلاطن ، وفيثاغورت وبطليموس ، وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم فى ذلك جغرافية ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة ، جهلت أكثر الأماكن التى ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ...

وطبقة أخرى اسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعينوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم (ابن خرداذبة) ، و (أحمد بن واضح) ، و (الجيهانى) ، و (ابن الفقيه) ، و (أبو زيد البلخى) ، و (أبو اسحق الاصطخرى) ، و (ابن حوقل) ، و (أبو عبدالله البشارى) ، و (الحسن بن محمد المهلبى) ، و (ابن أبى عون البغدادى) ، و (أبو عبيد البكرى) ، وله كتاب سماه (المسالك والممالك) .

وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية ـ فطبقة أهل الأدب ، وهم أبو سعيد الأصمعى ، ظفرت به راوية لابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه ، وأبو عبيد السكونى ،

والحسن بن أحمد الهمذانى وله كتاب جزيرة العرب • وأبو الأشعث الكندى ، وله كتاب فى جبال (تهامة) وأبو سعيد السيرانى، وبلغنى أن له كتابا فى جزيرة العرب ، وأما محمد الأسود الغندجانى ، فله كتاب فى مياه العرب ، وأبو زياد الكلابى ذكر فى نوادره قدرا صالحا وقفت على أكثره ، ومحمد بن ادريس بن أبى حفصة وقفت له على كتاب سماه : (مناهلَ العرب) ، وهشام بن محمد الكلبى وقفت له على كتاب سماه : (اشتقاق البلدان) ، وأبو القاسم الزمخشرى له كتاب لطيف فى ذلك ، وأبو الحسن العمرانى تلميذ الزمخشرى وقفت له على كتاب شيخه ، وزاد عليه رأيه ، وأبو عبيد البكرى الأندلسى له كتاب (معجم ما استعجم من أسماء البقاع) لم أره بعد البحث والتطلب له ، وأبو بكر محمد ابن موسى الحازمى له كتاب (ما اختلف وائتلف) ، ثم وقفنى صديقنا الحافظ الامام أبو عبدالله محمد بن محمود النجار ، جزاه الله خيرا على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهانى ، من كتاب ألفه الامام أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن السكندرى : فيما اختلف وائتلف من أسماء البقاع ــ فوجدته تأليف رجل ضابط ، فقد أنفذ فى تحصيله عمرا ، وأحسن فيه عينا وأثرا ، ووجدت الحازمى رحمه الله ــ قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، ولقد كنت عند وقوفى على كتابه أرفع قدره من علمه ، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه ، الى أن كشف الله خبيئته ، وتمحض المحض عن زبدته ، فأما أنا فكل

ما نقلته عن كتاب (نصر) قد نسبته اليه ، وأحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه » .

الحياة فى المدن المعمورة

قسم ياقوت المؤلفين فى الجغرافية قسمين ، فالقسم الأول : ينسب اليه تأليف الكتب التى تتحدث عن المدن المعمورة والبلاد المسكونة المشهورة ، ويمثل هذا القسم فى رأيه الحكماء والفلاسفة، ويذكر منهم (أفلاطن) ، و (فيثاغورث) ، واذا كان ياقوت يقصد من ذكر (أفلاطن) الفيلسوف اليونانى العظيم (أفلاطون) ـ فقد تحدث هذا الفيلسوف عن المدينة الفاضلة ، وله فى ذلك كتاب (الجمهورية) .

ومن آرائه فى هذا الكتاب أن الغرض من اجتماع الناس فى المدينة ـ هو أن يعملوا بأنفسهم على الوصول الى السعادة والخير ولكن كيف يصلون الى هذه الغاية ، ويحققون ذلك الغرض من اجتماعهم ؟ هنا نرى أفلاطون يتبرع برسم الطريق لهم ، ولكنه طريق مملوء بالأشواك ، مفعم بألوان من الانحراف ؛ لأن أفلاطون عندما ربط بين مذهبه الخلقى ومذهبه فى السياسة زعم أن طبقة الفلاحين والعمال وأصحاب الحرف المادية ـ ينتمون الى القوة الشهوية ؛ ولذلك أنزلهم منزلة أدنى من غيرهم ، من أهل المدينة الفاضلة ، غير أنه يقال ان أفلاطون رجع فعدل عن هذا الرأى الجائر فى كتابه (القوانين) فيما بعد . لا شك أن هؤلاء الفلاسفة

والحكماء بطبيعة تكوينهم الفكرى والفلسفى يعنون بالحديث عن مقومات وخصائص المدينة الفاضلة لأن الحديث عن المدن المعمورة يدعو دائما الى الحديث عن أهل هذه المدن ، وكيفية سياسة أمورهم فى مدينتهم ، كى تستقيم حياتهم وينعموا بمجتمع الرفاهية ، الذى تتحقق لهم فيه أسباب الحياة السعيدة •

العلاقة بين الأمكنة (البيئة) والانتاج الأدبى

وأما الحديث عن البوادى والقفار ومنازل العرب فى الصحراء فينسبه الى القسم الثانى من المؤلفين ، وهو يمثل رجال الأدب وقد تبين من قبل أن هناك صلة وثيقة بين هذه المنازل والآثار الأدبية ، والانتاج الذى ينتجه الأديب ؛ لذلك كان من واجب الجغرافيين الأدباء أن يبذلوا كل طاقتهم الفنية فى وضع كتبهم ، التى تتحدث عن هذه المنازل ، وتلك البوادى والقفار حديثا واعيا ، يوضح معالمها على نمط دقيق •

كذلك أشار ياقوت من قبل الى أهمية علوم الجغرافية ، بالنسبة للأدباء ، لأنها توقفهم على الأماكن والآثار الباقية والمواطن المختلفة فهذه وتلك من أهم الدوافع التى تثير الشاعرية ، وتنشىء فى النفوس الحاجة الملحة الى القول تعبيرا عن الأشجان وترويحا للنفوس ، التى ألح عليها الحنين الى تلك المنازل ؛ ذلك لأن حياة العرب فى البادية تقوم على الحل والترحال ، والسفر والاقامة ، تبعا لمنابت الكلأ ، ومساقط الغيث ، وبسبب ذلك علقت نفوسهم

بالذكريات ، التى تثيرها فيهم هذه المنازل ، حينما يمرون بها أو يذكرونها ، ويطيل ياقوت الحديث عن الأدباء الذين ألفوا فى الجغرافية ، ويبدى أسفه لأن كتاب أبى عبيد البكرى الأندلسى لم يقع فى يده كذلك يثير كلام ياقوت فى نفوسنا تلك الأمانة العلمية ، التى هى صفة علماء العرب والمسلمين جميعا ، وان خرج على ذلك القليل منهم ، ممن نبه عليهم ، ولا يكادون يذكرون ، ويهتم بالاشارة الى كتب الذين سبقوه فى التأليف الجغرافى ، ويبين مدى ما كان لبعض هذه المراجع من أثر فى نفسه وما أفاده منها ، ويتجه باللوم العنيف الى الحازمى ، ويقسو عليه ؛ لأنه اختلس كتاب أبى نصر لنفسه ، وبذلك يضرب ياقوت المثل الرائع فى الأمانة العلمية والصدق فى النقل حين يقول : وما نقلته عنه ـ يقصد أستاذه أبا نصر ـ نسبته اليه وأحلته عليه .

ونلاحظ أن الأمانة العلمية ، والتماس المراجع القديمة للسلف من العلماء عنصران هامان يدخلان فى منهج ياقوت العلمى، بيد أنه لم يقتصر على المصادر والمراجع الجغرافية وحدها ، فقد وجد أن هناك ينابيع أخرى لها أهميتها فى موضوع كتابه ولذلك أخذ يطلبها استكمالا للبحث واتماما للفائدة ، يقول : « وهذه الكتب المدونة فى هذا الباب التى نقلت منها ، ثم نقلت من دواوين العرب القدماء والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهدته فى أسفارى ، وحصلته فى تطوافى أضعاف ذلك ، والله الموفق ان شاء الله » .

ياقوت ينقد كتب الطبقتين :

يقول : ان كتب الطبقة الأولى من الحكماء والفلاسفة ترد فيها أسماء الأماكن مصحفة مغيرة ، بسبب تخليط النساخ ، وعدم دقتهم ، وأما كتب الطبقة الثانية وان كانت تتميز بأصولها المضبوطة، فانها فى الوقت نفسه تشوبها بعض العيوب ، التى منها عدم الترتيب وشدة الاختصار ، وأن مؤلفيها ركزوا على تصحيح الألفاظ ، وأهملوا ما عدا ذلك من أغراض هامة ، ويعبر عن ذلك بعباراته التى يقول فيها : « فأما الطبقة الأولى فأسماء الأماكن فى كتبهم مصحفة مغيرة ، وفى حيز العدم مصيرة ، قد مسخها من نسخها ، وأما الطبقة الثانية فانها وان وجدت لها أصول مضبوطة ، وبخطوط العلماء منوطة مربوطة ، فانها غير مرتبة ، ولشفاء الغليل غير مسببة، لشدة الاختصار وعدم الضبط والانتشاب لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ لا الابانة عما عدا ذلك من الأغراض ، والبحث عما يعترض فيها من الأعراض » .

وياقوت يمهد بهذا النقد الى المنهج الذى رسمه لكتابه ، فهو لا يرتضى كتب الطبقة الأولى ؛ لأنها انحرفت عن هدف هام يسعى اليه ، وهو الدقة فى ضبط أسماء الأماكن ، ولا يرتضى كتب الطبقة الثانية ؛ لأنها وان تميزت بأصولها المضبوطة ـ فانها أغفلت أسسا لها أهميتها فى نظره ، ومنها عدم الترتيب ، وشدة الاختصار والتركيز على تصحيح الألفاظ مع أهمال أغراض أخرى ، لها

قيمتها العلمية • وفى ضوء هذا النقد نراه يحدد الأسس السليمة ، التى يقوم عليها منهجه فى تأليف موسوعته الجغرافية فيما يلى :

الأسس السليمة التى ارتضاها لتأليف معجمه :

يبدأ ياقوت فى وضع التخطيط الدقيق للأسس التى سيلتزمها فى تأليف موسوعته ، وتتلخص فى المبادىء الآتية :

١ ـ ضبط ماشتته ، واشتبه فيه العلماء السابقون ، مع اضافة ما أهملوه من أسماء البلدان •

٢ ـ ترتيب أسماء البلدان بحسب حروف المعجم ، لأن ذلك يساعد على التنسيق فى عرض أسـماء الأماكن وعلى الاحاطة والاستيعاب •

٣ ـ العناية بضبط الأسماء على طريقة أهل اللغة المحققين ، وذكر اشتقاقها ان كانت عربية ، ومعناها ان كانت أعجمية •

٤ ـ بيان الأقاليم التى تقع فيها هذه البلدان والأماكن وطالعها، والمستولى عليها من الكواكب ، وتلك ناحية فلكية اهتم بها ياقوت وعنى بها كل العناية •

٥ ـ الاهتمام بذكر بناة البلدان وما يجاورها من بلدان أخرى مشهورة ، والمسافة التى بينها وبين ما يقاربها ، وما اختصت به هذه البلدان من الخصائص ، وما ذكر عنها من العجائب ، وبعض من

دفن فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين ونبذ مما قيل فيها من الأشعار فى الحنين الى الأوطان ، والشاهد على صحة ضبطه فى اتقان •

٦ ـ بيان الزمن الذى فتحها فيه المسلمون ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا أو عنوة ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف هذا البلد ، من حيث حكمه فى الفيء والجزية •

٧ ـ بيان من ملكه فى أيامنا من حكام وأمراء •

لقد أجهد ياقوت نفسه فى تحديد هذا المخطط الدقيق للأساس الفلسفى ، الذى بنى عليه معجمه ، وذلك بعد الاطلاع على عدد كبير من المراجع الجغرافية للسلف من علماء هذا الميدان ، وجدير بنا أن نقف أمام مخططه وقفة قصيرة ، لنلقى عليه أضواء توضحه ، وتكشف عن عناصره ، فياقوت يأخذ على السابقين تساهلهم فى ضبط أسماء الأماكن فقد اشتبه عليهم الضبط الدقيق فى بعضها، وشتتوا بعضها الآخر ، كما أهملوا أسماء بعض البلدان ، فخلت منها كتبهم ولم تظفر هذه الأماكن بشيء من التعريف بها ، وكأن ياقوتا يريد أن يقول ان علماءنا السابقين سامحهم الله لم يصبروا طويلا على البحث واستعمال الدقة فى تناول أسماء الأماكن وترتيبها وضبطها ضبطا صحيحا ، ولكى يجد الباحث المطلع سهولة فى البحث والاطلاع على معجمه ـ رأى أن يرتب ما يرد فيه من أسماء الأماكن والبقاع وغيرها على حسب حروف المعجم ، وقد اهتم علماء

المسلمين بصفة عامة بهذا الأسلوب فى ترتيب وعرض الحقائق منذ أيام (الخليل بن أحمد) ، ولياقوت عنايته الخاصة بضبط أسماء الأماكن ، فهو يجرى فى ذلك على طريقة المحققين من أهل اللغة مؤيدا ما يقوله بالشاهد على صحة الضبط ، ولعل هذه الناحية اللغوية هى أبرز ما يتميز به معجم البلدان لياقوت ، بالنسبة لغيره من المعاجم الجغرافية ، ويتحرى فى الضبط بأن يذكر اشتقاق الاسم ان كان عربيا ، أما اذا كان أعجميا فانه يكتفى بذكر المعنى ، ويسترسل ياقوت فى رسم منهجه بالتعرض الى شىء من الجغرافية السياسية والطبيعية والفلكية ، فيهتم بتعيين الاقليم الذى يقع فيه المكان أو البلد ، مع بيان طالعه الفلكى واسم الكوكب المسيطر عليه ، ثم تتناول عنايته الحديث عن المبانى المشهورة فى البلد ومن بناها ، ويمتد حديثه الى ما يجاورها من بلدان أخرى والمسافات التى بين بعضها وبعض ، ويتعمق فى الحديث عن الخصائص المميزة لكل بلد ، وما اشتهرت به من عجائب ، وتناقله المحدثون والرواة عنها من غرائب ، كذلك يبدى اهتمامه بذكر بعض الذين دفنوا فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين وطرف من سيرهم العطرة ، ولا ينسى أن يتحف القارىء بنبذ ومختارات من الأشعار الرقيقة ، التى رويت فى الحنين الى الأوطان ، ويتصل بحديثه عن البلدان أن يستكمل كل ما يرتبط بها من النواحى التاريخية ، فيعرض لبيان التاريخ الزمنى ، الذى تم فيه فتحها على أيدى المسلمين ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا ؟ أو تم عنوة ؟ اذ لكل من الموقفين

حكم فى الشريعة الغراء من فىء أو جزية ، مما يكشف عن حقيقة هامة ، أشرنا اليها من قبل ، وهى أن الدافع الدينى كان من أهم عوامل اشتغال المسلمين بعلوم الجغرافية وغيرها والتأليف فيها ، وأن المسلمين قد استخدموا العلم فى تحقيق أغراض عملية يقوم عليها نظام مجتمعهم ، فالعلم عندهم كان للمجتمع حقا ، كان لخدمة الأغراض الدينية والدنيوية معا •

ثم يتحدث ياقوت عمن ملك كل بلد من هذه البلدان من حكام وأمراء •

ونستطيع فى ضوء هذا العرض أن نتبين ثقافة ياقوت ، التى تتألف من ألوان مختلفة من جغرافية وصفية وطبيعية وفلكية ، ومن سير وتاريخ وقصص ، ومن شريعة وفقه وأدب ، ورواية أشعار ، كل هذه الألوان حشدها ياقوت فى معجمه ، ولذلك استحق هذا المعجم أن يكون موسوعة فريدة فى بابها •

مبدأ تربوى حديث يوحى اليه منهج ياقوت فى معجمه الجغرافى :

أشرت من قبل الى مفهوم التخصص فى العلم عند العرب المسلمين ، وهو وان ابتعد حينا عن مفهوم المحدثين فى عصرنا ــ الا أن التيارات الحديثة فى العلوم أخذت تقترب بمفهوم العرب عن التخصص بما هو واضح الآن لدى أكثر علماء هذا العصر ، ونحن

نعرف أن العالم عند العرب كان يغلب عليه الطب مثلا ، ولكنه الى جانب ذلك يبرز فى الفلسفة ، وتبدو عبقريتـه فيها واضحة كابن سينا ، والرازى يشتهر بالطب أيضا ، ولكنه فى الوقت نفسه يعرف بالنبوغ فى الكيميا ، وقد كان هذا مما يتفق مع مناهج العـرب المسلمين ، واتجاهاتهم الصحيحة فى تحصـيل العلوم ، فالحـدود والفواصل بين العلوم كانت حـدودا وهمية فى نظرهم ، اذ كانوا يؤمنون بوحدة المعرفة ، وهذا مما يتجه اليه التقدم العلمى الحديث، لأن العلوم يخدم بعضها بعضا .

وفى ضوء هذا الاتجاه فى فهم الصلات بين العلوم يقرر ياقوت مبدأ تربويا حديثا ، يعرف اليوم فى التربية الحديثـة بمبدأ ترابط المواد ، فهو فى معجمه يجعل اسم المكان محورا ، ثم يقيم حـوله دراسات لغوية وفلكية وجغرافية وأدبية وتاريخية ودينية ، ولم يهتد ياقوت الى ذلك اعتباطا ، وانما فعله تطبيقا لاتجاهات علميـة سـائدة فى الثقافة العربية الاسلامية .

رأيه فى بعض الخرافات التى ذكرها فى معجمه :

لا ينسى ياقوت ـ وهو العالم المحقق ـ أن ينبه على أنه أحيانا قد يذكر أشياء ، تنفر منها العقول السليمـة ، وهو يذكرها مرتابا فيها وأنه أحيانا أخرى قد يقع فى خطأ غير مقصود ، وتلك ولاشك بعض خلال علمائنا الصادقين المتمسـكين بأهمية الأمانة العلمية فى

البحث ، يقول غفر الله له : « لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر منها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وأنا مرتاب بها نافر عنها ، متبرىء الى قائلها من صحتها ، لأنني كتبتها حراصا على احراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد والفرائد ، فان كانت حقا فقد أخذت بنصيب المصيب ، وان كانت باطلا فلها في الحق شرك ونصيب ؛ لأنني نقلتها كما وجدتها ، فأنا صادق في ايرادها ، كما أوردتها ، ولتعرف ما قيل في ذلك حقا كان (أو) باطلا ، فان قائلا لو قال : سمعت فلانا يكذب — لأحببت أن تعرف كيفية كذبه ، وهؤلاء أئمة الحفاظ الذين هم القدوة في كل زمن ، وعليهم الاعتماد في فرض الشرائع والسنن — لم يشترط أكثرهم في مسنده ، وهي أحاديث الرسول التي تبنى عليها الأحكام ، ويفرق بها بين الحلال والحرام — ايراد الصحيح دون السقيم ، ونفي المعوج ، واثبات المستقيم ، لم يخرجهم ذلك عن أن يعدوا من أهل الصدق ، أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة ، والحق أنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه ، وانما يسمى كذابا من وضع حديثا ، أو حدث عمن لم يسمع منه ، أو روى عمن لم يرو عنه ، فأما أن يروى ما سمع كما سمع — فهو من الصادقين ، والعهدة على من رواه عنه ؛ الا أن يكون من أهل الاجتهاد — فله أن يرويه ، ثم يزيفه ، ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث ، وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم » .

تعليق ونقد :

نرى ياقوتا وهو يحدثنا عن تلك الأشياء التى تأباها العقول ، لأنها من قبيل الأوهام والخرافات ـ يؤكد لنا أنه يذكرها وهو مرتاب فى صحتها ، وما حمله على هذا الا لأنه يعتقد أنها قد لا تخلو من فائدة ، ويحاول أن يهيىء أذهاننا ، لكى نؤمن بأنه صادق فيما رواه ؟ لأنه نقله بحسب ما سمعه ، ويؤكد ياقوت مرة أخرى أن ما يرويه عن غيره كما سمعه ـ لا يمكن أن يوصف فيه بالكذب ، لأن مسئولية الكذب فيما رواه لا تقع عليه ، وانما تقع على صاحب الخبر أو الرواية .

ويحتج لرأيه بأن رواة حديث الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وهو فى المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم فى تقرير الأحكام الشرعية وشرحها وتوضيحها ـ يروون ما يروونه من كلام الرسول من غير تمييز بين السقيم والصحيح منه ، ثم لم يقل أحد فيهم انهم غير صادقين ، لأن العهدة فى الصدق والكذب على المصدر المنقول عنه ، الا اذا كانوا من أهل الاجتهاد ـ فان من واجبهم أن يزيفوا الأحاديث ، التى تتوافر لديهم الأدلة لتزييفها من عقل ونقل ، ويحسب ياقوت نفسه من الصنف الأول ، وهم الرواة من غير أهل الاجتهاد ، وفى رأينا أن ياقوتا ضعيف الحجة فيما احتج به لنفسه ، اذ أن ما قاله لا يبرئه من تهمة اهمال التحقيق فيما رواه ، وهو الذى يقرن أنه ألف كتابه لتصحيح أخطاء السابقين

ومؤاخذتهم على تقصيرهم فى التحقيق العلمى ، وكان جديرا به ـ وهو يأخذ نفسه بهذا الأسلوب العلمى فى البحث ـ ألا يتعرض الى رواية ما يرتاب فى صحته ، وما يعد من قبيل الخرافات والأوهام ، التى لا تثبت أمام الحقائق ، وبخاصة والفائدة المترتبة عليها مشكوك فيها وفى قيمتها •

ادعاءات لياقوت :

وفضلا عن ذلك فان ياقوتا لم يسلم من نقد آخر ، فقد حاول أن يرفع من شأن كتابه ، بادعائه أنه فريد فى بابه ، وأنه لايستطيع أحد أن يؤلف مثله ـ الا اذا كان مؤيدا بالتوفيق ، وتحمل فى سبيل تأليفه ألوانا من المشقات ، فسافر من أجل جمع فرائده ، فأبعد فى السفر ، وتفرغ لذلك وقتا طويلا ، بدأه بأيام الشباب ، وساعده العمر على امتداده وكفايته ، وكان حريصا أشد الحرص على العمل الدائب المتصل ، وياقوت حقا بذل فى تأليف معجمه طاقات متعددة ، وأنفق وقتا طويلا فى انجازه وجمع مادته •

غير أن ما ادعاه لا يتفق مع تواضع العلماء من أمثاله ، وكتابه غنى عن كل هذه الادعاءات ، اذ المجهود الذى بذل فيه واضح للباحث المنصف ، وهو شاهد على فضله وسبقه ، وتقدمه فى علوم الجغرافية ، وعلى ما أنفقه من وقت فى تأليفه ، وكان من الخير له أن يبرىء نفسه من الادعاء والفخر والاعتداد بمجهوده •

رأيه في اختصار الكتب :

ويحذر ياقوت كل من يحاول اختصار كتابه ، ويذكر أن بعض الطلاب قد التمسوا منه ذلك ، ولكنه أبى أن يستجيب الى طلبهم ، ثم وجه رجاء الى كل مطلع على كتابه بألا يحاول اختصاره، ويعلل لذلك : « بأن الاختصار مضيع لكثير من فوائده ، ومبدد لما جمعه ، ومفسد لما أنفقه من تعب ، ومعطل لما حواه من فرائد » ، ويحاول ياقوت أن يلقى أضواء أخرى لتوضيح رأيه فيقول :

« فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها ، وزاهد فى نكتة غيره مشغوف بها ـ ينضى الركاب اليها ، فان أحببتنى بررتنى جعلك الله من الأبرار » .

ويستمر في تحذيره موضحا ضرر اختصار كتابه ، فيشبه من يحاول القيام بهذا العمل بمن يقدم على خلق سوى رائع ، فيفسد جماله ، بتقطيع أوصاله ، ثم يروى عن الجاحظ : « أنه صنف كتابا ، وبوبه أبوابا ، فأخذه بعض أهل عصره ، فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا ان المصنف كالمصور ، وانى قد صورت فى تصنيفى صورة ، كان لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكانت لها أذنان ، فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب الى الله عن المعاودة الى مثله » .

ولكن ياقوتا على الرغم من شدة تحذيره واهتمامه ببيان

الضرر المترتب على اختصار معجمه الجغرافى ، واستشهاده بكلام الجاحظ فقد نسب اليه أنه وضع بنفسه مختصرا لهذا المعجم فى كتاب آخر له ، وان كان ذلك لم تثبت بصفة قاطعة فى المراجع الموثوق بها .

موقف علماء العرب والمسلمين من المختصرات :

ويبدى علماء العرب والمسلمين بعد الجاحظ وياقوت عناية كبرى بالتنبيه على عدم اختصار الكتب ، ومنهم ابن خلدون ، فهو يرى أن الاختصار من العوامل التى تقف عقبة فى سبيل التعليم ، ويبين أن المتأخرين قد أولعوا بهذه الطريقة ، ويذكر منهم (ابن الحاجب) فى الفقه وأصول الفقه ، و (ابن مالك) فى النحو ، ويقول : ان فى هذه الطريقة افسادا للتعليم واخلالا بالتحصيل ، وتضييعا لوقت المتعلم فى تتبع ألفاظ الاختصار العويصة فى الفهم ، واستخراج المسائل من بينها ، وهذا مما يقف فى سبيل الملكة الحاصلة من التعليم ، والذى حمل المتأخرين على هذا أنهم قصدوا بالمختصرات تسهيل الحفظ على المتعلمين ، فأركبوهم مركبا صعبا ، يحول بينهم وبين تحصيل الملكات النافعة ، واذا كان رجال التربية الحديثة فى عصرنا يثورون فى عنف على هذه المختصرات — فقد سبقهم الى هذه الثورة الجاحظ وياقوت وابن خلدون ؛ لأنها ترهق العقل ، وتشوش نظامه ، وتضيع وقت الناشىء ، ثم لا تثبت معلوماتها فى ذهنه الا لمدة يسيرة ، ومن أجل ذلك حاربها القدماء والمحدثون .

طريقة ياقوت فى تبويب معجمه وعرض مادته :

بعد أن انتهى ياقوت من مقدمته بدأ معجمه بمدخل له يتألف من خمسة أبواب ، تتناول موضوعات فى الجغرافية الطبيعية وبعض المصطلحات وأخبار بعض البلدان ، التى ترتبط بمادته العلمية .

وينبغى انصافا لعالمنا الكبير ـ أن ننوه عن فضله فى هذا المدخل ، الذى جمع فيه بين الجغرافية الطبيعية والوصفية ، والكشف عن معانى المصطلحات العلمية ، التى يحتاج اليها الدارس، للاستعانة بها على فهم مادة الكتاب ، ونترك الآن الحديث لياقوت ؛ لكى يشرح لنا طريقته ، فيقول :

ثم قدمت أمام الغرض من هذا الكتاب خمسة أبواب ، بها يسمو فضله ، ويغزر وبله ، وهى :

الباب الأول : فى ذكر صورة الأرض ، وحكاية ما قاله المتقدمون فى هيئتها ، وما روينا عن المتأخرين فى صورتها .

الباب الثانى : فى وصف اختلافهم فى الاصطلاح وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة فى كل ناحية .

الباب الثالث : فى ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فيه ، ويحتاج الى معرفتها ، كالبريد ، والفرسخ ، والميل ، والكورة ، وغير ذلك .

الباب الرابع : فى بيان حكم الأرضين والبلاد المتفتحة فى الاسلام ، وحكم قسمة ألفىء والخراج ، فيما فتح صلحا أو عنوة •

الباب الخامس : فى جمل من أخبار البلدان ، التى لا يختص ذكرها بموضع دون موضع ، لتكمل فوائد الكتاب ، ويستغنى به عن غيره فى هذا الكتاب •

ونلمح فى هذه الأبواب ، وفيما سيحدثنا عنه ياقوت فيما بعد من تخطيط لكتابه – أنه يرسم له أساسا فلسفيا دقيقا للطريقة التى سيجرى عليها فى تبويبه وتنسيق مادته ، اذ لا شك فى أن تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول ووضع الأسس التى سيسلكها المؤلف فى عرض مادته العلمية – مما ييسر للقارىء الاطلاع الواعى ، ويساعده على الافادة من غير تضييع للوقت •

وهذا مما يذكر بالفخر والاعجاب لعلمائنا السابقين ، فقد اهتدوا بتفكيرهم العلمى الصحيح الى هذه الأسس ، التى لا تخرج كثيرا عما يتبع فى تأليف الكتب الحديثة ، من حيث العرض والتبويب والدراسة ، على بعد ما بيننا وبينهم فى حساب الزمن ، وبالرغم مما طرأ على تأليف الكتاب العربى فى عصرنا من تطوير كبير •

ويقسم ياقوت معجمه ثمانية وعشرين كتابا بعدد حروف المعجم ، ويقسم كل كتاب ثمانية وعشرين بابا ، ملتزما ترتيب كل كلمة فيها على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه ، والى أى غاية بلغ ،

فيقدم ما يجب تقديمه بحسب ترتيب الحروف الأبجدية ، بأن تكون الألف قبل الباء ، والباء قبل التاء ، وهكذا ، وذلك فى غير نظر الى أصول الكلمة وزوائدها ، وحجة ياقوت فى هذا المسلك أن جميع ما يرد من أسماء فى كتابه انما هى أعلام المسميات مفردة ، وأكثرها أعجميـة ومرتجلة ، وما يجيء من أمثـال هذه الأسـماء لا داعى للاشتقاق فيها ، ثم يقول :

والغرض من هـذا التبويب تسـهيل طريق الافادة فى غير مشقة ، والله المعين على ما اعتمدنا ، والمرشد الى سلوك ما قصدنا ، من غير حول منا ولا قوة الا بالله ، وسميته (معجم البلدان) اسم مطابق لمعناه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكان الشروع فى هذا التبييض فى ليلة احدى وعشرين من محرم سـنة خمس وعشرين وستمائة ، نسأل الله المعونة على اتمامه بمنه وكرمه •

ونلاحظ على مقـدمة (ياقوت) أن قدماء المؤلفين فى تراثنـا المجيد يختلفون عن مؤلفى العصر الحاضر من حيث الاعتمـاد على المقدمات المطولة فى التخطيط لكتبهم العلمية والعناية برسم صورة دقيقة لتقسيمها وتبويبها ، وطلب المعونة من الله تعالى لكى يستمروا فى بحثهم ، حتى تخـرج كتبهم فى الصـورة التى ترضى نهمهم العلمى ، فهذه الدقة ، وتلك الثقة بالله والاعتماد عليه ـ كانت تفتح أمام علمائنا السابقين أبواب العلم • وقد كان ابن سينا حينما يصعب عليه فهم مسألة دقيقة من مسائل العلم والفلسفة يلجأ الى الله تعالى ،

ويصلي له مخلصا ، وما يكاد يفرغ من صلاته حتى يتضح له ما أبهم عليه ، وتتفتح له الأبواب المغلقة الى فهم العويص من المسائل العلمية والفلسفية •

ولا يسعنا ونحن نعرض للأسس التي اتبعها ياقوت في تأليف هذه الموسوعة الضخمة ــ الا أن نعترف بالجهد العظيم الذي بذله، ولا شك أن عملا كالذي قام به ياقوت يعد معجـزة علميـة ، اذا راعينا ظروف النشر والتأليف في عصره وامكانات التدوين ، فقد اعتمـد ياقوت بعد جمع مادته وترتيبها هـذا الترتيب الدقيـق على أسلوب النسخ في الاخراج ؛ اذ لم تكن الطباعة الحديثة معروفة آنذاك ، واذا فكم من الوقت ؟! وكم من الجهد ؟! أنفق هذا المؤلف الكبير ؛ لكي يؤلف معجمه ويخرجه •

ولم يكن معجم البلدان هو المعجم الوحيد الذي ألفه ، فان له معجما آخر يكبره في حجمه ومادته ، وقد يقـول قائل : ان العمل الذي قام به ياقوت يغلب عليه طابع الجمع والنقل والرواية ، وما أيسر هـذا اذا قيس بمؤلفـات عصرنا الكبيرة ، ومع افتراض صحة ذلك ــ فان هذا القـول لا يضعف أبدا من قوة هذا البنـاء الشامخ ، الذي أقام صرحه ياقوت في عالم الجغرافية في عصره •

ولكي تتم لنا الصـورة عن معجم البـلدان ، وتظهر أمامنـا واضحة الملامح ، معبرة عن الجهـد العلمي لرائد كبير من علمـاء العرب المسلمين ، أخصب حقول الجغرافية العربية الاسلامية ، لا بد

أن نقدم للقارىء مقتبسات من أبواب مدخله ، ونماذج من مواد معجمه ؛ ليكون فيها بعض الغناء لراغبي الاطلاع على مصادر التراث العربي الاسلامي ، والتعريف بجانب من جوانبه ، ثم لاستكمال البحث وتكامل صورته .

١ ـ الباب الأول

في صفة الأرض وما فيها من الجبال والأنهار وغيرها

نجد ياقوتا في هذا الباب ـ وهو العالم المسلم ـ يعتمد في تصوير معلوماته الجغرافية عن الأرض على القرآن الكريم ، ثم على ما يرويه عن السلف من علماء المسلمين في الجغرافية ، فيقول :

« قال الله عز وجل : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا » ، وقال عز وجل : « الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء » . وقال سبحانه : « والله جعل لكم الأرض بساطا » ، قال المفسرون : البساط والمهاد : القرار والتمكن منها والتصرف فيها ، واختلف القدماء في هيئة الأرض وشكلها ، فذكر بعضهم أنها مبسوطة التسطيح في أربع جهات في المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، ومنهم من زعم أنها كهيئة (الترس) ، ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة ، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل ، وزعم بعضهم أنها شبيهة بنصف الكرة كهيئة القبة،وأن السماء مركبة على أطرافها

وقال بعضهم : هى مستطيلة كالأسطوانة الحجرية أو العمود .

وقال قوم : الأرض تهوى الى ما لا نهاية له ، والسماء ترتفع الى ما لا نهاية له ، وقال قوم : يرى من دوران الكواكب ـ انما هو دور الأرض ، لا دور الفلك ، وقال آخرون : « ان بعض الأرض يمسك بعضا » .

ثم يقول ياقوت : وأصلح ما رأيت فى ذلك وأسده فى رأيى ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمى : قال : الأرض فى وسط السماء ، والوسط هو السفل بالحقيقة ، والأرض مدورة بالكلية مضرسة بالكلية ، من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك عن الكروية اذا وقع الحس منها على الجملة ؛ لأن مقادير الجبال وان شمخت صغيرة بالقياس الى كل الأرض ... ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها ، حتى لم يكن يظهر منها شىء ... والأرض كرة يحيط بها الهواء من جميع الجهات .

ويؤخذ من كلام ياقوت أن رأى الخوارزمى فى هيئة الأرض وشكلها أصلح الآراء وأصوبها وأسدها ، فهو يؤيده ويؤمن به ، وهذا الرأى فى الحقيقة يمثل الاتجاه العام، الذى غلب على جغرافيى العرب فى العصور الوسطى ، وبه خالفوا جميع الآراء القديمة وفى مقدمتها رأى بطليموس الذى كان سائدا قبل اشتغال العرب بالجغرافية .

ثم يعرض ياقوت لرأى (أبى الريحان البيرونى) ، فيقول نقلا عنه : « وسط معدل النهار يقطع الأرض بنصفين على دائرة ، تسمى خط الاستواء ، فيكون أحد نصفيها شماليا والآخر جنوبيا ، فاذا توهمت دائرة عظيمة على الأرض مارة على قطب خط الاستواء، قسمت كل واحدة من نصفى الأرض بنصفين ، فانقسم جملتها أرباعا جنوبيان وشماليان » .

وواضح من كلام البيرونى أنه يؤيد القول بكروية الأرض ، ويوضح ذلك بأن خط الاستواء يقسمها نصفين ، ثم يشير الى أربعة مناطق على سطح الأرض ، وهذا الرأى وغيره من آراء العرب الجغرافية ، مما يساير الى اليوم أحدث الآراء فى هذا الميدان .

ومن الراجح أن الجغرافيين المسلمين كانوا متأثرين فىآرائهم بثقافتهم القرآنية ، وبما وعوه وفهموا مدلوله من نصوص الكتاب الكريم ، ثم يقول ياقوت : « واختلفوا فى كيفية عدد الأرضين ، قال الله عز وجل : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » فاحتمل أن يكون فى العدد والأطباق ، وروى فى بعض الأخبار أن بعضها فوق بعض ، وغلظ كل أرض مسيرة خمسمائة عام ، وقد عد بعضهم لكل أرض أهلا على صفة وهيئة عجيبة ، وسمى كل أرض باسم خاص ، كما سمى كل سماء باسم خاص .

وعن عطاء بن يسار فى قول الله عز وجل : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . قال فى كل أرض آدم كآدمكم ، ونوح كنوحكم ، وابراهيم كابراهيمكم ، والله أعلم » .

واضح من كلام عطاء بن يسار ، كما رواه ياقوت ـ أن هناك أرضا غير أرضنا وعوالم غير عالمنا ، وفى كل منها حياة كالحياة التى نحياها فوق كوكبنا الأرضى ، وقد استمد عطاء بن يسار رأيه من الآية الشريفة ، التى سبقت الاشارة اليها ، وهى تؤيد وجود أراض أخرى آهلة بالمخلوقات غير مسكوتتنا ، التى نسعد بالحياة فوقها ، وقد خلقها الله تعالى ، ولا تستبعد الحياة الدائبة النشيطة فوق تلك الأراضى أو العوالم أو الكواكب ، وأيد جغرافيو العرب والمسلمين هذه الآراء فى عصور قديمة سلفت ، قبل عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وقبل أن يفكر اليوم الروس والأمريكان فى علوم الفضاء، ويعملوا على كشف لغز الحياة فى هذا الفضاء ، الذى تزدحم فيه الكواكب والنجوم والشموس والأقمار ازدحاما ، يدعو الى التأمل الواعى العميق والتفكير الذكى الدقيق •

ومن العجيب أن علماء الروس بصفة خاصة يؤمنون بما سبقهم اليه العرب فى هذا المجال ، فهم يعتقدون أن الحياة ليست مقصورة على الأرض وانما الحياة على الأرجح موجودة أيضا على صورة من الصور فى بعض الوكاكب ، التى تسبح فى هذا الفضاء ، ولا شك أن العلم الحديث اليوم يسير بخطوات فسيحة وسريعة جبارة ، نحو تحقيق الآراء التى اعترف بها العلم العربى من قبل ، وأيدها علماء المسلمين ، مستشهدين على صحة ما ذهبوا اليه بما أشار اليه القرآن

الكريم ، وهذا مما يؤكد أن التراث الحضارى العربى غنى بالحقائق والنظريات العلمية ، التى يمكن أن تزود العلم الحديث بما يوسع آفاقه ، ويزيد فى اخصابه ، والدليل على ذلك أن كل حقيقة جديدة يكشفها علماء عصرنا ـ ما تلبث أن تظهر لهـا جـذور عميقـة فى مراجع التراث العربى الاسلامى ، ويؤيدنا فيما نذهب اليه بعض آى الذكر الحكيم ، ففيها الدلائل البينات ، والشواهد الواضحات ،

يقول الله جل شأنه :

« قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

« سورة الأنبياء »

ويقول تعالى :

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ » .

(سورة النحل) .

ويقول تعالى :

« إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » . (سورة مريم)

ويقول أعز القائلين

« وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » .

(سورة الروم) .

فهذه الآيات ناطقة بالحق شاهدة على أن هناك عوالم أخرى ، تعج بمخلوقات ، لا تحصى عـددا ، تسـبح لله بديع السـموات والأرض ، وتنطق بوحدانيته وتعترف بربوبيتـه ، وبالرغم من هذه الآيات البينية الواضحة ـ فان قوما كانوا وما يزالون يتشككون ، وينظرون الى تراثنا نظرة استخفاف ، باعتباره تراثا قديما فى جملته ، وأن التعريف به واحياءه ضرب من الوهم وتضييع الوقت ، واليوم ينكشف الستار عن الحقائق ، ويبدو لكل ذى بصيرة واعية ، وعقل راجح ـ أن التعريف بهذا التراث فى ميادينه العلميـة المختلفة ـ أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهميـة فى بنـاء صرح ثقافتنـا العربية الاسلامية الجديدة ، التى هى المنطلق الوحيد لحيـاة عزيزة كريمة فى أرض وطننا العربى •

٢ ـ الباب الثانى فى ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها والاختلاف فى كيفيتها

يقول ياقوت : نبدأ أولا فنورد عنها قولا مجملا ، يكون عمادا وبيانا ، لما نأتى به بعد ، وهو أشد ما سمعت فى معناه ، وألخصه :

واختلف قوم فى هذه الأقاليم السبعة ، أفى شمال الأرض وجنوبها أم فى الشمال دون الجنوب ؟ فذهب (هرمس) الى أن فى الجنوب سبعة أقاليم كما فى الشمال ، قالوا : وهذا قول لا يعول عليه لعدم البرهان، وذهب الأكثرون الىأن الأقاليم السبعة فىالشمال دون الجنوب لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب ، وأما اشتقاق الأقاليم فذهبوا الى أنها كلمة عربية واحدها اقليم وجمعها أقاليم ، مثل اخريط وأخاريط وهو نبت ، فكأنه انما سمى اقليما ؛ لأنه مقلوم من الأرض ، التى تتاخمه ، أى مقطوع ، والقلم فى أصل اللغة : القطع ، ومنه قلمت ظفرى ، وبه سمى القلم ؛ لأنه مقلوم ، أى مقطوع مرة بعد مرة ، وقال (محمد بن أحمد أبو الريحان البيروتى) : الاقليم على ما ذكر أبو الفضل الهروى فى المدخل الصاحبى : هو الميل ، فكأنهم يريدون بها المساكن المائلة عن معدل النهار ... ثم ينتقل الى الحديث عن مواضع الأقاليم السبعة وما لكل واحد من البروج الاثنى عشر من البلدان ، فيقول : فأما الحمل فله

بابل وفارس وأذربيجان وفلسطين ، والثور له الماهان وهمذان والأكراد الجبليون ومدين وجزيرة قبرص والاسكندرية والقسطنطينية وعمان والرى وفرغانة ، والجوزاء له جرجان وجيلان وأرمينية ومصر وبرقة وغيرها .

ويبدو أن فكرة الأقاليم السبعة بدأت أولا فى التفكير البابلى ، ويتضح من الأقوال السابقة أن القدماء كانت تعوزهم الرحلات الكشفية الدقيقة ، والامكانات التى تساعدهم على التوغل فى مختلف الأنحاء ، للوقوف على ما يتكون منه سطح الكرة الأرضية من يابس وماء ، والمعلومات التى وصلوا اليها عن تقسيم الأرض الى أقاليم سبعة وعن مواضع هذه الأقاليم ــ تدل على أنهم كانوا يجتهدون بقدر ما لديهم من وسائل ، غير أن معلوماتهم عن الأقاليم السبعة وان لم تكن دقيقة ــ الا أنها تعطينا فكرة عن محاولات ، كان لها أثر عظيم فى تقدم الكشوف الجغرافية فيما بعد !

وفى (الباب الثالث) لا يفوت ياقوتا أن يحدثنا عن بعض الألفاظ الاصطلاحية ، التى يكثر تكرارها فى معجمه ، فيعطينا عن مفهومها فكرة واضحة ، تساعدنا على فهم آرائه ، ويذكر منها (البريد) ، ويقول فى تفسيره : « فأما البريد ففيه خلاف ، وذهب قوم الى أنه بالبادية اثنى عشر ميلا ، وبالشام وخراسان ستة أميال ، وقال أبو منصور : البريد : الرسول وابراده ارساله ، وقال بعض العرب : الحمى بريد الموت ، أى أنها رسول الموت تنذر به ، والسفر

الذى يجوز فيه قصر الصلاة أربعة برد ، أى ثمانية وأربعين ميلا بالأميال الهاشمية ، التى فى طريق مكة ، وقيل لدابة البريد بريد ، لسيرها بالبريد ، قال الشاعر :

وانى أنض العيس حتى كأننى عليها بأجواز الفلاة بريد

وقال ابن الأعرابى : كل ما بين المنزلتين بريد ، ويقول فى الفرسخ : وأما الفرسخ فقد اختلف فيه أيضا ، فقال قوم : هو فارسى معرب ، وأصله (فرسنك) ، وقال اللغويون : الفرسخ عربى محض ، يقال انتظرتك فرسخا من النهار أى طويلا ، وقال الأزهرى : أرى أن الفرسخ أخذ من هذا ، ويقول فى الميل : وأما الميل فقال بطليموس فى المجسطى : الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك ، والذراع ثلاثة أشبار ، والشبر ستة وثلاثون اصبعا.

وذكر فى الباب الرابع (الفىء والغنيمة) ، فيقول : وأما الفىء والغنيمة فان أصل الفىء فى اللغة الرجوع ، ومنه الفىء وهى عقيب الظل الذى للشجرة وغيرها بالغداة ، والفىء بالعشى كما قال حميد بن ثور :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفىء من برد العشى تذوق

وقال أبو عبيدة : كل ما كانت الشمس عليه وزالت عنه فهو فىء وظل ، وما لم تكن الشمس عليه فهو ظل ، ومنه قوله تعالى فى قتال أهل البغى : حتى تفىء الى أمر الله الآية ، أى ترجع ،

وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع الى المسلمين من أملاك الكفار ، وأما الغنيمة فهى ما غنم من أموال المشركين من الأراضى كأرض خيبر ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قسمها بين أصحابه بعد افراز الخمس ، وصارت كل أرض لقوم مخصوصين •

اشتراكيتنا نابعة من ديننا

واضح من شرح ياقوت لمفهوم الغنيمة والفىء أن ما فعله الرسول صلوات الله عليه بأرض خيبر كان عملا اشتراكيا سليما ، واذا فغنائم الحرب من حق المسلمين توزع عليهم توزيعا عادلا ، وشبيه بالغنائم فى عصرنا الانتاج العام للدولة الذى يوزع على كل المواطنين بحسب استعداداتهم وقدراتهم ، وقد أجلى الرسول اليهود عن أرضهم وحصونهم فى خيبر ؛ لأنهم كانوا يكونون فيها قاعدة خطيرة للعدوان الغادر المستمر على المسلمين ، ولم يفعل الرسول ذلك الا بعد أن أذن له فى قتالهم ، وقد تبين من افراده الخمس لبيت المال وتوزيع الأخماس الأربعة على المسلمين أن طبيعة الدين الاسلامى وروحه تسيران فى الاتجاه الاشتراكى العادل والأمثلة التى تؤيد هذا الاتجاه بعد عهد الرسول كثيرة ، فمنها ما ثبت أن سعد بن أبى وقاص قائد جيوش المسلمين لمحاربة الفرس، لما استولى على أرض السواد (العراق) ، وهى أرض مخصبة قام بتوزيعها على أجناد المسلمين الذين اشتركوا فى فتحها ، وقد علم عمر رضى الله عنه ذلك ، ولم ينكر على سعد تصرفه ، فدل ذلك على أن الاتجاه

الاشتراكى أساس أصيل فى بناء النظام الاقتصادى فى الاســـلام ، ولذلك اذا قلنا اليوم ان اشتراكيتنا نابعة من ديننا ـ فاننا لا نعـدو الحق ، ولا تتجاوز الواقع ، فهى اشتراكية عربية اسلامية لا شرقية ولا غربية •

تاريخ الحضارة العربية الاسلامية

لقد أثار ياقوت (رحمه الله) ـ فى نفوسنا أفكارا تتصل بواقعنا العربى الجديد، فجهوده العظيمة فى ميدان الجغرافية تولد فى نفوسنا احساسا عميقا بضرورة توجيه عنايتنا الى تاريخ الحضـارة العـربية الاسلامية ، وبخاصة فى هذا الوقت الذى قامت فيه ثورتنا الحاضرة لتحقيق الأهـداف ، التى حـددها النظام الاســـلامى ، من حيث الارتفاع بمستوى كرامة المواطنين جميعا ، عن طريق تقريب المسافات بين الأغنيـاء والفقراء ، واحيـاء القيم المادية والروحيـة للحضـارة الاسلامية •

ونريد من الحضارة الاسلامية ما قامت عليه من أسس عقائدية وأخلاق ونظم للحياة الفردية والجماعية ، وما أبدعه المسلمون من أدب وفن وفلسفة ، وما ابتكروه من مخترعات ومقومات للحيـــاة الراقية ، وقد أدرك الغربيون قبلنا السر فى الاهتمام بتاريخ الحضارة، فأقبلوا فى جد يدرسونه ، ويعملون على تدريسه لابنائهم وبناتهم فى مدارسهم وجامعاتهم • ولا يفوتنا أن ننبه على أن ما يقوم عليه تاريخ الحضـارة الأوربية مقتبس أكثره من مقـومات حضـارتنا العـربية

الاسلامية وأصولها • ان العناية بدراسة تاريخ هذه الحضارة تفرضها علينا ظروف حياتنا الجديدة ، ومن الواجب أن توجه عناية خاصة الى دراسة تاريخ العلوم عند العرب ، لكى تتبين فى ضوء هذه الدراسة ما قدمه العرب والمسلمون الى الحضارة الانسانية من أفكار وقيم ومبادىء وغيرها ، وبذلك نربط ماضينا الزاهر بحاضرنا الباسم المشرق •

وقد حاول بعض علمائنا فى مصر وفى أحد الأقطار العربية الشقيقة توجيهنا هذه الوجهة ، فقد قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة لجهود العرب فى الكيميا ، والأستاذ نظيف بدراسة علوم الفيزياء العربية فى المرحلة التى انتهت اليها عند ابن الهيثم ، كما وضع عالم أردنى مشهور كتابا فى تاريخ العلوم عند العرب ، وهو الدكتور قدرى حافظ طوقان ، وله فضلا عن ذلك كتب وبحوث على درجة كبيرة من الناحية العلمية فى ميدان التراث العربى المجيد، وللأستاذ محمد خلف الله أحمد محاضرات اذاعية ، ذات قيمة علمية عن الاسلام والحضارة ، كما نوه الدكتور على حسنى الخربوطلى عما قدمه العرب للحضارة الغربية ، عندما أقاموا لهم ملكا عتيدا قائما على أحدث النظم الحضارية ، فى صقلية وجنوبى ايطاليا واسبانيا ، وللدكتور شكرى عياد كتيب عن الحضارة العربية ، وللدكتور جمال الدين الرمادى كتاب عن سير علماء المسلمين وغير شك أننا فى هذا الوقت بحاجة ملحة الى تطوير مناهجنا فى المدارس والجامعات ، بحيث تتناول هذه المناهج الجديدة دراسات

واسعة مستفيضة عن الحضـارة الاسـلامية ، ومن هنـا تبرز أمامنا مسئولية علمائنا الكبار ، الذين من واجبهم أن يضـعوا أسس هذه الدراسات ، بيد أن شعور كل باحث بهذه المسئولية سيساعد حتما على التعمق فى ابراز هذا التاريخ فى الصورة اللامعة ، التى نرجوها ، تلك الصورة التى تعكس ألوانها الزاهية خطوطا واضحة لجهود العرب المسلمين فى مختلف ميادين المعرفة الانسانية .

***

الفصل الثالث



نماذج من معجم البلدان

فيما يلى نماذج مما قاله ياقوت عن البلاد والأماكن والبقاع والديرة مع ضبط أسمائها وبيان اشتقاقها وطالعها ، وما اشتهرت به ومن نسب اليها أو مات فيها من علماء السلف الصالح ، وما قيل فيها من شعر ، والغرض من ذلك رسم صورة متكاملة عن معجم البلدان، تلقى أضواء على اتجاهات علماء العرب والمسلمين فى معلوماتهم الجغرافية وربطها بغيرها من العلوم •

كتاب الهمزة

(أ) (آبه) بالباء الموحدة ، قال أبو سعد ، قال الحافظ أبوبكر أحمد بن موسى بن مردويه (آبه) من قرى أصبهان ، وقال غيره ان آبه من قرى (ساوه) منها جرير بن عبد الحميد الآبى ، سكن

(الرى) ، قلت أنا : أما آبه فبليدة تقابل ساوة تعرف بين العامة بآوه ، فلا شك فيها ، وأهلها شيعة ، وأهل ساوة سنية ، ولا تزال الحروب بين البلدين قائمة على المذهب ، قال أبو طاهر ابن سلفة : أنشـدنى القاضى أبو نصر أحمد بن العلاء الميمدنى (بأهر) من مدن أذربيجان لنفسه :

وقـائلة أتبغض أهل آبه ... وهم أعـلام نظم والكتـابه

فقلت اليك عنى ان مثـلى ... يعادى كل من عادى الصحابه

واليها فيما أحسب ينسب الوزير أبو سعد بن الحسين الآبى ، ولى أعمالا جليلة ، وصحب الصاحب بن عباد ، ثم وزر لمجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، وكان أديبا شاعرا مصنفا ، وهو مؤلف كتـاب (نثر الدرر) ، وتاريخ الرى ، وغير ذلك ، وآبه أيضا من قرى (البهنسا) من صعيد مصر ، أخبرنى بذلك القاضى المفضل بن أبى الحجاج عارض الجيوش بمصر •

(ب) (الأثيل) تصغير الأثل : موضع قرب المدينة ، وهنـاك عين ماء لآل جعفر بن أبى طالب ، بين بدر ووادى الصفراء ، ويقال له : ذو أثيل ، وقد حكينا عن ابن السكيت انه بتشديد الياء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قتل عنده النضر بن الحارث بن كلدة عند منصرفه من بدر ، فقالت قتيلة بنت النضر ترثى أباها ، وتمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أيا راكبا إن الأُثَيْل مظِنَّةٌ   من صُبح خامسةٍ وأنت موفَّقُ (١)
بلغ بها ميتاً فإن تحيَّـــةً   ما إن تزال بها الركائب تخفُقُ (٢)
منك إليك وعبرة مسفوحة   جادت لمائحها وأخرى تخنُقُ (٣)
فليسمعَنَّ النضْرُ إن ناديتَه   إن كان يسمعُ ميت أو ينْطِقُ (٤)
ظلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه   لله أرحام هناك تشقَّقُ (٥)
أمحمَّدٌ ولأَنْتَ ضِنْءُ نجيبةٍ   فى قومها والفحل فحل مُعْرِقُ (٦)
ما كان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المُحْنَقُ (٧)

فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم شعرها ــ رق لها ، وقال :

---

(١) الأثيل : موضع فيه قبر النضر ، والمظنة موضع الظن ، تريد ان الأثيل مظنة أن تصل اليه فى صبح الليلة الخامسة ، ان وفقت الى الطريق ، ولم تحد عنه ، (٢ ــ ٣) ان بعد (ما) زائدة ، وتخفق تتحرك ، ومسفوحة : مصبوبة ، والمائح : النازل فى البئر ليملأ الدلو ومعنى البيتين : اذا وصلت هذا المكان فبلغ ساكنه تحية منى اليه ، لا تزال الركائب تتحرك بها ، وبلغه عبرة مصبوبة ، استنزفها من العين فقده ، وأخرى آخذة بالحلق (٤) تقول : ان كان يسمع أو ينطق، وهو محال، فعلى النضر ان يسمع نداءك (٥) تنوشه : تتناوله واللام فى (لله) للتعجب ، والمعنى لم يقتله احد غير بنى ابيه ، فعجبا من ارحام تتقطع هناك (٦) (ضنء نجيبة) وروى نســل نجيبة والنجيبــة : الكريمة ، والضنء : الولد (٧) الحنق : الغيظ او أشده .

ويقال : ان هذه الابيات لقتيلة بنت الحارث ، وهى ترثى بها اخاها ، ولكن ياقوتا يروى انها بنت النضر ، وهى ترثى بها اباها .

لو سمعت شعرها قبل قتله ـ لوهبته لها ، والأثيل أيضا موضع فى ذلك الصقع أكثره لنبى ضمرة من كنانة

ولا يفوتنا أن نشير الى أن النضر بن الحارث مع أنه ابن خالة الرسول ـ كان من أشد أعداء الرسول ، وقد آذاه بما لم يؤذه به أحد ، وأبوه الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور ، وهو الذى عالج سعد بن أبى وقاص فى مرضه ، باشارة من النبى (حـ) (ارم ذات العماد) : هى ارم عاد ، يضاف ولا يضاف، أعنى فى قوله عز وجل : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد » •

فمن أضاف لم يصرف (ارم) ؛ لأنه يجعله اسم أمهم أو اسم بلدة ، ومن لم يضف جعل (أرم) اسمه ، ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاد اسم أبيهم ، وارم اسم القبيلة ، وجعله بدلا منه •

وقال بعضهم (ارم) لا ينصرف للتعريف والتأنيث ؛ لأنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير (ارم صاحب ذات العماد) لأن ذات العماد مدينة ، وقيل : ان ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذات الملك ، وقيل : ارم اسم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب ارم ، ويقرأ بعاد ارم ذات العماد بالجر على الاضافة ، فهذا اعرابها ، ثم اختلف فيها ، فمنهم من جعلها مدينة ، ومنهم من قال : هى أرض عربية كانت واندرست ، فهى لا تعرف ، ومنهم من قال : هى

الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ؛ وكذلك قال شبيب ابن يزيد بن النعمان بن بشر :

لولا التي عَلِقَتْني من علائقِها لم تُمْسِ لي إرمٌ داراً ولا وطنا

قالوا أراد دمشق ، واياها أراد البحتري بقوله :

إليك رحَلْنَا العيسَ عن أرضِ بابلٍ
يجورُ بها سَمْتُ الدَّبور ويَهْتَدِي[1]
إلى إرمٍ ذاتِ العمادِ وإنَّها
لموضعُ قَصْدِي مُوجِفا وتعمُّدِي

وحكى الزمخشري أن ارم بلد منه الاسكندرية ، وروى آخر أن (ارم ذات العماد) التي لم يخلق مثلها في البلاد باليمن ، بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ، ورووا أن شداد بن عاد كان جبارا ، ولما سمع بالجنة ، وما أعده الله فيها لعباده الصالحين من قصور الذهب والفضة ، والمساكن التي تجرى من تحتها الأنهار ، والغرف التي من فوقها غرف ، قال لكبرائه : اني متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة ، فوكل ذلك الى مائة رجل من وكلائه ، وقهارمته ، تحت كل رجل منهم ألف من الأعوان ، وأمرهم أن يطلبوا فضاء فلاة من أرض اليمن ، ويختاروا أطيبها تربة ، وملكهم

(١) العيس : الابل البيض يخالط بياضها سواد خفيف ، والدبور الريح الغربية تقابل الصبا ، وهى الريح الشرقية .

من الأموال ... ومثل لهم كيف يعملون ، وكتب الى عماله الثلاثة (غانم بن علوان) و (الضحاك بن علوان) و (الوليد بن الريان)، يأمرهم بأن يكتبوا الى عمالهم فى آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما فى أرضهم من الذهب والفضة ، والدر (١) ، والياقوت (٢) ، والمسك (٣) ، والعنبر (٤) ، والزعفران (٥) ، فوجهوا اليه ، ثم وجه الى جميع المعادن ، فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ، ثم وجه عماله الثلاثة الى الغواصين بالبحار ، فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل ذلك الى شداد ، ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت والزبرجد (٦) وسائر الجواهر ، فاستخرجوا منها شيئا عظيما ، فأمر بالذهب ، فضرب مثل اللبن ، ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدر والياقوت والزبرجد

---

(١) الدر : كبار اللؤلؤ ، واللؤلؤ الصغير يسمى أيضا الدر أو لؤلؤ النظم .

(٢) الياقوت : أصناف أفضله الاحمر الرمانى ، ثم الاحمر الجمرى ، ثم الاصفر ، ثم الاسمانجونى أى العسلى ، ثم الابيض ، ثم الازرق .

(٣) (المسك) طيب ، وهو من دم دابة كالظبى ، تدعى غزال المسك .

(٤) العنبر نوع من انواع الطيب ، وقيل هو الزعفران .

(٥) (الزعفران) نبات أصفر الزهر ، له أصل كالبصل ، والجمع زعافر .

(٦) الزبرجد : يقول بعضهم انه الزمرد ، وليس كذلك ، لان الزمرد حجر كريم اخضر شديد الخضرة ، وافضل الوانه الذبابى نسبة الى الذباب الكبير الربعى ، واما الزبرجد فهو حجر كريم آخر أخضر الى الصفرة ، وارخص بكثيرا من الزمرد .

والعقيق (١) ، ففضض بها حيطانها ، وجعل لها غرفا فوقهـا غرف ، ثم أجرى تحت المدينة واديا ، ساقه اليها من تحت الأرض أربعين فرسخا ، كهيئة القناة العظيمة ، ثم أمر فأجـرى من ذلك الوادى سواقى فى تلك السكك والشوارع والأزقة ، تجرى بالماء الصافى ، وأمر بحـافتى ذلك النهـر ، وجميع السـواقى ، فطليت بالذهب الأحمر ، وبنى لنفسه فى وسـط المدينـة على شاطىء ذلك النهر قصرا منيفا عاليا ، يشرف على تلك القصور كلها ، وجعل بابها يشرع الى الوادى بمكان رحيب واسع ، ونصب عليه مصراعين من الذهب.

ويستمر ياقوت فى حديثه عن تلك المدينة فيقول : وأن الله تعالى أحب أن يتخذ حجة الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء الى التوبة والانابة ، فانتخب لرسالته هودا عليه السلام ، وكان من صميم قومه وأشرافهم ، وهو فى رواية بعض أهل الأثر هود بن خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام،ثم ان هودا عليه السلام أتاه فدعاه الى الله تعالى ، وأمره بالايمان والاقرار بربوبية الله عز وجل ووحدانيتـه ، فتمادى فى الكفر والطغيان .. .. .. ، فأنذره هود بالعذاب ، وحذره وخوفه بزوال ملكه ، فلم يرتدع ، عما كان عليـه ، ولم يجب هـودا الى

---

(١) (العقيق) : انواع اجوده الاحمر الدموى ، ويوجد ملونا ومعرقا.
(تعليق) واضح من ايراد قصة بناء (ارم ذات العماد) ان العقل لا يستسيغها ، وانها من نسج الخيال ، ومن قبيل الخرافات التى اشـار اليها ياقوت .

ما دعاه اليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها ، فعزم على الخروج اليها في جنوده ، فخرج في ثلاثمـائة ألف من حرسه وشاكريته ومواليه ، وخلف على ملكه بحضرموت وسـائر أرض العرب ابنه (مرثد بن شداد) وكان مرثد فيما يقال مؤمنـا بهود عليه السلام ، فلما قرب شداد من المدينة ، وانتهى الى مرحلة منها جاءت صيحة من السماء ، فمات هو وأصحابه أجمعون •

ثم نرى ياقوتا يطعن في هذه القصة ، فيقول : وظننا أنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعها المزوقة •

وبهذا الطعن أو الشك يساير ياقوت منهجه الذى رسمه من قبل ، وهو أنه سيروى بعض القصص والأخبار بحسب ما سمعها ، وعلى ما رويت له ، مع شكه فيها ، وهو لا يمكن أن يكون كاذبا في روايته للخبر أو الحديث أو القصة ، لأنه راو فقط ، والعهدة على صاحب الرواية ، وهذا أضعف الايمان في مجال البحث العلمي ، ومع ذلك فان الشك أول مرتبة من مراتب اليقين •

كتاب الباء من كتاب معجم البلدان

١ ـ (بحيرة طبرية) : قال الأزهرى : هى نحو من عشرة أميال في ستة أميال ، وغور مائها علامة لخروج الدجال ، وروى أن عيسى عليه السلام ، اذا نزل بالبيت المقدس ليقتل الدجال عندها ـ يظهر يأجوج ومأجوج ، وهم أربعة وعشرون أمة ، لا يجتـازون

بحي أو ميت من انســان الا أكلوه ، ولا ماء الا شربوه ، فيجتــاز أولهم ببحيرة طبرية ، فيشربون جميع ما فيها ، ثم يجتاز الأخير منهم وهي ناشفة فيقول : أظن أنه قد كان ها هنا ماء ، ثم يجتمعون بالبيت المقدس ، فيفزع عيسى ومن معه من المؤمنين ، فيعلو على الصخرة، ويقوم فيهم خطيبا ، فيحمد الله ويثنى عليه ، ثم يقول : اللهم انصر القليل في طاعتك على الكثير في معصيتك ، فهل من منتدب ؟ فينتدب رجل من جرهم ورجل من غسان لقتالهم ، ومع كل واحد خلق من عشيرته ، فينصرهم الله عليهم ، حتى يبيــدوهم ، ولهــذا الخبر مع استحالته في العقل نظائر جمة في كتب الناس ، والله أعلم .

وأما بحيرة طبرية فقد رأيتها مرارا ، وهي كالبركة يحيط بها الجبل ، وتصب فيها فضلات أنهر كثيرة، تجيء من جهة (بانياس) والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر عظيم ، فيسقي أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، ويصب في البحيرة المنتنة قرب أريحا ومدينة طبرية في لحف الجبــل مشرفة على البحيرة ، ماؤها عذب شروب ، ليس بصادق الحلاوة ... ، وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتيء يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام ، وبين البحيرة والبيت المقدس نحو من خمســين ميــلا ... واياها أراد المتنبي يصف الأسد .

أَمُعفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بِسوْطِهِ ‌ ‌ ‌ لمن ادَّخرت الصارمَ المصقُولا(1)
وقعتْ على الأُرْدُنِّ منه بليَّةٌ ‌ ‌ ‌ نُضِدَت بها هامُ الرِّفاقِ تُلُولا(2)
وِرْدٌ إذا وردَ البُحيرةَ شاربا ‌ ‌ ‌ ورد الفُرات زئيرهُ والنِّيلا(3)

حرف الباء

(بغداد) : أم الدنيا ، وسيدة البلاد ، وقال ابن الأبنارى : أصل بغداد للأعاجم والعرب ، وتختلف فى لفظها اذا لم يكن أصلها

---

(1) عفره : مرغه فى التراب ، والهزبر : الشديد ، والصارم : السيف القاطع ، وكان بدر بن عمار وهو الذى يمدحه بهذه الابيات — هاج أسدا عن بقرة افترسها ، توثب على كفل فرسه ، واعلجه عن سل السيف ، فضربه بسوطه ، يريد ان يقول لبدر لقد صرعت الاسد بالسوط وهو أشد الحيوان ، فلمن خبأت سيفك ؟

(2) نضدت : جمع بعضها فوق بعض ، والهام : الرءوس ، والرفاق جمع رفقة : الجماعة فى السفر وتلولا : حال المراد مماثلا للتلول ، وهى جمع تل والتل : الجبل الصغير ، يقول أبو الطيب : ان هذا الاسد الذى قتله بدر بن عمار كان بلية كبرى وقعت على أهل نهر الاردن ، فقد فتك بكثير من المسافرين ، حتى كانت رءوسهم كالتلال المجتمعة من التراب .

(3) الورد : الذى يضرب لونه الى الحمرة ، وكذلك الاسد والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية ، والزئير : صوت الاسد ، يقول ابو الطيب : وكان هذا الاسد اذا زأر فى طبرية بلغ زئيره لعراق ومصر ، وبين ورد ، وورد جناس لطيف .

من كلامهم ، ولا اشتقاقها من لغاتهم ... وأجاز الكسائي بغداد على الأصل ، وحكى أيضا (مغداذ) ، و (مغداد) و (مغدان) ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث ، وتسمى مدينة السلام أيضا ، فأما (الزوراء) فمدينة المنصور خاصة ، وسميت (مدينة السلام) ؛ لأن دجلة يقال له : وادي السلام : ... وقيل ان بغداد كانت قبل ذلك سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم ، فيربحون الربح الواسع، وكان اسم ملك الصين (بغ) ، فكانوا اذا انصرفوا الى بلادهم قالوا (بغ داد) أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، وقيل انما سميت (مدينة السلام) ؛ لأن السلام هو الله فأرادوا (مدينة الله) .

ويقول ياقوت فى بدء عمارتها : وكان أول من مصرها ، وجعلها مدينة ـ المنصور بالله (أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ثانى الخلفاء من بنى العباس) ، وانتقل اليها من الهاشمية ، وهى مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة ، وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ هـ ، ونزلها سنة ١٤٩ هـ ، وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده ، فبلغه ذلك من فعلهم ، فانتقل عنها يرتاد موضعا ، وقال ابن عياش بعث المنصور روادا وهو بالهاشمية ، ليرتادوا له موضعا ، يبنى فيه مدينة ، ويكون الموضع واسطا رافقا بالعامة والجند، فنُعت له موضع قريب من (بارما)،

وذكر له غذاء طيب وهواء ، فخرج اليه بنفسه ، حتى نظر اليه ، وبات فيه ، فرأى موضعا طيبا ، فقال لجماعة منهم : (سليمان بن مخالد أبو أيوب المورياني) و (عبد الله بن حميد الكاتب) : ما رأيكم في هذا الموضع ؟ فقالوا : طيب موافق ، فقال : صدقتم ، ولكن لا مرفق فيه للرعية ، وقد مررت في طريقي بموضع ، تجلب اليه الميرة والأمتعة في البر والبحر ، وأنا راجع اليه وبائت فيه ، فان اجتمع لي ما أريد من طيب الليل ، فهو موافق لما أريده لي وللناس ، قال : فأتى موضع بغداد ، وعبر موضع قصر السلام ، ثم صلى العصر ، وذلك في صيف وحر شديد ، وكان في ذلك الموضع بيعة ، فبات أغيب مبيت ، وأقام يومه ، فلم ير الا خيرا ، فقال : هذا موضع صالح للبناء ، فان الماء يأتيه من الفرات ودجلة .. ووضع أول لبنة بيده ، فقال : باسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله .

ثم يذكر ياقوت بعض ما قاله الشعراء في مدحها ، فيقول :
وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن .

سقى الله صوب الغاديات محلة
بيغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذ كن في مصر

(بلغار) بالضم والغين المعجمة : ومدينة الصقالبة ، ضاربة في الشمال ، شديدة البرد ، لا يكاد الثلج يقلع من أرضها صيفا ولا شتاء ، وقل أن يرى أهلها أرضا ناشفة ، وبناؤهم من الخشب وحده ، وهو أن يركبوا عودا فوق عود ، ويسمروها بأوتاد من خشب أيضا محكمة ، والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب ، وبين (اتل) مدينة (الخزر) وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد اليها في نهر اتل نحو شهرين ، وكان ملك بلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله (العباسى) ، وأرسلوا الى بغداد رسولا ، يعرفون المقتدر ذلك ، ويسألونه انفاد من يعلمهم الصلوات والشرائع ، ولكن لم أقف على السبب في اسلامهم ... (١) .

---

(١) نقل ياقوت قصة ملك بلغار من رسالة مشهورة لاحمد بن فضلان ، وكان قد زار مملكة بلغار بناء على دعوة من ملكها ، أرسل بها الى الخليفة المقتدر ، ويقول ابن فضلان : فى اول رسالة ان (بلطوار) ملك الصقالبة سأل امير المؤمنين المقتدر ان يبعث اليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الاسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبرا ، ليقيم عليه الدعوة له فى بلده ، وسأله كذلك بناء حصن فيه من الملوك المخالفين له ، ويقال : ان يهود الخزر كانوا قد ابتزلوا الصقالبة ، وفرضوا عليهم الاتاوات ، فوقع المقتدر معاهدة صداقة ومودة ونصرة بينه وبين ملك بلغار يقدم بمقتضاها كل وسائل المساعدة والنصرة لملك بلغار ضد يهود الخزر ، وهى تدل على صلات المودة التى كانت بين الروس والمسلمين فى العصر العباسى ، والتاريخ يعيد نفسه اليوم ، أما هؤلاء الصقالبة فكانوا يسكنون حول نهر (الفلجا) ويمتد ملكهم ، حتى يبلغ قازان ، التى تقع على هذا النهر محاذية لموسكو ..

كتاب الجيم

(الجزائر) اسم علم لمدينـة على ضـــفة البحر بين افريقيـة والمغرب ، وبينها وبين بجاية أربعة أيام ، وكانت من خواص بلاد بني حماد بن زيرى بن مناد الصنهـــاجي ، وتعرف بجزائر (بني مزغناى) ، وربما قيل لهـا جـزيرة بني مزغنـاى وقال أبو عبيد البكرى : جزائر بنى مزغناى مدينة جليلة قديمة البنيان ، فيها آثار للأول عجيبة ، وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الأمم ، وصحن اللعب الذى فيها ، قد فرش بحجارة ملونة صـغار مثل (الفسيفساء) فيها صور الحيوانات بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان ، ولها أسواق ومسجد وجامع ، ومرســاها مأمون ، لها عين عذبة ، يقصد اليها أصحاب الســـفن من افريقية والأندلس وغيرهما ، وينسب بهذه النسبة جماعة منهم : أبو بكر محمد بن الفرج الجزائرى المصرى ••• يروى عن ابن قديد أنه توفى فى ذى القعده سنة ٣٦٨ هـ •••

كتاب الحاء

(الحجون) آخره نون ، والحجن الاعوجاج ، ومنه (غزوة حجون) التى يظهر فيها الغازى الغزو الى موضع ، ثم يخالف الى غيره ، وقيل هى البعيدة ، والحجون جبل بأعلى مكة ، عنده مدافن أهلها ، قال السـكرى : مكان من البيت على ميـل ونصف ، وقال

السهيلى : على فرسخ وثلث من سقيفة آل زياد بن عبد الله الحارثى، وكان عاملا على مكة فى أيام السفاح ، وبعد أيام المنصور ، وقال الأصمعى : الجبل المشرف الذى بحـذاء مسجد البيعة على شـعب الجزارين وقال مضاض بن عمرو الجرهمى يتشـوق الى مكة ، لما أجلتهم عنها خزاعة :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا
أنيسٌ ولم يَســـمر بمكَّةَ سامِرٌ(٢)
بلى نحْنُ كنَّا أهلَهـــا فأبادَنا
صروفُ اللّيالى والجـدودُ العوأثِرُ(٣)
فأخرجنا منها المليكُ بقُـــدرةٍ
كذلـكمُ بالناس تجرى القـــادِرُ(٤)
فسحَّت دموع العين تجرى لِبـــلْدةٍ
بها حرم أمن وفيها المشـــاعِرُ

(١) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلث من مكة وهـو والصفاجبلان بها ، والسـامر : الجماعة يتحدثون بالليل .

(٢) يقال عثر جده يعثر : تعس ، وأعثره الله أتعسه ، والجد : الحظ

(٣) يحتمل انه يريد انه يريد بالمليك الله عز شأنه ، فهو الذى سلط عليهم من أخرجهم لما عصوه ، ويحتمل انه يريد (عمرو بن لحى) ملك خزاعة ورئيسهم .

كتاب (الدال)

١ ـ (دير سمعان) يقال بكسر السين وفتحها ، وهو دير بنواحي (دمشق) في موضع نزه ، وبساتين محدقة به ، وعنده قصور ودور ، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ... وروى أن صاحب الدير دخل على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه بفاكهة ، أهداها اليه ، فأعطاه ثمنها ، فأبى (الديراني) أخذه فلم يزل به حتى قبض ثمنها ، ثم قال : يا ديراني انه بلغني أن هذا الموضع ملككم ، فقال : نعم ، فقال : اني أحب أن تبيعني منها موضع قبر سنة ، فاذا حال الحول فانتفع به ، فبكى الديراني وحزن وباعه ، فدفن فيه ، فهو الآن لا يعرف ، وقال الشريف الرضي الموسوي :

يا ابنَ عبدْ العزيزِ لو بَكَتِ العَيْـ ... ـنُ فتًى من أميَّةَ لبكيتُك
أنت أنقذتنا من السب والشتْـ ... ـمِ فلو أمكن الجزاءُ جزيتك
دير سَمْعان لا عَدَتْك العوادي ... خيْرُ ميتٍ من آلِ مروان ميتُكَ

وأما الذي في جبل لبنان فمختلف فيه ، وسمعان هذا الذي ينسب اليه الدير أحد أكابر النصارى ، ويقولون : انه شمعون الصفا ، والله أعلم ، وله عدة أديرة ، منها هذا المقدم ذكره ، وآخر

بنواحى أنطاكية على البحر ، وقال ابن بطلان فى رسالته : وبظاهر انطاكية (دير سمعان) ، وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد ، يضاف اليه المجتازون ، وله من الارتفاق كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله فى السنة أربعمائة ألف دينار ..

٢ ـ (دير طور سيناء) ويقال كنيسة الطور ، وهو فى قلة طور سيناء ، وهو الجبل الذى تجلى فيه النور لموسى عليه السلام وفيه صعق ، وهو فى أعلى الجبل مبنى بحجر أسود ، وعرض حصنه سبعة أذرع ، وله ثلاثة أبواب حديد ، وفى غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر ، اذا أرادوا رفعه رفعوه، واذا قصدهم قاصد أرسلوه، فانطبق على الموضع ، فلم يعرف مكان الباب ، وداخلها عين ماء وخارجها عين أخرى ، وزعم النصارى أن بها نارا من أنواع النار الجديدة ، التى كانت فى بيت المقدس ، يوقدون منها فى كل عشية ، وهى بيضاء ضعيفة الحر ، لا تحرق ، ثم تقوى اذا أوقد منها السرج، وهو عامر بالرهبان ، والناس يقصدونه .

كتاب السين

(سمرقند) بفتح أوله وثانية ، ويقال لها بالعربية (سمران) بلد معروف مشهور ، قيل انه من أبنية ذى القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة (الصغد) مبنية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه ،

قال أبو عون : سمرقند فى الاقليم الرابع طولها تسع وثمانون درجة ونصف ، وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف ، وقال الأزهرى : بناها (شمر أبو كرب) فسميت (شمركنت) فأعربت فقيل (سمرقند) ، وهكذا تلفظ به العرب فى كلامها وأشعارها ، وقال يزيد بن مفرغ يمدح سعيد بن عثمان ، وكان قد فتحها :

لهفى على الأمر الذى كانت عواقبه الندامة
تركى سعيداً ذا الندى والبيت ترفعه الدعامة
فُتحت سمرقندٌ له وبنى بعرصتها خيامه

وبالبطيحة من أرض (كسكر) قرية تسمى (سمرقند) أيضا ، ذكره المفجع فى كتاب (المنقذ فى الايمان) فى أخبار ملوك اليمن ، قال : لما مات (ناشر ينعم) الملك ـ قام بالملك بعده (شمر ابن أفريقس بن أبرهة) ، فجمع جنوده ، وسار فى خمسمائة ألف رجل ، حتى ورد العراق ، فأعطاه (يستاشف) الطاعة ، وعلم ألا طاقة له به ، لكثرة جنوده ، وشدة صولته ، فسار من العراق ، لا يصده صاد الى بلاد الصين ، فلما صار بالصغد ـ اجتمع أهل تلك البلاد ، وتحصنوا منه بمدينة (سمرقند) ، فاحاط بمن فيها من كل وجه ، حتى استنزلهم بغير أمان ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأمر بالمدينة فهدمت ، فسميت (شمركند) أى : شمر هدمها ، فعربتها العرب فقالت : سمرقند ... وقيل : ان (سمرقند) من

بناء الاسكندر ، واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخا ، وفيها بساتين ومزارع وأرحاء (١) ، ولها اثنا عشر بابا ، من البـاب الى البـاب فرسخ ، وعلى أعلى السور آزاج (٢) وأبرجة للحرب ، والأبواب الاثنـا عشر من حديد ، وبين كل باب منزل للنُّـواب ، فاذا جزت المزارع صرت الى (الربض) (٣) ، وفيه أبنيـة وأسـواق ، وفى ربضها من المزارع عشرة آلاف جريب ... ولما ولى سعيد بن عثمان خراسان سنة ٥٥ هجرية من جهة معاوية ، عبر النهر ، ونزل على سمرقند محاصرا لها ، وحلف لا يبرح ، حتى يدخـل المدينـة ، ويرمى (القهندز) (٤) بحجر او يعطوه رهنا من أولاد عظمائهم ، فدخل المدينة ، ورمى (القهندز) بحجر ، فثبت فيه ، فتطير أهلها بذلك ، وقالوا ثبت ملك العرب فيهـا ، وأخذ أرهانهم وانصرف ، فلما كانت سنة ٨٧ هجرية عبر (قتيبة بن مسـلم) النهر ، وغزا بخارى والشاش ، ونزل على سمرقند وهى غزوته الأولى ، ثم غزا ما وراء النهر عدة غزوات فى سبع سنين ، وصالح أهلها على أن له ما فى بيوت النيران وحلية الأصنام ...

(١) الارحاء جمع رحى : الطاحون .
(٢) الآزاج : ومفرده أزج : بيوت مبنية طولا ، تشبه الابراج
(٣) الربض : ما حول المدينة
(٤) (القهندز) قال الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل : اسم مدينة وجبل ، ويفهم من كلام ياقوت انه معبود أهل المدينة .

(عدن) بالتحريك وآخره نون ، وهو من قولهم : عـــدن بالمـــكان اذ أقام به ، وبذلك ســـميت (عدن) ، وقال الطبرى : سميت (عدن) و (أبين) بعدن وأبين ابنى عدنان ، وهذا عجب لم أر أحدا ذكر أن عدنان كان له ولد اسمه عدن غير ما ذكر فى هذا الموضع ، وهى مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، ردئة لا ماء فيهـــا ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم ، وماؤها مع ذلك ردىء ، الا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند ، والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك ، فانهـــا بلدة تجارة وتضاف الى (أبين) وهو مخلاف : عدن من جملتـــه ، وقال أبو محمد الحسن بن أحمد الهمذانى اليمنى : عدن جنوبية تهامية ، وهو أقدم أسواق العرب ، وهو ساحل يحيط به جبـــل ولم يكن فيه طريق ، فقطع فى الجبل باب بزبر الحديد ، فصار لها طريق الى البر » ..

(عرفات) بالتحريك وهو واحــــد فى لفظ الجمع ، قال الأخفش : انما صرف لأن التـــــاء صارت بمنزلة الياء والنون فى مسلمين ، وصار التنوين بمنزلة النون ، فلما ســـمى به ترك على حـــاله ، وكذلك القـــول فى أذرعات ، وقال الفراء : (عرفات) لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليـــوم يوم عرفة ، مولد وليس بعربى محض ، والذى يدل على ما قاله الفراء أن عرفة وعرفات اسم

لموضع واحد ، ولو كان جمعا لم يكن لمسمى واحد ، ويحسن أن يقال : ان كل موضع منها اسمه عرفة ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا انها متقاربة مجتمعة ، فكأنها مع الجمع شيء واحد ، وقيل ان الاسم جمع والمسمى مفرد ، فلم ينـــكر ، والفصـــيح فى عرفات وأذرعات الصرف ، قال امرؤ القيس : تنورتها من أذرعات وأهلها •

وانما صرفت لأن التاء فيها لم تتخصص للتأنيث ، بل هى أيضا للجمع ، فأشبهت التاء فى بيت ، ومنهم من جعل التنوين للمقابلة ، أى مقابلا للنون التى فى جمع المذكر الســالم ، وهى على هذا غير مصروفة ، وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم ، وليس كما قال بعضهم : ان عرفة مولد •

وعرفة حدها من الجبل المشرف على بطن عرفة الى جبـــال عرفة ، وقرية عرفة موصل النخل بعد ذلك بميلين ، وقيل فى سبب تسميتها بعرفة : ان جبريل عليه السلام عرف ابراهيم عليه السلام المناسك ، فلما وقفه بعرفة ـ قال له : عرفت ، قال : نعم ، فسميت عرفة ، وقيل بل سميت بذلك ؛ لأن آدم وحواء تعارفا بها ، بعـــد نزولهما من الجنة ••

(عمان) بالفتح ، ثم التشديد وآخره نون ، يجوز أن يكون فعـــلان من عم يعم ، فلا ينصرف معـــرفة وينصرف نكرة ، ويجـوز أن يكون فعَّالا من عمن ، فيصرف فى الحالتين اذا عنى به البلد ، وعمان : بلد فى طرف الشام،وكان قصبة أرض البلقاء ••

كذلك ضبطه الخطابى ، ثم حكى فيه تخفيف الميم أيضا ... والبلقاء بالشام ، وقيل : ان عمان هى مدينة (دقيانوس) ، وبالقرب منهـا الكهف (١) والرقيم (٢) ـ معروف عند أهل تلك البـلاد ، والله أعلم ، وقد قيل غير ذلك وقال أبو عبـد الله محمـد بن أحمـد البشارى : عمان على سيف البادية ، ذات قرى ومزارع ، ورستاقها البلقاء ، وهى معدن الحبوب والأنعام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف فى طرف السوق ، مسقف الصحن ... على جبل يطل عليها ، وبها ملعب سليمان بن داود عليه السلام، وهى رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جهـال ، والطرق اليها صعبة ، قال الأحوص بن محمد الأنصارى :

أقول بعمّان وهـل طربى به
إلى أهل سَلع(٣) إن تشوقت نافع

وقال الحطيم العكلى يذكر عمان :

أعوذ بربى أن أرى الشام بعدها وعمّان ما غنّى الحمام وغرّدا

(١ ـ ٢) الكهف هو غار فى الجبـل ، والرقيم لوح كتب فيـه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على بابه ، وقيل الرقيم : الكتاب ، ومنه كتاب مرقوم أى مكتوب ، وقيل الرقيم : اسم الوادى الذى كان فيه الكهف .

(٣) سلع بالفتح مدينة الانباط ، وهى (بطرا) باليونانية Petra وأطلالها باقية بوادى موسى .

وينسب الى (عمان) أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله ابن عبد الرحمن الكنانى العمانى ، قال الحافظ أبو القاسم من أهل عمان .. قدم دمشق وحدث بها عن عطاء بن السائب بن أحمد ابن حفص العمانى المخزومى ، ومحمد بن هرون بن بكار ، وعبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى القاضى ، وروى عنه أبو الحسين الرازى ، وأبو بكر أحمد بن صانى مولى الحباب ابن رحيم البزاز ..

كتاب الغين

(الغوطة) بالفتح ثم السكون وطاء مهملة ، من الغائط ، وهو المطمئن من الأرض ، وجمعه غيطان وأغواط وقال ابن الأعرابى : الغوطة مجتمع النبات ، وقال ابن شميل : الغوطة الوهدة فى الأرض المطمئنة ، والغوطة : الكورة التى منها (دمشق) استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ولا سيما من شماليها ، فان جبالها عالية جدا ، ومياهها خارجة من تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة عدة أنهر ، فتسقى بساتينها وزروعها ، ويصب باقيها فى أجمة هناك وبحيرة ، والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة ، قبل أن يكون بها مزارع للمستغلات ... وهى بالاجماع أنزه بلاد الدنيا ، وأحسنها منظرا ، وهى احدى جنان الدنيا الأربع، وهى الصُّغد ، والأبلة ، وشعب بوان ، والغوطة ، وهى من أجلها،

والغوطة بالضم أيضا ، يقال : غاط فى الأرض غوطا وهى غوطة أى منخفضة ، وهى بلد فى بلاد طيء ..

كتاب الفـــاء

(الفراديس) جمع فردوس ، وأصله رومى معرب ، وهو البستان ، هكذا قال المفسرون ، وقد قيـــل : ان الفردوس تعرفه العرب ، وتسمى الموضع الذى فيه كرم : فردوسا ، وقيل كل موضع فى فضاء : فردوس ، والفردوس مذكر ، وانمـــا أنث فى قوله تعالى : « الذين يرثون الفردوس هم فيهـــا خالدون » . لأنه عنى الجنة .. وأهل الشام يســـمون الكروم والبساتين : الفراديس ، موضع بقرب دمشـــق ، وباب الفراديس من أبواب دمشق ... والفراديس موضع قرب حلب بين برية (خساف) و (حاضر) طيء من أعمال (قنسرين) ، واياها عن المتنبى بقوله ، وقد اجتاز بها فسمع زئير الأسد :

أجارُكِ يا أُسْدَ الفراديسِ مُكرمُ ؟
فتسكنَ نفسى أم مهانٌ فمُسْلَمُ (١)

---

(١) يقول المتنبى مخاطبا اسود هذا المكان : هل يكون من جاورك مكرما عزيزا ، فتسكن نفسى الى جوارك ، أو يكون مهانا مخذولا ، وقوله : فتسكن نفسى جواب الإستفهام ، ولذلك نصبه بالفاء .

ورائى وقُدَّامى عُـــداةٌ كثيرةٌ

أحاذِرُ من لصٍّ ومِنْكِ ومُنْهمُ[1]

فهل لك فى حِلْفِى على ما أريدهُ

فإنّى بأسْبَابِ المعيشـــةِ أعلمُ[2]

٢ ـ (الفسطاط) وفيه لغات ، وله تفسير واشتقاق ، وسبب يذكر عن ذكر عمارته ، وأنا أبدأ بحـديث فتح مصر ، ثم أذكر اشتقاقه، والسبب فى استحداث بنائه ، حدث الليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة عن يزيد بن جليب وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعيـاش ابن عباس .. أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الجابية خلا به عمرو بن العاص ، وذلك فى سنة ١٨ من التاريخ (الهجرى) ، فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى فى المسير الى مصر ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرضين أموالا ، وأعجز عن حرب وقتال ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمروبن العاص ينظم أمرها عنده ، ويخبره بحالها ، ويهون عليها أمرها فى فتحها ، حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل .. قال أبو عمرو الكندى انه سار ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة .. وقال له سر وأنا مستخير الله تعـالى فى

(١) وانما اطلب جوارك لآمن هؤلاء الذين اخافهم واحذرهم .

(٢) والحلف : اسم من المحالفة ، وهى المعاهدة ، يقـول : هـل لك رغبة فى معاهدتى على ما أريده من جوارك فانى أعلم منك بأسـباب المعيشـة ، والتصرف فى كسـب الرزق ، وهذا ترغيب من المتنبى للاسـد ، لكى ترضى بجواره

تسييرك ، وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى ، فان لحقك كتابى آمرك فيه بالانصراف من مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره ، فسار عمروبن العاص بالمسلمين واستخار عمر بن الخطاب الله تعالى ، فكأنه تخوف على المسلمين ، فكتب الى عمرو يأمره أن ينصرف ، فوصل اليه الكتاب وهو برفح فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه ، حتى نزل العريش ، فقيل له : انها من مصر ، فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين ، وقال لمن معه تعلمون أن هذه القرية من مصر ، قالوا : نعم ، قال فان أمير المؤمنين عهد الى أن لحقنى كتابه ، ولم أدخل أرض مصر ـ أن أرجع وقد دخلت أرض مصر ، فسيروا على بركة الله .. فكان أول موضع قوتل فيه (الفرما) قتالا شديدا نحو شهرين ، ففتح الله له ، وتقدم لا يدافع الا بالأمر الخفيف ، حتى أتى (بلبيس) فقاتلوه بها نحوا من الشهر ، حتى فتح الله عز وجل له ، ثم مضى لا يدافع الا بأمر خفيف ، حتى أتى (أم دنين) وهى المقس ، فقاتلوه قتالا شديدا نحو شهرين ، وكتب الى عمر رضى الله عنه يستمده ، فأمده باثنى عشر ألفا ، فوصلوا اليه أرسالا ، يتبع بعضهم بعضا ، وكتب اليه قد أمددتك باثنى عشر ألفا ، وما يغلب اثنا عشر ألفا من قلة ، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة من الصحابة الكبار : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، رضى الله عنهم ، وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ، ثم أحاط

المسلمون بالحصن ، وأمير الحصن يومئـــذ (المندفور) الذى يقال له : الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى ، وكان المقوقس ينزل الاسكندرية ، وهو فى ســـلطان هرقل .. ونصب عمرو فســـطاطه فى موضـــع الدار المعروفة باسرائيل على باب زقاق الزهرى ، وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرى الروم سبعة أشهر، ورأى الزبير بن العوام خللا مما يلى دار أبى صالح الحرانى، الملاصقة لحمام أبى نصر السراج عند سوق الحمام ، فنصب سـلما وأسنده الى باب الحصن ، وقال : انى أهب نفسى لله عز وجل ، فمن شاء أن يتبعنى فليفعل ، فتبعه جماعة ،حتى أوفى على الحصن ، فكبر وكبروا ، ونصب شرحبيل بن حجية المرادى سلما آخر ، مما يلى زقاق الزمامرة ، ويقال ان السلم الذى صعد عليـــه الزبير ـ كان موجودا فى داره ، التى بسوق وردان ، الى أن وقع حريق فى هذه الدار ، فاحترق بعضه ، ثم أحرق ما بقى منه فى ولاية عبد العزيز ابن محمد بن النعمان .. فلمـــا رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن ـ جلس فى سفينته هو وأهل القوة ، وكانت ملصقة بباب الحصن الغربى ، ولحقـــوا بالجزيرة ، وقطعوا الجسر ، وتحصنوا هناك ، والنيل حينئذ فى مده ، وقيـــل ان الأعـيرج خرج معهم ، وقيل أقام بالحصن ، وسأل المقوقس فى الصلح ، فبعث اليـــه عمرو (عبادة بن الصامت) ، وكان رجلا أسود ، طوله عشرة أشبار ، فصـالحه المقوقس عن القبط والروم ، على أن للروم الخيـــار فى الصـــلح الى أن يوافى كتـــاب ملكهـم ، فـان رضى تم ذلك ،

وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم ، وأما القبط فبغير خيار ...
وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عى كل نفس فى السـنة ، من البالغين شريفهم ووضيعهم ، دون الشيوخ والنساء والأطفـال ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزول حيث نزلوا ثلاثة أيام ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعترضون فى شيء منها ، وكان عدد القبط يومئـذ أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، والمسلمون خمسة عشر ألفـا ، فمـن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهـذا الصـلح ، وقال : ان الأمر لم يتم الا بما جرى بين عبادة بن الصامت والمقوقس ، وعلى ذلك أكثر علماء مصر ، ومنهم عقبة بن عامر ، وابن أبى حبيب ، والليث بن سعد وغيرهم ، وذهب الذين قالوا انها فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة ، فكان حكم جميـع الأرض كذلك ، وبه قال عبد الله بن وهب ، ومالك بن أنس وغيرهما ، وذهب بعضهم الى أن بعضها فتح عنوة ، وبعضها فتح صـلحا ، منهم ابن شـهاب ، وابن لهيعة ، وكان فتحها يوم الجمعـة مستهل المحرم سـنة ٢٠ للهجرة .. وللعرب ست لغات فى الفسطاط ، يقال فسطاط بضم أوله ، وفسطاط بكسره ، وفساط بضم أوله واسقاط الطاء الأولى ، وفساط باسقاطها وكسر أوله ، وفستاط ، وفستاط بدل الطاء تاء ، ويضمون ويفتحون ، ويجمع فساطيط ، وأما معناه فان الفسـطاط الذى كان لعمرو بن العاص فهو بيت من أدم أو شعر ، وقال صاحب العين : الفسطاط ضرب من الأبنية ، قال والفسطاط أيضا مجتمع أهل

الكورة حوالى مسجد جماعتهم ، يقال هؤلاء أهل الفسطاط ، وفى الحديث عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط ، يريد المدينة التى يجتمع فيها الناس ، وكل مدينة فسطاط ، قال ومنه قيل لمدينة مصر ــ التى بناها عمرو بن العاص ــ فسطاط ...

كتاب القاف من معجم البلدان

١ ــ (القرافة) بالفتح وزيادة هاء فى آخره خطة بالفسطاط من مصر ، كانت لبنى غصن بن يوسف بن وائل من المعافر ، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم ، وهى اليوم مقبرة أهل مصر ، وبها أبنية جليلة ، ومحال واسعة ، وسوق قائمة ، ومشاهد للصالحين ، وترب الأكابر مثل ابن طولون والماذرانى تدل على عظمة وجلال ، وبها قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه فى مدرسة للفقهاء الشافعية ، وهى من نزه أهل القاهرة ومصر ومتفرجاتهم فى أيام المواسم ... قال أبو سعد محمد بن أحمد العميدى :

إذَا ما ضاقَ صدْرى لم أجدْ لِى مقرًّ عبادةٍ إلا القرافهْ
لئن لم يرحم المولى اجتهَادى وقلة ناصرى لم ألْقَ رافَهْ

ونسب اليها قوم من المحدثين منهم أبو الحسن على بن صالح الوزير القرافى، وأبو الفضل الجوهرى القرافى ، ونسبوا الى البطن من المعافر أبا دجانة أحمد بن ابراهيم بن الحكم بن صالح القرافى،

حدث عن حرملة بن يحيى ، وهو وزير سعيد الأربلى وغيره وتوفى سنة ٤٩٩ هـ ، قاله ابن يونس ، والقرافة أيضا موضع بالاسكندرية، تروى عنه حكايات ، وأنشد أبو سعد محمد بن أحمد العميدى يذكر قرافة مصر ، وأعاد البيتين المذكورين •

٢ ـ (قرقشندة) : قرية بأسفل مصر ، ولد بها الليث بن سعد ابن عبد الرحمن المصرى الفقيه مولى بنى فهم ، ثم مولى آل خالد بن ثابت بن طاعن ، وأهلَ بيته يقولون : ان أصله من الفرس من أهل أصبهان ولد سنة ٩٤ هـ وتوفى فى نصف شعبان سنة ١٧٥ هـ ، وقال القضاعى : دار الليث بن سعد ومسجده عند ثقيفة مفلس بالحمراء فى زقاق الليث ، وكان لليث دار بقرقشندة بالريف بناها ، فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عنادا له ، وكان ابن عمه ، ثم بناها الليث ثانية ، فهدمها ابن رفاعة ، فلما كان الثالثة أتاه آت فى المنام وقال له : قم يا ليث ، ثم قرأ قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية ، فأصبح ، وقد فلج ابن رفاعة فأوصى اليه ، ومات بعد ثلاث •

باب الكاف

(الكوفة) بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسميها قوم (خد العذارى) ، قال أبو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها أخذا من قول العرب : رأيت كوفا

أو كوفانا بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة ، وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع النـاس بها من قولهم : قد تكوف الرمل يتكوف تكوفا ، اذا ركب بعضه بعضا ، وطول الكوفة تسع وستون درجة ، وعرضها احدى وثلاثون درجة وثلثان ، وهى فى الاقليم الثالث ، ويقال أخذت الكوفة من الكوفان ، يقـال : هم فى كوفان أى فى بلاء وشر ، وقيل سميت كوفة ؛ لأنهـا قطعـة من البـلاد ، من قول العـرب : قد أعطيت فلانا كيفة أى قطعـة ، ويقـال : كفت أكيف كيفا اذا قطعت ، فالكوفة قطعـة من هذا ، انقلبت فيها الياء واوا ، لسكونها وانضمام ما قبلها ، وقال قطرب : يقـال القوم فى كوفان أى فى أمر يجمعهم ، قال أبو القاسم : قد ذهب جماعة الى أنها سميت كوفة بموضعها من الأرض ، وذلك أن كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة ، وقال آخرون : سميت كوفة ؛ لأن جبل (سـاتيدما) يحيط بها كالكاف عليهـا ، وقال الكلبى : سميت بجبل صغير فى وسطها ، كان يقال كوفان ، وقد سماها عبدة ابن الطبيب كوفة الجند ، فقال :

ان التى وضعت بيتا مهاجرة   بكوفة الجند غالت ودها غول

وأما تمصيرها وأوليته فكان فى أيام عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فى السنة التى مصرت فيها البصرة ، وهى سنة ١٧ هجرية وقال قوم : انها مصرت بعد البصرة بعامين فى عام ١٩ هجرية ، وقيل سنة ١٨ هجرية ... ، وقال أبو عبيـدة معمر بن المثنى :

لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة (رستم بالقادسية) ، وضمن أرباب القرى ما عليهم ، بعث من أحصاهم ، ولم يسمهم حتى يرى عمر فيهم رأيه ، وكان الدهاقين صالحوا المسلمين ، ودلوهم على عورات فارس ، وأهدوا لهم ، وأقاموا لهم الأسواق ، ثم توجه سعد نحو المدائن الى (يزدجرد) وقدم خالد بن عرفطـــة حليف بني زهرة بن كلاب ــ فلم يقدر عليه سـعد ، حتى فتح خالد سـاباط المدائن ، ثم توجه الى المدائن ، فلم يجد معابر ، فدلوه على مخاضة عند قرية الصيادين أسفل المدائن ، فأخاضوها الخيل حتى عبروا ، وهرب (يزدجرد) الى (اصطخر) ، فأخذ خالد (كربلاء) عنوة ، وسبى أهلها ، فقسمها سعد بين أصحابه ، ونزل كل قوم في ناحية .. وكتب عمر الى سـعد ان العـرب لا يصلحها من البلدان الا ما أصلح الشاء والبعير ، فلا تجعـل بيني وبينهم بحـرا ، وعليك بالريف ، فأتاه ابن بقيلة فقال له : أدلك على أرض انحدرت عن الفـلاة ، وارتفعت عن البقـة ، قال نعم : فدله على موضع الكوفة اليوم ، وكان يقال له (شورستان) فانتهى الى موضع مسجدها ، فأمر راميا فرمى بسهم قبل مهب القبلة ، فعلم على موقعه ، ثم علم دار امارتها ومسجدها ... وقال ابن عباس : كانت منازل أهـل الكوفة ، قبل أن تبنى ــ أخصاصا من قصب ، اذا غـزوا قلعـوها وتصدقوا بها ، فاذا عادوا بنوها ، فكانوا يغزون ونساؤهم معهم ، فلما كان في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع ... وكتب عمـر بن الخطاب الى سـعد أن اختط موضع المسجد

الجامع على عدة مقاتلتكم ، فخط على أربعين ألف انسان ، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف انسان ، وجاء بالآجر وبأساطينه من الأهواز ، وكان (سلمان الفارسي) يقول : أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبة الاسلام ، يحج اليها كل مؤمن ، وأما مسجدها فقد رويت فيه فضائل كثيرة ، روى حبة العرني ، قال : كنت جالسا عند علي عليه السلام ، فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي ، أريد هذا البيت ، أعني : بيت المقدس، فقال عليه السلام: كل زادك وبع راحلتك ، وعليك بهذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) ، فانه أحد المساجد الأربعة ، ركعتان فيه تعدلان عشرا فيما سواه من المساجد والبركة منه الى اثنى عشر ميلا من حيث ما أتيته ، وهي نازلة من كذا ألف ذراع ، وفي زاويته فار التنور ، وعند الأسطوانة الخامسة صلى ابراهيم عليه السلام ، وقد صلى فيه ألف نبي ، وألف وصي ، وفيه عصا موسى و (الشجرة اليقطين) (١) وفيه هلك يغوث ويعوق ... وفيه مسير لجبل الأهواز ، وفيه مصلى نوح عليه السلام ، ويحشر فيه يوم القيامة سبعون ألفا ليس عليهم حساب ، ووسطه على روضة من رياض الجنة ، وفيه ثلاث أعين من الجنة ... ومن حفاظ الكوفة محمد بن العلاء بن كريب الهمذاني الكوفي ، روى عنه أبو عبد الله البخاري ، ومسلم بن الحجاج ، وأبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي ، وأبو عبد الرحمن الغساني، وابن ماجة القزويني ...

(١) اليقطين : قال في المنجد : مما لا ساق له من النبات كالقثاء ، وغلب على القرع المستدير ، الواحدة يقطينة قيل : ومنه البطيخ واحدته بهاء ..

كتاب الميم

(مرو الشاهجان) هذه مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، نص عليه الحاكم أبو عبد الله فى تاريخ (نيسابور) مع كونه ألف كتابه فى فضائل (نيسابور) ـ الا أنه لم يقدر على دفع فضل هذه المدينة ، والنسبة اليها (مروزى) على غير قياس ، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخا ، ومنها الى (سرخس) ثلاثون فرسخا ، والى (بلخ) مائة واثنان وعشرون فرسخا ... أما لفظ (مرو) فقد ذكرنا أنه بالعربية : الحجارة البيض ، التى يقتدح بها ، الا أن هذا عربى ، وما زالت (مرو) عجمية ، ثم لم أر بها من هذه الحجارة شيئا ألبتة ، وأما (الشاهجان) فهى فارسية ، معناها نفس السلطان ؛ لأن الجان هى النفس أو الروح ، والشاه هو السلطان ، سميت بذلك لجلالتها عندهم ... قال أبو عون اسحق بن على فى زيجة : مرو فى الاقليم الرابع ، طولها أربع وثمانون درجة وثلث، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وشنع على أهل خراسان ، وادعى عليهم البخل ، كما زعم ثمامة أن الديك فى كل بلد يلفظ ما يأكله من فيه للدجاجة الا ديكة (مرو) فانها تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب ، وهذا كذب ظاهر بين للعيان ، لا يقدم على مثله الا الوقاع البهات، الذى لا يتوقى الفضوح والعار ، وما ديكة مرو الا كالديكة فى جميع الأرض ... وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ـ ما لم تخرج

مدينة مثلهم ، منهم أحمد بن محمد ابن حنبـل الامام ، وسـفيان ابن سعيد الثـورى ، مات وليس له كفن ، واسـمه حى الى يوم القيامة ، واسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم ، وكان السلطان (سنجر بن ملك شاه السلجوقى) مع سعة ملكه ـ قد اختارها على سائر بلاده ، وما زال مقيما بها الى أن مات ، وقبره بها فى قبة عظيمة ، لها شباك الى الجامع ، وقبتها زرقاء ، تظهر من مسيرة يوم ... وبمرو جامعان للحنفية والشافعية ، يجمعهما السـور ، وأقمت بها ثلاثة أعوام ، فلم أجد فيها عيبا الا ما يعترى أهلها من العرق (١) ... فانهم منه فى شدة عظيمة ، قل من ينجو منـه فى كل عام ، ولولا ما عرا أهلهـا من ورود التتر الى هـذه البـلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما فى أهلها من الرفد (٢) ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فانى فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيـا مثلهـا كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع، احداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى ، أو عتيق بن أبى بكر ، وكان (فقاعيا) (٣) للسـلطان سنجر وكان فى أول أمره

---

(١) العرق : قيل هو المسكر الذى يتخذ بالتقطير من العنب ونحوه .

(٢) الرفد : العطاء والمعونة .

(٣) (فقاعيا) : يقال : الفقاع الشراب يتخذ من الشعير ، سمى به لما يعلوه من الزبد والفقاعى : بائع الفقاع .

يبيع الفاكهة والريحان بسوق (مرو) ، ثم صار (شرابيا) له ، وكان ذا مكانة ، وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد ، أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها (الكمالية) ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته ، ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٩٤ هجرية ، وكان حنفى المذهب وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحق فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة لمجد الدولة أحد الوزراء المتأخرين بها ، وخزانة الخاتونية فى مدرستها ، والضميرية فى (خانكاه) هناك ، وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، وأكثره بغير رهن ، فكنت أرتع فيها ، وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته ــ هو من تلك الخزائن ، وكثيرا ما كنت أترنم عند كونى بمرو بقول بعض الأعراب .

أقريةَ الوادى التى خانَ إلْفَها ... من الدهر أحداثٌ أتتْ وخطوبُ
تعالىْ أطارحْكِ البكاء فإنَّنا ... كلانا بمرو الشَّاهِجان غريبُ

حرف اليـاء

(يثرب) بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الراء ، وباء موحدة ، قال أبو القاسم الزجاجى : يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

سميت بذلك ؟ لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانيــه بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عوض بن سام بن نوح عليه السلام ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها (طيبة) وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسـول لنزولـه بها ، قال : ولو تكلف متكلف أن يقول فى (يثرب) انه يفعل من قولهم : لا تثريب عليكم ، أى لا تعيير ولا عيب ، كما قال تعالى : « لا تثريب عليكم اليوم » قال المفسرون وأهل اللغة لا تعيير عليـكم بما صنعتم ، ويقـال : أصـل التثريب : الافساد ، ويقال : ثرب علينا فلان ، وفى الحديث : « اذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها ولا يثرب » أى لا يعير بالزنا ... ثم اختلفوا فقيل : ان يثرب للناحية التى منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة الى عثمـــان بن عفـان (رضى الله عنه) من الكوفة ، قالت تخاطب أخاها :

أحقا تُراه اليوم ياضبُّ إننى ... مصاحبة نحو المدينة أرْكُبا
قضَى اللهُ حقا أن تموتِى غريبةً ... بيثربَ لا تلقين أما ولا أبَا

قال ابن عباس رضى الله عنه : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثا ، انما هى طيبة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر:

« اللهم انك اخرجتنى من أحب أرضك الى ، فأسكنى أحب أرضك اليك » ، فأسكنه المدينة .

مادة معجم البلدان

وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية

يتبين لنا من عرض النماذج السابقة أن مادة معجم البلدان متنوعة ، حافلة بوثائق على جانب من الأهمية عن الديار التى تتألف منها دولة الخلافة الاسلامية ، وأن ياقوتا قد وجه اهتماما ملحوظا الى العالم الاسلامى كما وجه مزيدا من عنايته الى ضبط أسماء الأمكنة والبلدان والبقاع وغيرها بالحروف ، نقلا عن المصادر التى لا يشك فى صحة ضبطها ، مع ذكر اشتقاقاتها ان كانت عربية ، ويقتصر فى الغالب على ذكر معانيها ان كانت أعجمية ، ونلاحظ أيضا اهتمامه بتسجيل ما قد يوجد فى هذه الأمكنة من آبار وآثار وعجائب وصناعات وغيرها ، ولا تفوته الاشارة الى بيان الاقليم التى ينتسب اليه كل مكان من هذه الأمكنة .

وهناك ناحية فلكية يعول عليها كثيرا ، وهى الحديث عن طالع المكان ، واسم الكوكب المستولى عليه ، ثم ما بينه وبين ما يجاوره من أمكنة لها شهرة تاريخية ، ثم ما بين هذه الأمكنة وغيرها من مسافات، مع تحديد مداها .

وقد حاول التعرف على أماكن من أوربة الشرقية والشمالية ،

ولكن معلوماته عن هذه الأجزاء من العالم الغربى لم تكن على درجة من العمق ، بحيث تصل الى مستوى معلوماته عن بلاد العالم الاسلامى ، التى وزع اهتمامه عليها وعلى بلاد الشرق الأقصى بدرجة واحدة •

ولا يغفل ياقوت النواحى التاريخية ، لما لها من ارتباط قوى بجغرافية الأمكنة ؛ لأنها تلقى ضوءا على ناحية يستهدفها من كتابه ، وهى الناحية الدينية ، فيذكر ما حدث فى هذه الأمكنة والبقاع من وقائع حربية فى الجاهلية والاسلام ، مستشهدا على ذلك بما قيل من الأشعار ، موضحا حكمها من حيث الفتح الاسلامى ، هل فتحت صلحا أو عنوة ؟ أو فتحت صلحا وعنوة معا ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف البلد أو المدينة من الناحية الشرعية ، وحكمه فى الفىء والجزية ، وقد رأينا ياقوتا عندما تحدث عن (الفسطاط) ـ يسهب فى شرح الأسباب ، التى تذرع بها عمرو بن العاص لفتح مصر ، واحتياله على الخليفة عمر بن الخطاب ؛ لكى يوافقه على المضى فى فتح هذا البلد الطيب ، الذى اشتهر بخصوبة أرضه ، وكثرة خيراته •

ويعرض ياقوت لآراء بعض الفقهاء فى حكم مصر ، من حيث فتحها صلحا أو عنوة ، وما يترتب على ذلك من أحكام فقهية ، كذلك نراه يوجه عناية كبيرة الى تحديد الزمن الذى تم فيه الفتح ، وكيف فتح البلد ؟ ومن كان أميره بعد الفتح؟ ومن استشهد فيه من الصحابة رضوان الله عليهم ، أو دفن فيه من الأعيان والصالحين ؟ ومن نبغ من

أهله من العلماء أو الكتاب أو الشعراء ؟ ولا ينسى أن يقص شيئا من شعرهم وآثارهم .

وياقوت فضلا عن ذلك يحفل بالنواحي الاجتماعية ، التي كان عليها سكان هذه البلدان والمدن والأماكن المختلفة ، فيحدثنا عما اشتهروا به من كريم الخلال أو سيء الصفات والأفعال ، ونراه أمينا دقيقا في كل ما يحدثنا عنه ، فهو يفند ما قد يكون قد وجه اليهم من اتهامات ، وما وصفوا به من صفات ـ ان كانت بغير حق ، ومن الأسف أنه لم يفصل الكلام في هذه الناحية بالنسبة لكل بلد ، ويبدو أنه معذور في ذلك ؛ لأنه باحث مجتهد ، وقد استطاع أن يسجل ما وصل اليه باجتهاده ، أو نقلا عن غيره .

وياقوت مع كل هذا لا يهمل الحديث عن ناحية لا تتفق مع المعقول ، ولا تثبت أمام التحقيق التاريخي الدقيق ، ومن ذلك القصة التي رواها عن (ارم ذات العماد) وغيرها من قصص ، ومن العجيب أن يذكر لنا هذه المنقولات الخرافية ، ويبرىء نفسه من تهمة زيفها وعدم صحتها ، ويحتج لنفسه بأنه ناقل فحسب ؛ لأن المسئولية من حيث الصحة والكذب ـ انما تقع على المصدر الأصلي ، الذي حاك القصة ، وألف بين حوادثها ، ورواها لأول مرة .

ومن الشعراء الذى روى لهم : المتنبي ، والأحوص ، ودعبل الخزاعي ، وابن قيس الرقيات ، والبحتري وغيرهم ، ويقرر (أمادى)

Amar . أن ياقوتا هو المؤلف الجغرافي الذي أشار في معجمه الى مؤلفين مفقودين من صقلية أحدهما أبو علي الحسن (١٠٥٠) م والآخر هو (ابن القطاع) المتوفي سنة (٥١٥ هـ ـ ١١٢١ م) ، وأن ياقوتا اعتمد عليهما فيما رواه من معلومات جغرافية عن هذه الجزيرة .

وياقوت يروي في وضوح نظرة العرب والمسلمين الى علوم الجغرافية ، باعتبارها من العلوم الخادمة لأحكام الشريعة الاسلامية الغراء ، تلك الأحكام التي ينبغي أن تطبق تطبيقا عادلا على البلاد المفتوحة ، وذلك مما يلقي ضوءا كاشفا على اتجاهات المسلمين نحو العلوم ، فهم ينظرون اليها نظرة عملية ، فالحقائق العلمية في رأيهم وفي منهجهم في الحياة ـ ليست مقصودة لذاتها بقدر ما هي وسيلة لتوفير الخير وتحقيق الرفاهية للناس ، والنهوض بمستوى حياتهم في مجتمعهم .

ولا شك أن عصرنا الحاضر يتميز بتقدم (التكنولوجيا) والتطبيقات العملية للعلوم ، واستخدامها فيما يحقق السعادة للانسان ، بصرف النظر عن استخدامها في النواحي التدميرية ،فتلك ناحية انحرافية تأباها طبيعة العلم الصحيح ، لذلك قد يدهش الباحث حين يتضح له أن العرب كانوا يدركون من قبل مزايا التطبيق العملي للعلوم التي عرفوها ، فقد عرفوا منذ بدءوا في وضع أسس النحو وقواعده ؛ لضبط التلاوة في المصحف الشريف ؛ ولاتقاء اللحن

فى أحاديثهم ، وكتاباتهم حول ما يدور ويتصل بحياتهم ؛ ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن لكل علم من العلوم قيمة عملية، واذن فليس عجيبا أن نجد الدوافع التى حملتهم على ابتكار ما ابتكروه فى ميادين العلوم نابعة من حاجتهم الى الانتفاع بها فى حياتهم •

ولو أن ركب العلم الاسلامى استمر فى زحفه الى الأمام ، ولم تقف فى سبيله الحوائل ـ لأصبح العرب والمسلمون فى عصرنا سادة الدنيا ، ولكنهم جمـدوا ، ووقف تيـار العلوم فى ديارهم ، بسبب انهيارهم السياسى ، وتفتت وحدتهم وانفصام عرا الروابط ، التى كانت تربط بين أجزاء الدولة العربية الاسلامية الكبرى ، من أجل ذلك تفرق العلماء حين فقدوا الأمن النفسى والاطمئنان والتشجيع ؛ لذلك أصبحوا لا يفكرون فى العلم بقدر ما كانوا يفكرون فى النجاة من العدو محافظة على أرواحهم ، والتماسا لديار ومواطن جديدة ، يشعرون فيها بالأمن والاستقرار ، وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك أشعة قوية من العلم تلوح حينا بعد حين ، فتعطر الأجـواء بعبيرها الجميل الساحر ؛ الى أن استقر هؤلاء العلماء فى القاهرة قلب العالم الاسلامى وقتئذ ، والتى أصبحت مركز الثقافة العربية الاسلامية ، فأخذوا منذ توافرت لهم عوامل الاطمئنان والبحث يسلطون أضواء قوية على التراث الضائع والعمل على جمع ما تشتت منه ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، فقد سنحت لهم فرص الابتكار فى العلم من جديد •

ففى عصر الدولة الفاطمية يبرز بعض العلمـاء الكبـار ، وعلى

رأسهم العالم الطبيعى والمهندس العظيم ابن الهيثم الذى حاول فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى تطبيق نظرياته الهندسية على مشروع فى النيل ، يشبه مشروع السد العالى ولكنه يصطدم بعقبات لا قبل له بها ، وهى الامكانيات المادية ، والقوى البشرية المدربة تدريبا فنيا ، والتى لا بد منها لتنفيذ مشروعه ، ولم يستطع الحاكم أن يمده بما يريد ، فأخفق فى مشروعه •

أما معجم البلدان فالذى لا يشك فيه أنه كان دائرة معارف عامة ، ينتقل القارىء فيها من فن الى فن ومن علم الى علم ، فقد جمع فيها ياقوت كل ما تفرق من المادة الجغرافية الضخمة ، التى تراكمت فى مدى ستة قرون ، وبالرغم مما نلحظه على ياقوت من ميل لغوى ؛ الا أنه لم يقتصر حقا على الجغرافية اللغوية ، بل تناول الى جانبها شيئا من الجغرافية الرياضية والفلكية ، فانه بالرغم من اشارته الى الأقاليم السبعة ـ فقد نوه عن زيج أبى عون اسحق بن على ، ومن الغريب أن هذا الزيج لم يكن معروفا لكثير من المؤلفين الجغرافيين ، حتى ان الخبير الجغرافى الفلكى (نالينو) Nallino – لم يشر اليه ، مما يدل على أنه قد وقعت فى أيدى ياقوت مصادر ، لم تصل الينا ، وقبل أن نودع معجم البلدان يحسن بنا أن نلخص بعض الأهداف ، التى كان يتوخاها ياقوت من موسوعته الكبرى •

(ا) أهداف للمهتمين بالدراسات التاريخية واللغوية والشرعية الاسلامية .

١ ـ كان ياقوت يستهدف تحقيق غرض تهذيبى من الحديث عن الأماكن والمدن ، التى عبث بها الزمان، وأحالها الدهر الى أطلال دوارس ـ بأن يبعث فى نفوسنا العظة والعبرة ، بما حل بهذه الأماكن من دثور وفناء وتخريب ، بعد أن كانت عامرة بأهلها ، زاهية زاهرة ، سعيدة بمن فيها من سكانها الآمنين ، ولذلك يستشهد بالآية الكريمة « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها » .

٢ ـ بعض هذه الأماكن يرتبط برواية الحديث والسنة الشريفة ، وبعضها كان مزارا للصحابة والتابعين ، أو مشاهد للأولياء الصالحين ، وقارىء السنة فى أشد الحاجة الى معرفة هذه الأماكن ، لما فى ذلك من التبصرة والذكرى والفهم الواعى العميق لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) وأخبار الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ ـ والضبط الصحيح الدقيق لأسماء الأماكن والبلدان ـ يساعد على التعرف الصحيح على هذه الأماكن ، وتحديد مواضعها ، ومن نسب اليها من العلماء والمشهورين من الأدباء ورواة الأخبار ، كما يساعد على عدم الخلط بين مكان وآخر ؛ لأن الخلط بين الأماكن

بعضها وبعض – يؤدى الى فقدان الحقائق التاريخية وانطماسها .

٤ – الوقوف على مواطن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وفتوحات الخلفاء ، وحكم البلاد المفتوحة مما يساعد على صحة أحكام الفيء والجزية وعدالتها ، وبعدها عن الظلم والجور ، تلك بعض الأهداف التى قصدها ياقوت بالنسبة للمشتغلين بالدراسات التاريخية واللغوية والشرعية .

(ب) أهداف للمشتغلين بالدراسات العربية وآداب اللغة :

أما المشتغلون بالدراسات العربية وآداب اللغة – فانه يقدم اليهم زادا أدبيا دسما ، يتفق مع اهتماماتهم ، ويساعد على تعميق ثقافتهم الأدبية ، ومن ذلك :

١ – أن المطلع على معجم البلدان يقف بكل دقة على حقيقة أسماء الأماكن والبلدان ، ويهتدى الى ضبطها الصحيح ، وأسمائها الصحيحة ، من حيث هى عربية أو أعجمية ، وما اشتق منها اذا كانت عربية ، فاذا أضيف الى ذلك ما ارتبط بهذه الأماكن من شعر ونثر ، وما ألم بها من نوازل الدهر ، وأحاط بها من غيره وأحداثه – أفاد من ذلك الأديب الباحث ؛ اذ يستطيع أن يقف على الظروف والمناسبات ، التى ربطت الانتاج الأدبى بهذه الأماكن ، وذلك مما يعين على توضيح المعانى والأفكار وانكشافها ، ولا يغيب عنا ونحن نتحدث عما يصيب هذه الأماكن والبقاع من محن وما يعتورها من

فتن ـ أن نشير الى أن شأنها فى ذلك شـأن الناس ، ولذلك يقـول الشاعر •

واذا تأملت البقاع وجدتها   تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

٢ ـ وعناية ياقوت بالحديث عن مساكن القبائل العربية تمكن الدارسين المشتغلين بتفصيح اللغة وسلامة أساليبها وتنقيتها من الدخيل والعامى ـ من الاطمئنان الى صحة ما يقوله شاعر عربى وصوابه ، والى الحيطة والحذر مما يقوله آخر ، ذلك لأن مساكن القبائل اذا اتصلت بالحضر ، وقربت من الأمصـار والمدن ـ نشـأت سلسلة من التبادل اللغوى والثقافى وذلك مما يؤدى الى تسرب الفساد واللحن الى لغة هذه القبائل ، وعندئذ لا يمكن الاحتجاج بما يقوله شعراؤها على فصاحة الأساليب والنصوص اللغوية •

أما اذا بعدت مساكن القبائل عن الحضر ، وتعذر الاتصال بين البادية والحاضرة أو قل ـ بقيت السليقة العربية على أصالتها ؛ ولذلك يحتج بلغة هذه القبائل ؛ لأن لسـانها العـربى الفصيح ـ لم يلوث بالعامى والدخيل ، وفى الوقت نفسه يمكن التمييز بين الشعر الذى امتزج بمعانى الحضر ، واستقى من أفكارهم ، وغيره من الشعر الذى ظل بدويا ، يمثل بيئته تمثيلا دقيقا •

لذلك كان الناقد الأدبى ومؤرخ الآداب فى أشد الحاجة الى معجم ياقوت الجغرافى ؛ للوقوف على مساكن القبائل ، والتعرف على قربها أو بعدها عن الحضر •

٣ ـ ويتحدث ياقوت عن مواضع أيام العرب ، ومواطن وقائعها المشهورة ، ويرتبط بهذه الأيام والوقائع شعر كثير ، قيل فى هذه المناسبات ، ولا يستطيع الباحث أو الناقد الأدبى ادراك القيمة الفنية لهذا الانتاج ـ الا اذا عرف بالدقة الأماكن التى وقعت فيها أيامهم المشهورة ، ووقائعهم العظيمة التى كان لها أثر فى حياتهم ؛ اذ ان كثيرا من البواعث والمثيرات التى دفعت الشعراء الى الانشاد ـ ترجع الى الرغبة الملحة فى الحفاظ على هذه الأماكن والتعلق بها والحنين اليها ، وبذلك تتاح الفرصة لدراسة هذه الآثار من الناحيتين التاريخية والأدبية والبلاغية ، والالمام بكثير من الأسباب والمقومات ، التى قام عليها التاريخ الأدبى للعرب فى الجاهلية والاسلام •

٤ ـ واذا تأملنا الشعر الذى رواه ياقوت وجدناه يعطى صورة واضحة عن عادات العرب وأخبارهم ، وحياتهم الفكرية والاجتماعية والأدبية ، وعقائدهم ، والقيم السائدة فى مجتمعهم فى الجاهلية والاسلام ، ومن اليسير على الباحث المدقق أن يستنبط من هذا الشعر تلك المقومات والمبادىء ، التى كان يقوم على أساسها المجتمع العربى من الجاهلية الى عصر ياقوت •

وقد كان العرب فى البادية لا يعرفون حياة الاستقرار ، فحياتهم دائما نجعة « وارتياد » ، وحل وترحال ؛ اذ كانوا مضطرين الى تتبع مساقط الغيث ومنابت العشب والكلأ ، وقد ضمنوا أشعارهم كل هذا ، فأضحت تلك الأشعار أصدق مرجع لتاريخهم ولأمر

ما قالوا : « ان الشعر ديوان العرب ومجمع مفاخرهم ومآثرهم » .

٥ ـ ويزعم بعض الباحثين أن العربى لا يقول الشعر الا فى بيئته ، وما جاء فى معجم البلدان لياقوت من أشعار قالها العرب فى بيئات مختلفة ، ينقض هذا الزعم ، فقد قالوا هذه الأشعار فى أماكن غزواتهم ، وفتوحاتهم ، وأسفارهم البعيدة ، وتناولوا فى بعضها وصف أهل البلاد التى دخلوها غازين أو مسافرين، ووصفوا حسن بلائهم فى الحروب مع أهل تلك الديار ، وعبروا عن عواطفهم أثناء اقامتهم فيها ، نجد ذلك فيما رواه ياقوت من شعرهم فى فتوح بلاد فارس وخراسان والشام ومصر وغيرها .

٦ ـ وقد عنى ياقوت فى معجم البلدان عند الحديث عن المدن والأماكن ـ ببيان أسماء من سكنوها من العلماء والأدباء والكتاب والخطباء والمؤلفين والشعراء ومؤلفاتهم فى العلوم المختلفة ، كما أورد الكثير من بليغ أشعارهم وخطبهم ، ونراه ينفرد فى بعض الأحيان بذكر بعض الآثار الأدبية التى لا يكاد الباحث يعثر عليها فى غير معجم البلدان ، وكثيرا ما نوه بأسماء شعراء وكتاب وخطباء كانوا مغمورين ، فكشف النقاب عنهم .

وبالرغم مما لكتاب معجم البلدان من قيمة جغرافية سبق بها كتب عصره ، ونال به ياقوت شهرة جغرافية جعلته بين النابهين من علماء الجغرافية المسلمين ـ فان لهذا المعجم الى جانب هذه الناحية العلمية قيمة فنية أدبية ، تجعله من مراجع الأدب العربى الكبرى ،

ولهذا فانه يعتبر فى هذا المجال نواة صالحة وكنزا أدبيــا زاخرا بالطريف من البحوث الأدبية •

معجم البلدان كنز زاخر بالطريف من البحوث الأدبية :

لقد كشفت فى دراستى السابقة عن أهمية معجم البلدان فى الناحية الجغرافية ، ثم حاولت بعد ذلك أن أوضح ما له من قيمــة أدبية ، وقد دعانى الى ذلك أسلوب ياقوت نفســه فى عرض مادته الجغرافية ، فقد مزجها بالأدب ورواية الشــعر ؛ لذلك كان لا بد من ابراز هذا الجانب ، الذى اشتملت عليه هذه الموسوعة الكبيرة ، وأذكر على سبيل المثال البحوث الأدبية ، التى يمكن استخراجها من هذا المعجم وهى على نحو ما يلى :

١ ــ شعر لصوص العرب

والحديث عن هذا الشعر شائق وجذاب ، وقد روى ياقوت طائفة منه ، عند ذكره لأسماء البلاد التى فروا اليها ، أو تلصصوا بها ، أو حبسوا فيها ، أو حنوا اليها ، وأدباء الرواة يضعون شعر لصوص العرب فى الطبقة العالية من البلاغة ؛ اذ يمتــاز بالجزالة والقوة ، وهو فى الوقت نفسه يمثل قوة العارضة والشكيمة ؛ اذ كان لصوص العرب عربا أقحاحا خلصا ، لم تلوث سليقتهم العربية بأى مؤثر حضرى ، فقد كانوا مع قسوتهم وشــدة فتكهم ــ ذوى طبع كريم ، ونخوة عربيــة ، ولم يكونوا مثل لصــوص زماننا ،

يمثلون الخسة والنذالة والجبن والوحشية والجهل ، ويزعم بعض الرواة أن للامام (السكرى) كتابا يسمى (شعراء اللصوص) غير أنه مفقود ، لم يعثر عليه ، وفى استطاعة الأدباء والباحثين اذا رجعوا الى معجم البلدان ـ أن يستخرجوا منه نماذج وصورا بليغة لهذا اللون من الفن الشعرى القوى •

٢ ـ الأدب المصرى

والأدب فى مصر العربية الى القرن السابع الهجرى أدب حى قوى ، ويجد الباحث على صفحات معجم البلدان حديثا عن كثير من شعراء مصر المغمورين ، وآثارهم الشعرية فى هذه الفترة ، التى تمثل أول حلقة من تاريخ مصر العربى الأدبى •

فهو مرجع على جانب من الأهمية ، ومورد عذب لمن يحاول أن يؤرخ لهذه الفترة الأدبية •

٣ ـ أدب الأندلس

ويعطى ياقوت الأدب الأندلسى عناية ملحوظة فى معجمه ، فيورد منه أمثلة كثيرة ، ويتحدث عن عدد كبير من الشعراء والكتاب والخطباء الذين نبغوا فى بلاد الأندلس أو المغرب ، ممن لهم آثار قيمة جديرة بالبحث والدرس ، فاذا أضاف الباحث ما ذكره ياقوت عن أدب هذا الصقع العربى الجميل والفردوس المفقود ـ الى جانب ما جاء فى كتاب (نفح الطيب) استطاع أن يضع يديه على مادة

غزيرة ، تصور بدقة أدب الأندلس ، ومما هو جدير بالنظر أن المكتبة العربية ما تزال الى اليوم فقيرة فى الدراسات الأدبية الأندلسية ، بالرغم من توافر المراجع التى تمد الباحث بفيض غزير ومدد كبير من النصوص والمادة التاريخية التى تفسر هذه النصوص ، وتلقى عليها أضواء كاشفة .

٤ ـ أدب الخوارج

يذكر ياقوت فى افاضة الكثير من أخبار الخوارج وخطبهم وأشعارهم ، وقد جاءت مبثوثة فى الأماكن التى وقعت فيها حروبهم، والجهات التى أظهروا فيها بلاءهم ، ويجد الباحث الأدبى المدقق فى تلك الآثار البليغة ، التى امتاز بها أدب الخوارج مادة طيبة ؛ يستخرج منها أخبارهم وعقائدهم وآدابهم .

والمطلع على أدب الخوارج يستطيع أثناء تصفح نصوصه ـ أن يتعرف على ما اشتهر به القوم من شدة العارضة وقوة الحجة وعزة النفس ، وثبات اليقين والتمسك بالمبدأ ، والتحمس الشديد لما يعتقدونه حقا ، وقد استفاضت أخبار الخوارج فى العصر الأموى ، ولذلك كان أدبهم بارزا فى هذا العصر .

٥ ـ أدب الشيعة والشعوبية

كذلك تضمن معجم البلدان طائفة من أسماء شعراء الشيعة والشعوبية ، وقدرا صالحا من شعر هؤلاء الشعراء ، مما أنشدوه

تأييدا لدعوتهم ، وما رد به خصومهم عليهم ، وأدب الشيعة لا يقل في أهميته عن أدب الخوارج ، فهو يلقى ضوءا على حياتهم ومعتقداتهم ومذهبهم في الخلافة ، ومثله أدب الشعوبية ، ونحن الآن بحاجة الى دراسة أدب الشعوبيين لارتباطه بمذاهب العناصر المناوئة للقومية العربية •

٦ ـ الأدب النسوي

ويقصد منه بيان ما للمرأة من أثر في الأدب والشعر ، وقد تناول معجم البلدان طائفة من أسماء شواعر ، أورد لهن شعرا رقيقا في أغراض مختلفة ، ولا سيما فيما تجيده المرأة من فنون القول ، كالحنين الى الولد والوطن ، وكالرثاء ، وغير ذلك ، مما يترجم عن عواطف الأمومة •

وبعد فأنت ترى فيما أسلفناه من حديث عن معجم البلدان أنه موسوعة جغرافية عظيمة الشأن ، مزج فيها ياقوت مسائل الجغرافية وبحوثها في عصره بالأدب والتاريخ وعلوم العربية والشريعة الاسلامية ، وياقوت لا يعرف أنه يحقق بذلك مبدأ ترابط المواد ، ولكنه ربما قصد من هذا اللون من الدراسة دفع السأم والملل عن القارىء ، وامتاعه بأفانين من القول ، وأغلب الظن أن هذا المسلك الذي سلكه ياقوت تعبير صادق عن الاتجاه الموسوعي في التأليف عند علماء العرب والمسلمين •

وقد طبع معجم البلدان في أوربة في « ليبسك » سنة ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ م ، في أربعة مجلدات ، وقيل في ثمانية مجلدات ، وزيد عليها فهرس بأسماء الأعلام الذين جاء ذكرهم فيه .

أما كتابه (المشترك وضعا المختلف صعقا) ، وكان قد انتخبه من كتابه معجم البلدان على حروف المعجم ـ فقد نشره (فستنفلد) في مدينة (كوتنجن) سنة ١٨٤٦ م ، وقد لخص أبو الفضائل عبد المنعم بن عبد الحق صفي الدين سنة ٧٣٩ هـ كتاب (معجم البدان) ، واقتصر فيما لخصه على الجغرافية ، وسماه (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) (١) ، ويعتبر هذا الكتاب تكملة هامة للمعجم ، وطبعه (جونبول) T-G-J-Junboll في (ليدن) في ستة أجزاء ، واختصره السيوطي في كتاب له يسمى (مختصر معجم البلدان) .

ثم طبع معجم البلدان بمطبعة دار السعادة بمصر ، وكان الفراغ منه في شوال سنة ١٣٢٤ هـ ، ويقع في ثمانية أجزاء وطبع معه ذيله ، الذي يسمى (منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان) في جزأين ملحقين به ، وقد جمع الذيل ورتبه (السيد محمد أمين الخانجي) ، وطبع على نفقة (السيد / أحمد ناجي

---

(١) أخرجت هذا الكتاب (دار عيسي البابى الحلبى) بالقاهرة بتحقيق الاستاذ على محمد البجاوى سنة ١٩٥٥ م .

الجمالى ، ومحمد أمين الخانجى وأخيه ، ومولوى عبد الله جيتيكر ، وسيد موسى شريف) سنة (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م) .

ويقول (السيد محمد أمين الخانجى) جامع منجم العمران : انه لم يقصد بكتابه أن يكون استدراكا لما تركه ياقوت ، فانه ماترك شيئا ، ولكنه يريد الحديث عما يدور على ألسن النـاس ، مما لم يصل اليه تنقيب المؤلف ؛ لجهالة مكانه في زمنه ، أو كان مما حدث بعد زمانه ، وبخاصة المستعمرات الافريقية والأمريكانية وغيرها فان أكثرها حديث الكشف ، ويوضح ذلك بقوله فى مقدمته :

وبعد فان كتاب (معجم البلدان) لأبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى غنى فى علو مكانته عن التعريف بمكانه ، وفى علو قدره عن التنويه بمقداره ، وقد كنا حين شرعنا فى طبعه عزمنا أن نجعل له ذيلا ، يكون كالكحل فى عين الحسـناء ، أو كالوشـاح لكشح الهيفاء ، ولما تم لنا بعون الله ما أردنا من طبعه على الوجه الذى كنا نستشرف اليه ، وفور الحصول عليه - قمنا الى انجاز ما سبق الوعد به ، حين الشروع فى طبعه ، فأخرجناه من الخفاء ، وأبرزناه يميس فى حلل من البهاء ، وسميناه (منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان) ، ولسنا نستدرك فى هذا التذييل ما فات المؤلف من ذكر القرى والمحال والهضاب والجبال ، مما عقد كتـابه لبيانه ، وأمضى فيه جل عمره لايضاح شـأنه ، فما أقل هذا وأندره ! فان المؤلف رحمه الله بالغ فى البحث والتنقيب ، حتى لا يكاد أن يجد معترض

للاعتراض عليه سبيلا ، ولو أن أحدا من البشر فى كل ما سلفت من الأيام والأعوام سلم من هذا ـ لكان حريا بأن يكون اياه .

وانما عمدنا الى ما للناس فيه فائدة من حادثة تاريخية ، أو أثر جميل ، أو شيء غـريب ، أو كان للنـاس فيـه حاجة دنيوية للوقوف عليه ، لتجارة أو صناعة ، أو كان به من الرياض والغياض والملاهى والمتنزهات ـ ما يكون للناس فيه مستراح ، ولهم جمام ، وأهملنا ما عدا ذلك ، مما ليس فيه من الفوائد ما ذكرنا » .

وقد اتخذ صاحب منجم العمران أسلوب ياقوت وجرى على طريقته ، واتبع منهاجه فى عرض مادة كتابه وترتيبها ، وفيما يلى أمثلة من هذا الكتاب ، لتتبين فى ضوئها أنه كان مقلدا لياقوت ، وأنه لا فرق بين الكتاب الأصلى والذيل المستدرك عليه فى المنهج وطريقة عرض المادة .

باب الهمزة

من كتاب منجم العمران

١ ـ (آمد) بميم مكسورة بعدها دال ، قال البستانى : جد قبيلة من العرب ، يدعون بنى آمد ، وكانت مواطنهم بين (أجاء وسلمى) والعراق ، وربما كان اسم مدينة آمد مأخوذا منه ، والأتراك الآن يسمونها (آميدة) أى آمد السوداء ؛ لسواد حجارتها ، قلت والمدينة ذكرها المصنف فى الأصل .

فاذا وازنا بين ما قاله ياقوت فى هذا المكان (آمد) ، وما استدركه عليه صاحب المنجم ـ فلا نجد فى قوله من جديد ـ الا ما نقله عن البستانى من (آمد) اسم رجل ، وهو جد قبيلة من العرب ، واسم المدينة مأخوذ منه ، ثم ما ذكره من تسمية الأتراك لها ، وكل ذلك مما أخذ من مصادر لم تصل اليها أيدى ياقوت أو مما استحدث بعد عصره .

٢ ـ (أمستردام) بفتح فكسر فسكون ، وهى أكبر مدن (هولاندا) ، والعاصمة الحقيقية لها فى نظر أهالى المملكة ، واقعة على جنوب خليج (واى) فى عرض ٥٢ درجة ، و ٢٢ دقيقة شمالا ، وطول أربع درجات و ٥٣ دقيقة شرقا ، وعدد أهاليها ٤٠٠ ألف نسمة ، وهى مدينة جميلة جدا ، ومن أغنى مدن العمران ، هلالية الشكل ، وطرفاها داخلان فى خليج (واى) ، ومنهما تتكون الميناء ،

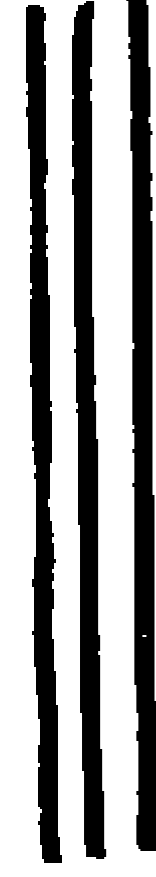
وهي متصلة مع البحر الشمالي بواسطة ترعة (بومويدين) ، ولها مرفآن يمكن أن ترسو فيهما ألف سفينة ، وكانت هذه المدينة من الجهة اليابسة مكتنفة بأسوار ، ثم رفعت وأبدلت بخندق ، وعرضه ثلاثون ياردا ، وظلل جانباه بالأشجار فصار كمتنزه جميل ، وموقع المدينة المذكورة فى أرض منبسطة أجمية ، وبيوتها مبنية على أوتاد أو أعمدة مغروسة فى الأرض ، على عمق خمسين قدما ، وبواسطة الترع المتخللة انقسمت الى نحو تسعين جزيرة ، ويعلو تلك الترع نحو ٣٠٠ جسر ، ومحيط المدينة يبلغ عشرة أميال ، ولها ثمانية أبواب من حديد ، اسم كل باب منها باسم الحى الذى يدخل اليه منه ، والقسم القديم من المدينة غير منتظم ولا مستحسن المنظر ، لضيق أزقته ، وحقارة بيوته ، أما الجديد منها فهو بناء بغاية الانتظام والطرافة ، ذو أسواق جميلة ، طول السوق منها نحو ميلين ، وعرضه ٢٢٠ قدما ، والترع مارة بها ، وبيوتها مبنية من آجر ، ومؤلفة من أربع أو خمس طبقات ، ويدخل اليها بدرج فى مستقبلها وبها من الأبنية العمومية الجميلة دار الحكمة ، وجملة كنائس ، ودار القضاء ، ودار اجتماعات العمومية الجديدة ، ودار الصناعة ، وجملة أبنية خيرية أيضا ، وبها جملة مدارس خصوصية وعمومية علمية وصناعية ، وبها بستان لتربية أنواع النباتات ومكتبة عمومية ، ومدرسة للموسيقا ، ومدرسة للبحرية ، ودار للصور ، وبها عدة معامل صناعية لعمل السكر والزجاج وصب الحديد وبناء السفن ، والصابون والمنسوجات ، وغير ذلك ، وهى مشهورة بتجارتها أكثر

من صناعتها ، ومعظم البضائع الداخلة الى هولاندا والخارجة منها ـ تمر بأمستردام ، وقد بلغت عدة السفن التى دخلت ميناءها والتى خرجت منها فى بضع سنين ـ نحو ثلاثة آلاف سفينة ، وأهم صادراتها السمن والجبن والسكر والبن والبهار ، والزيت ، والقصدير ، والصباغ ، وأكثرها لألمانيا وانجلترا ، ولها طرق اتصال بغيرها متعددة ، منها الترع والسكك الحديدية وغيرها •

وقد كانت أمستردام سابقا خاضعة لاسبانيا ، ثم تداولتها أيادى جملة دول ، منها البروسيون والانجليز والفرنساويون ، ثم انتقلت الى هولاندا ، وجعلت عاصمة لها ، الا أن البلاط الملكى فى مدينة (لاهاى) •

ويلاحظ أن صاحب منجم العمران يعنى بضبط اسم المدينة، ولكنه يهمل الناحية الاشتقاقية ، وعذره واضح فى ذلك لأنه يتحدث عن مدن أوربية أو أمريكية مجهولة الاشتقاق ، وقد سلك ياقوت قبله هذا المسلك ، فهو لم يتحدث الا عن اشتقاقات أسماء المدن العربية الخالصة ، وكان يهمل الأسماء الأعجمية للبلدان والأماكن ، لتعذر معرفة اشتقاقها وصاحب المنجم مقلد ، ولم يأت بجديد من حيث المنهج وطريقة البحث ، ولذلك يعتبر المنجم امتدادا لأسلوب ياقوت وتكملة لمعجم البلدان ، من حيث التعريف بالأماكن التى نشأت بعد عصر ياقوت فى أوربة وأمريكا والمستعمرات الافريقية •

الفصل الرابع



ياقوت بين الجغرافيين

يذهب العلامة الروسى كراتشكوفسكى الى القول بأنه لا يمكن وضع ياقوت بازاء باحث عالمى كبير كالبيرونى ، أو بازاء رحالة حلقت شهرته فى كل سماء وطارت الى أكثر من مكان كالمسعودى أو المقدسى .

ولكننا اذا وضعناه بازاء الجغرافيين اللغويين من طبقة (البكرى) - فان ياقوتا يفضل الكثير من هؤلاء ، ويبزهم ، اذ يتفوق عليهم بغزارة مادته وتنوعها ، وبمنهجه فى البحث الذى انفرد به ودل على ذكائه ومهارته ؛ ولذلك لا نبالغ بعد هذا اذا وصفناه بأنه كان من أبرز رجال عصره فى تطوير مادة الأدب الجغرافى ، التى عالجها باقتدار فى معجم البلدان ، وما يزال هذا المعجم الى وقتنا يخدم غرضه ، الذى وضع من أجله ، وما يزال مرجعا من أهم المراجع الموثوق بها فى دراسة التراث الجغرافى العربى القديم .

ونضيف الى قول العلامة (كراتشكوفسكى) أننا لا نستطيع أن نضع ياقوتا بالرغم من شهرته فى عصره وبالرغم من القيمة العلمية الكبيرة لكتابه معجم البلدان ـ بجانب الخوارزمى ، اذ أننا نجد الخوارزمى وهو العالم الجغرافى العظيم قد اشترك فى أيام المأمون فى وضع الخرائط الجغرافية ، ومنها رسم مصور لوادى النيل ، كما قام بقياس درجة من درجات محيط الأرض ، ولم يعرف عن ياقوت أنه شغل نفسه برسم الخرائط ، وبوضع الزيجات الفلكية ، وانما اتجه نحو الجغرافية الوصفية ، وركز اهتمامه على التعريف بالأماكن والبقاع والبلدان ، وضبط أسمائها وبيان اشتقاقاتها ، ولا يمكن أن نضعه بجانب السيرافى ، فالسيرافى قد توسع فى رحلاته ، وجاوز بها البلاد العربية الاسلامية ، فاجتاز بها الهند، ومر بجزيرة سيلان وملقا وزار الصين ، فى حين أن ياقوتا لم تذكر المراجع عنه انه زار الصين وغيرها من البلاد التى سجل السيرافى عنها كثيراً من الأوصاف وعادات السكان وتقاليدهم ، فأمد برحلاته الجريئة مؤلفى القصص الخرافى بثروة ضخمة ساعدتهم على وضع قصص السندباد المشهورة •

و (ابن خرداذبه) يسبق ياقوتا فى كتابه « المسالك والممالك » بالتحدث عن أقسام الدولة العباسية ، وكيفية جباية خراج هذه الأقسام ، وبالتحدث عن الطرق التجارية ، ووصف بلاد الصين واليابان وكوريا وصفا دقيقا ، مما أغفله ياقوت أما (ابن فضلان)

فقد انفرد بين الجغرافيين العرب ومنهم ياقوت برحلتــه الى حوض (الفولجا) ، وتقول الرواية العـربية : ان أحـد ملوك الصقالبة قد أسلم ، وكانت له مملكة شاسعة الأطراف ، تشمل حوض (الفولجا) وتمتد الى (قازان) فى محاذاة (موسكو) ، وأنه أرسل الى الخليفة المقتدر العباسى فى طلب بعض علماء المسلمين ، ليفقهوه وقومه فى دينهم الجديد ، ويوقفوهم على أحكامه وتعاليمه الصحيحة ، ثم لكى يقيموا مسجدا ، وينصبوا منبرا ، ينادى من فوقه قومه ، ويدعوهم الى التمسك بالاسلام ، ويقال : ان الخليفة المقتدر أجابه الى طلبه ، واختار وفدا من العلماء برئاسة (أحمد بن فضلان) (١) ، وغادر الوفد مدينة بغداد فى ١١ من صفر سنة ٣٠٩ هـ ، ثم تتعرض هذه البعثة أو السفارة العربية الاسلامية لكثير من الصعوبات فى الطريق الى ملك بلغار ، بسبب قسـوة زمهرير الشـتاء فى تلك الأصقاع الباردة ، وقد حملت البعثة معها كثيرا من الهدايا والأدوية ، ممـا يدل على سعة الحضارة العباسية ، ووفرة الرخاء وقتئذ ، وقد كانت هذه الرحلة الفريدة ، والرسالة التى كتبها ، يصف فيها ما شاهده من عجائب وغرائب فى بلاد الصقالبة موضع عنـاية المستشرقين ، وبخاصة المستشرقون الروس ، ومنهم (فرمن) الذى عكف على

---

(١) (احمد بن فضلان) هو أحمد بن فضلان بن عبـاس بن رشـيد بن حماد ، أرسله الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ الى ملك البلغار وليس المراد بالبلغار أهل بلغاريا الذين تشغل أرضهم جزءا من بلاد البلقان شرقى أوربة ، وانمـا المقصود بهم الصقالبة او الروس سكان شواطىء الفولجا شرقى موسكو .

دراسة المخطوطات ، التى أشارت الى هذه الرحلة ، واهتم (فرمن) بنشر ما جاء في معجم ياقوت عن هذه الرحلة ، وأتم طبعه فى سنة (١٨٢٣) م فى (سان بطرسبرغ) « لينتغراد » ، كما توصل العالم التركى أحمد زكى الى نسخة من رسالة ابن فضلان ونشرها فى سنة ١٩٣٤ م ، وقد وقف ياقوت من ابن فضلان موقف المسجل الناقل لما تركه من آثار •

وأما اليعقوبى فيهتم بوصف الامبراطورية البيزنطية ، فضلا عن وصفه لبلاد الهند والصين ، والبتانى يوجه عنايته الى الأرصاد الجوية والجغرافية الفلكية ، وقد وضع زيجه المشهور الذى يعرف بالزيج الصابى ، مما لم يقم به ياقوت ، وكان الاصطخرى من أشهر مؤلفى الجغرافية فى العصر العباسى ، ألف كتاب (المسالك والممالك) واهتم فيه بالمصورات والخرائط ، ويقال انها كانت ملونة، مما يدل على دقته فى التصوير الجغرافى •

ومن المؤكد أن ياقوتا لم يشتغل برسم الخرائط بدليل أن معجم البلدان نشر خاليا منها ، والمقدسى وان كان كياقوت فى أن رحلاته كانت مقصورة على البلاد الاسلامية ـ الا أنه يتميز برسم خرائط ملونة للبلاد التى زارها •

وأما « الشريف الادريسى » الذى طارت شهرته فى العالمين الاسلامى والمسيحى ، فقد قيل عنه انه كان صاحب الفضل فى تجديد علوم الجغرافية بتأليفه كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ،

وكان يعرف هذا الكتاب بالكتاب (الرجارى) نسبة الى (روجر) ملك النورمانيين بصقلية ، وهم الذين تغلبوا على مسلمى هذه الجزيرة وأجلوهم عنها ، ولكن (روجر) كان معروفا بتسامحه الدينى ، وحبه للعلماء ، وبخاصة علماء المسلمين ، الذين ملأت شهرتهم العلمية سمع العالم وبصره وقتئذ ، فقرب منه (الشريف الادريسى) ، وطلب اليه وضع كتاب ، يشمل جميع المعلومات الجغرافية المعروفة فى عصره ، فوضع الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه ، وقد جاء ما فيه من مادة جغرافية وصفا دقيقا لكل ما هو معروف عن الكرة الأرضية ، التى كانت تمثلها كرة ذهبية ، وقيل فضية ــ أمر (روجر) بصنعها ، وقد رسمت عليها الاقاليم السبعة المعروفة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها ، وريفها ، وخلجانها ، وبحارها ، ومجاريها ، ومنابع انهارها ، وعامرها وغامرها ، ومابين كل بلد وغيره من الطرقات المعروفة والأميال المحدودة ، والمسافات، والمراسى المعروفة ، واشتهر الادريسى بدقته فى رسم الخرائط ، ومن خرائطه المشهورة خريطة لنهر النيل ، تصوره آتيا من بحيرات تقع فى المنطقة الاستوائية ، ويقال : انه صحح بهذه الخريطة آراء الجغرافيين فى عصره ، الذين كانوا يخلطون خلطا كبيرا فى تحديد منابع النيل ، وخرائط الادريسى فى دقتها ووضوحها ــ قد وضعت الصورة السليمة الصحيحة للكرة الأرضية ، وعليها اعتمد (كولمبس) فى القيام برحلته البحرية ، التى حققت كشف الأمريكتين ، (الدنيا الجديدة) .

ولا نستطيع ازاء هذه الجهود الضخمة التى قام بها الشريف الادريسى أن نضع بازائه ياقوتا .

والذى يلاحظ بصفة عامة أن ياقوتا قد اتجه فى تأليفه الجغرافى اتجاها يختلف فيه عن كثير من سلفه علماء الجغرافية ، فرحلاته كانت ضيقة ، شملت العالم العربى الاسلامى وحده ، وما ذكره عن بعض البلدان والبقاع الأخرى فقد كان نقلا عن غيره ، وكان يركز فى معجمه الجغرافى على التعريف بأسماء الأماكن والبلدان والبقاع والديرة ، ويعنى بالضبط كل العناية ، وباشتقاقات أسماء البلدان والأماكن اذا كانت عربية ، ثم نراه يهتم بتوجيه علوم الجغرافية الى خدمة الأحكام الشرعية ، وقد نقل أكثر ما قاله فى وصف البلدان والتعريف بالأماكن ممن تقدموا عليه ، وأيد ذلك باعترافه الواضح فى مقدمة (معجم البلدان) ، ولذلك يقول العالم الايطالى (ألدوميلى) فى كتابه (العلم العربى) : « انه جمع فى معجمه قسما كبيرا من مؤلفين سابقين » .

ان ياقوتا وان كنا نضعه بين المشهورين من الجغرافيين المسلمين ـ الا أن أكثر معلوماته قد نقلها عن غيره ، واذا فهو مؤلف جغرافى ، وليس جغرافيا بالمعنى الذى تتصوره فى الشريف الادريسى ، أو فى أبى الريحان البيرونى ، فكل من أبى الريحان والادريسى قام بأعمال فلكية،ولكل منهما آراء استنبطها من دراساته، ومن آراء أبى الريحان قوله : « والعقل يقضى بوجود جزء معمور

فى الجانب الغربى من الكرة الأرضية » ، ولكنه يبدى احتراسا فيما يقوله حين يرى أنه لا يمكن الجزم بوجود هذا الجزء المغمور فى الجانب الغربى من الكرة الأرضية ـ الا بعد المشاهدة وتواتر الخبر من الثقات •

وكما أفاد (كولبس) من خرائط الشريف الادريسى ، كذلك أفاد من آراء أبى الريحان البيرونى ، وهذا مما دفعه بيقين قاطع على اقتحام بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) من أجل تحقيق الفكرة المنطقية لأبى الريحان ـ عن طريق العيان والمشاهدة • وياقوت وان لم يبلغ ما بلغه السابقون من علماء الجغرافية المسلمين كالبتانى والبيرونى والشريف الادريسى وغيرهم ـ الا أنه بالنسبة لجغرافى عصره يمكن وضعه فى قمة علماء الجغرافية ، فقد لمع ياقوت فى عصره لقيامه ببعض الرحلات ، التى أتاحها له سيده عسكر بن أبى نصر الحموى ، وبرحلات أخرى قام بها بعد وفاة سيده ، ثم بوضعه كتابه المشهور (معجم البلدان) فى الجغرافية الوصفية ، وان كان قد استهله ببعض فصول قصيرة فى الجغرافية الطبيعية والفلكية، ويعتبر معجم البلدان موسوعة كبرى مزج فيها ياقوت علوم الجغرافية بعلوم الشريعة الاسلامية والأدب والقصص والتاريخ والفلك •

ومن الراجح أن كثيرين من الجغرافيين الذين جاءوا بعد ياقوت ـ لم يتأثروا باتجاهه الجغرافى الى درجة ملحوظة ، فى مثل

ما عنى به من التعـريف الدقيق بالأماكن والبـلدان ويمـكن أن نستثنى من هؤلاء العلماء أبا الفداء اسماعيل بن على بن محمود فى كتابه المشهور (تقويم البلدان) (١) ، ومن العجيب أن أبا الفداء يتهم علماء الجغرافية السابقين بضعف العناية بالضبط ، ولا شك أن هذا الاتهام يتناول ياقوتا ، ولا نستطيع ان نقول ان أبا الفداء لم يطلع على معجم البلدان ، ومن هنا يتضح لنا الاسراف فى توجيـه هذا الاتهام ، الذى يوجهه دائما بعض الخلف الى السلف فى غير دقة ولا تمحيص .

ولكن الذى لا ريب فيـه أن ياقوتا قد نهض نهضـة كبيرة بالتأليف الجغرافى فى عصره ، فأفاد بمعجمـه الجغـرافيين والأدباء واللغويين والأطباء ورجال الشريعـة الاسـلامية وغيرهم ، ويقول الأستاذ (نفيس أحمد) فى كتابه جهود المسلمين فى الجغرافية (٢): والحق أنه (أى ياقوتاً) هدانا باشاراته التى وردت فى ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، وهو يبدىاستعماله المنهج النقدى الذى يأخذ به الجغرافى الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواضع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه

---

(١) (تقويم البلدان) ألفه أبو الفداء اسماعيل ، ورتبه المؤرخ التركى (سباهى زادة) المتوفى سنة (٩٩٧ هـ) على حروف المعجم ، وسماه أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك »

(٢) ترجمه الاستاذ (فتحى عثمان) وراجعه الاستاذ (على ادهم) ، ونشرته دار القلم من سلسلة الالف كتاب .

قد فشـــــل فى تحقيق كثير من الأماكن التى وردت فى كتـــابات بطليموس ؛ لأنها لم تعد بعد قائمة .

(٢) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء .

وهو المعجم الثانى الذى طارت به وبسابقه شهرة ياقوت فى الآفاق ، ويقتضينا تقديمه للقارىء أن نستشير مقدمته ؛ لنســتخرج منها الأساس الفلسفى الذى بنى عليه ، والمنهج الذى سلكه ياقوت فى عرض تراجمه ، يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه الاعانة : الحمد لله ذى القدرة القاهرة ، والآيات البـاهرة ، والآلاء الظاهرة ، والنعم المتظاهرة ، حمدا يؤذن بمزيد نعمه ، ويكون حصنا مانعا من نقمه ، وصلى الله على خير الأولين والآخرين من النبيين والصديقين محمد النبى والرسول الأمى ، ذى الشرف العلى ، والخلق السنى ، والكرم المرضى ، وعلى آله الكرام ، وأتباعه سرج الظلام ... فما زلت مذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب ـ مشـغوفا بأخبـار العلماء ، متطلعا الى أنباء الأدباء ، أســائل عن أحوالهم ، وأبحث عن نكت أقوالهم بحث المغرم الصب والمحب عن المحب ، وأطوف على مصنف فيهم ، يشفى الغليل ، ويداوى لوعة العليل ، فما وجدت فى ذلك تصنيفا شافيا ، ولا تأليفا كافيا ، مع أن جماعة من العلمـاء والأئمـة

القدماء أعطوا ذلك نصيبا من عنايتهم وافـرا ، فلم يكن عن صبح الكفاية سافرا كأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي ، وأرى أنه أول من أعارهم طرفه ، وسود فى تبييض أخبارهم صحفه ، لأنه قال في مقدمة كتابه : وقد اجتهـد أبو العبـاس محمـد بن مؤيد الأزدى ، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيبانى فى مثل ما أودعناه كتابنا من أخبار النحويين ، فما وقعا ولا طارا •

هذا مع أن كتابه صغير الحجم قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها ، لا يختص بأخبارهم أنفسهم •

ثم ألف بعده فى هذا الأسلوب أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن درستويه كتابا ، فلم يقع الينا الا أنباء ظنه لذلك ، ثم صنف أبو عبد الله محمد بن عمر المرزبانى كتابا حفيلا كبيرا على عادته فى تصانيفه ــ الا أنه حشاه بما رووه ، وملاه بما وعـوه ، فينبغى أن يسمى مسند النحويين وقد وقفت على هذا الكتـاب ، وهو تسـعة عشر مجلدا ، ونقلت فوائده الى هذا الكتاب ، مع أنه أيضا قليل التراجم بالنسبة الى كبر حجمه ، ثم ألف فيـه أبو سـعيد الحسن ابن عبدالله بن المرزبان السيرافى القـاضى كتـابا صـغيرا فى نحاة البصرة ، نقلنا أيضـا فوائده الى هذا الكتاب ثم جمع فى ذلك أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلى الزبيدى كتابا لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائد ، وأكثرها تراجم وفرائد وقد نقلنا أيضـا فوائده الى هذا الكتاب •••

موضوع معجم الأدباء ومنهج المؤلف فيه :

هذا الكتاب كما يدل عليه اسمه يمكن أن يسمى قاموس الأدباء ، ويقول ياقوت :

وجمعت فى هذا الكتاب ما وقع لى من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفا ، أو جمع فى فنه تأليفا ، مع ايثار الاختصار ، والاعجاز فى نهاية الايجاز ، ولم آل جهدا فى اثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم ، ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم ، وشىء من أشعارهم •

فأما من لقيته أو لقيت من لقيه ، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ــ ما لا أترك لك تشوفا الى شىء من خبره ، وأما من تقدم زمانه ، وبعد أوانه ــ فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة اليه ، ووقفنى النقل عليه فى تردادى الى البلاد ، ومخالطتى للعباد ، وحذفت الأسانيد الا ما قل رجاله ، وقرب مناله ، مع الاستطاعة لاثباتها سماعا واجازة ، الا أننى قصدت صغر الحجم وكبر النفع وكنت قد شرعت عند شروعى فى هذا الكتاب أو قبله ــ فى جمع كتاب فى (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) فرأيت أهل العلم المتأدبين والكبراء المتصدرين ــ لا تخلو قرائحهم من نظم شعر

وسبك نثر ، فأودعت ذلك الكتاب كل ما غلب عليه ، فدون ديوانه، وشاع بذلك ذكره وشانه ، وصحت روايته ، وشاعت درايته ، وقلّ شعره ، وكثر نثره ، فهذا الكتاب عشه ووكره ، وفيه يكون ثناؤه وذكره ، وأجتزىء به عن التكرار هناك ــ الا النفر اليسير الذين دعت الضرورة اليهم ، ودلتنا عنايتهم بالصناعتين عليهم •

ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء ، وقصدت بترك التكرار خفة محمله في الأسفار ، وجعلت ترتيبه على حروف المعجم ، أذكر أولا من أول اسمه ألف ، ثم من أول اسمه باء ، ثم تاء ثم ثاء الى آخر الحروف وألتزم في ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه ، فأبدأ بذكر من اسمه (آدم) ألا ترى أن أول اسمه همزة ، ثم الف ، ثم من اسـمه (ابراهيم) لأن أول اسمه الف ، وبعد الألف باء ، ومعنى ذلك انه اذ اشترك اثنان أو أكثر في الحرف الأول من الاسم رتب بحسب الحرف الثاني ، فان اشتركا فيه كان الترتيب بحسب الحرف الثالث وهكذا ، فان اتحدت الأسماء الأول رتب بحسب الأسماء الثواني ، فآدم قبل ابراهيم ، كما سبق ، ومحمد بن أحمد قبل محمـد بن علي ، وهكذا •

فاذا اتفق اسماء عدة رجال وأسماء آبائهم ، قدم من تقدمت وفاته ، ولم ينظر في الترتيب الى أسماء الجدود اذا اتفقت الأعلام في أسمائهم وأسماء آبائهم، فنراه يقدم ابراهيم بن محمد بن عبيدالله،

على ابراهيم بن محمد بن سعيد وكانت طبيعة الترتيب تقتضيه أن ينظر الى أسماء الأجداد ، لاتمام الترتيب ، ومع ذلك فقد يسهو ، ويقدم ما يجب تأخيره ، كتقديمه ابراهيم بن محمد سعدان على ابراهيم بن القاسم ، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من صنيع النساخ ثم يقول : ولم أقصد أدباء قطر ، ولا علماء عصر ، ولا اقليما معينا ، ولا بلدا مبينا ، بل جمعت للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين ، والحجازيين ، والتميميين ، والمصريين ، والشاميين ، والمغربيين ، وغيرهم على اختلاف البلدان وتفاوت الأزمان ، على حسب ما اقتضاه الترتيب وحكم بوضعه التبويب ، لا على أقدارهم فى القدمة والعلم والتأخر والفهم ، وابتدأته بفصل يتضمن أخبار قوم من متخلفى النحويين والمتقدمين المجهولين .

ويفهم من قول ياقوت أنه جمع فى كتابه الأول فى (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) عددا كبيرا منهم ، ولم يحاول أن يكرر أسماء هؤلاء فى كتابه معجم الأدباء كراهة التكرار ، ولذلك نراه يشير الى ذلك بقوله : ففى هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء والنحويين واللغويين ...

اشادته بفضل من نقل عنهم ، وبأثر علمهم وأدبهم فى الحياة والدين :

وبعد فهذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد، والحديث

المفيد ، وبضاعتهم تنال الامارة ، وببضـاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحـلال من الحرام ، ألا ترى أن القارىء اذا قرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » ، فقد سلك طريقا من الصواب واضحا ، وركب منهجا من الفضائل لائحا ، فان كسر اللام من (رسوله) كان كفرا بحته وجهلا قحا ، وروى أن أبا عمرو بن العـلاء كان يقول : « لعلم العربية هو الدين بعينه » ، فبلغ ذلك عبد الله بن المبـارك فقال : صدق ؛ لأني رأيت النصارى عبدوا المسيح لجهلهم بذلك ، قال الله تعالى : « اني ولّدتك من مريم وأنت نبيي » فحسبوه يقـول : أنا ولدتك وأنت بُنَيِّي ، فبتخفيف اللام ، وتقديم الباء وتعويض الضمة بالفتحة كفروا ، وحسـبك من شرف هذا العلم أن كل عالم على الاطلاق مفتقر الى معرفته ، محتاج الى استعماله في محادثته .

ونلاحظ أن ياقوتا في افتتاحية مقدمته يبدأ بتحميد الله جل شأنه ، وبالصلاة على رسوله أفضل الخلق وأشرفهم ، وهو بذلك يجري على عادته ، حينما قدم الينا من قبل كتابه (معجم البلدان) ، والذي نستطيع أن نستشفه من خلال هذا التحميد والصلاة على النبي الكريم أن علماءنا السابقين ، ومنهم ياقوت كانوا يربطون دائما بين تفكيرهم العلمي وصلتهم بالخالق عز شأنه ؟ اذ هو الذي يهديهم ، ويرشدهم الى سواء السـبيل ، ويعينهم على البحث ، ويوفقهم فيما يستنبطونه من مسائل العلم ويفتح أمامهم أبوابه المغلقة .

وتلك ظاهرة جديرة بالنظر ، سبق أن أشرنا اليهـا عنـد الحديث عن مقدمة ياقوت (لمعجم البلدان) ، وانى استعيد الحديث عنها ؛ لأكشف عن شيء من أسرار هذه الظاهرة ، التى تثبت أن علماء المسلمين فى العصور الماضية من الاسلام كانوا على صلة قوية بالله تعالى ، وكانت هذه الصلة من العوامل التى ساعدتهم على هذا الانتاج الضخم ، الذى يقف أمامه العقل حائرا ، فقد جمعوا ثمرات طيبة من العلوم الناضجة فى مجلدات ضخام ، لقد كانت عقيدتهم صافية ، ثم أضافوا اليها شغفا زائدا بالعلم ، ورغبة صادقة فى استقصاء مسائله والبحث عن شوارده ، ولو أنهم كانوا يعيشون فى عصرنا بما هم عليه من صفات ـ لأتوا بالعجب العجاب ، وسجلوا فى ميـادين البحث نظريات وحقائق علمية ، تفوقوا بها على معاصرينا . كذلك تكشف لنا هذه المقدمة عن الأمانة العلمية فى اشارات ياقوت الى من سبقوه فى هذا الميدان ، ونقله عنهم ، واعتماده على مراجعهم ، وتلك الأمانة نتيجة منطقية للايمان العميق بالله واعتماد عليه ، ولا ينسى ياقوت أن يشرح لنا طريقته فى عرض مادة كتابه ، وترتيب أبوابه، وأنه لم يؤثر فريقا من الأدباء والعلماء بالذكر والتنويه لفضلهم دون فريق آخر ؛ اذ كان هدفه الكشف عن الحقيقة العلمية والأدبية أينما وجدتا ، ويحدثنا ياقوت عن أثر علوم الأدب فى الحياة ، وفضلها فى تسليط أضوائها الكاشفة عن المسائل الدينية ، فالعالم بعلوم الحياة ، والعالم فى الدين فى أشد الحاجة الى الأدب ، ولذلك وجدنا أكثر

المفسرين من ذوى السبق فى هذا الميدان يعتمدون على النصوص الأدبية من شعر وغيره فى شرح مقاصد آى الذكر الحكيم ، ويؤيد رأيه بما وقع فيه المسيحيون من خطأ شنيع فى تفسير بعض النصوص الدينية ، وما ترتب على هذا الخطأ من عواقب أليمة بالنسبة لهم .

وبعد أن فرغ ياقوت من مقدمته بدأ كتابه (معجم الأدباء) بفصلين ، الفصل الأول فى فضل الأدب وأهله ، وذم الجهل وحمله ، والفصل الثانى فى فضيلة علم الأخبار ، وسنعطى القارىء فكرة عن اتجاهات ياقوت فيهما .

فهو يقول فى الفصل الأول (فى فضــل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله) ، قال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : كفى بالعلم شرفا أنه يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح اذا نسب اليه من ليس من أهله ، وكفى بالجهل خمولا أنه يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب اذا نسب اليه ، فنظم بعض المحدثين فى ذلك فقال :

كفى شرفا للعلم دعواه جاهل ويفرح أن يدعى اليه وينسب
ويكفى خمــولا بالجهــالة أننى أراع متى أنسب اليها وأغضب

وقال على رضى الله عنه : قيمة كل انسان ما يحسن ، فنظمه شاعر وقال :

لا يـكون الفصيح مثـل العيى ولا ذو الـذكاء مثــل الغبى
قيمـة المرء قدر ما يحسن المر ء قضـــاء من الامـام عـلى

ويقول : سمعت أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم كان يقول : رحم الله امرأ أصلح من لسانه ... قالوا والفرق بين العالم والأديب أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه ، والعالم من يقصـد بفن من العلم فيعتمله (١) ، ولذلك قال على كرم الله وجهه : العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه .. وقال بزرجمهر : من كثر أدبه كثر شرفه وان كان وضيعا ، وبعد صوته وان كان خاملا ، وساد وان كان غريبا ، وكثرت الحاجة اليه وان كان فقيرا .

وفى فضل علم النحو قال نافع مولى ابن عمر : كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن ، كما يضربهم على تعليم القرآن .

ونرى ياقوتا فيما عرضناه من هذا الفصل يتمثل بقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى فضل الأدب، ويحرص على أن يزودنا بنصوص من الشعر ، تعبر عما قاله الامام العظيم ، والتعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة منحى بلاغى ، سلكه ياقوت للتشـويق ، وتقـوية المعنى ، ولزيادة الثروة اللغـوية ، وحين يفرق بين العالم والأديب يسلك مسلكا علميا دقيقا .

---

(١) يعتمله : يعمل فيه بجد وجهد .

فالأديب عنده من يعنى بالصفة الكلامية وتأليف الكلام ـ وأما العالم فهو الذى يعتمد على طاقته الفكريه ، فيعتمل الأشياء أى يفكر فيها بجد وجهد ، وهذا الفرق بين كل من العالم والأديب ـ لا يبعد عن وجهة نظرنا الحديثة .

وفيما يسجله ياقوت عن أهمية النحو العربى ، وأن ابن عمر كان يضرب أبناءه ، ليحملهم على توجيه مزيد من عنايتهم الى النحو ، كما كان يضربهم على الاهتمام بحفظ القرآن الكريم ـ دليل على سمو منزلة النحو عند العرب الأولين ، وأنهم كانوا يبالغون فى تعليمه لأولادهم ، والحقيقة أن النحو وان لم يكن من علوم المقاصد والغايات ، كما يقول العلامة ابن خلدون ، وأنه لم يكن غاية فى ذاته ـ الا أنه وسيلة هامة وضرورية ، لاحسان القول ودقته ووضوحه ، من حيث سلامة تأليف الجمل والعبارات وصوابها من حيث النطق ، وللنحو مثل هذه الأهمية فى كل لغة من اللغات ، فكيف بالعربية ـ التى تفضل كل لغة بنحوها ، الذى هو قطعة من العقل العربى الخالص ، والذى يدل بقواعده المفصلة على اكتمال نمو اللغة وازدهارها .

ويقول ياقوت فى فضيلة (علم الأخبار) : وقديما قيل : ان علم النسب والأخبار من علوم الملوك وذوى الأخطار ، ولا تسمو اليه الا النفوس الشريفة ، ولا تأباه الا العقول السخيفة ، وقد قالت

الحكماء : الكتاب نعم الجليس والذخر ، انشئت ألهتك بوادره (١)، وأضحتك نوادره (٢) ، وان شئت ألهتك مواعظه ، وان شئت تعجبت من غرائب فرائده، وهو يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر ، والغائب والحاضر ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ، وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ، وهو مؤنس ينشط بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ...

وكان عبد الله محمد بن عائشة القرشي يقول : الأخبار تصلح للدين والدنيا ، قلنا : الدنيا قد عرفنا ، فما للآخرة ؟ قال : فيها العبرة يعتبرها الرجل ، وقال الله تعالى مخبرا عن قصة يوسف واخوته : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

وليس من عجب حين يجعل ياقوت علم الأخبار والأنساب من علوم الملوك ، فانه حين علم الجبار (تيمورلنك) وهو في الشام بأن ابن خلدون في دمشق استدعاه ، لسابق فضله في علم التاريخ والأخبار والأنساب ، ولأنه كان عمدة المحققين وقتئذ ، فأراد الطاغية التترى أن يأنس بحضرة هذا العالم الكبير ، بعد أسره هو وجماعة من العلماء ، كانوا قد خرجوا في جيش السلطان (فرج)

(١) (البادرة) : البديهة وهي ما يستقبل به الامر فجاة ، أى مفاجأته اياك بالطرائف .،

(٢) (ندر الشيء) : شذو منه النوادر وشذوذها غرابتها ، والطراد الطرائف النادرة أى القليلة .

لمدافعة هذا الجبار عن الشام ، ويقال ان ابن خلدون خلبه بسحر بيانه ، فأكرمه وأخلى سبيله ، لكى يسافر الى مصر ليحضر له تاريخه ومقدمته المشهورة ، لكى يقف على ما يقوله عن حوادث الأيام الخوالى والأعصار والأدهار المواضى ، فذهب ولم يعد اليه ، وفى هذا ما يؤيد رأى ياقوت فى أن علم الأخبار والأنساب من العلوم ، التى يحفل بها الملوك .

وأما الكتاب فلا يجهل فضله ، ولكن ياقوتا تقديرا له ـ لا ينسى أن يزيدنا علما بأثره العظيم ، وهو يستهدف من ذلك أن يحببنا اليه ، وأن يغرينا باصطحابه ومصادقته ، وحمله للاطلاع عليه والافادة منه ، وأما أثر علم الأخبار فى النواحى الدينية ـ فهو يأتى من ناحية أنه يمس مواطن العبرة ، وقد أوضح ذلك ياقوت فى مقدمة (معجم البلدان) ، حينما أشار الى عنايته بالتحدث عن الأماكن والديار وغيرها والدقة فى ضبط أسمائها ، فقد كان من جملة مقاصده فى مسلكه أن تتأمل المصير ، الذى انتهى اليه من سكنوها ، وأن نملأ نفوسنا بالتفكير فى أحوال من ذهبوا ، لنكون على حذر شديد من غدنا وعلى بينة من حاضرنا ، ولنستعد لمستقبلنا ، لنسلك فى حياتنا أقوم سبيل ، وننتفع بهدى الصالحين الأولين ، والقرآن أصدق مثل وشاهد على ذلك ، فقد أكثر من ضرب الأمثلة بحوادث الماضين للعبرة والتذكرة ، وانما يتذكر أولو الألباب .

واتباعا لمنهجنا فى البحث سنعرض لبعض النماذج من معجم

الأدباء ، نقدمها للقــارىء ، كما فعلنا بمعجم البــلدان ، ولكن لن نكثر من عرض هذه النماذج ؛ لأنها من الناحية الفنية تجرى على نمط واحد ، فبعضها يغنى عن بعض ؛ اذ كان الغرض رسم صورة واضحة للطريقة التى سلكها العرب فى تراجم الأشخاص والأعلام، وهذه الطريقة وان كان لنقاد الأدب فى عصرنا مآخذ كثيرة عليها ـ الا أنها أثرت أدب التراجم العربية ، وقدمت لنا رغم قصورها صورا لا تحصى عن شخصيات علمائنا وأدبائنا وشعرائنا ، حتى كان لنا من هذا البحر الزاخر مدد عظيم ، أغنانا بمعلومات كثيرة عن حياة هؤلاء الخالدين ، وفيما يلى ترجمتــان أوردهمــا ياقوت فى باب الألف أوردهما على سبيل المثال :

١ ـ أحمد بن الحســين بن يحيى بن سعيد ـ بديع الزمان الهمذانى .

بديع الزمان الهمذانى أبو الفضل ، قال أبو شجاع سيرويه ابن شهردار فى تاريخ (همذان) : ان الحسين بن يحيى بن سعيد ابن بشر أبا الفضل الملقب ببديع الزمان ، سكن هراة ، روى عن أبى الحســين (أحمــد بن فارس بن زكريا) وعيسى بن هشــام الاخبارى وكان أحد الفضــلاء والفصحاء ، متعصبا لأهل الحــديث والسنة ، ما أخرجت همذان بعده مثله ، وكان من مفاخر بلدنا ، روى عنه أخوه أبو سعد بن الصفار ، والقاضى أبو محمد عبد الله ابن الحســين النيســابورى ، قال وتوفى فى ســنة ثمان وتســعين

وثلاثمائة ، قال شيرويه محمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار : الفقيه أبو سعد أخو بديع الزمان أبي الفضل أحمد ابن الحسين بن يحيى لأبيه ، وأنه مفتي البلد ، وروى عن ابن لال وابن تركان وعبد الرحمن الامام ، وأبي بكر محمد بن الحسين الفراء ، وابن جانحاه ، وذكر جماعة وافرة ، قال : وأدركته ، ولم يقصد لى عنه السماع ، وكان في الحديث ثقة ، ويتهم بمذهب الأشعرية ، ويقال جن فى آخر عمره الى أن مات ، وسمعت بعض أصحابنا يقول : كان يعرف الرجال والمتون ، ولد فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ومات ولم يذكره ، وذكره الثعالبي فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كذا قال أبونصر عبد الرحمن بن عبد الجبار الفامى فى تاريخ هراة ، قال المؤلف وقد رأيت البديع فى عدة تصانيف من كتب العلماء ، فلم يستقص أحد خبره أحسن مما اقتصه الثعالبي ، وكان قد لقيه وكتب عنه ، فنقلت خبره من كتابه ، ولخصته من بعض سجعه قال :

بديع الزمان معجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ولم ندرك

نظيره فى طرف النثر وملحــه ، وعزر النظم ونكتــه (١) ، وكان صاحب عجائب وبدائع ، فمنها انه كان ينشد الشعر لم يسمعه قط، ـ وهو أكثر من خمسين بيتا ـ الا مرة واحدة ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها الى آخرها ، لا يخرم حرفا ، وينظر فى الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ، ولم يره الا نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا (٢) ، ويسردها سردا ، وهذا حاله فى الكتب الواردة وغيرها •

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منهــا فى الوقت والســاعة ، وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه ، فيبتدىء بآخــره ، ثم هلم جــرا الى أوله ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصــيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم النثر ، ويروى من النثر النظم ، ويعطى القــوافى الكثيرة ، فيصــل بهــا الأبيــات الرشيقة ، ويقترح عليــه كل عويص من النظم والنثر ، فيرتجله أسرع من الطرف على ريق (٣) لم يبلعه ونفس لا يقطعه ، وكلامه

(١) (النكت) جمع نكتة : المعنى الدقيق المســـتملح ، وذلك ان من عادة الانسان اذا فكر فى أمر دقيق نكت الارض بعود بيده وهو يفكر فقيل لما استخرجه فى تفكيره (نكتة) .

(٢) (الهذ) : القطع فى القراءة ، تقول : هو يهذ القرآن هذا أى يتلوه عن ظهر قلب .

(٣) (على ريق) : أى فى لحظات لا تستغرق زمنا ، لقوة بديهته وفرط ذكائه .

كله عفو الساعة ، وفيض اليد ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد للفم ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف تطول بأن تستقصى ، وكان مع ذلك مقبول الصورة ، حسن العشرة .

وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة ، وهو في مقتبل الشبيبة ، غض الحداثة ، وقد درس على أبي الحسن بن فارس ، وأخذ عنه جميع ما عنده ، واستنفذ علمه ، وورد حضرة الصاحب ابن عباد ، فتزود من ثمارها وحسن آثارها ، ثم قدم جرجان ، وأقام بهامدة على مداخلة الاسماعيلية (١) ، والتعيش في أكنافهم ، واختص بالدهخداة أبي سعيد محمد بن منصور ، ونفقت (٢)

---

(١) (الاسماعيلية) فرقة من الشيعة ، سميت بهذا الاسم ، لانها وقفت بسلسلة الامامة عند اسماعيل الابن الاكبر لجعفر الصادق ، الامام السادس ، وقد جعلوا الامامة بعد جعفر لابنه اسماعيل ، وكان جعفر قد عين ابنه اسماعيل خلفا له ، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني (موسى) ، لانه لقي اسماعيل ثملا غير ان الاسماعيلية لم يسلموا بنزع الامامة من اسماعيل ، اذ كانوا يرون ان الامام معصوم ، وان شرب الخمر لا يفسد عصمته ، وانه يجوز لله ان يأمر بشيء ثم ينسخه على نقيض ما قرر جعفر ، وتوفى اسماعيل بالمدينة في سنة ١٤٣ هـ : ومن معتقدات الاسماعيلية ـ انكار صفات الله ، لانهم يقولون انه فوق متناول العقل ، والعقل عاجز عن ادراك كنهه ، ويقولون : ان الله لم يخلق العالم خلقا مباشرا ، وانما ابدع العقل الكلي بعمل من أعمال الارادة ، وهو الامر ، وان العقل الكلي محل لجميع الصفات الالهية ، وهو عندهم الاله ممثلا في مظاهره الخارجية .

(٢) نفقت بضاعته : المراد قدرت مواهبه معلومه .

بضاعته لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في اسداء الافضال على الأفاضل ، ولما أراد ورود (نيسابور) أعانه بما سيره اليها ، فوردها سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ونشر بها بزه (١) وأظهر طرزه (٢) وأملى أربعمائة مقامة ، نحلها أبا الفتح الاسكندرى في الكدية (٣) وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، ثم شجر بينه وبين الأستاذ أبى بكر الخوارزمى (٤) ـ ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره ؛ اذ لم يكن في الحساب أن أحدا من العلماء ينبرى لمساجلته ، فلما تصدى الهمذانى لمباراته ، وجرت بينهما مقامات ومبادهات ومناظرات، وغلّب قوم هذا، وغلّب آخرون ذاك ـ طار ذكر الهمذانى في الآفاق ، وشاع ذكره في الأفاق (٥) ، ودرت له أخلاف الرزق .

فلما مات الخوارزمى خلا له الجو وتصرفت به أحوال جميلة،

---

(١) بزه : البز القماش والكام مجاز .

(٢) (اظهر طرزه) : يريد اظهر مكنونات علومه وبراعته .

(٣) (الكدية) : الاستعطاء وحرفة السائل الملح .

(٤) (الخوارزمى) : هو ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر اللغوى الاديب الرحالة ، فخرخوارزم وصاحب الرسائل المشهورة ، وفى آخر أيامه منى بمساجلة بديع الزمان الهمذانى ومناظرته فخلل ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ .

(٥) (الافاق) : بضم الهمزة وتشديد الفاء جمع افق من بلغ النهاية فى الفصاحة والعلم .

وأسفار كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان (١) وغزنة بلدة الا دخلهـا وجنى ثمرها ، ولا ملك ولا وزير ولا أمير ـ الا استمطر بنوئه ، وسرى فى ضوئه ، فخلصت له نعمة حسنة ، وثروة جميلة ، وألقى عصاه بهراة ، فاتخذها دار قراره ، وصاهر بهـا أبا على الحسين بن محمد الخشنامى ، وهو الفاضل الكريم الأصيل، وانتظمت أحواله بمصاهرته ، واقتنى بمعونته ضياعا فاخرة ، وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة ـ ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وهاك نموذجا من رسائله ، وهو فصل من رقعة كتبها للخوارزمى ، وهذا أول ما كاتبه به :

« أنا لقرب الأستاذ كما طرب النشوان ، مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصـــفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب » .

والترجمة الثـــانية لابراهيم بن على الحصرى القيروانى (٢) الأنصارى .

---

(١) (سجستان) : ناحية واسعة بين فارس والسند ، ومعنى اسمها بالفارسية : البلاد الجبلية ، فتحها عاصم بن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) (القيروان) : مدينة عظيمة بالمغرب الادنى ، بناها عقبة بن نافع الجهنى سنة ٤٥ هـ ، وجعلها معقلا وحصنا لعسكره ، ومقرا لولاة افريقية ، ومعنى القيروان : القافلة اذا خرجت لمحاربة او غزو .

قال ابن رشيق : مات بالمنصورة من أرض القيروان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، وقد جاوز الأشد (١) قال : وكان شاعرا نقادا عالما بترتيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء ، لقوله فى بعض مقطعاته :

يا هل بكيت كما بكت ورق الحمائم (٢) فى الغصون
هتفت سحيرا والربى للقطر رافعة الجفون
فكأنها صاغت على شجوى شجى تلك اللحون
ذكرتنى عهدا مضى للأنس منقطع القرين

والذى أعرف أنا من تصانيفه كتاب (زهرة الآداب) وكتاب (النورين) (٣) اختصره منها ، وهما يتضمنان أخبارا وأشعارا حسانا وكتاب المصون والدر المكنون ، وله عندى كتاب الجواهر فى الملح والنوادر ، كتبه عبد القادر البغدادى .

رأى فى تراجم معجم الأدباء والملامة بتاريخ طبعه وقيمته الأدبية والتاريخية :

(١) (الاشد) : بلغ أشده أى بلغ قوته ، وذلك ما بين الثمانى عشرة سنة الى الثلاثين .

(٢) ورق الحمائم : جمع ورقاء ، وهى من الحمام كل ذى طوق .

(٣) قال الصفدى : ان اسمه نور الظرف ونور الطرف .

يذهب الأستاذ شفيق جبرى الى آن اضطراب الفكر الرياضى سمة شائعة فى أدبنا ، وبخاصة أدب التراجم ، ويمثل لذلك بتراجم ياقوت فى معجم الأدباء ، وبغيره من أدباء العرب الذين ألفوا كتبا معروفة فى التراجم الأدبية ، ويقول : ان ياقوتا قد وقع فى ذلك بالرغم من شهرته فى فن تراجم الأدباء وغيرهم ، ومع حرصه الشديد على استقصاء كل ما يتعلق بالشخصيات التى يترجم لها ، فهو حين يتحدث عن نسب الذين يترجم لهم ـ وهذا أمر طبيعى ـ ينتقل سريعا الى الحديث عن أعمال المترجم لهم ، وما اشتهروا به ، وقد يذكر سنة الوفاة مهملا سنة المولد ، ومن الغريب آن تذكر سنة الوفاة فى صدر الترجمة ، وقد كان ينبغى أن تذكر سنة الولادة .

ونحن اذا تتبعنا التراجم الأدبية الحديثة وجدنا لها عناصر ومقومات أساسية ، تقوم عليها الترجمة ، لكى تسير فى خطها الطبيعى ، وهى تمثل حياة العالم أو الأديب من مولده الى وفاته ، وياقوت لا يسير بتراجمه فى هذا الخط ، وينأى عنه .

فاذا أخذنا ترجمته لبديع الزمان الهمذانى نموذجا للدراسة ـ فاننا نراه يبدأ الحديث عنه بذكر نسبه ، ثم يذكر سنة وفاته ، ويهمل سنة مولده ، وينقل حديث الثعالبى عنه فى يتيمة الدهر ، فيقول : « هو معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة

الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس » .

ولا شك فيما فى هذا من الاضطراب فى التسلسل المنطقى والترتيب الزمنى ، الذى يجب أن يراعى فى سرد قصة حياة البديع ، فقد كان من الطبيعى بعد الحديث عن نسبه ـ أن يتحدث ياقوت عن شىء من طفولة البديع ونشأته الأولى ، ومن قام بتثقيفه ، وكيف تثقف وهو صغير .

ثم نراه يذكر أنه سكن (هراة) ، ولم يوضح لنا لماذا ترك همذان مسقط رأسه ، وأقام بهراة ، ويستمر فى نقل أشتات من المعلومات عنه ، مما يقوله الرواة ، ويحدد عمره بأربعين سنة ، ويقول انه توفى فى سنة (٣٩٨ هـ) ، وما دام لم يبين سنة مولده فكيف يستطيع تحديد عمره ، لقد نقل ذلك طبعا ، وسمعه من أفواه الناس ، وكان من الضرورى أن يتحقق من سنة ولادته ، ليكون منطقيا فى تحديد سنه متى عرفت سنة الوفاة ، والذى لا ريب فيه ان الاضطراب الفكرى سائد فى الترجمة، ثم يذكر ياقوت طرفا من رسائل البديع ، وبخاصة مساجلاته الأدبية للخوارزمى ، وهذا مما يحمد لياقوت ؛ لأن التسجيل الأدبى بالنسبة للأدباء أمر ضرورى .

أما ما نريده من الاضطراب الفكرى فى سرد مادة الترجمة، فانه يقوم على فقدان عناصر التسلسل الطبيعى ، وربط أجزاء الترجمة بعضها ببعض ، بحيث يوضع كل جزء منها فى موضعه ،

ولعل منشأ هذا الاضطراب الفكرى راجع الى عـدم توافر المنابع الصافية والمصادر الدقيقة ، التى تمد ياقوتا بمادة كاملة مرتبة •

ولكننا مع تسليمنا بأن هنـاك اضطرابا فى تراجم ياقوت على نحو ما يقول الأستاذ (شفيق جبرى) ـ فان هذا لا يقلل أبدا من قيمة العمل الأدبى العظيم ، الذى قام به ياقوت فى معجم الأدباء ، مع ملاحظة اختلاف المنـاهج الأدبيـة فى عصرنا عن عصر ياقوت ويقول الأستاذ (جوسـتاف جرونيبـاوم) فى كتـابه (حضـارة الاسلام) : أما كتاب ياقوت المتوفى سنة ١٢٢٩ م (معجم الأدباء) فهو وثيقة تدل على سعة اطلاع هـائلة ، وهو أحسن من الأغانى نظاما وتنسيقا للحقائق ، ولكن شخص العالم يكاد يكون فى كل موضع من الكتاب تقريبا ـ مختفيا وراء تحصيله الثقافى ، وفيما عدا حالات فردية قليلة ـ فان شخصيات الأدباء تهبط الى حال من الغموض ، لا يستبين الانسان معها شيئا ، والكاتب العربى متفوق فى ملاحظته لدقائق الأشياء وتفاصيلها ، وأنى يشق له غبار فى قصـــه للنوادر المحتوية على الخصـائص الحـادة النفـاذة ، ولكنـه فى معظم أمره لا يقدر ، أو لعله يرغب فى التأليف بين انطباعاته ، حتى تتكامل ، مؤثرا أن يسلكها احداها مع الأخرى فى سـمط واحد ، مع أقل قدر من الرعاية لوحدة الشخصـية ، التى يرسـمها ، أو للتأليف الأدبى الذى يعمل فيه •

ولا يختلف ما يزعمه (جرونيباوم) عما ينسبه شفيق جبرى

الى ياقوت ، فهما متفقان على أن الترجمة الأدبية باعتبارها عملا أدبيا كاملا ، وفنا له أصوله وقواعده ـ لم تكتمل بعد عند أصحاب كتب التراجم من المؤلفين العرب ، ولم تتخذ عناصرها الأساسية •

غير أنه قد يكون من التجنى على الواقع أن نقيس فنا أدبيا في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، بما وصل اليه هذا الفن فى القرن الرابع عشر الهجرى مثلا ، فان كان العرب قد فاتهم فى تراجمهم الأدبية ذلك التفكير الرياضى ، فلأنهم حين ترجموا الثقافات الأجنبية الى اللغة العربية ـ لم يحاولوا أن ينقلوا أدب اليونان ، لأنه أدب وثنى ، يتحدث عن بنات الآلهة وأبناء السماء ، ولأنهم كانوا يعدون أدبهم من أسمى الآداب ؛ لذلك أهملوا متعمدين اصطناع المناهج الأدبية لدى الأمم الأخرى وبخاصة اليونان •

ومع ذلك فان ياقوتا قد وفق فى أكثر تراجمه ، ففى ترجمة بديع الزمان التى قدمناها مثالا للدراسة ـ قد أعطانا فكرة واضحة عن حياة البديع الأدبية ، ورسائله ومساجلاته للخوارزمى ، وأما تقصيره من حيث تصوير النشأة الأولى لكاتب المقامات المشهور ، والعوامل التى لونت ثقافته الأدبية باللون الذى عرف به ، فان الدراسات الأدبية وقتئذ عند العرب ـ كان لها طابعها الخاص المتأثر بظروف المجتمع العربى •

وبالرغم من كل ما أشرنا اليه ـ فان تراجم ياقوت فى معجم

الأدباء ذات قيمة أدبية وتاريخية ، وأنها ما تزال الى اليوم مرجع الدارسين في هذا الميدان ، وما يزال (معجم الأدباء) منبعا فياضا ، يغترف منه الأدباء ومؤرخو الآداب ؛ اذ مما لا شك فيه أن فيه فيضا زاخرا عن أخبار النحاة والشعراء والنسابين والاخباريين والمؤلفين وغيرهم ، فمن شاء التأليف في أى ناحية من نواحي الأدب أو اللغة أو التاريخ ـ رجع اليه ، فهو موسوعة عربية كبرى ، بل لا نعدو الحق اذ قلنا : « انه كنز ثمين من كنوز اللغة ، وثروة ضخمة من ثرواتها ، ومورد عذب من أعذب مواردها ، وهو عش الأدب ووكره ، ونبع الشعر ومتفجره ، ومجمع النثر ونهره ومجراه ومنهمره ، وموئل الدر وبحره ، وهو البلاغة مسطرة والطلاوة محبرة » .

واذا وضعنا أمامنا الظروف التى كانت تحيط بياقوت ، وغيره من علمائنا وأدبائنا في تلك العصور ـ فانه لا يسعنا الا أن نحني لهم الرءوس تقديرا واحتراما ، فقد استطاعوا أن يجمعوا هذا التراث الخالد في أيام كانت تقتضيهم أن يشدوا الرحال بين وقت وآخر ، ويتجشموا مشاق السفر من قطر الى قطر ، معرضين أنفسهم لكثير من الأخطار ، وكانت غايتهم أن يزوروا مكتبة عامرة بنفائس الكتب والمخطوطات ، أو يأخذوا عن شيخ من الشيوخ ، أو أستاذ سارت بذكره الركبان ، فحققوا بذلك ما كانت تنشده نفوسهم العالية ، وتركوا لنا أمجد تراث تعتز به البشرية جمعاء .

ان معجم الأدباء قاموس الأدباء والعلماء يجد فيه القارىء صورة دقيقة لحركة العلم واللغة والأدب فى الأمة الاسلامية فى مدى ستة قرون تقريبا ، ففيه تراجم اللغويين والأدباء والنحاة والشعراء وغيرهم فى كل فن وعلم ، وما ألفه المؤلفون فى كل عصر ، وفى كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية ، ففيه تصوير دقيق للحياة الفكرية والتيارات الأدبية فى هذه الحقبة التى تناولها من التاريخ الأدبى للأمة العربية .

وكان معجم الأدباء قبل أن تتكامل لنا أجزاؤه - يقع فى مجلدات متفرقة فى مكاتب (أوربة) و (الآستانة) ، حتى نشط العالم المستشرق الانجليزى (مرجليوث) للاشتغال بجمع شتات هذا السفر العظيم ، والوقوف على طبعه ، وقد اهتمت لجنة تذكار (جيب) بنشر ما يمكن العثور عليه من أجزائه ، وقد اعتمد (مرجليوث) فى نشر هذا المعجم على النسخة التى عثر عليها فى (بومباى) بالهند ، ثم نقلت الى مكتبة (بوريل) بجامعة (أكسفورد) بانجلترا ، كذلك اعتمد الناشر فى تصحيحها على المؤلفات التى نقل عنها ياقوت ، أو التى نقلت عنه .

ومن الكتب التى نقلت عن ياقوت (معجم الصفدى) المسمى الوافى بالوفيات ، وفى مكتبة (بوريل) أحد عشر مجلدا منه ، وهو ينقل عن ياقوت بتوسع كبير ، ثم كتاب (روضة الجنات) المطبوع بالهند سنة ١٣٣٤ هجرية ، وفيه مقتبسات من معجم ياقوت

ومعجم السيوطى ، ومنه عدة نسخ مخطوطة ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، ومعجم القفطى •

واستعان على تصحيحه بعلماء ثقات ، ومن هؤلاء (العلامة اللغوى الكبير ابراهيم اليازجى) ، فقد راجع ما يقرب من نصف الكتاب، وراجع النصف الباقى (العالم الناقد قسطا (بك) الحمصى) صاحب كتاب تاريخ النقد فى الأدب العربى ، وقد اشترك فى ابداء بعض الملحوظات على طبعة (مرجليوث) المرحوم (الشيخ عبد العزيز جاويش) و (الشيخ محمد حسنين الغمراوى (بك))، ثم أعاد الناشر طبع الكتاب مرة ثانية ، وعندئذ أدخلت عليه تحسينات وتنقيحات ، استمدها من تلك الملحوظات القيمة ، التى أبداها كبير اللغويين (الأب أنستاس مارى الكرملى) ، واعتمادا على بعض المراجع الكبرى كطبقات (الزبيدى) وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وهو يتناول فقرات كثيرة ، أوردها ياقوت فى معجمه، و «نشوار المحاضرة» للتنوخي وغيرها، ثم قامت دار المأمون بطبع هذا المعجم طبعة ثالثة بمطبعة الحلبى ، وذلك بالشكل الكامل ، وبحروف كبيرة ، فكبر حجم المعجم حتى صار عشرين جزءا ، وقد أشرفت (وزارة المعارف) وقتئذ (التربية والتعليم) الآن - على هذه الطبعة، وكلفت أساتذتها الأعلام - القيام بتصحيح الطبع ، فأحسنوا الشرح والتعليق ، وألحق بكل جزء فهرس لأعلامه ، كما ألحق بالجزء الأخير فهرس عام للأعلام ، على حسب ترتيب حروف المعجم ،

وفهرس آخر للطبقات ، فطبقة الأدباء والشعراء لها فهرس ، وطبقة الأدباء فقط لها فهرس ، ثم طبقة الأدباء النحويين ، وطبقة الأدباء اللغويين ، وطبقة النحويين اللغويين ، وطبقة الشعراء النحويين اللغويين ، ولا شك فيما لهذه الفهارس من قيمة فنية وعلمية فيتيسير البحث في المعجم ، والانتفاع بمادته الغزيرة ، وتلك طريقة حديثة ، ابتدعها أفاضل المستشرقين ، الذين أخلصوا في البحث للبحث نفسه والتنقيب والضبط ، وتحقيق الأصول ، وتتميز طبعة دار المأمون فضلا عن هذا بحسن الاخراج وبالشرح اللغوى ، والتعريف بكثير من الرجال ، الذين أشار اليهم ياقوت أثناء تراجمه، كما تشتمل على زيادات وطرف أدبية ولغوية •

ياقوت فى معجميه

يبرز ياقوت في معجميه (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) عملاقا كبيرا من عمالقة التأليف في الموسوعات الأدبية والعلمية والتاريخية ، وقد أشرنا من قبل الى هذين المعجمين اللذين ألفهما، وهو الذى بدأ حياته الأولى كاتبا وحاسبا صغيرا عند سيده عسكر ابن أبي نصر الحموى •

وانا لندهش حقا لهذه الطاقة العلمية والأدبية الكبرى لياقوت، التى أنتجت هذين الكتابين أو الموسوعتين، وكان من الانصاف لهذا

العالم الكبير أن نطيل الوقوف أمام هذين الأثرين الجليلين ؛ لأنهما فاقا كل آثاره .

فقد دل أولهما وهو معجم البلدان على أن (ياقوتاً) كان عالما جغرافيا أضاف الى حقل الجغرافية ثروة علمية نفيسة ، وقد وصف العالم الايطالى (ألدوميلى) Alclomieli (فى كتابه العلم العربى وأثره فى تطور العلم العالمى) : معجم البلدان « بأنه الكتاب الزاخر ، والقاموس الجغرافى العظيم » كما أشار فى الوقت نفسه الى أن التأليف الجغرافى قد هبط مستواه فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، اللذين عاش ياقوت فى أواخر الأول منهما وأوائل الثانى ـ الا أن كتابه كان وما يزال فى مقدمة المراجع الجغرافية العربية الاسلامية ، وقد نوهنا عن منزلة هذا المعجم وقيمته العلمية والأدبية والتاريخية والجغرافية فى حديثنا عنه من قبل .

وأما معجم الأدباء فهو دليل آخر على سعة اطلاع ياقوت فى النواحى الأدبية ، وفى فن التراجم بالذات ، والذين درسوا المعجمين معا يدركون الى حد كبير أن ياقوتا ، وهو المؤلف العربى الاسلامى الكبير ـ كان خبيرا حقا بتأليف الموسوعات العلمية والأدبية ، وأن ثقافته التى اشتهر بها ـ وان كانت جغرافية ـ الا أنه أحسن مزجها بالأدب ؛ اذ كان يؤمن بأن التعبير الفنى وسيلة قوية لابراز الفكرة العلمية فى صورة واضحة ، لأن الأدب فيما يعتقده نتاج الفكر ، مثله فى ذلك مثل العلم وان كانت العاطفة هى

الظاهرة العقلية البارزة فى الأدب ، فاذا استخدم التعبير الأدبى فى الصـــياغة العلميـــة ـ التقى الأداء الأدبى بالتفكير العلمى ، وعندئذ تزداد الفكرة العلمية وضوحا ، وتشتد قربا من أذهان عامة المثقفين.

ولا يسـعنى وأنا أختم حـديثى عن ياقوت ، الا أن أهيب بشبابنا من عرب ومسلمين ـ أن ينتفعوا بآثار علماء المسلمين ، فى كل مجال من مجالات العلم والأدب ، كما أهمس فى آذان الباحثين الذين يهتمون بالدراسات العربية الاســلامية ـ بأن يتوافروا على استخراج البحوث ، التى أشرت اليها فى معجم البلدان ، والله تعالى الموفق .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٦١/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥/ ٧١٠٥٨ تلغرافياً : بانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

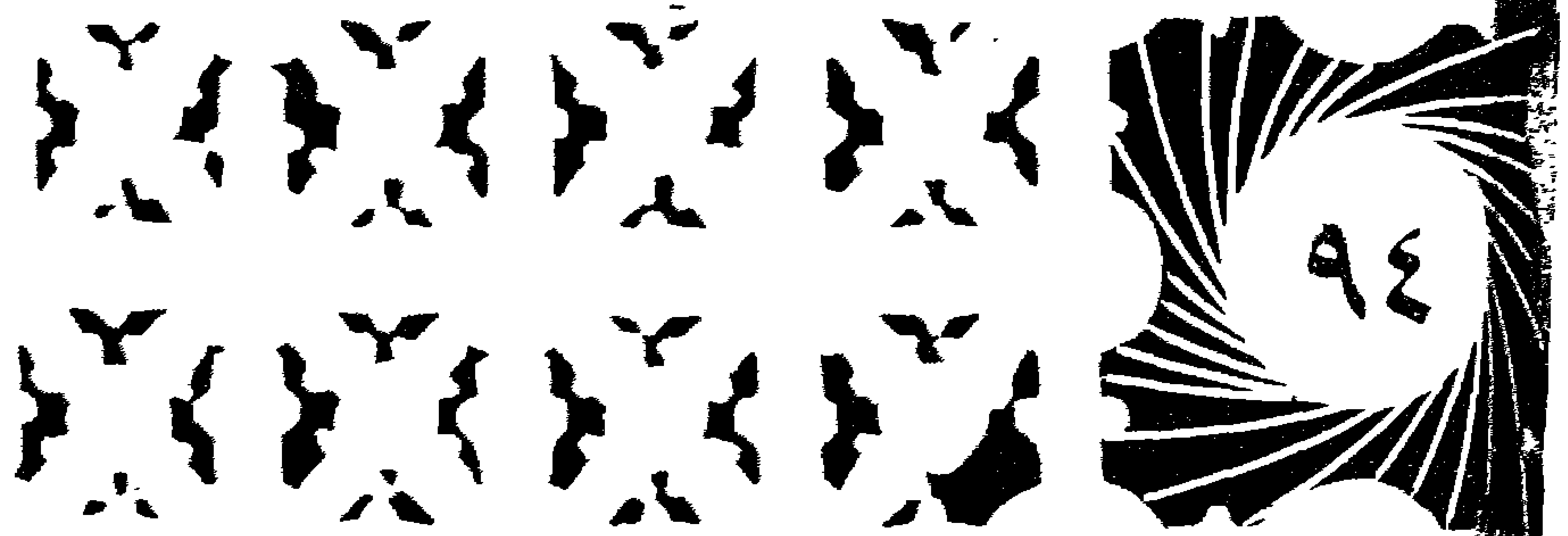
الاسكندرية :	٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥	الجيزة :	١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور :	شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥	المنيا :	شارع ابن خصيب ت: ٤٤٥٤
طنطا :	ميدان الساعة ٢٥٩٤	اسيوط :	شارع الجمهورية ت: ٢٠٣٢
المحلة الكبرى :	ميدان المحطة ٤٢٧٧	اسوان :	السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة :	أول شارع الثورة ٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن



تأليف : أحمد حسنين القرني

وعبد الحفيظ فرغلي علي

أعلام العرب
٩٤

المُبَرِّد

(أديب النحاة)

تأليف : أحمد حسنين القرني
وعبد الحفيظ فرغلي علي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين بدءا وختما ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب وأبلغ الناطقين بالضاد ، وعلى آله وأصحابه الذين عذبت ألسنتهم ، وتنزهت عن الخطأ واللغو لغتهم ٠

وبعد ، فهذا تعريف بامام من أئمة اللغة والأدب الذين تركوا في هذين الميدانين أثرا مشهودا ، وبذلوا فيهما جهدا مشكورا ٠ هو الامام أبو العباس المبرد ، صاحب «الكامل» و «المقتضب» وغيرهما من المؤلفات النافعة والمصنفات النفيسة ،التى تناولت مختلف العلوم والفنون فى عصره الذى زخر بكثير من العلماء والادباء وظهر بينهم من التنافس ما أدى الى ازدهار الحركة العلمية والادبية فأثمرت ثمارا يانعة وآتت أكلها ضعفين ٠

لقد برز أثر المبرد فى ميادين عدة ، وأداه نبوغه الى أن يؤلف فى كل ما كان يشغل بال العلماء حينئذ ، فله فى كل من الأدب وفنونه ، والنحو وفروعه ، والشعر وقواعده وعروضه ، والبلاغة والنقد ، والقرآن ومعانيه ، وغريب اللغة والأنساب ، والخط والهجاء وغير ذلك مؤلف أو مؤلفات ٠ وهذا يشهد ببراعته واتساع دائرة معارفه وثقافته ٠

لقد ظهر المبرد فى القرن الثالث الهجرى ، وعاصر كثيرا من خلفاء العباسيين الذين فتحوا قلوبهم وبيوتهم للعلم والعلماء ، مما كان له أثره فى اشعال جذوة المعرفة بين الطوائف المختلفة من عرب خلص ، وموال تعلموا اللغة العربية وأتقنوا علومها ونبغوا فيها ، ونشأ عن ذلك صراع ظاهر أحيانا ومستتر أحيانا ، وتعددت جوانب هذا الصراع فى نواح متشعبة ظهرت فى التعصب للرأى أو المذهب أو الجنس • فللنحو مذاهبه المختلفة التى دعا اليها البصريون والكوفيون وغيرهم ، وفى علوم الكلام ظهرت فرق الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرها ، كما ظهرت مذاهب الفقه المختلفة ، وبرزت الشعوبية بدعوتها العنصرية المتطرفة التى حاولت الحط من شأن العرب ، ودان بفكرتها بعض الادباء والشعراء ، واستظل بظلها كثير من الزنادقة والملحدين •

ظهر المبرد فى هذا العصر الحافل بهذه الاتجاهات التى أثرى من ورائها الفكر العربى ، وكان له فيها سهم وافر ابان عن نبوغه ، ودل على مكانته ونبه على فطنته ، مما جعل المتوكل يخصه برعايته ، ويسبغ عليه ثوب عنايته ، ويقربه اليه ويأمر حجابه ألا يغلقوا الأبواب دونه ، وأن يسهلوا أمر دخوله اليه ، مما جعل الوزراء والأمراء يتوافدون اليه ، ويحرصون على معرفته والانتهال من فيض علمه ، وكان لبراعته وخفة روحه وتمكنه من مادته ، ومقدرته اللغوية وكثرة محفوظاته وسرعة استشهاداته أثر كبير فى اقبال التلاميذ نحوه وتحلقهم حوله حتى أفادوا منه الكثير وانتفعوا بعلمه الغزير ، كما كان له أثره فى اشتعال حدة المنافسة بينه وبين معاصريه وبخاصة ثعلب امام الكوفيين فى النحو •

ويعد المبرد من ممثلى الثقافة العربية الخالصة فى هذا العصر، ويقرر الدكتور أحمد أمين ذلك فى كتابه «ضحى الاسلام» ، ويعده مع كتابه الكامل خير نموذج لهذه الثقافة التى كادت تتميز بالناحية

التخصصية . باستثناء المبرد ، فقـد تشعبت معارفه واتجهت الى فنون مختلفة كما أسلفنا ، وفى كل فن من هذه الفنون نراه ــ فى براعته ودقته ــ أستاذا متخصصا فى فنه ومادته .

وربما كان خلوص المبرد للثقافة العربية وحدها يرجع الى غيرته الشديدة على قوميته العربية تلك الغيرة التى جعلتـه يصفى نفسه لعلوم اللغـــة العربية وآدابها ويتصدى لأعدائها مدافعا عنها ذائدا عن حياضها نائيا بنفسه عن تيـار السياسة الجـــارف حتى لا يشغله ذلك عن رسالته التى أعد نفسه لها على الرغم من تقريب المتوكل له ، وحرص غيره على استدنائه ، والتفاف الوجهاء حوله .

ولا يفوتنا التنويه بالأثر الضـخم الذى تركه المبرد فى ميدان النقد والبلاغة والنحو ، وكتبه التى تركها فى هذا المجال ، ومجالسه التى كان يعقدها مع تلاميذه ومحاوراته مع غيره من العلماء والأدباء خير شاهد على ذلك .

ومن الضرورى التمهيد فى هـــذا الـكتاب بلمحة عن الحالة السياسية والاجتماعية التى تباينت فى هـــذا العصر ، مما كان له صدى فى تباين الثقافة وتنوع روافدها وأسبابها واختلاف مؤداها وما ترتب على ذلك من اتساع هـوة الخلاف واشتداد الصراع بين الحين والحين ، ومن طروء اللحن والفساد على اللسان العربى ، وكان من الضرورى أيضا التعرض للأدب العربى وتطوره ، ولنشأة النحو وتطوره حتى وصلا الى الصورة التى نراها متمثلة فى صفحات كل من الكامل والمقتضب ، تلك الصورة التى وصلت الى مستوى مناسب من النضج فى العقلية العربية والذوق العربى والبيان العربى .

ولا بد اذن من الاشارة الى هذا التراث العلمى واللغوى والادبى الذى خلفه هذا الامام الثبت الحجة ، كشاهد عدل على مدى ما وصل اليه من سبق وتقدم .

ولا يجوز أن نغفل فى هـذا الكتاب ـ وهو عن المبرد وعلمه وأدبه ـ التنويه بشـــاعريته المتدفقة التى كانت تعينه فى كثير من المواقف ، وتسعفه بالجواب الســـديد فى وقت يعز فيه على النثر الاعانة والجواب ، وان كان أكثر أشعاره لم يصل الينا حتى يمكن التعرف على خصائص هذه الشاعرية ومقوماتها الفنية ، والمقارنة بين انتاجه وانتاج غيره من الشعراء .

وخطتنا فى عرض هذه الفصول من «كتـاب المبرد» استنطاق النصوص والشواهد التى تعين على اجلاء مانحن بصدده من التعريف بهذه الشخصية الفريدة ، التى نشعر بأن الحاجة ماسة الى التعريف بها ، حتى يتخذ منها العالم والمتعلم على السواء مثلا يحتذى فى الصبر على معاناة العلم واجتناء ثمره ، وعدم الوقوف عند غاية قريبة منه ، فالعلم بحر لا ساحل له ، والاجتزاء منه بالقليل تقصير وعجز .

اننا الآن فى عصر تقدمت فيه العلوم وارتقت الثقافة ، ولكنا نرى الغالبية من ألسنة أبنائنا لا تكاد بالفصحى تبين ، وما تبدأ بها حتى تتعثر فيها ، فتلجأ الى العامية تحتمى فيها ، وعامية كل قطر عربى تختلف عن عامية القطر الآخر ، فلا يستطيع المتحدث بها أن يحقق الهدف المنشود من الحديث الذى يلقيه ، ولاسبيل الى الخلاص من ذلك الا بالاقبال على قراءة كتب الادب واللغة وبخـاصة القديم منها ، لتزول شيئا فشيئا هذه العـــامية التى هى مظهر من مظاهر تفرق أجزاء الوطن العربى ، ولتسود الفصحى التى هى مظهر الوحدة العربية التى ننشدها والتى يجاهد الزعماء والقـــادة فى سبيل تحقيقها .

انا لنرجو اذن أن يكون هذا البحث حافزا للأبناء والاخوة على أن يتزودوا من الادب القديم وأن يعلموا أن لغتهم من خـير اللغات ومن أغناها ، وليست كما يقول من يحاولون اخفاء جهلهم بها وراء ستار العامية بأنهـا لا تسعفهم فى التعبـــير عن آرائهم الادبية أو

الاجتماعية أو السياسية ، فهى حقا لا تسعفهم لأنهم لم يحصلوا عليها ولم يتزودوا منها ، وهى فى حقيقة أمرها كما تحدثت عن نفسها فى شعر حافظ ابراهيم شاعر النيل :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى؟

ونحن نستعين فى كتابنا هـذا بالله راجين اياه أن يرزقنا التوفيق والسداد . وأن يلهمنا طريق الرشاد انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفان

عصر المبرّد

الحالة السياسية والاجتماعية

ولد المبرد سنة ۲۱۰ هـ وتوفى سنة ۲۸٥ هـ ، وعاصر تسعة من الخلفاء العباسيين هم : ١ ـ المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ)
٢ ـ المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) ٣ ـ الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ)
٤ ـ المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) ٥ ـ المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ)
٦ ـ المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) ٧ ـ المهتدى (٢٥٢ ـ ٢٥٦ هـ)
٨ ـ المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ٩ ـ المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٩٠ هـ)

والقرن الثالث الذى عاش فيه المبرد شهد عهدين من عهود الخلافة :

أولهما ـ عهد سلطان الخلفاء وقد بدأ بأبى العباس السفاح الذى أخذ يعمل على توطيد دعائم الدولة العباسية ، ثم سار الخلفاء من بعده على نهجه لبناء مجد الدولة وتثبيت أركانها وحمايتها من العناصر الدخيلة التى تأتمر بها . ولقد كان أقل غرور من دخيل أو معاد ، أو أقل تمرد على سلطان الدولة كفيلا بأن يثير الخليفةويحمله على البطش أشد البطش بمن تحدثه نفسه بشىء من ذلك ، على نحو ما فعل السفاح بأبى سلمة الخلال وزيره الفارسى ، ومافعل المنصور بأبى مسلم الخراسانى الذى يعتبر أكبر مؤسس لدولة العباسيين ، وما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين قائد جيوشه .

وثانيهما ــ عهد تقلص نفوذ الخلفاء ، وقد بدأ بظهور الاتراك وذلك أن المعتصم لما تولى الخلافة وجد نفسه بين قوتين تتصارعان في سبيل السيطرة على الدولة هما : العرب من جانب ، والفرس من جانب آخر ، فأراد أن ينشيء قوة يحمي بها سلطان الدولة من هذين المتناهضين ، ولأنه من أم تركية جعل هذه القوة تتمثل في الاتراك فاستكثر منهم ، ووكل أمور الدولة اليهم ، وأبعد كل من عداهم ، حتى لقد روى أنه كتب الى واليه على مصر واسمه كيدر نصر بن عبدالله يطلب منه أن يخلص جهاز الحكم من كل من هو عربي ، وأن يقطع عن العرب كل أعطياتهم . وحين استعان بهؤلاء الاتراك كان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد تحولوا الى نقمة على الدولة ، وكانوا مصدر ضعفها وانحلالها ، وزاد نفوذهم من بعده فقتلوا الخليفة المتوكل بمعونة من ابنه وولى عهده المنتصر مما حمل البحتري الذي شهد مصرع الخليفة أن يقول في رثائه له :

أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

ومن بعد المتوكل صار كل خليفة ألعوبة في أيدي هؤلاء الاتراك يولون من شاءوا ثم لا يلبثون أن يخلعوه ثم يقتلوه . ولقد أثر عن الخليفة المعتمد أنه احتاج يوما الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال في ذلك شعرا روى منه جلال الدين السيوطي قوله :

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء في يديه

وروى عنه السيوطي أيضا قوله :

أصبحت لا أملك دفعا لما ... أسام من خسف ومن ذله
اذا اشتهيت الشيء ولوا به ... عنى وقالوا : ها هنا علة

وهذه النكبات التي تعرض لها الخلفاء كان لها أثر سيىء في تصريف أمور الدولة فكثر العزل والتولية بين الحكام ، واستتبع

ذلك انتشار الفساد، وتفشي الرشوة، وكثرت السرقات والمصادرات، وتعرضت الدولة لثورات سياسية واجتماعية هزت كيانها وكان منها ثورة الزنج التى ظهرت فى بلاد البحرين سنة ٢٤٩ هـ وانتقل زعيمها الى البصرة سنة ٢٥٤ فطارده حاكمها رجاء بن حيوة فهجرها واختفى فى بغداد ، ثم عاد اليها بعد أن عزل عنها رجاء ، وأخذ يغرى العبيد والأجراء بالمال والسلطان فانضم اليه آلاف مؤلفة قاموا بفتنة قتل خلالها فى البصرة وحدها ثلثمائة ألف فى يوم واحد على حد تقدير السيوطى ٠

وقبل الاسلام كانت النزعة القبلية متأصلة فى نفوس العرب، فكان العربى يرى أعظم مفاخره فى الانتساب الى قبيلته ، وفى الاعتزاز بانتصاراتها ، والاشتراك فى الثأر لها ٠ ولكن بمقدار ما ربطت هذه النزعة بين الفرد وقبيلته باعدت بين القبائل وبعضها فكثرت العداوات وزادت الخصومات القبلية ، وأصبحت غارة القبيلة العربية على أختها أمرا مألوفا يردده شاعرهم الذى يقول :

وأحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

ثم جاء الاسلام فحارب هذه النزعة ونادى بأن المسلم أخو المسلم ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأنه ليس من المؤمنين الصادقين من دعا بدعوى الجاهلية ٠

وفى ظل الاسلام ومبادئه اختفت النزعة القبلية ولكن لم تستأصل العصبية من النفوس استئصالا تاما لما فى طبيعة العرب من حفظ الأنساب ، والتفاخر بأمجاد الأسلاف ٠

وبدأ الاسلام يتأثر بالفتوحات الجديدة ، وبالبلاد التى دخلها العرب فاتحين ، أو ببعض أهل البلاد المفتوحة الذين وفدوا اليهم وامتزجوا بهم ٠٠ جاء هذا كله بعد أن ظلوا محصورين فى شبه الجزيرة العربية قل منهم من يتجاوزها الى غيرها ، وقل من يأتى

اليهم من جهات العالم الأخرى • وعندئذ وجدوا مجالا حيويا فسيحا لنهضتهم وتقـــدمهم ، وأفادوا من احتكاكهم بالفرس والروم مدنية جديدة أرسوا قواعدها على أساس من دينهم الحنيف •

ودخل في الاسلام كثير من أبناء فارس ، واتخذوا العربية لغة لهم ، وسماهم العرب «الموالى» وهى تسمية ذكية ذات هدف ، أو هى ممـــا نسـميه الآن «الكلمات الدبلوماسية» التى تحتمل عدة تفسيرات ، فكلمة «مولى» تحمل معنى الحليف ، والصديق ، والعبد• وأصبح هؤلاء الموالى يمثلون عنصرا نشيطا يحس فى قرارة نفسه أنه سليل حضارة ومدنية أرقى من حضارة هؤلاء العرب ومدنيتهم، وأنه من شعب كان يسيطر على البلاد المجاورة له ومنها البلاد العربية منذ زمن بعيد ، ولهذا انحرفوا انحرافات سنعرض لهـا بعد قليل • هذا ، وقد امتزجوا بالعرب امتزاج تزاوج ومصاهرة فنشأ منهم جيل تميز بالعقل الواسع والتدبير المحكم يصدق عليه ما رواه المبرد اذ قال : زعم عمر بن الخطاب أنه ليس أحد أذكى من أبنـاء السرارى لأن لهم عز العرب وتدبير العجم ، وهذا هو الذى جعـــل الرقاشى الشاعر العباسى يقول :

ان أولاد السـرارى كثـروا يا رب فينـا
رب أدخلنى بـــلادا لا أرى فيهـــا هجينا

والهـــجين هو الذى تكون أمه أمة من السرارى وأبوه عربيا شريفا • وقـــد كثر زواج أشراف العرب من الجوارى الحسان من الفرس والروم والترك وغيرهم ، وأكثر أمهات الخلفاء العباسيين من هؤلاء الجوارى ، وقـد كان ذلك واحدا من أســباب جعلت الدولة العباسية تقوم بأيد فارسية ، وتسير بأيد فارســية ، ثم بعد ذلك تركية •

هؤلاء الموالى كانوا فى عصر بنى أمية قد عجزوا عن التنفيس عن حقدهم المكبوت فأخذوا يغزون ميـادين العلم والادب ويتقربون

بذلك الى الحكام ، ويعملون في خفاء وحذر على اعادة الدولة الفارسية • ونقربهم من العراق اتخذوا التشيع مذهبا لهم ، وظلوا يعملون فى الخفاء حتى سقطت الدولة الأموية وقامت بمعونتهم الدولة العباسية فأفسحت صدرها لهم ، واحتلوا المراكز القيادية وصاروا شوكة فى ظهر العرب مما جعل المعتصم يعمد الى الاستكثار من الموالى الأتراك الذين تمزقت بسلطانهم الدولة العباسية شر ممزق •

تلك صورة موجزة للحياة السياسية والاجتماعية فى الدولة العباسية خلال الفترة التى عاشها العلامة المبرد الذى نترجم له ، وبقى أن نتحدث بايجاز عن الحالة العلمية والادبية فى هذه الفترة•

الحالة العلمية والأدبية

فى أواسط القرن الثانى الهجرى عنى المسلمون بدراسة علوم كثيرة من أهمها العلوم الشرعية واللسانية من لغوية ونحوية ، والعلوم الكونية •• وكانوا يعتمدون فى هذه العلوم على المشافهة أو الاستملاء من أكابر العلماء • وكان أكثر اعتمادهم فى هذا على الذاكرة ، وان كان بعضهم يرجع الى دفاتر كانوا يستملونها أو يستنسخونها ثم يحتفظون بها ليرجعوا اليها وقت الحاجة • وقد عرف الجاحظ بكثرة ما اجتمع لديه من هذه الدفاتر التى كان يستنسخها أو يشتريها أو يستأجرها من دكاكين الوراقين ، وقد سجل التاريخ أنه مات تحت أكداس هذه الدفاتر التى انهارت صفوفها عليه وهو ينقب فيها بعد أن كان قد أصيب فى أخريات حياته بالفالج • ويروى المبرد أنه حين لقى الخليفة المتوكل أول مرة اختبره بعبارة معقدة كان يحفظها فاستمهله الى اليوم التالى ، ثم عاد الى مقره يبحث فى دفاتره حتى عثر على الجواب • وهذا يدل على أنه كان كالجاحظ يحتفظ بكثير من الدفاتر والكتب •

ولا شـــك أن كل ما كان قــد اجتمع لدى الجاحظ والمبرد وأضرابهما انما هو من نتاج هذه الفترة من تاريخ العرب والمسلمين، وهى الفترة التى نشط فيها تدوين الحديث ، واللغة ، والشعر ، والاخبـــار ، والتاريخ • وكان الخلفـاء يشجعون العلماء والادباء فيقربونهم ، ويغدقون عليهم المال ، ويختارون من أئمتهم من يقومون على تعليم أبنائهم وجواريهم • وانتشرت مجالس العلم والتعليم فى مســاجد البصرة والكوفة وبغـداد ، وتعددت مجالس المناظرة فى المساجد والقصور ، وأنشئت المكتبات العامة وفى مقدمتها مكتبة بيت الحكمة ، وكثر الوراقون ، وكثر النساخون ، ونشطت حركة الترجمة وبلغت أوج تقدمها على يدى الخليفة المأمون •

كان هذا كله فى حين أن العباسيين بعامة كانوا يسرون حقدا على العرب لأنهم خذلوهم فى صراعهم مع الأمويين ، ولأنهم لم يمكنوا لسلطانهم الا بمعونة من الفرس الحاقدين على العرب ، ولهذا لم يكن عجبـا أن يروى الطبرى فى تاريخه أن ابراهيم بن محمد العباسى صاحب الدعوة قال فى كتاب بعث به الى أبى مسلم الخراسانى «ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غـلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » ، وان الخليفة المعتصـــم فعل مثل ذلك كما أسلفنا •

وابان خلافة الرشيد كان المجتمع الاسـلامى قــد بلغ ذروة مجده ، وصارت له سيادة عالمية فى السياسة والعلم والادب والفن، وصار نموذجا فريدا فى الترف المادى والمعنوى ، فلما تولى المأمون استكملت النهضة مقوماتها لما توافر للمأمون من جمع بين العـلم والادب والفن والثراء مما حمله على تقريب العلماء والادباء والاغداق عليهم فأقبلوا على الدرس والترجمة والانتاج فازدهر الفقه والشعر والنثر والادب بوجه عام ، ونقلت الى العربية علوم كثيرة من منطق وفلسفة ورياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وموسيقى • وهضم المجتمع

الجديد هذه العلوم ومزج بينها وبين الثقافة العربية فنشأ ما سمى بالادب الاسلامى ، والعلوم الاسلامية مما فتح أمام العرب آفاقا واسعة ، وفجر ينابيع من القدرة والكفاية ٠

وفى ظل هذا المجتمع الذى توافر فيه ما توافر من علم وأدب ولد المبرد وترعرع ، فالمأمون قد بويع بالخلافة سنة ١٩٨ هـ ودامت خلافته عشرين عاما ، والمبرد ولد سنة ٢١٠ هـ أى أنه ولد خلال خلافة المأمون ، وتغذى من ثمار النهضة التى تمت على يديه ٠

وكانت البصرة مجمع العلماء والشعراء من جانب ، والكوفة من جانب آخر ، وأخذ الخلفاء يستدنون العلماء والشعراء فجاء اليهم كثيرون من الكوفة ، وأكثرهم من الموالى ولذلك عمرت بهم دور البرامكة ٠ فلما استوزر الرشيد الفضل بن الربيع العربى الصميم أخذ يعمل جاهدا على استمالة علماء البصرة من العرب الخلص لتعمر بهم داره كما عمرت دور البرامكة بأدباء الكوفة من الموالى ٠ وكان رجال الفكر والادب يجتمعون لدى الخليفة ولدى البرامكة ونحوهم فالكسائى مثلا كان يقوم على تأديب محمد الأمين وكان مؤدب الخليفة من قبل ، وسهل بن هارون كان مختصا بجعفر البرمكى ٠٠وهكذا٠

وذهب من ذهب من العلماء والأدباء الى بغداد للمسامرة والمنادمة والتأديب ، وبقيت حلقات الدرس فى البصرة والكوفة ، غير أن البصرة ابتداء من منتصف القرن الثانى صار الموالى خطرا عليها اذ تمرسوا بكل ما هو من خصائص العرب ، وبكل ما كان ينبغى أن يظل مقصورا عليهم ٠ وكان أصحاب البيوتات من عرب وفرس يفتحون دورهم للعلماء والادباء وأصحاب النحل ، فترى تلك البيوتات تموج برجال الحديث والفقه واللغة ، وبالخطباء ورواة الاخبار والاشعار ، وبالشعراء المحدثين بلا تمييز بين المولى والعربى الأصيل ٠ وكثر فى الموالى الشعوبيون الذين كانوا قد أجمعوا على

أن يفسدوا التاريخ كله ليفسدوا بناء عليه واقع العرب ، وليتم لهم في ظل ذلك تحقيق الانقلاب الذى عقدوا نيتهم عليه ٠

بدأ هؤلاء الشعوبيون باثارة الشكوك ليكون الشك نقطة الانطلاق الى تحقيق الهدف المنشود ، وبدءوا بالشعر لمعرفتهم بمدى أثره في العرب ، ودعوا الى التعصب للنسب غير العربى ، وبذلوا كثيرا من الجهد فى بعث أمجاد الفرس ، وانحرف أكثرهم عن الجادة، وكان على رأس هؤلاء المنحرفين بشار بن برد الشاعر الأعمى ، ومعمر ابن المثنى ، وسلم الخاسر ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ٠ وظهر من بين هؤلاء المنحرفين زنادقة دسوا الزندقة في شعرهم وأدبهم مثل بشار ، والرقاشي ، وابان اللاحقى ، وصالح بن عبد القدوس ، وابن المقفع الذى نادى بأن يكون الجند من الخراسانية الذين خرجت منهم فئة تقول بالتناسخ وتسمى نفسها «الراوندية» ، وهى تلك الفئة التى تجرد الخليفة المنصور لها وقبض على كثير من زعمائها وأودعهم السجن ، غير أن عامتهم ثاروا وتجمعوا وهاجموا السجن وأخرجوا السجناء مما دعا الخليفة المنصور الى أن يقود بنفسه حركة القضاء عليهم ، وآزره فى ذلك الشعب فتمكن من افناء خلق كثير منهم ترك جثثهم فى العراء طعاما للوحش والطير وعبرة لغيرهم ٠

وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «أخبار الفرس» وكتاب «فضائل الفرس» وكتاب «لصوص العرب» وكتاب « أدعياء العرب » وألف الهيثم بن عدى « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير» وكتاب «مثالب ربيعة» وكتاب «أسماء بغايا قريش فى الجاهلية وأسماء من ولدن » وألف يونس بن أبى فروة كتاب « مثالب العرب والاسلام» وحمله الى امبراطور الروم فأجازه عليه بجائزة كبيرة ٠ وغاية ذلك كله توطيد الشعوبية ونشر مذهبها، وكان معمر بن المثنى يظهر الشماتة بكل عربى أموى يقتله العباسيون دون رعاية لحرمة

الموتى ، وكذلك كان يفعل كثير من الأعاجم الذين أصبحوا عربا بالولاء وباللغة ، وكان الأصمعى يتلقى العلم عن معمر بن المثنى وعمرو بن عبيد ولا ينكر فضلهما فى المعرفة ولكنه لا يستريح الى شعوبيتهما ، ثم اتصل بخلف الأحمر عسى أن يجده أقل تعصبا للشعوبية منهما فاذا هو وهما سواء ، لكنه لحظ أن العلم تحول اليهم ، والى أمثالهم من غير العرب فظل يلزم مجالسهم ، ويأخذ عنهم على مضض ٠

وخلال هذه الفترة ظهر قاصون كثيرون كانت لهم مجالس يتحلق فيها الناس من حولهم لسماع عجيب قصصهم ، وكان هؤلاء يشكلون خطرا كبيرا على العقيدة السليمة بما يلقون على الناس من أمثال عربية وضعوا عنها قصصا تزرى بالعرب ، وبما وضعوا من أحاديث ينسبونها زورا الى النبى الكريم فى حين أنها لا يقرها عقل ولا دين ، بل لقد كان يضيق بها الملاحدة أنفسهم بعض حين كالذى روى من أن بشارا وهو من هو الحادا وزندقة كان يمر يوما بحلقات المسجد فسمع قاصا يقول : «من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى أمثالها » ، فالتفت بشار الى قائده وقال : « بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى » ٠

وبشار بن برد الذى ضاق بقول هذا القاص الكاذب على الرسول كان يأخذ بمذهب الجبرية ويدعو اليه ، وقوام هذا المذهب نفى الفعل حقيقة عن العبد واسناده الى الرب ، وبعض أئمته لا يثبتون للعبد أى فعل أو أى قدرة على الفعل ، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة وهم بذلك يشككون فى ثواب الآخرة وعقابها لأن الفاعل هو الله فكيف يفعل ويعاقب الأداة التى سخرها للتنفيذ؟ وفى هذا يقول بشار :

طبعت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر وامسي وما أعقبت الا التعجبا

وكان يحن الى عبادة النار التى كانت ديانة الفرس قبل الاسلام فيقول :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويقول :

ابليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة والارض لا تسمو سمو النار

ويجاهر بشعوبيته فيفخر بالانتساب الى العجم ويقول :

نمت فى الكارم بى عامر فروعى ، وأصلى قريش العجم

ويحط من شأن العرب ويعيرهم ويفضل جنسه الفارسى عليهم فيقول لواحد منهم :

أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع بنى الأحرار؟ حسبك من خسار

واذا كانت كل هذه البلبلة وهذه الاخطار قد نشأت عن اختلاط العرب بالموالى فهناك شيء آخر كان من نتائج هذا الاختلاط فقد فسد اللسان العربى فسادا جعل اللغة العربية لغتين : لغة عامية هى التى يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين وهذه لها ألفاظ غير منتقاة ، وتتسامح فى الاعراب وتميل الى اسكان أواخر الكلمات ، ثم لغة الطبقة الراقية المتعلمة وهذه لغة معربة متميزة هى لغة الكتابة والتأليف . ولقد كان هذا من أسباب وضع علوم اللغة والنحو والبلاغة ثم التأليف فيها ، ونشأ عن ذلك علماء أجلاء أنفقوا

وقتهم وجهدهم في التعلم والتعليم وكانوا يرحلون من بلد الى بلد رغبة في الافادة والاستفادة ، كما قاموا برحلات متعددة الى البادية يلتقون بسكانها ، ويأخذون عنهم اللغة ، ويروون عنهم الاخبار لأنهم وجدوا أهل الحضر قد فسدت ألسنتهم ، وشاب اللحن لغتهم، وكان البصريون يفخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن صميم أهل البادية في حين يعتمد الكوفيون على حضر فسدت لغتهم ·

وكان كثير من الادباء والشعراء يفخرون برحـلاتهم الى البادية وتعلمهم على أهلها حتى الموالى أنفسهم ، فلقد سئل بشار عن سبب عدم لحنه في أشـعاره فقـال : ومن أين يأتيني الخطأ وقد ولدت هاهنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخـا من فصحاء بني عقيل ، مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، ولئن دخلت الى نسائهم لوجدتهن أفصح منهم فمن أين يأتيني الخطأ ؟ وسئل الخليل بن أحمد : من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة ·

وبوساطة هذا العناء والجهد تمكن العلـماء من وضع ضوابط للغة ، واستطاعوا أن يجمعوا مفرداتها في معـاجم تطورت على مر الايام حتى وصلت الى ماهي عليه الآن من تبويب وتنظيم ·

وكما كان زائر البـادية يتلقى اللغة كان كذلك يتلقى الادب فقد كانت دراسة اللغة والادب ذات اتصال وثيق ، فعن طريق رواية الاشعار والاخبار كانوا يتعلمون اللغة ومفرداتها ، وأهل البادية ـ كما يقول الجاحظ ـ لهم أدب في القمة ، وكلامهم من أمتع الكلام ، فلا ألذ في الاسماع ، ولا أفتق للسـان ، ولا أكثر تأثيرا في البيان من طول الاستماع الى حديث الأعراب الفصحاء ·

وأدب البادية يمتاز بخفة روحه ، ورشـاقة لفظه ، وبعده عن التأثر بالآداب الاخرى على عكس ما كان عليه أدب الحواضر من التأثر بالآداب الفارسية والهندية والرومية · وكان لعلماء اللغة طبع صاف

أعانهم على تذوق الادب ونقده فكانوا أدباء وعلماء في وقت واحد ، ولم يكن من اليســـير الفصل بين الادب وعلم اللغة فى ذلك الوقت لذلك فان كل علماء اللغة في هذا الوقت من نحو الخليل بن أحمد والكسائى والمبرد وثعلب كانوا الى جانب علمهم باللغة أدباء ٠

واذ ان جهد موضوعنا ينصرف الى المبرد ، وهو امام من أئمة العلم والادب الذين عاشوا في هذه الفترة التى ازدهر فيهـا هذان اللونان أيما ازدهار نرى لزاما علينا أن نتحدث بايجـاز عن تطور الادب والنحو وهما المادتان اللتان برز فيهما المبرد ، وكان له فيهما انتاج وافر ، وآثار خالدة ٠

فن الأدب وتطوره

اختلف مدلول كلمة «الادب» باختلاف العصور ، ولكنها في معانيها المتعددة لا تخرج عن المعنى اللغوى الذى سجله القاموس : «الادب (محركة) الظرف وحسن التناول · وأدب كحسن أدبا فهو أديب ، وأدبه أى علمه» وهو معنى مشتق غالبا من الادب أو الادبة بمعنى الدعـوة الى الطعام ، والداعى الى الطعام لا يكون الا جوادا سخيا كريما · وبدأ لفظ الادب يستعمل بمعناه التهذيبى قبيل الاسلام ، ولما جاء الاسلام أطلق النبى الكريم هذا اللفظ فى ذاك المعنى فقال «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» · وقد استعملوا لفظ «التأديب» فى معنى التهذيب وتحلية النفوس بجمال الخلق ، وشاع هذا الاستعمال وورد فى أشعار كثيرة ، وقد روى الجاحظ لأحد بنى فزارة قوله :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى
انى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

ثم اتسع مدلول هذا اللفظ فشمل التعليم الى جانب التقويم ذلك أن الخلفاء والامراء استقدموا العلماء لتهذيب أبنائهم وتثقيفهم وتلقينهم ما حسن من الاخبار والاشعار وسموا هؤلاء العلماء

بالمؤدبين ، وأول من فعل ذلك أبو جعفر المنصور اذ أسند الى المفضل الضبى مهمة تعليم ابنه المهدى ثم قلده من بعده الخلفاء والامراء والوزراء ، وبذلك أضيف الى كلمة الادب مفهوم آخر وهو تعليم الاخبار ورواية الشعر وعلوم القرآن والسنة وكل ماله أثر فى تقويم النفس وتهذيب الوجدان •

ولما نشطت حركة التأليف والترجمة ، واتسعت الثقافة والمعرفة أطلقت كلمة الادب على ما تنتجه القرائح من جيد الشعر والنثر ، وأطلق لفظ الاديب على كل ذى انتاج جيد • ثم اتسعت علوم الادب فشملت النحو والصرف والبلاغة وغيرها ، وكان لا بد أن تتسع هذه العلوم وتتشعب فروعها فظهر التخصص وعرفنا علماء النحو ، وعلماء الصرف ، وعلماء البلاغة أو الانساب ، وأطلقت لفظة الاديب على من يعنى بجيد الشعر والنثر •

تطور فن الادب

صار الأدب يطلق على جيد الشعر والنثر وما يعين على فهمهما ونقدهما من اللغة والنحو والتاريخ والأنساب وأيام العرب ، والالمام أيضا بالعقائد الدينية ، والفلك ، والفلسفة مما يلزم لفهم شعر بعض الفحول مثل المعرى والمتنبى وشوقى • ومن هنا يظهر أن العالم يكفيه فن واحد يبرز فيه ما لم يكن عالما وأديبا • أما الاديب فلا بد أن يكون دائرة معارف شاملة ، ولا بد له من مداومة القراءة والاطلاع وعدم الوقوف عند حد فى المعرفة •

ومنذ القدم كان فى العرب شعراء نابغون ولكل منهم راوية يحفظ شعره ويرويه ، فقد كان امرؤ القيس راوية لأبى دؤاد الايادي ، وكان زهير بن أبى سلمى راوية لخاله بشامة بن الغدير ، وراوية لأوس بن حجر ، وكان الحطيئة راوية لزهير ولابنه كعب ، وذوو الموهبة من هؤلاء الرواة صاروا شعراء نابغين تعدوا رواية

الشعر الى قرضه ونقده وتمحيصه وكانت لهم أسواق يجتمعون فيها يتناشدون الأشعار ويستمعون الى الحكم والمواعظ،ويحتكمون الى من يجيد الحكم منهم كما كانت الحال بالنسبة للنابغة الذبياني ·

ولما جاء الاسلام شغل الناس عن الشعر بالدعوة الجـديدة ، ولكن ذلك لم يمنع وجود شعراء مجيدين منهم من يهـــاجم الدين الجديد ، ومنهم من يذود عن حياضه ، وكان الرسول عليه الســلام يقول لحسان بن ثابت :«اهجهم وروح القدس معك» واذا كان الشعر وقتذاك قد فتر بعض الشيء فان القرآن الـــكريم ، والبيان النبوى الشريف أوجدا للأدب مجالا لم يكن ليتاح له من قبل ·

وحين تولى بنو أمية الحـكم كان من سياستهم أن يعيدوا الى الشعر روحه المتدفقة ، وأن يحيوا العصبية التى أماتهـا الاسلام ، والمرحوم أحمد حسن الزيات يعلل ارتفـاع مكانة الادب فى العصر الأموى بقوله : « ان ذلك يعود الى حداثة عهد القـــوم بالبداوة ، وتمدح رجالاتهم باللسن ، وحاجتهم الى فصيح اللغة وطرف الشعر لاستجلاء غامض كتاب الله ··» وكان ابن عباس يقول : «اذا قرأتم شيئا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه فى اشعار العرب» ·

وفى كل ذلك كان الأدب يتدارس بالمشافهة ، وينقل بالرواية، ويدرس بالمحاضرة ولم يدون منه الا أقل القليل ، لان حركة التدوين لم تكن قد نشطت بعد ، ولكن دولة الشـعر رغم ذلك ازدهرت ، وساعدت الاحداث الخطيرة التى جرت فى العصر الأموى على نمـوه وتقدمه ، وشهد هذا العصر مطلع كثير من الشعراء والادباء والخطباء من أمثـــال جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والـكميت بن زيد ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وقطرى بن الفجاءة وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى والحسن البصرى ·

بل لقد شهد هذا العصر ـ الى جانب ما جد فيه من أغراض مستحدثة فى الشعر ، ظهور فن جديد من فنون الادب العربى وهو «النثر الفنى» الذى ارتقى على يد « عبد الحميد الكاتب » ·

ولكن صناعة الادب لم تزدهر الازدهار الخليق بها الا على يد العباسيين الذين تقدمت العلوم في عصرهم . وفي أوائل عهدهم كان الادب لا يزال يؤخذ من أفواه العرب الخلص من أهل البادية ممن لم تفسد لغتهم بمخالطة الأعاجم ، وقد كان يرد البادية طائفة من رواد اللغة والادب مثل الخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، وأبى عبيدة ، والأصمعي فهؤلاء ونحوهم كانوا يتحملون عناء السفر ليداخلوا الاعراب فى سبيل الحصول على خبر مستملح أو شعر مستطرف أو كلمة عربية .

ثم لم تلبث أن اتسعت حركة التدوين والتأليف والترجمة ، وامتزجت الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الاخرى امتزاجا كبيرا، مكن لها فى التوسع والتعمق والابتكار ، ونال الأدب من ذلك حظه الموفور ، فبدأت تآليفه تظهر ، وكانت فى أول أمرها مقتصرة على رسائل صغيرة تدور حول أمور خاصة ، ويبدو ذلك واضحا فى كتابى ابن المقفع : الادب الصغير والادب الكبير ، وغيرهما ، وفى كتابى : معانى الشعر ، والأصمعيات للأصمعى ، وفى كتاب نقائض جرير والفرزدق ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وفي كتاب الامثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وفى كتاب المفضليات للمفضل الضبى، وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت فى خلال هذا العصر .

ولكن هذه الرسائل الصغيرة لم تلبث أن تطورت فيما بعد ، الى كتب شاملة جامعة مستقلة ، تحتوى على أبواب مختلفة وفصول متعددة ، ولكنها فى الغالب كانت تمزج بين ألوان مختلفة من الثقافة ، من نحو ولغة ونقد وتاريخ وما الى ذلك .

ولقد كان أول ظهور هذا النوع من الكتب على يد الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ الذى ألف كتابه : البيان والتبيين . يجمع فيه بين فنون مختلفة من القول نظمه ونثره . ويضم أخبارا متعددة فى طبقات الناس فى الجاهلية والاسلام . من خلفاء وأمراء وعامة

ومن صلاح وزهاد وزنادقة وملحدين ، ويجمع بين دفتيه النوادر المضحكة والمواعظ المبكية ٠

واقتفى أثره في هذا اللون من التأليف « المبرد » في كتابه «الكامل» الذى يعده ابن خلدون أحد أعمدة البيان والادب ، ولقد رأى بعض النقاد أن كتاب الكامل صورة من كتاب الجاحظ من حيث أن كلا منهما حوى كثيرا من المسائل دون تبويب وتنظيم، مع اختلاف يظهر في غزارة علم « الجاحظ » وتعويله على العقل واعتماده على قلمه وانشائه في كثير من أبواب الكتاب ، وفي اعتداد المبرد برواياته وكثرتها وغلبة النحو عليه ٠

وعلى هدى هذين الكتابين : «البيان والتبيين ، والكامل» سار المؤلفون في فن الادب بعد ذلك ٠ مع شيء من التطوير والتنظيم ٠

ولم يلبث التأليف في هذا الفن أن دق وعمق ، واتجه اتجاهات جديدة عني فيها بالابحاث البلاغية والنقدية والمقارنة بين الادباء والشعراء ٠ على نحو ما ظهر للآمدى في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، وما ظهر للجرجاني في كتابه المعروف بالوساطة بين المتنبي وخصومه ، وما ظهر للثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » هذا عدا ما ظهر في العصور المتأخرة من وضع أسس للنقد والبلاغة ٠ ومن تأليف كتب التراجم المختلفة وغير ذلك من أبحاث الادب واتجاهاته ٠ وكان ذلك في العصور التي تلت عصر المبرد الذى نترجم له ٠

نشأة علم النحو وتطوره

عاش العرب فى شبه الجزيرة التى شاء الله أن تكون وطنا لهم ، وتسمى باسمهم ، وقنعوا بالحياة فيها على شظفها . ولم يكن منهم من يتجاوز حدودها الى الأمم المحيطة بهم الا قلة قليلة تعمل فى التجارة ، ولم يكن يفد اليهم من أهل هذه الأمم الا دون هذا القليل . لهذا ظلت اللغة العربية ، على اختلاف لهجاتها ، طوال العصر الجاهلى مبرأة من اللحن ، بعيدة عن الخطأ .

وقبيل البعثة المحمدية ظهرت نهضة ويقظة كثر معها الرحيل الى خارج شبه الجزيرة والقدوم اليها . ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وتجاوزت دعوته أطراف شبه الجزيرة فوصلت الى الفرس والروم ومصر والحبشة وغيرها . ومن هنا زاد اتصال العرب بغيرهم من الأعاجم ، ويعنى بهم غير الناطقين بالعربية . ثم كانت الغزوات التى بلغت ذروتها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث فتح الله للعرب فارس ومصر وأطراف بلاد الروم . وفى ظل الاسلام بدأ الامتزاج بين العرب والعجم ، وكان لذلك أثره العظيم فى الحضارة والثقافة . كان يسمع بعضهم من بعض ، ويتفاهمون فى كل ما يتصل بأمور دينهم

ودنياهم ، وكانت لغة التفاهم والتخاطب بينهم هي العربية التي بدأ الأعاجم يتخذونها لغة لهم لأنها لغة القرآن كتاب الدين الذى آمنوا به •

من هنا بدأ اللحن لأن الأعجمي حديث العهد باللغة العربية ، والعربى مترفق به • والأعجمي يخطىء أو يلحن ، والعربى يقبل منه ، بل ربما يجاريه اجتذابا لوده ، أو تأليفا لقلبه ، وتثبيتا لرابطته به ، على نحو ما كنا نفعل في عصرنا مع البدال الرومى فنلوى ألسنتنا ونقول له : (واحد رطل ـ اثنين رطل) •

من هنا نشأ اللحن ، وأخذ يشيع حتى سمع من يلحن فى القرآن ، ومن يلحن في الأذان ، ومن يلحن فى رواية الشعر أو الأمثال ، فكان ذلك مما روع الغيورين على قرآنهم ، وعلى لغتهم ، ففكروا في وضع ضوابط تصون اللسان ، وتحمى اللغة من الانحراف •

زعم الامام اللغوى أحمد بن فارس أن النحو قديم فى العرب، وأنه كان قبل الاسلام بكثير ، ولكن أبلته الأيام ثم جدده الاسلام على يد أبى الأسود الدؤلى ، الا أنه لم يقم أى دليل مادى أو منطقى يؤيد هذا الرأى ، وانما انعقد الاجماع على أن نشأته اسلامية بحتة •

وقد قيل ان قواعد الشعر كانت معروفة قبل الاسلام • قال الصاحبى : « •• وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قال بعضهم انه شعر فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على اقراء (قوافى) الشعر هزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئا من ذلك ثم قال الصاحبى : (أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟) •

والذين يقولون بقدم هذه العلوم أفراد لم يؤيدهم اجماع ، وانما الاجماع منعقد على ان واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلى باشارة من الامام على ٠

روى عن أبى الأسود الدولى أنه قال :

« دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت في يده رقعة ٠ فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : انى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعنى الأعاجم) فأردت أن أصنع شيئا يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ٠ ثم ألقى الى الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف ٠ فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى ٠ ثم قال لى : انح هـــذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك ٠ واعلم يا أبا الأسود ان الأسماء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم » ٠

قال أبو الأسود : ثم وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام الى أن وصلت الى باب ان وأخواتها ما خلا لكن ٠ فلما عرضتها على على عليه السلام أمرنى بضم لكن اليها ٠ وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى : ما أحسن هذا النحو ٠

وهناك من ينسبون وضع علم النحو الى الفاروق عمر بن الخطاب على نحو ما صرح به العقاد فى عبقرية عمر حيث قال : « فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغـــة وحفظها من الخلط والفســـاد ، وكلاهما لا يفطن اليه الا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها ، وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة ــ فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن »

وليس من همنا هنـا أن نوازن بين من ينسـبون وضعه الى الخليفة عمر كالعقاد أو ينسبونه الى الامام على مثل الأنبارى ، أو ينسبونه الى أبى الأسود الدؤلى مثل ابن اسحاق ، ويحيى بن يعمر ، والنضر ابن شميل ، أو آراء المستشرقين الذين يجحدون كل هذا ويزعمون أن عصر الامام على وأبى الأسـود لا يتفق وهذه الآراء الناضجة ، والاصطلاحات المرتبة التى لا تكون الا ثمرة عقول أنضجها تطـور العلوم وتقدم الثقافة • فالنحو فى رأيهم نشأ فى عصور متأخرة ، يريدون بذلك ن ينسبوه الى الأعاجم المستعربين فى العصر العباسى •

هؤلاء المستشرقون الذين يذهبون هذا المذهب قد تصوروا النحو فى الصـورة التى بين أيديهم ، ولو ألقوا تعصـبهم وراء ظهورهم لقدروا الوضع الطبيعى لكل شىء ، ولعلموا أن كل شىء يبدأ صغيرا ثم ينمو ، وان النحو على ما وضعه أبو الأسـود انما هو عموميات تناولها من جاءوا بعده بالتفصيل والتنويع والترتيب ، وان ذلك بدأ أول ما بدأ فى مدرسة النحويين فى البصرة ، ومدرسة النحويين فى الكوفة •

النحو بين البصرة والكوفة

عند الحديث عن النحو وتطوره لا تذكر الا البصرة والكوفة دون غيرهما من الأمصار العربية الأخرى • فالحجاز مثلا أغدق الأمويون على أهله من الأموال ما جعلهم ـ كما شاء لهم الأمويون ـ يغرقون فى الترف ، ويسرفون فى التمتع بملذات الحياة ، فكانوا أهل قصف وغناء • وقد قال الأصمعى : أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة ولكنها مصحفة أو موضوعة ، والشام كذلك اذ صارت دمشق مقر الخلافة والملك ، وهم العرب هناك السياسة والجندية دون أى شىء آخر •

أما العراق فقد كان قبل الاسلام موطن العجم ، وبعد الفتح الاسلامي أقبل العرب عليه من كل صوب لما فيه من خصب ونضارة. فاجتمع فيه العرب والعجم ففشا بذلك اللحن فيه أكثر مما فشا فى أى موضع آخر ، فلم يكن عجبا أن يشتد اهتمام العرب فيه بالنحو، وأن تزخر برجاله أكبر مدينتين فيه وقتذاك وهما البصرة والكوفة .

ونما النحو أول ما نما فى البصرة وكان من رواد مرحلته الأولى :

١ ـ نصر بن عاصم الليثى المتوفى سنة ٩٥ هـ .

٢ ـ عنبسة الفيل المتوفى فى أخريات المائة الأولى .

٣ ـ عبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١١٧ هـ .

٤ ـ يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ هـ .

وكل واحد من هؤلاء وجد من يعزو اليه وضع النحو ، وقالوا أن أبا الأسود قد أعجم المصحف بالشكل ، ثم جاء نصر بن عاصم ويحيى بن معمر فأعجما المصحف بالنقط تحرزا من وقوع تحريف فيه.

ونشأت بعد هؤلاء طبقة ثانية من طبقات النحويين البصريين أخذوا عن أعلام الطبقة الأولى ، ولكنهم طوروا ما أخذوا . وتتمثل هذه الطبقة فى :

١ ـ ابن أبى اسحاق المتوفى سنة ١١٧ هـ ، وكان أول من علل النحو ، وأخذ بالقياس ولذلك تعقب الفرزدق أكبر شعراء عصره فكان يكثر من سؤاله كلما ضمهما مجلس عن أى بيت فيه ما يخالف القياس فى النحو أو الصرف حتى ضاق به الفرزدق وهجاه فكان من هجائه قوله :

ولو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال ابن اسحاق : حتى في هذا أخطأ والصواب أن يقول : مولى موال ·

٢ ـ عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ هـ ـ وله كتابان هما : الجامع ، والاكمال · وقد نوه الخليل بن أحمد بفضله وفضل ابن أبى اسحاق ·

٣ ـ أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٤٩ هـ الذى اشتهر بالقراءات وعلم العربية وأيام العرب ، غير أنه لم يترك أثرا مكتوبا·

وقامت بعد هؤلاء طبقة ثالثة خطت بالنحو وعلوم العربية خطوة أوسع ، وعلى رأس هذه الطبقة :

١ ـ الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ هـ · أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ثم طاف فى أنحاء الجزيرة العربية يأخذ عن الأعراب أين وجدوا حتى نبغ فى العربية وامتاز فى تصحيح القياس ، واستخراج مسائل النحو فنهض بالنحو بعد أن وضع أبو الأسود قواعده ·

٢ ـ الأخفش الأكبر المتوفى سنة ١٧٧ هـ أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ يلقى الأعراب ويأخذ منهم ·

٣ ـ يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢ هـ كان مرجعا للأدباء والنحويين ، وله مصنفات فى الأدب والنحو ·

بعد هؤلاء سارت علوم العربية بعامة ، وعلم النحو بخاصة نحو استكمال مقوماتها ، وظهرت طبقة رابعة أخذت تعمل لتحقيق ذلك ، وتتمثل هذه الطبقة فى :

١ ـ سيبويه ، وهو أبو بشر عمرو بن عثمان من سلالة فارسية وتوفى سنة ١٨٨ هـ ، كان يعنى أولا بعلم الحديث والفقه ، ثم اتجه الى النحو حتى برع فيه وصار اماما للبصريين ، ووضع أول

كتاب منظم فى النحو عرف باسم « الكتاب » وعنى به كبار العلماء فشرحوه ، وعلقوا عليه ، ومنهم من نقده مثل المبرد الذى كان يدرسه وكان يقول لمن يريد أن يقرأه عليه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيما لهذا الكتاب ٠

٢ ـ اليزيدى وهو أبو محمد يحيى بن المبارك المتوفى سنة ٢٠٢ هـ عرف بالنحو واللغة والأخبار ، واختص بتأديب أولاد يزيد ابن منصور خال المهدى ولهذا سمى اليزيدى ثم اتصل بالرشيد فوكل اليه أمر تأديب المأمون ، وكان يمدح بشعره علماء النحو من البصريين ، ويهجو الكوفيين ، وكان بينه وبين الكسائى مناظرات ومنافسات ، ولما مات الكسائى لم يقصر فى رثائه ٠

بعد هؤلاء ظهرت طبقة خامسة على رأسها :

١ ـ الأخفش الأوسط المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وهو الذى يعنى اذا قيل الأخفش فى كتب النحو والأدب ، فاذا عنى غيره من الأخافشة قيل الأخفش الأكبر ، أو الأخفش الأصغر وكان الأخفش الأوسط هو الوحيد الذى يملك نسخة من كتاب سيبويه حتى أغراه بالمال كل من الجرمى والمازنى وقرآ الكتاب عليه ٠ وكان معتدلا فى تعصبه للبصريين على الكوفيين وله مؤلفات كثيرة ٠

٢ ـ قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وله مؤلفات فى النحو ٠

وظهرت بعد هؤلاء طبقة سادسة تتمثل فى :

١ ـ التوزى المتوفى سنة ٢٣٨ هـ وقد اشتهر باللغة والأدب والعلم بالشعر ٠

٢ ـ الجرمى (بفتح الجيم) اليمنى الأصل توفى سنة ٢٢٥ هـ وكان أديبا وشاعرا ، وعرف بالورع ، وهو الذى أظهر كتاب سيبويه مع زميله المازنى ، وعنهما تلقى المبرد ٠

٣ ـ المازنى المتوفى سنة ٢٤٩ هـ وكان أعلم الناس بالنحو بعد سيبويه ، وعنه أخذ المبرد وكان يقول : من أراد أن يؤلف كتابا بعد سيبويه فى النحو فليستحى ، ومع ذلك ألف كتبا فى النحو وكتابا فى التصريف ٠

٤ ـ أبو حاتم السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكان من أساتذة المبرد ، وله كتاب فى اعراب القرآن ، وكتاب الادغام ٠

بعد هؤلاء ظهرت طبقة سابعة تمثلت فى المبرد الذى ختمت به طبقة النحويين من البصريين ، والذى هو موضوع كتابنا هذا ٠

طبقات النحويين من الكوفيين :

ظهر علماء النحو من الكوفيين بعد فترة من ظهور بعض أعلام النحو فى البصرة ، ورأس الطبقة الأولى منهم :

الرؤاسى الذى توفى فى عهد الرشيد ، والذى بدأ به النحو فى الكوفة ، وعنه أخذ علماء الطبقة الثانية وعلى رأسهم : معاذ الهراء المتوفى سنة ١٨٧ هـ وكان له ولع بأبنية الكلمات حتى عده مؤرخو الأدب واضع علم الصرف ٠

ثم ظهرت طبقة ثالثة يمثلها الكسائى الفارسى الأصلى المتوفى سنة١٨٩ هـ وعلى يديه قوىمذهب الكوفيين ، وبسببه كثرت الفوارق بين مذهبى الكوفيين والبصريين ٠

ثم ظهرتطبقة ثالثة يمثلها خلف الأحمر، والفراء ، واللحيانى٠

ثم ظهرت طبقة رابعة يؤلفها أبو جعفر الضرير ، وابن السكيت، ثم ختمت طبقة النحويين الكوفيين بممثل الطبقة الخامسة أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب معاصر المبرد ومنافسه ٠

أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين :

لما أشرقت شمس الاسلام على العراق أنشأ المسلمون مدينة البصرة سنة ١٥ هـ ، وبعدها بنحو نصف عام قاموا بانشاء الكوفة، والى كلتا المدينتين توافد المسلمون وزخرتا بالعلماء والقادة وسراة القوم حتى صار يطلق عليهما اسم « العراقيين » ومنذ توجه الامام على الى الكوفة فى أثناء الخلاف بينه وبين معاوية على الخلافة ·وتوجهت السيدة عائشة الى البصرة على رأس جيش اشتبك مع جيش على فى المعركة التى عرفت باسم موقعة الجمل ·· منذ ذلك الحين قاع صراع سياسى بين البصرة والكوفة،وكانت الدولة الأموية ضالعة مع البصريين على الكوفيين فكان ذلك من عوامل تعميق الخلاف بينهما ، ووضع هذا الخلاف طابعه على الأدب والنحو · فالخلاف كان فى أصله سياسيا ثم تطور فشمل علوم اللغة والأدب وكان أكثر ظهورا فى النحو ·

(أ) المذهب البصرى :

قبيلة قيس وقبيلة تميم العريقتان فى اللغة الفصحى كان منهما أكثر من وفدوا على البصرة منذ نشأتها ، وقريبا من البصرة كانت تقوم سوق المربد التى صارت فى الاسلام صورة متطورة من سوق عكاظ فى الجاهلية · وأيضا كانت البصرة فى موقع متاخم للبادية قريب من العرب الخلص الذين لم تفسد لغتهم كما فسدت لغة سكان الأمصار الأخرى ·

كل هذا أعان علماء البصرة وأدباءها على البحث والتحرى والتحقيق ، ولم يقنعوا بذلك بل أخذوا يطوفون فى أنحاء الجزيرة شرقا وغربا اما للبحث عن شىء غاب عنهم ، واما للتثبت من شىء وقع لهم · وقد سأل الكسائى وهو من علماء الكوفة العالم البصرى سيبويه : من أين أخذت علمك ؟ فقال : من بوادى نجد والحجاز وتهامة ·

(ب) المذهب الكوفي :

تنبه الكوفيون للنحو وأرادوا مجاراة البصريين فيه فاستمعوا الى الأعراب الذين ضمتهم الكوفة ولكنهم كانوا أقل عددا وفصاحة من الأعراب الذين ضمتهم البصرة ، ثم ان أكثرهم من اليمنيين الذين فسدت لغتهم بمخالطة أهل الحبشة والهند ٠ ولم تكن لعلماء الكوفة رحلات الى قلب الجزيرة كما رحل علماء البصرة ٠ الا أن الشعر راج بينهم وبخاصة بعد ما قيل من أن أوراقا كانت نسخت فيها أشعار العرب بأمر الملك النعمان بن المنذر وكانت مطمورة فى قصره ثم أخرجها المختار بن أبى عبيد الله الثقفى ، واضطلع أهل الكوفة بها فكانوا أعلم بالشعر من البصريين ٠

وظهر فى الكوفة حماد الراوية وكان عالما بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء فكان يقول شعرا ينسبه الى الأقدمين لتأييد رأى يذهب اليه الكوفيون ٠ ولما عرف عنه ذلك رفض البصريون كل شاهد من شعر يرويه الكوفيون ٠ ثم ظهر خلف الأحمر وكان مثل حماد الا انه بصرى فكان لا يروى الشعر المنحول فى البصرة بل يرويه فى الكوفة ٠

ولكل هذه الأسباب لم يتهيأ للكوفة من أسباب التفوق ماتهيأ للبصرة ٠

وقد ألفت كتب كثيرة تولت سرد أوجه الخلاف بين مذهب البصريين والكوفيين مثل كتاب « الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » لكمال الدين الانبارى ، وكتاب « التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » لأبى البقاء العكبرى ، وكتاب « الأشباه والنظائر » لجلال الدين السيوطى ، ومجمل الخلاف بين المذهبين :

أولا : البصريون يعتمدون على السماع أكثر من اعتمادهم على القياس ، وذلك لسهولة اتصالهم بالعرب الخلص • ولا يعمدون الى القياس الا عند الضرورة ، اما الكوفيون فيعتمدون على القياس أكثر من السماع لبعدهم عن العرب الخلص •

ثانيا : البصريون ــ كما يقول السيوطى ــ أصح قياسا لأنهم لا يقيسون على الشاذ ، والكوفيون لا ضابط لهم فى ذلك ، فالبصريون لا يعمدون الى القياس الا اذا وجدوا شاهدا يعتمدون عليه ، أما الكوفيون فيقيسون وجد الشاهد أم لم يوجد •

وقد أحصى السيوطى فى كتاب الأشباه والنظائر نحو مائة مسألة اختلف فيها البصريون والكوفيون ، منها على سبيل المثال :

١ ــ الاسم مشتق من السمو عند البصريين ، ومن الوسم عند الكوفيين •

٢ ــ الفعل مشتق من المصدر عند البصريين ، والمصدر هو المشتق من الفعل عند الكوفيين •

٣ ــ لا ينوب الظرف أو الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول عند البصريين ، ويجوز ذلك عند الكوفيين •

٤ ــ لا يبنى فعل التعجب من الألوان الا بوساطة أشد وأشدد ونحوهما عند البصريين ، ويجوز بناؤه من البياض والسواد بغير واسطة عند الكوفيين •

٥ ــ يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يجوز ذلك عند الكوفيين •

٦ ــ لايقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويجوز ذلك عند الكوفيين •

على أن هذا الخلاف الذى قام واشتد أواره بين البصريين والكوفيين كان من أسباب وصول النحو العربى الى ما وصل اليه من الكمال ، حتى ليصدق أن يقال فيه « اختلافهم رحمة » •

اسمه وكنيته ولقبه

اسـمه محمد بن يزيد ، النحـوى ، الثمـالى • وكنيته أبو العباس • ويقول السيوطى حيث أطلق البصريون أبا العباس فالمراد المبرد ، وحيث أطلقه الكوفيون فالمراد ثعلب • ولقبه المبرد (وسيأتى كلام عنه) •

مولده ووفاته :

روى الأنبارى أن السراج أحد تلاميذ المبرد قال انه ولد سنة عشر ومائتين • أما الصولى فيروى أنه ولد سنة سبع ومائتين •وقال ابن النديم انه توفي وعمره تسع وسبعون سنة • وفى النجـوم الزاهرة أنه ولد سنة ست ومائتين أو ست عشرة ومائتين • أما ابن خلكان فيقول ان ولادته كانت سنة عشر ومائتين وقيل سبع ومائتين، وأنه توفى سنة ست وخمسين ومائتين ، وكانت وفاته فى بغداد ، ودفن فى مقابر الكرمة فى دار اشتريت له • وعلى هذا فالمؤرخون له ــ وهم كثيرون ــ لم يتفقوا على سنة مولده ، ولا على سنة وفاته ،

ولكن الاجماع يـــكاد ينعقد على أنه ولد ســـنة ٢١٠ هـ ، وتوفى سنة ٢٨٥ هـ ٠

نسبه :

اسمه محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ٠ وابن النديم يذكر له ستة آباء ينتهون بثمالة ٠ أما ياقوت فيذكر له اثنى عشر أبا ينتهون بثمالة ٠ وثمالة هو عوف بن أسلم من الأزد (بفتح الهمزة) ٠

ويروى ابن خلكان أن المبرد فى كتابه « الاشتقاق » علل تسمية عوف بثمالة بقوله : ان قبليته شهدت حربا فنى فيها رجالها ، ولم يبق الا قليل منهم عوف فقيل : ما بقى الا ثمالة ، والثمالة بضم الثاء البقية اليسيرة ٠

المرحلة الأولى من حياته :

لا نعرف شيئا عن طفولته أو الأيام الأولى من صباه ، ولا عن البيئة التى قضى فيها هذه الطفولة ٠ ولا نعرف متى بدأ يتلقى مبادىء القراءة والكتـــابة ، ولا أين أو على يد من كان ذلك لأن قدامى المؤرخين له أهملوا هذا الجانب ٠ وانفرد ابن النـــديم برواية عن أبى عبد الله بن القاسم تقول : كان المبرد ، وفى رواية كان أبو المبرد من السورحيين فى البصرة ممن يكسرون الأرضين ، وكان يقال له حيان السورحى ، وانتمى الى اليمن ولهذا تزوج المبرد ابنة الحفصى أحد أشراف اليمن ٠ وظاهر أن المقصود هو أبو المبرد فقد ثبت أن المبرد ظهر فى حلقات تلقى العلم وهو طرى العود لا يقوى على كسر الأرضين ٠

ولم يقف الباحثون فى تاريخه على معنى كلمة السورحيين فى أى مصدر ، ونحسب أنهم كانوا من نوع من نسميهم نحن العمال الموسميين أو عمال التراحيل ٠

وربما تكون هذه اللفظة مصــحفة عن كلمة « سرجينين » نسبة الى « السرجين » وهو القمامة التى تجمع للحمامات ، وقد ورد هذا اللفظ بهذا المعنى فى كتاب الكواكب السائرة ج ٣ وبما يقرب من هذا المعنى فى القاموس ٠

اقوال فى نسبه :

يظهر أن قبيلة ثمالة كانت قد خمل ذكرها ، وحين بدأ صوت المبرد يرتفع قيل فيها :

سألنــا عن ثمــالة كل حى ... فقـال القائلون : ومن ثمـاله ؟
فقلت : محمــد بن يزيد منهم ... فقالوا : زدتنــا بهم جهـاله
فقـــال لى المبرد : خل قومى ... فقـــومى معشر فيهـــم نذاله

وفى هذه الأبيات تحقير لشأنها وشأن المبرد ٠ وهناك من ينسب هذه الأبيات الى عبد الصمد بن المعذل الشاعر الهجاء ومنهم المبرد نفسه ٠ وهناك من يقول : ان المبرد أنشأها ونسبها الى المعذل وأراد بذلك أن يشهر نفسه ويشهر قبيلته ٠ ولكن على بن حمزة فى كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » يتهم المبرد بأنه كان متعصبا على قبيلة ثمالة ولذلك قال شعرا فى ذمها ونسبه الى ابن المعذل ٠ ويروى ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » أن المبرد قال : لقد هجانى عبد الصمد بن المعذل فأنضج كبدى ، وهذا مما ينفى صــحة ما زعمه على بن حمزة ٠

واليك ما رواه ياقوت فى معجم الأدباء ، والأنبارى فى نزهة الألبا ، وبهاء الدين العاملى فى الكشكول :

قال أبو بكر بن السراج : حـــدثنى المبرد قال : دخلت من البصرة الى بغداد فاجتزت بطرقاتهـــا متفرجا ، وكان فى بعض

البيوت رجل كهل نظيف رآني فقال : مرحبا بهذا الوجه الغريب ٠ ان شكلك يدل على أنك من البصرة ٠ قلت : نعم ٠ قال : أدرست على نابغهم ؟ قلت : ومن هو ؟ قال : الملقب بالمبرد ٠ قلت رأيته ٠ قال : هو فاضل ، وله شعر منه قوله :

أيهـــا الطـــالب شـــيئا من لذيـــذ الشـــهوات
كل بمـاء المزن تفــــــاح خـــدود الغانيـــات

ثم قال : وقد ادعى أنه من ثمالة وليس يعزى اليها ، وقد هجا نفسه على لسانه ليصحح نسبه بأبيات منها :

سألنا عن ثمالة كل حي ٠٠ (الأبيات)

ومفهوم هذه القصة أنه يجاهـد في ســبيل الانتساب الى ثمالة وليس متعصبا ٠

وهناك خبر آخر روته المصادر السالف ذكرها :

قال أبو بكر بن الأزهر : حدثنى أبو العباس المبرد قال : قال لى المازنى (وكان أستاذا له) انك تنصرف من عندنا فتصـير الى مواضع المجانين والمعالجين (الذين يعالجون من دخل فى عقولهم) فما معنى ذلك ؟ فقلت : أعزك الله تعالى ، ان لهم طرائف من الكلام ٠ قال : أخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين ٠ فقلت : سرت يوما اليهم فمررت على شيخ منهم وهو جالس على حصير قصب ، فجاوزته الى غيره ، فقال : سبحان الله ، أين السلام ؟ من المجنـــون : أنا أو أنت ؟ فاستحييت منه وقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد ، على أننا نصرف سوء أدبك الى أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : ان للقادم على القوم دهشة ٠ اجلس ، أعزك الله تعالى عندنا ٠ وأومأ الى موضع من الحصير فجلست الى ناحية منه أسترعى مخاطبته ٠ فقال لى وقد

رأى معي محبرتي : أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما : أصحاب الأحاديث الأغثاث أو الأدباء أصحاب النحو والشـــعر . قلت : الأدباء . قال : أتعرف أبا عثمان المازني ؟ قلت : نعم . قال : أتعرف الذى قال فيه :

وفـتى من مـــــازن أســـتاذ اهـل البصرة
أمــــه معـــرفة وأبـــوه نـــكرة

قلت : لا أعرفه . فقال : أتعرف غلاما له قد نبغ فى هذه العصر ، له ذهن وحفظ ، وقد برز فى النحو يعرف بالمبرد ؟ فقلت : أنا ، والله ، عين الخبير به . قال : فهل أنشدك شيئا من شعره ؟ قلت : لا أحسبه يحسن قول الشعر ، فقال : يا سبحان الله ، أليس هو القائل :

حبـــذا مـــاء العناقيـــد بريق الغـــــانيات
بهمــــا ينبت لحمـــى ودمى اى نبــــات
كل بمـــاء المزن تفــــا ح خـــدود الغــــانيات

قلت : سمعته ينشد هذا فى مجلس أنس . فقال : يا سبحان الله ، ألا يستحيى أن ينشد مثل هذا حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم تسمع ما يقولون فى نســـبه ؟ . فقلت : يقولون أنه من الأزد ، أزد شنوءة ، ثم من ثمالة . قال أتعرف القائل ؟

سألنا عن ثمالة كل حى ... (الأبيات)

فقلت : أعرفه ، هذا عبد الصمد بن المعـــذل يقولها فيه . فقال : كذب هذا الادعاء وحقيقة الأمر أن هذا كلام رجل لا نسب له يريد أن يثبت له بهذا الشعر نسبا . فقلت له : أنت أعلم . فقال : يا هذا غلبت خفــــة روحك على قلبى فأخرت ما كان يجب تقديمه . ما الكنية أصلحك الله ؟ فقلت : أبو العباس . قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد . قال : فمن الأب ؟ قلت : يزيد . قال :

قبحك الله ، أحوجتني الى الاعتذار عمـــا قدمت ذكره • ثم وثب وبسط يده فصافحني فرأيت القيد في رجـــله فأمنت غائلته • فقال : يا أبا العباس ، صن نفسك من الدخول في هذه المواضع فليس يتهيأ في كل وقت أن تصادف مثلي على مثل حالتي • ثم جعل يصفق ويقول : أنت المبرد ، أنت المبرد • وانقلبت عيناه واحمرتا، وتغيرت حاله ، فبادرت مسرعا خوف أن تبدر منه الى بادرة ، وقبلت منه نصحه فأمسكت عن التردد الى هذه المواضع •

وتلك القصة التي رواهـــا عنه عـــديدون ممن أرخوا له ، ونحوها من الروايات الاخرى يستفاد منها :

أولا : أنه بدأ يتلقى العلم صغيرا •

ثانيا : أنه عرف وشاع خبر نبوغه وهو مازال يتلقى العلم • وقد قال أبو بكر الزبيدي : حدثني سهل بن أبي سهل ، وابراهيم ابن محمد المسمعي قالا : رأينا محمد بن يزيد وهو حدث الســـن متصدرا في حلقة أبي عثمان المازني يقرأ عليـــه كتاب سيبويه ، وأبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها •

ثالثا : أن الأبيات التي قيلت في نسبه اختلف في نسبتهـــا الى ابن المعذل أو الى المبرد نفسه ، والمبرد خلال حواره مع المجنون نسبها الى عبد الصمد ، فلما قال له المجنون : ان قائلها رجل لا نسب له وهو يريد أن يشهر بها نسبه لم ينف نفيا قاطعا نسبتها اليه ، ولم يثبت أنها لغيره ، بل اكتفى بأن يقول لمحدثه : أنت أعلم ، وتلك عبارة لا تفيد نفيا ولا اثباتا •

لقبـــه :

المبرد ، بكسر الراء المشددة ، ومنهم من يفتحها •

قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » :

« اختلف فى سبب تسـمـيته بالمبرد . فالذى ذكره الحافظ أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب أن المبرد سئل عن سبب هذا اللقب فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة قد طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب اليـه ، فدخلت الى أبى حاتم السجستانى وجاء رسول الوالى يطلبنى فقال لى أبو حاتم : أدخل فى هذا ، يعنى غلاف مزملة فارغا (والمزملة اناء لتبريد الماء أشبه بما نسميه الآن الزير) فدخلت فيه ، وغطى أبو حاتم رأسه ، ثم خرج الى الرسول وقال له : هو ليس عندى . فقال : أخبرت أنه دخل اليك . فقال له :أدخل الدار وفتشها ان شئت . فدخل فطاف فى كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة . ولما خرج جعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة : المبرد ، المبرد (بكسر الراء المشددة) وتسامع الناس بذلك فلهجوا به » .

وأيد هذه الرواية أبو الفدا فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » . وروى ابن خلكان نقلا عن ابن الجوزى أن الذى أطلق عليه هذا اللقب هو أستاذه المازنى ، ولم يذكر كيف لقبه به . الا أن جلال الدين السيوطى فى كتابه « المزهر » علل ذلك فقال :

« قال السيرافى : لما صنف المازنى كتابه « الألف واللام » سأل أبا العباس محمد بن يزيد عن دقيقه وعويصه فأجاب بأحسن جواب ، فقال : قم فأنت المبرد (بكسر الراء المشـــددة) أى المثبت للحق ، وغيره الكوفيون ففتحوا الراء » وأيد ياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » رواية السيوطى هذه .

وفى « النجوم الزاهرة » أنه سمى المبرد بفتح الراء المشددة لحسن وجهه ، فيقال : رجل مبرد ، ومقسم ، ومحسن اذا كان حسن الوجه . وهكذا قال الوزير الاندلسى محمد بن هشـــام المصحفى المتوفى سنة ٤٨١ هـ .

وابن عبد ربه يقول فى العقد الفريد انه بفتح الراء . وقسا فى الحكم عليه فقال : ألا ترى أنه مع علمه باللغة ومعرفته باللسان وضع كتابا أسماه « الروضة » وقصد فيه الى أخبار الشعراء المحدثين فلم يختر لكل شاعر الا أبرد ما وجد له ، وانتهى الى الحسن بن هانىء (أبى نواس) فاختار له من أبرد شعره أبياتا ما سمعناها ، ولا رويناها ، ولا ندرى من أين وقع عليها .. وقد اختار لأبى العتاهية أبياتا تقتل من بردها .

وكلام ابن عبد ربه هذا جدير بشىء من التأمل ، اذ تشم فيه رائحة الحسد للمبرد على اتساع دائرة محفوظاته ، وروايته شعرا ما سمعه ابن عبد ربه ونحوه . فهل لهذا الحسد أثر فى الحكم العنيف الذى أصدره على كتاب « الروضة » وعلى المبرد ؟ .

فى رأينا أن مثل هذا الحكم يجب أن يؤخذ بكثير من التحفظ .

وكثيرون يقولون ان الكوفيين هم الذين كانوا يلقبونه بالمبرد (بفتح الراء) من البرود تهكما به . ومن ذلك ما روى من أن عبيد الله بن أحمد بن طاهر حدث أن أباه قال فى المبرد :

ويوم كحر الشوق فى الصدر والحشا
على أنه منه أحر واوقد
ظللت به عند المبرد ثاويا
فمازلت فى ألفاظه اتبرد .

وأحمد بن أبى طاهر كوفى ، ومتعصب للكوفيين على البصريين .

ومن ذلك أيضا ما روى فى النجوم الزاهرة ، ومعجم الأدباء ، وتاريخ بغداد مما يدل على ما كان يحمله أحمد بن أبى طاهر المتعصب على البصريين للمبرد رأس البصريين .

فقد قال : خرجت من منزل أبى الصقر نصف النهار فى تموز (يوليه) فقلت ليس بقربى منزل أقرب من منزل المبرد اذ كنت لا أقدر أن أصل الى منزلى بباب الشام فجئته فأدخلنى فى حويشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين ، وسقانى ماء باردا وقال : أحدثك الى أن تنام ، وجعل يحدثنى أحسن حديث فحضرنى لشؤمى وقلة شكرى بيتان فقلت : قد حضرنى بيتان أأنشدهما ؟ فقال : ذاك اليك وهو يظن أنى أمدحه : فأنشدته :

ويوم كحر الشوق فى صدر عاشق — على أنه منه أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد ثاويا — فمازلت فى ألفاظه أتبرد

هكذا كان يصنع الكوفيون مع البصريين عامة ، ومع رأسهم وزعيمهم المبرد خاصة فالمبرد قد أحسن لقاء ضيفه فى بيته ، وقدم له خير ما عنده ، وأخذ يؤنسه بطيب حديثه واذا هذا الضيف الكوفى لشؤمه وقلة شكره كما وصف هو نفسه يقابل الحسنة بالسيئة . ولهذا لا يعاب على المبرد ما فعله فقد روى هذا الكوفى فى ختام حديثه أن المبرد قال : والله لا جلست عندى بعد هذا ، وأخرجنى فمضيت الى بيتى ، ومرضت من الحر الذى أصابنى .

ومن ذلك أيضا ما حدث به أبو الفضل بن طومار فقال :

كنت عند أبى جعفر محمد بن نصر بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كبارا فقرأ الرقعة فاذا المبرد قد أهدى اليه كتاب « الروضة » ، وكان ابنه على حاضرا فرمى بالجزء الاول اليه ، وقال : أنظر يابنى ، هذه أهداها الينا المبرد . فأخذ ينظر فيه وكان بين يديه دواة وشغل أبو جعفر بحديثنا ، فأخذ على الدواة ووقع على ظهر الجزء شيئا ، وتركه وقام . فلما انصرف قال أبو جعفر : أرونى أى شىء كتب هذا المشئوم ؟ فنظرنا فاذا هو قد كتب :

لو برأ الله المبـــرد من جحيم يتـــوقد
كان في الروضـــة حقـــا من جميـــع النـــاس ابرد

لقد كان على هذا يتعصب للكوفيين تعصبا ينسى معه كل انصاف ولهذا قال أبوه المحايد المتزن : أروني ماذا كتب هـــذا المشئوم ؟ وما كان ليصف ابنه هذا الوصف لولا ضيقه بتعصـــبه الأعمى ، ولكن هكذا كان يهاجم الكوفيـــون المبرد لذلك كانوا لا ينطقون لقبه الا بفتح الراء تهكما به ٠

وقد روى لسليمان بن عبد الله النهرواني المتوفى سنة ٤٩٣ شعر منه الأبيات التالية :

تقـــول بنيتي ابتي تقنـــــع ولا تطمح الى الأطماع تهتـــد
ورض باليأس نفسك فهو أحرى وازين في الورى وعليك أعـود
فلو كنت الخليـــل وســـيبويه او الفـــــراء أو كنت المبـــرد
لما ســـاويت في حي رغيفـــا ولا تبتـــاع بالمـــاء المبـــرد

ولا ندرى أكان هذا الشاعر المتأخـــر عن عصر المبرد متأثرا بمتبعي مذهب الكوفيين أم أنه عمـــــد الى فتح راء المبرد لضرورة الشعر كي يتخلص من عيب السناد (١) ٠

وعرف عن المبرد أنه كان كثيرا ما ينشد قوله :

لا تـكرهن لقبـا شـــهرت به فلرُب محظـــــوظ من اللقب
قد كان لقب مرة رجـــــل بالوائلي فعـد في العـــرب

واستنبط بعض المحققين لحياته من هذا أنه كان أحيانا يضيق

(١) السناد اختلاف مايراعى قبل حرف الروى من الحروف والحركات٠

صدره بفتح راء هذا اللقب الذى يلح عليه الكوفيـــون فيهون على نفسه بهذا الشعر ونحوه ٠

وقد حقق العلامة الشنقيطى هـذا اللقب واقتنع أنه بكسر الراء ، وكان يتبرم بمن يفتحونها ويقول :

والكسر فى راء المبـــرد واجب وبغير هذا ينطق الجهـــلاء

متى بدأ يتلقى العلم :

لا نعرف شيئا من مرحلة طفولته ، لأن الذين أرخوا له أهملوا هذا الجزء من حياته اهمالا مطلقا ، ولا نحسب الا أنه كان كغيره من أبناء عصره يسلمهم ذووهم الى من يعلمهـــم القراءة والكتابة ، ثم يتولى تحفيظهم كتاب الله ٠

ويلوح أنه أتم ذلك صغيرا ، وبدا فيه ميل الى العلم فأخذ يرتاد حلقات العلماء التى كانت تعقد فى البصرة وهو مايزال صنبيا لين العود ٠ حدث عن نفسه حديثا سجله الأنبـــارى فى كتاب « نزهة الألبا » وخلاصة حديثه أنه قال :

حضرت مجلس السجستانى وأنا حدث فرأيت فى حلقته بعض ما ينبغى أن تهجر حلقته بسببه (١) فتركته مدة ثم صرت اليه ،وعميت عليه بيتا لهرون الرشيد ، وكان يجيد استخراج المعمى فقال :

ايا حسن الوجـه قد جئتنـــا بداهيـــــة عجب فى رجب
فعميت بيتـــا واخفيتـــه فلم يخف بل لاح مثل الشهب
فاظهر مكنونه الطيطوى (٢) وهتك عنه الحمـــام الحجب

(١) قيل ان هذا الذى ترك الحلقة بسببه هو اتجار السجستانى فى كتب لايستريح اليها المبرد ٠

(٢) طاط الفحل يطيط طيوطا أى هاج وهدر فى الابل فاذا سمعت صوته الناقة ضبعت وهو عند أرباب الابل غير محمود لانه يتظاهر بالرغبة فى التلقيح وهو لايريده ٠٠

فذلك ما كان مستعصيا — لنا فتناولته عن كثب
أيا من اذا مـا دنونا له — نأى ، واذا ما نأينا اقترب
عذرناك اذ كنت مستحسنا — وبيتك ذو الطرتين عجب
سلام على النازح المغترب — تحية حب به مكتئب

واذا كان هذا يدل على أن المبرد بدأ يتلقى العلم على كبار العلماء حدثا فان الشريشى فى « شرح مقامات الحريرى » يؤكد ذلك فيقول :

يحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد متنقبا لئلا يشغله بحسنه عن تعليمه . ومع تحفظ الخليل وورعه كان اذا استأذن عليه سيبويه يقول : مرحبا بزائر لا يمل . وكذلك كان أبو حاتم السجستانى رجلا ورعا يختم القرآن فى كل أسبوع ، ويتصدق كل يوم بدينار ومع هذا الفضل كان يميل بحبه الى أبى العباس المبرد ، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم فقال فيه :

ماذا لقيت اليوم من — متمجن خنث الكلام
وقف الجمال بوجهه — فسمت له حدق الأنام
حركاته وسكونه — يجنى بها ثمر الأثام
فاذا خلوت بمثله — وعزمت فيه على اعتزام
لم أعد أفعال العفا — ف ، وذاك آكد للغرام
نفسى فداؤك يا أبا العبا — س يا جل اعتصامى
فارحم أخاك فانه — نزر الكرى ، بادى السقام
وأنله ما دون الحرا — م فليس يرغب فى الحرام

وقد وردت هذه الأبيات أيضا فى « نزهة الألباء » دون تعيين من قيلت فيه ، وروى البيت السادس على الوجه الآتى :

نفسي فداؤك يا عبيـد الله جـل بك اعتصامي

ويستدل من هذا كله على أن المبرد أخذ يرتاد حلقات كبار علماء عصره وهو ، على حد قول الشريشي ، غلام وسيم · وظهر نبوغه منذ حداثته · وقد روى الزبيدى والقفطى أن اليوسفى الكاتب قال :

« كنت يوما عند أبى حاتم السجستانى اذ أتاه شاب من أهـلى نيسابور فقال له : يا أبا حـــاتم انى قدمت بلدكم وهو بلد العـــلم والعلماء ، وأنت شيخ هذه المدينة وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه · فقال له : الدين النصيحة ، ان أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام محمد بن يزيد · فتعجبت من ذلك » ·

وفى هذا الخبر ما يؤيد أنه بدأ يتلقى العلم حدثا ونبغ صغيرا، وحاز ثقة أساتذته وهو ما زال طالبا للعلم ·

شيوخه :

نشأ المبرد فى البصرة ، وتلقى العلم فيها على أكبر علماء عصره· أخذ عن الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) وهو أبو عمر صـــالح بن اسحق ، وكان فقيها عالما بالنحو واللغة وناظر الفراء ببغــداد ويقول المبرد انه كان اثبت القوم فى كتاب سيبويه ويقول المبرد أيضا : قد قرأت عليه الجماعة وانه كان عالما باللغة حافظا لها ، وله كتب انفرد بها · وروى عنه المبرد أنه كان يقول فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أى لا تقل ســـمعت ولم تســـمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ·

وأخذ عن أبى عثمان المازنى الذى يقول عنه المبرد انه لم يكن بعد سيبويه أعلم منه بالنحو ، وانه ناظر الأخفش الأكبر فى أشياء كثيرة فانتصر عليه ·

والمازنى هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازنى البصرى النحوى الذى خلف مؤلفات عديدة • وكان غاية فى الورع ، وقد روى عنه المبرد ان بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وبذل له مائة دينار فى تدريسه اياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك • قال المبرد : فقلت له : جعلت فداك أترد هذه المنفعة مع فاقتك ، وشدة ضائقتك ؟ فقال : ان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى ان امكن منها ذميا غيرة على كتاب الله وحمية له • ثم قال المبرد : واتفق ان غنت جارية بحضرة الخليفة الواثق بقول الشاعر العربى :

اظلوم ان مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة فى اعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم ان ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها اياه بالنصب فأمر الواثق باشخاصه • قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أى الموازن ؟ أمازن تميم ، أم مازن قيس ، أم مازن ربيعة ؟ قلت من مازن ربيعة ، فكلمنى بكلام قومى وقال : باسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء ، والباء ميما • قال : فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته ، واعجب به • ثم قال : ما تقول فى قول الشاعر : « اظلوم ان مصابكم رجلا » أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم • قال المازنى : فأخذ اليزيدى فى معارضتى ، فقلت : هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا ظلم ، فالرجل مفعول مصابكم وهو منصوب ، والدليل عليه أن الكلام معلق الى أن تقول ظلم فيتم • فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت:

نعم بنية يا أمير المؤمنين قال : ما قالت لك عند مسيرك الينا ؟ فقلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتـــا لا ترم عنـــدنا فانا بخـــير اذا لم ترم
أرانا اذا أضمرتك البـــلا د نجفى ، وتقطع منـــا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال الخليفة : على النجاح ان شاء الله تعالى ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردنى مكرما ·

قال المبرد : فلما عاد الى البصرة قال لى : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا مائة فعوضنا الله ألفا · وكان المبرد يعول فى النحو على المازنى ، ويقول انه بدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجرمى ، وختمه على المازنى · وتوفى المازنى سنة تسع وأربعين ومائتين ·

وأخذ عن أبى اسحاق الزيادى ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادى ، وقيل له الزيادى لأنه من أولاد زياد بن سمية المشهور باسم زياد بن أبيه ، وكان عالما بالنحو ، قرأ كتاب سيبويه، وله فيه نكت وخلاف فى بعض المواضع ·

وأخذ عن الرياشى ، وهو أبو الفضل عباس بن الفرج ، وكان من كبار أهل اللغة ، كثير الرواية للشعر ، وقرأ كتاب سيبويه على المازنى ، وكان المازنى يقول : قرأ على الرياشى الكتاب وهو أعلم به منى · وتوفى الرياشى سنة سبع وخمسين ومائتين فى خلافة المعتمد · وكان المبرد يعجب بشعر الرياشى ، ويستشهد به · وكان الرياشى يعرف للمبرد قدره فلما انتقل المبرد الى بغداد كان الرياشى يزوره كلما قدم من البصرة ·

وكان المبرد يتردد على الجاحظ ويسمع منه ويروى عنه حتى عد من شيوخه • والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب كان عالما بالأدب فصيحا بليغا مصنفا فى فنون العلوم ، وتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين •

وتحدث المبرد عنه قال : سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه : أنت والله أحوج الى هوان من كريم الى اكرام ، ومن علم الى عمل ، ومن قدرة الى عفو ، ومن نعمة الى شكر •

وتحدث عنه أيضا وهو يشير الى ما كانت عليه قصور الخلفاء والأمراء والوزراء من العناية بالعلم والأدب فقال :

حدثنى الجاحظ عن ابراهيم السندى قال : كانت تصير الى « هاشمية » جارية « حمدونة » فى حاجات صاحبتها فأجمع نفسى لها ، وأطرد الخواطر من فكرى ، وأحضر ذهنى جهدى خوفا من أن تورد على ما لا أفهمه لبعد غورها ، واقتــــدارها على أن تجرى على لسانها ما فى قلبها •

وقال المبرد أيضا : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه وهـــو عليل فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير ما أحس بها ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه • والأمر فى جميع ذلك أننى جزت التسعين • وأنشد :

اترجو ان تكون وانت شـــيخ   كما قد كنت أيام الشـــباب
لقد كذبتك نفســك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثيــاب

وأخذ أول ما أخذ عن أبى حاتم السجستانى ، وهو أبو حــاتم سهل بن محمد السجستانى كان عالما ثقة فى اللغة والشعر ، ولم يكن ـ كما قال المبرد ـ حاذقا فى النحو • وكان كثير التصانيف فى اللغة ، وصنف فى النحو والقراءة ، وتوفى سنة خمس وخمسين

ومائتين • ويقول المبرد انه كان اذا التقى هو والمازنى تشاغل ، أو بادر بالانصراف تحرزا من أن يسأله المازنى فى النحو • قال المبرد: وكان السجستانى جماعا للكتب يتجر فيها •

وأخذ عن التوزى ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد التوزى كان من أكابر علماء اللغة وتوفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين • ويقول عنه المبرد : ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من أبى محمد التوزى كان أعلم من الرياشى والمازنى •

وقال المبرد أيضا : سأل التوزى عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير عن قول الفرزدق :

ومنا غداة الروع فتيان غارة اذا متعت بعد الأكف الأشاجع

فلم يجب • ومعنى متعت احمرت من الدم ، ومنه قولهم نبيذ ماتع أى شديد الحمرة • وقد أكثر المبرد من ذكر التوزى فى كتبه ورواياته •

الا أن ثقافة المبرد لم تكن مقصورة على ما يتلقاه من شيوخه بل كان يقرأ كل ما يمكن أن يصل اليه من كتب السابقين ، وكان شديد الحرص على كل كتاب أو أوراق تصل اليه ، كما كان شديد الحرص على كتاب سيبويه ويروى « معجم الأدباء » أن أبا الحسين محمد بن ولاد قدم الى العراق وفيها أهله لأخذ كتاب سيبويه عن أبى العباس المبرد ، وكان المبرد لا يمكن أحدا من نسخته ، اذ كان شديد الضن بها • فعمد ابن ولاد الى ابن المبرد وكلمه على أن يجعل له فى كل كتاب منه جعلا سماه له ، فأجابه ابن المبرد الى ذلك فأكمل نسخه • ولما علم المبرد بذلك فيما بعد سعى بابن ولاد الى بعض خدمة السلطان ليحبسه له عقابا على فعلته ، لكن أبا الحسين احتمى بصاحب خراج بغداد ، وكان أبو الحسين يؤدب ولده ، فأجاره منه •

من أخذوا عن المبرد وتتلمذوا له :

بعد موت المازنى صار المبرد امام النحويين البصريين ، وعليه تلقى النحو والأدب طائفة كبيرة ممن صاروا فى مستقبل أيامهم أعلاما ، ومؤلفين ، وذوى آثار قيمة فى العلم والأدب . نذكر منهم الزجاج ، وسنتحدث عنه بعد بشىء من التفصيل ، ونذكر منهم الصولى ، ونفطويه النحوى ، وأبا على الطومارى ، وابن السراج ، والأخفش الأصغر ، وأبا على اسماعيل الصفار ، وأبا جعفر أحمد بن محمد الصفار ، وأبا الطيب الوشاء ، وابن المعتز ، وأبا الحسين ابن الجزار النحوى ، وابن درستويه ، وأبا جعفر النحاس .

وهؤلاء جميعا قد نبغوا وصاروا أعلاما ، وتركوا فى العلم والأدب ذخائر من قيم المؤلفات .

مكانة المبرد :

انتهت اليه زعامة النحويين بعد المازنى بغير منازع ، وأجمع معاصروه ، وكل من جاءوا بعده ، ومن أرخوا له على أنه العالم الكامل، والمعلم البارع والأديب الذى لا يبارى . وضاقت حلقة دروسه بالراغبين فى الأخذ عنه ، وان كان لا يعلم الا بأجر ، ولا يأخذ الأجر الا على قدره ، فكان يأخذ من تلميذه وصفيه الزجاج ، وروى « معجم الأدباء » أن المنذرى قال : اختلفت الى أبى العباس المبرد وانتخبت أجزاء من كتابيه المعروفين بالروضة والكامل أقرؤهما عليه ، وقاطعته نظير ذلك على شىء مسمى . ولم يأذن لى فى قراءة حكاية واحدة لم يكن وقع الشرط عليها .

ومع ذلك كان الاقبال على التلقى منه شديدا ، وكان كبار القوم يستنصحونه اذا أرادوا مؤدبا لأبنائهم ، وما ذلك الا لعلمه وفضله .

قال القفطي في كتاب « انباه الرواة على أنباه النحاة » :

« كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم ، وغزارة الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الاشارة ، وفصاحة اللسان ، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة ، وكرم العشرة ، وبلاغة المكاتبة ، وحلاوة المخاطبة ، وجودة الخط ، وصحة القريحة ، وقرب الافهام ، ووضوح الشرح وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه » .

واتفق ياقوت في « معجم الأدباء » والأنباري في « نزهة الألبا » على وصفه بأنه : « كان امام العربية ، وشيخ أهل النحو ببغداد ، واليه انتهى علمها بعد الجرمي والمازني » وأنه كذلك « كان حسن المحاضرة فصيحا ، بليغا ، مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة »

وكان اسماعيل القاضي المعاصر له يقول : « ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه ممن كان قرينه ، ولا يرى بعده مثله » .

وقال العلامة ابن شهبة الأسدي في كتابه « طبقات النحاة واللغويين » :

« كان فصيحا ، بليغا ، مقدما ، ثقة ، اخباريا ، علامة ، صاحب نوادر وظرافة ، جميلا ، وسيما لا سيما في صباه .. وكان حسن النوادر ، كثير الأمالي » .

وقال الزبيدي :

« كان بارعا في الأدب وكثرة الحفظ والفصاحة وجودة الخط » .

وفي « نزهة الألبا » و « معجم الأدباء » و « أخبار البصريين » أن السيرافي قال : « ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني

القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم ، ولقد فاتنى منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب » وأن نفطويه قال : « ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه »

وفى كتاب « سر الصناعة » أن ابن جنى قال : « يعد المبرد جيلا فى العلم ، واليه أفضت مقالات أصحابنا ، وهو الذى نقلها وقررها ، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها » .

وقد وصفه البحترى بأنه كوكب سعد ، ودعا طالبى العلم الى الأخذ منه فى مدحة له يقول فيها :

ما نال ما نال الأمير محمد   الا بيمن محمد بن يزيد
وبنو ثمالة انجم مسعودة   فعليك ضوء الكوكب المسعود

وجاء فى كتاب « تاريخ بغداد »

حدثنا أبو يعلى قال : قال لى أبو العباس المبرد : كنت أناظر بين يدى جعفر بن القاسم فكان يقول : أراك اليوم عالما ، أراك اليوم عالما . فكان هذا يحفظنى ، فلما رأى ذلك منى قال : ان قولى لك أراك اليوم عالما لا يعنى عندى أنك قبل اليوم لم تكن على غير هذه الحال ثم انتقلت اليها ولكن على حد قول الله تعالى « والأمر يومئذ لله » وان الأمر اليوم ويومئذ لله .

وفى « تاريخ بغداد » و « معجم الأدباء » أن ابا عبد الله المفجع قال : كان المبرد لعظم حفظه اللغة واتساعه فيها يتهم بالكذب .

وقال الزبيدى :

« لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد على رياسته وتفرده بمذهب أصحابه (يعنى البصريين) وأربائه عليهم بفطنته ، وصحة قريحته متخلفا فى قول الشعر ، وكان لا ينتحل ذلك ، ولا يعتزى اليه ، ولا يرسم نفسه به . وله أشعار كثيرة » .

ولما عرف من فضله وعلمه وظرفه وحسن محاضرته كان سادة القوم وفضلاؤهم يرغبون أشد الرغبة في منادمته ومسـامرته ، وها هو ذا البحترى الشاعر العربى الكبير يحرص على الائتناس به في مجلس أنس فيكتب اليه :

اليوم سبت وعندنـا ما كفى ... الحر طعام والورد منـا قريب
ولنا مجلس على النهـر فيـا ... ح فسـيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المـدام يدنيـك ممن ... كنت تهوى وان جفـاك الحبيب
فأتنا يا محمـد بن يزيد ... في استتار كي لا يراك الرقيب
نطـرد الهم باصـطباح ثلاث ... مترعـات تنفى بهن الـكروب
ان في الراح راحة من جوى الحـ ... ـب ، وقلبى الى الأديب طروب

ولابن الرومى قصيدة طويلة في مدح المبرد ، وليست منشورة في الديوان المطبوع المتداول ولكنها في مخطوطة بدار الكتب ، وقد أورد البارودى في مختاراته شطرا منها جاء فيه :

يا أبا العبـاس انى رجـل ... في عمن عاند الحق عنـود
ويمينـا انك المرء الذى ... حبـه عندى سواء والسجود
لم أزل قدما وقلبى ويدى ... ولسانى لك مذ كنت جنود
شـاهد انك بحر زاخر ... لك من نفسك مد بل مدود
يجتنى درك رطبـا ناعمـا ... فلنا منه شـنوف وعقـود
غير ان البحـر ملح آسن ... ولأنت المشرب العذب البرود

وجاء في « معجم الأدباء » أن شاعرا (لم يسمه) مدح المبرد بقوله :

واذا يقـال من الفتى كل الفتى ... والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمستضـاء بعلمه وبرأيه ... وبعقله قلت : ابن عبـد الأكبر

وفى « معجم الأدباء » و « أخبار البصريين » و « نزهة الألبا » قول شاعر آخر يمدحه ولكن كتاب « تاريخ بغداد » أورد الأبيـات

كاملة منسوبة الى قائلها وهو الشاعر أحمد بن عبد السلام • قال: حدث أبو بكر بن ابى الأزهر أن المبرد كان ينسب الى الأزد فقال فيه احمد بن عبد السلام :

أيا بن سراة الأزد أزد شنوءة وأزد العتيك الصدر رهط المهلب
أولئك أبنـــاء المنايا اذا عدوا الى الحرب عدوا واحدا الف مقنب
همو حرم الاسلام بالبيض والقنا وهم ضربوا نار الوغى بالتلهب
وهم سبط أنصار النبى محمـد على أعجمى الخلق والمتعـرب
وأنت الذى لايبلغ الناس وصفه وان أطنب المداح مع كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان راكبـا وأنت عديل الفتح فى كل موكب
وكان أمـير المـؤمنين اذا دنا اليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت علمـا لا يحيط بكتبه علوم بنى الدنيـا ولا علم ثعلب
يؤوب اليك النـاس حتى كأنهم ببـابك فى أعلى منى والمحصب

صلاته بعظماء عصره :

منذ جلس المبرد فى حلقات الدروس يتلقى العلم ظهر نبوغه وجده ، وخفة روحه ، وحضور بديهته ، وكان يتمتع بحافظة واعية، وذاكرة قوية ، وأقبل بعد تلقى الدروس من شـيوخه يقرأ كل ما يصل الى يده من كتب وأوراق ، ويلتقط كل ما يسمع من نادرة أو فكاهة أو رواية أو خبر ، وبذلك شاع ذكره ، وعرف خبره كبار العلماء ، وطلاب العلم ، ووجهاء القوم وسادتهم وشرفاؤهم ، فأقبلوا عليه ينشدون الاستماع الى عذب حديثه ، وجميل روايته وحسن فكاهته • وما عرف عنه من الظرف والتزام أدب المجالس جعلهم يدعونه لحضور مجالس سمرهم ، بل ويلحون فى الدعوة الى حد الالزام • هذا الى جانب ما منحه الله من جمال ووسامة وقسـامة جعلت من لقبوه بالمبرد (بفتح الراء) من غير الكوفيين يعنون الجميل

الوجه ، وذلك مما جعل شيخه أبا حاتم السجستانى مع ما عرف عنه من الورع والتقوى يقول فيه :

أبرزوا وجهك الجميل ولاموا من افتتن
لو أرادوا صيانتى ستروا وجهك الحسن

ويقول فيه أيضا :

وقف الجمال بوجهه فسمت له حدق الأنام

وكان يدعى للمسامرة والمنادمة والمذاكرة منذ شبابه المبكر لذلك فانه حين ذكرت الأبيات التى أنشدها فى مجلس مسامرة وشاع خبرها وهى : « حبذا ماء العناقيد ... الخ » وسئل عنها بعد أن تقدمت به السن أجاب بأنها من عبث مجالس الأنس .

وكان كثيرا ما يتهرب من طالبيه للمسامرة على نحو ما فعل مع الوالى وصاحب الشرطة حين اختفى فى بيت شيخه السجستانى. وقد قال القفطى :

« كان أبو العباس المبرد مقدما فى الدولة عند الوزراء والأكابر، ولما مات الفتح بن خاقان كتب محمد بن عبد الله بن طاهر يحث فى اشخاص المبرد اليه ، فلما وصل اليه ظل مقيما معه ، وسبب له أرزاقا على مصر حسبما كانت أرزاق القدامى تجرى عليهم من هناك » .

وكان كثير من سراة القوم وعظمائهم يختصونه بأن يختار لهم من يراه أصلح لتأديب أبنائهم كما طلب منه عبيد الله بن سليمان أن يختار له مؤدبا لابنه القاسم فقال له : ان خير من يصلح لذلك هو الزجاج ، ولكنه الآن عند بعض أهل الصراة فكتب اليهم عبيد الله يستنزلهم عن الزجاج فنزلوا له عنه ، وأسلم اليه ابنه القاسم ليتولى تاديبه .

وكما تشير هذه الواقعة الى أن المبرد كان موضع ثقة سـادة القوم فانها من جانب آخر تشير الى صفة كريمة فيه هي صـــفة الوفاء فالزجاج ـ كما سنذكر بعد ـ كان من تلاميذ ثعلب ، وهو الذى أوفده ثعلب ليترأس جماعة تفض مجلس المبـرد أول قدومه الى بغداد ، واذا الزجاج يتكشف له أنه أمام أستاذ لا يبارى فترك حلقة ثعلب ، ولزم المبرد ، وفرض على نفسه درهما كل يوم حتى يفرق الموت بينهما ، ووفى لأستاذه بشرطه ، وكافأه المبرد على الوفاء بوفاء ٠

وذكر ابن خلكان ان ابراهيم بن المدبر لما أراد جليسا يجمع الى تأديب ولده الامتاع بايناسه عمد الى المبرد ليختار له من يشـــاء فعرض عليه اسم تلميذه الأخفش الأصغر ، وتم اختياره لذلك ٠

أما الخلفاء فما نمى الينا من أخبـــاره يفيد أنه لم يتصل الا بواحد منهم هو الخليفة المتوكل مع أنه عاصر المعتصم ، والواثق بالله ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمســـتعين بالله ، والمهتدى بالله ، والمعتمد على الله ، ثم المعتضد بالله ٠

وكان أول اتصال له بالمتوكل فيما روته الأنباء أن المتوكل ، وكانت حاضرة ملكه سر من رأى (سامرا) ، قرأ يوما وبحضرته الفتح بن خاقان قول الله تعالى «وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون» (بفتح همزة ان) ٠ فقال له الفتح : انها يا سيدى بالكسر ، وأبدى كل منهما أنه المصيب فتبايعا على عشرة آلاف درهم يدفعهـــا من لا يكون الحق فى جانبه ٠ وتحاكمـــا الى يزيد بن محمد المهلبى ، وكان صديقا للمبرد ، فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يسقط عند أحدهما فقال : ما أعرف الفرق بينهما ، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ٠ فقـــال المتوكل : أفليس

ها هنا من يسأل عن هذا ؟ فقال : ما أعرف احدا يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد • فقال المتوكل : ينبغي أن يشخص ، وأنفذ كتابا الى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي ان يشخصه مكرما •

قال المبرد فوردت سر من رأى وأدخلت على الفتح بن خاقان فقال : يا بصرى كيف تفسر هذا الحرف « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » أبفتح همزة ان أم بكسرها ؟ فقلت : انها بالكسر ، وهو الجيد المختار ، وذلك أن أول الآية وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها • قل انما الآيات عند الله وما يشعركم • ثم قال الله : يا محمد « انها اذا جاءت لا يؤمنون » باستيفاء جواب الكلام المتقدم • قال الفتح : صدقت •

وركب الفتح الى دار أمير المؤمنين فعرفه بقدومي ، وطالبه بما تخاطرا عليه وتبايعا فيه • فأمر المتوكل باحضاري فحضرت ، فلما وقعت عين المتوكل على قال : يا بصرى كيف تقرأ الآية « وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون » بالكسر أم بالفتح ؟ قلت: يا أمير المؤمنين أكثر الناس يقرءونها بالفتح •• فضحك وضرب رجله اليسرى وقال : احضر المال يافتح •

قال المبرد : وأخرجت فلم أصل الى الموضع الذى كنت فيه نازلا حتى أتتنى رسل الفتح فأتيته فقال : يا بصري ، أول ما ابتدأتنا بالكذب ؟ فقلت : ما كذبت • قال : وكيف وقد قلت لأمير المؤمنين ان الصواب وما يشعركم أنها بفتح الهمزة ؟ فقلت : أيها الأمير لم أقل هذا ، وانما قلت أكثر الناس يقرءونها بالفتح ، وأكثرهم على الخطأ ، وانما تخلصت من اللائمة وهو أمير المؤمنين • فقال لي : أحسنت •

قال المبرد : وانى ما رايت أكرم كرما ، ولا أرطب لسانا من الفتح •

وقال : لقد حملت الى المتوكل سنة ست وأربعين ومائتين • ومعنى ذلك انه كان فى منتصف العقد الرابع من عمره •

هذا اللقاء الأول مع المتوكل ، والذى تم بعد استدعائه من البصرة ليكون حكما بينه وبين الفتح بن خاقان فى تصحيح نطق همزة ان فى قوله تعالى « وما يشعركم أنها » لم يترتب عليه توطيد مكانته لدى المتوكل أو الفتح بن خاقان ، اذ لم تتوثق صلته بهما الا على يد بندار بن عبد الحميد الكرخى ، قال المبرد :

كان سبب غناى بندار بن عبد الحميد الكرخى المعروف باسم بندار بن لرة الأصبهانى • وذلك أنى حين أصعدت الى سامرا وردتها فى أيام المتوكل فآخيت بها بندار بن لره ، وكان واحد زمانه فى رواية دواوين العرب حتى كان لا يشذ عن حفظه من شعر شعراء الجاهلية والاسلام الا القليل • وكان أصح الناس معرفة باللغة ، وكان له دخلة على المتوكل ، فجمع بينى وبين النحويين ، ورفع حديثى الى الفتح بن خاقان ، ثم توصل الى أن وصفنى للمتوكل فأمر باحضارى مجلسه ، وكان المتوكل تعجبه الأخبار والانساب ، ويروى صدرا منها يمتحن من يراه بما يقع فيها من غريب اللغة • فلما دنوت من طرف بساطة استدنانى حتى صرت الى جوار بندار فأقبل علينا وقال : يابن لره ، ويا بن يزيد ما معنى هذه الأحرف التى جاءت فى هذا الخبر ؟ ثم ذكر كلاما أشبه بالأحاجى • قال المبرد : فبقيت متحيرا ، فبدر بندار وقال : يا أمير المؤمنين فى هذا نظر وروية • قال : أجلتكما بياض يومى فانصرفا ، وباكرانى غدا • فخرجنا من عنده فاقبل بندار على وقال : ان ساعدك الحظ ظفرت بهذا الخبر ، فاطلبه فانى طالبه • فانطلقت الى منزلى

وقلبت الدفاتر ظهرا لبطن حتى وقعت على هذا الخبر فى أثناء أخبار الاعراب فحفظته . وباكرت بندارا فأنهضته معى ، وصبحنا المتوكل، وبدأت فرويت له الخبر ، ثم فسرت ألفاظه . فالتفت الى بندار وقال : ابن يزيد فوق ما وصفتم . ثم قال للغلام : على بالخازن ، فحضر ، فأمره بهبة لى ، وقال له : اخرج مع ابن يزيد ، وقل للحاجب يسهل اذنه علينا . فصار ذلك أصل مالى ، وكان بنـــدار سببه ومصدره .

وتوطدت مكانة المبرد لدى المتوكل منذ هذا اللقاء الذى دبره صديقه بندار بن لره ، وتلت ذلك لقاءات أخرى زادته قربا من قلب المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، وأصـــبح الفتح هو الذى يمهد لحضور المبرد مجالس المتوكل ، والمتوكل يفتح قلبه للمبرد ، وكان ذلك مما أوحى الى الشاعر أحمـــد بن عبد السلام أن يقول ضمن مدحه للمبرد :

رأيتك والفتح بن خاقان راكبا ... وأنت عديل الفتح فى كل موكب
وكان أمـــير المؤمنين اذا رنا ... اليك يطيل الفكر بعد التعجب

وقد روى الحصرى فى « زهر الآداب » والمرزبانى فى « معجم الشعراء » أن المبرد تحدث عن نفسه فقال :

دخلت يوما على المتوكل ، وكان الفتح بن خاقان قد اختـار لدخولى وقت شربه ، وكان الشراب قد أخذ منه . فسألنى قائلا : يا بصرى ، أرأيت أحسن وجها منى ؟ فقلت : لا والله ولا أسـمح راحة . ثم تجاسرت فقلت :

جهرت بحلفـــة لا أتقيهـــا ... بشك فى اليمين أو ارتيـــاب
بأنك أحسن الخلفاء وجهـا ... وأســمح راحتين ولا أحابى
وأن مطيعك الأعلى مقـــاما ... ومن عاصاك يهوى فى تباب

فقال : أحسنت وأجملت فى حسن طبعك وبديهتك . قلت : ما ظننتنى أبلغ هذا الشرف ، ولا أنال هذه الرتبة . فلا زال أمير المؤمنين يسمو بخدمه الى أعلى المراتب ، ويصرفهم فى أشرف المذاهب .

وتوثقت علائق الود بين المبرد والفتح بن خاقان ، وكان ذلك ثمرة رابطة الأدب التى تجمع بينهما ، والتى جعلت كلا منهما يدرك خصائص الآخر ويحرص على وده .

وقد جاء فى أمالى السيد المرتضى أن المبرد قال : « ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحاق القاضى ، فأما الجاحظ فانه كان اذا وقع فى يده كتاب قرأه من أوله الى آخره أيا كان الكتاب ، وأما الفتح بن خاقان فانه كان يحمل الكتاب فى خفه فاذا قام من بين يدى المتوكل للبول أو الصلاة أخرج الكتاب للنظر فيه وهو يمشى حتى يبلغ الموقع الذى يريده ، ثم يصنع مثل ذلك فى رجوعه الى أن يأخذ مجلسه ، وأما اسماعيل بن اسحاق فانى ما دخلت عليه قط الا وفى يده كتاب ينظر فيه أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه » .

واذا كان لم يتصل بأحد من الخلفاء غير المتوكل فما نحسب ذلك الا لأنه رجل كان يؤثر العافية ، وكان حريصا على العلم والتعليم مكبا على التأليف . لقد كان يرى كيف يدور الصراع عنيفا فى قصور الخلفاء ، وكيف يتهدد خطر الموت الخليفة نفسه فضلا عن خلصائه واصفيائه لذلك عكف على الاستزادة من العلم ، وتزويد تلاميذه بما فتح الله عليه به ، وعكف على التأليف حتى أتيح له أن يبز كثيرين غيره من علماء عصره ومن سبقهم فى عدد المؤلفات ، فقد عدوا له نحو أربعة وأربعين كتابا ، وان كان الذى وصل الينا منها قليل محدود .

ولم يتصــل بأحــد من الخلفاء بعـــد المتوكل ، ولكنه كان على اتصال خارج دار الخلافة بكبار الأدباء من الوزراء ومن فى درجتهم وقد روى الحصرى فى كتابه « زهر الآداب » أن المبرد قال : « ما رأيت فى أصحاب السلطان مثل اسماعيل بن اسحق ، والحسن بن رجاء كنت اذا رأيت أحدهما رأيت رجلا كأنما خلق لذروة منبر ، أو صدر مجلس • يتكلم وكأنه يتنفس ، يسهب ويطنب ، ويعرب ويغرب ولا يعجب ويعجب » •

وكان يرتاد داره عظماء القوم وسادتهم وقد جاء فى « جمع الجواهر والملح » أنه : دخل بعض أبناء الملوك على المبرد وعنده سلة حلوى قد أعدها لبعض اخوانه فوجد ابنه الفرصة فى اشتغال أبيه فأقبل يأكل منها فنظر اليه المبرد وأنشد :

النـــاس فى غفـــلاتهم ورحى المنيـــة تطحن

بين المبرد والزجاج :

الزجاج هو ابو اسحاق ابراهيم بن السرى بن سهل الزجاج• كان من أكابر أهل العربية حسن العقيدة ، جميل الطريقة ، عالما نحويا ولغويا لامعا ، وأديبا بارعا ، خلف آثارا قيمة وتوفى ســنة احدى عشرة وثلثمائة فى خلافة المقتدر بالله •

كان الزجاج تلميذا لثعلب ، فلما ظهر المبرد فى بغداد خشى ثعلب مزاحمة المبرد له ، وانتزاع الرياسة منه فأغرى به تلاميذه يعنتونه بالأسئلة عسى أن يعجزوه ، ويصرفوا عنه من تحلقوا حوله وكان الزجاج على رأس من أغراهم ثعلب باعنـــاته لانه كان أبرع تلاميذه •

قال الزجاج فيما يرويه « معجم الأدباء » و « نزهة الالبا » « وتاريخ بغداد » : لما قدم المبرد بغداد جئت لأناظره ، وكنت أقرأ

على تعلب ، فعزمت على اعناته فلما باحثته ألجمني بالحجة ، وطالبني بالعلة ، وألزمني الزامات لم أهتد اليهـــا ، فاستيقنت فضله ، واسترجحت عقله ، وأخذت في ملازمته .

وروى الأنبارى أن الزجاج قال :

كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت أبا العبـــاس المبرد ، وكان لا يعلم مجانا ، ولا يعلم بأجرة الا على قدرها . فقال لى : أى شيء صناعتك ؟ فقلت : أخرط الزجاج ، وكسبى كل يوم درهم ونصف درهم ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى ، وأنا أشرط أن أعطيك كل يوم درهما الى أن يفرق الموت بيننـــا ، استغنيت عن التعلم أو احتجب اليه . قال : فلزمته ، وكنت أخدمه فى أموره ، ومع ذلك أعطيـه الدرهم . ونصحنى (أخلص لى) فى العـلم حتى استقللت .

ثم قال : وجاء كتاب من بعض الأكابر من الصراة يلتمسون معلما نحويا لأبنائهم ، فقلت له : أسمنى لهم فأسمانى ، فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ اليه فى كل شهر ثلاثين درهما ، وأتفقده بعد ذلك بما أقدر عليه .

قال : وبقيت على ذلك مدة ثم طلب عبيد الله بن سليمان مؤدبا لابنه القاسم فقال له المبرد : لا أعرف لك الا رجلا زجاجا عند قوم بالصراة . فكتب اليهم عبيد الله فاستنزلهم عنى وأحضرنى ، وأسلم الى القاسم فكان ذلك سبب ما نالنى من الغنى .

وقصة انقطاع الزجاج للأخذ عن المبرد بعد أن كان يأخذ عن ابى العباس ثعلب قد حمل الينا تفصيلها ابن القفطى فى كتابه « انباه الرواة على أنباه النحاة » اذ قال :

لما قتل المتوكل بسر من رأى (سامرا) دخل المبرد بغداد ، فقدم بلدا لا عهد له بأهله فاختل وأدركته الحاجة فتوخى شــهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول ، فلم يكن عند من حضره علم فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ويوهم أنه قد سئل ، وصارت عنده حلقة عظيمة ، وهو مستمر فى مواصلة كلامه • فتشوف احمد ابن يحيى ثعلب الى الحلقة ، وكان كثيرا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر فيتكلمون ويجتمع الناس من حولهم ، فاذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يناقشهم فاذا انقطعوا (عجزوا) عن الجواب انفض الناس عنهم فلما رأى كثرة من حول المبرد أمر ابراهيم بن السرى الزجاج وابن الخياط بالنهوض وقال لهما : فضا حلقــة هذا الرجل ، فنهض معهما من حضر من أصحابه • فلما صاروا بين يدى المبرد قال له الزجاج : أتأذن ـ أعزك الله ـ فى المفاتشة ؟ فقال له المبرد : سل عما أحببت • فسأل عن مسألة ، فأجاب عنها بجواب أقنعه • فنظر الزجاج فى وجوه أصحابه متعجبا من تجويد المبرد للجواب • فلما انقضى ذلك قال له المبرد : أقنعت بالجواب ؟ قال الزجاج : نعم • قال المبرد : فان قال قائل فى جوابنا هذا كذا وكذا ما أنت راجع اليه ؟ وجعل المبرد يوهن جواب المسألة ويفسده ، ويعتل فيه • فبقى الزجاج سادرا لا يحير جوابا ثم قال : ان رأى الشيخ أعزه الله أن يقول فى ذلك • فقال المبرد : فان القول على نحو كذا وكذا فصحح الجواب الأول ، وأوهن الاعتراض • فبقى الزجاج مبهوتا •

وقال الزجاج فى نفسه : قد يجوز أنه كان حافظا لهذه المسألة مستعدا للقول فيها فسأله مسألة ثانية ففعل المبرد فيها كما فعل فى

الأولى ، وهكذا حتى سأله أربع عشرة مسألة ، وهو يجيب عن كل منها بمثل ما فعله في المسألة الأولى ٠

فلما رأى الزجاج ذلك قال لأصحابه : عودوا الى الشيخ فلست مفارقا هذا الرجل ، ولابد من ملازمته والأخذ عنه ٠ فعاتبه أصحابه وقالوا : تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه ، وتترك من شهر اسمه وعلمه ، وانتشر في الآفاق ذكره ؟ فقال : لست أقول بالذكر والخمول ولكن أقول بالعلم والعمل ٠

ولزم الزجاج المبرد فسأله عن حاله فأخبره برغبته في الأخذ عنه ، وذكر له أنه قد حبس نفسه على التعلم الا ما يشغله من صناعة الزجاج خمسة أيام من كل شهر فيتقوت بذلك الشهر كله ٠ ثم أجرى على المبرد في الشهر ثلاثين درهما ، وأمره المبرد باخراج كتب الكوفيين ، ولم يزل ملازما له ، آخذا عنه حتى برع من بين أصحابه ٠

وكان المبرد لا يقرىء أحدا كتاب سيبويه الا اذا قرأه على الزجاج وصحح كتابه به ٠ وكان ذلك أول رياسة أبى اسحق الزجاج ٠

ومن هذا يعرف أن الزجاج كان أول تلميذ للمبرد في بغداد، وأول من دفع له أجرا فيها ، وظل وفيا له طوال حياته ، وقابل المبرد وفاءه بوفاء فكان كما قلنا لا يقرىء أحدا كتاب سيبويه الا صحح كتابه على الزجاج ، وحين سنحت فرصة عمل فيه نفع أدبى ومادى قدمه كما فعل مع أهل الصراة ، ومع عبد الله بن سليمان ٠ ولما تقدمت بالمبرد السن ، وأدركه ضعف الشيخوخة

أيام المعتضد طلب منه تفسير بعض الكتب فقال : ان هذا كتاب طويل يحتاج الى تعب وشغل وانه قد كبر وضعف عن ذلك ثم قال : « ان دفعتموه الى صاحبى ابراهيم بن السرى الزجاج رجوت أن يفى بذلك » ·

وألف الزجاج كتابا فى الرد على ثعلب انتصـــارا لأستاذه وصديقه المبرد · وتمثل وفاء الزجاج للمبرد بعد وفاته فى كثرة رواياته عنه ، ودفاعه عن آرائه ·

بين المبــرد وثعلب

تمهيد : علاقة العلماء ببعضهم خلال القرن الثالث الهجرى :

القرن الثالث الهجرى الذى عاشــه المبرد كان زاخرا بأعــلام اللغة والأدب والبيان والرواية ، وكان التنافس بين هؤلاء العــلماء الأعلام المتعاصرين على أشده ، كل يسعى جاهدا فى أن يكون محط الأنظار ، وملتقى الزوار ، وكعبة طالبى العلم ، والمقرب لدى الخلفاء والأمراء والوزراء والسادة ٠

والتنافس فى ذاته أمر حسن لأنه يشحذ الهمم ، ويحفز الى العمل ، مالم ينقلب الى أنانية مستأسدة لاغاية لها الا هدم الآخرين والارتفاع على أنقاضهم ، والى هذا الحد الكريه وصل تنافس العلماء خلال هذا القرن ٠

وكتب تاريخ الأدب قد سجلت كثيرا من أحداث هذا التنافس البغيض ، وحسبك أن تقرأ « وفيات الأعيان » أو « نزهة الألبا » أو « شذرات الذهب » أو « انباه الرواه » لترى الى أى حــد وصــل الأمر بهؤلاء الأعلام فى تنافسهم البغيض ٠

فمثلا يروى الحريرى فى « درة الغواص » كما روى غيره أن أبا عمرو الجرمى حين شخص الى بغداد ثقل موضعه على الأصمعى

اشفاقا من أن يصرف وجوه أهلها عنه ، ويصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض من قدره فلم ير الا أن يرهقه فيما يسأله عنه . فأتى حلقته يوما وقال له :

كيف تنشد قول الشاعر :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا فاليوم حين بدأن للنظار

أتقول : حين بدأن أم حين بدين ؟

فقال الجرمي : حين بدأن .

قال الأصمعي : أخطأت .

قال الجرمي : حين بدين

قال الأصمعي : غلطت ، انما هو حين بدون أى ظهرن (أى أنها من الفعل بدا يبدو) .

فأسرها الجرمي فى نفسه ، وفطن لما قصده الأصمعي ، واستأنى الى أن تصدر الأصمعي حلقته ، واحتف الجمع به ثم وقف به وقال له : كيف تقول فى تصغير مختار ؟

قال الأصمعي : مخيتير .

قال الجرمي : أنفت لك أن تقول ذلك . أما تعلم أنه من الخير ، وأن التاء زائدة ؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به الى أن انفض الناس من حوله .

ومن ذلك أيضا ماورواه الخفاجي فى شرح درة الغواص من أن الرشيد جمع بين الكسائى واليزيدى وهما قمة علماء جيلهما ، ليتناظرا عنده ، وكان اليزيدى دون الكسائى فى النحو ، فلكى يخرج المناظرة عن هذا المجال قال للكسائى : أتقول تمرة مذنبة

(بسكون الذال وفتح الباء) أم مذنبة (بفتح الذال وتشديد النون) ولم يكن الكسائى سيىء الظن بصاحبه فلم يجل بباله أنه يغالطه ويخادعه فقال أقولهـــا بفتح الذال وفتح النون المشـــددة ! فقال اليزيدى : اذا كان ماذا ؟ قال الكسائى : اذا بدا الارطاب من أسفلها· ففرح اليزيدى بأنه أوقع منافسه فى خطأ ، وضرب بقلنسوته على الأرض وقال : أخطأت ياشيخ لأن التمرة لا تذنب ، ولكن البسرة هى التى تذنب · فغضب الرشـــــيد وقال لليزيدى أتكتنى بمجلسى وتسفه على الشيخ ؟ والله ان خطأ الكسائى مع حسن أدبه لأحب الى من صوابك مع قبح أدبك ·

على هذا الغرار من التنافس المحموم كانت تمضى الحياة برجال اللغة والادب والنحو فى هذه الفترة من تاريخ الادب العربى ، وعلى هذه الصورة كان التنافس بين ثعلب والمبرد ، وبدأ به ثعلب اذ كان يغرى تلاميذه بالمبرد ، ويوحى اليهم أن يرهقوه بالأسئلة عسى أن يعجزوه ، وكان لايدع فرصة تسنح للنيل من المبرد الا اهتبلها ·

تعريف بثعلب :

هو أبو العباس احمد بن يحيى ، وثعلب لقبه ، وقد ولد سنة مائتين وعاش احدى وتسعين سنة ، ولما توفى رثاه شاعر بقوله :

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب
ومات احمد يحيى العجم والعـرب
فان تـولى ابو العبـاس مفتقـــدا
فلم يمت ذكره فى الناس والكتب

ومع علمه وفضله كان لا يحب أن يرتفـع رأس فى مســاماة رأسه ، أو قريبا منه ، فضلا عن أن يكون أعلى من ذلك · لذلك كان يتخذ من تلاميذه أدوات لفض حلقة كل من يجمع حوله حلقة علمية فى

المسجد حيث يكون تلقى العلوم فكان لا يتورع أن يأمر تلاميذه ببذل ما يستطيعون من جهد لاحراج من يحاول أن يزحمه في مركزه ، أو يفكر في الظهور الى جانبه ٠

حقا ان علماء هذا العصر يكادون جميعا يتفقون في صفة واحدة هي التباغض الخفي حينا والظاهر أحيانا الا أن أمر ذلك طال بين هذين العالمين الكبيرين المبرد وثعلب ٠ وسجل المؤرخون لهما كثيرا من مظاهر التنافر ٠

روى ياقوت أنه قد كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المعاصرين من المنافرة ، واشتهر ذلك حتى صار مضرب الأمثال ، وحتى قال بعضهم ممثلا بعسر اللقاء بين هذين العالمين :

كفى حزنا أنا جميعا ببلدة	ويجمعنا في أرضها شر مشهد
وكل لكل مخلص الود وامق	ولكنه في جانب عنه مفرد
نروح ونغدو لا تزاور بيننا	وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا في بلدة ، والتقاؤنا	عسير كلقيا ثعلب والمبرد

واذا كان التقاء ثعلب والمبرد قد صار مضرب المثل في العسر فان المسئول الأول عن هذا هو ثعلب ، فهو الذى بدأ به ، وهو الذى أصر عليه وأسرف فيه ٠ وطالما أبدى المبرد رغبة في أن يلقى ثعلبا عسى أن يصفو له قلبه ، ولكن ثعلبا كان يأبى ذلك اباء شديدا ٠

كان المبرد يحسن تأليف عبارته ويجيد القاءها ، وكان أهل التجميل ــ كما يقول ياقوت ــ يفضلونه لذلك على ثعلب ٠٠ وقد عبر عن ذلك الشاعر أحمد بن عبد السلام حين قال :

رأيت محمد بن يزيد يسمو	الى الخيرات في جاه وقدر
وفتيانية الظرفاء فيه	وابهة الكبير بغير كبر
فينثر ان أدار الفكر درا	وينثر لؤلؤا من غير فكر

وكان الشعر قد أودى فأحيا — أبو العباس داثر كل شعر
وقالوا : ثعلب يفتي ويملى — وأين الثعلبان من الهزبر
وقالوا : ثعلب رجل عليم — وأين النجم من شمس وبدر
وهذا في مقالك مستحيل — تشبه جدولا وشلا ببحر

واذا كان هذا الشاعر قد سما بالمبرد فجعل نثره درا ولؤلؤا وجعل شعره مجددا لشباب الشعر ، وجعله شمسا ، وبدرا ، وهزبرا (أسدا) ، وبحرا فان ثعلب في رأيه لا يعدو أن يكون بالنسبة له نجما ، أو ثعلبانا ، أو جدولا قليل الماء ٠

ولكن مع مبالغة هذا الشاعر في الموازنة بينهما فان المنصفين لا ينكرون نسبة العلم والفضل اليهما على السواء ٠ وهناك شاعر آخر ذكره ياقوت ولم يفصح عن اسمه ، ولكن كتاب « النجوم الزاهرة » جاء فيه أنه أبو بكر بن الأزهر ، وانه قال :

أيا طالب العلم لا تجهلن — ولذ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الورى — فلا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة — بهذين في الشرق والمغرب

والزجاج الذى بدأ تلميذا لثعلب ، ووكل اليه ثعلب مهمة فض حلقة المبرد أول قدومه الى بغداد قد سحر بعلم المبرد وبلاغته وقوة حجته فانحاز اليه دون ثعلب ، وأخلص له الود ، وربط نفسه به معاهدا اياه الا ينقض ذلك حتى يفرق الموت بينهما ، والزجاج ، وهذا شأنه ، يقول :

« كان المبرد يحب الاجتماع بثعلب للمناظرة ، وكان ثعلب يكره ذلك » ٠

وحكى ابو القاسم جعفربن محمد بن حمدان الموصلي ، وكان صديقا لهما ، قال :

« قلت لأبى عبد الله الدينورى ختن ثعـــلب : لم يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟

فقال : لأن المبرد حسن العبارة ، حلو الاشارة ، فصـــيح اللسان ، ظاهر البيان . وثعلب مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعا فى مجلس حكم للمبرد على الظاهر الى أن يعرف الباطن » .

هذا ويروى « معجم الأدباء » أن احمد بن فارس اللغوى وهو من أنصار ثعلب قال :

كان أبو العباس ثعلب لا يتكلف الاعراب فى كلامه . كان يدخل المجلس فنقوم له فيقول :

أقعدوا ، أقعدوا بفتح الهمزة .

ويروى الزبيدى أيضا أن تلميذا آخر من تلاميذ ثعلب وهو ابن المدور قال عنه « .. ولم يكن مع ذلك موصوفا بالبلاغة ، ولا رأيته اذا كتب كتابا الى بعض أصحاب السلطان خرج عن طبع العامة » .

والأزهرى فى « تهذيب اللغة » يقسم علماء العربية الى أربع طبقات بالنسبة لزمن وجودهم وقد جعل المبرد من رجال الطبقـة الرابعة وقال :

« أبو العباس محمد بن يزيد الثمالى الملقب بالمبرد ، وأبو العباس احمد بن يحيى الشيبانى يمثلان الطبقة الرابعة . وأجمع أهل هذه الصناعة من العراقيين وغيرهم أنهما كانا عالمى عصرهما ، وأن احمد بن يحيى كان واحد عصره ، وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا واحفظهما للشعر المحدث ، والنادرة الظريفة ، والأخبار الصحيحة ، وكان من أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو .

ومع اشتداد التنافر بينهمـــا ، وعنف ثعلب على المبرد فان

المبرد كان بعيدا عن العنف به ، ويأبى مواجهته بالسوء فلم يعرف عنه أنه أغرى به أحـدا من تلاميـذه ، أو أوعز الى أحـد أن يرهقه بسـؤال • وقد روى أن أحـد الأكابر من بنى طاهر طلب من أبى العباس ثعلب أن يكتب له مصحفا على مذهب أهل التحقيق فكتب « والضحى » بالياء • لأن مذهب الكوفيين أنه اذا كانت كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت ألفها ياء ولو كانت من ذوات الواو • أما عند البصريين فانهـا ان كانت من ذوات الواو كتبت بالألف • فنظر المبرد فى المصحف فقال : ينبغى أن يكتب «والضحا» بالألف لأنه من ذوات الواو • فجمع ابن طاهر بينهما ، فقال المبرد لثعلب : لم كتبت « والضحى » بالياء ؟

فقال ثعلب : ذلك لضم أوله •

قال المبرد :

ولم اذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء ؟

قال ثعلب :

لأن الضـمة تشبه الواو ، وما أوله واو يـكون آخـره ياء ، فتوهموا أن أوله واو • ومع أن رد ثعلب كما يبدو من خلال هذا الحوار رد ضعيف يتيح للمبرد أن يجول فيه ويصول ليتشفى من هذا المنافس الذى طالما أغرى به من يعنتونه ، فانه أبى أن يـكون كذلك واكتفى بأن يقول لثعلب :

أفلا يزول هذا التوهم الى يوم القيامة ؟

بل أكثر من ذلك تدليلا على انصاف المبرد انه سئل عن ثعلب فقـال :

« ثعلب اعلم الكوفيين بالنحو • فلما قيل له : والفـراء ؟ قال : لايعشره » •

أما ثعلب فكان يتصيد الفرص ليقول في المبرد أغلظ ما يمكن أن يقال • روى الزجاج في أماليه أن أبا الحسن الأخفش قال :

كنت يوما بحضرة ثعلب فأسرعت في القيام قبل انقضاء المجلس فقال لي : الى أين ؟ ما أراك تصبر عن مجلس الخلدي (وبهذه التسمية كان يتهكم ثعلب بالمبرد) • قال الأخفش : فقلت له : لي حاجة • فقال اني أراه يقدم البحتري على أبي تمام ، فاذا أتيته فقل له : ما معنى قول أبي تمام :

أآلفة النحيب كم افتراق ... أظل فكان داعية اجتماع

قال الأخفش : فلما صرت الى أبي العباس المبرد سألته عنه فقال : معنى هذا أن المتحابين والمتعاشقين قد يتصارعان ويتهاجران ادلالا ، لاعزما على القطيعة • واذا حان الرحيل وأحسا بالفراق تراجعا الى الود ، وتلاقيا خوف الفراق ، وخوف أن يطول اللقاء بعده • فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع ، كما قال الآخر :

متعا باللقاء يوم الفراق ... مستجيرين بالبكا والعناق
كم أسرا هواهما حذر النا ... س ، وكم كتما غليل اشتياق
فأطل الفراق فالتقيا فيـ ... ـه ، فراق أتاهما باتفاق
كيف أدعو على الفراق بحتف ... وغداة الفراق كان التلاقي ؟

قال الأخفش : فلما عدت الى ثعلب في المجلس التالي سألني عنه ، فأعدت عليه الجواب والأبيات ، فقال : ما أشد تمويهه ! ما فعل شيئا ، انما معنى البيت أن الانسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يوفق في سفره فيعود الى محبوبه مستغنيا عن التغرب فيطول اجتماعه معه • ألا تراه يقول في البيت التالي :

وليست فرحة الأوبات الا لموقوف على ترح الوداع

وهذا نظير قول الآخر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

والموازنة بين جواب المبرد في مسألة « والضحى » وجواب ثعلب هذا يكشف عن رفق المبرد وقسوة ثعلب ·

واسم الخلدى الذى يطلقه ثعلب على المبرد تهكما به قيل انه نسبة الى قصر الخلد الذى بناه المنصور ببغداد ، وبنيت حوله منازل فصارت محلة كبيرة ، وكان المبرد ينزل هناك ، فهو يعنى أن المبرد أقحم نفسه فى زمرة علية القوم الذين سكنوا حول قصر الخليفة ، وقيل انه نسبة الى الخلد الذى هو ـ كما جاء فى كتاب « حياة الحيوان » للدميرى دويبة عمياء صماء لا تعرف ما بين يديها الا بالشم ، ويضرب بها المثل فى الفساد فيقال : أفسد من خلد بضم الخاء ، وقال الخليل بن احمد بفتح الخاء ، لاندرى الى أيهما ينسبه ثعلب ولكن الذى نحسه انه يسميه بذلك تهكما ·

وجاء فى « المزهر » للسيوطى ان الزجاج قال :

دخلت على ثعلب بعد انصرافى من حلقة المبرد اذ كان قد أملى علينا شيئا من كتابه « المقتضب » فسلمت على ثعلب وعنده أبو موسى الحامض ، وكان يحسدنى كثيرا ، ويجاهرنى بالعداوة ، وكنت أحتمله وألين له لموضع الشيخوخة · فقال ثعلب : قد حمل الينا ما أملاه هذا الخلدى (يعنى المبرد) فرأيته لايطوع لسانه بعبارة ·

قال الزجاج : فقلت له انه لا يشك فى حسن عبارته اثنان ، ولست بسوء رأيك فيه بالغا منه عيبا ·

هكذا كان يقول ثعلب فى المبرد فى حين يقول المبرد عنه انه أعلم الكوفيين ، وأعلم من الفراء ٠ ويقول شـــاعر فى مدح المبرد وتفضيله على ثعلب :

وأوتيت علما لا يحيط بكنهـــه علوم بنى الدنيا ولاعلم ثعلب

ومما يروى عن أبى على احمـد بن جعفـر النحوى زوج ابنة ثعلب انه كان يخرج من بيت ثعلب وهو جالس أمام بابه ، ويمضى ومعه دفتره ومحبرته فيقرأ على المبرد كتاب سيبويه ، فيعاتبه ثعلب ويقول له : ماذا يقول الناس اذا رأوك تمضى الى هذا الرجل تقرأ عليه ؟ ولكن زوج ابنته كان لا يلتفت الى قوله ويمضى فى سبيله ٠

وتشير هذه الرواية فى وضوح الى مدى ما أحرزه المبرد من التفوق على منافسه ، ومن الاستئثار بأقرب الناس اليه ، وما كان ذلك ليتأتى له لولا صفات كريمة فيه قامت الى جانب علمه الغزير ، وبديهته الحاضرة ، ولسانه الذرب ، وعقله الحصيف مما جـذب القلوب اليه ، وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه والثناء عليه ٠ ومن ذلك قول أحدهم :

واذا يقال من الفتى كل الفتى والشيخ والكهل الكريم العنصر
والمســـتضاء بعلمه وبرأيـــه وبعقله ؟ قلت ابن عبد الأكبر

ومما يؤيد ما وصف به من كريم الخلق انه قد نمى اليه أن أبا العباس ثعلبا ذكره بكلام قبيح ، فلم يزد على أن قال :

رب من يعنيــــه حـــالى وهــــو لا يجـرى ببـــالى
قلبــــه مـــلآن مــــنى وفـؤادى منـــه خــــالى

وقد كان لهذين البيتين أثرهما الحسن فى نفس ثعلب فقد

روى أنه منذ سمع ذلك أمسك عن المبرد فلم تسمع منه بعد ذلك كلمة قبيحة فى حقه ٠

ويظهر أن أصدقاء المبرد وأصدقاء ثعلب وتلاميذهما كانوا يشعلون نار البغضاء بينهما بما ينقلون من هذا لذاك ، ومن ذاك لهذا ، ويحاولون اضرام نار الخصومة كلما احسوا أنها أخذت تخمد فما ان يسمع واحد منهم كلمة من أحد هذين العالمين الكبيرين تمس الآخر من قريب أو من بعيد حتى يطير بها اثارة للفتنة واشعالا لنار الخصومة ٠

كان بين المبرد وثعلب منافرات كثيرة ، والناس مختلفون فى تفضيل احدهما على الآخر وحدث أن جاء رجل الى ثعلب فقال له : يا أبا العباس ، قد هجاك المبرد ٠ فقال :

بماذا ؟

فأنشده :

أقسم بالمبتسم العذب ومشتكى الصب الى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده الا عمى قلب

فقال ثعلب : أما أنا فقد روى لى من شعر أبى عمرو بن العلاء :

يشتمنى عبد بنى مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقارى به من ذا يعض الكلب اذا عضا ؟

ومن أمثلة سعى الساعين بالشر بين الرجلين ما رواه الحصرى فى «زهر الآداب» اذ قال :

روى العتبى ان أباه قال : سمعت أعربيا يقول لأخيه فى معاتبة جرت بينهما : « أماوالله لرب يوم كتنور الطاهى قد رميت بنفسى فى سمومه أحتمل منه ما أكره لما أحب » ٠

فقال المبرد : أحسب ان هذا العتبى صنع هذا الكلام ، وانه أخذه من قول بشار :

ويوم كتنور الاماء سجرنه وأوقدن فيه النار حتى تضرما
رميت بنفسي في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

ومع أن هذا نقد أدبي رفيع يدل على عمق الفكر ، وكثرة الحفظ ، وحضور البديهة فان أحد أصحاب ثعلب ــ كما يقول الحصري ــ قد أخذ هذا المعني وحوله الى هجاء للمبرد فقال :

ويوم كحر الشوق في الصدر والحشا على أنه منه أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد جالسا فمازلت في ألفاظه أتبرد

وفي كتاب « سير أعلام النبلاء » موازنة بين الرجلين على لسان ابن حماد النحوي قال فيها :

« كان ثعلب أعلم باللغة وبالنحو من المبرد ، وكان المبرد أكثر تفننا في جميع العلوم من ثعلب » .

الا أن شاعرا من انصار المبرد وازن بين الرجلين بميزان آخر فقال :

بنفسي أنت يا بن يزيد من ذا يساوى ثعلبا بك غير قين
اذا زارتكما العلماء يوما رأت شأويكما متفاوتين
تفسر كل مقفلة بحلق ويستر كل واضحة بغين
كأن الشمس ما تمليه شرحا وما يمليه همزة بين بين

والمنصفون من النقاد والرواة يحكمون لهما معا بغزارة العلم ،

وجلال القدر ، وقد سئل أبو بكر السراج : أيهما أعلم : المبرد أم ثعلب ؟ فقال :

ما أقول في رجلين العالم بينهما ؟

وتحدث أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر قائلا :

قال أبي : حضرت مجلس أخي محمد بن عبيد الله بن طاهر ، وحضره أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد • فقال لي أخي : قد حضر هذان الشيخان واني أود أن أعرف أيهما أعلم ، فاجلس في الدار الفـــلانية واجمع بينهما ، واسمع كلامهما • قال : ففعلت ذلك ، وتناظرا ، ثم عدت الى أخي فسألني عن أمريهما فقلت : لما شرعا في النظر شاركتهما في فهم ماقالا ، ثم دقا فلم أفهم من كلامهما الدقيق شيئا ، وما يعلم أيهما أفضل الا من هو أعلم منهما •

فقال أخي : انصافك أدق من كلامهما •

وحين عدا الموت على المبرد ، وانطوت صفحة وجوده حزن ثعلب لموته ، وتألم لخلو بغـداد من مثله • وقد عبر عن ذلك الشـاعر ابو بكر بن العلاف اذ قال :

ذهب المبرد ، وانقضـت أيامه — وليـذهبن مـع المبرد ثعلب
بيت من الآداب أضحى نصـــفه — خربا ، وباقي البيت منه سيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ، ووطنوا — للدهر أنفســكم على ما يســلب
ذهب المبرد حيث لا ترجـونه — أبدا ، ومن ترجـــونه فمغيب
فتزودوا من ثعلب فبكأس مـا — شرب المبرد عن قـريب يشرب
واستحلبوا الفـاظه فكأنـــكم — بسريره ، وعليـه جمع محلب
وأرى لكم أن تكتبوا انفاســه — ان كانت الأنفـاس مما يكتب
فليــلحقن بمن مضى متخلف — من بعـــده ، وليذهبن ونذهب

وكثيرون ينسبون هذه الأبيات الى ثعلب نفسه ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهى زفرة محزون على علم طواه الموت ، وطوى من بعده ثعلبا ٠

أجل ، طوى الموت هذين العالمين الكبيرين ، وبقيت آثارهما العلمية والأدبية منارة هدى لمن جاء من بعدهما ، وبقيت ذكرى خصومتهما وتنافرهما لتكون عبرة أى عبرة ٠

بقيت ذكرى هذه الخصومة تشير الى الذين يسعون بالفساد بين الناس ، وتحذر من الذين لا يكادون يجدون بادرة نفرة حتى يبذلوا أقصى جهودهم لتعميق الخلاف وتوسيع هوته ٠

ولا تكون الحياة فى يوم من الأيام شرا مطلقا ولا خيرا مطلقا ، فالى جانب المتحاملين كان يوجد منصفون لا يتحرجون من قولة صدق ، أو اصدار حكم عادل ، فقد سئل أبو على الدينورى ختن ثعلب ، سأله اسماعيل بن اسحق المصعبى : كيف صار محمد بن يزيد أعلم بكتاب سيبويه من أحمد بن يحيى ؟ فقال لأن محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه ٠

وهناك صفة جمعت بين المبرد وثعلب ، وذلك أن كلا منهما كان حريصا على المال بخيلا به ٠ وقد وصف المبرد بأنه كان ممسكا بخيلا ، يقول : ماوزنت شيئا بالدرهم الا ورجح الدرهم فى نفسى ٠٠ هذا مع السعة التى كان فيها ، وكان على ماقيل مقتصدا فى ملبسه ومأكله ، وقد فهمنا من قصة ابنه مع سلة الحلوى حين اشتغل هو بالحديث مع أبناء الملوك الذين كانوا يزورونه مايدل على أنه كان حريصا ممسكا فى البيت والا ما اغتنم ابنه مثل هذه الفرصة ليأكل ما أعد للضيوف ، أما الملبس فطالما سمع وهو ينشد :

يامن تلبس أثوابا يتيه بها — تيه الملوك على بعض المساكين
ما غير الجل أخلاق الحمير ولا — نقش البراذع أخلاق البراذين

وكان ثعلب أشد منه بخلا وحرصا على المال ٠

وقد روى الزبيدى أن أبا بكر بن عبد الملك قال : لولا انى آكره أن أكون عيابا للعلماء خاصة لأخبرتك عن المبرد وثعلب فى بخلهما من الأخبار التى تزيد على أخبار محمد بن الجهم البرمكى ، والكندى ، وخالد بن صفوان (تلك الشخصيات التى تناولها الجاحظ بالتحليل اللاذع فى كتابه « البخلاء ») ٠

وقيل فى وصفهما أيضا : ان المبرد كان يصرح بالطلب ، واما ثعلب فكان يلمح وكان من آثار تنافسهما فى تلاميذهما عدة مؤلفات منها :

ما ألفه ابن درستويه ، وما ألفه الزجاج فى الرد على ثعلب ٠

وما ألفه أحمد بن فارس وأبوبكر بن الأنبارى فى الانتصار لثعلب ٠

آراء المبرّد فى العلماء والأدباء

جاء فى « نزهة الالبا » أن المبرد قال :

كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الاصمعي فى النحو ، وكان ابو عبيدة أعلم من أبى زيد والأصمعى بالانساب والأيام والأخبار . وكان للأصمعى يد غراء فى اللغـــة لا يعرف فيها مثله ، ولا يعرف مثله ايضا فى كثرة الرواية .

وأنه قال أيضا :

كان أبو زيد عالما بالنحو ، ولم يكن مثل الخليل وسيبويه ، وكان يونس من أنداد أبى زيد فى العلم واللغات ، الا أن يونس كان أعلم بالنحو من أبى زيد .

وروى عنه أنه قال :

ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من أبى محمد التوزى . كان أعلم به من الرياشى والمازنى ، وكان اكثر من أبى عبيدة معمر بن المثنى . قال : وقد سأل التوزى عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير عن قول الفرزدق :

ومنا غداة الروح فتيان غارة   اذا متعت بعد الأكف الأشاجع

فلم يجب . ثم قال المبرد : متعت معنـــاها احمرت من الدم ، ومنه قولهم : نبيذ ماتع أى شديد الحمرة .

وقال جلال الدين السيوطى فى « المزهر » :

أخذ عن سيبويه وعن الأخفش رجل يعرف باسم الناشىء ، وقد وضع كتابا فى النحو لم يتمه وقد قال عنه المبرد : لو خرج علم الناشىء الى الناس لما تقدمه احد .

وروى الشريشى فى شرح مقامات الحريرى أن المبرد قال : كان الشافعى رضى الله عنه أشعر الناس ، وآدب الناس ، واعلمهم بالفقه والقراءات . ولقد أخبرنى بعض أصحابى أنه قد مات ولد لعبد الرحمن بن مهدى فكتب اليه الشافعى رضى الله عنه :

« يا أخى ، عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن امض المصائب فقـــد سرور ، وحرمان من أجر ، فكيف اذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ فتناول حظك يا أخى اذا قرب منك قبـــل أن تطلبه وقد نأى عنك . ألهمك الله عند المصائب صبرا ، واحرز لنا ولك بالصبر اجـــرا .

انى اعــزيك لا انى على ثقـــة
من الحيـــاة ولكن ســـنة الدين

فما المعزى ببـــاق بعـد ميتـه
ولا المعـزى ، وان عاشـــا الى حين

وفى كتاب « المضاف والمنسوب » للثعالبى أن المبرد قال :

ما رايت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب ابن السكيت فى المنطق . وابن السكيت من أئمة اللغـــة ، وكان يؤدب أولاد

المتوكل . قال أحمد بن أبي عبيدة : شاورني ابن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته ولكنه حمل ذلك على أنه حسد مني له ، واجاب الى ما دعي له من المنادمة . وكان يرى تقديم علي بن ابي طالب . وحدث أن كان في أحد الأيام ينادم المتوكل فحضر المعتز والمؤيد ابنا المتوكل ، فقال لابن السكيت : أيهما أحب اليك : ابناي هذان أم الحسن والحسين ؟ فغض ابن السكيت من ابنيه، وذكر الحسن والحسين بما هما أهله ، فغضب المتوكل وأمر الاتراك فداسوا بطنه ، ثم حمل الى داره حيث مات صبيحة اليوم التالي .

وجاء في « زهر الآداب » ان المبرد قال :

كانت الخنساء وليلى الأخيلية متقدمتين لأكثر الفحول ، وقلما رأيت امرأة تتقدم في صناعة وان قل ذلك فالجملة ما قال الله تعالى : « أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ».

ثم قال : ومن أحسن المراثي ما خلط فيه بين مدح وتفجع على المرثي ، فاذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجة معربة ، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين . وضرب مثلا للرثاء الكامل قول الخنساء ترثي أخاها صخرا :

ولولا كثرة البـاكين حولي ... على اخوانهـم لقتلت نفسي
وما يبكون مثـل اخي ، ولكن ... اعـزي النفس عنـه بالتأسي
يذكرني طلوع الشمس صخرا ... واذكره لكل غروب شـمس

وقال : انها تذكره أول النهار للغارة ، وآخره للأضياف .

وقيل ان احمد بن المعذل كان غاية في اللغة والأدب والبيان، وكان أخوه عبد الصمد بن المعـذل شاعر البصرة ، وكان كثير الهجاء للناس ولأخيه احمد ، حتى لقد كان أخوه يقـول له :

« أنت كالأصبع الزائدة ان تركت شانت ، وان قطعت آلمت »
وعبد الصمد هذا هو الذى تنسب اليه الأبيات التى قيلت فى قبيلة ثمالة والتى نسبها بعض الناس الى المبرد نفسه وقد تحدث المبرد عن عبد الصمد وأخيه أحمد فقال :

كان أحمد بن المعذل من الأبهة والتمسك بالمنهج ، والتجنب للعبث وترك التعرض لما فى أيدى الناس زهدا فيه على غاية . وقد حمل فقها وأدبا من أهل البصرة فأخذ الصلة غير متمنع ولا منكر . ووصله اسحاق بن ابراهيم فقبل الصلة واستدعى أخاه عبد الصمد فأبى بل قال فيه :

عذيرى من أخ قد كان يبدى	على من لابس السلطان عتبه
وكان ينمهم ، فى كل يوم	له بالجهل والهذيان خطبه
فلما أن أتته دريهمات	من السلطان باع بهن ربه

وقال المبرد فى شعر أبى العتاهية :

كان يخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا . وكان المبرد يعظم كتاب سيبويه ايما تعظيم ، ولهذا كان يقول لكل من يريد أن يقراه عليه : هل ركبت البحر ؟ تعظيما لهذا الكتاب غير أن تعظيمه له لم يمنعه من نقده فى كتاب سماه « نقد كتاب سيبويه » ورد عليه ابن ولاد فى كتاب سماه « الانتصار » .

وجاء فى « ذيل زهر الآداب » أن المبرد وصف أبا شراعة الشاعر فقال :

كان أبو شراعة حليما ، مألوفا ، جميل الخلق ، كريم العشرة . وكان يقول من الشعر ما يجانب به مذاهب المحدثين، ويقترف طريق الماضين وأهل البادية . فشعره عربى محض .

وجاء فى الذيل ايضا أن المبرد حدث أن أستاذه أبا عمر الجرمى قال له : قرأت ديوان الهذليين على الأصمعى ، وكان احفظ له من أبى عبيدة . وأنه كان يقول فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أى لا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا رايت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وجاء فى كتاب « طبقات النحاة واللغويين » لابن شهبة الاسدى أن المبرد قال عن اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل ابن حماد مؤلف كتاب أحكام القرآن : انه أعلم منى بالتصريف .

بعض اراء المبرّد
فى النقد واللغة والنحو

فى ثنايا كتب السلف آراء للمبرد يفهم منها مستقصيها ما كان يتمتع به المبرد من براعة فى النحو واللغة ، ومن ذوق رفيع فى النقد الأدبى البناء ، هذا فوق كتبه العديدة وما تضمنته من جوانب الفكر والمعرفة ، وان كان لم يصل الينا منها الا القليل مما ذكر المؤرخون له ، مثل ابن النديم وياقوت والانبارى ، أنه قد الفه .

وقد اخترنا من ثنايا الكتب التى راجعناها لدراسة حياته وأدبه طائفة من الآراء هى التى نعرض لها هنا :

– قال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » :

« اذن » الناصبة للمضارع تبدل نونها ألفا عند الوقف عليها تشبيها لها بتنوين الاسم المنصوب . أما المازنى والمبرد فقد قالا : يوقف عليها بالنون لأنها مثل نون أن ولن ثم قال ابن هشام : والجمهور يكتبونها بالألف ، وكذا رسمت فى المصاحف ، ولكن المازنى والمبرد يكتبانها بالنون . أما الفراء فقال : ان عملت

كتبت بالألف ، والا كتبت بالنون للتفريق بينها وبين اذا (يعنى الظرفية والفجائية) .

— عند التعرض فى شرح المعلقات لقول زهير فى الحرب :

فتنتج لكم غلمان أشأم ، كلهم كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

قال التبريزى : ان الأعلم الشنتمرى يرى أن الشاعر أخطأ ، وكان الصواب أن يقول كأحمر ثمود . وقال آخرون لم يغلط الشاعر ولكنه جعل عادا مكان ثمود اتساعا ومجازا . وقال ثعلب فى شرح شعر زهير : أراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، وهو عاقر الناقة قدار بن سالف .

أما أبو العباس المبرد فقد قال : هذا ليس بغلط لأن ثمود يقال لها عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى ، والدليل على هذا قول الله تعالى فى قوم ثمود : « وأنه أهلك عادا الأولى ».

— وروى السيد المرتضى فى أماليه أن المبرد قال :

مما يفضل لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيد ، وبعده عن الاستعانة قول أبى حية النميرى :

رمتنى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم

ثم قال : ان الشاعر يقول : أصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرميت كما رمت ، وقتلت كما قتلت ، ولكن عهدى قد تطاول بالشباب . وهذا كلام واضح . ثم فسر الاستعانة فقال معناها أن يدخل فى الكلام ما لا حاجة بالمستمع اليه ليصحح وزنا أو يقيم نظما .

وعقب المرتضى على ذلك بأن البيتين اللذين نسبهما المبرد الى أبى حية هما لنصيب .

ـ ومن قواعد النقد التى وضعها قوله : « من أحسن المراثى ما خلط فيه بين مدح وتفجع على المرثى ، فاذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجة معربة ، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين » .

ـ روى الشريشى أن حسن التقسيم ذكر فى مجلس المبرد فقال : لم أسمع أحسن تقسيما مما ورد لقيس بن ذريح اذ قال :

وقد كان فيها للأمانة موضع　　وللكف مرتاد ، وللعين مرتع

ثم قال : ان حسن التقسيم ان يستقصى الشاعر تفصيل ما بدأ به فيستوعبه فلا يغادر قسما يقتضيه الا أورده .

ـ من أقوال المبرد فى « الكامل » :

« ليس بقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان الدهر يهضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه » .

وقد روى الشريشى عنه هذا ثم قال : ان هذا الذى قاله المبرد رأى جيد وهو الحق .

ـ وقال الامام الموصلى فى كتابه « المثل السائر » :

يحكى أن المبرد قال :

« ليس احد في زماني : الا وهو يسألنى عن مشكل فى معانى القرآن ، أو مشكل من معانى الحديث ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية . فانا بهذا امام الناس فى زمانى . ولكن اذا عرضت لى حاجة الى بعض اخوانى وأردت أن أكتب اليه شيئا فى أمرها أحجم ، لانى ارتب المعنى فى نفسى ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع » .

وقال الموصلي تعقيبا على ذلك :

« ان المبرد بهذا يفرق بين العلم والكتابة ، ويشير الى أن الانسان قد يقع له المعنى الشريف ، ويعجز عن اختيار الألفاظ الملائمة لشرف هذا المعنى » .

ـ وقال الآمدى فى كتاب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» ان المبرد أنشد للعتبى قوله :

اضحت بخدى للدموع رسوم أسفا عليك ، وفى الفؤاد كلوم
والصبر يحسن فى المواطن كلها الا عليك فانه مذموم

ثم قال ان ابا تمام أخذ هذا المعنى فقال فى رثاء ادريس ابن بدر الشامى :

دموع اجابت داعى الحزن همع
توصل منا عن قلوب تقطع

وقد كان يدعى لابس الصبر حازما
فاصبح يدعى حازما حين يجزع

ثم قال ان أبا تمام عاد فجاء بهذا المعنى فى موضع آخر اذ قال :

الصبر اجمل غير ان تلذذى
فى الحب احرى ان يكون جميلا

ـ وجاء فى « صبح الأعشى » للقلقشندى أن الجرجانى حكى ان الكندى المتفلسف ركب الى أبى العباس المبرد وقال له : انى اجد فى كلام العرب حشوا . قال المبرد : فى أى موضع ؟ قال الكندى : يقولون مثلا : عبد الله قائم ، ويقولون : ان

عبد الله قائم ، ويقولون : ان عبد الله لقائم . فالالفاظ متكررة والمعنى واحد .

فقال أبو العباس المبرد : لا ، ليس المعنى واحـــدا ، بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : عبد الله قائم اخبـــار عن قيامه ، وقولهم : ان عبد الله قائم جواب على سؤال (أى اجابة عن شك فى قيامه) ، وقولهم : ان عبد الله لقائم جواب على انكار منكر لقيامه .

ـ وفى « أمالى الزجاج » ان نفطويه روى أن ابن الأعرابى قال : ان الصبر من معانيه الاجتراء على الشيء ، ومنـــه قوله تعالى : « فما أصبرهم على النـــار » قال نفطويه ولكن المبرد قال : ان تأويله : ما الشيء الذى دعاهم الى الصبر عليها ؟ .

وفحـوى ذلك أن ابن الاعـــرابى يرى أن « ما » تعجبية ولهذا ذهب الى أن الصبر بمعنى الاجتراء ، أما المبرد فيرى أن « ما » استفهامية فيكون الصبر فى معناه المتعارف عليه وهو الاحتمـــال .

ـ حدث محمد بن عبد الله الكاتب قال : كنت عند المبرد يوما فأنشدنا :

جسمى معى غير ان الروح عندكم
فالجسم فى غربة ، والروح فى وطن

فليعجب النــاس منى ان لى بدنا
لا روح فيــه ، ولى روح بلا بدن

ثم قال : ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هـــذا . قلت : ولا قول الآخر ؟ قال : هيه . قلت : الذى يقول :

فارقتم وحييت بعــــدكم ما هــــكذا كان الذى يجب
فالآن القى الناس معتـــذرا من ان أعيش وأنتـــم غيب

قال : ولا هذا . قلت : ولا قول خالد الكاتب :

روحان لى : روح تضـــمنها بلد ، وأخـــرى حازها بلد
وأظـــن غائبتى كشاهدتى بمكانها تجـــد الذى أجـــد

قال : ولا هذا . قلت : أنت اذا هويت شيئا ملت اليه . ولم تعدل الى غيره ، قال : لا ، ولكنه الحق . فأتيت ثعلبا فأخبرته فقال ثعلب : ألا أنشدته ؟

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظر العـــين له فيـــا
بأى وجــــه أتلقـــاهم اذا رأونى بعـــدهم حيـــا
يا خجلتى منهم ، ومن قولهم ما ضرك الفقـــد لنا شـــيا

قال : ورأيت ابراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته ؟

يا حيائى ممن أحب اذا مـــا قلت بعد الفـــراق انى حييت
لو صدقت الهوى حبيبا على الصحة لما ناى لكنت أموت

قال : فرجعت الى المبرد فقال : أستغفر الله ، الا هذين البيتين يعنى بيتى ابراهيم .

– وقرأ الدكتور زكى مبـــارك قول الرواة ان المبـــرد كان يستجيد هذين البيتين :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح
اباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح؟

فقال انى ما زلت بعد ذلك أرددهما ، وأتغنى بهما .

وروى الزبيدى أن أبابكر بن عبد الملك قال : قال جدى سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول : النعم : الابل خاصة . وان كان معها بقر أو شاء أو كلاهما قيل لجميع ذلك نعم لاتصاله بالنعم . فان أفردت الشاة أو البقر لم يقل لشىء منها نعم . وأنشد للأخطل ما يؤيد قوله :

فيوم منك خير من أناس كثير عندهم نعم وشاء

قال : ونظير ذلك كلمة قوم ، انما يقال ذلك للرجال ، فان كان معهم نساء قلت قوم ، وان انفردن لم يقل لهن قوم . قال الله عز وجل : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » وأنشد لزهير :

وما أدرى ولست اخال أدرى
أقوم آل حصن ام نساء

وذكر التاريخى أنه سمع ذلك فاستحسنه ، وأن أبا محمد المغربى حضر فاستحسن الشرح ، وقبل رأس المبرد (تعظيما له).

وقال أبو بكر بن يحيى المنجم : سئل أبو اسحاق الزجاج فى مجلس العباس بن الحسن عن ذلك فقال كما قال المبرد . فقال يحيى بن على : يقال ذلك للرجال والنساء ، واحتج بقول الله عز وجل « كذبت قوم نوح المرسلين » وقال : كذبت النساء والرجال فقال الزجاج : لعل زهير بن أبى سلمى أخطأ ، وأنشد البيت ، فضحك كل من فى المجلس وضحك معهم العباس . فقال يحيى :احتججت بالقرآن فلم يقبل منى ، واحتج خصمى بقول زهير فقبل قوله . فقال الزجاج : فى القرآن شاهد أبين من شاهدى . فقال : وما هو ؟ فقال : « لا يسخر قوم من قوم

عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » فقال يحيى : نعم .

ــ ومن المأثور عنه قوله فى وصف كلام العرب :

« من كلام العرب الاختصار المفهم ، والاطناب المفخم . وقد يقع الايماء الى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه فهو كما قيل لمحة دالة » . ثم قال : ومن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف ، قول الحطيئة :

وذاك فتى ان تأته فى صنيعة الى ماله لم تأته بشفيع

وقول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى اغشى الوغى ، واعف عند المغنم

ــ قال المرزبانى فى كتابه « الموشح » : حدثنى عبد الله بن أحمد أن المبرد روى قول الأعشى :

وتبرد برد رداء العروس فى الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحا بها الكلب الا هريرا

ثم قال : هذا كلام مقبول ومستحسن الا انه أتى به فى بيتين وطول الخطاب ، وأجود منه قول طرفة بن العبد :

تطرد البرد بحر ساخن وعكيك القيظ ان جاء بقر

فقول طرفة أجمع وأخصر .

وروى المرزبانى أيضا أن ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوى أخبره أن محمد بن يزيد المبرد قال : أخطأ محمد بن يسير فى قوله :

ولو قنعت اتانى الرزق فى دعة ان القنوع الغنى، لا كثرة المال

وذلك لأن القنوع انما هو السؤال ، والقانع هو السائل ، ومنه قول الله تبارك وتعالى « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » . فالمعتر هو الذى يتعرض للسؤال ولا يسأل (أى كأنه يراه عارا يتحرج منه) ، والقانع هو الذى يسأل . يقال : قنع يقنع (بفتح النون فيهما) قنوعا اذا سأل فهو قانع لا غير ، واذا رضى قيل قنع (بكسر النون) يقنع (بفتح النون) قناعة فهو قنع وقانع جميعا .

– وقال الحريرى فى « درة الغواص » :

« يقولون : « ادخل باللص السجن » فيغلطون فيه ، والصواب أن يقال : أدخل اللص السجن ، أو دخل به . لأن الفعل يعدى تارة بهمزة النقل كقولك خرج واخرجته ، وتارة بالباء كقولك خرج وخرجت به . فأما الجمع بينهما فممتنع فى الكلام ، كما لا يجمع بين حرفى استفهام » .

ثم قال الحريرى بعد ذلك : وقد اختلف النحويون هل بين حرفى التعدية فرق أم لا ؟ وقال الأكثرون أنهما بمعنى واحد . ولكن المبرد قال : بل بينهما فرق ، وهو انك اذا قلت : أخرجت زيدا كان بمعنى انك حملته على الخروج ، واذا قلت : خرجت به كان بمعنى انك خرجت واستصحبته معك . ووافق المبرد على هذا جماعة منهم السهيلى .

– الكوفيون يجيزون العطف على الضمير المجرور بدون تكرير حرف الجر ، أما البصريون فيرون أن شرط جوازه تكرير حرف الجر ، فيقولون : مررت بك وبزيد ، ولهذا لحنوا حمزة فى قراءة « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (بجر

كلمة الأرحام عطفا على الضمير فى به) والمبرد ينكر عليه هذا حتى لقد قال : لو أنى صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتى .

ـ وقال الحريرى : من أوهام الخواص قولهم : تبريت من فلان بمعنى برئت منه فيخطئون فيه لأن معنى تبريت تعرضت . أما ما هو بمعنى البراءة فيقال تبرأت كما جاء فى التنزيل « تبرأنا اليك » .

ويقول الشهاب الخفاجي فى شرح درة الغواص : ان المبرد قال فى « المقتضب » : اعلم أن قوما من النحويين يرون ابدال الهمزة من غير علة جائزا ، فيجيزون : قريت واجتريت فى معنى قرأت واجترأت ، وهذا القول لا وجه له عند أحد ممن تصح معرفته ، فلا رسم له عند العرب . ثم يقول الشهاب الخفاجي : الذى أنكره المبرد ذكره بعضهم على أنه لغة لبعض العرب .

ـ وقال الحريرى : ان النحاة والمفسرين قد اختلفوا فى قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » والاختلاف يدور حول اضافة قروء وهو جمع الكثرة الى ثلاثة فى حين كان الأولى أن يقال : ثلاثة أقراء .

وقال الشهاب الخفاجي ، فى هذه الآية أربعة أوجه :

الأول : أنه لما جمع المطلقات جمع القروء لأن كل مطلقة تتربص ثلاثة أقراء فصارت كثرة بهذا الاعتبار .

الثانى : أنه من باب الاتساع ، ووضع أحد الجمعين موضع الآخر .

الثالث : أن قروء جمع قرء (بفتح القاف) فلو جاء على أقراء لجاء على غير قياس لأن وزن افعال لا يطرد فى وزن فعل بفتح الفاء .

الرابع : وهو مذهب المبرد ، أن التقدير ثلاثة من قروء فحذف من (الدالة على التبعيض) .

– روى المرزباني في كتاب « الموشح » أن الأخفش قال : أخبرني المبرد أن سليمان بن عبد الله بن طاهر أنشده لنفسه قوله :

... ... وقد مضت لى عشرونان ثنتان

قال المبرد فقلت له : أيها الأمير هذا لحن لأن اعرابا لا يدخل على اعراب . نقول : والذى يعنيه المبرد أن كلمة « عشرون » ملحق بجمع المذكر فيرفع بالواو ، وعند تثنيته يرفع بالألف فيجتمع فى كلمة واحدة اعرابان ، وهذا لا يجوز .

– وروى الثعالبى فى كتابه « ثمار القلوب » أن المبرد فسر مزامير داود بأنها ألحانهم .

ومن الشواهد التى أوردها كتاب الضرائر للألوسى فى باب وضع الكلام فى غير موضعه قول مرار الفقعسى :

صددت فاطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يطول

وموضع الخلاف وقوع الاسم بعد قلما ، وفيه أقوال لخصها ابن هشام فى « المغنى » ومجمل تلخيصه : أن سيبويه قال : ضرورة ، ووجه الضرورة أن حقها أن يليها الفعل صريحا ، والشاعر أولاها فعلا مقدرا ، فكلمة وصال مرفوعة بفعل محذوف تقديره يطول مفسر بالمذكور وقيل وجه الضرورة أنه قدم الفاعل ، ورد ابن السيد بأن البصريين لا يجيزون تقدم الفاعل فى شعر أو نثر . أما المبرد فانه قال : وصال فاعل قل المتصلة بما ، وما زائدة . واختار أبو على الفارسى مذهب المبرد وأيده لأنه – كما يبدو لنا – واضح ، وبعيد عن تكلف التأويل وتلمس الأسباب .

ـ ومن شواهد « الكافية » التى شرحها عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب » قول الشاعر :

أبالموت الذى لابـــد أنى مـلاق ـ لا أباك ـ تخـــوفينى

قال أبو على الفـــارسى : تخـــوفينى أراد تخوفينننى فحذف احدى النونين • ووضح المبرد قول أبى على وفصله فقال : حذف النون الثانية وهذا أولى ، لأن هذه النون زيدت مع ياء المخاطبـة لتقى الفعل من الكسرة ، أما الاولى فهى علامة الرفع •

ومن شواهد « الكافية » أيضا :

مشائيم ، ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعبا الا ببين غرابهـــا

قال سيبويه : يجوز نصب ناعبـــا بالعطف على مصلحين المنصوبة (لأنها خبر ليس) ويجوز الجر بالعطف على مصلحين بعد توهم الباء الزائدة فى خبر ليس ، والتقـــدير ليسوا بمصلحين ولا ناعب •

وقال المبرد : لا يجوز الا النصـــب ، وأما حرف الجر فانه لا يضمر ، وقد سبق أنه أعلن تبرمه بالتوهم ، ووازن عبد القادر البغدادى بين الرأيين فأيد رأى المبرد ، وقال : قـــد بين سيبويه ضعفه وبعده ، مع أخذه من العرب •

ـ أجاز المبرد أن تعمل ان النـــافية عمل ليس ، واستشهد بقول الشاعر :

ان هو مســتوليا على أحد الا على اضـعف المجانين

واعتبر الضمير (هو) اسم ان العاملة عمل ليس ، ومستوليا خبرها ، ووافقه الكسائى أما سيبويه والفراء فقد قالا يرفع خبرها لأنها لا تعمل كما أن ما التميمية لا تعمل •

وعبد القادر البغدادى يؤيد رأى المبرد والكسائى ، ويقول أنه سمع من أهل العالية (١) « ان أحد خيرا من أحد الابالعافية »

ـ ومن الشواهد التى كثر الجدل حولها قول الشاعر :

طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبنا ان ليس حين بقاء

يقول المبرد ، ويوافقه السيرافى ، أصله ولات أوان طلبوا ، فلما حذفت الجملة بنى أوان على السكون أو الكسر ، ثم أبدل التنوين من المضاف اليه .

وقال الفراء ان لات تستعمل حرف جر لأسماء الزمان خاصة.

ودار حول هذا نقاش تناوله ابن هشام ، والأخفش ، والزجاج ، وغيرهم وكان الترجيح لرأى المبرد .

ـ وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن المبرد قال : ان من شعر أبى نواس الذى يذم قوله فى الرشيد :

واخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التى لم تخلق

فهذا الشعر بادى العوار جدا . ويعنى المبرد أن الشاعر خلع على ممدوحه صفة من الصفات التى تفرد بها الخالق وحده . وهذه مبالغة ممقوتة .. ثم ان الشاعر عاد فكرر هذا المعنى البغيض فى مكان آخر اذ قال :

هارون ألفنا ائتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

---

(١) العالية عالية الحجاز وهى ارض واسعة سكنتها قريش ومن والاها من القبائل مثل بنى عامر واسد وغطفان وغيرهم .

فهـــو يرى أن الشاعر قـــد أسرف فى المبالغة حتى جعل المستحيل ممكنا اذ جعل للنطفة فى الرحم قلبـــا يحس بالفزع ، ويخفق خوفا من ممدوحه ٠

وروى المرزبانى أيضا أن المبرد خطأ أبا العتاهية فى قوله :

ولربمـــا سئل البخيـل الشى ء لا يســـوى فتيـــلا

وقال ان الصواب أن يقول لا يساوى من ساواه يساويه ٠ وأنه عاب على أبى نواس أنه لحن فى قوله :

فمـــا ضرها ألا تـكون لجرول ولا المزنى كعب ولا لزياد

وذلك أنه خفف ياء النسب فى قوله (المزنى) فى حشـــو الشعر (أى خلال كلمات البيت) وانما يجوز هذا فى القوافى ٠

ومن الشواهد الذى أوردها سيبويه فى « الكتاب » :

٠٠٠٠ ٠٠٠٠ وقد بدا هنك من المئزر

وهذا عجز بيت من أبيات للأقيشر الأسدى وكان قد سكر وعربد فبدت عورته فضحكت منه امرأته فقال :

تقول يا شيخ أما تستحى من شربك الخمر على المـــكبر
فقلت لو باكرت مشـــمولة صفرا كلون الفرس الأشـــقر
رحت وفى رجليك ما فيهمـــا وقد بدا هنـــك من المئزر

قال المبرد : انما الرواية : (وقد بدا ذاك من المئزر)

وفى معارضة المبرد لسيبويه فى هذا يقـــول ابن جنى فى كتابه « المحتسب » : انه لا يوافق على اعتراض المبرد ، ويقول : انه اعتراض على العرب الذين روى عنهم سيبويه الذى حكاه كما سمعه ، وحين يقول : « انما الرواية كذا » فكأنه قال لســـيبويه

كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيته عنهم ، واذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه ·

نقول وكلمة « هنك » تعني عورتك ، وهي كناية عن كل ما يقبح ذكره ، أو عن الشيء الذى لا يعرف اسمه ، أو غاب اسمه عن البال ، ولا تزال هذه الكلمة مستعملة بهذا المعنى فى بعض بلاد اقليمى جرجا وقنا من الديار المصرية · فكلمة « ذاك » كما يريدها المبرد اشارة الى العورة التى تعنيها « هنك » فالوزن واحد ، والمعنى واحد فى الحالين ·

– وقال ابن جنى فى « المحتسب » فى معرض القراءات الشاذة :

حكى أبو العباس محمد بن يزيد عن أبى عثمان عن أبى زيد قال : سمعت عمر بن عبيد يقرأ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جأن » فظننته قد لحن اذ أظهر همزة « جأن » الى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، ومأدة ، ودأبة فى موضع شابة ، ومادة ، ودابة ، وعليه قول كثير :

« ... ... اذا ما العوالى بالعبيط احمأرت »

– وروى المرزباني أن المبرد قال : عيب على الفرزدق قوله :

يا أخت ناجية بن سامة اننى أخشى عليك بنى ان طلبوا دمى

وقالوا : ما للمتغزل وذكر الأولاد والاحتجاج بطلب الثارات؟ هلا قال كما قال جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا ؟

من كل هذا يتجلى أن المبرد كان ذا ذوق رفيع فى الادب ، وكان ضليعا فى اللغة ، متبحرا فى النحو ، خلصت له زعامة طبقته

عن جدارة واستحقاق . وكان في نقده للشعر لا ينظر الى اللغة فحسب ، ولا الى النحو فحسب ولكنه ينظر اليهما معا ، ولا يغفل جانب المعنى وهذا هو منهج النقد السليم .

وكان جريئا فى نقده لا يتحرج من المجاهرة باظهار العيب فيما يسمع أو يقرأ ، ولو كان هذا الذى يسمعه أو يقرؤه لواحد من فطاحل الشعراء ، أو الادباء ، أو لواحد من شيوخه ومن يتلقى عنهم فقد نقد سيبويه مع أنه تلقى النحو عن «الكتاب» الذى صنعه سيبويه ، وكان تلاميذه يقرءونه عليه ، بل لقد روى ياقوت أنه نقد أبا عبيدة حين كان يروى عنه ، وذلك أن المبرد حكى أنه كان يوما عند أبى عبيدة فسأله رجل : كيف تقول : عنى بالأمر ؟ قال : هو كما قلت ، عنى بالأمر . فقال الرجل : وكيف آمر منه ؟ قال فغلط أبو عبيدة وقال : اعن بالامر . قال المبرد : فأومأت للرجل أن ليس كما قال . فرآنى ابو عبيدة فأمهلنى قليلا ، ثم قال : ما تصنع عندى ؟ قلت : ما يصنع غيرى . قال : لست كغيرك . قلت : ولم ؟ قال : لأنى رأيتك مع انسان خوزى سرق منى قطيفة . فانصرفت ، ثم تحملت عليه باخوانه فلما جئته قال لى : أدب نفسك أولا ، ثم تعلم الأدب .

قال المبرد : وصواب الامر من عنى أن يكون باللام لا يجوز غيرها ، تقول : ليعن بالامر لأنك تأمر غير من بحضرتك ، وأمر الغائب يكون بالمضارع المجزوم بلام الامر .

هكذا كان المبرد عبقريا لماحا جريئا فى الحق .

ـ قال الأزهرى فى تهذيب اللغة : يقول الله عز وجل « ارم ذات العماد » وقد سمعت المنذرى يروى عن المبرد أنه قال : رجل طويل العماد اذا كان معمدا أى طويلا ، وقوله تعالى : « ارم ذات العماد » أى ذات الطول .

وروى الازهرى أيضا أن المبرد قال : العتورة : الشدة فى الحرب ، وبنو عتورة سميت بهذا لقوتها ، وعتور اسم واد خشن . ثم قال : وقد جاء على فعول من الاسماء خروع ، وعتور وهو الوادى الخشن التربة ، وبنو عتورة كانوا أولى صبر وخشونة فى الحرب .

ـ روى صاحب « العقد الفريد » أن المبرد قال :

التمتمة فى المنطق هى التردد فى التاء ، والفأفأة التردد فى الفاء ، والعقلة هى التواء اللسان عند الكلام ، والحبسة تعـــذر الكلام عند ارادته ، واللفف ادخال حرف فى حرف ، والطمطمة أن يكون الـكلام مشبها لكلام العجم ، واللكنة أن تعترض عند الكلام اللغـة الأعجمية ، واللثغة أن يعـدل بحرف الى حرف (كأن ينطق السين ثاء ، أو الراء غينا) ، والغنـــــة أن يشرب الحرف صوت الخيشوم ، والخنة أشد منها ،والترخيم حذف حرف من الكلام (ومنه سمى المنادى المرخم أى الذى حذف حرفه الأخير) .

ـ وقال الشريشى :

ذكر معنى تعاوره البحترى وأبو تمام ، والبحترى حاضر ، فقال المبرد للبحترى : أنت فى هذا أشعر من أبى تمام . فقال البحترى : لا والله ذلك الرئيس الأســتـاذ ، والله ما أكلت الخبـز الا به .

ثم روى أن عبد الله بن الحسن سأل المبرد عن أبى تمـــام والبحترى ، أيهما أشعر فقال :

لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان ظريفة ، وجيده أجـود من شعر البحترى . وشعر البحترى أحسن استواء من شعره ، لأن البحترى يقول القصيدة كلها فتكون ســـليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد ، وما أشبهه الا بغائص يخرج

الدرة والمخشلبة وهي زجاجة توضع مكان الدرة • على أن لأبى تمام والبحترى ما لو قيس بأكثر شـــعر الاوائل ما وجدوا فيه مثله • وللبحترى بيتان لو ضما الى شعر زهير لجازا فيه ، وهما :

فما ســـفه السفيه وان تعدى بأنجع فيك من حلم الحـــليم
متى احفظت ذا كـــرم تخطى اليـــك ببعض افعـــال اللئيم

ثم أخذ المبرد فى هذا المجلس يروى من شعره فى مدح ابنى صاعد ، والفتح بن خاقان وقد نزل الى الاسد فقتله ، ويأخذ من هذا الشعر شواهد على أنه مقدم على نظرائه •

من أمالى المبرد ورواياته وفكاهاته

عرف المبرد بعذوبة الحديث ، وطلاقة اللسان ، وسلامة العبارة ، وحسن الفكاهة · ولهذا حرص الولاة والأمراء على استدعائه للمنادمة والمسامرة منذ حداثته · وكان أعرف الناس بأدب المجالسة حتى وصف بأنه « ملوكى المجالسة » ، ويفسر لنا هذا موقفه بين المتوكل والفتح بن خاقان يوم وقع الاختيار عليه ليكون حكما بينهما فى موضوع فتح همزة ان أو كسرها فى قوله تعالى « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » وقد أسلفنا قبل كيف أجاب الفتح بن خاقان ، وكيف لم يواجه الخليفة بأنه أخطأ بل قال « لأكثر الناس يقرءونها بالفتح » تلميحا الى أن أكثرهم على خطأ ، وعرفنا كيف غضب الفتح أولا ، ثم كيف أدرك أن الشيخ يلتزم جانب اللياقة فى خطاب الخليفة فاحتضنه واصطفاه ·

وكان العظماء الذين لا يظفرون به أنيسا ومسامرا يستنصحونه ليختار لهم من يراه يصلح لمنادمتهم ومسامرتهم · وقد روى الأخفش أن ابراهيم بن المدبر استهدى المبرد جليسا يجمع الى تأديب ولده الامتاع والمؤانسة فندبنى لذلك ، وكتب معى : « قد أنفذت اليك فلانا ، وجملة أمره أننى بعثت به وأنا أتمثل فيه قول الشاعر :

اذا زرت الملوك فان حسبى شـــفيعا عندهم ان يخبرونى

ولما عرف به من الظرف كان ظرفاء الأدباء يبـادلونه المفاكهة كلما سنحت فرصة للمفاكهة وقد روى الحصرى فى « ذيل زهر الآداب » أن سدابة المغنى قال لأبى العباس المبرد : صر الى اليـوم لنأنس بك ٠ قال : أى شىء آكل عندك ؟ فقال سدابة : أنت وأنا (يريد لحما مبردا عليه سداب وهو نوع من الأفاويه) ٠

وروى الحصرى كذلك ان برد الخيـــار لقى المبرد على الجسر فى يوم بارد فقال : انت المبرد ، وأنا برد الخيار ، واليوم بارد . أعبر بنا سريعا لئلا يصيب الناس الفالج .

وكانت حلاوة فكاهته تغلب عليه حتى فى ســـاعات حنقه وغضبه ، وقد سبق الاشارة الى قصة سلة الحلوى التى اغتصبها ابنه فتمثل لذلك بقول القائل : الناس فى غفلاتهم ...

وكان معلما بارعا عرف تلاميذه فضله وبراعته منذ قـدم بغداد حتى ان الذين ندبهم ثعلب ليفضوا مجلسه قد انحازوا اليه منذ أول لقاء وصار منهم أنبه العلماء شأنا من بعده مثل الزجاج والأخفش وغيرهما . كان يلتزم مع تلاميذه ومع رواد مجلس علمه أسلوبا تربويا هو روح ما وصـــل اليه فن التربيــة فى العصر الحديث ٠ كان اذا اراد أن يثبت فى اذهان من حوله بعض المعانى، أو اذا أراد أن يوجههم وجهة خاصـة . أو اذا أحس فيهم مللا ، أو اذا أدرك أن أذهانهم مكدودة عمد الى ذكر نادرة مليحة ، أو قصة فكهـــة ، أو نكتة بارعة ، أو رواية لطيفة وذلك ليشـــحذ أذهانهم ، ويعيد اليهم نشـــاطهم ، ويسترعى انتباههم ويجعلهم قادرين على استيعاب ما يلقى عليهم ، أو يقرءونه من العـلم والتحصيل .

من هنا كثرت أماليه ، ورواياته ، وفكاهاته ، وزخرت كتب

الأدب والتاريخ التى تحدثت عنه بكثير منها • وليته كان قد دونها لنا ووصلت الينا كمـــا وصلت مثلا أمالى الزجاج ، وأمالى ابن الشجرى ، وأمالى المرتضى وغـيرهم ، أو دونهـا لنا بعض تلاميذه لتصل الينا كاملة •

وسنعرض هنا ما تتسع له صفحات هذا الكتاب مما عثرنا عليه فى هذا الباب •

كان المبرد يروى لجلسـائه بعض ما يستجيده ، ومن ذلك الرواية التالية :

لما وصل المأمون الى بغداد قال ليحيى بن أكثم : وددت لو أنى وجدت رجلا مثل الأصمعى ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها فيصحبنى كما صحب الأصمعى الرشيد • فقال له يحيى : ها هنا شيخ يعرف هذه الأخبار يقال له عتاب بن ورقاء من بنى شيبان قال : فابعث لنا اليه • فلما حضر قال له يحيى : ان أمير المؤمنين يرغب فى حضورك مجلسه ومحادثته • فقال : أنا شيخ كبير ، ولا طاقة لى لأنه قد ذهب منى الأطيبان •

فقال له المأمون : لابد من ذلك •

فقال الشيخ : فاسمع يا أمير المؤمنين ما حضرنى :ـ

أبعد ستين أصبو ... والشيب للمرء حرب
شيب ، وسن واثم ... أمر لعمرك صعب
يابن الامام فهلا ... أيام عودى رطب
واذ مشيبى قليل ... ومنهل العيش عذب
فالآن لما راى بى ... عواذلى ما احبوا
آليت أشرب راحا ... ماحج لله ركب

فقال المأمون : ينبغى أن تكتب هذه الأبيات بالذهب ، وأعفى الشيخ ، وأمر له بجائزة •

ـ روى ياقوت أن المبرد قال : سمعت المازنى يقول : معنى « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » أى اذا صنعت مالا تخجل اذا عرف أنك فعلته فاصنع منه ما شئت ، وليس على ما يذهب العوام اليه (والعوام يفسرونه على أنه اذا لم يكن عندك حياء فافعل ما تشاء)٠

وروى ياقوت أيضا أن المبرد قال : حدثنى المازنى قال : مررت ببنى عقيل فاذا رجل أسود ، قصير ، أعور ، أبرص قائم على تل سماد يملأ جواليق معه من ذلك السماد وهو يغنى بأعلى صوته :

فان تصرمى حبلى ، وتستكرهى وصلى
فمثلك موجود ولن تجدى مثلى

فقلت صدقت والله ، ومتى تجد ويحك مثلك ؟ فقال : بارك الله عليك ، واسمع خيرا ، ثم اندفع ينشد :

يا ربة المطرف والخلخال ... ما أنت من همى ولا أشغالى
مثلك موجود ٠ ومثلى غالى

ـ جاء فى « نزهة الألباء » أن المبرد قال :

دخل الأصمعى على الرشيد بعد غيبة كانت منه فقال : يا أصمعى ، كيف أنت بعدنا ؟ فقال : مالاقتنى بعدك أرض يا أمير المؤمنين ٠ فتبسم الرشيد ٠ ولما خرج الناس قال : ما معنى قولك مالاقتنى أرض بعدك ؟ فقال : ما استقرت بى أرض فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى الناس الا بما أفهمه ، فاذا خلوت فعلمنى فانه يقبح بالسلطان ألا يكون عالما ٠ أما اذا كلمتنى بمالا أفهمه فلا يخلو اما أن أسكت أو أجيب ، فاذا سكت علم الناس أنى لا أعلم اذ لم أجب ، واذا أجبت بغير الجواب يعلم من حولى أنى لا أفهم ما قلت ٠ قال الأصمعى : فعلمنى الرشيد بذلك أكثر مما علمته ٠

ـ وذكر المبرد أن رجلا كان يألف حلقة الأصمعي ، وكلما صار الى ضيعته أهدى الى الأصمعي مما يحمل منها . وترك الرجل حلقة الأصمعي وألف حلقة أبي زيد ، وكان أبوزيد لا يقبل شيئا ، فمر الرجل يوما بالأصمعي فأنشده الأصمعي من قول الفرزدق :

ولج بك الهجـــران حتى كأنمــــا

ترى الموت في البيت الذى كنت تألف

وقال ابن خلكان :

كان المبرد كثير الأمالي ، حسن النوادر . فمما أملاه أن أبا جعفر المنصور ولى رجلا على العميان والأيتام والقواعد من النســاء اللاتي لا أزواج لهن . فدخل على هذا المتولى رجل ومعه ولده وقال : ان رأيت ـ أصلحك الله ـ أن تثبت اسمي مع القواعد . فقال له المتولى : القواعد نساء فـكيف أثبتك فيهن ؟ قال : ففي العميان ؟ قال . أما هذا فنعم فان الله تعالى يقول : انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصــدور . قال الرجل : وتثبت ولدى في الأيتام ؟ فقال : هذا أفعله أيضا فان من يكن أنت أباه فهو يتيم . ثم انصرف عنه وقد أثبته في العميان وولده في الأيتام .

وروى القفطي أن المبرد قال :

حضرت مجلس المتوكل وقد عمــل فيه النبيــــذ وبين يديــه أبو عبادة البحترى وهو ينشده قصيدة يمدحه فيها ، وبالقرب من البحترى أبو العنبس الصيمرى ، وكانت القصيدة التي ينشـــدها البحترى هي التي أولها :

من اى ثغــــر تبتســـم — وبأى طـــرف تحتكم

ويمضي فيها حتى يقول :

قل للخليفة جعفــر بــ — ن المتوكل بن المعتصـم
نلنا الهــدى بعد العمى — بك ، والغنى بعد العدم

فلما انتهى رجع القهقرى لينصرف ، فوثب أبو العنبس وقال : ياسيدى يا أمير المؤمنين تأمر برده ؟ فرده ، فقال أبو العنبس : قد عارضتك فى قصـــيدتك ، وكنت بحضرة أمير المؤمنين ، ثم اندفع ينشد قصيدته التى عارض بها قصيدته البحترى وكلها تهكم عليه وهجاء له .

فضحك المتوكل وضرب برجله اليسرى وقال : ادفعوا الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم . فقال الفتح بن خاقان : يا سيدى ، والبحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا ؟ فقال : يدفع له عشرة آلاف درهم . فقال الفتح : وهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده (يعنى المبرد) لا يشركهما فيما حصلاه ؟ فقال : يدفع له أيضا عشرة آلاف درهم . قال المبرد : فانصرفت ساعة الهزل بثلاثين ألف درهم ، ولم ينفع البحترى جـده ولا اجتهـــاده ولا تقدمه .

ـ وفى الأغانى أن الأخفش حدث أن المبرد قال :

نظر رجل الى يونس النحوى وهو يهادى(١) كبرا بين اثنين ، وكان الرجل يعاديه فقال : يا أبا عبـد الرحمن ، أبلغت ما أرى ؟ فعلم يونس أنه قال ذلك شامتا فقال له : هذا الذى كنت أرجو فلا بلغتـــه .

ثم قال المبرد : ان ابن الزيات أخذ هذا المعنى فقال :

وعائب عابنى بشيب لم يعد ، لما ألم ، وقته
فقلت اذ عابنى بشـيبى يا عائب الشيء لا بلغتـه

وفى الأغانى أيضا أن الأخفش قال :

حـــدث المبرد أنه كان لابن الزيات برذون أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا ، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ، ووصف له

---

(١) يهادى على البناء للمجهول اى يتمايل بفعل ضعف الشيخوخة .

فراهته . فبعث المعتصم اليه فأخذه منه ، فقال ابن الزيات أبياتا يرثيه فيها ومنها :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنا فودعنا الأشم الأشهب
دب الوشاة فابعدوك ، وربما بعد الفتى، وهو الأحب الأقرب
لله يوم نايت عنى ظاعنا وسلبت قربك،أى علق(١) اسلب
نفس مفرقة اقام فريقها ومضى لطيته فريق يجنب

ومما جاء في «الاغاني» كذلك أن المبرد قال :

دارت الأمطار بسرمن راى فتأخر الحسن بن وهب عند ابن الزيات الذى كان وزيرا والحسن يكتب له ، وأرسل ابن الزيات يستدعي الحسن فأجاب معتذرا :

أوجب العذر في تراخي اللقاء ما توالى من هذه الأنواء
لست أدرى ماذا اقول واشكو من سماء تعوقنى عن سماء
غير اني أدعو على تلك بالثكل ، وادعو لهذه بالبقاء
فسلام الله اهديه غضا لك منى يا سيد الوزراء

وفي «الاغاني» عن الأخفش أن المبرد حدثهم عن الشاعر أبي شراعة فقال :

كان أبو شراعة قبيح الوجه جدا فنظر يوما في المرآة فأطال ، ثم قال : الحمد لله الذى لا يحمد على الشر غيره .

ثم قال أيضا :

وكان أبو شراعة صديقا لابراهيم بن المدبر أيام تقلده البصرة، وكان ابن المدبر لا يفارقه في سائر أحواله ، ولا يمنعه حاجة يسأله اياها ، ولا يشفع لأحد الا شفعه . فلما عزل ابراهيم بن المدبر شيعه الناس ، وشيعه أبو شراعة فجعل يرد الناس حتى لم يبق

(١) العلق : النفيس الذى يعلق به القلب .

غيره ، فقـــال له : يا أبا شراعة غاية كل مودع الفراق ، فانصرف راشدا مكلوءا من غير قلى (١) والله ولا ملل · وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فعانقه أبو شراعة وبكى فأطال ، ثم أنشد :

يا أبا اســـحق سر في دعـــة   وامض مصحوبا فما منك خلف
ليت شـــعرى أى أرض أجدبت   فاغيثت بك من جهد العجف(٢)
انمـــا أنت ربيـــع باكر   حيثـــما صرفه الله انصرف

ـ وفي «زهر الآداب» أن المبرد روى قول شاعر لم يسمه في هجاء رجل يعرف بابن البعير :

يقولون ابنـــاء البعير ومالهم
سنام، ولا في ذروة المجد غارب(٣)
أظنت سفاها من ســـفاهة رأيهـا
بان أهجهـا لمـــا هجتني محارب
فلا وأبيهـــا انني بعشـــيرتي
ونفسي عن ذاك المقـــام لراغـــب

وفي «زهر الآداب» أيضـــا أن المبرد روى قول عمر بن أبى ربيعة :

طالمـا غربتم فاســـتقلوا   حان من نجم الثريا طلوع

ثم قال : « حان من نجم الثريا طلوع » كناية ، فهو انما يريد الثريا بنت على بن عبد الله ، وكانت موصوفة بالجمال ، وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وانتقل بها الى مصر ، وفي ذلك يقول عمر ، وقد ضرب لهما المثل بالنجمين :

(١) قلى : هجر
(٢) العجف : الجدب
(٣) غارب : هو مابين الظهر او السنام والعنق ·

أيها المنكح الثريا سهيلا حسبك الله كيف يلتقيان ؟
هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يماني

ـ وروى الأصفهاني أن أحمد بن عبد الله بن عمار حدثه فقال:

كنا يوما عند المبرد وعنده فتى من ولد أبي البخترى (الشاعر العالم الذى كان يتولى انقضاء بعسكر الخليفة المهدى) ، وفتى من ولد أبى دلف العجلى (المشهور بالشجاعة والكرم) فقال المبرد لابن أبى البخترى : أعرف لجدك قصة ظريفة فى الكرم ، حسنة لم يسبق اليها ، فقال الفتى : وما هى ؟ قال المبرد : دعى رجل من أهل الأدب الى بعض المواضع فسقوه نبيذا غير الذى كانوا يشربون منه ، فقال فيهم :

نبيذان فى مجلس واحد لايثار مثر على مقتر !
فلو كان فعلك ذا فى الطعا م لزمت قياسك فى المسكر
ولو كنت تطلب شأو الكرا م صنعت صنيع أبى البخترى
تتبع اخوانه فى البلا د فاغنى المقل عن المكثر

فلما بلغت الأبيات أبا البخترى بعث اليه بثلثمائة دينار ·

قال ابن عمار : فقلت للمبرد قد فعل جد هذا الفتى (يعنى ولد أبى دلف) فى مثل هذا المعنى ما هو أحسن من هذا · قال : وما فعل ؟ قلت : بلغه أن رجلا افتقر بعد ثروة فقالت له امرأته : افترض فى الجيش(١) · فقال :

اليك عنى فقد كلفتنى شططا
حمل السلاح، وقول الدارعين(٢) قف

(١) انضم الى صفوف الجيش فيفرض لك عطاء
(٢) الدارعين : اللابسين دروعا

امن رجال المنايا خلتني رجلا
امسي واصبح مشتاقا الى التلف
تمشي المنايا الى غيري فاكرهها
فكيف امشي اليها بارز الكتف
حسبت أن نزال القرن (١) من خلقي
لو ان قلبي في جنبي ابي دلف

وحين بلغت الابيات أبا دلف أحضره ، ثم قال له : كم أملت امرأتك أن يكون رزقك ؟ قال : مائة دينار • قال : وكم أملت أن تعيش ؟ قال : عشرين عاما . قال : فلك ما أملت به امرأتك في مالنا دون مال السلطان ، وأمر باعطائه اياه •

قال ابن عمار : فرأيت وجه ولد أبي دلف يتهلل ، وانكسر ابن أبي البختري • وعلق الحصري على رواية الأصفهاني فقال : ان الأبيات التي رواها ابن عمار في أبي دلف ولم ينسبها هي لأحمد ابن أبي العيناء الشاعر المجيد الذي شهر من شعره قوله :

ولما أبت عيناي ان تملكا البكا
وان تحبسا سح الدموع السواكب
تثاءبت كي لا ينكر الدمع منكر
ولكن قليلا ما يفيد التثاؤب
فقد عرضتماني للهوى ونممتما
علي ، لبئس الصاحبان لصاحب

ولكن هذا الشعر لا يخلو من عيب في قافيته •

---

(١) البطل •

ـ ومما استحسنه ابن خلكان ورواه فى « وفيـــات الأعيان » ما رواه المبرد فى « الـكامل » اذ قال :

ان الحجاج الثقفى لمـا ولى تميم بن زيد القينى بلاد السند دخل البصرة فجعل يخرج من أهلها من شاء ، فجـاءت عجوز الى الفرزدق الشاعر فقالت له : انى استجرت بقبر أبيك وأتيت منه بحصيات(١) فقال : ما شأنك ؟ قالت : ان تميم بن زيد خرج بابن لى معه ، ولا قرة لعينى ولا كاسب لى غيره . فقال لها : وما اسم ابنك ؟ قالت : خنيس فكتب الى تميم :

تميم بن زيـد لا تـكونن حاجتى
بظهر فلا(٢) يعيـــا على جوابهـــا
فهب لى خنيسا ، واحتسب فيه منة
لعبرة أم ما يســـوغ شرابهـــا
أتتنى فعــاذت يا تميم بغــالب
وبالحفرة السافى عليها ترابهـــا
وقـــد عـــلم الأقوام انك ماجد
وليث اذا ما الحرب شبت شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشـكك فى الاسـم أهو خنيس أم حبيش فقال : انظروا من له هذا الاسم فى عسكرنا ، فأصيب ستـة ما بين خنيس وحبيش فوجه بهم جميعاً اليه .

ـ وفى « العقد الفريد » وفى غرر الخصائص » أن المبرد قال : خرجنا من بغداد الى واسط فملنا الى دير هرقل ننظر الى المجانين ، فنظرنا الى فتى منهم فملنا اليه ، وسلمنا عليه فلم يرد الســلام . فقلت له : ما تجد ؟ قال :

---

(١) مفردها حصية تصغير حصوة .
(٢) الفلا ، والفلاة : الصحراء ، وبظهر اى مطروحة مهملة .

الله يعـــلم أنني كمـــد لا أستطيع ابث ما أجـــد
روحان لى : روح تضمنهـا بلد ، واخرى حازهـا بلد
وارى المقيمة ليس ينفعهـا صبر ، وليس يقوتها جـلد
واظن غائبتى كشـاهـدتى بمكانها تجد الذى أجـــد

فقلت : أحسنت . فأومأ الى شيء ليرمينا به فولينا هاربين .
فقال : سألتكم بالله ألا رجعتم حتى أنشـدكم ، فان أحسنت فقولوا أحسنت ، وان أسأت فقولوا أسأت . فرجعنا فقلنا له : قل . فقال :

لمـا أناخوا قبيل الصبح عيسـهم(١)
ورحلوها وسـارت بالدمى(٢) الابل
وقلبت من خلال السجف(٣) ناظرها
ترنو الى ودمـع العـين ينهمـل
وودعت ببنـان زانهـا عنـم(٤)
ناديت : لا حملت رجـلاك يا جمل
ويلى من البين ويل حل بى وبها
من نازل البين حان البـين فارتحلوا
يا حادى العيس عـرج كى نودعهم
يا راحل العيس فى ترحالـك الأجـل
انى على العهـد لم انقض مودتهم
يا ليت شعرى لطول العهد ما فعلوا ؟

قال المبرد : فقلنا له ماتوا ، فصـاح قائلا : انا لله وانا اليـه

---

(١) العيس : الابل
(٢) الدمى : جمع دمية ، ويعنى بها معشوقته الجميلة .
(٣) السجف : الستائر .
(٤) العنم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوبة ، والواحدة : العنمة والبنان : الاصبع .

راجعون ، وأنا والله أموت • واستلقى على ظهره وتمدد ، ومن عجب أنه مات فعلا ، فلم نبرح حتى دفناه رحمة الله عليه •

وهكذا يرويها ابن كثير فى « البداية والنهاية » مع اختلاف يسير •

ـ وروى « العقد الفريد » أن المبرد قال :

دخلنا في احدى المرات دير هرقل فاذا بمجنون في يده حجر ، وقد تفرق الناس عنه ، وهو يقول : يا معشر اخوانى اسمعوا منى • ثم أنشأ يقول :

وذى نفس صاعد يئن بلا عائد
يكر على جحفل ويضعف عن واحد (١)

روى ابن رشيق ان المبرد قال ان الناس سمعوا منشدا ينشد قول عمارة بن عقيل :

أأترك ان قلت دراهم خالد
زيارته ؟ انى اذن للئيم

وعرف المأمون ذلك فقال : أو قلت دراهم خالد ؟ احملوا اليه مائتى ألف درهم ، فلما وصلت الدراهم خالد بن زيد دعا بعمارة وقال له : هذا مطر من سحابك ، ودفع اليه عشرين الف درهم •

ـ وجاء في « الأغانى » أن المبرد قال :

بلغنى من غير وجه أن الرشيد لما ضرب أبا العتاهية وحبسه وكل به صاحب خبر يكتب اليه بكل ما يسمعه منه • فكتب اليه أنه سمعه ينشد :

---

(١) يعنى بالواحد معشوقته . والجحفل الجيش.

اما والله ان الظـــلم لـــؤم　　وما زال المسيء هو الظـــلوم
الى ديان يـــوم الدين نمضى　　وعنـــد الله تجتمع الخصوم

قال : فبكى الرشيد ، وأمر باحضار أبى العتاهيـــة ثم أطلقه وأمر له بألفى دينار ٠

ـ وفى أمالى المرتضى ، وشرح مقامات الحـــريرى للشريشى أن المبرد حدث فقـــال : كان بالبصرة طفيلى مشهور ، وكـان ذا أدب وظرف ٠ فمر بسكة النخع بالبصرة على قوم عندهم وليمـــة فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلسه مع من دعى ٠ فأنكره صاحب المنزل وقال له : لو تأنيت يا هذا قبل الدخول حتى يؤذن لك لـكان أحسن لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجل لمروءتك ٠ فقـــال الطفيلى : انمـــا اتخذت البيوت ليدخل فيها ، ووضعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة قطيعة ، واطراحها صلة . وقد جاء فى الآثار : صل من قطعك، وأعط من منعك ، وأحسن الى من أساء اليك .

ـ وجاء فى النجوم الزاهرة أن المبرد قال :

دخل رجل على الشافعى فقال : أن اصحاب أبى حنيفـــة لفصحاء فأنشأ الشافعى يقول :

فلولا الشعر بالعلماء يزرى　　لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع فى الوغى من كل ليث　　وآل مهـــلب وأبى يزيـد
ولولا خشـــية الرحمن ربى　　حسبت الناس كلهم عبيـدى

ـ وفى النجوم الزاهرة أيضا أن الأخفش روى أن المبـرد قال لهم : سألت أبا الفضل الرياشى عن معنى قول الشاعر :

الريح تبـكى شجوها　　والبرق يلمع فى الغمامة

فقال : هو عندى كقولهم : « ويل للشجى من الخلى » أى أنه مثل

يحكى كما سمع • ويعنى أن البرق يضحك ، والريح تبكى فضربه مثلا لنفسه • ثم قال المبرد : وغير الرياشى يرى أن الريح تبكى والبرق يبكى فى حال كونه لامعا فى الغمامة ، فجملة يلمع حال وليست خبرا •

ـ وجاء فى أمالى المرتضى أن المبرد روى أن سعيد بن سلم قال : مدحنى أعرابى ببيتين لم أسمع أحسن منهما وهما :

أيا ساريا بالليل لا تخش ضلة　　سعيد بن سلم ضوء كل مكان
لنا مقرم أربى على كل مقرم(١)　　جواد حشا فى وجه كل جواد

قال : ولكننى أغفلت صلته فهجانى ببيتين لم أسمع أهجى منهما وهما :

لكل أخى مدح ثواب علمته　　وليس لمدح الباهلى ثواب
مدحت ابن سلم والمديح لهزه　　فكان كصفوان عليه تراب

ـ وفى أمالى الزجاج أن المبرد قال :

أثبتت الروايات والأخبار أن ليلى الأخيلية لم تكن امرأة توبة بن الحمير ولم تكن أخته ولا كان بينهما نسب شابك الا أنهما كانا جميعا من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكان يحبها وتحبه ، فأقاما على حب عفيف دهرا ، وتلك السنة فى عشاق بنى عذرة وغيرهم ، الى أن قتل توبة • وكان سبب قتله أنه كان يطلبه بنو عوف فأحسوا قدومه من سفره فأتوه طروقا وبينه وبين الحى مسيرة ليلة ومعه أخوه عبد الله ومولاه قابض فهربا وأسلماه • وفى ذلك تقول ليلى :

دعا قابضا والمرهفات تنوشه　　فقبحت مدعوا ، ولبيك داعيا

---

(١) المقرم : السيد

فيا ليت عبد الله حل مكانه فلودى ولم أسمع لتوبه ناعيا

ومن جيد ما رثته به قولها :

اقسمت أبكي بعد توبة هالكا واحفل من دارت عليه الدوائر
لعمرك ما بالموت عار على الفتى اذا لم تصبه في الحياة المعاير
فلا الحي مما يحدث الدهر سالم ولا الميت ان لم يصبر الحي ناشر
وكل شباب أو جديد الى بلى وكل امرئ يوما الى الله صائر

ـ وفي أمالي الزجاج أيضا أن الأخفش ذكر أن المبرد روى لهم من رثاء عبد الرحمن العطوى لأحمد بن أبي دؤاد قوله :

وليس صرير النعش ماتسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصف
وليس نسيم المسك ما تجلونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

ـ ومما جاء في أمالي الزجاج رواية عن الأخفش أن المبرد قال :

روت الرواة أنه لما توفي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رحمه الله ولم تحضره عائشة زارت قبره ثم قالت : يا أخي اني لو حضرت وفاتك مازرت قبرك ، ثم أنشأت تقول متمثلة :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وكانت قد حضرت أبا بكر رحمه الله وهو يجود بنفسه فقالت : هذا والله كما يقول حاتم الطائي :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها : يا بنية لا تقولى هذا ، ولكن قولى : « وجاء سكرة الحق بالموت » ، وهكذا كان يقرؤها أبو بكر رحمه الله بدون تاء في جاءت وبتقديم كلمة الحق .

ـ وفى « الأغاني » يروى الاصبهانى أن الأخفش حدث أن المبرد قال : دخل نصيب الشاعر على الفضل بن الربيع مسلما فوجد عنده جماعة من الشعراء قد امتدحوه فهم ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز . ولم يكن نصيب قد امتدحه ولا أعد شيئا ، فلما فرغوا ـ وكان يردد شيئا فى نفسه ـ استأذن فى الانشـــاد فأذن له فأنشـــد قصيدة (بنت وقتها) أولها قوله :

طرقتـــك ميـــة والمزار شطيب ‏ ‏ ‏ ‏ وثنتـــك بالهجران وهى قريب
لله ميـــــه خلة لو أنهــــــا ‏ ‏ ‏ ‏ تجزى الوداد بودها وتثيب
وكأن مية حين أتلع(١) جيدها ‏ ‏ ‏ ‏ رشا أغن(٢) من الظباء ربيب

وبعد استرسال فى النسيب انتقل الى المدح فقال :

والبرمـكى وان تقارب سنـــه ‏ ‏ ‏ ‏ أو باعدته السن فهو نجيب
يا آل برمك ما رأينا مثلـكم ‏ ‏ ‏ ‏ ما منـكم الا أغـــر وهوب

ولما أتم الانشاد أبدى الفضل استحسانه ، وأمر له بثلاثين ألف درهم . فلما قبضها وثب قائما وهو يقول :

انى سأمتدح الفضـــل الذى حنيت
منا عليـــه قلـوب البر والضـــلع
جاد الربيـــع الذى كنـــا نؤمله
فـكلنا بربيـــع الفضـــل مرتبع
كانت تطول بنـــا فى الأرض نجعتنا
فاليوم عند ابى العبـاس ننتجـع (٣)

هذه بعض روايات أثرت عنه مما كان يتحف به خلصاءه ، وفى كتابه « الـكامل » ثروة من الروايات الأدبية القيمة .

---

(١) أتلع : ارتفع وطال .
(٢) غزال ابيض جميل ـ ظبى اغن فى ترنينه غنة وهى ترخيم فى صوته .
(٣) الانتجاع : طلب المعروف .

اتهام ظالم

الى جانب ما عرف به المبرد من كثرة المحفوظ ، ويقظة الذاكرة كان يتمتع بذهن وقاد ، وبديهة حاضرة ، وكان يجد من كل ذلك ما يسعفه كلما وجه اليه سؤال بقصد الافادة ، أو لمجرد التحدى الذى كان يواجهه من أنصار ثعلب أو نحوهم من الكوفيين .

وقد ردد الاعتراف بقدراته هذه أنصاره تحدثا بنعمة الله عليه فى حين انحرف خصومه بهذا الوصف الى اتهامه صراحة أو ضمنا بالوضع فى اللغة ، بل واتهامه أيضا بالكذب والاختلاق .

أثر عن المفجع البصرى ، وهو كوفى من أنصار ثعلب أنه قال :

« كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها ، فتواضعنا على مسألة لا أصل لها نسأله فيها لننظر ماذا يجيب . وكنا قبل ذلك تمارينا فى عروض بيت الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقال بعضنا أنه من البحر الفلانى ، وتردد على أفواهنا من

تقطيعه « ق بعضنا » ثم ذهبنا الى المبرد فقلت له : ما القبعض عند العرب ؟ فقال : هو القطن ، وفي ذلك يقول الشاعر :

... ... كأن سنامها حشو القبعضـا

وذكر عجز البيت ، ولم يذكر صـــدره · قال المفجع : فقلت لأصحابي ترون الجواب والشاهد ، فان كان صحيحا فهو عجب ، وان كان مختلقا على البديهة فهو أعجب » .

ان المفجع البصرى ، وهو من أنصار ثعلب منافس المبرد كما أسلفنا ، يقدم لقصته باشارة الى اتهام المبرد بالوضع فى اللغـة ، ويجعل الاتهام بمثابة خبر شائع يعرفه الجميع ، ثم يختم قصتـــه باثارة الشكوك في الرجل لينفذ الى غايته من تأييد الاتهام ·

هذا ، وهناك رواية أخرى تشير الى أنه يسيء استعمال حضور بديهته ، فينقض الأمانة العلمية ، ويتنكر لما قاله جلة العلماء من أن من قال لا أدري فقد أفتى · وتشير الى أنه في سبيل الاحتفاظ بمكانته ورياسته يتجاهل أن قوى الانسان مهما تكن فهي محدودة ، وأنه « فوق كل ذى علم عليم » وان الله أيضا يقول : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ، وان الحـكماء قالوا : « من ظن أنه علم فقد جهل » · وما نحسب أن المبرد ــ على علمه وفضله وسمو مكانته ــ قد غفل أو تغافل عن ذلك ، أو تنـــكر له ، وانما هو شيء افتراه عليـــه بعض خصومه ·

وتلك الرواية الأخرى التي نتحدث عنهـا هي ما رواه ياقوت وغيره اذ قالوا ان أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن هامان فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له عيسى : أيها الشيخ ما الشاة المجثمة التي نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكلها ؟ فقال

هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة(١) . قال عيسى : فهل من شاهد ؟ قال المبرد : نعم ، قول الراجز :

لم يبق من آل الحميد نسمة الا عنيز لجبة مجثمة

قيل : واذا الحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى ، فلما دخل قال له عيسى : ما الشاة المجثمة التى نهينا عن آكلها ؟ فقال : هى التى جثمت على ركبتيها وذبحت من خلف ، أى من قفاها • فقال عيسى : كيف تقول ذلك ، وهذا شيخ العراق – يعنى أبا العباس المبرد – يقول هى مثل اللجبة وهى القليلة اللبن ، وأنشده البيت الذى استشهد به المبرد • فقال : أبو حنيفة : أيمان البيعة تلزم أبا حنيفة ان كان هذا التفسير سمعه الشيخ أو قرأه ، وان كان البيت الا لساعته هذه • فقال المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة فاننى أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى قد شاع فيكون أول ماتسألنى عنه لا أعرفه •

قالوا : فاستحسن عيسى منه هذا الاقرار ، وترك البهت •

الأرجح أن هذه حادثة ملفقة يبعد أن يكون لها أصل • ولكن ايرادها على هذه الصورة يدل على أن راويها أراد ابراز المبرد فى صورة الذى يعمد الى الوضع تحرجا من أن يقال عجز عن الاجابة • وهذا فى رأى أفاضل العلماء يناقض الأمانة العلمية ، وليس يزرى بالعالم أن يقول فى بعض الأحيان لا أدرى ، أو يطلب مهلة للاجابة كما فعل المبرد نفسه ومعه صديقه ابن لرة حين وجه اليهما الخليفة المعتصم مسألة فى أول لقاء دبره له ابن لره – كما أوضحنا حين عرضنا لصلته بالخلفاء والأمراء •

هذا ، وتاريخ المبرد ، وما أثر عنه ، وما شهد له به المنصفون

---

(١) عنز لجبة أو شاة لجبة (بالحركات الثلاث) التى تولى لبنها وذهب.

ينفى عنه صفة الاختلاق أو الوضع في اللغة ، فقد روى عنه فى كتاب « مجالس العلماء » أنه قال : « لا أتقلد مقالة متى لزمتنى الحجة » . وانه أيضا قال : « ربما روأت فى الحرف سنة لتصح لى حقيقته ومعنى روات فى الحرف بحثت عن الكلمة واستقصيتها .

وجاء فى كتاب « لسان الميزان » :

« وثقه العلماء وأصحاب الجرح والتعديل ، وان المفجع البصرى اتهمه بالكذب فى نقل اللغة . ولكن المفجع لا يعتد بجرحه».

وابن ولاده الذى تصدى له ، وألف كتاب « الانتصار » ليرد عليه فيما خالف فيه سيبويه ينصفه فيقول : « ليس هو عندنا ممن يتعمد الكذب » .

وقال عنه الخطيب فى « تاريخ بغداد » : « كان عالما فاضلا موثوقا به فى الرواية » .

وقال عنه ابن كثير فى « البداية والنهاية » : « كان ثقة ثبتا فيما ينقله » .

وروى الأخفش أنه سمع المبرد يقول :

« ان الذى يغلط ثم يرجع لا يعد ذلك خطأ عليه ، لأنه قد خرج منه برجوعه عنه . وانما الخطأ البين هو الذى يصر فيه صاحبه على الخطأ الذى وقع فيه ولا يرجع عنه ، فهذا يعد كذابا ملعونا » .

وهذا الذى أطلقه شعاراً قد ثبت أنه نفذه عملا فقد قال الصولى : حدثني عبد الله بن المعتز قال : جاءني محمد بن يزيد النحوى فاحتبسته فاقام عندى . وجرى ذكر أبى تمام فلم يوفه حقه ، وكان فى المجلس رجل من الكتاب ما رأيت احفظ منه لشعر أبى تمام فقال له : يا أبا العباس ، ضع فى نفسك من شئت من

الشعراء ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قال أبو تمام لأبى المغيث يعتذر اليه :

شهدت لقد اقوت(١) مغانيكم بعدى
ومحت(٢) كما محت وشائع من برد

فانجدتم من بعد اتهام داركم
فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ثم مر فى القصيدة حتى بلغ قوله فى الاعتذار :

اتانى مع الركبان ظن ظننته
نغضت(٣) له رأسى حياء من المجد

لقد نكب العذر الوفاء بساحتى
اذن ، وسرحت اللم فى مسرح الحمد

فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذه قط . ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين : اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتحر شعره ولم يسمعه .

قال ابن المعتز : وما مات المبرد الا وهو مقر بفضل أبى تمام واحسانه .

وحين عرض للحديث عن اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد مؤلف كتاب « أحكام القرآن » لم يتحرج أن يصفه بأنه أعلم منه بالتصريف . والذى تصل به الشجاعة الأدبية الى الاعتراف لغيره بأنه أعلم منه لا يتحرج أن يقول فى مسألة ما لا أدرى دون أن يلجأ الى الوضع أو التلفيق .

---

(١) اقوت : خلت .
(٢) محت : بليت وتمزقت .
(٣) نغضت : حركت .

هذا ما قال المبرد وما فعل ، وهذا ما قيل فيه • وما قال المبرد وما فعل ، وما شهد به له المنصفون يدل على أنه فوق أن يتهم بالوضع واختلاق الاجوبة ، لأن الذى يجـــاهر بلعن الكذاب لا ريب أنه يتحرج من الكذب .

وعلى هذا فاتهام المبرد بالكذب والوضع فى اللغة مردود ، ومصدره الكوفيون الذين عرفوا بالتعصب ضد البصريين ، فالمفجع وهو على رأس من اتهموا المبرد بالوضع من أنصار ثعلب ، والخصومة بين المبرد وثعلب عرفت وشاعت وصارت مضرب الأمثال ، وهى ــ كما يقول الدكتور زكى مبــارك ــ مبعثها الحقيقى الخصومة بين البصريين والكوفيين .

وكم من ذوى علم وفضل قبل المبرد وبعده ، قد اتهموا ظلما ، بل ان صحابة الرسول وخلفاءه وخلصاءه لم يسلموا من الاتهام . وقد تحدث الصاحبى فى باب سنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز من كتابه « فقه اللغة » فقال عن ابن قتيبة أنه يطلق اطلاقات منكرة كالذى رواه عن الشعبى من أن أبا بكر وعثمان وعليا توفوا ، ولم يجمعوا القرآن ، أى لم يحفظوه •

قال وروى شريك عن اسماعيل بن أبى خالد أنه قال : سمعت الشعبى يقول ويحلف بالله لقد دخـــل على بن أبى طالب حفرته وما حفظ القرآن ! !

قال الصاحبى : وهذا كلام شنع جدا فى حق من يقول (يعنى الامام عليا) « سلونى قبل أن تفقدونى ، فما من آية الا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أفى سهل أم فى جبل » .

وروى السدى عن عبد خير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه رأى من الناس طيرة عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فاقسم ألا يضع على ظهره رداء حتى يجمع القرآن • قال : فجلس فى بيته

حتى جمع القرآن ، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن جمعـــه من قلبه •

الامام على ، وهذا شأنه ، قد وجد من يتهمـــه بأنه مات ولم يحفظ القرآن • الامام على الذى قيل فى وصفه : ان العلم مدينة وعلى بابها وجه اليه هذا الاتهام الفاحش مع أنه ـ على حد قول الصاحبى سئل وهو يخطب على منبره عن ميراث ابنتين وأبوين وامرأة فقال على الفور : صار ثمنها تسعا • وقد سميت فتواه هذه بالفتوى المنبرية•

وقال الصاحبى أيضا : حدث أبو الحسن على بن ابراهيم القطان أن أبا وائل وهو شيخ من أهل اليمن روى عن هانىء أنه قال :

كنت عند عثمان رضى الله عنه وهم يعرضون المصـاحف عليه فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها «لم يتسن» و « فأمهل الكافرين » و لاتبديل للخلق الله « قال : فدعا بالدواة فمحـا احدى اللامين » وكتب : لاتبديل لخلق الله « ومحا فأمهل وكتب » فمهل « والحق هاء بكلمة يتسن فصارت لم يتسنه » •

وقد قتل عثمان ومصحفه بين يديه يتلو منه ومع ذلك لم يسلم هو ونحوه من الصحابة الأجلاء من الاتهام ، فهل يكون عجبا أن يتهم المبرد ؟

والأزهرى فى « تهذيب اللغـة » يقول : ممن ألف فى عصرنا فوسم بافتعال العربية وتوليـــد الألفـاظ التى ليس لها أصول ، وادخال ما ليس فى كلام العرب فى كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة ، وكتاب اشتقاق الأسماء ، وكتاب اللاحن وحضرته فى داره فرأيتـه يروى عن أبى حاتم والرياشى وعبد الرحمن ابن أخى الأصمعى فسألت عنه ابراهيم بن عرفه الملقب بنفطويه فاستخف به ولم يوثقه فى روايته • ودخلت عليه يوما فى

داره فوجدته سكران لا يكاد يستقر لسانه على الكلام من غلبة السكر عليه ·

وجاء فى معجم الأدباء ، وفى انباه الرواة أن الخطيب البغدادى قال : دخلت على ابن دريد داره في بغداد لآخذ منه شيئا من اللغة فوجدته سكران فما عدت اليه ·

هذا اتهام موجه أيضا الى عالم لغوى له آثار قيمة ،ولكن جلال الدين السيوطى فى كتابه « المزهر » ينفى عنه هذه التهمة ، ويقول : معاذ الله · هو برىء مما اتهم به ، ومن طالع الجمهرة رأى مدى تحريه فى روايته » ·

ومع ذلك فهناك أمر نرى لزاما علينا أن نشير اليه هو أن المبرد كثيرا ما يذكر الخبر أو الشاهد بغير اسناد لأنه كان يعتمد على الذاكرة ، والذاكرة قد تخون · وذكر الشاهد أو الخبر بغير اسناد ساعد على انتشار اتهامه بالوضع · وحقيقة الأمر فى هذا أنه كان لا يكذب ولا يضع ، ولكن ربما خانته الذاكرة فنسى قائل النص ، أو نسب قول واحد الى شخص غيره وقد عد عليه السيد المرصفى فى « رغبة الآمل » بعض مواضع من هذه · وجاء فى « خزانة الأدب » للبغدادى شاهد من قول الراجز :

رب ابن عم لسيلمى مشمعل(١)
أروع فى السفر ، وفى الحى غزل

وقال البغدادى : «نسب المبرد هذا البيت الى الشماخ بن ضرار لأن المبرد كان يعتمد على ذاكرته القوية ، والذاكرة أيا كانت من القوة قد تخون صاحبها · والحق أن هذا البيت لجبار بن جزء أخى الشماخ بن ضرار » فالبغدادى يصحح له ، ولا يتهمه بل يلتمس له عذرا ·

---

(١) المشمعل : الرجل الخفيف الظريف ، أو الرجل الطويل ·

ومن دلائل قوة حافظة المبرد وحضور بديهته ماجاء فى « أمالى المرتضى » من أن الجاحظ قال يوما للمبرد : أتعرف مثل قول ابراهيم ابن القاسم :

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

فقال المبرد : نعم ، قول كثير عزه ، ومنه أخذ اسماعيل بن القاسم ، وذلك اذ يقول :

فقلت لها : يا عز كل مصيبة ... اذا وطنت يوما لها النفس ذلت

ان دراسة حياة المبرد ، وأخباره كما تضمنتها مختلف ذخائر العرب من المؤلفات العلمية والأدبية تكشف عن حقائق ومميزات للمبرد :

أولها : أنه كان ذا ذكاء لماح خارق .

ثانيها : أنه كان ذا حافظة قوية ، وذاكرة مسعفة .

ثالثها : انه كان واسع العلم والمعرفة .

رابعها : أنه لكثرة ما حفظ كان يورد كثيراً من رواياته بغير سند .

خامسها : أنه كان حاضر البديهة ، سريع الجواب .

سادسها : أن حضور ذهنه وسرعة بديهته ، وسعة معارفه وكثرة رواياته بغير سند ، وزعامته للبصريين أتاحت للكوفيين وفى مقدمتهم أنصار مناهضه أبى العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب أن يتهموه بالتلفيق والوضع فى اللغة .

وسابعها : أنه كان مع تفرغه للنحو واللغة وتفوقه فيهما ، كان من خير معاصريه بصرا بالنقد المنهجى السليم ، وكان ذا بصر بالشعر يرويه ، وينقده . وكان له شعر جيد لم يصلنا منه الا نزر يسير .

فليس عجيبا أن يطلق عليه حينئذ أديب النحاة .

المبرّد بين الشعر والشعراء

« لم يكن أبو العباس محمد بن يزيد ـ على رياسته ، وتفرده بمذهب أصحابه واربائه عليهم بفطنته وصحة قريحته ـ متخلفا فى قول الشعر . وكان لاينتحل ذلك ، ولا يعتزى اليه ، ولا يرسم نفسه به . وله أشعار كثيرة » .

هكذا وصفه الزبيدى فى كتابه « طبقات النحاة » وبهـذا وصف أيضا فى كتاب « انباه الرواة » وكتاب « أخبار النحويين البصريين » وفحوى هذا أنه كان شاعرا الا أن همـه الأكبر كان النحو واللغة ، فلم يكن يريد أن يسمى شـاعرا ، ولا أن يكسب بالشعر مجدا اعتزازا برياسته وزعامته فى النحو واللغة .

وكان صديقا لأكثر شعراء عصره يلقاهم ويلقونه ، ويرتادون مجالسه ، ويعرضون عليه نتاج قرائحهم . ومن هؤلاء الشعراء : أبو تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز وابن المعـذل ، وأبو دهمان ، وأم الهيثم ، وعمارة بن عقيل وأحمد بن عبد السلام وغيرهم .

كانت له صلات بهؤلاء الشعراء ومخالطة لهـم ، وكان يروى عنهم شعرهم ، وكانوا يعتزون برأيه فى ثمار قرائحهم .

روى عن البحترى شعره ، وكانت بينهما صداقة وثيقة العرى ، وألفة لا كلفة فيها • وكان المبرد يعجب برونق شعر البحترى ، واشراق ديباجته ، ويفضله على أبى تمام الذى عرف بتفضيله جانب المعنى على جانب اللفظ حتى عد هو والمتنبى من شعراء المعانى ، ولكنه لم يكن يغمط حق أبى تمام ولهذا أكثر من الاستشهاد بشعره فى كتاب « الكامل » :

وفى ديوان البحترى ما يفيد أن البحترى حين مدح اسماعيل بن بلبل بقصيدة طويلة كتب بها الى المبرد لأنه يعلم مبلغ عنايته بشعره ، وفى الديوان أيضا أن البحترى كان يهوى مجالسة المبرد ولهذا كتب اليه يدعوه الى مجلس أنس فقال :

يوم سبت وعندنا ما كفى الحـ	ـــر طعام ، والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهـــر فيـا	ح فسيـح ترتاح فيه القلوب
ودوام المـدام يدنيك ممـــن	كنت تهوى ، وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمـــد بن يزيـــد	فى استتارك لا يراك الرقيب
نطرد الهـــم باصطباح ثلاث	مترعات تنسى بهـن الكروب
ان فى الراح راحة من جوى الـ	ـحب وقلبى الى الأديب طروب
لا يرعك المشيب منى فانــــى	ما ثنانى عن التصابى المشيب

وروى الشريشى فى شرح المقامات أنه جرى ذكر معنى تعاوره البحترى وأبو تمام فقال المبرد للبحترى : أنت فى هذا أشعر من أبى تمام • فقال البحترى : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبز الا به • وقال عبد الله بن الحسن : سألت المبرد عن أبى تمام والبحترى أيهما أشعر فقال :

« لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفـــة • وجيـده أجود من شعر البحترى ، وشعر البحترى أحسن استواء من شعر أبى تمام ، لأن البحترى يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن

طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد ، وما أشبهه الا بغائص يخرج الدرة والمخشلبة ، وهي زجاجة توضع مكان الدرة · على أن لأبي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله . وللبحتري بيتان لو ضما الى شعر زهير لجازا فيه ، وهما :

فما سفه السفيه وان تعدى بأنجع فيــك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كــرم تخطى اليـك ببعض أفعــال اللئيم

قال : ثم أخذ المبرد في هذا المجلس يذكر من شعر البحتري في مدح ابني صاعد ، ومدح الفتح بن خاقان وقد نزل الى الأسد فقتله ، ويأخذ من هذا الشعر شواهد على أنه مقدم على نظرائه .

وقد أوردنا من قبل كيف أن المبرد أبدى مثل هذا الرأي في أبي تمام والبحتري في مجلس ابن المعتز حتى عرض عليه أحد رواة أبي تمام أبياتا من عيون شعره وطلب رأيه فيها فقال : ما سمعت أحسن من هذه قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين : أما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتحر شعره ولم يسمعه ·

وفي « العمدة » لابن رشيق أن البحتري قال : كنت عند أبي العباس المبرد يوما فتذاكرنا شعر عمارة بن عقيل فقال ابو العباس: لقد أحسن عمارة في قوله لخالد بن يزيد :

لم أستطع سيرا لمدحة خالــد فجعلت مدحيه اليه رســولا
فليرحلن الى نائــل خالــد وليكفين رواحلي الترحيــلا

قال البحتري : فقلت له ان مروان بن أبي حفصة له في عبدالله بن طاهر ، وقد أتاه نائله من الجزيرة ما هو أحسن من هذا ، هو قــوله :

. . . .

لعمري لنعم الغيث غيث أصابنا … ببغداد من أرض الجزيرة وابله
فكنا كحى صبح الغيث اهله … ولم يرتحل أظعانه ورواحله

فقال المبرد : نعم ، هذا أحسن . فقلت : أما أنا فلى فى بنى السمط وقد أتانى برهم من حمص مالا يتضع عن ذلك اذ قلت :

جزى الله خيرا ، والجزاء بكفه
بنى السمط أخدان السماحة والمجد
همو وصلونى . والمهامه بيننا
كما ارفض غيث من تهامة فى نجد

فقال المبرد : هذا أرق وأروع .

وفى « أخبار أبى تمام » رواية عن الصولى يقول فيها ان المبرد حدثه فقال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس اليه ، وكتبوا شعره ، وعرضوا عليه الأخبار ، وأنه قرأ عليه شعرا لجرير (جده) .

وفى مواضع كثيرة من « الكامل » يقول أنشدنى عبد الصمد بن المعذل لنفسه ، وأنشدتنى أم الهيثم .

وللشعراء مدائح فيه أوردنا بعضها قبل فى رثائه وفى المفاضلة بينه وبين ثعلب ـ وقد سبق الاشارة الى مدح البحترى له .

وقد ذكر الاستاذ المحقق محمد عبد الخالق عضيمة فى مقدمة تحقيقه لكتاب « المقتضب » للمبرد أن ابن الرومى مدح المبرد بقصيدة طويلة جدا قلما ظفر نحوى بقصيدة مدح طويلة مثلها من شاعر كبير معاصر له . وقد أورد البارودى طرفا منها فى الجزء الأول من مختارات البارودى ، وأثبتها الأستاذ الدكتور عضيمة كاملة فى مقدمة « المقتضب » نقلا عن مخطوطة بدار الكتب المصرية.

وقد بدأت هذه القصيدة بغزل مطلعه :

طرقت اسماء والركب هجود … والمطايا جنح الأذواد قود

ثم ينتقل الى الوصف ، ويخلص منه الى مدحه وتمجيد آبائه ووصفهم بأنهم أمجاد ذوو مروءة وشرف وعفو عند المقدرة وبسالة فى الحرب ، وأن المبرد نسج على منوالهم فلم يكن تقوم معروفهم هامد ، ممن اذا نووا على فعل خير لا يلبثون أن يتكلموا عنه ، واذا نووا فعل شر كانوا عتاة فى تنفيذه · وهكذا يسترسل فى مدحه حتى تبلغ القصيدة ثمانية وتسعين بيتاً ، وقد مرت أبيات منها قبل ذلك ·

هذا مجمل لصلته بشعراء عصره ، وصلته الوثيقة بهؤلاء الشعراء كان من آثارها تأليف كتاب « الروضة » الذى جمع فيه مختارات من شعر الشعراء المحدثين ·

أما شعره هو فلم يصل الينا منه الا قليل مما سجله معاصروه، ومن عاشوا بعده قريبا من عصره ·

وتلمح فى شعره أثر البديهة الحاضرة والذهن الوقاد · ومما أثر عنه فى صدر شبابه قوله :

أيها الطالب شيئا من لذيذ الشهوات

روى الزجاج فى أماليه أن أبا محمد اسماعيل بن النجم الشرابى قال :

كنا فى مجلس أبى العباس المبرد فى يوم شات شديد البرد ، فمر بنا اسماعيل بن زرزور المغنى وعليه غلالة قصب ، وعلى رأسه منديل دبيقى ، وفى رجليه نعل صرارة ، وقد مر ولم يسلم · فقال لنا المبرد : من هذا ؟ قلنا : ابن زرزور المغنى · قال اكتبوا :

غناؤك يكسبك التزنيه وصفعا وطردا من الأفنية
وقذفك أجمل من أن تبر وشتمك أولى من التكنية
فيوم ولادك للتعزيات ويوم حمامك للتهنية

وقوله « من التكنية » يعنى به الاحترام والتعظيم لأن المناداة

بالكنية مثل أبى فلان تعنى التعظيم ولهذا لم يكن أحد يكتنى فى حضرة الخلفاء ·

وروى ياقوت أن الخطيب حدث أن المبرد قال :

لما توفيت والدة القاضى اسحاق الأزدى رأيت فى وجهه مالم يقدر على ستره ، وكان كل يعزيه وهو لا يسلو ، فسلمت عليه ثم أنشدته :

لعمرى لئن غـال ريب الزمان ... فساء لقد غال نفسا حبيبـه
ولـكن علمى بمـا فى الثوا ... ب عند المصيبة ينسى المصيبة

قال فتفهم كلامى ، واستحسنه ، ودعا بدواة فكتبه ، ثم انبسط وزالت عنه تلك الكآبة والجزع ·

وقال القفطى :

كان للمبرد شعر جيد لا يدعيه ولا يفخر به · وقد ورد عليه من عبد الله بن طاهر كتاب فيه درجة التثبيت بأرزاقه الى مصر ، فأجاب على الكتاب بأبيات قالها على البديهة وهى :

بنفسى أخ بر شـددت به أزرى
فألفيته حـرا على العسـر واليسـر
أغيب فـلى منـه ثنـاء ومدحـة
وأحضر ، منـه أحسـن القول والبشر
ومـا طاهـر الاجـمال لصـحبه
وناصـر عافيـه على كلب الدهـر
تفـردت يا خـير الورى فـكفيتنى
مطالبة شـنعاء ضاق بها صـدرى
وأحسـن من وجه الحبيب ووصـله
كتاب أتانى مدرجـا فى يدى نصـر

سررت بـــه لمــــا أتى ، ورأيتنى
غنيت ، وان كـان الـكتاب الى مصــر

فقلت : رعـــاك الله من ذى مـــــودة
فقد فت احسانا ، وقصرت فى شكرى

وروى أن زائرا قدم عليه فوقف تحية له ، فاستكثر منـه الرجل أن يقوم له ، فلما فهم منه ذلك أنشد على البديهة :

لئن قمت ما فى ذاك منى غضـاضة
على ، ولـكن الـكريم مذلل

على أنها منى لغـــيرك هجنـــــة
ولـكنها بينى وبينـــك تجمـــل

وروى النويرى فى كتاب « نهاية الأرب » قوله فى وصـــف نرجســـة :

نرجســـــة لاحظتنى طرفهـــا
تشـــبه دينـــارا على درهـــم

وروى له صاحب « العقد الفريد » أنه قال :

ما القـــرب الا لمن صـــحت مودته
ولم يخنك ، وليس القرب فى النسب

كم من قريب دوى الصدر مضطغن
ومن بعيـــد سليم غـــير مقترب

وروى له أيضا فى صديق عظيم حل به مرض :

يا عليـــلا افديك من الـــم العلة
هـــل لى الى اللقـــاء سـبيل

ان يحـــل دونـــك الحجـاب فـمـا
يحجب عنى بك الضـــنى والعويل

وفي « تاريخ بغداد » أن المبرد سأل بشربن سعد المرثدي حاجة فتأخرت ، فكتب اليه مستنجزا :

وقاك الله من اخـــلاف وعد وهضم أخوة ، أو نقض عهد
فأنت المـــرتجى أدبا ورايـــا وبيتك في الذؤابة (١) من معد
وتجمعنـــا أواصر لا زمـــات سداد الرأى من حسب وود
اذا لم تأت حـــاجاتي سراعـــا وقد ضمنتها بشر بن ســـعد
فـــأى النـــاس آمـــله لبر وأرجوه لحـــل أو لعقـــد

وفيما تضمنته هذه الأبيات تأييد لرأى من وصفوه بالحرص، وقالوا انه كان يصرح بالطلب .

وروى الحصرى فى « زهر الآداب » من شعر المبرد قوله :

أخ لى عاداه الزمان فأصـــبحت ملممة فيمـــا لديه المطـــالب
متى ما تنوقه التجارب صاحبا من الناس ترده الى التجارب

وروى الأصبهانى فى « محاضرات الأدباء » من شعر المبرد قوله :

الفقـــر فى أوطـــاننا غـــربة والمـــال فى الغـربة أوطـــان

وروى الزجاج فى أماليه أن المبرد أنشده :

فان تك ليلى قد جفتنى وطاوعت
على صرم حبـــل من وشى وتـــكذبا
لقد باعدت نفســـا عليها شـــفيقة
وقلبـــا عصى فيهـــا الحبيب المقربا
فلســـت وان ليلى تولت بودهـــا
وأصـــبح باقى الوصل منها تقضبا
بمثن ســـوى عـــرف عليها ومشـــمت
وشاة بها حولى شـــهودا وغيبـــا
ولـــكننى لا بد أنى قائـــل
وذو الـــود قوال اذا ما تعتبـــا

---

(١) ذؤابة القوم : المتقدم فيهم .

وروى أنه كان قد طلب حاجة من عبيد الله بن طاهر فوعده بها ، ولما استبطأه كتب اليه يستنجزه :

يا موئلا لذوى الحاجات والخطر
ومن عمدت لحاجاتى من البشر
هل أنت راض بأن يضحى نزيلكم
المستجيب لكم فى حال مستتر
صفرا (١) من المال الا من رجائكم
ولا بسا بعد يسر حلة العسر
قل للأمير عبيد الله دام له
عز الامارة فى طول من العمر
بدأت وعدا فانجزه لمنتظر
فان حق تمام الورد فى الصدر
وقد بدا عود شكرى مورقا فأجد
سقياه أجنيك منه يانع الثمر
فانما يسم الوسمى مبتدئا
وللولى نبات الروض والزهر
والسيف يجلى ، فان لم تسق صفحته
نبا ، ولم يك كالمشحوذة البتر
وقد تقدم احسان الى لكم
لم أوت فيه من الاغراق فى الشكر
وفى بقاء عبيد الله لى خلف
وفيض راحته المغنى عن المطر

وروى له فى هجاء العلاء بن صاعد :

للعلاء بن صاعد فى وصف   وثناء مجاوز المقدار
باذل مدحه ضنين بما   يملك درهم ومن دينار

(١) صفرا : خاليا ..

زرته مكرها ، وما كنت من قبل لمثل العلاء بالزوار
فحصلنا على ثناء ومدح وركوب بالليل فى الطيار

وحدث الصولى أنه كان عند المبرد يوما فجاءه رجل فسلم عليه ، وأبدى التودد اليه فأنشد أبو العباس المبرد :

ان الزمان وان شطت مناهبه
منى ومنك فان القلب مقترب
لن ينقص النأى ودى ما حييت لكم
ولا يميل به جد ولا لعب

وقال القفطى : ذكر العجوزى انه كان يوما عند ابى العباس المبرد فأتاه رجل على دابة وعلى كتفه طيلسان أخضر . فلما رآه المبرد قام فاعتنقه فأكبر الرجل قيامه اليه وقال : أتقوم لى يا أبا العباس ؟ فقال :

أينكر أن أقوم اذا بدا لى لأكرمه وأعظمه هشام
ولا تعجب لاسراعى اليه فان لمثله ذخر القيام

وقد أسلفنا أن الخليفة المتوكل قال له فى مجلس شراب : يا بصرى ، أرأيت أحسن منى وجها ؟ فقال : لا والله ، ولا أسمح يدا ثم أنشد :

جهرت بحلفة لا أتقيها . . . .

(أنظر الأبيات صفحة ٦٥)

هذا بعض ما أمكن أن نعثر عليه من شعره ، ولا نشك فى أنه كثير قد يجده من يتفرغ له ، ويبحث عنه لاستكمال صورة واضحة عن هذا الامام العربى الصميم .

آثار المبــرد العلمية والأدبية

قضى المبرد حياة خصبة بالانتاج العلمى والأدبى ، فقد ألف عديدا من الكتب التى أسهمت بنصيب وافر فى تطوير علم النحو وتقويمه وتكميله ، ونهضت بالأدب ، ونمت اللغة .

غير أن الأحداث السياسية العاصفة التى تعرضت لها الأمة العربية وما فعله الأتراك بالعرب فى الفترة الثانية والثالثة من العصر الثالث ، وما أحدثته اغارة التتـــار على بغداد وحرق مكتبتها ، وما أعقبته الحروب الصليبية وما أصاب العرب فى الأندلس كل هذه الأحداث كان من نتائجها ضـياع كثير من الآثار الأدبيـــة والعلمية الرائعة ، ومنها كثير من كتب المبرد .

وآثار المبرد فى جملتها منها ما سلم ، ووصل الينا ، وتم طبعه وتداوله مثل :

١ ــ كتاب الكامل .

٢ ــ كتاب الفاضل .

٣ ــ كتاب المقتضب .

٤ ــ كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد .

٥ ـ شرح لامية العرب ·

٦ ـ كتاب المذكر والمؤنث وقد حققه أخيرا الدكتور رمضان عبد التواب والأستاذ صلاح الدين الهادى .

ومن آثاره كتب سلمت من الضياع ولكنها حبيسة مكتبات خاصة أو عامة لم يقدر لها من يحققها ويتولى نشرها ، ومنها :

١ ـ كتاب التعازى والمراثى وقيل انه توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال ·

٢ ـ كتاب الروضة وقد جاء عنه حديث فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وفى الأغانى ، وقيل ابن الأستاذ الميمنى الراجكوتى عثر على نسخة منه ونقل عنها ·

ومن آثاره كتب لانعرف عنها الا كونها وردت عنها اشارات فى كتب المراجع ومنها :

١ ـ **الاختيار** : ذكره المبرد فى الكامل ·

٢ ـ **الاشتقاق** : ورد ذكره فى وفيات الأعيان عند الحديث عن اشتقاق ثمالة ·

٣ ـ **الشافى** : ورد ذكره فى شرح الكافية ·

٤ ـ **الفتن والمحن** : ذكر الصولى فى « أخبار أبى تمام » أنه قرأه على المبرد ·

٥ ـ **الاعتنان** : ذكره البغدادى فى «خزانة الأدب» وموضوعه أسباب تهاجى جرير والفرزدق ·

٦ ـ **شرح ما اغفله سيبويه** : ذكره ابن ولاد فى كتاب الانتصار ·

ومن آثار المبرد كتب لم نعرف عنها الا اسمها كما سجلها ابن النديم فى كتابه « الفهرست » وياقوت فى كتابه «معجم الأدباء» وهى كثيرة تبلغ نحو أربعين كتابا ·

تعريف ببعض آثاره

أولا ـ كتاب الكامل :

« سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصــول فن الادب وأركانه اربعة دواوين هى : (١) ادب الكاتب لابن قتيبة (٢) الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) النوادر لابى على القالى البغدادى . وماسوى هذه الاربعة فتبع لها ، وفروع عنها »

« ابن خلدون »

وكتاب « الكامل » للمبرد من الكتب الرائدة فى فن الأدب ، ولهذا لم يكن عجبا أن يعده ابن خلدون رواية عن شيوخه ركنا هاما من أركان أربعة يقوم عليها فن الأدب ، ولم يكن عجبا أن يثنى عليه الامام ابن شهبة الأسدى فى كتابه « طبقات النحاة واللغويين » وأن تذكر الأخبار أن القاضى الفاضل قال انه قرأه ســـبعين مرة واستمد منه فوائد تذكر ، وأن تذكره « بغية الوعاة للسيوطى » ويرد فيها أن محمد بن على السلاقى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ كان من أحفظ الناس للكامل ، وأن أشراق السوداء مولاة ابن غلبون كانت تحفظه وتحفظ شرحه ، وأن خلف بن يوسف بن فرتون الأندلسى كان يحفظه حفظا جيدا .

وقال عنه حاجى خليفة فى « كشف الظنون » : « كتاب الكامل شرحه محمد بن يوسف المازنى السرقسطى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، ورواه عن المبرد ابو الحسن على بن سليمان الأخفش .. ثم قال : وهو كتاب يجمع فنون الأدب » .

وفى مقدمة كتاب المقتضب يروى الدكتور محمد عبد الخالق عضيمه ان أبا الفرج المعافى بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٠هـ تحدث

فى مقدمة كتابه « الجليس الصـــالح الكافى ، والأنيس الناصـــح الشافى » عن الكامل للمبرد فقال :

« ... عمل ابو العباس محمد بن يزيد النحوى كتابه الذى سماه « الكامل » وضمنه أخبارا وقصصا لا اسناد لكثير منهـــا . أودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها مالا يأتى به الا مثله لسعة علمه ، وقوة فهمه ، ولطيف فكرته ، وصـــفاء قريحته ، ومن جلى النحو والاعراب وغامضهما ما يقل وجود من يسد فيه مسده » .

ولما له من قدر عظيم اشتدت عناية السابقين بشرحه كما فعل ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وهشـــام بن احمد الوقشى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ ، ومحمد بن يوسف السرقســـطى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وفى عصرنا الحديث شرحه وعلق عليه شيخ أدباء عصره سيد بن على المرصفى بتوجيه من الامام محمد عبده ، وذلك فى كتابه الذى سماه « رغبـــة الآمل فى شرح الكامل » . وأظهره مطبوعا فى ثمانية أجزاء تعتبر كنزا أدبيا ثمينا .

وقد طبع الكامل فى مصر والخارج أكثر من مرة مما يدل على مبلغ حرص الأدباء والعلماء على اقتنائه والافادة منه ، طبع فى المانيا سنة ١٨٦٤ م مع مقدمة له وفهارس متنوعة ، وطبع سنة ١٢٨٦هـ بالمطبعة العامرة بالقاهرة ، وسنة ١٣٠٨ هـ بالمطبعـــــة الخيرية بالقاهرة ، وسنة ١٢٨٦ هـ بالآستانة ، وسنة ١٨٨١ م فى ليبسك ثم طبع فيها مرة أخرى سنة ١٨٩٢ م وطبع ســـنة ١٣٢٣ هـ فى مطبعة التقدم بالقاهرة ، وسنة ١٣٥٥ هـ فى مطبعة الحلبى بالقاهرة بتحقيق الدكتور زكى مبارك والاستاذ احمد محمد شاكر ، وفى سنة ١٩٦٣ طبعته المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة .

هذا ، وقد نشرت سلسلة « تراث الانسانية بحثا للاستاذ ابراهيم الأبيارى تحت عنوان « الكامل للمبرد » نشر فى العدد الأول من المجلد الثالث سنة ١٩٦٥ م ، وكذلك صدر كتاب بعنوان « المختار من كتاب الكامل » وهو من اختيار حسن نصار ومراجعة مصطفى السقا ، وكتب الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة بحثا قيما عنه فى مقدمة كتاب المقتضب الذى تولى نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ۰ كما كتب الدكتور أحمد امين بحثا عنه فى كتابه « ضحى الاسلام » الجزء الأول ۰

ان جميع معاصرى المبرد ، الأصدقاء منهم والأعداء ، وجميع من تلقوا عنه أو تلقوا عن تلاميذه يجمعون على أمر واحد هو أن المبرد كان من أكثر الناس حفظا لآثار العرب وأخبارهم ۰ وآراؤهم هذه يلخصها تلميذه العالم اللغوى النحوى نفطويه اذ يقول : « ما رأيت أحفظ لأخبار العرب بغير أسانيد من المبرد » ويؤيد كلام نفطويه أننا نرى المبرد فى كل كتبه يقول فى أكثر ما يروى : « سمعت بغير وجه » أو « سمعت على غير وجه » وهذا يعنى أنه يعفى نفسه من اسناد الخبر الى راويه أو رواته ، وقد يكون تعليل ذلك أنه لكثرة ما يحفظ يتحرز من الخطأ فى الاسناد ۰ وقد عدوا عليه أخطاء فى اسناد بعض أقوال الى غير قائليها ، وهذا ــ فى رأينا ــ لا يغض من شأنه فانما هو بشر يخطىء ويصيب ، وكتبه ليست كتبا منزلة من دأبها أن تتنزه عن الخطأ ۰ أما الخطأ فى النحو أو اللغة فندر أن تعد عليه شيئا منها ۰ ولقد كان خصومه له بالمرصاد فان عثروا على هفوة منه شنعوا به شر تشنيع ، وقد حكى أبو العباس بن عمار أن المبرد صحف فى كتاب الروضة فى اسم حبيب بن خدرة (بالخاء) فقال : ابن جدرة (بالجيم) ، وفى ربعى ابن حراش (بالحاء) فقال : ابن خراش بالخاء ، وبهذا قال فيه أحمد بن أبى طاهر :

كثرت في المبرد الآداب واستقلت في عقله الألباب
غير ان الفتى ـ كما زعم النـاس ـ دعي ، مصحف ، كذاب

أرأيت كيف أن زلة قلم أو زلة لسان أقامت عليه الدنيا ، وأطلقت فيه بالشر ألسن الشعراء ؟ ورحم الله من قال : « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » .

ليس هذا هو الذى وجه الى المبرد من اتهام وحسب ، ولكن هناك شيئا آخر رمي به قديما وحديثا .

قديما اتهمه علي بن حمزة في كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة بانه كان متعصبا على قبيلة ثمالة فذمها واتهمها بالغدر ، ويستشهد على ذلك بالأبيات التي نسبت اليه والتي أولها :

سألنا عن ثمالة كل حي فقال القائلون ومن ثمالة

وتلك الأبيات نسبها المبرد الى عبد الصمد بن المعذل وقال كما روي في كتاب « العقد الفريد » : لقد هجاني ببيتين أنضج بهما كبدي .

واتهمه ابن أبي الحديد في شرحه لكتاب « نهج البلاغة » المنسوب الى الامام علي بن ابي طالب بأنه يميل الى رأي الخوارج .

وحديثا اتهمه الأستاذ أحمد أمين في كتابه « ضحى الاسلام » بأن كتابه « الكامل » يمثل تمثيلا صحيحا نوعا من العصبية القبلية فهو يعلي من شأن الأزد واليمن ، ويعلي من شـأن المهلب بن أبي صفرة لأنه يمني مع أن المهلب متهم بالكذب حتى في حديث الرسول عليه السلام .

ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة في تفنيده هذه التهم وردها ، وتبرئة المبرد من تهمة التعصب ، وذلك في مقدمة

كتاب « المقتضب » الذى قام بتحقيقه وأشرف على طبعـــه ويقول الدكتور عضيمة ان المبرد ضمن الكامل شعرا فى مدح آل المهلب ، كما ضمنه شعرا فى هجائهم كقول جرير :

آل المهلب ـ جد الله دابرهم ـ أضحوا رمادا فلا أصل ولا طرف

ويستدل على عدم تعصبه للأزد بأنه فى كتابه « نسب عدنان وقحطان » استنفد ثلثى الكتاب فى الحديث عن العدنانيين ولم يتكلم عن اليمن والأزد الا حديثا موجزا ١ كما يستدل بأن كتاب الكامل يشتمل على نصوص كثيرة يرويها المبرد فى ذم التعصب ٢ وينفى عنه تهمة الميل الى الخوارج فيقول أنه يفهم من حديثه صراحة أنه كان ينفر من الخوارج ولا يميل الى رأيهم ولم يكن يبغى من تسجيل اخبارهم الا رواية طرف من أدبهم القوى . ثم يقول انه كان فى الفتنة بين على ومعاوية يؤثر الاعتدال والقصد ٣

أما وقد عرضنا لما وجه اليه من اتهام ، وفندنا التهم بايجاز فقد بقى أن نعرض لكتابه « الكامل » .

وكتاب « الكامل » يعتمد على الرواية وحسن الاختيار وليس فى الكتاب من ثمار قلمه ، ونتاج فكره الا شرحه وتحليله ، وتعليله، ونقده ، وحسن اختياره ، واختيار المرء ـ كما قيل ـ قطعـــة من عقله ٤

ومنهج كتاب الكامل لخصه المبرد نفسه فى مطلع مقدمته اذ قال :

« هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب

من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الاعراب شرحا وافيا حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفيا » .

وتلك الخطوط التي رسمها في المقدمة قد حققها تحقيقا كاملا فجاء كتابه مشتملا على :

١ - مختارات أدبية من الشعر والنثر والحكم والأمثال .
٢ - ايضاحات لغوية .
٣ - توجيهات نحوية .
٤ - طرائف نقدية .
٥ - تعريفات بلاغية تناولت التشبيه وأنواعه ، والاستعارة، والكناية وأقسامها ، والقلب البلاغي ، والالتفات ، والتجريد ، واللف ، والنشر .

وبدأ الكتاب بعرض وصف الرسول عليه السلام لبعض الأنصار اذ قال لهم :

« انكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » ثم يتبع ذلك بالايضاح اللغوى فيقول : ان الفزع يكون بمعنى الذعر ، وبمعنى الاستنجاد والاستصراخ . فهو بهذا على وجهين . ولكنه يعود فيقول : ويكون أيضا بمعنى الاغاثة .

ويعقب السيد المرصفى على هذا في « رغبة الآمل » فيقول : كان حقه أن يقول : على ثلاثة أوجه لأنه عاد فأتى بالوجه الثالث .

وفى المبرد سمة المعلم البارع ، والمربى المحنك فهو حين يعرض لشيء من المعانى البعيدة على الأذهان يحاول أن يثبتها فى نفس قارئه أو مستمليه بشواهد طريفة على نحو ما فعل حين عرض لما قاله ابو بكر الصديق رضى الله عنه ساعة حضرته الوفاة معبرا

عن الله من المهاجرين الذين غضبوا حين عهد بالخلافة الى عمر فقال له عبد الرحمن بن عوف : « خفض عليك يا خليفة رسول الله فان هذا يهيضك الى ما بك » فقال المبرد وهو يشرح هذا القول :

يهيضك مأخوذ من هيض العظم اذا جبر ثم أصابه شيء يعنته فآذاه فكسره ثانية أو لم يكسره . ويقال عظم مهيض ، وجناح مهيض . ثم يشتق لغير ذلك ، ويعنى معاودة مرض أو هم ، أو حزن مرة بعد أخرى . ولكى يثبت هذا المعنى عند من يتلقى عنه يستطرد فيروى قصة يزيد بن المهلب الذى كان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد سجنه ، ولكنه كسر سجنه وهرب وكتب الى عمر يقول :

« انى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنك مسموم وأخشى أن يلى الأمر يزيد فيقتلنى شر قتلة » قال : وورد الكتاب الى عمر وبه رمق فقال : « اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءا فالحقه به ، وهضه فقد هاضنى » .

فانظر الى هذا النحو من الاستطراد المحمود الذى كان المبرد يعمد اليه كثيرا ليفيد معنى أدبيا ، أو خبرا تاريخيا ، ويثبت المراد من كلمة خاصة .

وفى مكان آخر يعرض للغة فيقول :

يقال : برىء يبرأ (بكسر الراء فى الماضى وفتحها فى المضارع) وبرأ يبرأ ويبرؤ مثل فرغ يفرغ ويفرغ (بفتح الراء فى الماضى ، وفتحها أو ضمها فى المضارع) ولهذا فان آية « سنفرغ لكم أيها الثقلان تقرأ على وجهين (أى بفتح الراء وضمها) . ثم يعود فيعرض نص عهد أبى بكر عند موته ، وهو العهد الذى أشار اليه آنفا ، : « هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله

عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر · انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك ظنى به ورأيى فيه ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ·

وأتبع المبرد هذا النص بتوضيح اعراب كلمة « أى » التى وردت فى الآية الكريمة التى ختم بها العهد فقال :

أى هنا منصوبة بقوله ينقلبون (نائبة عن المفعول المطلق) وليست منصوبة على أنها مفعول سيعلم ، لأن أدوات الاستفهام اذا كانت أسماء لا يعمل فيها ما قبلها ، كما يمتنع ما بعد همزة الاستفهام من أن يعمل فيه ما قبله · فتقول : علمت زيدا منطلقا ، فان ادخلت همزة الاستفهام قلت : علمت أزيد منطلق أم لا ، وكلمة أى بمنزلة زيد ، وقد قال الله تعالى : (لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » وقال : « فلينظر أيها أزكى طعاما » وأنت تقول : أيهم ضرب زيد ، بضم كلمة أى فى كل · وتقول : اعلم أيهم ضرب زيدا، على أن زيدا مفعول ضرب ، وأى مبتدأ · وتقول : أعلم أيهم ضرب زيد ، على أن أى مفعول ضرب وزيد هو الفاعل ·

وهو بهذا يقعد قاعدة نحوية يعرضها واضحة لا لبس فيها ، ولا تحتمل تأويلا ·

ثم يعرض لرسالة عمر الى ابى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، ومنها قوله : « المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو نسب » ·

ويقدم للرسالة بحكم أدبى عليها يعتبر نموذجا من نماذج النقد الأدبى فيقول انه رضى الله عنه « جمع فيها جمل الأحكام ،

واختصرها بأجود الكلام ، وجعل النـــاس يتخذونها بعده اماما ، ولا يجد محق عنها معدلا » ٠

وبعد هذا الحكم الأدبي أخذ في الشرح فقال في كلمة ظنين :

الظنين هو المتهم ، وأصله مظنون أى انه فعيل بمعنى مفعول٠ وهى من ظننت التى تتعدى الى مفعول واحد ٠ تقول : ظننت زيدا أى اتهمته ٠ وفى بعض المصاحف « وما هو على الغيب بظنين » يعنى قراءة مسعود ، وفى القراءات الأخرى « وما هو على الغيب بضنين »

ومن نماذج المحاورات الأدبية الوجيزة يقول :

« روى عن قنبر مولى على بن ابى طالب أن عثمان بن عفان اجتمع فى خلوة مع على بن أبى طالب وجعل يعـــاتبه ٠ فقـال له عثمان : ما بالك لا تقول ؟ فقال : ان قلت لم أقل الا ما تكره ، وليس لك عندى الا ما تحب » ٠

ثم يعرض نصا مختارا من خطب الامام على رضى الله عنه حين بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلت عاملا له اسمه حســـان ابن حسان :

« أما بعد ، فان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبــة عنه ألبسه الله الذل ، وسيما الخسف ، وديث بالصـغار ٠ وقد دعوتكم الى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا واعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات ٠٠٠ »

ثم مضى المبرد يشرح بعض الكلمات ، فكان مما قال :

« سيما الخسف : هكذا حدثونا ، وأظنه سيم الخسف من قول الله عز وجل « يسومونكم سوء العذاب » ٠ ومعنى قوله سيما

الخسف تأويله علامة ، هذا أصل ذا • قال الله عز وجل « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » • وقال عز وجل « يعرف المجرمون بسيماهم » • وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل « مسومين » بوزن اسم الفاعل أي معلمين ، وضعوا لأنفسهم علامة يعرفون بها واشتقاقه من السيما التي ذكرنا • ومن قال « مسومين » بصيغة اسم المفعول فانما أراد مرسلين من الابل السائمة أي المرسلة في مراعيها • وقال المفسرون في قوله تعالى « والخيل المسومة » القولين جميعا من العلامة والارسال • وأما قوله تعالى : « حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك » فلم يقولوا الا قولا واحدا ، قالوا : معلمة ••• »

وفي كلمة حسان قال :

« من أخذ حسانا من الحسن صرفه لأنه وزن فعال فالنون منه في موضع الدال من حماد (يعني أن النون أصيلة) • ومن أخذه من الحس لم يصرفه لأنه حينئذ فعلان فلا ينصرف في المعرفة ، وينصرف في النكرة لأنه ليست له فعلى فهو بمنزلة سعدان وسرحان » •

ثم قال : « وقوله ديث بالصغار تأويله ذلل ، يقال للبعير اذا ذللته الرياضة بعير مديث أي مذلل • وقوله في عقر دارهم أي أصل دارهم ، والعقر الأصل ، ومن ثم قيل : لفلان عقار أي أصل مال ••• »

ثم قال : « وقوله تواكلتم انما هو مشتق من وكلت الأمر اليك، ووكلته أنت الى أي لم يتوله واحد منا دون صاحبه ولكن أحال به كل منا على الآخر • وقوله اتخذتموه وراءكم ظهريا أي لم تلتفتوا اليه • ويقال : لا تجعل حاجتي منك بظهر أي لا تطرحها غير ناظر

اليها • وقوله : شننت عليكم الغارات أى صببت يقال : شننت الماء على رأسه أى صببته وشننت الشراب فى الاناء أيضا صببته » •

وهكذا نراه يعرض النص فيستقصى كلماته ، ويعرض المعانى عرضا واضحا ، ويبسط القاعدة النحوية ما وجد سبيلا اليها ، كما يضع قواعد للنقد كلما سنحت ملابسة فنراه فى أكثر من موضع يشيد بالاختصار المفهم ، والاطناب المفخم ، والايماء الذى يغنى عند ذوى الألباب عن الكشف •

ومن أقواله فى النقد : قد يغتفر السيىء للحسن ، والبعيد للقريب •

ومن رأيه أن الكلام يكون بليغا بالألفاظ البينة ، القريبة ، المفهمة ، الحسنة الوصف الجميلة الرصف • ويمثـــل لهذا بقول الحطيئة :

وذاك فتى ان تأته فى صنيعة ... الى ما له لم تأته بشـفيع

وبقول عنتره :

يخبرك من شهد الوقيعة اننى ... اغشى الوغى ، واعف عند المغنم

وبقول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين الســماحة والبذل

ثم مثل لأقبح الضرورات ، وأهجن الألفاظ ، وأقبح المعانى بقول جرير :

وما مثله فى النــاس الا مملكا ... ابو امه حى ابوه يقــاربه

وقال : انه دل على أن الممدوح خال الملك ، ولكنه دل عليـــه بهذا اللفظ البعيد ، وهجنه بما أوقعه فيه من التقديم والتأخير • وهكذا قال كل النقاد من بعده •

ومن آرائه فى النقد قوله :

كان أبو العتاهية لا يكاد يخلو شعره مما تقدم من الأخبار والآثار فينظم فى ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقه · وقد قال فى الرثاء :

بكيتك يا أخى بدمع عينى فلم يغن البكاء عليك شيا
كفى حزنا بدفنك ، ثم انى نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات وانت اليوم اوعظ منك حيا

فقوله « وأنت اليوم أوعظ منك حيا » انما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حين مات فانه قال فى ذلك الوقت : كان الملك الأمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ·

ثم قال المبرد : وقول أبى العتاهية أيضا :

قد لعمرى حكيت لى غصص المو ت وحركتنى لها وسكنتا

قد أخذه من نادب الاسكندر فانه لما مات بكى من بحضرته ، فقال نادبه : « قد حركنا بسكونه » · وقد علق السيد المرصفى فى « رغبة الآمل » على هذا بقوله : ان الشاعر أخذ المعنى من كلام الفلاسفة لما حضروا موت الاسكندر ، أما قباذ فليس له من أثر جليل ولا عمل جميل · وكل ما عمله أنه استباح الحرمات ، وهتك الأعراض اتباعا لمزدك الزنديق الذى ظهر فى أيامه ·

وفى قول أبى العتاهية :

يا عجبا للناس لو فكروا وحاسبوا انفسهم ابصروا
وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم معبر

قال المبرد : البيت الأول مأخوذ من الحكمة الشائعة التى تقول : « الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك » · والبيت الثانى

مأخوذ من قول الحسن البصرى : « اجعل الدنيـــا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها » • ثم قال : والمعبر بفتح الميم اسم للشط المهيأ للعبور وبكسر الميم اسم لما يعبر به الإنسان النهر كالفلك والقنطرة• وبذلك وضح الفرق بين اسم المكان واسم الآلة •

ثم قال : وقول أبى العتاهية :

ما بال من أوله نطفـــة وآخره جيفـــة يفخر ؟

مأخـوذ من قول الامام على « ما ابن آدم والفخر ؟ انما أوله نطفة ، وآخره جيفة • لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه » •

وعرض أبياتا للشاعر نصيب فى المدح وقال :

هذا باب فى المدح حسن ومبتدع لم يسبق اليه ، ولكنه ليس بأجود من قول الفرزدق فى الفخر ، وان كان التفاضل بين الشيئين لا يستقيم الا اذا تناسبا (يعنى أن يكون موضوعهما واحدا) •

وروى أن ابن أبى عيينة قال :

ما راح يوم على حى ولا ابتكرا الا رأى عبرة فيـــه ان اعتبرا
ولا أتت ساعة فى الدهر فانصرمت حتى تؤثر فى قول لهـــا أثرا
ان الليـــالى والأيام أنفســـها عن غير انفسـها لم تكتم الخبرا

وبعد أن روى هذه الأبيات قال ان أبا تمام حبيب بن اوس الطائى أخذ هذا المعنى فقال :

عمرى لقد نصـح الزمان ، وانه لمن العجائب ناصح لا يشـفق

ولكنه جمع المعنى فى ألفاظ يسيرة ، وزاد شيئا طريفا وهو قوله : « ناصح لا يشفق » وهكذا يفعل الحاذق بالكلام •

وفى ضرورات الشعر وما يجوز للشاعر يقول : « للشاعر اذا اضطر أن يجعل الممدود مقصورا ، ولكن ليس له ان يجعل المقصور ممدودا وذلك أن الممدود قبل آخر الف زائدة فاذا حذفها رد الشيء الى أصله ، لو مد المقصور لكان زائدا فى الشيء عن أصله ٠

وهكذا يستقصى المبرد المعانى التى يتناولها الشعراء ، ويفرق بين الأصيل منها والمولد ، وقد وضع بذلك أساسا لما سماه النقاد « باب السرقات الشعرية » ان لم يكن هو أول من نبه الأذهان اليه فقد أثار الاهتمام به ٠

وكتاب الكامل حافل بالاستقصاءات اللغوية فمن ذلك مثلا :

يقـــال : فشل فلان عن كذا اذا هابه فنكل عنه وامتنع عن المضى فيه ٠

ويقال : اعتبط الرجل (بالبناء للمجهول) أى مات شابا من غير مرض ٠ وأصل العبيط الطرى من كل شيء ومن اللحم الذى لم ينضج ، أو من الدم قبل أن يتجمد ٠

وأجرى كلاما عن التزوج من غير العربيات وأنشـــد بيتى الرقاشى السابق ذكرهما (صفحة ١٢)

ان أولاد السرارى ٠٠٠

ثم قال : الهجين عند العرب هو الذى يكون أبوه شريفا وأمه وضيعة ٠ والأصل فى ذلك أن تكون أمة (جارية مشتراة) ٠ أما اذا كانت الأم كريمة ، والأب خسيسا قيل له : المذرع أو المقرف وروى أن عبد الملك بن مروان قيل له : ما المروءة ؟ فقال : موالاة الاكفاء ، ومداجاة الأعـــداء ، ثم قال : المداجاة هى المداراة ٠ أى لا تظهر لأعدائك ما عندك من العداوة ، وأصله من الدجى وهو ما البسك الليل من ظلمته ٠

ثم روى قول الشماخ بن ضرار :

اذا ما راية رفعت لمجـــد تلقـــاها عرابة باليمين

وقال : باليمين أى بالقوة · ومثـــل ذلك قول الله تعـــالى « والسموات مطويات بيمينه » ·

وتحدث فى الكامل عن الخوارج ومذهبهم وشيعهم وحروبهم، وأفاض فى مواقعة المهلب بن ابى صفرة لهم ، وذكر عيون أبيات الشعر التى قيلت فى كل ذلك ، وشرح غامض الفاظها ، وعرض لما يستحق النظر من الاعراب فيها ، ومن ذلك قوله : قال رجل من الخوارج فى موقعة سولاف :

وكائن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى فى الجحيم مصيرها

ثم أخذ يوضح كلمة « كائن » فقال :

كائن معناه كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت عليه أى وكتب تنوينها نونا وصارتا بمنزلة كم · ثم يستطرد فيقول : ونظير ذلك قولك « له كذا وكذا درهما » فكلمة كذا هى : ذا ودخلت عليهـا الكاف ، والمعنى له كهذا العدد من الدراهم · فاذا قال : « له كذا كذا درهما » فهى كناية عن دراهم تنحصر فيما بين أحد عشر وتسعة عشر درهما · وان قال : « له كذا وكذا درهما » كان كناية عن عدد يجوز فيه العطف (من واحد وعشرين الى تسعة وتسعين عدا ألفاظ العقود) ثم عاد الى « كائن » فقال : كثر استعمالها فخففت ، ولكن التثقيل هو الأصل · قال الله تعالى « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها ـ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير » ·

وفى موضوع الخوارج عنى بالرســائل التى تبودلت خـلال حروبهم مع الدولة ، وعنى بذكر طرائف القصـص والنوادر التى

جرت • واستغرق ذلك حيزا كبيرا من الكتاب جعل من يتلمسون العيوب فيه يرمونه بالتعصب للخوارج •

وخصص بابا لعرض نماذج من الخطب والمواعظ والتحميدات الوجيزة البليغة ، وكان مما اختاره :

ــ خطبة أبي طالب عم النبى حين تقدم ليخطب له السيدة خديجة • قال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس• ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخي من لايوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا وجلالا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة • وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » •

ــ قال الحسن البصرى يعزى الأشعث بن قيس :

« ان صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور » •

ــ لما عقد معاوية ولاية العهد لابنه يزيد أقعده فى قبة حمراء وأقبل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون الى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع الى معاوية فقال :

يا أمير المؤمنين أعلم انك اذا لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها • هذا والأحنف جالس فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ قال : أخاف الله ان كذبت ، واخافكم ان صدقت • فقال له معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا ، وأمر له بألوف • فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر انى لأعلم أن

شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال فلسنا نطمع في استخراجها الا بما سمعت ٠ فقال له الأحنف : يا هذا امسك فان ذا الوجهين خليق الا يكـــون عند الله وجيها ٠

ـ احتضر عمرو بن العاص فدخل عليه ابن عباس وقال له :

يا أبا عبد الله كنت تقول أشتهي أن أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف يجد ، فكيف تجدك ؟

قال : أجد السماء كأنهـا مطبقة على الأرض وأنا بينهمـا ، وأراني كأنما أتنفس من خرت (ثقب) ابرة ٠ ثم قال : اللهم خذ مني حتى ترضى ٠ ثم رفع يديه وقال : اللهم أمرت فعصينا ، ونهيت فركبنا ، فلا بريء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكن لا اله الا الله قالها ثلاثا ثم فاظ ٠

ويتضمن كتاب الكامل أيضـــا كثيرا من الأمثال ، يذكرهـا ويشرحها ٠ ومن ذلك :

عش ولا تغتر : يقول ان هذا المثل أصله أن العربي قد يمـر بأرض مكلئة فيتركها أمـــلا في أن يرد على أخرى وهو لا يدرى ما يرد عليه ٠

ثم قال : وقريب منه « أن ترد الماء بماء أكيس » وتأويله أن يمر الرجل بالماء فلا يحمل منه اتكالا على ماء آخر يصير اليه ، فيقال له : أن تحمل الماء معك أحزم لك فان أصـــبت ماء آخر لم يضرك ما معك ، وان لم تحمله فربما لا تجد ماء فتعطب ٠

ويستعرض المبرد في كتاب « الكامل » ما تبودل بين معاوية بن أبي سفيان وعلى بن ابي طالب منذ بدأ الشقاق بينهما على الخلافة بعد مقتل عثمان ، وتناول كل كلمة غريبة بالشرح والايضـــاح ،

وكلما وردت اشارة الى حادثة أفصح عنها وبسط جوانبها ، ، ثم يستخرج مسائل النحو وأوجه الاعراب فى غوامض الكلمات والتركيبات ٠

وفى باب من أبواب « الكامل » يقول :

نذكر فى هذا الباب من كل شيء شيئا لتكون فيه استراحة للقارىء ، وانتقال ينفى الملل لحسن موقع الاستطراف ، وتخلط ما فيه من الجد بيسير من الهزل ليستريح القلب ، وتسكن اليه النفس ٠

ثم يمضى فيسرد طرائف أدبية رائعة يوضح مناسبها ، ويشرح غامض ألفاظها ، ويعرض لغريب النحو فيها ٠

ومن الطرائف التى رواها واتخذ من غريب الفاظها درسا فى اللغة والنحو قصة ذات مغزى اجتماعى فحواها ان صرافا أفلس لأن الذين أودعوا أموالهم لديه ألحوا فى طلبها ، والذين اقترضوا منه تعذر عليه أن يحصل منهم ٠ ولكى يخرج من هذا المأزق لجأ الى جيرانه ليذهبوا معه الى رجل من سلالة أجواد قريش عرف عنه أنه واسع الثراء ، وذهب معه هؤلاء الجيران الى القرشى الثرى ، فلما عرضوا عليه حاجتهم قام يمشى فى عظمة ، وأخذ ينشد أبياتا من الشعر معناها أن خير أوجه صرف المال أن يكون صنيعة فى الله ، أو أنَ يقدم الى صديق يحبك وتحبه ، والا كان الضن به حزما وقوة ، وكان صرفه سفها وضعفا ٠ ثم قال لهم : اننا نصرف فضول أموالنا فى حقوق واجبة ، وليس منها أن نعين كل من أفلس من الصيارفة٠ قوموا عنا يرحمكم الله

ومن الطرائف التى رواها ما قصد به الاشارة الى تفضيل الأدب على المال فقال :

يروى عن بعضهم أنه قال : انى أحب البقاء ، وكالبقاء عندى حب الثناء ·

وقال معاوية لابن الأشعث بن قيس : ما كان جدك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟

فقال : أعطاه مالا وظهرا ورقيقا ، وأشياء أخر لا أذكرها · فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا ينسى ·

وقال عمر بن الخطاب لابنة هرم بن سنان : ما وهب أبوك لزهير ؟ فقالت : أعطاه مالا وأثاثا أفناه الدهر · فقال عمر : لكن ما أعطاكموه زهير لم يفنه الدهر ·

وروى أن أبا العتاهية كان قد رجا أن يؤذن له فى تقديم هدية الى أمير المؤمنين فى النيروز ، فلما أذن له قدم برنية (جرة) وأبو العتاهية كان يصنع الجرار يبيعها ، وفى داخل البرْنية ثوب ناعم مطيب ، قد طرزت حواشيه بالبيتين التاليين :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة   الله والقائم المهدى يكفيها
انى لأيأس منها ثم يطمعنى   فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وفهم الخليفة أنه يرمز الى جاريته عتبة التى كان أبو العتاهية يتعشقها ، ولذلك هم بدفع عتبة اليه لولا أنها جزعت وقالت : يا أمير المؤمنين حرمتى وخدمتى ! أتدفعنى الى رجل قبيح المنظر ، بائع جرار ، متكسب بالعشق ؟ فأعفاها الخليفة وقال : املئوا له الجرة مالا · فقال أبو العتاهية للكتاب : أمر لى بدنانير · فقالوا : ماندفع ذلك ولكن اذا شئت أعطيناك دراهم الى أن يفصح الخليفة بما أراد · فظل أبو العتاهية على ذلك حولا · فقالت عتبة : لو كان عاشقا كما يزعم ماكان ليختلف حولا كاملا فى التمييز بين الدراهم والدنانير ويضرب عن ذكرها صفحا ·

ومن الفكاهات التى رواها للترويح ان رجلا يدعى «أبا الحارث جميز دعته واحدة كان يحبها ليزورها ، فلما ذهب اليهـــا ظلت تحادثه ولا تذكر الطعام • فلما طال به ذلك قال لها : جعلنى الله فداءك • لم أسمع منك للغداء ذكرا • فقالت : أما تستحى ؟ أما فى وجهى ما يشغلك عن ذاك ؟ قال لها : جعلنى الله فداءك ، لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئا لبزق كل منهما فى وجه الآخر وافترقا •

وروى عن أبى عبيدة من غير وجه أن نافع بن الأزرق ســأل ابن عباس فقال : أرأيت نبى الله سليمان مع ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته ؟ فقال ابن عباس : انه احتاج الى الماء ، والهدهد قناء (عليم بمواضع الماء) ، والأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك • قال ابن الأزرق : قف يا وقاف كيف يبصر تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار اصبع من التراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا بن الأزرق ، أما علمت أنه اذا جاء القدر عشى البصر !

ويتضمن كتاب « الكامل » كثيرا من روائع الحكم والنصائح التى تهذب النفس ، وتسمو بالروح ، وتهذيب النفس وصـــفاء الروح الزم ما يلزم للأديب ليكون أديبا صـــادقا ، ونحسب أن ما تضمنه كتاب « الكامل » من هذا كان من أسباب اعتباره ركنا من أركان الأدب • ومن أمثلة ما اشتمل عليه « الكامل » من ذلك :

يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى ، قال : من أكل وحده ومنع رفده ، وضرب عبده ، ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا • ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ قالوا : بلى • قال : من يبغض الناس ويبغضونه •

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمرء كثير بأخيه ٠

وقال على بن أبى طالب : من لانت كلمته وجبت محبتـه ، وقال : قيمة كل امرىء ما يحسن ٠

وقال عمر بن الخطاب : ثلاث يثبتن لك الحب في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء اليه ٠

وقال بعض الملوك يمتحن بعض وزرائه : ما خـير ما يرزقه العبد ؟ قال : عقل يعيش به ، قال : فان عدمه قال : فأدب يتحلى به ٠ قال : فان عدمه ؟ قال : فمال يستره ٠ قال : فان عدمه ؟ قال: فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد ٠

هذا تعريف بالأثر الأدبى الخالد الذى خلفه لنا المبرد ، والذى يجب على كل دارس للعربية أن يحرص على قراءته ، والافادة منـه فانه كما قال ابن خلدون بحق ركن هام من أركان الأدب ٠ هذا وسنعرض فيما يلى موازنة يسيرة بين المبرد وكتابه « الكامل » وابن قتيبة وكتابه « عيون الاخبار » ٠

بين المبرد وابن قتيبة

ابن قتيبة هو العالم الأديب الناقد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الفارسي الأصل ، ولد في بغداد أو الكوفة سنة ٢١٣ هـ من أبوين مسلمين متعربين . وتوفي سنة ٢٧٦ هـ .

وقد كان معاصرا للمبرد ، وقضى كل منهما شطرا من حياته في مدينة بغداد حيث كانت هذه المدينة حاضرة الدولة العباسية الوارفة الظلال ، الغاصة بالمتعلمين والعلماء ، الحافلة بالمتأدبين والأدباء ، وملتقى الخاصة والعامة .

وابن قتيبة كان عالما حجة ثبتا قديرا ، له آثار عظيمة رائعة تناولت فنونا مختلفة من المعرفة أهمها كتاب « عيون الأخبار » .

ويذكر الأدباء أن هذا الكتاب قد خطا بكتب المختارات الأدبية خطوات واسعات نحو الكمال ، وذلك أنه رتب المختارات وبوبها ، وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد ، مثل كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء .. وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته في غير عناء ، وهو حين يتناول الموضوع يستقصيه استقصاء شاملا ، فاذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته ، وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار عماله

وكتابه وبطانته ، وغير ذلك ، موردا فى ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم ، والشعر الرائع ، والنادرة اللطيفة ، والفكاهة البارعة .. كل ذلك فى تنسيق بديع ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن يرشح لها باستطراد مناسب » (١) وهذا ما لم يفعله المبرد فى كتابه « الكامل » الذى غلب عليه الاستطراد ، وخلا من التنظيم والتبويب والتنسيق .

وهذه هى الحقيقة التى لامراء فيها ،

والذى يثير التساؤل هو ذلك التفاوت البين بين هذين العملين العظيمين مع وجود صاحبيهما فى عصر واحد .

وقد رأى بعض الأدباء أن السبب فى ذلك يرجع الى الاصل الأعجمى والثقافة الفارسية ، فابن قتيبة بأصله الفارسى وثقافته الأعجمية يمثل الثقافة الاسلامية ، أما المبرد بأصله العربى الخالص فانه يمثل الثقافة العربية الخالصة التى لم تهذبها الثقافات الأجنبية وهذه فى الواقع احدى وجهات نظر المستشرقين الذين لا يقدرون العرب حق قدرهم ، وينسبون كل فضل ظهر فيهم للأعجميين .

فالأدباء الذين يذكرون فضل ابن قتيبة يجعلون من مفاخره ان معارفه مطعمة بأقوال فارسية وحكم هندية وثقافات يونانية ، وهذه الثقافة هى التى أوحت اليه ترتيب مختاراته وتنسيقها ، فى حين ان المبرد فى كتابه « الكامل » وأستاذه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » لم يحفلا بالتبويب والتنظيم والتنسيق .

ولكن ، هل من الضرورى اذا ما تواجد اثنان فى عصر واحد

---

(١) ابن قتيبة ـ سلسلة اعلام العرب ـ للدكتور عبد الحميد سند الجندى ص ١٢٣ .

أن يتفقا في المنهج والرأى ؟ لا ، فليس من شرط المعاصرة أن يتفق المتعاصران في كل شيء ، وأن يكون كل منهما صورة من الآخر ، فقد يتعاصر الشاعران ويتجه كل منهما اتجاها يغاير اتجاه الآخر، ويتعاصر العالمان ويعنى كل منهما بفرع من فروع المعرفة ، فليس غريبا أن يتعاصر ابن قتيبة والمبرد ويختلف اتجاههما في التاليف .

وليس من أسباب الاختلاف بين هذين الأديبين والبارعين اختلاف الثقافة ، فمنذ عصر الرشيد ظهرت نهضة واسعة في ترجمة الآداب والعلوم الأجنبية بلغت قمتها في عصر المأمون ، وأفاد منها العرب والمتعربون على السواء ، ولا نحسب المبرد قد فاته ان ينهل منها مذ كان طالبا ، مجدا ، واعيا ، قوى الذاكرة ، مرموقا من أساتذته وكل من حوله ، أو مذ صار العالم المعلم البارع الذى يتزعم أحد مذهبين سادا العالم العربي وهما مذهب البصريين ومذهب الكوفيين .

والجاحظ نفسه قد أفاد من ثقافة اليونانيين وهو أستاذ المبرد بدليل ما جاء في كتاب الدكتور الجندى (١) عند موازنته بين الجاحظ وابن قتيبة فقد ذكر أن ابن قتيبة كان يضع مؤلفاته لغرض التعليم والافادة ، والجاحظ يتخير موضوعات مؤلفاته مما يجذب الناس ويدخل في نفوسهم الامتاع والتسلية ، ولهذا كانت كتبه خليطا من كل فن ، ثم قال : « ولا شك أن ثقافة الجاحظ اليونانية كانت أضخم مما عرف ابن قتيبة » فالجاحظ اذن قد اتسعت ثقافته اليونانية ، ومع اتساع هذه الثقافة شاعت الفوضى في كتبه ، وقد تأثر المبرد بها ، ولو كان الأمر أمر ثقافة أجنبية لبرئت كتب الجاحظ وكتب المبرد مما وصفت به .

---

(١) المرجع السابق .

ان الحق فى هذه القضية أن كتاب « عيون الأخبار » يختلف نظاما وترتيبا عن كتاب « الكامل » ولكن ليس السبب هو الأصل الأعجمي والأصل العربى ، أو الثقافة الأجنبية والثقافة العربية الخالصة ، ولكن السبب الأصيل هو طبيعة كل من الكتابين ، فابن قتيبة يقول فى مقدمة كتابه « عيون الأخبار » هذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الناشد طلبها ، جمعت لك منها ما جمعت لتأخذ نفسك بأحسنها ، وتصل بها كلامك اذا حاورت وبلاغتك اذا كتبت ، وتستنجح بها حاجتك اذا سألت ، وتتلطف فى القول ان نفعت ، وتخرج من اللوم بأحسن عذر اذا اعتذرت ٠٠»

فهو منذ البداية يقرر أن كتابه سيكون ما يسمونه « المعلم بدون معلم » أو سيكون معجما لموضوعات كانت لازمة فى عصره غايتها أن يسهل على المريد طلبها ، فهو يضع بابا يعين المحاور على المحاورة ، أو يعين كاتب الرسائل على البلاغة ، أو يعين المعتذر على حسن الاعتذار ، أو السائل على التلطف فى المسألة ٠٠ وهكذا ٠

وطبيعة كتاب كهذا لا بد أن يكون كل باب فيه يتناول موضوعا بذاته ، وهذا تنسيق منطقى مصدره طبيعة الكتاب وليست الثقافة الأجنبية أو الأصل الأعجمى ٠

أما المبرد فيقول فى مقدمة كتاب « الكامل » : ـ « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ٠

« والنية فيه أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام

غريب أو معنى مستغلق وأن نشرح ما يعرض من الأعراب شرحا وافيا .. »

واذن فكتاب « الكامل » كما تقول مقدمته مختارات من الأدب الجيد المشتمل على كلام غريب ، ومعنى غامض ، وغايته أن يغذى طالب الأدب بهذه النصوص الجيدة ، وأن يبصر المتعلم باللغة ، فيشرح له الكلمات الغامضة شرحا مستفيضا ، ويبصر طالب الأدب بالمعانى الغامضة لتتضح له ويقيس عليها غيرها ، ويبصر طالب النحو بشرح اعراب الكلمات الغريبة شرحا وافيا ، وعلى هذا فهو ليس كتاب لغة وحسب فيأتى به مرتبا ترتيب المعاجم ، وليس كتاب نحو خالصا فيأتى به مبوبا كتبويب كتابه « المقتضب » وليس مجرد مختارات من الشعر والنثر فيسوقها مرتبة ترتيبا طبقيا أو زمنيا ، وانما الكتاب فى حقيقته دروس كان يمليها فى حلقة درسه ، فيختار فى كل درس نصا من النثر أو الشعر يتولاه بالشرح والتحليل ، وتدعوه الكلمة أو العبارة أو المعنى الى الاستطراد ، فينتقل من الخطبة الى الشعر ، ومن الشعر الى المثل ، ومن المثل الى الحكمة وهكذا ، واحيانا كان ـ كشأن كل معلم بارع ـ يحس بكلال سرى الى أذهان المتحلقين حوله فينشط أذهانهم برواية فكاهة ، أو نادرة ، أو قصة مستملحة يستروحون بها ، وفى الوقت ذاته يفيدون مما تضمنته من كلمات غريبة أو معان بعيدة .

فكتاب « الكامل » كان دروسا تملى فى حلقة الدرس ، ولهذا فان النسخة التى وصلت الينا كانت رواية مستمليها وهو تلميذه النابغ « أبو الحسن على بن سليمان الأخفش » .

ولسنا نبغى من كل هذا الا أن ننفى عن المبرد ما وصف به من الفوضى فى التاليف ، فطبيعة كتاب « الكامل » هى التى اقتضت الحال أن يصل الينا بها ، والتى جعلت ناقديه يصفونه بالفوضى .

أما خلو هذا الكتاب من أن يطعم بالأقوال الفارسية أو الحكم الهندية أو الثقافات اليونانية فليس نتيجة قصـــور • ولكن لأن الكتاب يحتاج الى نصوص عربيـــة خالصـــة تكون مجالا للشرح وللاعراب ، ولم يكن يعرض للأقوال المترجمة الا حين ينقد شعرا فيبين أن معناه مستمد من قول أعجمى على نحو ما فعل وهو ينقـــد قول أبى العتاهية : ـ

وكانت فى حياتك لى عظات   وانت اليوم أوعظ منك حيا

فقـــد أشار الى أن هـــذا مأخوذ من قول بعض الأعاجم يندب مليكه فيقول : ـ « كان الملك بالأمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه بالأمس » •

وأما كون المبرد أكثر من ذكر الخوارج والاستشهاد بأقوالهم فليس يعنى الميل اليهم أو التعصب لهم وقد سبق أن نفينا عنه فى غير هذا الموضع تهمة التعصب ، وانما حقيقـــة الأمر فى هذا أن الخوارج تميزوا بأدب رائع ، وخطب بليغة ، وتعبيرات متخيرة ،وكل ذلك يتلاءم مع منهج الكتاب ، فلم يكن بد من أن يجعل أدبهم يحتل حيزا كبيرا من كتابه افادة من أدبهم لا تحيزا أو تمجيدا لمذهبهم •

ولولا أن كتاب « الكامل » فى بابه يفضـــــل كتاب « عيون الأخبار » ما عده شيوخ العلم والأدب ممن سبقوا ابن خلدون أو عاصروه أو جاءوا بعده ركنا من أركان الأدب ، ولم يعدوا « عيـون الأخبار » من هذه الأركان •

ثانيا - كتاب الفاضل

لم يكن كتاب « الفاضل » للمبرد معروفا اذ لم تكن تعرف منه الا نسخ مخطوطة محفـــوظة فى بعض مكتبات أوربا ، ونســـخة مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ،ثم شاء الله لهذا الكتاب أن يظهر ، وأن يتداول منذ طبعته دار الكتب المصرية فى ديسمبر سنة ١٩٥٥.

وقالت دار الكتب المصرية فى تصدير أولى طبعات هذا الكتاب: « ان هذا النص لم ينشر من قبل ، وانه - على نفاسته - لم يكن معروفا ولا متداولا ، وأن الأستاذ عبد العزيز الميمنى رئيس القسم العربى بجامعة كراتشى بباكستان قد عثر عليه فى احدى خزائن مكتبات استانبول فصوره ، ثم كتبه بخطه ، ثم حققه وقدمه لدار الكتب معدا للطبع وجميع من أرخوا للمبرد لم يذكروا من بين آثاره اسم « الفاضل » وانما ذكروا اسم « الفاضل والمفضول » ولـكن موضوع الكتاب وأسلوبه ينمان فى وضوح على أنه للمبرد » .

وقد يعثر أحد الباحثين مستقبلا على « المفضــول » فيتم الكتاب .

وموضوع كتاب « الفاضل » كما يقول المبرد نفسه (صفحة ٦٨ من طبعة دار الكتب) : « قصدنا فيما نحكيه فى كتابنا هذا حسن الاختيار ، وكثرة الاختصار ، وذكر ما يستغنى به عن غيره ، ويقنع بمثله عن نظيره ، وانما نذكر فى كل باب أحسن ما روى لنا فيه ، وأطرف ما نمى الينا منه » ومؤدى هذا أن أسلوبه فى كتاب « الفاضل » هو أسلوبه فى كتاب « الكامل » كلاهما يعتمد على الطرائف وحسن الاختيار .

ابواب كتاب الفاضل :

الأبواب التى اختارها لهذا الكتاب هى :

فضل الشعر — أخبار وأحاديث — نوادر من غريب ولغة — من الشعر — الجود والكرم — أخبار وأشعار — من الأخبار المستحسنة — مراث بليغة — عظات موجزة وأبيات مستحسنة — أخبار المعمرين — أشعار العرب المحدثين — ذم الشيب وفقد الشباب — الاحالة بالذنب على غير المذنب — الحلم والأناة — الشكر الضائع — فصل فى الحسد — فى كتمان السر — فى تفضيل الكبير — فى الفصاحة — فى الجمال •

ونكاد نقطع أنه الف الفاضل بعد الكامل لأن الفاضل أحسن تقسيما ، وان كانت الخطة واحدة ، والأسلوب غير مختلف •

عرض موضوعات الكتاب :

استفتح الكتاب بحمد الله ، وبين أن العلماء أحسن طاعة لله ممن عداهم ، وأنهم أشد تقربا منه ، وان الله فضلهم على سائر نظرائهم من خلقه • ويروى أن الأحنف بن قيس رأى الناس يقبلون على الحسن البصرى يسألونه فى أمور دينهم ودنياهم فقال : كاد العلماء أن يكونوا أربابا •

ثم يحلل طبيعة الانسان فيقول : أعجب ما فى الانسان قلبه، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها • فان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وان هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الأسف ، وان عرض له الغضب استبد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وان ناله الخوف شغله الحذر • وان اتسع له الأمر استلبته الغرة ، وان أفاد مالا أطغاه الغنى ، وان عارضته

فاقة فضحه الجزع ، وان جهده الجوع قعد به الضعف ، وان أفرط في الشبع كفته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد •

ثم يذكر أن أفضل ما قصد له من العلوم كتاب الله وما اشتمل عليه ، ويأتي بعده علم اللغة واعراب الكلام ، ويروى فى هذا قول الشاعر :

النحو يطلق من لسان الألكن　　والمرء تعظمه اذا لم يلحن
فاذا طلبت من العلوم اجلها　　فاجلها منها مقيم الألسن

ثم قال مؤرخا لظهور علم النحو :

كان الصدر الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعربون طبعا حتى خالطهم العجم ففسدت السنتهم ، وتغيرت لغاتهم •• ثم يروى أن السبب الذى بنيت له أبواب النحو ، وعليه أصلت أصوله ان ابنة ابى الأسود الدؤلى قالت : يا أبت ما أشد الحر (برفع كلمة أشد وجر ما بعدها) قال : الحصباء الرمضاء • قالت : انما تعجبت من شدته قال : أو قد لحن الناس ؟ ثم أخبر عليا بذلك فأعطاه أصولا بنى منها ، وعمل عليها •

وينتقل الى « فضل الشعر » فيذكر أن النبى عليه السلام أثاب شاعرا مدح الله تعالى ، وأنه عليه السلام كان يستحسن قول لبيد •

الا كل شيء ما خلا الله باطل　　وكل نعيم لا محالة زائل

وأن ابن عباس رضى الله عنه كان يقول : اذا أشكل عليكم شيء من القرآن فارجعوا فيه الى الشعر فانه ديوان العرب ، وأنه رضى الله عنه كان اذا سئل عن معنى آية من القرآن فسرها بشاهد من شعر العرب •

ثم يشرح قول الرسول عليه السلام « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » فيقول ان النبى أراد بهذا شعر الهجاء ، ويقول هكذا فسرته عائشة رضى الله عنها •

ثم ينتقل الى « باب فيه أخبار وأحاديث » فيذكر عناصر الخلق العظيم فيروى عن محمد بن الحسن بن الحسين بن على أن الله عز وجل أدب نبيه الكريم فقال « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » فلما قبل النبى عن ربه ، وعمل بما أمره به أثنى عليه فقال : « وانك لعلى خلق عظيم » •

ويروى فى هذا الباب خطبة الامام على بين يدى النبى حين طلب الزواج من فاطمة ، وخطبة أبى طالب حين تقدم بطلب زواج خديجة من النبى الكريم •

وينتقل بعد هذا الى عرض « نوادر من غريب ولغة » فيذكر فيما يذكر أن المازنى روى أن الأصمعى قال : سمعت أعرابيا يقول : « جاءت فقيم تفايش بقبائلها » أى تفاخر ، كما قال جرير : « ••• ولا تفخروا ان الفياش بكم مزر » •

ويروى من الأمثال قولهم « أحيا من ضب » ويفسر ذلك بأن الضب يقال انه يعيش ثلثمائة سنة ، وانه اذا ذبح لا يموت سريعا •

ثم يفسر الأسودين بأنهما التمر والماء ، ويفسر الأحمرين بأنهما اللحم والنبيذ •

ويقول : كانت أم الهيثم من افصح من رأيت ، وقد سمعتها تقول : الشانئة لا ترضى الا بجرزة « ويشرح قولها بأن الشانئة هى المبغضة ولا ترضى عمن أبغضته الا باستئصاله ، الجرز هو

الاستئصال ولهذا قيل : سيف جراز أى يقطع كل ما يمر به ، ورجل جروز أى يجلس على الطعام فيفنيه ·

وبعد هذا ينتقل الى « باب من الشعر » فيورد مختـــارات لا يشرح منها الا ما يبـــدو له أنه فى حاجة الى شرح كقول توبة بن الحمير :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت وقد رابنى منها الغداة سفورها

ويقـــــول فى شرح هذا البيت ان المرأة كانت اذا تزوجت أسفرت عن وجهها ليعلم من يراها أنه لا سبيل اليها ، لذلك قال توبة : « وقد رابنى منها الغداة سفورها » ·

ومختاراته فى هذا الباب محصورة فى الغزل والنسيب كقول العباس بن الأحنف :

أتأذنــون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء انطال الجلوس به عف اللسان،ولكن فاسق النظر

وفى مطلع « باب فى الجود والكرم » أدار الحديث حول كرم عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فيذكر فيما يروى عنه لأنه خرج يريد معاوية بن أبى سفيان ، وفى الطريق أخذته السماء ورأى عن يمينه خباء فمال اليه واذا فيه رجل شيخ رث الهيئـــة لكنه خف لاستقباله ورحب به ، ثم دخل الى زوجته وقال لها : هيئى عنزتك حتى أقضى بها ذمام هذا الرجل · فقالت : قد علمت أن معيشـــة هاتين الصبيتين منها وأخشى أن تموتا بعدها وهى تعنى ابنتيهما · فقال : موتهما خير من اللؤم · ثم قبض على رجل العنزة وجرها الى المذبح ونحرها ، ثم طبخ وأطعم ضيوفه يومين وليلتين · ولما أراد عبيد الله الانصراف قال لغلامه : ارم لهذا الشيخ بما أخرجت من

النفقة • قال الغلام : ان هذا لكثير ، أعطه مثل شاته خمس مرات وكفى فهو لا يعرفك • فقال عبيد الله لقد ذبح الشاة التى لا يملك غيرها ، وان كان لا يعرفنى فأنا أعرف نفسى • نفذ ما طلبت منك• قال : انها أكثر من خمسمائة دينار قال : وان كثرت • فرمى الغلام بها الى الرجل •

وفى أثناء عودة عبيد الله مر بالرجل فوجد مظاهر النعمة والكرم ، ولما رآه الرجل لم يعرفه أولا ، ثم تذكره فجعل يقبل رأسه ويدعو له ، ويذكر له أنه قال فيه أبياتا منها :

توسمته لما رأيت مهابة عليه ، وقلت المرء من آل هاشم
فقمت الى عنز بقية أعنز فأذبحها فعل امرىء غير نادم
فعوضنى منها غناى ولم تكن تساوى قليلا من قليل الدراهم

فضحك عبيد الله وقال : أعطيتنا أكثر مما أخذت • يا غلام، أعطه مثلها •

ومما اختار فى الحض على الكرم قوله : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابن آدم يقول مالى مالى • ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت » •

واختار كذلك قول الأحنف بن قيس وقد نظر الى درهم فى يد رجل يقلبه فقال : أما انه ليس لك حتى يخرج من يدك •

ثم يتبع الحديث عن الكرم والكرماء بمختارات من الشعر تدور فى هذا الفلك كقول عتبة بن بجير :

سأقدح من قدرى نصيبا لجارتى
وان كان ما فيها كفافا على أهلى
اذا أنت لم تشرك صديقك فى الذى
يكون قليلا لم تشاركه فى الفضل

وكقول العتبى :

ليس العطاء من الفضـــول ســماحة

حتى تجود وما لــديك قليـــل

وبعد هذا عرض لنوادر من الأجوبة الدالة على الذكاء وحضور البديهة ، فروى أن خالد بن صفوان لقى الفرزدق الشاعر (وكان دميما) وقد لبس ثيابا سرية فقال له : يا أبا فراس مرحبا بهـذا الوجه الذى لو رآه صـــواحب يوســـف لم يكبروه ، ولم يقطعن أيديهن • فقال الفرزدق : وأهلا ومرحبا بوجهـــك الذى لو رأته صاحبة موسى لم تقل لأبيهـا : « يا أبت اســـتأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » •

ويروى من قصـــار الرسائل والردود البليغة أن مـروان الجعدى (آخر خلفاء بنى أمية) كتب الى عبد الله بن على (العباس):

انى لأظن هذا الأمر صائرا اليكم ، فان كان ذلك فأعلم أن حرمنا حرمكم والسلام فكتب اليه عبد الله :

« ان الحق لنا فى دمك ، والحق علينا فى حرمك »

واتبع ذلك بالقصة التالية :

بينما الخيزران قاعدة ذات يوم قيل لها : ان ببابك امرأة حسناء ، وعليها ثياب بزة تطلب الاذن عليـك ، وقد سئلت عن اسمها فأبت أن تخبر به • فقالت لزينب بنت سليمان بن على : ما ترين ؟ قالت : تدخل فانه لابد من فائدة أوثواب • فأذنت لها فدخلت فقالت : أنا مارية امرأة مروان بن محمد الأموى • قالت زينب : أأنت مارية ؟ لاحياك الله ، والحمد لله الذى أدال منك • أما تذكرين ياعدوة الله حين أتاك عجائز قومى وأهل بيتى يطلبون منك مســـألة صـــاحبك فى دم ابراهيم الامام فوثبت عليهن ،

وأسمعتهن ما أسمعت وأمرت باخراجهن ؟ قيل فضحكت مارية فلا ينسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ، ثم قالت : يا ابنة عم ، أى شيء أعجبك في صنع الله بى على العقوق حتى أردت أن تتأسى بى ؟ هبيني فعلت بقومك ما فعلت ، ثم ساقني الله اليك خاضعة ذليلة عريانة أفيكون هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك في ؟. ثم ولت ، وقالت : السلام عليكن . فقالت الخيزران : ليس هذا لك عافاك الله . على استأذنت ، واياى قصدت ، فارجعي . فقالت: نعم ، وان مما يردني الجوع والضر . فدعت لها بالخلع ، ثم قالت: افرشوا لها في المقصورة الفلانية وقالت لها : والله مايفرق بيننا الا الموت ، فما فرق بينهما الا هو .

ثم انتقل الى باب المراثي والعظات الموجزة فاختار أبياتا لامرأة من بني أسد ترثي ابنها ، وآخر أبيات المرثية قولها :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه
فطيب تراب القبر دل على القبر

ووصف هذا البيت بأنه أرثى بيت قالته العرب .

واختار أيضا قول شاعر لم يسمه ووصفه بأنه أحد المحسنين:

واخ رماني الدهر فيه بفقده ... فالوجد من قلبى عليه دخيل
هيهات لا يأتى الزمان بمثله ... ان الزمان بمثله لبخيل

ثم أخذ في حديث عن أخبار المعمرين وأخبار الشعراء المحدثين وقولهم في ذم الشيب ، فقال : يروى أنه مكتوب في الحكمة : من بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، وروى قول النمر بن تولب : -

كانت قناتي لا تلين لغامز ... فالانها الاصباح والامساء
ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... ليصحني ، فاذا السلامة داء

وعند الحديث عن الشيب قال : كانت العرب تذكر الشيب في أشعارها اما مدحا واما ذما . وشعرهم في ذمة أكثر منـه في مدحـه .

ويروى أنه قيل : ما بال شعركم في الشيب أحسن أشعاركم في سائر قولكم ؟ قالوا : لأننا نقوله وقلوبنا قرحة ، وقدم نموذجا لذلك من شعر محمد بن عبد الملك الزيات وهو :

عريت من الشـــباب وكنت غضـــا
كمـــا يعـــرى من الورق القضـــيب
ونحت على الشـــباب بـــدمع عيـــني
فلـــم يغن البـــكاء ولا النحيـــب
ألا ليت الشـــباب يعـــود يومـــا
فاخـــبره بمـــا فعـــل المشـــيب

ثم انتقل الى « باب الحلم والأناة » فذكر أخبـــارا عن حلم معاوية بن أبي سفيان وغيره . ثم عرض مختارات من بليغ الشعر في هذا الباب كقول الأخطل في وصف بني أمية :

صم عن الجهل ، عن قول الخناخرس
وان ألمت بهم مكروهـــة صبروا
شـمس العداوة حتى يسـتقاد لهـم
وأعظم النـــاس أحلاما اذا قـــدروا

وختم الباب بقصة عن الرشيد روى فيها أن رجلا قال له : اني أريد أن أعظك وأغلظ لك في القول . فقـــال له الرشيد : يا هذا ، ليس ذلك لك . لقد بعث الله من هو خير منك الى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولا لينا . يشير الى قول الله تعـــالى لموسى وهارون : « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

وانتقل الى « باب الشكر للصنائع » فروى أن الامام عليا قال: « لا يزهدنك في المعروف من لا يشكرك عليه فقد شكرك عليه من لم يستمتع منك بشيء » ثم يروى أنه كان يقال : « من كفر النعمة كتمانها عن المنعم عليه ، ومن تكديرها اظهـــارها من المنعم · فعلى المنعم ألا يمتن ، وعلى المنعم عليه ألا يكفر » وأنشد :

زاد معـــروفك عندى عظمـــا   أنه عندك مســـتور حقـير
تتناســـاه كأن لم تأتـــــه   وهــو عند الله مشـــكور كبير

وروى أن بعض الحكماء قال : « من شكر استحق الاحسان ، ومن أحسن استحق الشكر » ولقد أجاد أبو نواس في قوله :

انت امـرؤ طوقتـــني مننـــا   أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تســـــدين الى عارفــــة   حتى أقوم بشكر ما سلفا

ثم انتقل الى الحديث عن « الحسد » فروى أن معاوية قال : كل انسان أقدر أن أرضيه الا حاســـد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها » · وروى عن ابن المقفع أنه قال : « الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبـــدأ بالأقرب فالأقرب » ثم تحدث عن « كتمان السر » فقال : انشدنا بعض أصحابنا :

اذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها
فسرك عند الناس افشى واضيع

وأنشدنا آخر :

ليس سرى يجـــاوز الدهر قلبى
كل سر يجـــاوز القلب فاش

ثم يختم الكتاب بذكر طرف عن بعض من أذلهم الهوى ، واتبع ذلك بنصائح دعا فيها الى مجاهدة النفس والهوى ، وروى أن عمر

ابن عبد العزيز كان يقول : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» وروى أن هشـــام بن عبـد الملك لم يقل من الشـــعر غير بيت واحد هو :

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيـــه عليك مقـــال

ان كتاب « الفاضـــل » في جملته تحفة أدبيـة رائعة ، وأثر محمـود من آثار المبرد الخالدة وهو من طراز كتاب الـكامل الا أن المبرد عنى فى الكامل بالشرح والتحليل اللغوى والنحوى ، وأعفى كتاب الفاضل من ذلك •

ثالثا ـ شرح لامية العرب

كان بين المبرد وثعلب من التنافس ما سـبق أن أوضـــحناه وذكرنا أسبابه وعلله • وقد يكون من آثار هذا التنـافس أو من مظاهره أن كلا منهما عرض لشرح مجموعة من الشعر • قام ثعلب بشرح شعر زهير بن أبى سلمى ، وقام المبرد بشرح قصيدة الشنفرى المعروفة باسم «لامية العرب» • ولا ندرى أيهـــما قام بالشرح قبل الآخر ، ولكننا سنعرض نموذجا لشرح كل منهما لنتعرف على منهجه وطريقته :

(أ) شرح ثعلب لشعر زهير :

أصدرت الدار القومية للطبـــاعة والنشر فى سلسلة التراث شرح ثعلب لديوان زهـير ، وعليه اعتمدنا فى عرض النموذج التالى من طريقته فى الشرح •

قال زهير :

١ ـ وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنهـا بالحديث المرجم

قال ثعلب فى شرحه :

« أى ما علمتم من هذه الحرب وذقتم منهـا • وما هو عنها : يريد وما علمكم عنها بالحديث الذى يرمى فيه بالظنون • والمرجم : المظنون • يقول : ما هو برجم بظهر الغيب ، قد جربتموهاوذقتموها»

٢ ـ متى تبعثوها تبعثـوها ذميـمة
وتضر اذا ضريتمـوها فتضرم

متى تبعثوها تبعثوها : أى متى تثيروها لا تحمـدوا أمرها • وذميمة: مذمومة ، وأكثر ما يكون فعيل المصروف عن مفعول بغير هاء مثل : امرأة قتيل ومقتولة ، وكف خضيب ومخضوبة • وقوله ذميمة أى لا تحمدوا أمرها • وتضر أى تعود يقال : ضرى يضرى ضراوة اذا درب • اذا ضريتموها أى عودتموها يعنى الحرب • ويقال : كلب ضرو ، وهى ضروة كأنه المعتاد للصيد •

٣ ـ فتنتج لكم غلمان اشأم ، كلهم
كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

تنتج لكم : يعنى الحرب • غلمان أشأم فى معنى غلمان شؤم فجعلَ أشأم مصدرا ، ولم يحتج الى « من » ولو كان أفعل (يعنى التفضيل) لم يكن له بد من كلمة «من» أى كلهم فى الشؤم مثـل احمر عاد • وانما أراد أحمر ثمود فقال أحمر عاد •

والمبرد يعارضه فى هذا فيقول : ان الشاعر لم يخطىء لأن ثمود تسمى عادا الاخيرة ، والله تعالى يقول : «وانه أهلك عادا الاولى ، وثمود فما أبقى » •

(ب) شرح المبرد للامية العرب :

قصيدة الشنفرى التى تقع فى ثمانية وستين بيتا عرفت باسم «لامية العرب» وقام بشرحها كثيرون أولهم المبرد ، وقد ورد اسم شرح

هذه القصيدة ضمن أسماء الكتب التي ذكرها من أرخوا للمبرد ٠ وقد طبع هـذا الشرح في ذيل شرح الزمخشري لهـذه القصيدة ضمن مجموعة أصدرتها مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سـنة ١٣٠٠ هـ وقالت في عنوانها : «كتاب أعجب العجب في شرح لامية العرب ، لأستاذ الزمان وفريد العصر والأوان فخر خوارزم العلامة محمد بن عمر الزمخشري ، ومعه شرح ثان للامام العلامة اللغوي أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد رحمه الله » ٠

ولم يذكر الناشر أين عثر على هذا النص ، ولم يشر الى أي تحقيـق بشأنه ٠ والمطلع عليه سرعان ما يتبين له أن شرح المبرد لم ينشر كاملا الا في بعض الابيات ، وانما ذكر منه مايكمل شرح الزمخشري اذ يرى أن رقما قـد وضع في كل موضع يحس فيه بقصور في شرح الزمخشري ، ثم يذكر من كلام المبرد ما يكمل ، أو يوضح ، أو يخالف ما ذهب اليه الزمخشري ٠ ولم تتح لنا فرصة الاطلاع على النسخة الخطية الموجودة في مكتبة الازهر ، أو التي في الجامع الأحمدي ٠

وهاكم نموذجا من شرح المبرد ٠

افتتح الشرح بقوله : قال الشنفرى بن الاوس بن الحجر بن الغوث بن ثبت بن كهلان بن سبأ ٠ والشنفرى : البعير الضخم ٠ وقيل : الشنفرى أي العظيم الشفتين ٠

١ ـ اقيموا بني امي صدور مطيكم

فاني الى قـوم سواكم لأميـل

يقال : أقام صدر مطيه اذا سار ٠ واذا توجه فقد أقام صدر مطيه ٠ ويروى : الى قوم سواكم (بدون همز) ، والمعنى جدوا في أمركم ، وانتبهوا من رقدتكم ٠ وأقيموا هنا بمعنى اصرفوا عنى ، ومنه قول الشاعر :

اقيمـــوا بني النعمان عنـا صدوركم

والا تقيموا صـــاغرين الرءوسا

٢ ـ ولى دونكم اهلون ســـيد عملس

وارقط ذهـلول وعرفاء جيأل

العملس : الذى فيه بياض وسواد · والسيد (بكسر السين) الذئب والعملس فيما ذكره لى الأحول : السريع الممر فى سهولة ، وأنشد لابن مناد :

عملس اسـفار اذا اعترضت له

ســـموم كحر النـار لم يتلثم

والعملس : الخفيف أيضا ، وأنشد : « والشاة لا تمشى على العملس » أى على الذئب ، ومعنى تمشى : تزيد وتكثر ، ومنه قوله تعالى « أن امشـــوا واصبروا على آلهتـــكم » أى قوموا على المواشى واستكثروا منها · والأرقط : الحية التى فيهـا نقط بياض وسواد ومنه دجاجة رقطاء · والذهلول : الأملس · والعرفاء : الضبع ذات الشعر الـكثير ، والجيأل : الأنثى من الضباع ، والذكر الضبعان والعملس من أوصاف الذئب فوصف به هنا رجلا استعارة· والسيد فى لغة هذيل الأسد ، وانما عنى هنا الذئب ، ألا تراه قال عملس· والعرفاء : الضبع الطويلة العرف ، وليس هنا بنعت ولكنه فى الأصل نعت فقلب فصار بمنزلة الاسماء غير النعوت حتى انه يقال : جاءتكم العرفاء فيفهم من هذا القول أن الضبع جاءت · ويجرى هذا المجرى الأجدل يعنى الصقر لايراد غيره ، وهو فى الأصل نعت لأنه من الجدل وهو شدة الخلق · يقال : غلام مجدول اذا كان شديد العصب · وزمام مجدول اذا كان محـــكم الحرز ، وليس كل ما كان مجدولا يسمى أجدل فصار اسما غالبا وجيأل من أسماء الضبع ·

٣ ـ ولست بعـــل شره دون خيره
ألفّ اذا فارعته اهتـــاج أعزل

العل : هو الصغير الجسم ، وأكثر مايوصف به الكبير. ويقال للقراد العل للطافة جسمه • والألف : الذى لا يقوم لحرب أو لضيف وانما يلتف وينام • قالت امرأة لزوجها :

ان أكلك لاقتفـاف ، وان شربك لاشـتفاف ، وان ضـجعتك لالتفاف ، وانك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف • فقال لها: والله انك لـكرواء الساقين ، قعواء الفخذين ، سرك ذائع ، وشرك شائع ، وضيفك جائع •

والاقتفاف أن يأخذ غذاءه سرقة لئلا يشاركه أحد فيه ، وقيل: أن يستوعب آخر غذائه لا يبقى منه شـيئا لأحد شرها • يقال : اقتف ما في الاناء من الطعام اذا استوفاه • والاشتفاف : أنيستوفى مافى الاناء من الشراب ، وهو مثل الاقتفاف• والأعزل الذى لا سلاح معه ولا رمح • وقال أبو عبيدة : ان كان معه عصا فهو ليس بأعزل•

٤ ـ اذا الأمعز الصـــوان لاقى منـاسمى
تطـاير منـــه قادح ومفلل

قال في الشرح : الأمعز : المكان فيه حصى ، والبقعة معزاء • والصوان : الحجارة الملس ، الواحدة صوانة • وليس هو الصـوان فى الحقيقة وانما التقدير اذا الأمعز ذو الصوان فحذف «ذو» لعلم السامع به كما قال جل ذكره «وأسأل القرية» ، وهو كثير • وانما يريد مكانا فيه حصى وهو الصوان • والمنـــاسم فى الأصل أخفاف الابل كالسنابك من الخيل فاستعارها لنفسه ، والقادح مايخرج معه النار من الحصى وذلك من شدة وطئه • والمفلل : المكسر • يقول : اذا أصابت رجلى حجرا قدحت فيه نارا وكسرته •

ويستنتج مما أوردناه من شرح ثعلب، وشرح المبرد أنمنهجهما يكاد يكون واحدا ، وان كلا منهما ذو عناية باللغة • غير أن المبرد كما يلوح لنا من شرحه أكثر استقصاء للمعانى وأكثر استشهادا اذا دعت الحال الى استشهاد •

والمبرد غالبا ما يأتي بالمعنى الاجمالى للبيت كله ، أو للجزء الغامض منه ، وقلما يفعل ذلك ثعلب •

والمبرد فى شرح هذه القصيدة لم يتطرق الى النحو والاعراب كما فعل في شرح نصوص الكامل ، أو كما فعل الزمخشرى من بعده فى شرح هذه القصيدة •

رابعا ـ كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه

كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » رسالة من نوادر المصنفات القديمة • ورد ذكره بهذا الاسم فى « معجم الادباء » لياقوت ، وفى «بغية الوعاة» للسيوطى ، وفى كثير من المراجع الادبية التى نقلت عنه ، أما ابن النديم فى كتابه «الفهرست» فقد سماه «ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه» وهى تسميه لا تبعد عن الاولى •

وقد عثر الاستاذ الميمنى الراجكونى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة على نسخة مخطوطة من هذه الرسالة فى احدىخزائن الكتب فى الهند فأشرف على تحقيقها وتصحيحها ووكل الى « المطبعة السلفية » بالقاهرة أمر طبعها فأخرجتها لعشاق أدب المبرد سنة ١٣٥١ هـ •

ويفصح المبرد عن الغاية من تاليفها فى المقدمة فيقول : « هذه حروف ألفناها من كتاب الله عز وجل مختلفة المعانى ، متقاربة فى

القول ، مختلفة الخبر » ثم يقسم اللفظ الى : مشترك ، ومترادف ، ومتباين • ويبدأ بالحديث عن أقسام الاتفاق والاختـــلاف ، ويورد أمثلة لاختلاف اللفظين لاختـلاف المعنيين ، وأمثلة لاختلاف اللفظين والمعنى واحد ، وأمثلة لاتفاق اللفظين والمعنى مختلف • فيذكر مثلا أن كلمة المقوى تكون للضعيف ، وتكون للقوى قال تعالى : « ومتاعا للمقوين » أى الضعفاء ، وتقول العرب «أكثر من فلان فانه مقو» أى ذو ابل قوية •

ثم يتكلم عن «الرجاء» فيوضح أن من معانيه الخوف ، ويستدل على ذلك بقول أبى ذؤيب :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها (أى لا يخافه)

وقول الانصارى :

لعمرك ما ارجو اذا مت مؤمنا
على اى جنـــب كان فى الله مصرعى

أى ما أخاف • وقال المفسرون فى قوله تعالى «مالكم لا ترجون لله وقارا » أى لا تخافون لله عظمة •

ثم يتبع ذلك بقوله : « ••• وكل من آثر أن يقول ما يحتمل معنيين فعليه أن يضع على ما يقصد له دليلا لأن الكلام وضع للفائدة والبيان » •

وينطلق من هذه المقدمة الى موضوعه فيذكر أن مما اتفق لفظه واختلف معناه كلمة «الظن» • يقول : قال تعالى «••• الا أمانى وان هم الا يظنون» هذا لمن شـــك • وقوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » هذا يقين لأنهم لو لم يكونوا مستيقنين لكانوا ضـــلالا شكاكا فى توحيد الله تعـــالى • ومثله فى اليقين قول المؤمن فيما يحكيه القرآن الكريم « انى ظننت أنى ملاق حسابيه » أى أيقنت ، ومثله قوله تعالى «••• فظنوا أنهم مواقعوها» أى أيقنوا •

ثم يتحدث عن أفعال اختلف لفظها والمعنى واحد كقوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » فهما لمعنى واحد كقولك نظرته وانتظرته ، وقدرت عليه واقتدرت عليه ، وجرح واجترح من الكسب كقوله تعالى « وما علمتم من الجوارح » أى الكواسب ، ويقال : «فلان جارح أهله » أى كاسبهم ٠

ويتحـــدث عن الفعلين المتساويين والمخرجان مختلفان فيمثل بقوله تعالى «فمن اعتدى عليـــكم فاعتدوا عليه» أى فاقتصوا منه ، ويقول : « يخرج اللفظ كلفظ ما قبله مع تباين فى الغاية ٠ تقول العرب «الجزاء بالجزاء» والأول ليس بجزاء ، وتقول «فعلت بفلان مثل ما فعـــل بى » أى اقتصصت منه ، والاول بدأ ظالما ، والثانى أخذ بحقه فالفعلان متساويان والمخرجان متباينان ٠ ومثله قول الله « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والثـانية ليست بســيئة تكتب على صاحبها ، ولكنها مثلها فى المكروه ٠

ويتحدث عن ايراد الفعل بمعنى ما يصير اليه ، ويمثل فىذلك بقوله تعالى :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا» ويقول لميلتقطوه مقدرين فيه أنه يعاديهم ويحزنهم ، ولكن تقديره فالتقطه آل فرعون فكان مصيره الى عداوتهم وحزنهم ٠

ويتحدث عما جاء فى القرآن على صورتين من الاستفهام فوقع مع أحدهما التبيين ولم يقع على الآخر ، على أن يخرج الاستفهامفيهما جميعا مخرج التقرير والتعظيم ٠ومن ذلك «وما يدريك ــ وما أدراك» فان «مايدريك» استفهام وقع فى كل الاماكن فى القرآن الكريمبدون الجواب ، أما «ما أدراك» فيتبعه جواب الا قليلا ٠ ومن ذلك : « وما أدراك ماهيه ؟ نار حاميهـــوما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شـــيئا ــ وما أدراك ما القارعة ؟

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ـ وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة » .

أما قوله تعالى « الحــاقة ما الحاقة وما اراداك ما الحاقة ؟ » فانه اســـتفهام لم يقع بعده تفسير ، ومجاز هــذا عند أهل النظر حذف الخبر لعلم المخاطب به ، ولارادة تعظيم الامر . كقولك « لو رأيت فلانا وفى يده السيف » أى لرايت بارعا ، فاستغنى عن ذلك لأنه مفهوم . وفى كتاب الله «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال...» فخبره عند المفسرين محذوف تقديره لكان هو هذا القرآن .

وكل استفهام جاء فى القرآن بأسلوب « وما يدريك » فغير مشروح خبره . فمن ذلك « وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ـ وما يدريك لعله يزكى »

وأما قوله تعالى « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » فليس من هذا لأن ماهنا نافية وليست استفهامية كماهى فى المثالين السابقين.

ثم تكلم عن الحذف فى القرآن وفى كلام العرب فقال : فى القرآن مختصرات فان مجاز العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيمايبقى دليل على ما يلغى ومن ذلك قوله تعالى « واسأل القرية..ـ واسأل العير ...» فالقرية والعــير لا يسألان ولا يجيبان فالمقصود غيرهما أى أهل القرية وأهل العير .

على هذا النحو تمضى تلك الرسالة الرائعة التى تشهد للمبرد بالذهن المتفتق والعقل الواعى ، وتدل على ماله من علم عميق باللغة، وبكتاب الله تعالى علما أدخله فى عداد المفسرين .

خامسا ـ كتاب المقتضب

وضع سيبويه مؤلفا يضم بين دفتيه قواعد «علم النحو» وعرف مؤلف سيبويه باسم «الكتاب» ثم قفى المبرد على آثاره فوضع كتاب « المقتضب » ٠

والكتاب لسيبويه ، والمقتضب للمبرد هما أول كتابين استوعبا أصول النحو وقواعده ٠ ومع أن كتـــاب «المقتضب» عالج مسائل النحو والصرف بأسلوب أوضح وأكثر بسطا من كتاب سيبويه فانه لم يقـــدر له أن يتدارس ويتداول الا فى نطاق محدود ٠ ولم يقل الاقدمون فى تعليل ذلك الا أن شؤم ابن الراوندى المشهور بالزندقة وفساد الاعتقاد قد عاد عليه ، فقد روى أن المبرد حين صنفه أخذه عنه ابن الراوندى هذا فأبى الناس أن يأخذوه عنه فصـار لا يكاد ينتفع به ٠

وكتاب «المقتضب» أول مؤلف أملاه المبرد بعد أن بلغ أشده واستوى وأوتى علما وحكمة ٠ بدأ يمليه وقد استقر فى بغداد بعد قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ أى وهو فى نحـــو الاربعين من عمره ، وبعد أن كان قد استقر فى مجلس الاستاذ ، وأسلمت اليه زعامة علماء النحو من البصريين ٠ وبعد أن كان التنافس بينه وبين أبى العباس ثعلب قد بلغ قمته ، وأصبح ثعلب يغرى المقربين اليه من تلاميذه بفض حلقة المبرد ، والمبرد بغزارة علمه ، وصفاء قريحته ، ولبـــاقته وحسن حديثه يستميلهم اليـــه ، وينتزعهم من ثعلب ، ويصطفيهم لنفسه كما كانت الحال مع الزجاج وفق ما وصفنا من قبل ٠

وقد روى الزجاج أنه قدم الى بيت ثعلب فى مرضـــه وعنده موسى الحـــامض الذى كان يحسد الزجاج ويكره المبرد ، وسأل

ثعلب عما يمليه المبرد من كتاب «المقتضب» ، وأخذ يعيب أسلوب المبرد ، والزجاج يدافعه ويقرر أن أسلوب المبرد لا عيب فيه ، وان نصاعته وحسن بيانه أمر لا يتنازع فيه اثنان ، ثم قال لثعلب: ان سوء رأيك فيه هو الذى يعيبه عندك ·

ومؤدى ذلك ان تاليف «المقتضب» بدأ بعد سن الاربعين ، وأن المبرد ألفه قبل كتاب «الكامل» لهذا تراه فى الكامل يستشهد بماجاء فى المقتضب ·

بعث كتاب « المقتضب » :

قلنا آنفا ان كتاب «المقتضب» حاق به ــ كما قيل ــ شؤم ابن الراوندى المتهم بالزندقة فلم يقدر له من الذيوع والانتشار ما قدر لكتاب سيبويه · وانسحب هذا الشؤم على الشروح التى جهد فيها العلماء من بعد المبرد ، فابن درستويه المتوفى فى منتصف القرن الرابع شرح «المقتضب» ولم يكمله ، وأبو الحسن الرمانى المتوفى فى أواخر القرن الرابع شرحه وأكمله ، كما شرحه أيضا أبو الحسن الباذش فى القرن السادس · ولكن لا نعرف من أمر هذه الشروح الا ما ورد من الاشارة اليها فى بعض الكتب التى ارخت للمبرد مثل معجم الادباء لياقوت وبغية الوعاة للسيوطى ·

وهناك شرح لبعض مسائل هذا الكتاب القيم صنعه سعيد بن سعيد الفارقى المتوفى فى أواخر القرن الرابع ، وسماه « تفسير المسائل المشكلة فى أول المقتضب » وهذا الشرح وان كان قد بقى فانه كان ، ولم يزل ، سجينا لا تعرف منه الا نسخة خطية باحدى مكتبات الآستانة ونسخة منقولة عنها بالتصوير الشمسى محفوظة فى معهد المحفوظات بجامعة الدول العربية ·

لقد ظل المقتضب بعد عصر هؤلاء الشراح لا يعرف عنه علماء

النحو وطلابه الا ما تنقله عنه ، أو تشير اليه بعض الكتب مثل أمالى ابن الشجرى ، وخزانة الادب للبغدادى ، وابن عقيل فى شرح الألفية • وأخيرا هيأ الله له من يبعثه من مرقده ويقدمه لقراء العربية مستقصى محققا مشروحا مضبوطا • وذلك هو الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة ، فخلال تنقيبه عن آثار المبرد اذ كان موضوع الرسالة التى تقدم بها لنيل درجة «دكتوراه» عثر على نسخة منه فى دار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسى عن نسخة خطية محفوظة باحدى مكتبات الاستانة فعكف على هذه النسخة دارسا وباحثا حتى وفقه الله الى سد كل ما لحظه فيها من خلل ، وتكملة كل ما بدا له فيها من نقص ، وقدم النسخة مصححة محققة مستوفاة الى لجنة احياء التراث الاسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية فتقبلت منه هذا الكتاب القيم بقبول حسن ، وطبعته طبعة أنيقة جميلة فى ثلاثة أجزاء ، ومقدمة طويلة جامعة شاملة مطبوعة على حدة ، فكان هذا العمل العظيم خدمة جليلة للعلم والادب تستحق كل تقدير وثناء •

موضوعات الكتاب :

الكتاب مطبوع فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، ويتناول كل موضوعات النحو والصرف بأسلوب واضح ويستوفى الامثلة لكل قاعدة ، ويورد شواهد من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام وبنى أمية ، ويغلب على المبرد فيه طابع العالم اللغوى فكلما مرت كلمة تستحق الايضاح لغويا فصل القول فيها ، ويكثر من الاستشهاد بكلام الله تعالى فى كتابه العزيز ، ويقف طويلا عند اعراب بعض آيات القرآن الكريم ويعنى بتعليل الاحكام النحوية • ولموضوعات الكتاب عناوين موجزة بخلاف العناوين المطولة التى يختارها سيبويه للكتاب ، ومن أمثلة عناوين المقتضب فى الجزء الاول :

تفسير وجوه العربية واعراب الاسماء والافعال ـ باب الفاعل ـ باب حروف العطف بمعـانيها ـ حدود التصريف ومعرفة أقسامه ـ ماجاء من الكلام على حرفين ـ الابنية ومعرفة حروف الزوائد ـ معرفا بنـات الاربعة التى لا زيادة فيهـا ـ باب الابنية ومعرفة حروف الزوائد •

ومن أمثلة عناوين موضوعات الجزء الثانى :

باب اعراب الافعال المضارعة وكيف صار الاعراب فيها دون سائر الافعال ـ باب تجريد اعراب الافعـال ـ باب الحروف التى تنصب الافعال ـ باب الحروف التى تجزم الافعـال ما يرتفع بين المجزومين وما يمتنع من ذلك ـ باب الأمر والنهى •

نماذج من اسلوب « المقتضب » :

تميز كتاب «المقتضب» كما أسلفنا بالبيان الواضح، والاسلوب السهل ، وايراد الشواهد والأمثلة ، وتفصيل الاحكام ، ففى الجزء الثانى مثلا يتحدث عن الحروف التى تنصب الافعال ومنها « أو » فيقول :

١ ـ هذا باب « أو »

وهى تكون للعطف فتجرى ما بعدها على ما قبلها ، كما كان ذلك فى الاسم اذا قلت : ضربت زيدا أو عمرا •

ويكون مضمرا بعدها (أن) اذا كان المعنى : الا أن يكون ، أو حتى يكون • وذلك مثل قولك أنت تضرب زيدا أو تكرم عمرا على العطف • وقال الله عز وجل « ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » أى يكون هذا ، أو يكون هذا •

فأما الموضع الذى تنصب فيه باضمار أن فقولك : لألزمنك أو تقضينى ـ أى الا أن تقضينى ، أو حتى تقضينى •

وفى مصـــحف أبى « تقاتلونهم أو يسلموا » على معنى الا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا • وقال امرؤ القيس :

فقلت له :

لا تبك عينـــك انمـــا
نحاول ملكا ، او نموت فتعـــذرا

أى الا أن نموت •

وقال زياد الأعجم :

وكنت اذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبهـــا او تستقيما

ويقال : أتجلس أو تقوم يا فتى ؟ فالمعنى أيكون منك واحد من الأمرين •

وتقول : أتكلمنا أو تنبسط الينا ؟ لا معنى للنصب هاهنا • قال الله عز وجل :

« هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون »

فجملة هذا : أن كل موضع تصلح فيه «حتى» أو « الا أن » فالنصب فيه جائز جيد اذا أردت هذا المعنى ، والعطف على ما قبله مستعمل فى كل موضع •

وفى مكان آخر يتكلم عن الشرط ويسميه «المجازاة» فيقول :

٢ ـ هذا باب مسائل المجازاة وما يجوز فيها وما يمتنع منها•

تقول : ان تأتنى آتك : وان تأتنى فلك درهم • هـذا وجه

الجزاء وموضعه ، كما قال عز وجل «ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين » ٠

فالأصل الفعل ، والفاء داخلة عليه لأنهـــا تؤدى معناه لأنها لا تقع الا ومعنى الجزاء فيها موجود ٠ يقول الرجل : قـد أعطيتك درهما ، فتقول : فقد أعطيتك دينارا ، أى من أجل ذلك ٠ ويقول : لم أغث أمس ٠ فتقول : فقد أتاك الغوث اليوم ٠ وتقول : ان أتيتنى فلك درهم ، لأن معناه : ان تأتنى ٠ ولو قلت أن أتيتنى آتك لصلح، كمـــا قال الله عز وجل «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم» لان معناه من يكن ٠ وكذلك لو قال : من يأتنى أتيته لجاز ، والاول أحسن لتباعد هذا عن حروف الجزاء ، وهو جائز كما قال الشاعر :

من يكدني بسيء كنت منه
كالشجا بين حلقه والوريد

وأعدل الكلام : من أتاني أتيته ، كما ان وجه الكلام : من يأتنى آته ٠ وتقول من أتاني وتبسط الى آكرمه لأن «من أتاني» في موضع «من يأتني» لا تقع بعد الجزاء الا ومعناها الاستقبال ٠ والأحسن : من أتاني وأكرمني أتيته ٠ كمـــا أن الأحسن : من يأتني ويكرمني آته ٠ فهذه أصول ثم نذكر بعدها العطف منسقا ونكثر فى ذلك من المسائل لنوضح أمره ان شاء الله ٠

فاذا قلت : « من يأتنى آته » فان «من» هى لهذا الفعل (يعنى فاعله) لأنها اسم فلم يدخل معها اسم آخر ٠

ولو قلت : « ان يأتنى آته » على غير مذكور قبل كان محالا ، لأن الفعل لا فاعل فيه ٠ لأن «ان» انمـــا هى حرف جزاء ، وليست باسم ، وكذلك جميع الحروف ٠

وتقول في الاستفهام : من جاءك ؟ وأيهم ضربك ؟ وماحبسك؟ لأنها أسماء • فان قلت : أحبسك ؟ أو هل حبسك ؟ لم يكن بد من ذكر الفاعل ، لأن هذه حروف فليس فى الافعال فاعلون •

وكذلك الظروف التي لا تكون فاعلة اذا ذكرتها لم يكن بد من ذكر الفاعل معها • ولو قلت : أين يكن آكن ، لم يكن كلاما حتى تقول : أين يكن زيد آكن • وكذلك في الاستفهام اذا قلت : أين يكون زيد ؟ ومتى يخرج زيد ؟ تعنى المذكور • فعلى هذا يجرى ما ذكرت لك ••••

وفي باب التصغير يتحدث عن تصغير ماختم بألف ونون زائدتين ويسميه التحقير ، فيقول :

٣ ـ هذا باب ما لحقته الألف والنون زائدتين •

اعلم أنك اذا حقرت غضبان ، وسكران ونحوهما قلت : غضيبان ، وسكيران • وكذلك اذا حقرت عثمان وعريان قلت : عثيمان ، وعريان لأن حق الألف والنون أن يسلما على هيئتهما بعد تحقير الصدر الا أن يكون الجمع ملحقا بالاصول فنفعل ذلك بتصغير الواحد ، فيجرى الواحد فى التصغير مجرى الجمع •

فأما الملحق فمثل قولك سرحان فتقول فى تصغيره سريحين لأنك تقول في الجمع سراحين • وتقول في سلطان سليطين لان الجمع سلاطين ، وتقول في ضبعان (ذكر الضباع) ضبيعين كقولك ضباعين، وكذلك قربان •

ولو كنت تقول فى عثمان عثامين فى الجمع لقلت في التصغير عثيمين ، الا ترى أن «فعلان» الذى له «فعلى» نحو عطشان وسكران وغضبان وظمآن لا يكون في جمع شيء منه « فعالين » لأنه لا يكون ملحقا ؟ »

فكذلك جمع هذا الباب : ما كان ملحق الجمع وجب في تصغير واحده الالحاق ، وماكان غير ملحق الجمع لم يكن تصغيره الا كتصغير فعلان الذى له فعلى ٠

هكذا يمضى « المقتضب » مستقصيا أبواب النحو والصرف على أكمل وجه من الوضوح والبيان ٠

وقد يلمح الباحث المدقق أثر كتاب سيبويه في مقتضب المبرد ولا غرو فكتاب سيبويه هو المعين الذى استقى منه المبرد مادته في النحو ، وهو الذى كان يقوم بتدريسه لتلاميذه ومريديه ، فليس عجبا أن ترى تشابها فى كثير من الأمثـلة ، ولكن المبرد خالف سيبويه فى بعض المذاهب النحوية . وان كان ابن ولاد قد تصدى له مدافعا عن سيبويه مؤيدا له . وقد تكفل الدكتور عضـيمة بايضاح كل ذلك فى هوامش المقتضب مما كفل له أن يكون كتابا جامعا ممتعا .

سادسا : كتاب المذكر والمؤنث :

وبعد أن وضعنا هذا الكتاب فى صورته الأخيرة اهدتنا مطبعة دار الكتب (سنة ١٩٧٠) كتاب « المذكر والمؤنث » بعد أن قام بتحقيقه الاديبان الدكتور رمضان عبد التواب ، والأستاذ صلاح الدين الهادى ٠ وقد كتبا له مقدمة ضافية تناولا فيهـا المبرد وحياته وشيوخه وآثاره .

وقد بدأ المبرد كتابه بذكر علامات التأنيث ، ثم انتقل الى التفريق بين الأسماء المؤنثة والنعوت المؤنثة ، وذكر فى ذلك قواعد تفيد كل باحث وكاتب ومؤلف ، ثم يفرق المبرد بين الف التأنيث وألف الالحاق ، ويشرح المؤنث بغير علامة ، ثم يخصص بابا للمؤنث الحقيقى والمؤنث المجازى من ناحية الاخبار عنه ، ثم يعـرض

للألفاظ التى يجوز فيها التذكير والتأنيث ، ثم ينتقل الى المنصرف والممنوع من الصرف من انواع المؤنث المختلفة ، ثم ينتقل الى أسماء سور القرآن وأسماء البلاد والقبائل ، ويعالج مسألة تأنيثها وتذكيرها وصرفها أو منعها من الصرف ، ويستشهد فى كل ذلك بالقرآن الكريم وبشعر قدامى الشعراء . وبكثير من أقوال العلماء.

وقد بذل المحققان الأديبان مجهودا مشكورا فى تحقيق هذا الكتاب وتقديمه للقراء فجزاهما الله كل خير .

خاتمــة :

وبعد ، فقد صاحبنا أبا العباس المبرد فى هذه الصفحات التى حاولنا أن نعرف به فيها ، ورأينا كيف استطاع هذا العالم المجد أن يشق طريقه فى الحياة ، وأن يكتسب لنفسه مجدا وضعه على القمة فى طريق الخلود .

لقد صنع المبرد نفسه ، ولم يعتمد على مجد موروث أو فضل سابق ولكنه اختار طريقه الأمثل فى الحياة مستعينا بذكائه اللماح وعزيمته الوقادة وسار لا يلوى على شىء ، حتى أصبح منارا يهتدى به ويقبس الناس من ضوئه .

لقد ترك المبرد آثارا خالدة ، ومجدا علميا ســـامقا ، وثروة أدبية ضخمة وان كان لنا أن نستفيد من حياته شيئا فلنا أن نستفيد هذه العزيمة التى لا تعرف الكلل ، والمثابرة التى لا يعوقها الملل ، نتعلم منه كيف يكون الصبر على عناء التحصيل ، والجد فى طريق الغاية التى لا يعوقها العبث أو التلهى ، ولاتفسدها البوارق الكاذبة، ولا تقنعها الاعتاب القريبة ، ولا يمنعها عن المضى فى طريقها العقبات الصعاب .

لنا أن نتعلم منها كيف تكون رفعة العالم فى تواضعه ، وتمكنه نفسه تمكنا يجعله لا يمارى فى حق ، ولايحمله الكبر على الجدال بباطل أو التمادى فيه أو عدم التسليم لخصمه بوجهة نظره وصواب رأيه متى كان الحق فى جانبه . وتلك ميزة العالم الحق الذى أنار العلم بصيرته ، ورفعت المعرفة مكانته فلن يضيره اذن أن يكون الحق فى جانبه أو فى جانب غيره .

كانت للمبرد ملكة صافية في النقد والتمييز بين مراتب الكلام، أشار الكتاب الى بعض شواهد منها ، كما أشـــار الى بعض الأحكام الادبية له ولكنه لم يتعرض بالتفصـــيل لمذهبه في النقد ، فذلك موضوع يحتاج الى دراسة مستقصية شاملة مستأنية ، لا تسعفها هذه العجالة الضيقة ولعل التوفيق يصحبنا في الوفاء بذلك في بحث آخر مستقل ان شاء الله ٠

وما زالت شخصية المبرد في حاجة ماسة الى غير ذلك من بحوث. فهي حقيقة بذلك ، وجوانبها المتعـــددة غنية بمـــواضع الدراسة والبـــحث ، أما كتبه فهي تنظر بشغف الى الجهـــود المشكورة من العلماء والأدباء ليبحثوا عنهـــا ويكشفوا عن مكنونها ويزيحوا عنها غبار الزمن المتراكم الذى غطى على الكثير منها ، وما تبقى فيجب أن يخرج الى النور ، لينتفع به عشاق المعرفة ورواد الثقافة ٠ مع ماخرج من هذه الكتب على يد بعض العلماء الجادين الافاضل الذين أسدوا للعربية يدا لا تنسى ٠

ان أسفارا جليلة للمبرد تشير اليها المراجع وتدل على أنه كان ذا قدم راسخة في مختلف الميادين العلمية والأدبية نشعر بأننـــا محتاجون اليها احتياجا شديدا ٠

ومن يدرى ؟ فربما لو عثرنا عليها وحققناها نضع المبرد فى قائمة القراء والمتكلمين والفقهاء والمفسرين الى جانب رسوخ قدمه فى قائمة الأدباء واللغويين والنحويين ٠

وكيف لا ؟ وقد أثبتت له المراجع كتبا كثيرة فى العلوم المختلفة من بينها : احتجاج القراء ، معانى القرآن ، كتاب الحروف فى معانى القرآن ، صفات الله جل وعلا ، كتاب البلاغة ، كتـــاب العـــروض ، نسب عدنان وقحطان ، الحث على الأدب والصدق ، كتاب التعازى ، كتاب الانواء والأزمنة ، أدب الجليس ، قواعد الشعر ، كتاب الناطق

كتاب الوشى ، وغيرها من الكتب التى يفوق عددها الأربعين كتابا ٠ وقد ذكرها كتاب هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادى على أنها اثنان وأربعون كتابا ٠

هذه الثروة الضخمة لايصح أن تغفل عنها أنظار الأدباء والعلماء كما ينبغى أن تلتفت اليها وزارة الثقافة فتوليها عنايتها المعهودة ، كما ترد للمبرد بعض فضله على العلم والمعرفة ، وتؤدى بذلك حقا واجبا الى عشاق فنه وأدبه ٠

واننا نستميح القارىء عذرا فيما عسانا أن نكون قد وقعنا فيه من الخطأ أو التقصير ٠

والله المسئول أن يلهمنا دائما السداد والرشاد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

احمد حسنين القرنى
عبد الحفيظ فرغلى القرنى

المراجع

١ ـ أخبار أبى تمام ـ للصولى

٢ ـ الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ـ لعبد الحميد المسلوت وآخرين

٣ ـ الأدب العربى وتاريخه ـ لمحمود مصطفى

الأدب العربى وتاريخه ـ لمحمد هاشم عطية

٥ ـ أدب الكتاب ـ للصولى

٦ ـ الأشباه والنظائر ـ للسيوطى

٧ ـ الأغانى ـ للأصفهانى

٨ ـ الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لكمال الدين الأنبارى

٩ ـ الأمالى ـ لأبى على القالى

١٠ ـ امالى ابن الشجرى ـ ابن الشجرى

١١ ـ أمالى المرتضى ـ للشريف المرتضى

١٢ ـ أمالى الزجاج ـ للزجاج

١٣ ـ انباه الرواة على انباه النحاة ـ للقفطى

١٤ ـ الأوراق ـ للصولى

١٥ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير

١٦ ـ بشار بن برد : حياته وشعره ـ لاحمد حسنين القرنى

١٧ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ .
١٨ ـ تاريخ الآداب العربية ـ لجورجي زيدان
١٩ ـ تاريخ بغداد ـ لابن الخطيب
٢٠ ـ تهذيب اللغة ـ للأزهرى
٢١ ـ التنبيهات على أغاليط الرواة ـ لعلى بن حمزة
٢٢ ـ التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ـ لابى البقاء العكبرى
٢٣ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ للثعالبى
٢٤ ـ ثمرات الأوراق ـ لابن حجة الحموى
٢٥ ـ حياة الحيوان ـ للدميرى
٢٦ ـ الحيوان ـ للجاحظ
٢٧ ـ خزانة الأدب ـ للبغدادى
٢٨ ـ ديوان البحترى ـ للبحترى
٢٩ ـ درة الغواص ـ للحريرى
٣٠ ـ ذيل زهر الآداب ـ للحصرى
٣١ ـ رغبة الآمل فى شرح الكامل ـ للمرصفى
٣٢ ـ زهر الآداب ـ للحصرى
٣٣ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبى (مخطوطة)
٣٤ ـ شرح مقامات الحريرى ـ للشريشى
٣٥ ـ شذرات الذهب ـ لابن العماد
٣٦ ـ شرح المعلقات ـ للتبريزى
٣٧ ـ شرح درة الغواص ـ للشهاب الخفاجى
٣٨ ـ شرح نهج البلاغة ـ لابن أبى الحديد
٣٩ ـ شرح الكافية ـ للرضى

٤٠ ـ شرح ابن عقيل على الألفية ـ لبهاء الدين عبد الله بن عقل العقيلي

٤١ ـ صبح الأعشى ـ للقلقشندى

٤٢ ـ ضحى الاسلام ـ للدكتور أحمد أمين

٤٣ ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ـ للألوسى

٤٤ ـ طبقات النحاة ـ لابن شهبة الأسدى (مخطوطة)

٤٥ ـ طبقات النحويين واللغويين ـ للزبيدى (مخطوطة)

٤٦ ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه

٤٧ ـ العمدة ـ لابن رشيق

٤٨ ـ غرر الخصائص ـ لرشيد الدين الوطواط

٤٩ ـ الفاضل ـ للمبرد

٥٠ ـ فقه اللغة وسنن العرب ـ للصاحبى

٥١ ـ الفهرست ـ لابن النديم

٥٢ ـ الكامل ـ للمبرد

٥٣ ـ الكشكول ـ للعاملى

٥٤ ـ كشف الظنون ـ لحاجى خليفة

٥٥ ـ اللباب فى تهذيب الانساب ـ لابن الأثير

٥٦ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه ـ للمبرد

٥٧ ـ المزهر ـ للسيوطى

٥٨ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت

٥٩ ـ المختصر فى تاريخ البشر ـ لأبى الفدا

٦٠ ـ مختارات البارودى ـ للبارودى

٦١ ـ المذكر والمؤنث للمبرد
٦٢ ـ معجم الشعراء ـ للمرزبانى
٦٣ ـ معجم المؤلفين ـ لعمر رضا كحالة
٦٤ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ـ للموصلى
٦٥ ـ الموازنة بين أبى تمام والبحترى ـ للآمدى
٦٦ ـ الموشح ـ للمرزبانى
٦٧ ـ المحتسب ـ لابن جنى
٦٨ ـ محاضرات الأدباء ـ للأصبهانى
٦٩ ـ مغنى اللبيب ـ لابن هشام
٧٠ ـ المقتضب ـ للمبرد
٧١ ـ نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ـ للأنبارى
٧٢ ـ النجوم الزاهرة ـ لتغرى بردى
٧٣ ـ هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادى
٧٤ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان
٧٥ ـ طبقات المفسرين ـ للداودى (مخطوطة)
٧٦ ـ ابن قتيبة ـ للدكتور عبد الحميد سند الجندى
٧٧ ـ عيون الاخبار ـ لابن قتيبة

الفهرس

الطبعة الثانية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٠٦/١٩٧١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعدزغلول	٢٢٩٢٥	**الجيزة** : ١ ميدان الجيزة	ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى	٢٦٠٥	**المنيا** : شارع ابن خصيب	ت:٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة	٢٥٩٤	**اسيوط** : شارع الجمهورية	ت:٢٠٣٢
المحلة الكبرى: ميدان المحطة	٤٢٧٧	**اسوان** : السوق السياحى	ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة	٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق: الشركة القومية للتوزيع – بغـداد – ميدان التحرير – عمـارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيـا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى



تأليف: محمد عبد المنعم خاطر

أعلام العرب

(٩٥)

علي الجارم

تأليف : محمد عبد المنعم خاطر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

تقـــديم ..

على الجارم .. حياته وشعره

هذا هو موضوع الكتاب ، وان كان نثر الجارم لا يقل أهمية عن شعره لأن النثر يتضمن المقال والقصة وكلاهما يستحق دراسة مستقلة ، غير أن الجارم الشاعر أبرز وأظهر من الجارم الناثر ، لذلك رأيت أن أبدأ بدراســة شعره ، ثم اذا ساعدت الظروف ، وواتت الفرصة أثنى بدراسة نثره •

والذى دفعنى فى الواقع لدراسته أمران :

اولهما ـ اهمال النقاد والدارسين لطائفة معينة من شــعرائنا المحدثين أطلقوا عليهم اســـم شعراء التقليد ، وحكموا عليهم دون دراسة جادة بالعقم والجمود •

وثانيهما ـ هذا التحامل الواضح ، والهجوم الحاد الذى تعرض له الجارم بخاصة فى حياته وبعد موته •

ولقد أخذت أتساءل : أحقا ما يقول هؤلاء النقاد ؟ أحقا لم يزود الله شعراءنا التقليديين بشىء من نفثة القلب ، أو نداء الروح ، أو حيرة الفكر ، أو انطلاق الوجدان ؟

أمن أجل أنهم ترسموا خطى السابقين فى اتجاهاتهم الفنيـــة يحكم عليهم هذا الحكم القاسى ويلقى بهم فى غياهب النسيان ؟

ومن يدرى ؛ فلقد يبرز من خلال التقليد فى الأغراض والمفاهيم شعر فيه أصالة الفن ، وعمق التجربة ، وصدق الاحساس •

لقد خلف الأدب الكلاسيكى فى الغرب آثارا خالدة مع أن كثيرا منه أنشىء فى ظل القصور وتحت رعاية الملوك •

ومن المحقق أن حافظ ابراهيم وعلى الجارم وأحمد محرم ، وعلى الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمد الأسمر ، ومحمود غنيم لهم آثار تستحق الدراسة والبحث ، وما علينا الا أن نعرض لنتاجهم فنوفيه حقه ، ونضعه فى مكانه اللائق به ، اما من الجودة والتقدير ، أو من القصور والجمود والابتذال •

وبهذا الفهم ، وهذه الروح بدأت دراسة الجارم باعتبـاره أولا ظاهرة أدبية كونتها ظروف وعوامل مختلفة ، ووجهتها وجهة معينة، ولكنى بعـد أن عشت معه فترة طويلة من الزمن ، وكشفت بصـبر واخلاص عن موهبته الشعرية واتجاهاته الفنية أدركت أن الرجل مفترى عليه ، وأنه كان يستحق دراسة جادة وهادفة من يوم أن مات وأنه لم يظفر حتى اليوم بتقدير كان جزاء ما قدمه للأدب والعرب فى ميادين شتى •

ولعل هذه الدراسة هى المحاولة الجادة فى هذا الميدان ، والله ولى التوفيق •

محمد عبد المنعم خاطر

تمهيـد ..

الأدب قبيل عصر الجارم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن قد طرأ على الأدب تغيير يكاد يذكر ، فلقد ورث عن عصور الجمود والتأخر كثيرا من أوضار التقليد والتكلف في أغراضه ، وفي ألفاظه ومعانيه .

ورث ضيق الأفق في الأغراض حتى لم تكن تعدو رثاء صديق أو التهنئة ببناء دار ، أو الرجوع من سفر ، أو تولي منصب ، أو مدح الرسول والتوسل الى بعض الصالحين .

وورث ضيق الأفق في الألفاظ بما حملها من وفرة الاستعارات، والمجازات وألوان المحسنات البديعية .

وورث ضيق الأفق في المعاني بما يملكه فيها من أفكار جامدة انحدرت اليه عن عصور التأخر الأدبي ، اذ لم يكن نتاج المطبعة قد توفر بعد الى درجة تستطيع أن تطور من أفكاره ومعانيه .

وورث الى جانب ذلك قلة من الشعراء والأدباء كانت في الواقع امتدادا للعصر الذي قبله ، حيث نشأت فيه ، وتثقفت بثقافته ، وان امتد بها العمر ، وعاشت ردحا من الزمن في النصف الأول من القرن الذي نعنيه .

من أمثال اسماعيل الخشاب (١٢٣٠ ـ ١٨١٥) والشيخ حسن العطار (١٢٥٠ـ١٨٣٤) والسيد علي الدرويش (١٢٧٠ـ١٨٥٣) ٠ فلقد كانوا يمثلون عصرهم التقليدى البحت فى أغراضه وفى ألفاظه ومعانيه ، اللهم الا اذا استثنينا رقة الأسلوب وخفة الروح التى غلبت على كتابة الشيخ حسن العطار ٠

ومع ما كان يبدو فى هذه الفترة من جمود وتكلف فانهـا فى الواقع كانت تحتضن بذور نهضـة أدبية ، وتهيىء لها جوا صالحا تترعرع فيه لتؤتى بعض ثمارها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر !!

لقد كانت البعثات التى سافرت الى فرنسا فى عهد محمد على من أهم العوامل التى ساعدت على ازدهار الأدب ، فلقد عاد رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ليسهموا بدور فعال فى خلق نهضة حقيقية ٠

كما كان لانشـاء المدارس العالية ودور المترجمين فيهـا من الأرمن والسوريين والمغاربة نفس الأهمية التى ساعدت على ذلك ، بالاضافة الى ما كانت تخرجه مطبعة بولاق الأميرية من كتب ساعدت على احياء الأدب وازدهاره فى عصر اسماعيل ٠

وعصر اسماعيل عصر تعددت روافد النهضة فيه ، فلقد كان اسماعيل نفسه على درجة من الوعى بمقتضيات العصر وتطوراته ، ولقد أراد كما تصور هو أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا ، وعمل من أجل ذلك بكل ما يملك من امكانيات ، بل وبأكثر مما يملك حتى عرض استقلال البلاد للخطر ، ففى عهده أعيد ديوان المدارس الذى كان قد ألغى فى عام ١٨٦٠ ، وأنشئت المدارس العالية ، وأرسلت البعثات الى الخارج مما ساعد على زيادة الاتصال بالأدب الأجنبى ، وأدخل فن التمثيل والغناء والترجمة للمسرح ابتداء من عام ١٨٦٨ ، وأنشئت دار الكتب فى سنة ١٨٧٠ ٠

وفي عهده أيضا أنشئت الصحافة الوطنية التى كانت تسانده فى صراعه مع الأجانب ، كما أنشىء مجلس شورى النواب فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٦٦ .

ولقد ساعد على هجرة كثير من أحرار الشام الى مصر ، كما ساعد على استقرار السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر أثناء حكمه، ولقد كان السيد جمال الدين هو الروح الحى الذى كان يسرى فى أعماق المصريين فيهزهم ويعلمهم معنى الحرية والوطنية .

لقد كان جمال الدين يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحركها الى العمل ، وكانما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر لها قرار .

ولقد انبعثت الكهرباء ، واشتعلت النار حتى أودت باستقلال البلاد فى أحداث الثورة العرابية .

وكان اقطاب الثورة العرابية من ذوى اللسن والبيان من أمثال الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، ومحمود سامى البارودى ، وكلهم قد اكتوى بنارها ، ومر بتجربتها ، وعاشها بكل ما يملك من فكر واحساس .

ومن هنا نجد فى الشعر بخاصة ، وفى الأدب بعامة انتفاضة سرت فى كيانه فبعثت فيه الحياة والحركة ، ودفعته بقوة الى التطور والازدهار .

ولن يستطيع المؤرخ للأدب أن يعمم أحكامه ، وأن يسوى بين شعراء هذه الفترة لأن تيار التقليد لم ينكسر دفعة واحدة ، وانما خفت حدته مع اطراد التقدم الفكرى والحضارى .

فالسيد على أبو النصر (١٢٩٨ ـ ١٨٨٠) والشيخ على الليثى (١٨٩٦) كلاهما يعتبر امتدادا لشعراء النصف الأول من القرن الماضى ، وان غلبت عليها خفة الروح ، وسرعة البديهة ، وذكاء العبارة ، مما يتناسب وحياة الندمان ٠

ومحمد عثمان جلال (١٨٩٨) فى ترجمته الشعرية لأمثال (لافونتين) « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » يعتبر باعثا لجنس أدبى طال عليه الأمد بعد « ابان بن عبد الحميد اللاحقى » كما يعتبر سابقا لشوقى فى نظمه الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات ٠

وعائشة التيمورية (١٩٠٢) تعتبر بحق بادئة النهضة النسوية بمصر ٠

أما محمود صفوت الساعاتى فان مؤرخى الأدب يقفون عنده وقفات طويلة ٠ والظاهر أن لكثرة تنقله بين القاهرة والاسكندرية والحجاز ، والتحاقه بحضرة أمير مكة « الشريف بن عون » ومشاركته له فى بعض غزواته فى نجد واليمن أثرا فى أن روائح الاحياء والتجديد كانت تفوح من بعض جوانب شعره فهو وان لم يجدد فى موضوعات الشعر الا أنه حاول أن يتخفف من ثقل التكلف ، وأن يجرى طبعه على سجيته ، وأن يعود بفن الشعر الى ما كان له أيام العباسيين ٠

ثم يأتى بعد ذلك دور البارودى (١٩٠٤) ذلك الشاعر الذى تجمعت فيه كل مقتضيات العصر ، ومتطلبات النهضة فى الشعر ، فجاء شعره خير معبر عن أحاسيسه وأصدق مترجم لحياته التى انفعلت بأحداث الثورة العرابية ٠ فلقد خاض غمارها ، وعانى منها، وشرد عن وطنه بسببها ٠

وهو وان كان يقلد أحيانا الا أنه كان يبتكر أيضا حينما يتجه

بصدق الى وصف تجاربه ، أو الى التعبير عن ذاته وأحاسيسها ، أو الى تسجيل مشاهد الطبيعة ·

كان يقلد أحيانا كما كان يقلد النظامون فى عهد الحملة الفرنسية ، ويبتكر أحيانا كما يبتكر الشاعر الطليق بين أحدث المعاصرين ، وله — على هذا — ميزة واضحة لا نظير لها فى تاريخ الأدب فى مطلع العصر الحديث ، وتلك أنه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة الى طريق الصحة والمتانة ، وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد كأنه القمة الشاهقة تنبت فى متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول ، الا أن تستدير لها من القمم التى تليها وتقرب منها ، فاذا أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصر البارودى لم تكن تنظر الى قمة واحدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد الى أقصى مدى الأفق البعيد ، وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب المصرى ترفع الرجل بحق الى مقام الطليعة أو مقام الامام ·

ولقد أثر البارودى فى كثير ممن أتى بعده من الشعراء ، ان يده على الشعر العربى يد من أقاله من عثرته ، وأنهضه من كبوته ، وأعاد له ديباجته المشرقة ، ومعانيه السامية وكأنما فى يده عصا ساحر صيرت الميت حيا ، والضعيف قويا ، والمعدم ثريا ، وكان شعره فى العصر الحديث نموذجا لكل من أتى بعده من شعراء العربية ·

ويسلم البارودى الراية الى شوقى (١٩٣٢) فيتلقفها بجدارة ليسير بها فى نفس الطريق مع تعمق فى الحضارة ، والمام أكثر بالثقافة ، واستعداد لأن يكون هو القمة التالية لباعث الشعر العربى الحديث ·

ومهما يقولوا عن شعر الصنعة عند شوقي فانهم لن يستطيعوا أن يطمسوا من تاريخ الأدب الحديث روائع شوقي ، ولا أن يسلبوه ما حباه الله به من الهام واحساس وقدرة استطاع بهـا أن يثرى أدبنا الحديث ·

وعلى منوال البـارودى وشـوقى سار كثير من شعرائنـا المحدثين من أمثال حافظ وعبد المطلب ، ومحرم ، والجارم ، والجندى ، وغنيم وغيرهم ·

كما سار على منهج آخر ومنوال جديد خليل مطران ، ذلك الذى تعمق الثقافتين العربية والفرنسـية ، واستطاع بحق أن يكون من الرواد المجددين فى الأدب العربى الحديث ·

هذا الى جانب مدرسـة الديوان التى تعمقت فى الثقـافة الانجليزية ، ونادت بنظريات جديدة ساندتهـا بدواوين شـعرية متعددة ·

الباب الأول

الشاعر وعصره وآثاره الأدبية

الفصل الأول

عصر الشاعر

١ ـ الحياة السياسية :

قد يجد الباحث صعوبة فى تصوير حياة مصر السياسية ابتداء من أواخر القرن الماضى الى منتصف القرن العشرين اذا كان بصدد دراسة سريعة موجزة يقدمها بين يدى دراسته الأدبية ، لأن كثرة الأحداث وتتابعها وتشابكها واضطرابها تدع الانسان فى حيرة ، فما يدرى الى أى طريق يسير ؟ أيتجه بدراسته الى التفصيلات المهمة وكلها تلقى أضواء على عملية الانصهار القوية التى مرت بها مصر وخرجت منها بأنقى عناصرها ، وأقواها على الخلود فيبعد كثيرا عن جوهر دراسته ؟ أم يتجه الى الايجاز وهو يعلم أن شخصيته الأدبية التى يريد دراستها قد أسهمت فى وجودها ظروف مصر التاريخية والطبيعية ؟ أم يسكت اعتمادا على أن التاريخ الحديث لمصر يعرفه كل المثقفين .

ومن أين يبدأ الباحث والأحـــداث متشابكة ومعقدة فمن أى تاريخ بدأ وجد نفسه فى حاجة الى استقصاء هذا التاريخ ؟ وخروجا من هذا المأزق آثرت أن ألقى الأضواء على أبرز الأحداث السـياسية المعاصرة ، وبخاصة تلك التى أسهمت فى تكوين شخصية الجارم ، أو ساعدت على ابراز ظاهرة أدبية فى فنه .

كما آثرت أيضا أن أبدأ تاريخ هذه الفترة بدخول الانجليز الى مصر فى سنة ١٨٨٢ عقب فشل الثورة العرابية • والذى ساعد على ذلك أمران :

أولهما : أن حياة مصر والمصريين اختلفت أشد الاختلاف بعد الاحتلال الانجليزى عن الحياة التى كانت تتمتع بها أيام الاستقلال حينما كانت الامبراطورية المصرية تمتد من البحر الأبيض شمالا الى أوغندا جنوبا !!

ثانيهما : أن الجارم ولد بالفعل فى عام ١٨٨١ ، فكأن ولادته قد بدأت مع عهد جديد لا أقول : انه كان عهد خير للمصريين ، ففى الواقع لم ير المصريون فيه خيرا يكاد يذكر ! وانما أقول : انه كان يحمل فى ثناياه الخير كل الخير للمصريين ، وقديما قالوا : جزى الله الشدائد كل خير ، والشدائد فى مصر هى التى خلقت ثورتها ونهضتها وتقدمها !!

وايثارا للمنهج الصحيح ، وبعدا عن الاضطرابات مع أحداث العصر التى تكاد تبلغ السبعين من السنين رأيت أن أجعل من تاريخ الحاكم الشرعى ، ومن دراسة أهم الأحداث السياسية فى عهده منارات أستضيء بها فى القاء الضوء على ما أريد •

وحكام مصر الشرعيون لا يتجاوزون الخمسة طوال هذه السنوات العجاف من تاريخ كفاحنا القومى ، وهذا يدل بداهة على أن الشعب المصرى كان مغلوبا على أمره ، والا فبم نفسر هذا الاستقرار الذى تمتعت به الأسرة الحاكمة مع أنها قد خانت كفاح الشعب حينما تعاونت مع المستعمرين فى عام ١٨٨٢ وما بعدها ؟

كما يدل أيضا على أن الشعب المصرى قد يصبر ، وقد يطول صبره ، ولكنه اذا ثار أتى على الجذور العفنة فاختلعها بقسوة ورمى

بها في غير شفقة ولا رحمة ، ثم يعـود الى طبعـه الألوف وروحـه الهادئة ٠

في هذه الفترة الطويلة من تاريخ كفاحنا القومي نشأ الجارم وعاصر دخول الاستعمار في مصر كما عاصر تطورات الأحداث الى سنة ١٩٤٩ ٠

نشأ في عهد الخديوى توفيق ، وفتح أول ما فتح عينيه على هذه الوجوه الحمراء التى كانت تسير آمنة شامخة في كل مكان فتثير في نفوس المصريين الأسى والحزن ، وذكريات الهزيمة والعار ٠

كما تثير في نفوسهم ألوانا من اليأس يدعوهم الى الاستسلام؟ فالجيش الوطنى الذى صارع المحتلين في معارك عنيفة بكفر الدوار قد ألغي في عام ١٨٨٣ ، والمصريون في السـودان قد أجبروا على اخلائه في عام ١٨٨٤ ، ووعود الانجليز بالجلاء في مؤتمر الآستانة قد ضاعت مع تثبيت أقدامهم في مصر ، والحاكم الشرعى قد أظهر الخيانة فهو يلتمس منهم التوجيه والعون ، وكبار الموظفين ورجال البعثات قد قبعوا في مكاتبهم ، ورضوا بما تدره عليهم وظائفهم من مرتبات ، والوزارة القـائمة وان كانت مصرية الا أنهـا في الواقع تستمد وجودها من دار المندوب السامى ، وتعمل مخلصة على ارضاء قصر الدوبارة ، والمصريون أنفسهم قد استسلموا لسـبات عميق طوال عهد توفيق !!

وكان القدر قد آلى على نفسه الا أن يجمع من كل هذه الظروف السيئة عوامل البعث والايقاظ ٠

فبموت توفيق يبرز الى ميدان القيادة السياسية شابان ثائران يعملان في صدق واخلاص ضد المستعمرين وان افترقت بهما الطرق واختلفت الأهواء ، وانتهى كفاح كليهما الى طريق يختلف عن الآخر ٠

أما أولهما فالخديوى عباس حلمى الثانى ذلك الشاب الذى اعتلى عرش مصر وعمره لا يتجاوز الثامنة عشرة ، والذى كان ينقم من أبيه استعانته بالانجليز ويصرح بأن في ذلك خيانة ، والذى قرب كثيرا من الوطنيين ليقفوا بجانبه فى صراعه .

وأما ثانيهما فمصطفى كامل ذلك الشاب الذى كان يحمل وجدان مصر فى وجدانه ، والذى وهب حياته كلها فى بث الروح والحرارة فى نفوس المصريين فعقد المؤتمرات المتعددة فى فرنسا ، وفينا ، وبرلين ، وانجلترا ، والآستانة ، كما عقد مؤتمرات كثيرة فى الاسكندرية نادى فيها بأعلى صوته بأنه « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وبالتقاء الشابين فى كفاحهما مع المستعمر كانت هذه الهزة النفسية الصادقة التى هزت كيان الشعب .

غير أن قوة المستعمرين قد أرهبت أولهما حينما وجد عرشه يهتز بقوة بعد أن أقال وزارة مصطفى فهمى الموالية للاستعمار فى عام ١٨٩٣ ، ثم بعد أن اعترض على تدريب فرقة من الجيش المصرى فأغضب بذلك اللورد كرومر ، ثم عاد فأصدر ما يشبه الاعتذار فى عام ١٨٩٤ .

ولقد استمر فى ولائه للحركة الوطنية حتى عام ١٨٩٨ ، ثم أخذ يذعن بعد ذلك للأمر الواقع ، ويتودد الى الانجليز بعد حادثة فاشودة التى تقع على النيل الأبيض فى السودان بين الفرنسيين والانجليز ، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن فى عام ١٩٠٠ ، وزيارته للسودان فى ظل الحكم الثنائى فى عام ١٩٠١ .

ثم ظهر انحيازه الى المستعمرين بعد أن وقع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى سنة ١٩٠٤ ، واختط لنفسه ما يسمى سياسة

الوفاق ، ونفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، وذكر اللورد كرومر بالخير ، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحـده ، وأنه مستعد للتعـاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتـلال البريطـانى أفضل من أى احتلال آخر ٠

وعلى العكس من ذلك لم ترهب قوة المستعمرين ثانيهما ، فلقد وقف الشـاب الأعزل للانجليز بالمرصاد ، وضيق عليهم السـبل وطالبهم ، وألح فى مطالبتهم بالجلاء ، وهاجم الخديوى والمنحرفين ٠

واستغل حادثة دنشواى أروع استغلال فهو الذى أطاح فى الواقع باللورد كرومر سنة ١٩٠٦ بعد أن حكم مصر ثلاثا وعشرين سـنة ٠

وعلى العموم فلقد كانت هذه السنوات الطويلة التى تولى الحكم فيها عباس حلمى الثانى من أخصب الفترات فى تاريخ مصر الحديث، ففيها تبلورت الفكرة الوطنية ووجدت لها أنصارا يدافعون عنها ، ويعملون من أجلها ، ويهاجمون خصومها فى الصحف وفى المجتمعات٠ وبحسبك أنه نشأ فى هذه الفترة ثلاثة أحزاب ٠

أولهما : الحزب الوطنى الذى كان ينادى بأنه لا مفاوضة الا بعد الجلاء ، ثم حزب الاصلاح الذى كان مناوئا للحزب الوطنى ومدافعا عن وجهة نظر الخديوى برئاسة الشيخ على يوسف ، والذى سـماه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ايذانا للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعة منهم بالمبادىء الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ، ولم تذكر فى عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ، ولا عن الحرية الوطنية ٠

ثم حـزب الأمة الذى نادى بالاستقلال بعيـــدا عن الخـلافة

الاسلامية ، وكان لطفى السـيد لسان الذين فكروا هذا التفكير ، والذين اعتزموا لبث دعوتهم اصدار جريدة الجريدة ٠

كما برز الى الميدان كثير من الصحف القوية المتطورة من أمثال اللواء ، والمؤيد ، ومصباح الشرق على اختـلاف فى المشـارب ، والاتجاهات ، مما اضـطر الحـكومة والمستعمرين الى تقييد حـرية الصحافة ، واعادة قانون المطبوعات فى مارس سنة ١٩٠٩ وبه أنذرت اللواء ، وحوكم الشيخ عبد العزيز جاويش ، كما أحيلت تهم الصحافة الى محكمة الجنايات ٠

وبموت مصطفى كامل فى فبراير سـنة ١٩٠٨ حدث فراغ هائل ، وأصيبت القضية الوطنية بصدمة عنيفة ظهر أثرها فى هذه الاضطرابات المتوالية التى بدأت بسقوط وزارة مصطفى فهمى الطويلة الأجل ، ثم باغتيال رئيس الوزراء الجديد بطرس غالى لأنه وقع على اتفاقية سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان وبالحكم الثنائى ، ثم بتولى رئاسة الوزارة محمد سعيد الذى افتتن فى محاربة الحركة الوطنية ، وانتهت هذه الفترة بتولى حسين رشدى الوزارة فى ابريل سـنة ١٩١٤ قبيل اعلان الحرب العظمى بين انجلترا والمانيا فى أغسطس من العام نفسه ، كما انتهت بخلع الخديوى عباس ، وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية فى ديسمبر عام ١٩١٤ ٠

واستسلمت مصر مرة ثانية فى ظل الحماية ، وأسلمت جميع مواردها من الرجال والمهمات والمؤن والمواشى والحاصلات الزراعيـة والصناعية الى خدمة السلطة العسـكرية وصارت الحـكومة تعمل بلا انقطاع لتقديم كل المساعدات اللازمة للجيوش البريطانية ٠

وكان الأمل الذى خرج من أحشاء الأمة ومن دمها وأعصابها قد بدأ يبتسم فى تلك الوجوه البائسة التى ذاقت ويلات الحـرب

والحرمان بلا جريرة ، وكأن هذه السنوات العشر التى أعقبت موت مصطفى كامل كانت هى الروح التى غذت هذا الأمل وهيأت السبيل لنموه ، فلقد رأيناه في سنة ١٩١٩ قويا جبارا يتمثل فى هذه الثورة العنيفة التى تصدت للمستعمرين ، وكادت تؤتى ثمارها لولا الانحراف السـياسى ٠

وثورة ١٩١٩ حدث خطير هائل لم تكن وليدة زعامات فردية ، وانما كانت وليدة ارادة أمة عانت من الكبت ومن الاستعمار قرابة أربعين عاما ، ثم انطلقت لا تلوى على شىء ، وكانت خليقة بأن تحقق أمل البلاد لولا أنانية الزعماء ٠

فسعد ، وعدلى ، وصدقى ، ومحمد محمود هم ركائز هـذه الفترة ، والمسئولون أولا وأخيرا عن نتائجها ٠

ولن يشك أحد فى اخلاص الأولين ، كما لن يغفر للأخـيرين انحرافهما بالسلطة الشرعية عن أهدافها ، واستغلالها ضد حريات الشعب ٠

وبشىء من التفصيل نستطيع أن نسلط الأضواء على كل زعيم من هؤلاء ٠

فسعد بصفته الوكيل العام للجمعية التشريعية يعتبر وكيلا شرعيا عن الأمة فهو كما كان يرى أحق من غيره بالمطالبة بحقـوق الأمة ، وقد كان كذلك ، بل لقد تعرض للنفى مرتين فاكتسب بذلك عطف الجماهير الشعبية ، وأرهب المستعمرين ٠

ولكنه مع ذلك هو المسئول الأول عن هذا الانقسام الذى حدث نتيجة لاختلافه مع عدلى على رئاسة وفد المفاوضات ، وهو المسئول أيضا عن الارتفاع بالروح الثورية الى أقصى غايتها دون عمل الضمانات اللازمة لاستمرار هذه الروح ، وبخاصـة بعد مقتل « السـير لى استاك » فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ٠

وهو المسئول أخيرا عن اغفاله للثورة الاقتصادية حينما كان رئيسا للوزارة ، فهى لم تساير الثورة السياسية على الاطلاق ٠

وعدلى كان مخلصا أيضا ولكنه تردى فى أخطاء ، ولقد أتى الى الوزارة أكثر من مرة ، أتى الى الوزارة فى سنة ١٩٢١ ، واختلف مع سعد ، وسحبت الأمة ثقتها من وزارته ، وكان من الواجب عليه أن يستقيل ، ولكنه تردى فى عناده ٠

وأتى فى يونيو سنة ١٩٢٦ على رأس وزارة ائتلافية ، ولكنه لم يعن بقضية الاستقلال ، ولا بمقاومة الاعتداء البريطانى ، ولم يعمل عملا لرفع آثار الاعتداءات المتكررة من الانجليز فى السودان بل لم يضع لوزارته برنامجا انشائيا ينهض بالبلاد من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية ٠

وأتى الى الوزارة فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ عقب استقالة وزارة محمد محمود ، ولكنه فى هذه المرة أعاد الحياة الدستورية الى البلاد ٠

وصدقى عين وزيرا للداخلية فى وزارة زيور باشا فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٤ ، وكان الغرض من تعيينه تقوية الوزارة ، والاستعانة به فى تسخير الأداة الحكومية للعبث بالانتخابات ، وقمع المقاومة الشعبية ٠ ولقد قام بدوره خير قيام فأذل المصريين ، وكتم أنفاسهم ٠

ثم أتى على رأس الوزارة فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٠ ، فألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأعلن دستور آخر فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ فيه تفويض للملك بالاستبداد ، ولم يأبه بالشعب ، ولا باحتجاج الأحزاب ، بل لقد استخدم الجيش فى احتلال دار البرلمان فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وظل صدقى مرعبا مخيفا مكروها من الشعب حتى وزارته الأخيرة فى فبراير سنة ١٩٤٦ ٠

أما محمد محمود فمحبذ سياسة الاضطهاد ، وصاحب اليد الحديدية الذى عطل الدستور ، وأعاد العمل بقوانين المطبوعات القديم، وجرد الموظفين من حرية العقيدة السياسية ، وعاقب طلاب المدارس والجامعة ، وبه يكمل تصويرنا لهذه الفترة الحيوية من تاريخ كفاحنا القومي ، ولو أنه في عهد وزارته الثانية كان أخف وطأة من ذى قبل .

ولقد اتسمت هذه الفترة بسمة الصراع من أجل الدستور ، كما اتسمت أيضا بسمة المنافسة الحزبية .

والدستور كان وليد ثورة ١٩١٩ ، كما كان اعلان الاستقلال، والمناداة بسلطان مصر ملكا في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وليد الثورة أيضا .

غير أن الدستور قد ارتطم بسياسة الملك فؤاد الذى كان يرى فيه حدا من سلطته المطلقة ، ولقد سخر من أجل الاجهاز عليه أكثر من زعيم ، فوزارة محمد توفيق نسيم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ شرعت في مسخ الدستور ، وحذفت المادة التى تقول : ان الأمة مصدر السلطات ، كما حذفت النصوص الخاصة بالسودان .

ووزارة يحيى ابراهيم في ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ سارت على خطى نسيم وأعلن رئيسها أنه معتمد في أداء مهمته على مساعدة المندوب السامى .

ووزارة زيور باشا في سنة ١٩٢٤ عبثت بالانتخابات ، وسلبت من الدستور روحه .

ووزارة محمد محمود في يونيو سنة ١٩٢٨ عطلت الدستور وحلت البرلمان .

ووزارة صدقى في أغسطس سنة ١٩٣٢ ألغت الدستور ، وأعلنت دستورا آخر في أكتوبر من العام نفسه كان فيه تفويض للملك بالاستبداد .

ولكم كان للدستور من شهداء ، ولقد توج كفاح الشعب اعادة دستور ١٩٢٣ فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ٠

أما المنافسة الحزبية فلقد اتسمت بالصراع بين الأحزاب المختلفة التى من أهمها حـزب الوفد ، حـزب الأغلبية ، وحـزب الأحرار الدستوريين المنشقين عن الوفد الذى تألف فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ووقف للدستور بالمرصاد ٠ ثم حزب الاتحاد الذى ألفه يحيى ابراهيم فى يناير سنة ١٩٢٥ بايعاز من قصر عابدين ، وحزب الشعب الذى ألفه صدقى فى سنة ١٩٣٠ ثم اندمج مع حزب الاتحاد فيما يعرف باسم حزب الاتحاد الشعبى ، ثم حزب الهيئة السعدية برئاسة أحمد ماهر سنة ١٩٣٨ ، والحزب الوطنى ، وحزب مصر الفتاة ٠

واستمر الصراع الحزبى طوال عهد فاروق ٠

ومن الملاحظ أن فاروق تولى عرش مصر والبلاد يسودها الائتلاف ودستور سنة ١٩٢٣ قد أعيد الى الحياة ، والانتخابات قد أتت بوزارة النحاس فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٦ ٠

والنحاس ووزراء الهيئة السعدية من أمثال أحمـد ماهـر ، ومحمود فهمى النقراشى هم عمد هذه الفترة التى كانت تشبه الى حد بعيد فترة ما قبل الحـرب العـالمية الأولى مع اختـلاف فى الظروف والملابسات والنتائج ٠

أتى النحاس الى دست الوزارة فى هذه الفترة أكثر من مرة فشغل النـاس ، وافتن فى الدعاية ، واكتسب بذلك عطف الجماهير وحماستهم ، فهو الذى عقد اتفاقية ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، مع أنها لا تحقق أمل البلاد فى الاستقلال التام ٠ وهو الذى عقد أيضا اتفاقية « مونترو » التى تنص على الغاء الامتيازات الأجنبية فى ابريل سنة ١٩٣٧ ، وهو الذى عمل على دخول مصر الى عصـبة الأمم فى ١٠ مايو من العام نفسه ، وهذا كله جهد مشكور ٠٠

غير أننا لا نستطيع أن نغفر للنحاس استغلاله لثقة الشعب في مناوراته السياسية التى كان يهدف من ورائها دائما الى الوزارة •

فلقد رفض وزارة الائتلاف فى سنة ١٩٤٠ والحرب مشتعلة الأوار ، والبلاد فى حاجة الى ائتلاف ، كما رفض الوزارة أيضا فى عام ١٩٤٢ فى مناورة سياسية مكشوفة أدت الى محاصرة قصر عابدين واهانة المصريين فى شخص ملك البلاد •

كما أرهب خصومه السياسيين عن طريق فرق القمصان الزرق ، واقالة بعض كبار الموظفين الحزبيين ، واستغلال المناصب عن طريق الرشوة ، والمحسوبيات •

وعلى العكس من ذلك نرى وزارتى أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى • فلقد كان لكليهما مواقف فى القضاء على المحسوبيات ، كما كان للأخير موقفه المشرف فى مجلس الأمن من أجل الدفاع عن قضية البلاد •

واتماما للحديث عن هذه الفترة رأينا أن نتحدث عن خمسة مظاهر ميزتها عن الفترة السابقة ، وصبغتها بصبغة معينة •

أولهما ــ سياسة الاحتفالات التى اتبعها القصر ، واجتذب بها قلوب المصريين ، وسخر من أجلها كل وسائل الاعلام نرى ذلك فى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ كما نراه فى حفلات التتويج والزفاف الملكى فى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨ وأعياد الميلاد الملكية ، وميلاد الأميرات وزواج الامبراطورة فوزية • ويطول بنا الحديث اذا استطردنا الى تصوير ما كان لهذه الاحتفالات من الروعة والجلال •

ثانيها ــ تأثر مصر بأحداث الحرب العالمية الثانية ، واعلان الأحكام العرفية فى عام ١٩٣٩ ، فلقد أصبحت مصر ميدانا لتصارع قوات المحور والحلفاء وبخاصة فى العلمين ، كما أصبحت المدن عرضة

لغارات الأعداء المستمرة مما سبب الرعب فى قلوب المصريين ، هــذا بالاضافة الى الأزمة الاقتصادية التى سببتها الحرب ، وعانى منهــا الشعب وأثرت فى كثير من مواد تموينه التى كانت مسخرة لجيوش المحاربين ٠

ثالثها ــ تأليف لجنة عليا تمثل الطلبة والعمال للمطالبة بالجلاء فى ٢١ فبراير ســـنة ١٩٤٦ وكانت وسيلتهـــا الى ذلك تنظيم الاضرابات ، ثم تطورت الى جماعات الفدائيين التى اشتركت فى حرب العصابات مع الانجليز فى مدن القنال ٠

رابعها ــ توقيع ميثاق جامعة الدول العربية فى مارس سنة ١٩٤٥ ٠

خامسها ــ دخول جيوش الدول العربية الى فلسطين فى سنة ١٩٤٨ ، وما أعقبها من خيانات تجلت فى قضية الأسلحة الفاسدة ٠

ولقد تجمعت كل هذه العوامل ، وانضمت الى العوامل الأخرى الاقتصادية والاجتماعية ، وتكاتفت ، وبرزت الى الوجود فى ثورة ١٩٥٢ ٠

٢ ــ الحيــاة الاجتمــاعية :

والحيــاة الاجتماعية فى مصر قد شغلت أذهان المفكرين منذ مطلع هذا القرن ، لأن رواسب التخلف من فقر وجهل ومرض قد تراكمت وأصبحت فى حاجة ماسة الى نهضة سريعة وحاسمة تقضى على كل ما خلفته عهود الظلام ، وتعمل على انقاذ البلاد من مؤامرات الاستعمار التى ترمى الى تخلفها الاقتصــادى بالاعتماد على الزراعة وحدها ، وتخلفها الاجتماعى بتوسيع الفوارق بين الطبقات ٠

ومن هنا رأينا كثيرا من المصلحين يهتمون بالأدواء الاجتماعية، ويعملون على اصلاحها وأدباء مصر بعامة ، وشعراءها بخاصة في المقدمة .

١ ـ ولقد شغلت مشكلة الفقر أذهان كثير من المصلحين والمفكرين ، فحافظ ابراهيم ـ وقد نشأ بين طبقات الشعب الكادحة ـ يصور لنا في شعره حياة كثير من الفقراء ، فهذه فتاة يائسة قد أضر بها الجوع ، وأنهك جسمها المرض ، فأصبحت كعود خلال ، أو كطيف خيال .

أمست بمدرجة الخطوب فمالها   راع هناك وما لها من وال

وهذا صبي هائم   تحت الظلام هيام حائر

لا يجد له مأوى يؤويه ، ولا قلبا يعطف عليه ، ولا شيئا يستر جسمه ، الى آخر هذه الصور البائسة التي حفل بها شعر حافظ ابراهيم .

ومصطفى صادق الرافعي يصور لنا في كتابه المساكين أنماطا متعددة ، ونماذج بشرية لهذا اللون من الناس : يصور حياة أطفال الشارع وهم ينامون على عتبة البنك يحلمون بالغنى والمجد ، كما يصور حياة كثير من السائلين والمجدودين ، فهذه فتاة مسكينة قد تزوجت « بكونت » في سن أبيها ، وهذه فتاة سائلة أراق السؤال ماء وجهها ، ولكنها لم تظفر بما تريد ، صور متعددة لمساكين عج بهم المجتمع فأصبحوا عالة عليه وثقلا في سبيل تقدمه .

ومحمد عبد المطلب يصور باكية الدياجي وحولها أطفالها يتضاغون من الجوع ، ويصور حياة الفقير وبجواره قصر منيف يشق السماء طولا ، وحالة الغلاء وقد أضر بالشعب كما أضر بابن الحكومة.

فوا رحمتا لابن الحكومة قوسه   قلوع ، وهل يرجى سداد قلوع

وأحمد محرم يصف فى أكثر من قصيدة مشكلة الفقر والغنى، بشعور قوى يدل على شدة انفعاله ، وفرط حساسيته ٠

وخليل مطران يبكى المرأة وشقاءها فى قصته الرائعة «الجنين الشهيد» فى قوله :

وكم ضاجع الجوع الأثيم بهاءها
وقبلها حتى أجف دماءها
وكم ساعف الحر المذيب شقاءها
وكم نازع البرد الشديد نماءها
نوائب تأتى كالليالى وتشتعل

ويبين مغبة فقرها فى قوله :

على أنه ملهى رجال أسافل
مبغى نساء فاجرات عواطل
جديب خصيب بالبطون الحوامل
وما تقذف الأمواج من كل ساحل
من الرمل ما يقذفن فيه من النسل
يعد بنيه للمهانة والخنا
ويلقى بهم فى البحر تحت يد الفنا
فيتخذون التيه فى الأرض موطنا
عراة حفاة خائرين من العنا
اذا نزلوا خصبا فبشره بالمحل
فتحترف الأزواج بغى نسائها
وتحترف الزوجات خلع حيائها
وولد خلت آباؤها عن ابائها
يتاجر فى أعراضها وبهائها
وتنمو على خلق المفاسد والختل

وهكذا يضرب على هذا الوتر الحساس من القلوب الانسانية ٠

٢ ـ وتخلف المرأة مشكلة أخرى شغلت أذهان كثير من المفكرين والمصلحين ٠

فلقد نادى رفاعة الطهطاوى منذ زمن مبكر بتعليم البنات فى كتابه (المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين) كما صورت عائشة التيمورية فى ديوانها حلية الطراز فجر النهضة النسائية فى مرحلتها الأولى ٠ غير أن هـذه محاولات محدودة لم تهيأ لها البيئة الصالحة بعد ، فلما جاء قاسم أمين ونادى بتحرير المـرأة من أسر الحجاب ، وباعطائها حق التربية والتعليم أثار بذلك الرأى المتنور فانقسم الى فريقين :

فريق ينكر دعوته ، ويرى أن فيها انحرافا بتقاليدنا وعاداتنا ويهاجم من أجل ذلك قاسم أمين ، وعلى رأسه عبد المطلب ، ومحرم ، والرافعى ، ورجال الدين والقصر ٠

وفريق آخـر يؤازره فى دعـوته ، وان كان يتريث فى بادىء الأمر ، ممالأة وتقية ، ثم يجهر برأيه بعد أن تخف حدة المعركة وعلى رأسه شوقى وحافظ ابراهيم ٠

وتستمر الدعوة الى اصلاح المرأة ، والعناية بأمرها ، وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم ، ومنع زواج الشيب بالأبكار ، والتماس أساليب التربية الصحيحة لتقويمها والسير بها فى الطريق الصحيح٠

٣ ـ وفتور الشعور الدينى ومحاربته والانحراف به عن طريقه السليم مشكلة أخرى شغلت أذهان المفكرين من أمثال جمال الدين ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومصطفى كامل ، وحزب الأمة ، كما شغلت أذهان كثير من الشعراء فى المواسم الدينية فى العام الهجرى، وفى الميلاد النبوى وفى الأعياد ، ولقد كان لكل ذلك أثره فى اعداد الرأى العام لانشاء كثير من الجمعيـات الدينية من أمثال الشـبان المسلمين والهداية الاسـلامية ، والتعارف الاسـلامى ، والاخـوان

المسلمين ، وانشاء عدة جرائد ومجلات اسلامية مثل الزهراء والفتح للأستاذ محب الدين الخطيب ٠

٤ ــ على أن الكتاب والشعراء لم يقصروا أدبهم وشعرهم على وصف الأدواء ومحاولة علاجها ، وانما كانوا يتجاوبون مع كل اصلاح ، وها هو ذا شوقي يعنى بمظاهر النهضة فيقول فى الجامعة، وفى الصحافة ، وفى العلم والتعليم ، وفى بنك مصر ، وفى أول طيار مصرى ، وفى العمال ٠

وحافظ يسجل فى شعره كثيرا من نبضات المجتمع فى معاهد البنات المختلفة وفى الدفاع عن اللغة العربية ، وفى زواج الشيخ على يوسف ببنت السيد عبد الخالق السادات ٠ وهكذا يسهم الشعراء بدور فعال فى تصوير المجتمع ، وتشخيص علله وأدوائه ، وعوامل نهوضه ، ومؤازرة خطواته فى سبيل التقدم والبناء ٠

وحسبنا هنا أن نعطى صورة واضحة وسريعة لحياة مصر الاجتماعية فى هذه الفترة التى نهتم بدراستها ٠

٢ ــ الحياة الثقافية :

(أ) التعليم

من الواضح أن الخديوى اسماعيل قد أحدث نهضة تعليمية حال دون اطرادها المستعمرون باسناد أمر وزارة المعارف الى المستر « دنلوب » ، فلقد وضع سياسة تعليمية جامدة ، بعيدة عن روح التربية والتعليم تهدف الى ايجاد طائفة من أنصاف المثقفين ٠

وساعد مع كثير من العقول الرجعية على اتساع الهوة بين التعليم الدينى ، والتعليم المدنى ، فأصبح كل منهما فى واد ٠

فالأزهر يدرس الكتب الدينية ، واللغوية ، وطرفا من الدراسات الأدبية لاتغنى سبيلا ، ثم هو لا يهتم بالطالب وانما يلقى

عبأه كله على عاتقه من غير أن يحمل أحد أى عبء عنه ، فما عليه الا أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء ، فيحضر أولا يحضر ، ويجد أو يلعب ، ويفهم أولا يفهم ، كل هـــذا متروك الى نفسه ٠

واستمرت هذه الروح فى الأزهر حتى بعد أن نظم فى معاهد وكليات فالدراســة فيه كانت جامدة تعتمد على الحواشى والمتون والاستظهار دون التذوق ، والمعرفة النــاضجة ، ومســايرة روح العصر ٠

والتعليم المدنى قد خطط له المســتعمرون ، واتجهوا به الى الاستظهار والحفظ ، وحشوا أدمغة التلاميذ بكثير من المعلومات دون غاية أو هـــدف ، وتدخلوا فى كل شىء حتى فى اختيار الجامعات والمعاهد الأوروبية لطلاب الدراسات العليا ٠

ولقد حدث تطور خطير فى ميدان التربية والتعليم جاء نتيجة حتمية لانشاء الجامعة ، والتوسع فى التعليم العام وبخاصة بعد الغاء المصروفات ووجود طائفة من المربين العلماء الذين عملوا باخلاص على تلافى هـــذا النقص ، واهتدوا بآراء المفكرين المدونة فى كثير من الكتب التقارير الرسمية مما ساعد على نمو نهضة تعليمية موفقــة بالبلاد ٠

(ب) تصارع الثقافات

ولقد شهدت مصر منــذ مطلع القرن الماضى صراعا عنيفا بين الثقافات العربية ، والفرنسية ، والانجليزية ، فلقد اتجه محمد على الى فرنسا ، فأرسل البعثات المتعددة اليهــا واســتقدم كثيرا من الفرنسيين فى مصر ليساعدوه فى مشروعاته الانمائية ، فساعد بذلك بطريق غير مباشر على احياء اللغة العربية لأن المترجمين كثيرا ما كانوا

يضطرون الى البحث عن مقابل عربي لكثير من المصطلحات الإجنبية، ثم أتى سعيد الى الحكم فساعد البعثات الدينية الأجنبية على فتح مدارسها ، وسار فى نفس الاتجاه الخديوى اسماعيل الذى فتح الباب على مصراعيه للثقافة الأجنبية كما فتح الباب للمستعمرين الانجليز ·

وهنا بدأ الصراع يأخذ دورا جادا بين الثقافة الفرنسية صاحبة السبق فى الديار المصرية والثقافة الانجليزية الوافدة مع الاحتلال ، وبطبيعة الحال استطاع الانجليز أن يفرضوا لغتهم على مدارس الدولة فأهملوا بذلك اللغة العربية والفرنسية ولم يتوانوا عن حربهما بشتى الوسائل ·

ولقد وقف الزعماء الوطنيون والعلماء بجانب اللغة العربية ، ودعوا الى احيائها والاهتمام بها ، من أمثال الشيخ ابراهيم اليازجي، وأحمد فتحي زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ على يوسف الذى دعا الى التدريس باللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ودافع عن وجهة نظره دفاعا مستمرا · ثم الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى هاجم سعد زغلول حينما اعترض على جعل التعليم فى المدارس الأميرية باللغة العربية ، وعارض طلب الجمعية العمومية من الحكومة ·

(ج) الصحافة الأدبية

وشقت الصحافة طريقها فى أحلك فترة من فترات التاريخ المصرى الحديث ولقد كان المصريون عزلا من كل سلاح الا سلاح الصحافة أو سلاح الوعى القومى ، وأسلم الراية أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله نديم ويعقوب صنوع الى ابراهيم المويلحى ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ، وجرجى زيدان ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، ومحمد حسين هيكل · ولقد كانت الصحافة والزعامة شيئا واحدا ·

ومن المهم أن نفرق هنا بين صحافة الخبر ، وصحافة المقال ، ونوضح أننا نعنى هنـا صحافة المقـال ، صحافة الرأى والدرس والبحث والنظر فى كل مشكلة من مشكلات الأفراد والجماعات ، ثم الصحافة الأدبية ٠

ولقد أخذ المقـال طابعه الحديث على أيدى هؤلاء الرواد من الصحفيين المويلحى فى مصباح الشرق استحدث لونا طريفـا من النقد لاعهد لأدب مصر به بل ولا عهد للأمم العربية جمعاء ، وهـذا النوع من النقد يقوم فى الجملة على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل فيعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافق لذهنـه الدقيق من ألوان التشبيـه وما يحضر من فنون الاستشهاد والتمثيل ولا يبرح يمط الموضوع فى هـذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة والملابسـات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع حتى ينتهى الى مالا ينتهى اليه أحد من الناقدين ٠

والسيد على يوسف وقف بقلمه فى ميدان السياسة وميدان الدين ٠ ففى ميدان السياسة بعث حبا وعطفا فى قلوب المصرين على عباس حلمى الثانى بوصفه أنه الرجل الذى وقع فريسـة الاحتلال البريطانى لا لشىء الا أنه أراد أن يكون للشعب المصرى أكثر من أمير أو ملك ٠ وفى ميدان الدين رد على الأوروبيين فى هذه الحرب الدعائية التى شنوها على الدين الاسلامى ، وأفهمهم قيمة هذا الدين ، وشرح لهم كثيرا من مبادئه بطريقة بارعة ، وكان هذا العمل متمما للعمل العظيم الذى بدأه محمد عبده ، وطالب بالدستور ، ودافع عن اللغة العربية ٠

ومصطفى كامل اتخذت كلماته ومقالاته أسلوب العاطفة الحادة ووضـع أمامه هـدف ايقاظ المصريين من غفلتهم وبث الحيوية فى نفوسهم لكى يقفوا أمام تيار الاستعمار والتخلف والتردد واليأس ٠

أما أحمد لطفى السـيد فكان أدبه هو الوليد الحى القـوى المتمشى مع روح العصر الجديد ، فكل من كان يقرأ فصلا من فصول الأستاذ فى الجريدة كان يشعر بأن فى الأدب العربى شيئا جديدا فيصبو الى أن يتعرف هذا الجديد فاذا هو أمام شخصية قوية خلابة خصبة محببة الى النفس قد ملكت عليه عقله ، واستأثرت بهواه ، واذا هو يجد فى هذه الفصول لذة لا يستطيع أن ينصرف عنهـا ولا أن يسلوها لذة كلذة « الكيف » ان صح هذا التعبير ، ولكنها لذة تغذو وتفيد ، واذا هو يقرأ هذه الفصول ويقرؤها ، ويحاول أن يتخذ لفظها نموذجا للكتابة ، ومعناها نموذجا للتفكير ، واذا هـو يتجاوز الأستاذ وفصـوله الى الحياة الأوروبية الحديثة ، والتفكير الأوروبى الحديث ، واذا هو من أنصار الجديد فى قصد واعتدال واذا هو من الذين يدعون الى حرية الرأى وينودون عنها ، واذا هو من الذين يريدون أن يزايلوا هذه الفروق التى كانت تقوم بين العقل الشرقى والعقل الغربى ، واذا هو يريد أن تكون مصر العقلية جزء من أوربا العقليـة ، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتهـا القومية واضحة قوية •

ولقد كان للأدب فى صحيفة السياسة اليومية أثر واضح فى بلورة كثير من النظريات الأدبية ، فلقد تناول ناقد السياسة الأدبى الدكتور طه حسين كثيرا من هـذه النظريات بالتمحيص والنقد أو الارشاد والتوجيه ، وذلك فى رده على الرافعى ، أو فى نقده للعقاد وهيكل أو فى عتبه على الزيات •

واستطاع طه حسين بآرائه أن يؤدى رسالته الأدبية أحسن أداء •

كما اسـتطاع محمد حسين هيكل رئيس التحرير أن يبسط رأيه فى الأدب القومى ذلك الذى يجب أن يعتمد على التاريخ المصرى وطبيعة وادى النيل •

ولصحيفه البلاغ الأسبوعى التى كان يسهم فى تحريرها العقاد ، نفس الدور الطليعى فى توجيه الأدب المعاصر .

ثم سلمت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى الراية بعد ذلك الى المجلات الأدبية الخالصة : فمجلة أبوللو اهتمت بالشعر ونقده ، وكشفت عن كثير من المواهب الأدبية المطمورة التى تربعت على عرش الشعر والنقد المعاصرين ، ومجلة الرسالة اهتمت باحياء اللغة والدين ، وأسهمت فى نهضة الأدب الحديث وتبعتها مجلة الثقافة ، ثم مجلة الكاتب ذات الطابع العربى الرصين ، أما مجلة الكاتب المصرى فالأبحاث فيها كانت تميل الى الانطلاق والتحرر .

الدراسات الأدبية :

فى الأزهر والجامعة ودار العلوم

أما فى الأزهر فالأدب فى أواخر القرن الماضى كانت دروسه منتظمة فى حلقتى الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد بن على المرصفى ، فالشيخ محمد عبده كان يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته دروسا فى البلاغة « لاعلى نمط البلاغة التى أفسدتها الفلسفة ، بل على النمط الذى يربى الذوق ويرقى الأسلوب ، ولقد قرأ كتابى دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان هو السبب فى نشرهما ، فقدم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهوما للناس من قبل .

وأما الشيخ سيد بن على المرصفى فلقد كان يدرس الأدب فى الأزهر ، وتلخص منهجه فى ايثاره للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلفه بمناحى الأعراب فى فنون القول ، ونبوه عن تكلف المولدين لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغضه الشديد لحكم الضرورة فى الشعر ، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الضخمة

الى غير ذلك مما هو الى مذهب القدماء ورواة الشعر أدنى منه الى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد •

ولكن هذه الدروس لم تستمر ولم تتطور، بل لقد عاش الأزهر بعد ذلك عالة على كتاب الوسيط الذى ألفه أحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى ، وكتاب السعد فى البلاغة للتفتازانى حتى صدور قانون اصلاح الأزهر الأخير فى عهد الثورة •

وأما الجامعة المصرية فلقد عنيت بالمذهبين النافعين فى وقت واحد ، عهد الى المرحوم حفنى ناصف ثم الى المرحوم الشيخ مهدى بدرس الأدب ، وعهدت الى الأستاذ جويدى ثم الأستاذ نلينو ، ثم الأستاذ فييت بدرس تاريخ الأدب •

وأما دار العلوم فكانت وسطا بين الأزهر والجامعة ، عملت جهد استطاعتها على احياء الأدب العربى القديم ، وبعثه فى حلل عربية زاهية ، كما عملت جهد استطاعتها أيضا على مسايرة العصر الحديث •

وان كانت قد تعرضت لهجوم عنيف من الدكتور طه حسين فى نقده لمنهج الدراسات الأدبية بها فهو كما يرى لا يأخذ بحظ من أسلوب القدماء فى النقد ، ولا من أسلوب المحدثين فى البحث ، وانما يحاول أن يقلد الأوروبيين فيما يسمونه تاريخ الآداب ، فيعمد الى الكتاب والشعراء والفلاسفة فيترجم لهم ، أو يختلس لهم ترجمة من كتب الطبقات على اختلافها ••

ثم ينحى طه حسين باللائمة على الحكومة التى لم ترسل البعثات الى أوربا فى الآداب لتعود الى دار العلوم •

وقد يشتد طه حسين فى هجومه فيطالب بالغاء دار العلوم والاعتماد على مدرسة المعلمين العليا •

والحق أن دار العلوم قد أدت رسالتها ، وطورت مناهجها مع الزمن ، ففيها كان يحاضر الشيخ حسن المرصفى صاحب « الوسيلة

الأدبية لعلوم العربية » وفيها وضع أول كتاب فى تاريخ الأدب على الطريقة الحديثة ألفه الأستاذ حسن توفيق العدل متأثرا «ببروكلمان» وعلى نمطه سار كل من أتى بعده ·

وفيها تطورت الدراسات الأدبية يغذيها رافدان : الثقافة العربية الأصيلة ، والثقافة الغربية المستحدثة ·

(د) المعارك الأدبية :

الصراع بين القديم والجديد مستمر ودائم فى كل عصر وكل أمة ، ولقد بدأ الصراع بين القديم والجديد فى الأدب الحديث بصورة جادة فى أواخر القرن الماضى ، واستمر مع مطلع القرن العشرين الى الآن · بدأ على يد أحمد فارس الشدياق الذى أخذ يوازن بين الشعر الغربى والشعر العربى ، والشيخ نجيب الحداد الذى وازن بين اللغتين من حيث القافية واللفظ والمعنى ، ومن الواضح أن الموازنات وسيلة من وسائل التوجيه فى النقد الأدبى ، ثم تبعهما الزعيم الوطنى محمد فريد الذى أخذ يدعو الى الأغراض القومية فى مقدمة ديوان « وطنيتى » لعلى الغاياتى ، ويهاجم شعر المديح الذى يدبجه الشعراء فى أيام معلومة ومواسم معدودة وطلب منهم أن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية فى خدمة الأمة وتربيتها بدل أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء ،

ثم أخذ الصراع يشتد ويعنف على يد :

١ ــ مدرسة الديوان

٢ ــ طه حسين والرافعى

٣ ــ جماعة أبوللو

٤ ـ شعراء المهجر

٥ ـ سلامة موسى

٦ ـ الشعراء التقليديين

أما مدرسة الديوان فلقد تأثرت بالأدب الرومانسى الانجليزى فى نتاجها الشعرى ، وفى نظراتهـا النقدية ، وكانت لها مع ذلك شخصيتها الواضحة ، كما كان من أقطابهـا شخصيته فى انتاجه الشعرى ٠

فعبد الرحمن شكرى فى ديوانه الخامس (الخطرات) تحدث عن وحدة القصيدة والحكم عليها بمجموعها لابيبيت منها لأن البيت جزء مكمل وليس وحدة تامة ، وعن موضوعات الشعر التى تستلزم نوعا ومقدارا خاصا من التفكير ، وعن المعانى الشعرية وأجلها خواطر الشاعر وآراؤه وتجاربه النفسية وعن الخيال الشعرى ٠

ومن الواضح أنه بهذا يعرض بالشـعراء التقليديين الذين يترسمون خطى الجاهليين والعباسيين فى نظام قصائدهم ٠

والمازنى كان يرى أن الشـعر يجب أن يكون عليه « طابع ناظمه وميسمه وفيه روحه واحساساته وخواطره ، ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيعة ، وهل الشعر الا صورة للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة حتى لا يتوخى الشاعر فى شـعره الا كل جليل من المعانى ورفيع من الأغراض ، وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ، أليس شرف المعنى وجلالته فى صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل ٠

وهو بذلك يهاجم شعراء التقليد الذين تذوب شخصياتهم فيما حفظوه من نماذج قديمة تطغى على احساساتهم ومظاهر أنفسهم ٠

كما هاجم طه حسين فى نقده لحديث الأربعاء ، وهاجم حافظ ابراهيم فى ١٩١٣ ، ١٩١٤ وجمـــع مقالاته ونشرهـا ، وهاجم المنفلوطى أيضا ٠

أما العقاد فيرى أن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضـــع ، أو تغيرت النســـبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ٠

١ ـ وعلى العموم فان مدرسة الديوان قد دعت الى مفاهيم جديدة من أهمها الصدق والاحساس ، والصدق فى التعبير عن ذلك الاحساس ، كما نادت بالوحدة العضوية ٠ وهاجمت عباد الألفاظ من التقليديين ٠

٢ ـ وعلى صفحات السياسة الأسبوعية ومجلة الوادى تدور معارك حامية بين القديم والجديد ، يمثل التيار الأول مصطفى صادق الرافعى ، ويمثل التيار الثانى الدكتور طه حسين ٠

وتبدأ المعركة برسالة عتاب من الرافعى الى أديب من أدباء الشام وقد كتبها ـ على حد تعبير طه حسين ـ على النمط الذى هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون فى مثل هذه الرســـالة لا يكون أبدع منه شىء من الأساليب الأخرى ٠

ثم يوضح الدكتور طه معنى الذوق الأدبى الذى تغير عن ذوق أهل القـرن الخامس والســـادس للهجرة ولا سيما فى مصر تغيرا شديدا ، وتستمر المعركة بين الرافعى وأنصار التجديد ، وتخرج من ميدان النقد المهذب الى ميدان الشتم والسباب ٠٠

وتنتقل الى مجلة الهلال فيشترك فيها الأستاذ سلامة موسى ، ويرد عليه الرافعي ، كما يهاجم الأستاذ خليل سكاكيني الأمير شكيب أرسلان ٠

ومن جهة أخرى تقوم معركة حامية الوطيس بين العقاد والرافعي ويكون السفود بناره الحامية أداة شي لحصاد هذه المعركة، كما تنشب معركة ثالثة بين طه حسين وتوفيق الحكيم والزيات ، ولقد بدأت هذه المعركة بين الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور طه حسين على صفحات «الوادى» ثم لم يمض يومان حتى رد الأستاذ توفيق الحكيم بما أصلح الأمر ٠ ولكن الزيات نقل المعركة الى صفحات الرسالة ، وهنا يثور طه حسين « فقد كان يجب أن تعرض الرسالة لهذه الخصومة بينهما من طريق لاتفسد صالحا ولا تكدر صافيا ٠٠٠٠

٣ ـ وفى سبتمبر سنة ١٩٣٢ تولد جماعة أبوللو وتكون من شعراء الشباب وكهول الأدباء الساخطين على التقاليد الأدبية الجارية، المتمردين على شعراء التقليد ، وشعراء الفكرة (مدرسة الديوان) وعلى الزعامات الأدبية ، ومن بينهم كامل كيلانى ، ومحمود أبو الوفا، وعلى محمود طه ، ومحمود حسن اسماعيل ، وحسن كامل الصيرفى، والدكتور أحمد زكى أبو شادى رائد هذه الجماعة ، وهى وان لم يكن لها مذهب نقدى معين الا أن نتاجها الشعرى كان رائعا ، وكثير من شعرائها اتجهوا الى الرومانسية ٠

٤ ـ وفيما وراء البحار نجد شعراء المهجر ثائرين على الأدب العربى القديم ثورة جامحة ، ثائرين على العروض والتفاعيل والقوافى ، ثائرين على الأغراض من رثاء ومديح وفخر وتهنئة متأثرين بالأدب الانجليزى ، وبالشاعر الأمريكى « ولت وتمان » ٠

٥ ـ ويشاركهم فى هذه الثورة « سلامة موسى » حيث يعين الاتجاهات التجديدية للأدب فى ستة أهداف :

(أ) أن يكون لنا أدب عصرى لا يرتكن الى الأدب العربى القديم

(ب) أن يكون لنا أسلوب عصر فى التعبير لايمت الى الجاحظ أو غيره ٠

(جـ) أن تأخـذ بالأوزان والقيم الأوروبية فى النقد الأدبى دون أوزان النـاقدين القـدماء وفيهم الجرجانى وابن الأثير وابن رشيق ٠

(د) أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج مشكلاته

(هـ) أن نوجد القصة والدراما المصريتين

(و) أن نجعل الأدب انسانى الغاية ، عالمى المشكلات ٠

٦ ـ وازاء كل هذه المدارس الأدبية نجد بعض النقاد يهاجمون بعض هذه المدارس كما نجد كثيرا من شعراء التقليد يردون الهجوم أيضا ، فالأستاذ أحمد الشايب يهاجم مدرسة الديوان وأحمد زكى أبى شادى رائد مدرسة أبوللو فيقول : ٠٠٠ وانما ألاحظ أن هذه الطبقة لا تمثل حتى الآن الدرجة المثالية للشعر الحديث،وأن شعرها لا يأسر نفوسنا بسحر قوى ، ولا بروعة رائعة ، وذلك فيما يبدو لى يرجع الى هاتين الناحيتين اللتين ذكرتهما قبل الآن ، الأساليب ، والمعانى ، والكلام فى الأسـاليب وقوتها ، والقدرة على تطويعهـا للموضوعات والصور الفكرية ، والخيال قـد يطول ٠ ولـكن سبب الضعف هو عدم التملؤ الكامل بالأسـاليب الأصيلة فى اللغة والشعر القديم ٠

أما الشعراء التقليديون فلم يقفوا مكممى الأفواه أمام هجوم المجددين عليهم وانما يردون هذا الهجوم بأشعار طريفة ، يزعمون فيها أنهم يفندون دعاواهم ٠

يقول الشاعر الهراوى مفندا دعاوى هؤلاء المجددين

يا قادة الرأى الجديد تحيـــة
ان صح زعمكمو وألف سـلام

وملاحـم اليونان أهى جديدة
وحديثهـــا من قبل ألفى عام

أتعيد ثرثرة الحديث مجـــددا
وترده لخرافـــة الأصـــنام

الفصل الثانى

حيــاة الشاعــر

١٢٩٩   ١٣٦٨ هـ

١٨٨١   ١٩٤٩ م

بيئته الخاصة :

نشأ فى رشيد ، فى تلك المدينة التى تجثم على العدوة القصوى من الشاطىء الغربى للنيل ـ فرع رشيد ـ فتســتمد منــه ألوانا متعددة من الجمال والجلال والهيبة ، وتمزجهــا بحقــائق التاريخ القريب أثناء الحملة الفرنســية على مصر فى سنــة ١٧٩٨ والحملة الانجليزية ١٨٠٧ ميلادية ، وبخيالات التــاريخ البعيد حيث يعتقد أهل رشيد أنهم من قريش نزحوا اليها بعد فتح العرب بقليل فيتكون من هذا الامتزاج طابع خاص يدعو الى المحــافظة والتقليد أكثر مما يدعو الى البهرجة والتطور ، لأن هذه الأوهام ، والخيالات الكثيرة التى تتوارثها أسرة من الأسر ، أو شعب من الشعوب تترك فى نفس الأجيال الناشئة شيئا من الأثر يعمل غير قليل فى تكوين الاشخاص النابهين مشتركا مع غيره من المؤثرات التى يتكشف عنها الزمان ، كما يعمل أيضا على غرس ألوان من المحــافظة فالتشبث بالماضى وبالمجد القديم هو المسيطر دائما على النفوس ٠ وقد كان هذا الطابع ـ وما يزال ـ من أهم مميزات رشيد ٠

في هذه المدينة المحافظة ولد الشاعر في بيت مبنى على الطراز القديم ذى «مشربيات» عالية تحجب أنظار المارة ، وتضفى على أهليه لونا من المحافظة و «الارستقراطية» المتوارثة ، ولقد كان لهذا البيت شأن قبيل الحملة الفرنسية وفي أثنائها ·

فقبيل الحملة كانت تتجه اليه الأنظـــار فتذهب الوفود الى الشيخ ابراهيم الجارم أحد علماء مسجد زغلول برشيد لتشكو اليه ظلم الوالى التركى عثمان خجا ، وتعسفه في جميع الضرائب ، وان الجارم ليذكر ذلك في شعره بفخر واعتزاز حيث يقـــول لصديقه وصهره محمد بدر الدين الرشيدى

عصر بجـــدى ثم جـــدك كان بالعليـــاء زاهـــر
ســـهرا فنام البـــائسون محصنين من المخـــاطر
وتقاســـما فضـــل الفخار ونادیا هل من مفاخر
جـدى بعـــلم ناصـــع يهدى وليل الشك عاكر
وبمقـــول يفرى الحـــديد ويصرع الخصم المكابر

واتجهت اليه الأنظار أيضا في أثناء الحملة الفرنســـية حيث تطلع الجنرال منو حاكم رشيد الى بيت الشيخ ابراهيم الجـــارم ليتزوج من احدى ابنتيـــه رقية وآمنـــة ، ولكن الشيخ البعيـــد النظر يعقد على ابنتيه ـ قبل أن يصل اليه طلب الجنرال ـ للشيخ عثمان شبايك ، والشـــيخ حسين أبى الســـعود الطالبين الفقيرين بمسجد زغلول ، ثم يذهب الى الجنرال وقد ركب بغلته وهو يردد في همس خافت استغاثته التى أغرم بترديدها :

نـــحن بالله عـــزنا والحبيب المقـــرب
بهـــما عـــز نصرنا لابجـــاه ومنصـــب
والـــذى رام ذلنـــا من قـــريب وأجنبى
سيفنا فيـــه قولنـــا حســـبنا الله والنبى

ثم يسخر من ذقن الجنرال فلا يجيبه الى طلبه ٠

في هذا البيت حيث ما زالت أخبار هذين الحادثين تقص على مسامع الاطفال ، وفي هذه المدينة ذات الشوارع الضيقة الملتوية ، وصاحبة الامجاد التاريخية ، ومسـجد زغلول ، والمسجد المحلى ، ومسجد أبى مندور ، وشارع البحر نشأ الجارم ، ومن المعروف أن بيئة الطفل لاتقتصر على الهواء الذى يتنفسه ، والطعام الذى يتناوله، والبيت الذى يسكنه ، بل انها تشمل أيضا نـوع التدريب الذى يتلقاه ، والناس المحيطة به ، وأساليب تعامله معهم وشعوره نحوهم، وكذلك اللغة والعادات التى يتعلمها منهم ٠

نشأ فى أسرة متدينة فأبوه هو الشيخ محمد صالح بن عبدالفتاح الجـارم أحد علماء الأزهر ، والقـاضى الشرعى بمدينة دمنهور ، فمديرية الجيزة ، فمديرية الفيوم ، ثم القاضى الشرعى لمدينة دمنهور مرة ثانية ، فمدينة الزقازيق حيث توفى بها ونقل جثمانه الى مدافن الأسرة فى رشيد سنة ١٩١٠ ٠

ولقد تزوج الشيخ محمد صالح الجارم بثلاث نسوة ، أولاهن بنت وكيل محافظة رشيد ـ وهى تركية الأصل ـ غير أن إباها منعها من التنقل معه مما أثار الخلاف والمعارضة من جانب الشيخ ودفعه الى طلاقها بعد أن أنجب منها ولده البكر الذى مات وهو فى حضانة جده لأمه ٠

ثم تزوج ثانيا برشيدية من عائلة «السيسى» تدعى «سلومة» وكان أبوها تاجرا وأنجب منها على الترتيب الشـيخ محمد مأمون الجارم ، فالشيخ عبد الفتاح الجارم ، فالشيخ عبد المحسن الجارم ، وكلهم لم يتموا التعليم بالأزهر بل تزوجوا وعاشـوا برشـيد ، ثم أنجب الشيخ محمد نعمان الجارم فالشاعر على الجارم ٠ ومن البنات

أنجب بنتين احداهما لا تزال حية ، واسمها «سلافة» وهى أكبر من شريفة التى توفيت من قبل بعد أن تزوجت بتاجر رشيدى ·

وأخيرا تزوج الثالثة ، وأنجب منهـا عبد الحـــكيم الجارم ، فابراهيم الجارم فمحمد عبد المنعم الجـارم ، وبنتا تزوجت تاجرا برشيد ·

والشاعر ثمرة ناضجة لالتقاء عنصرين بعيدين ، عنصر العلماء الذى يتميز بالطيبة والمحافظة والاعتزاز بالنفس نتيجة لنظرة العامة، وعنصر التجار الذى يتميز بالحرص واليقظة وخفة الروح والمساومة من أجل الربح ، والطفل يحمل بعض الجينات التى كانت لأجداده لأبيه وبعض الجينات التى كانت لأجداده لأمه ، فمن ناحيـة الوراثة يعتبر الطفل ثمرة لا لأبويه فحسب بل ولسلسلة طويلة متصلة من الأسلاف أيضا · وحياته فيما بعد ·

نشأته وتربيته :

نشأ كما ينشأ كثير من أبناء جيله فاختلف الى الكتاتيب حتى سن الحادية عشرة ، وكان ينتقل مع والده ، الا أن لرشيد انطباعات خاصة ظهر أثرها فى شعره ، فلقد نشأ فى ظل نخيلها ، ودرج أول ما درج على أرضها ، ولعب مع صبيانها ، ورتع على ضـفاف النيل وبين الخمائل ، وفوق الرمال ، ولها كما تلهو الطيور ، وغرد كما تغرد :

صحبت فيهـا شـبابى فمـا ذممت الصـحابا
سـقيا للملعب أنس شـاب الزمان وشـابا
ان يجر فى الوهم يوما جـرت دمـوعى اكتئابا

لم يعرف فى رشيد للهموم معنى ، ولا ارتكب فيها اثما ، وانما كانت حياته تمثل السعادة الساذجة ، سعادة الصبى بصباه ، والشباب بشبابه ، فهو دائم التحنان اليها كثير التحدث عنها :

أرشيد يابلدى وياملهى الصبا بينى وبين مدى الصبا أعـــوام
أيام لى فى كـل سرح نغمـة وبكل ركن وقفة ولمـام
أيـام لا أمسى يجـر وراءه أسـفا ولا يومى على جهـام
ألهو كمـا تلهو الطيور حديثها شدو ورف جناحهـا أنغـام
متنقـلات بين أزهـار الربى الجـو متن ، والنسـيم زمام
ومطالبى لم تعـد مـدة ساعدى بعدا فما استعصى على مـرام

ثم انها فوق ذلك بلد الأهل والأخوال والأعمام والأصهار ، والحب :

أرشـيد فيك لبانتى وصبابتى والصـهر والأخـوال والأعمام

ولعل لجمال الطبيعة فى رشيد أثرا فى هذه الانطباعات ، فالنيل والنخيل والرمال وعذارى رشيد اللائى يبكرن الى النيـل لغسل ثيابهن ، وملء جرارهن وقد انتثرن على شاطئه فى ثيابهن الزاهية الألوان كأنهن عقد قد اختلفت حباته حول جيد الحسناء ، وقد زاد جمال الصبح فى جمالهن ، وأمن نظرات العيون فكشفن عن سوق خذال ، ومعـاصم رخصة صـافية البياض ، ولولا ما يحبسها من حجول وأساور لسالت فى المـاء كما يسيل المـاء .

لعل لكل ذلك أثره فى تعميق انطباعاته عن رشيد .

ولعل بعض ذكريات الشقاوة التى تركت أثرها فى نفسه أثر تعميق هذه الانطباعات أيضا ، فلقد صعد مرة الى أعلى نخلة فى رشيد فرآه الناس فذهبوا الى أبيه وأخبروه ، ولما حضر خاف عليه ولم يزعجه ، ولما نزل أعطى له علقة ساخنة . وصعد مرة أخـرى

لانزال البلح ومعه سكين حادة طعن بها « السباطة » فأصابته فى أصبعه ، ولما كان أثر « العلقة » الماضية لا يزال يرن فى أذنيه أخفى الأمر عن والده وضـــمد جرحه بخرقة بالية حتى تلوث وتعفن ، وتقوس وذهب به أبوه الى الدكتور ولكن بعد فوات الأوان ·

ثقـافته :

فى الأزهر :

ثم انتقل الى القاهرة بعد الحادية عشرة مع شقيقة الشـيخ محمد نعمان الجارم والتحقا بالأزهر ، وسكنا فى درب السلحدار بحى الأزهر فى غرفة بسطح أحد المنازل ، وكان من زملائه الدكتور طه حسين ، والأستاذ أحمد أمين ، ومن أساتذته الشيخ محمد عبده الذى مدحه بقصيدة تقليدية على عادة طلاب الأزهر فى مدح الشيخ، والشيخ سيد بن على المرصفى ·

وكان الشيخ محمد عبده « يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته درسا فى المنطق والفلسفة والتوحيد ، كما كان يقرأ على تلاميذه دروسـا فى البلاغة » لاعلى نمط البلاغة التى أفسدتها الفلسفة بل على النمط الذى يربى الذوق ، ويرقى الأسلوب ولقـــد قرأ كتابى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وكان هـو السـبب فى نشرهما فقدم بهـما معنى للبلاغة لم يكن مفهـوما للناس من قبل ·

(ب) فى دار العلوم :

ومن الأزهر التحق بدار العلوم فى سنة ١٩٠٢ ودار العلوم كانت نواة لفكرة الدراسة الجامعية ، ومن اسمها نســتطيع أن ندرك منهج الدراسة فيها ، فهى دار العلوم التى تضم بين أرجائها

العلوم المتعددة من دينية ولغوية وأدبية ومدنيـــة ، بالاضافة الى الاساتذة الاكفاء الذين يتميزون على أساتذة الازهر فى ذلك الوقت، والذين حاولوا مخلصين أن يوقظوا العربية من رقدتها بعد أن نامت مع أهل الكهف مئين من السنين :

رب شيخ أفنى سواد الليالى ساهد العين جـاهدا غير وانى
من بحوث الى كتابة نقـــــد ثم من معجـــــم الى ديـوان

ثم انها موئل العربية ففيها تحيا وفى غيرها تموت كما كان يقول الشيخ محمد عبده :

هى فى مصر كعبة بعث الشر ق اليهـــا طوائف الركبـان
قد أعادت عهد الاعاريب فى مصـ ـر الى ناعم من العيش هـــانى
وأظلت بنت الفدافد والبيـ ـــد بأفياء دوحها الفينان
درجت بين فتية وشـــيوخ كلهم ينتمى الى ســـــحبان
وأطلت من الخبـــــاء عليهم فسبتهم بســــــحرها الفتـان
فتنوا بالعذيب والسـفح والجز ع ووادى العقيق والصـــمان

وفى دار العـــلوم يصـاب الجارم بعقدة الأزهر ، فكثـــيرا ما كانت تصيبه الغصص والآلام حينما يذكر معهــده العتيق ، وماضيه القريب ، لأنه كان يجد فى دار العلوم خيرة طلاب الازهر الذين يميلون الى الادب ويتذوقونه فى الوقت الذى كان يسخر فيه الازهريون من حلقة سيد بن على المرصفى فى الازهر .

لقد هام الجارم حبا بمعهـــده الجديد ، فأســاتذة الدار ، والبيئة الجديدة ، والكتب والطلاب ، والقسم الداخلى وما فيه من عناية شاملة ، والمطعم غذاء المعدة ، والمكتبة غذاء العقول ، وهـــذه

الرفقة الطيبة من الزملاء الذين يميلون الى المرح الحلو البرىء ..

في حديث أحلى من الأمل الحلـ ـو وأصفى ديباجة من شراب
كل فصل كأنه صـفحة الرو ض وعند العقار فصل الخطاب
ومجـون يحوطه الادب الجم فما راعه اللسان بعـاب
يتغنـون بالنواسي حينـا وبشعر الفتى أبى الخطـاب
كلمـا هـزت المدام يديهم قهقهت ثـلة من الأكـواب

كل ذلك جعله يهيم حبا بمعهده الجديد .

ولقد ترك الجارم حبله على هواه فاستمتع مع زمـلائه الطلاب في غير تبذل ولا استهتار :

ان دعانا الهوى لغير سـديد سددتنـا كرائم الأحسـاب

فهو تارة يقود جحفلا من الطـلاب ليثب ويلعب ، وتارة أخرى يحمل الكتب وللآمال في صدره نتيـج العباب ، لا يرهب في الدار شيئا غير امتحان يوم الحساب .

فكأني أرى الزمان وقـد دا ر وعاد الصبا نضير الاهـاب
وأرى الجارم الفتي يقود الحشد في جحفل من الطـلاب
واثبا لاهيا لعوبا ضـحوكا غير ما واجل ولا هيـاب
فهو كالطائر الطليق فحينـا في وهـاد ومرة في هضـاب
عابث بالغصون في ظل روض حـاك أفوافه ملث الرباب
يحمل الكتب في الصباح وللآ مال في صدره نتيج العبـاب
رأسه رأس ماله وامتـلاء الرأ س خير من امتـلاء الوطاب
كل يوم في الامتحـانات هين خطبه غير خطب يوم الحسـاب

ولقد كان لتقدير أساتذته لعلمه وأدبه أثر في نمـــو شخصيته العلمية ، يحدثنا الأستاذ أحمد العوامري أستاذه وزميله في المجمع اللغوى عن الجارم في دار العلوم فيقول :

كان على الجارم زعيم الفصل علما وذكاء ولســنا حاضر البديهة ، قوى المنطق حتى لقد كنت أعهد اليه أحيانا وأنا مطمئن النفس في أن يلقى بعض دروسى وأنا حاضر بعد أن أكون قد دفعتها اليه من قبل مذكرات مكتوبة على عجل ، فكان يعدها اعداد الفطن ، ويلقيها القاء من درب بالتدريس ..

... وبهرنى من الجارم أول ما بهرنى شـــباب رائع كأتم ما يكون الشباب بهاء وروعة ثم حيوية فائقة يزينها مرح ، ودعابة هذبتها طبيعة سليمة ، حتى لقد كان يبعث في مجلســه ، وبين اقرانه ، بل في الدرس نفسه من فكاهات ، ومداعبات ما يجلو عن النفس صدأ الملل ، وغريب أن يلازمه هذا المرح طول عمره ... وغريب أيضا أن المرض نفسه لم ينـــل من تلك الروح المتفائلة المستبشرة .

وظفر بالشهادة من دار العلوم في سنة ١٩٠٨ وكان أول دفعته ، وفي نفس العام وقع الاختيار عليه ليكون عضـــوا في بعثة علمية الى انجلترا ليدرس هناك التربية وعلم النفس .

(ج) في البعثة :

وكان معه في البعثة الاستاذ حســـن فايق وكيل وزارة المعارف السابق ، والأستاذ المرحوم محمد أمين لطفى الوكيل المساعد السابق بوزارة المعارف أيضا الذى توفى ســنة ١٩٣٦ ورثـاه الجارم ، والمرحوم محمود فهمى النقراشى الذى ظفر من الجارم بآخر قصيدة رثاء له ألقيت والشاعر يموت فكأنه كان يرثى بهـــا نفســه :

تلفت الناس للأبيات ينشرها وفوجىء الناس بالأبيات تطويه

والاستاذ محمد توفيق دياب الذى كان يدرس فن الالقاء ٠

وكانت دراسة الجارم فى جامعة « نوتنجهام » بانجلترا حيث كان يسكن فى ضاحية قريبة يقطع المسافة بينهـا وبين الجامعـة على « عجلة حديدية » ٠

واشتهر عنه اجادته لفن الالقاء ، دعته سـيدة انجليزية صاحبة مسرح ليؤدى بعض الادوار التمثيليـة من مسرحيـات شكسبير فلبى الدعوة ، واعتلى خشبة المسرح وأدى ما عهد اليه خير أداء أثار اعجاب المشاهدين ٠

ثم عاد الى مصر بعد أن ظفر بدبلوم فى التربيـة وعـلم النفس من كلية اكستر الجامعية فى سنة ١٩١٢ أى فى العـام الذى عاد فيه الشاعر شكرى من انجلترا ٠

وفتن الشاعر ببلاد الانجليز وما فيها من جمال وهدوء ٠ وعلى الرغم من أن ذكرياته عنها غائمة نظرا لطبيعة الجو ، فكثرة الغيوم واحتجاب الشمس كان لها أثر فى هذه الضبابيـة التى حجبت ذكرياته عن هذه البلاد ، الا أننا قد عثرنا له على ما يوضح لنا شيئا من هذه البيئة التى عاش فيها مدى أربع سنوات ٠

لقد كان همه الأول تحقيق ما بعث من أجله الى الجامعـة ، وكان هو وزميله المرحوم أمين لطفى مثالين للمثـابرة والدأب والشغف بالعلم أو الفن ، مع روح مرحة وطموح ، ونشـوة شباب :

يغالبنى شـوق الى الفن رائع ويجـذبه ميـل الى العلم أروع
نروح ونغـدو لاهيين ولم نكن نخـاف رزايا الدهر أو نتوقع

ونضحك للدنيا اللعوب وزورها ونمرح في زهو الشباب ونرتع
وكنا نرى الأيام أحـــلام نائم فأيقظنـــا منهـــا الأليم المروع

وانه ليقص علينا قصة ذهابه الى الجامعة ، والشمس غائمة ، والضباب كثيف ، والمصابيح تشبه سيوف بشار تلك التى كانت تلمع فى ظلمة النقع ، والثلج يتناثر فوق رأسه ورأس زميله فنراه ينقلنا الى جو الانجليز فى بلادهم بشيء من الخفة والعطف ·

أتذكـــر اذ نمشى الدرس بـــكرة
« بنوتنجهام » تســـتحث فأسرع
وقـــد حجب الشمس الضباب كأنما
تلا الليل ليـــل عاكر اللون أســفع
بلاد كأن الشمس ماتت بأفقها
فظلت عليهــا أعين الســحب تدمع
كأن المصـــابيح الخوافق حولنا
سيوف وغى فى ظلمة الليـــل تلمع

كما يقص علينا بعض ذكرياته في لندن ، فنرى الجارم الظريف يلتقط من الشارع صورة طريفة ، صورة الأعمى الذي يهدى المبصرين لأنه يعرف طريقه دائمـــا ، أما هؤلاء فنـظرا الى كثرة الضباب ، وتكاثفه قد ضلوا الطريق ·

أبصرت أعمى فى الضـباب بلندن
يمشى فلا يشـكو ولا يتأوه
فأتاه يسأله الهـــداية مبصر
حيران يخبط في الظـــلام ويعمه

فاقتاده الأعمى فسار وراءه
أنى توجه خطـوة يتـوجه

وهنا بدا القـدر المعربد ضـاحكا
ومضى الضـبـاب وما يزال يقهقه

وهذه الصورة وان كنا نلحظ فيها أثر الصنعة نظرا لما قرأناه عن بشار هذا الذى أتى مبصر يسأله عن منزل فلان فوصفه له فضل طريقه ، ولماعاد أخذه بشار الأعمى من يده وهو يقول بصوته الأجش:

أعمى يقـود بصيرا لا أبالكم
قد ضل من كانت العميان تهديه

الا اننا نلحظ فيها ظرف الجـارم وخفة روحه حيث يقول : ومضى الضباب وما يزال يقهقه ..

أما يـوم الخميس ذلك اليـوم العبوس فى سنة ١٩٠٩ فلقد اشتد فيه البرد ، وتحاربت فيه الرياح ، وخافت الشمس فاستترت بالتروس واتجه هو الى بيته فجلس أمام النـار كأنه مجوسى يؤيد معتقد المجوس .

والطريف هنا ربطه معارك الرياح بمعارك البسوس ، وذكره للتروس فى انجلترا وفى مطلع القرن العشرين مع ان تروس الحرب قد انتهت ولكنه الجارم الذى يشبه ذاك الذى تغزل بعيون المها فى باريس :

ويلاه من يـوم الخميـ ـس فانه يـوم عبوس
فيه تحـاربت الريا ح فلا تقـل حرب البسوس
خافت غوائله الغـزا لة فالغمام لهـا تروس

يـــوم أحطنا باللظى فيه ، ونكســـنا الرءوس
فكأننا قمنـــا نؤيــــد فيه معتقد المجوس .

وعلى الرغم من هذا الجو البارد المظلم فى انجلترا فان الشاعر قد أعجب ببلاد الانجليز الى غير حد ، أعجب بحدائقها ، وخضرتها ، وبدائع الحسن فيها الى درجة تمنى معها أن تكون طينته من طينتها .

ارض كأن اله الارض أودعهـــا بدائع الحسن من عون وأبكار
القوا خدود العذارى فىحدائقها ولقبوها بأثمــــار وأزهار
وجردوا كل حسن من قـــلائده فصرن حصباء فى سلسالها الجارى
لوكان فى عنصرى صلصال طينتها ماراعنى الدهر فى يوم بأكدار
اوكنت اظفر فى الاخرى بجنتها غسلت بالدمع آثامى وأوزارى

على الرغم من تكبر الانجليز وغطرستهم على طلاب المستعمرات ، وبالرغم من التفرقة العنصرية التى لاقى منها الشاعر على ما أعتقد ، فلقد لوحته شمس النيل قبـــل ذهابه بالطبع ، وكثيرا ما كان يثور طلابنا على هذه المعاملة(١) .

الا ان الظاهر أن بعض العـــــلاقات الطيبة استطاعت أن توطد أواصرها فتربط الشاعر ببعض الشخصيات الانجليزية وتستولى على اعجابه ، وبخاصة حينما ندرك ان للانجليز فى بلادهم طباعا سامية تدعو الى التقدير والاعجاب ، والا فما باله يحدثنا عن هؤلاء الناس حديث الاعجاب والتقدير .

ينسى بهـــا كل نائى الدار موطنه
وما تجشم من بين واســـفار

---

(١) عمر الدسوقى : الرسالة العدد ٢٨٩ ــ غريب من ذكريات لنـــدن ١٦ يناير سنة ١٩٣٩ .

يلقى بهـــا اينما القى عصاه بها

أهلا بأهل أصهـــارا بأصـــهار

ثم ما باله يصـــف فتيان الانجليز بما كان يصف به العرب الأوائل فتيانهم الشجعان المغاوير :

وفتية كرماح الخـــط ان خطروا

فديت بالنفس منهم كل خطـــار

بيض الوجوه مســاميح الاكف منا

جيـد الصريخ سراة غـــير أغرار

لا ينزل الضيف صبحا عقر دارهم

الا ويمسى عشـــاء صاحب الدار

هذا بالاضافة الى ارتيــاح نفسية الشـــاعر فى بلاد الانجليز وبخـــاصة حينما ندرك انه تربى فى الازهر ودار العـــلوم وكلاهما محافظ .. أما فى البعثة فقد انتقل بعيدا حيث وجد قوما غير القوم، وفهما يختلف عن الفهم ، واندمج فى الجو الجـديد ، فلبس القبعة بعد العمامة :

لبســـت الآن قبعـــة بعيدا عن الاوطان معتـــاد الشجون

فان هى غـــيرت شـــكلى فانى متى أضـــع العمامة تعرفونى

واعتلى خشبة المسرح ، وكانت ديار الغرب بالنسبة له :

كانت مجال صبابات لهوت بها ومستراض لبانات وأوطار

كما كانت ديار حبيبة اخلصت له ، فبنى معها العش، وتعرض من أجلها للحسد ، وظن انه سيعيش معها ، ولكن كف الزمان كانت أقوى ، فرمت بالعش ، فكأن العش لم يكن :

قد بنينا العش من مهج غسلت من حوبة الدرن
من لدنه السود اخلصه والوفا والطهر من لدنى
كانت الاطيار تحسده جنة المأوى وتحسدنى
وظننا أن نعيش به عيشة المستعصم الأمن
فرمت كف الزمان به فكأن العش لم يكن ..

بعد البعثة :

(أ) فى الوظيفة :

يعود الى أرض الوطن فيعمل فى ميدان التدريس ، يقوم بتدريس اللغة العربية فى مدرستين فى وقت واحد ، مدرسة التجارة بالظاهر ومدرسة الزراعة بمشتهر ثم ينتقل سريعا الى التدريس بدار العلوم فى سنة ١٩١٤ ، ثم يعود الى وزارة المعارف فى سنة ١٩١٧ فيعمل مفتشاً للغة العربية حيث يجعل من نفسه نموذجا ممتازا للمفتش ، فهو أول من نبه المعلمين على المراجعة والبحث فى دواوين اللغة ، ومعجماتها وكانت مهملة منسية ، وكان السجع ومحسنات البديع لا تزال تجد سبيلها الى كراسات التلاميذ فنهض ـ رحمه الله ـ باللغة نهضة قوية بما أسداه للمعلمين من ارشاد موقنا أن ذلك هو مبدأ الاصلاح ، وأن المدارس هى الحقل الاول بعد المنزل الصالح لاستنبات اللغة الصحيحة التى لا تقوم حضارة الا عليها . وهو أول من خطا خطوات سليمة وجادة فى تبسيط قواعد اللغة العربية وتقريبها الى أذهان التلاميذ بتأليفه هو والاستاذ مصطفى أمين كتاب النحو الواضح . وقد كان بأيدى الطلاب حينذاك (كتاب قواعد اللغة العربية) الذى الفه حفنى ناصف مع آخرين ، وهو كتاب جيد التأليف ، ولكنه مجمل ، فى حاجة شديدة الى تفصيل وتبسيط ، والى أمثلة مما يسيغه التلميذ ، ويدخل فى معلوماته وتجاربه ثم

خطا فى مجال التذوق الادبى خطوات أخرى موفقة فى تأليفه للبلاغة الواضحة ٠

وبهذا المجهود ارتقى على الجارم الى مفتش أول للغة العربية وكان يشاركه فى هذا المنصب محمد أحمد جاد المولى ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى يعين فيها مفتشان أولان للغة العربية ٠ ويعلل الجارم لذلك بأن رجال وزارة المعارف قدموا جاد المولى لاقدميته ورشحوا على الجارم لعلمه ، وكاد يكون اشكال انتهى بتعيين الاثنين٠

ومن وظيفة مفتش أول للغة العربية انتقل الى عميد دار العلوم بالنيابة نظرا لمرض العميد المرحوم الحسينى مصطفى ، ثم أصبح عميدا للدار الى أن أحيل الى المعاش فى سنة ١٩٤٢ ٠

وفى دار العلوم يعود الطائر الى عشه ، فيأنس اليه ، وتهدأ نفسه ٠ ومن يوميات الدكتور عبد الرحمن أيوب الطالب فى ذلك الحين نراه يقول : مما يلتصق بذاكرتى بكل وضوح ليلة قمرية ، انطلقت فيها صفارة الانذار ٠ اطفأنا أنوار القسم الداخلى ، ونزلنا جميعا أمام المخبأ الذى تحول بعد الحرب الى حديقة تزين صدر الدار ، وخرج العميد المرحوم الاستاذ على الجارم من مخبئه الذى يعج بالكتب الى مخبأ آخر يعج بالطلاب ، وكان الرجل حلو الحديث، كنت أستمع اليه يتحدث عن كل شيء بنفس الشغف واللهفة ، وكان يسرد فى ذكرياته التى طافت به من جبال لبنان الى قاعات المجمع اللغوى وما بها من اضابير ، ويبدو ان كباب لبنان أو «كبيبته» قد ترك فى نفسه رحمه الله أثرا لاينسى ، والشاعر اذا انفعل استرسل، فاذا كان من طراز الجارم اطرى وامتدح وبالغ بما يعيد الى ذاكرتك العصر العباسى الزاهر ـ وقد كان ـ فاسترسل الجارم فى أبيات مرتجلة ـ امتزج فيها طابع الشعر الرصين بلذعات عامية القاهرة ، ونفحات كباب لبنان ٠

واعتقد انني لست في حاجة الى ابراز خفة روح الرجل ، ولا كيفية معاملته لابنائه الطلاب فهي بارزة في هذه اليوميات .

(ب) في المجمع اللغوى :

يقول العقاد في رثائه للجارم

علم في الديار صناجة في الحفل ركن في المجمع اللغوى

ولقد كان كذلك ، فهو في الصف الأول من الذين اختيروا لعضوية المجمع ، وتحقيق رسالته ، وهنا تجلت موهبته ومقدرته ، واشترك في أكثر الاعمال به .

وتمثل سيرته كتابا مبسوطا من تاريخ المجمع لا نستطيع الا الاشارة ببعض عناوينه وفصوله :

كان من أعماله أن اشترك في لجنة الاصول فأعد أبحاثا واسعة قيمة في النحو والصرف واللغة والاملاء والخط .

بحث في الترادف ، وفي التضمين ، وفي الاشتقاق والتعريب، وفي المطاوعة ، وفي نحت اسم الآلة مطردا ، وفي جمع التكسير واستدل لحقنا في استكمال مادة لغوية ذكرت ولم تستكمل في المعجمات .

وشارك في رسم الطريق العلمي لاخراج المعجم الوسيط ، وساهم في عمله وأشرف عليه الى نهاية مراحله ، وبحثه في اصلاح الخط مشروع كامل مفصل الدليل .

وكذلك بحثه في اصلاح الاملاء يكاد يكون علما مجموع الاطراف ، ويظهر من أسلوب بحثه انه يرمى الى تطويع اللغة وتوسيعها في حدود قواعدها ونظمها ، وبما ينبغي من الحيطة والتحفظ لقوم يعملون في لغة ليست من سابقتهم .

وحينما وضع عضو المجمع عبد العزيز فهمي مشروعا لاصلاح الحروف العربية يتضمن استبدال الحروف اللاتينية بهـا ، تصدى له الجارم وعارض مقترحه بمقترح آخر في التيسير كانت له فيه دراسة سابقة ، وقد أبقى فيه على الحروف العربية كما هي ، وعلى ما لها من اتصال وانفصال في الكتابة ، الا انه أضاف اليها علامات متصلة بها تقوم مقام الشكل ، وهي طريقة سهلة المتناول ، قريبة المأخذ ، لا تبعد كثيرا عن الكتابة الحاضرة .

وفي أخريات أيامه اشـــتغل « كاتب سر للجنـة الالفـــاظ والاساليب» سنة ١٩٤٨ ، أما الرئيس فكان الاسـتاذ أحمد أمين ، ولقد حددت اللجنة أغراضها بما يرد بالصحف والمؤلفات الحديثة ، وما يجرى على ألسنة المثقفين من ألفاظ وأساليب لمعرفة الصحيح من غيره ، وتعديل ما ليس بصحيح ووضع صـــحيح بدلا مما لا يمكن تعديله ، على أن تعرض ما تنتهى اليه على مجلس المجمع ، ثم تذاع قراراته فيها بعد ذلك على الجمهور في الصحف .

ومن أطرف البحوث التى ألقـاها الجـــارم في أيامه الاخيرة بالمجمع بحث عنوانه (الجملة الفعلية أساس التعبير) وقد استظهر فيما استظهر ان ميل العرب الى البداءة بالفعل انما كان لما يكتنفهم من التوجس ، والمفاجآت والمخاوف فكانوا يندفعون لذلك الى ذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث .

ولقد كان يعارض دراسة اللهجات العامية لانهـا تنافس عمل المجمع « فعمل المجمـــع انمـــا هو تثبيت الفصحى ، فان قام بتلك الدراسة فانه يعطى العامية بذلك اعتبارا في أعين الناس يعرضون به عما نعلمهم من الفصيح .

قـد يكون بحث اللهجات مفيدا لأولئـك الغربيين المستعمرين الذين ينزلون بالبلاد العربية المختلفة ذات اللهجات المختلفة ليشتغلوا

بالتجارة ، أو ليسعوا بالفتنة ، أما اشتغالنا نحن بهذا العمل فحرام حرام ٠

أسفاره :

كانت الدولة تنظر اليه نظرة التقدير والاحترام وبخاصة بعد وفاة شوقي وحافظ ، وخلو الميدان من شاعر فحل من نفس المدرسة التي كان ينتمي اليها الفقيدان ، ومن ثم فاننا نرى الجارم الشاعر ينتدب في كثير من المؤتمرات العربية فيسافر الى أغلب العواصم العربية ٠

سافر الى بغداد أربع مرات : فى رثاء الزهاوى فى فبراير سنة ١٩٣٧ ٠ وفى افتتاح المؤتمر الطبى العربى سنة ١٩٣٨ ، وفي تأبين الملك غازى سنة ١٩٣٩ كما أسهم في الصلح بين قبيلتى شمر والعبيد فى نفس العام ٠

وسافر الى لبنان أكثر من مرة ، في سنة ١٩٤٣ وفى افتتاح المؤتمر الطبى ببيروت سنة ١٩٤٤ ، ومؤتمر الثقافة ببيروت سنة ١٩٤٧ ٠

وسافر الى السودان كثيرا للاشراف على امتحانات المدارس المصرية ولقد كان له جمهور ، ومعجبون ، ومعارضون لشعره ، وعلى رأسهم الشاعر السودانى السيد / أحمد محمد صالح عضو مجلس السيادة السودانى السابق ، ومن أشهر زياراته للسودان زيارته الاولى سنة ١٩٣٧ وزيارته في سنة ١٩٤١

حياته العامة :

فى الفيوم توطدت أواصر الصداقة بين « الشيخ محمد صالح الجارم » القاضى الشرعى والاستاذ « محمود خيرت » المحامى المدنى،

والفنان الموسيقار مترجم الروايات التى صاغها بأسلوبه الناعم الرشيق مصطفى لطفى المنفلوطى ، والى هذا الفنان ينسب شارع خيرت بالسيدة زينب ، وكانت زوجته يونانية ويظهر أن لالتقاء الدماء العربية بالدماء اليونانية أثرا لا ينكر فى خلق الفنان الاصيل ، وقد كان معظم أنجال الاستاذ محمود خيرت فنانين بالمعنى العميق لمفهوم الفن • فمنهم الدكتور « عمر خيرت » الاستاذ بجامعة الاسكندرية والفنان المصور ، والمهندس أبو بكر خيرت الفنان الموسيقار المشهور، وعميد معهد « الكونسيرفاتوار السابق ، ومنهم الاستاذ على خيرت ، وعثمان خيرت ، وكان منزل خيرت بالسيدة زينب منتدى لأهل الفن يلتقى فيه الشعراء بالموسيقيين بالمطربين ، وكان الجارم من رواد هذا المنتدى الدائمين الى درجة انه استأجر مسكنه الاول بعد عودته من البعثة فى ٣٠ شارع خيرت ، وكانت له مع أسرة الفنان الكبير زيارات عائلية بعد ذلك •

ولقد اتصل أيضا بشوقى أمير الشعراء ، وحافظ ابراهيم ، وكان يحرص أشد الحرص على زيارة شوقى ، والى الجلوس معه فى كرمة ابن هانى الى درجة انه كان يمشى من مسكنه بانسلحدار الى منزل شوقى بالجيزة أيام ان كان طالبا بالازهر • ولقد لمس فيه شوقى حسن الالقاء •

يقول الاستاذ توفيق الحكيم :

ذكر لى المرحوم «خليل مطران» حادثة فى هذا الصدد • قال : كنت مدعوا لالقاء قصيدة فى حفل بأحد مسارح «القاهرة» وكان معى حافظ ابراهيم وقد أعد هو الآخر قصيدة لتلقى ، كما دفع شوقى بقصيدة له هو أيضا لتلقى فى الحفل ، فألقيت قصيدة شوقى على الجمهور المحتشد فى المسرح فقوبلت بالاستحسان المصطنع ثم نهض حافظ وألقى قصيدته فصفق له الناس مجاملين•• ثم نهضت وألقيت قصيدتى فصفق لى الناس فاترين واذا شاب ينهض ملقيا قصيدة

ذات عبارات حماسية ، وجمل طنانة بصـــوت مجلجل ، ونبرات مؤثرة ، واذا المسرح يهتز اهتزازا بتصفيق الناس والهتاف يتصاعد كالرعد من الحناجر · فمال حافظ ابراهيم على أذنى يبثنى امتعاضه وسخطه فهمست له قائلا : انتظر الى الغد حين تنشر القصائد فى الصحف ، وكان ونشرت فى الغد القصائد ·· وقرأ الناس على مهل تلك المعانى الرائعة والصور البارعة ، والافكار العـالية ، والبلاغة السامية فى شعر شوقى وحافظ ·

وقد استغل فيه شوقى هذه الموهبة فعهد اليه بالقاء قصائده ، ففى سنة ١٩٢٢ أقيم احتفال لرثاء « اسماعيل صبرى » فى مبنى دار المعلمين العليا بالمنيرة فأرسل اليه شوقى وقال له : أريد القاء قصيدتى ، فاعتذر الجارم لان له قصيدة ستلقى فى الحفل ، فماكان من شوقى الا ان قال : تلقى القصـــيدتين معـــا ·· وكان ترتيب القصائد على هذا الأساس ، شوقى بالقاء الجارم ، فحافظ فالجارم ·

ولقد استقبل الجمهـور قصيدة الجـــارم استقبالا حافلا ، واستعادوا أبياتها وكان أغلب الحاضرين معممين فتضايقحافظ وقال له : « يا واد يا على انت جايب لى غيط قطن يصفق لك » ·

وقد كان له معجبون · فوجىء مرة بزيارة «طلعت حرب» له فى مسكنه بالسلحدار ، ففرش له « ملاية » على « الدكة » وأجلسه عليها وكانت هذه الزيارة بداية الصلة ·

هذا هو المحيط الذى كان يضطرب فيه الجارم الى جانب عمله الرسمى وصلاته الشخصية برجال الحـــكم فى مصر ، واتصالاته العائلية مع أفراد أسرته وأسرة اصهاره آل بدر الدين برشيد ·

علاقته برجال الحكم والقصر وغيرهما :

كان يكره السياسة ولا يحسنها ، وكان ذلك عن اقتناع لأنه

كان فقيرا ، ولم يكن عنــده ايراد خارجي يكفيه عنـــدما تجر عليه السياسة ويلاتها فيفقد وظيفته مثلا ٠

لم يشترك فى حزب من الاحزاب ، ولم يتصـــل بزعيم مؤيدا أو معارضا ، طلب منه أن ينضم الى حزب الوفد فأبى ، واتصل به مكرم عبيـــد لينضم الى حزب الـــكتلة فامتنع ، ولم يجبـه حتى الى قصيدة ٠

مدح النحاس ثم انحرف النحاس فى نظره فأرســل الى عامل المطبعة وأحضر القصيدة وأعدمها ٠

أما علاقاته برجال القصر فكانت مبنية على اكتساب الوجاهة، والظفر برتبة شأنه فى ذلك شأن الجيل الصاعد الطموح من أقرانه ، وكانت المدائح الملـــكية وشـــائج القربى والصلة بينه وبين رجال القصر ، فلقد كانوا يطلبون منه ذلك ، وأحيانا كانوا يأمرون ٠

أما الملك فكان لا يتذوق الشعر ، ولا يثيب عليه ، ولقد وقف الجارم موقفـــا حازما حينما طلب منه رجال القصر قصيدة فى مدح الملكين فاروق وعبد العزيز آل ســعود حين زيارة الاخير لمصر سنة ١٩٤٧ فاعتذر ٠

أما علاقاته بغـــير هاتين الجهتين فكانت تدور مــــع أصدقائه وزملائه واترابه كما بينا ٠

مكانته الاجتماعية :

ولقد تمتع الرجل فى حياته بمكانة يحسده عليها الكثيرون ، وطن اسمه فى كثير من الآذان وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم ، فى البلاغة الواضحة ، والنحو الواضح ، وفى المجمع اللغـــوى ودار العلوم ويرجع كل ذلك الى اخلاص الرجل ، وتفانيه فى عمله ، وحبه لقومه ولغته ٠

أما شعره فكان له محبـــوه والمعجبون به من أنصار المدرسة العربية الخالصة وبخـــاصة الدرعميين والازهريين ، كما كان له ناقدوه ، ومهاجموه ، وبخاصة أنصار المدرسة المجـددة فى الشعر الحديث ·

وظل الرجل يتمتع بتقدير واحترام كعالم وشاعر وانسان ذى علاقات اجتماعية اضفت عليه كثيرا من الهيبة والتقدير الى ان وافاه الأجل المحتوم ·

أخلاقه :

فى بيته :

كان مثالا لرب الاسرة المرح العطوف ، وكان يستخدم معرفته لعلم النفس والتربية فى تنشئة أبنائه ، فكان يترك كلا منهم ليكتسب خبرته من تجاربه الخاصة حتى يكون أشد اقتناعا بالطريقة التى سيسير عليها فى حياته ، وكان يعتمد أحيانا على الايحـــاء ، وكان يرى « أن من أنجح وســـائل الايحاء اليهم (الى الاطفال) الا يدور بخلدهم ان ما يوجه اليهم انما صنع قصدا للاحتيال لارشادهم ·

أعطى لابنه بدر الدين بقايا سيجارة ليلقيها بعد اطفائها فى القمامة ، فاختفى الطفل وجذب منها نفسا عميقا كاد يخنقه، وانتابته نوبة سعال حادة ، وأبوه فى الحجرة المجاورة يسمع ولا يتحرك ، ولما خرج الطفل لم يسأله ولم يعاقبه · ومن يومها وبدر الدين يتقزز حتى من رائحة السجائر ·

كان مرح الروح، سريع النكتة الى درجة تلفت نظر الجالس معه·
وفى رشيد حينما كانوا يجدون فى دار الجارم حركة وانتعاشا كانوا يقولون : « مال دار الجارم هايصة » ؟ · لازم الشـــيخ على وصل من مصر ··

تجلس اليه فتسمع ما شئت من نادرة أدبية ، أو ملحمة اجتماعية ، أو شاهد من شواهد اللغة ، أو نكتة من نكت الفكاهة ، ولا تدرى كلما تهيأ للكلام ماذا أنت سامع بعد هنيهة ·· فقد تترقب النكتة فتسمع الفائدة وقد تسأل عن الشاهد فتسمع «القافية» التى لا تعذر كما يقول أبناء البلد كلما عرضت المناسبة « لقفشة » من «القفشات» لا تهمل فى سياقها ولكنك واثق فى النهاية انك خارج بفصل ممتع من طراز العقد أو الكامل أو نفح الطيب ، وانك لو اخترت الحديث واقترحته لما ظفرت بخير مما استوفيته عفو الخاطر بغير سؤال ·

اما نظامه فى بيته فكان يفطر على القهوة واللبن ، ثم يتناول طعام الغداء وينام ، ويشرب القهوة بعد أن يقوم من نومه مع سيجارة ، وكنت لا تستطيع التحدث معه قبل أن يتناول القهوة ·

وحينما يؤلف قصيدة يغلق على نفسه باب حجرته بعد أن يرخى الليل سدوله ، ويظل فى الليل ، وقد يطلع عليه الصباح بعد أن تكون أعقاب السجائر لا حصر لها ·

وقد ينظم الشعر وهو فى الترام ، وقد ينفعل فيهز رأسه ، ويهز يديه الى درجة تلفت نظر الجالس معه ·

ويسجل شعره أحيانا على ظهر علبة السجائر ·

شغفه بشبابه وتعلقه به

ويظهر ذلك فى أمرين :

(أ) كثرة بكائه على شبابه المولى

(ب) خوفه من الطبيب ·

اما كثرة البكاء فكان رد فعل لذهاب أيام الشـباب دون أن يتمتع بها لانه كما يقول فوجيء بتقدم السن • اما الفترة التى يقال عنها فترة الشباب فقد قتلها بالوقار شأنه فى ذلك شأن اقرانه ممن نشأوا هذه النشأة الوقورة :

قد بكيناه حين زال لانـــا قد جهلنا من حقـــه ما يؤدى
وقتلناه بالوقار ضـــــلالا وهـــو ما جار مـــرة أو تعدى
ما عليهم ان هام عمـــرو بهند أو شـــدا بأيام ســـــعدى

والواقع أن الشاعر كما يبدو من شعره وبخاصة فى فترة دار العلوم وفى البعثة قد تمتع بشبابه ، فلم يكن عنده من الغبـــاء الاجتماعى ما يجعله ينطوى على نفسه •

فكأنى أرى الجمـــال وقد دا ر وعاد الصبا نضير الاهـــاب
وأرى الجارم الفتى يقود الحشـ ـــد فى جحفل من الطـلاب
واثبا لاهيـــا لعوبا ضحوكـــا غير ما واجل ولا هيـــاب

واعتقد ان تمتعه بشبابه فى حدود نشأته وتربيته هو السر فى بكائه الكثير عليه ، بل ان ذلك هو الدافع له فى ان يصرخ من اعماقه متمنيا ان يعود اليه عهد الشباب •

أما الأمر الثانى وهو خوفه من الطبيب ، فكان مترتبا على أمر آخر وهو الوهم ، وخوفه من ان ينكشف له على يد الطبيب مرض آخر لم يكن يعرف عنه شيئا •

كان يكتب قصة عن شجرة الدر « قتيلة القباقيب » وبعـد كتابة نصفها مرض بالملاريا ، فأراد أبناؤه عرضه على الطبيب سـنة ١٩٤٣ فلم يوافق ولما عاودته الحمى احضروا له الدكتور «سيد عفت» ثم الدكتور « اذرينو » ولما دخل عليه الطبيب اليونانى تصيب وجهه

عرقا وارتفع ضغطه ، ولكن الطبيب ادرك ذلك فجلس معه يحدثه عن كل شيء ما عدا المرض الى أن هدأ فقاس الضغط فكان طبيعيا وكان ذلك من خوف الطبيب ·

وفاته :

وانه ليصيح بالموت ان يمهله لكي يرسل انفاسه في كتاباته .
أيها الموت : امهل الكاتب المسكين يرسل أنفاسه في كتابه

آه لو يشـتري الزمان قريضي	بسنين تعد لى فى حســـابه
ما حياتي ؟ والكون بعد جهاد	لم أزل واقفـا على أبوابه
تظمأ النفس فى حياة هى القفـ	ـــر فترضى بنهلة من سرابه
انا قلبى من الشباب وجسمى	اثخن الشيب رأســه بحرابه
أمل هـــذه الحياة فهل يعـــ	ـثر بى الموت دون وشك طلابه
كلما رمت لمحـــة من سـناه	هالنى بعده وطول شعابه
ما الذى تبتغى يد الدهر منى·	ودمى لا يـــزال ملء لعابه

وما يزال الشاعر في صراع بين ذكريات الشباب ، وقســوة المشيب ، وطعنات الموت لا يجد من يشترى قريضه بالسنين التى يتمناها ، ولا يدلف من الباب الى الداخل ، ولا يصل الى تحقيق غاياته ·

وانما يرسل انفاسه الأخيرة فجأة ، وابنه بدر الدين يلقى قصيدة أبيه في رثاء صديقه محمود فهمى النقراشى فى مساء ٨ فبراير سنة ١٩٤٦ عن ثمان وستين سنة ، يرسلها لا على صفحات الكتاب، وانما يرسلها مع الهواء ، فلا تعود اليه مرة أخرى ·

الفصل الثالث

آثــــاره

١ ـ ديوان شعره :

وديوان الجارم يقع فى أربعة أجزاء ، كل جزء يحتوى على مائة وستين صحيفة فى المتوسط ، ويضم الديوان بأكمله اثنتين وعشرين ومائة قصيدة أكثرها يطول حتى يكاد يصل الى المـائة ، وأقلها يقصر حتى لا يتعدى حدود المقطوعة ، وقليـــل من هذه القصائد يقع بين الاثنين ٠

وكل جزء من أجزاء الديوان يضم كثـيرا من القصـــائد التى تتناول موضوعات مختلفة ، وأغراضا متعددة ٠

فنجد المدح ، والرثاء ، والحب ، والفخر الى جانب ذلك الشعر الذى يتحدث فيه عن العروبة ، أو يمجد فيه وزارة المعارف ، ودار العلوم ، والمجمع اللغوى، أو يصف فيه الشريد ، والأعمى، والوباء٠ الى كثير من هذه الأغراض التى تناولها الشعراء من قبل ، وتعرض لها الجارم فى شعره ٠

ولقد رتب الجارم قصائد ديوانه ترتيبا خاصا ، فهو يبدأ كل جزء من أجزاء الديوان الثلاثة الأولى بالملكيات ٠

أما الجزء الأخير فيبـــدأه بقصيدة « محمد رســـول الله ، ثم تتلوها ملكياته ٠

وبعد هذه الافتتاحية يتناول أغراض شعره المختلفة أى أن الجارم كان يحرص فى ديوانه على هذه الافتتاحية فقط ثم يرتب قصائده بعدها كيفما اتفق •

وهو حريص أيضا على أن ينشر قصائده الأولى المقلدة فى كل جزء من أجزاء ديوانه ، فبينما نرى فى الجزء الأول قصائد ومقطوعات قالها فى سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ فى مدح الأستاذ الأمام أو فى الفخر، اذا بنا نرى فى الجزء الثانى قصيدة عن الوباء ترجع الى سنة ١٨٩٥، وفى الجزء الرابع قصائد ومقطوعات ترجع الى سنة ١٩٠٠ • ومعنى هذا أن الجارم اهتم بكل شعره حتى ما كان منه موغلا فى التقليد •

والجزء الرابع يتميز على الأجزاء الأخرى باشتماله على القصائد التى أنشأها فى العشر السنين الأخيرة من حياته ، وان كان قد ند منها بعض قصائد فى المدح أو الرثاء كقصيدته فى ذكرى « ابراهيم باشا » وقصيدته فى رثاء النقراشى وفى مدح النحاس ، لأن هذه القصائد قد أنشئت بعد طبع الجزء الرابع ثم عاجلته منيته •

والجارم يهتم بديوانه غاية الاهتمام

فلقد شرح الأجزاء الثلاثة الأولى الأساتذة ابراهيم الابيارى ومحمد شفيق معروف ، وحسنين مخلوف ، ولقد رتب مع هؤلاء الشراح فهارس الأجزاء الثلاثة ترتيبا يدل على العناية والاهتمام •

فهذا فهرس للقصائد ، وذاك فهرس يشتمل على أهم موضوعات الديوان مرتبة على حسب حروف الهجاء •

أما الفهرسان الآخران فأحدهما للأعلام على حسب الحروف الهجائية ، والآخر للقوافى على حسب الحروف الهجائية وعلى حسب تاريخ النظم •

ومن هنا يتبين مدى اهتمام الشاعر بديوانه ، وعنايته بشعره ، ولقد جمع ابنه «بدر الدين» بعد وفاته منتخبات من قصائد الديوان في ديوان صغير عنوانه (سبحات الخيال) يتمشى على حسب رأيه مع روح العصر ، مع مقدمة للأستاذ « عباس محمود العقاد » وأضاف اليه قصيدة ليست موجودة بالديوان فى مدح الرسول عليه السلام، ثم قصيدة عن فلسطين •

٢ ـ نثره وقصصه :

ومحصوله فيهما كثير ، وأسلوبه فيهما معجب ، والحق أن الجارم قد بلغ الذروة فى النثر الأدبى ، وبخاصة فى ميدان المقال والقصة •

ففى ميدان المقال كان ينشر مقالاته وأبحاثه الأدبية فى مجلة الكتاب ، وله فيها بحثان طريفان أحدهما عن « المعارضات فى الشعر العربى » تحدث فيه عن معارضة السابقين من المجيدين ، ثم عن المعارضات الترسمية ، فمعارضة التحدى ، فالمعارضة لاستجداء المديح ، فالمعارضة الموضوعية ، فمعارضة التراسل ، والمعارضة التشبيهية ، والثانى عن « الذين قتلتهم أشعارهم » منذ طرفة الجاهلى حتى وضاح اليمن العباسى •

وفى ميدان القصة التاريخية نراه يسهم بجهد مشكور ، فهو بغير شك من الرواد الأوائل لهذا الفن الأدبى الجديد ، ولقد تتبع فيها البيئات العربية فى فترات تاريخية معينة ، وبث فيها دفقات من الحياة أعادتها الى الوجود ، فكانت شخصياته التاريخية مرتدية بحق ثوب العصر التى خلقت فيه ، مصورة لما فيه من صراع واضطراب ، وتحليل لخبايا النفس البشرية •

ولقد ظفرت المكتبة العربية من الجارم بثمانى روائع من

قصصه التاريخية نعرضها فيما يلى بايجاز على حسب الترتيب التاريخي فى المشرق ثم فى الأندلس :

(ا) مرح الوليد :

والوليد هو ابن يزيد بن عبد الملك أحد الخلفاء الأمويين فى المشرق ولقد ورث الخلافة عن عمه هشام بن عبد الملك الذى حاول خلعه عن ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة ٠

والقصة تحكى لنا عن هذا الوليد وتصور مرحه ، واستهتاره وتكشف الحجب عن نفسه المتناقضة التى لعبت بها الأهواء ، وعبثت بها السياسة ، وانتهت بقتله ، واعتلاء يزيد بن الوليد بن عبد الملك كرسى الخلافة ٠

لقد تتبع الجارم فى قصته عوامل الضعف الكامنة التى أودت بحكم الأمويين فى دمشق ، وبرع فى تصوير الفتنة بخراسان ، كما برع فى تصوير عشق الوليد لسلمى بنت سعيد بن خالد ، وتطليقه لأختها سعدة من أجل أن يظفر بها ، ثم افتن فصور حرمان الوليد منها بموتها بعد أسبوع واحد من البناء بها ، ثم حرمانه هو نفسه من الحياة على يد يزيد بن عنبسة منافسه فى حب سلمى والثائرين ٠

لقد اختار الجارم لتصوير أحداث قصتهفترة اهتزت فيها أعواد حكم بنى أمية فكانت مجالا خصبا لتصوير النفسيات والأحداث، وهو فى هذا شبيه بشوقى فى رواياته التاريخية الشعرية ٠

ان مرح الوليد بالرغم من قصرها ـ اذ أنها لا تزيد على ثلاثين ومائة صفحة من مطبوعات « اقرأ » تسد نقصا فى الرواية التاريخية فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمويين ٠

(ب) الشاعر الطموح :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر الذى ملأ سمع الدنيا وشغل الناس ، وشغل الجارم أيضا فأسهم بنصيبه فى ذلك وكتب عنه قصتى « الشاعر الطموح » و « خاتمة المطاف » .

والجارم حينما يكتب عن شاعر فانما يكتب بأحاسيس وانفعالات صادقة لأنهما كثيرا ما يتلاقيان ، ويتجاذبان أطراف الحديث ، ورسولهما الى ذلك الشعر والفن وصفحات التاريخ .

وقصة الشاعر الطموح تسير مع المتنبى فى حلب ، وتسجل حياته ، وتصور ما كان يحيط به من دسائس ومكائد كما تصور بلاط سيف الدولة ، وما حفل به من النقاد والشعراء واللغويين ، وما لقى المتنبى من دسائسهم وكيدهم حتى أرغموه على مفارقة حلب كنه الذى وجد فيه الالهام والشعر والتقدير ليفر الى مصر فيقع فى حبائل كافور الذى لعب بمطامحه وأحلامه ، واقتسر منه مدائح خلدته ، كما منى بأهاج جعلته سخرية الزمن ، وأضحوكة الأجيال .

والجارم يبرع فى تصوير مصر (الفسطاط) كما برع فى تصوير حلب من قبل فلقد صور طلاب العلم فى جامع عمرو واختلافهم فى شعر المتنبى مع أبى بكر الكندى الذى كان يلقب بسيبويه مع مابه من لوثة وجنون ، وصور مجلس كافور وابن الفرات والمكائد التى كانت تحاك للشاعر الطموح .

كل ذلك يسير مع هذا التحليل النفسى الذى يصور حياة المتنبى وشقاءه فى سبيل أطماعه ، والذى لا يترك خلجة من خلجات هذه النفس دون أن يشير اليها ، وأن يهتم بابرازها ولا سيما حينما يصاب المتنبى بالحمى ويهذى وتبرز مكنونات صدره ودخيلة نفسه .

ولا ينسى الجارم شعر المتنبي ولا تحليله أو رأى النقاد فيه حسب ما يوحى به السياق ، ويتناسب مع فنه القصصي ٠

ان الجارم يجمع خطوط الحدث وينميها ويجعلها متشابكة دائما ومرتبطة بالمتنبي ، ومسيطرة على عواطف القارىء ، وما يزال بها حية رائعة جذابة حتى يسلمها الى خاتمة المطاف ٠

(ج) خاتمة المطاف :

وخاتمة المطاف تصور الأيام الأخيرة من حياة المتنبي ، تصور هربه من مصر ليلة العيد هو وعبد العزيز الخزاعى زعيم العرب فى بلبيس ، كما تصور الطريق الصحراوى الذى قطعه فى رحلته الى الكوفه بما فيه من قسوة وخطورة ، ويسير مع المتنبي فى رحلته المخفقة الى العراق حيث ائتمر به الوزير المهلبي ومعز الدولة وأغروا شعراء بغداد بهجائه ٠ ثم خروجه منها كما دخل اليها صفر اليد ، خالى الوفاض قد أضاف الى أعدائه بكبريائه واعتداده بنفسه أعداء آخرين ، كما أضاف الى المعجبين به عددا ليس باليسير ٠

وكانت خاتمة رحلاته الى ابن العميد وزير عضد الدولة « بأرجان » ، ثم الى عضد الدولة بشيراز حيث بلغ المتنبي قمة شهرته ، وطبق ذكره الخافقين ، وأصبح رجل الدنيا وواحدها ، وآن له بعد ذلك أن يلقى عصا التسيار ، فيسكت هذا الصوت الهادر المعجب ، وتهدأ هذه النفس الطموح الوثابة على يد لصوص الصحراء وقطاع الطريق من القرامطة من أمثال فاتك الأسدى ، وضبة ابن زيد ٠

ان الجارم فى كتابته عن المتنبي كان شاعرا وفنانا ، فلقد لمس بأسلوبه أوتار القلوب ، وحرك بخياله أحداثا عفى عليها الزمن فاذا بها تسهم بنصيب كبير فى تخليد حياة المتنبي بعد ألف عام ٠

ولم يقتصر الرجل على سرد الأحداث بل تعمق شعر المتنبى وعرض نماذج كثيرة أثناء قصه الجميل ، ووفق الى أن يستغل هذا الشعر فى ربطه بحياة الرجل كما وفق الى ابراز كثير من آراء النقاد فيه ٠

(د) فارس بنى حمدان

تحكى قصة أبى فراس الحمدانى شاعر حلب وفارسها ومنافس أبى الطيب المتنبى فيها أيام سيف الدولة الحمدانى ٠

والقصة تتبع نشأة أبى فراس فى « منبج » بعد مقتل أبيه ، وتسجل كثيرا من مظاهر البيئة التى نشأ فيها ، وكثيرا من مظاهر الثقافة التى أسهمت فى تكوينه ٠

كما تعرض فى أسلوب قصصى بديع يعتمد على الحوار المشرق الفنان حكاية قلبه مع نجلاء الخالدية ، وظفره بها بعد أن دفع منافسيه عنها ، وانتصر عليهم بقلبه المحب ، وفنه ، وشبابه ، وبنى بها ، وأنجب منها ابنته فوز ٠

وتصور بجانب ذلك شجاعة أبى فراس فى حروبه مع الروم، وأسره وهربه فى المرة الأولى ، واستنجاده بسيف الدولة فى المرة الثانية ، وارساله من القسطنطينية أشعاره التى يستعطفه بها ، ويطلب منه فى يأسه أن يسرع فيفتديه !!

وسيف الدولة ساكن لا يتحرك بعد أن لعب الوشاة والحاسدون أخطر دور فى التفريق بين البطلين العربيين ، وأخيرا تفتديه زوجته نجلاء الخالدية بجوهرة لها حكاية كان قد أهداها لها أبو فراس ٠

وفى النهاية يموت أبو فراس بحراب بنى أبيه وهو خارج

على ابن أخته سعد الدولة بن سيف الدولة فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة على مرأى من أمه وزوجته وابنته فوز ٠

ان قصـــة فارس بنى حمـدان لتكمل الحلقة التى بدأها الجارم بالشاعر الطموح لتصـــوير بلاط سيف الدولة بحلب ، ودور هذه الولاية العربية المخلصة على الحدود العربية الرومية ٠

هـ ـ سيدة القصور :

آخر أيام الدولة الفاطمية بمصر

وتدور أحداثها بين عدن وزبيد فى أرض اليمن ، وبين مكة والقاهرة وتتناول بتفصيل واسهاب الصراع بين المذهب الفاطمى ، والمذهب السنى ابتداء من سنة تسع وأربعين وخمسمائة هجرية ـ أى فى أخريات أيام الدولة الفاطمية بمصر ٠

أما شخصيات القصة فكثيرة ومتعددة من أهمها شخصية محمد ابن سبأ صاحب عدن الفاطمى المذهب ، والملك فاتك صاحب زبيـد السنى العقيدة ، وعلى ابن مهدى من كبار دعاة الفـاطميين بعدن ، وأبو كاظم الحرانى ، والفقيه أبو الحسن النيلى ، وأسامة الحضرمى ، ثم عمارة بن زيدان اليمنى الشاعر ، وسيدة القصـور وطلائع بن رزيك ، وشاور ، وضرغام ٠

والقصة رغم امتداد البيئة المـكانية ، والزمانية ، ورغم كثرة الشخصيات تعتبر ناجحـة من الناحية الفنية ، ففيها تتســـلسل الأحداث التاريخية ، وتنمو وتتعقـــد ثم تحل فى غير تـكلف أو اضطراب ٠

وعلى عادة الجارم الفنية فى كتابة القصة يسير فى كتابة سيدة القصور ، فالشـخصية الأولى التى يتتبع خط سيرها من عدن الى

زبيد الى مكة الى القاهرة شخصية عمارة بن زيدان اليمنى الشاعر ، وهو هنا لم يخرج عما اختطه فى غير سيدة القصور من الكتابة عن الشعراء ! والشخصية الثانية شخصية سيدة القصـــور التى من أجلها كتبت القصة •

وحول هاتين الشخصيتين نسجت أحداث القصة فى تناسق وانسجام مع أحداث التاريخ الكبرى التى انتهت بالقضاء على الدولة الفاطمية على يد صـــلاح الدين الأيوبى قائد نور الدين زنكى فى مصر •

ولقد برع الجارم فى تصـــوير الفوضى التى كانت تضرب أطنابها فى أرض اليمن كما برع أيضا فى تصوير حياة القصـــور ودسائسها ، والمخاطر التي كانت تحيط بسيدة القصور ، وبمصر فى هذه الفترة •

أما كفاح الشـــعب المصرى ضد حكامه : طـلائع بن رزيك ، وشاور وضرغام ، ثم جنود الافرنج الذين استعان بهم شاور ضد الغزو من جنود الشام ، فقد احتل مكانه البطولى بتفصيل واسهاب ، فالشيخ عبد الحكيم الغفـــارى المدرس بجامع الحاكم يقود ثورة الشعب الأصيل ليقضى على مؤامرات الحكام والغزاة •

وللجارم باع طويل فى تحليل الشخصيات ، فعمارة بن زيدان اليمنى شاب طامح يريد أن يكون زبيبــا قبــل أن يـكون حصرما ، وأبو كاظم الحرانى عدو عمارة بعوضة لاتنال باليد ولكنهــا تطن وتلسع ، فاذا حاول من لسعته قتلها لطم خديه • والملك فاتك شهم أبى يسد أذنيه عن الوشاة والنمامين حتى يتأكد له الخبر •

وسيدة القصور آمالها أبعد مما تناله يدها ، ولوا استطاعت لأعادت أيام المعز والحاكم ، ولكن الطريق وعرة ، والمرمى بعيد •

والدولة الفاطمية كانت تقوم على هاتين الكلمتين التى نطق بمعناهما المعز : فى مصر الذهب لمن أطاع وأصلح ، والسيف لمن عصى وأفسد •

والقصة على طولها ، وكثرة أحداثها ، وتعدد شخصياتها تمتاز بعنصر التشويق ، ولقد لعب الحب دورا كبيرا فى تسلسل أحداثها ،كما لعب الحقد دورا آخر فى نمو هذه الأحداث وتشابكها•

ان سيدة القصور تعتبر من الناحية الفنية قصة تاريخية محكمة استطاعت أن توقظ أحداث عصرها ، بأسلوب جزل ، وتحليل عميق •

و ـ قتيلة القباقيب :

تحكى عن شجرة الدر وحالة مصر أيام المماليك ، وانتصار المصريين على الفرنسيين ، وقد ضاعت بعد كتابة نصفها وبذل الجارم محاولات يائسة فى العثور عليها •

ز ـ نفيسة المرادية :

زوجة مراد بك ، وموقفها من الحملة الفرنسية وموقف الشعب وكفاحه •• الى آخره •

ح ـ غادة رشيد :

كتبها وفاء بحق بلدته رشيد ، وتخليدا لبطولات عاشها الشعب المصرى وهو يكافح الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت فى سنة ١٧٩٨ وما بعدها •

ولم تمنعه كثرة الأحداث من أن يهتبل الفرصة فيجعل من

زواج « زبيدة بنت البواب » الرشيدية بالجنرال الفرنسى مينولحمة القصة وسداها ·

ولقد استطاع بعاطفته الجياشة ، وأسلوبه القوى ، وقصته البديع ، أن يمزج بين أحداث القصة فيربط نكبة زبيدة وأسرتها فى زواجها بنكبة الوطن باحتلال الفرنسيين ، ويصل من وراء ذلك الى تسلسل مطرد يبلغ بالقصة الى قمة الحدث ويصل بالمأساة الى غايتها دون أى اضطراب أو تفكك أو افتعال ·

لقد استشف روح التاريخ فى غادة رشيد ·

والجارم هنا ـ بربطه هذا الحدث الخاص بأحداث الأمة ـ يصل بفنه القصصى الى غاية بعيدة ، ويسهم بدور ايجابى فى بلورة مفهوم القصة العاطفية ويعطى نموذجا لأخلاقية العمل الفنى دون هبوط الى مستوى الأخلاق المريضة التى دأب على تصويرها فى القصة بعض الكتاب المحدثين ·

لقد صور الجارم حياة مصر أيام الحملة الفرنسية ، وما قبلها بقليل ، واتخذ من مدينة رشيد نموذجا لما كانت عليه حال البلاد من الفوضى على يد الأتراك والمماليك كما اتخذ من مدينة القاهرة صورة حية للشعب الثائر العنيد الذى يضحى بكل ما يملك فى سبيل المحافظة على حريته واستقلال بلاده ·

وبين رشيد والقاهرة تسير احداث القصة حيث يعطى لكل حدث نصيبه الفنى فى غير ملل ولا اسراف ·

فهناك رشيد الوادعة الهادئة القابعة على النيل تتملى من جماله ومحاسنه ، وهناك رشيد البائسة المرهقة من ظلم الوالى التركى وضرائبه ، وهناك رشيد العلماء ، ورشيد المستسلمة لمدافع

الفرنسيين وظلمهم ، المستسلمة فى أعز ما تملك ، فى زبيدة بنت البواب ، وهناك رشيد الثائرة التى تقهر الانجليز فى حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧ ·

وهناك القاهرة المنهزمة بقيادة المماليك ، والقاهرة الثائرة ، والقاهرة التى تتحدى الفرنسيين بسلاح ضعفها رغم أسلحتهم ومدافعهم الحديثة ، وترغمهم على الجلاء ·

وهناك المواقف العاطفية القومية التى تتمثل فى حب محمود العسال لبنت خالته « زبيدة بنت البواب » تاجر الأرز برشيد ، وفى حب « لورا نيكلسون » ابنة التاجر الانجليزى برشيد لمحمود العسال ، ثم زواج « زبيدة بمينو » حاكم رشيد ·

وهناك أحاديث النفس للمحبين ، والثائرين ، والانتهازيين ، وحديث العرافة (رابحة) الذى ينمو فيعقد الحدث لأنها تنبأت « لزبيدة » بأنها ستحكم مصر فهى لذلك تقتل كل عاطفة لها نحو حبيبها محمود لتتزوج آخر الأمر بمينو الفرنسى حاكم رشيد ·

وحديث « الشيخ على سريط » المجذوب ورمزيته لما سيأتى به الغيب ·

كل ذلك يسير به الجارم فى تناسق فنى ، واطراد طبيعى ، ويمزجه بأحداث الوطن الكبرى ، ويصوغه بأسلوبه الرائع ، حتى يوفى على غايته ، ويقدمه الينا فى قصته التاريخية عملا فنيا ناجحا ·

ط ــ هاتف من الأندلس :

قصة طويلة تبلغ الأربعين ومائتى صحيفة ، طبع دار المعارف

تحكى قصة ولادة وابن زيدون أيام أن كان يحكم قرطبة أبو الحزم جهور ، زمن ملوك الطوائف الأول الذى أعقب سقوط الحكم الأموى.

وتبدأ أحداث القصـــة فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمـــائة هجرية ،وفيها يمتلك الجارم زمام فنه ، ويغوص بعمق الى تحليل نفسيات أبطاله ، ويوفق فى ذلك كل التوفيق .

فابن زيدون الشاعر ، وولادة الأديبة الظريفة سليلة الخلفاء ، ونائلة الدمشقية سيدة الظرف والرقة الأندلسية العربية ، وعائشة بنت غالب ، أو « روزالى » جاسوســة الأسبان ، وطالب الطب الأسبانى الفقير « اسبيوتو » تلميذ ابن زهر والجاسوس الأسبانى، وأبو الحزم بن جهور ، وابن حمدوس ، وابن المكرى ، وابن حيان المؤرخ ، والمعتضد بن عباد ملك أشبيلية ، وملك الافرنجة الاسبانى « فى برغش » كل هؤلاء قد غاص الى نفوسهم وأبرزها فى حواره المشرق الفنان ، فاذا بالقارىء يضع بصره ويده على صـور من التحليل النفسى ، والطموح الشـخصى الذى كان يغلب على حكام الأندلس من المسلمين .

هـــذا مع محافظته على فنه القصصى ، وبلوغه به الغاية ، وعنايته بحقائق التاريخ .

والقارىء لقصة الجارم « هاتف من الاندلس » يشعر بمـدى توفيقه فى رسم البيئة الأندلسية ، وما فيها من اضطراب ومطامع وأحقاد ، ويشعر أيضا بروعته فى تصوير مجالس العلماء ، وندوات الشعراء التى كانت تعقد فى دار عائشة بنت غالب أو ولادة ، كما يشعر بمدى احاطته بالأدب الأندلسى فى استشهاداته الكثيرة التى تعمل على نمو الحدث فى اطار القصة العـام ، كما يرى كثيرا من الدراسات النقدية التى يحرك بها ألسنة أبطاله من رواد الندوات الشعرية أو من الشعراء .

كل ذلك مع أسلوب الجارم الرائع ، وصوره الجميلة ، واستعاراته الطريفة واحيائه لبعض المفردات اللغوية التى طال عليها الأمد فاذا بها فى ظل سياقه رائعة خلابة ، كأنها الجوهرة مسح عنها ما علق بها من غبار فعاد اليها رونقها وبهاؤها ·

ى ـ شاعر ملك :

قصة المعتمد بن عباد الأندلسى ، وأحداثها تكاد تكون معاصرة لقصة هاتف من الأندلس ·

لا تزيد صفحاتها على ثمان وعشرين ومائة ، نشرتها دار المعارف فى سلسلة « اقرأ » ·

وهى تحكى قصة آل « عباد » فى أشبيلية وتخص منهم المعتمد بن عباد بالنصيب الأوفر ، وتنتقل بالأحداث مسرعة من ولادة المعتمد الى استعانته « بابن تاشفين » زعيم المرابطين فى شمال افريقية لقهر الفونسو ملك الشمال (الأذفونش) ثم انقلاب ابن تاشفين عليه وقهره له فى اشبيلية ، وقتل أولاده فى « قرطبة ورندة » وأسره فى « أغمات » هو وزوجته (الرميكية) وبناته اللائى كن يعشن فى السجن من غزل أيديهن فى فقر وكفاف عيش ·

يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والجارم قد اعتمد فى قصته هذه على السرد التاريخى فليس فيها من التحليل النفسى مثلما كان فى « هاتف من الأندلس » ويظهر أن لافتتان الجارم بابن زيدون أثرا فى ذلك !

كما اعتمد أيضا على سرد كثير من شعر المعتمد لملء صفحات القصة من ناحية ، ولمحاولة تصوير حالته ونفسيته من ناحية أخرى مما أفسد خط السير الفنى فى القصة ·

ان قصة شاعر ملك كانت فيما يبدو من أول محاولات الجارم في السيطرة على هذا الفن ، ولذلك نرى فيهـا كثيرا من النقدات الفنية التى ليس لها مجال فى هذا العرض السريع ، ولنا اليها عودة فى دراسة مستقلة بمشيئة الله .

٣ ـ كتبه المترجمة :

العرب فى أسبانيا :

ترجمه بتصريح خاص من الناشر بلندن وقال فى المقدمة التى كتبها عنه : « ان استانلى لين بول يحب العرب ويتغنى بمجدهم ، ويؤلف لأبناء أمته فى تاريخهم كتابا أو قل قصيدة طويلة الذيول كلها ثناء ، واطراء وحب واعجاب ، وعطف وحنان ، ولوعة ، وبكاء . فهل كان يصح فى حكم البر بالعربية أن يبقى أبناؤها محجوبين عن هذا الكتاب دهرا طويلا .

أما طريقة « لين بول » فى التأليف فجامعة بين التحقيق العلمى وربط الحوادث بعضها ببعض ، وتأدية قصة الأندلس كاملة متصلة الأواصر فى أسلوب شائق ، وسياق رائع ، فانه بعد أن قرأ تاريخ الأندلس فى مراجع شتى .. اسـتطاع أن يخرج للأدب والتاريخ قصة بديعة الأسلوب ، متماسكة الحلقات ، لها ـ مع صدق حقائقها ـ كل ما للقصص الخيالية من فتنة وسحر ..

وقد قصدت فى ترجمة هــذا الكتاب الى ترجمة المعانى مع الحرص على الروح التى أملته ، فان لكل لغة بيانا ، وحسب النقل أن يدرك الغاية ويصيب اللباب . أ . هـ .

والحق مع الجارم فى كل ما قاله عن الكاتب وأضفاه عليه فى مقدمته الرائعة .

والحق معنا أيضا حينما نقول : ان الجارم كان خير من يترجم عن العرب فى اسبانيا ، فالروح المحبة المخلصة هى التى أملت على المؤلف كتابه ، وعلى المترجم ترجمته ٠

والأسلوب الرائع المعجب الذى يترجم عن تاريخ العرب فى أسـبانيا مع الحرص على روح النص هو الذى عمـل بالتأكيد على نجاح الترجمة ٠

واختيار الجارم لترجمة هـذا الكتاب بالذات مع غنى المكتبة الانجليزية دليل واضح على شدة تفانيه فى سبيل فكرته التى يهدف من ورائها الى خدمة تاريخ أمته ، ودليل أيضا على نجاح الترجمـة ٠

كتاب « العرب فى أسـبانيا » لا يزيد على ست عشرة ومائتى صفحة لفترة تزيد على ثمانية قرون ، وهو كتـاب تاريخ يسير مع العرب فى أسبانيا مسرعا بأسلوبه الممتع المختصر من عصر الى عصر، ومن حكاية الى حكاية حيث ينتهى الى عام (١٦١٠ م ١٠١٩ هـ) حين حكم فى هذا العام بالنفي على نحو نصف مليون عربى « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده » ٠

والقارىء لهذا الكتاب لا يملك الا أن يعيش بوجدانه مدى هذه القرون الثمانية مع العرب ، ولا يملك أيضا الا أن يملأ بخصب خياله هذه الفجوات التى مر عليها الكاتب مسرعا فى زحمة أحداثه دون أن يسلط عليها كثيرا من الأضواء ٠

ولا يملك أخيرا الا أن يحس بالأسى والحسرة حينما يرى النهاية الأليمة التى منى بها العرب فى الأندلس !!

ثم هو بعد ذلك كله لا يملك الا أن يعجب بالجارم ٠

لا من جهة أنه ترجم الكتاب ونجح فى الترجمة فحسب، وانما

لان تعليقاته فى الهامش تدل على اطـلاع واسع على التاريخ والأدب الأندلسى ٠

كما تدل على عمق فهمه لمناحى الأدب الأوربى ورجاله ٠ وتدل أخيرا على عمق التحقيقات العلمية المختصرة التى قام بها فى الهامش وان خالف المؤلف فى قليل منها ٠

ان الجارم بترجمته لهذا الكتاب ، وبكتابته لقصتى هاتف من الأندلس وشاعر ملك ، قد قام بجهـــد مشكور فى تصوير الحياة الأندلســـية ، وما كان يعتمل فيها من نهضة وازدهار ، وتخلخل واضطراب ، وهو بذلك يعطى للعرب بتصويره هذا أمثلة حية لمـا يجب عليهم أن يفعلوه ازاء ما يتهددهم من الفرقة والانقسام ٠

فهو من أجل هـــذا يعتبر داعية من أجل الوحدة ، وتوحيد الصفوف ٠

٤ ـ تحقيقاته العلمية :

لقد قام الجارم بكثير من التحقيقات والشروح العلمية :

(أ) فحقق وشرح مع الاستاذ أحمد أمين كتـاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الكاتب المشهور باسم « ابن الداية » ٠

وحقق مع الأســتاذ محمد عوض ابراهيم كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية (لابن طباطبا)

(ب) واخرج مع الأستاذ أحمد العوامرى كتاب « البخلاء » للجاحظ وحققه وشرحه وضبطه ٠

(جـ) واشترك معه الأستاذ شفيق معروف فى شرح ديوان البارودى، وقد أنجزا منه جزءين ٠

(د) وقد كان يوشك أن يشرح ديوان ابن سناء الملك ويحققه وينشره .

وهو بهذا يسهم اسهاما جديا في تحقيق التراث واخراجه في صورة عصرية متقنة .

غير أن الانصاف يدعونا الى أن نقر أن بعض هذه التحقيقات العلمية لم تكن في مستواها اللائق من ناحية المقابلات النصية بين النسخ وتمحيصها . ويظهر ذلك بوضوح في كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ، كما يظهر أيضا في كتاب البخلاء .

٥ ـ كتبه المدرسية :

(أ) النحو الواضح

ألفه بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين المفتش السابق بوزارة المعارف في سبعة أجزاء ثلاثة للمدارس الابتدائية ، ثم أربعة للمدارس الثانوية . وقد أقرته وزارة المعارف فعلا في سنة ١٩٢٥ .

والكتاب بأجزائه يشتمل على كل أبواب النحو العربي تقريبا ، ولقد اتبع فيه المؤلفان الطريقة الحديثة في التربية ، وهي التي يسير على منوالها كل مؤلفي النحو العربي للمدارس الى الآن . بل لا أبالغ اذا قلت انه بمقارنة بعض كتب النحو التي تدرس الآن في وزارة التربية والتعليم وجد أن هناك أبوابا كاملة قد انتزعت من النحو الواضح بلا شفقة ولا رحمة ولا خوف من القانون لأن الرجل قد مات !!

وقد يلتمس لمؤلفيها العذر في ذلك لأن الجارم ومصطفى أمين قد ابتكرا بتأليف النحو الواضح طريقة فذة رائدة في هذا المجال . طريقة تبدأ بتقسيم الباب الى جزئيات يتناول كل جزء دقائق تتحد مع دقائق الجزء الآخر لتكون في النهاية قواعد الباب النحوية .

وهما يبدءان فى كل جزء من هذه الأجزاء بأمثلة مفردة بعيدة عن ظل النص الكامل ، تخدم القاعدة النحوية التى يريدان شرحها، ثم يلى ذلك الشرح فى عنوان جانبى باسم «البحث» ويستعرضان على ضوء الأمثلة السابقة دقائق هذا الجزء مع اســـتنباط القـاعدة ، وأخيرا ينصان على القاعدة فى ترقيم متتابع ، وصل فى نهاية الجزء الرابع للمدارس الثانوية الى ٢٤٤ قاعدة ·

ويتبعان ذلك بنموذج مشروح ثم بتمرينات عامة مسلسلة قد تصل الى عشرين تمرينا فى نهاية هذا الجزء لتدريب الطلاب على تثبيت القاعدة ، هذا مع التمرينات العامة الكثيرة على كل باب ، وقد يتبعان ذلك كله بأسئلة على الباب ، وفى نهـــاية الجزء الرابع من النحو الواضح للمدارس الثـانوية يضـعان نمـــاذج فى « الشرح والاعراب الموجزين » ، ثم أبياتا مفردة للشرح والاعراب كتدريب للطلاب ، ثم أبياتا للشرح فقط ·

وفى نهاية ذلك كله يضعان نماذج من أسئلة امتحان شهادة الدراسة الثانوية فى القـــواعد والتطبيق ابتداء من عام ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ ·

وفى الحق أن هذا الكتاب قد أفاد العربية والنـــحو العربى فائدة عظيمة فالمؤلفان بأسلوبهما العلمي المتأدب ، وفهمهما العميق لقواعد اللغة وتفانيهما فى سبيل خدمة العربيـــة يعتبران أول رائدين فى هذا المجال ، اذا استثنينا « كتاب قواعد اللغة العربية» الذى ألفه حفنى ناصف مع آخرين مجملا ، وكان فى حاجة شديدة الى البسط والتفصيل ·

غير أن بعض النقاد من المفتشين بوزارة التربية يرى أن الأمثلة المبتورة عن ظل النص تعد عيبا ·

ومهما يكن فلقد أراحت كتب النـــحو الواضح ـ كما يقول

الأستاذ ابراهيم مصطفى ـ مئات من المعلمين ، ويسرت على ألوف من المتعلمين ، وأزاحت عن هذا العلم سـحبا من النفور والكراهية كانت تحيط به ، وتصد المتعلمين ، ثم شاعت فى البلاد العربية ، وصارت كالمنهاج لتعليم النـحو ، وأحـدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة أخـذ المعلمون يتبعونها ، ويؤلفـون على مثالها محاكين أو مقلدين ٠

وستبقى هذه الكتب بأسلوبها التأليفى مسجلة خطوة تاريخية من جهد العلماء فى تيسير النحو ٠

وما تزال كتب النـحو الواضح تدرس الى الآن فى المدارس الافريقية التى تسـير فى فلك جامعـة كمبردج أو اكسـفورد البريطانيتين ٠

فلا يظفر طالب المرحلة الثـانوية فى السودان مثلا بشهادة كمبردج الا اذا أتقن كتب النحو الواضح ٠

(ب) البلاغة الواضحة

ألفها بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين أيضـا ، وسار فى تبويبها على منهج كتب البلاغة العربية القـديمة من أمثـال السعد للتفتازانى وان اختلف فى طريقة العرض !!

بدأها بمقدمة رائعة عن الفصاحة والبلاغة ، تحدث فيها عن فصاحة الكلمة ، وفصاحة الأسلوب ، وفصاحة المتكلم ، وعن بلاغـة الاسلوب وبلاغة المتكلم ٠

واستعرض بأسلوبه الرائع نماذج كثيرة لشعراء ممتازين من أمثال البحترى والمتنبى وغيرهما للدلالة على ما يصبو اليه من توجيه أدبى وفنى ٠

ثم اتبع ذلك بفنون البلاغة الثلاثة ، فن البيان ، وفن المعانى وفن البديع ·

وسار على طريقته الفذة من التعرض للجزئيات بذكر أمثلة كثيرة متنوعة من الشعر الرائع والآيات القرآنية ، ثم شرحها شرحا أدبيا ، واستنبط القاعدة منها ، وأتبع ذلك بنمـوذج مشروح ، ثم بتمرينات كثيرة متنوعة على كل فصل وعلى كل باب ·

وهكذا حتى ينتهى من فنون البلاغة الثلاثة ·

والبلاغة الواضحة أسعد حظا من النـحو الواضح فما تزال مرجع الاسـاتذة في دراسة البلاغة العربية بالمدارس الثـانوية ، وما يزالون يعترفون للجارم وصاحبه بالسبق فى هذا المضمار ·

غير أن البلاغة الواضحة قد أصابها ما أصاب النحو الواضح من اغارة وسلب ونهب ، وشتان بين الأصل والصورة !!

فالجارم وصاحبه قد بلغـا القمة ، ومن منـا لا يعترف للبلاغة الواضحة بهذا الفضل الذى حل عقدة السعد للتفتازانى وأمثاله · ومن منا لم يشعر بهذه الهزة القوية التى سيطرت على انفعالاته وهو يدرس البلاغة الواضحة فيتذوق بلاغة العرب وفنون البلاغة الثلاثة ويتقنها ·

بل من منا لم يشعر بالاعجاب حينما التمس فى «دليل البلاغة الواضحة» شرح التمرينات التى امتلأت بها البلاغة الواضحة ·

ولقد طبعت البلاغة الواضحة طبعات متعددة ، واهتمت بها أيضـا جامعة كمبردج فقررتها على طلابها فى المدارس الثانوية ، فأفادت بذلك فائدة عظيمة ·

(ج) تاريخ الأدب العربي لتلاميذ المدارس الثانوية

ألفه بالاشتراك مع الاساتذة أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين، عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف ٠

والكتاب يقع فى أربعة أجزاء صغيرة ، ويبدأ بالعصر الحديث، وينتهى بالعصر الجاهلى ، وقد أقرته وزارة المعارف فى سنة ١٩٣٠ على طلاب المدارس الثانوية ، فالجزء الأول للسنة الأولى ، والثانى للثانية وهكذا ٠٠

وفى كل جزء من الأجزاء الأربعة نرى المؤلفين يصورون العصر تصويرا موجزا واضحا ، حيث يتناولون بدراستهم شيئا عن القوى البشرية المكونة للمجتمع ، عن أصلها ، وعلاقتها بغيرها من الأمم ، ثم يتبعون ذلك بدراسة عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية بشىء من التركيز يتناسب مع حجم الكتاب ٠

كما يتناولون فى دراسة موجزة فنون الشعر وخصائصه وألفاظه ومعانيه ، ويترجمون لأشهر شعراء العصر ، وخطبائه وكتابه ، مع ذكر نماذج لكل شاعر أو خطيب أو كاتب تناولته الدراسة ، تصور حياته مع قليل من التحليل ، وقليل من مناقشة آراء العلماء ٠

والكتاب بصفة عامة خفيف الروح ، صغير الحجم ، يتناسب مع طلاب المرحلة الثانوية ، وان كانت الكتب المدرسية الحديثة فى الأدب والنصوص للمدارس الثانوية قد سبقت فى هذا المضمار بأسلوبها المشرق وتبويبها الممتاز ، وعرضها الرائع، وطبعها الأنيق٠

(د) المنتخب من أدب العرب :

ألفه أيضا بالاشتراك مع الدكتور طه حسين والأساتذة أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، الدكتور أحمد ضيف ٠

وسار على خطى الكتاب السابق من تقسيمه للعصور، وانفصال أجزائه ، وابتدائه بالعصر الحديث ، وتقريره على المدارس الثانوية على النظام السابق لتاريخ الأدب العربى ٠

وان كان قد طبع أخيرا فى مجلد واحد وابتدأ بالعصر الجاهلى مع اختصار غير مخل لكثير من نماذجه ٠

والكتاب يشتمل على نماذج شـــعرية ونثرية لكل عصر من عصور الأدب ٠

انتخب له المؤلفون مجموعة رائعة من النصوص العربية لكبار الشعراء ، والكتاب العرب ، واعتمدوا فى الواقع على ذوقهم الأدبى الخالص فى هذا الاختيار وراعوا روح العصر ومقتضياته ٠

والمؤلفون يعرضون النصوص دون مقـــدمات أو تعليقات أو دراسة موجزة عن روح العصر ، وانما يبدءون بمختاراتهم ، ويعلقون على الكلمات الصعبة بشرحها فى الهـامش ، وينتقلون من نص الى نص حتى ينتهوا من الكتاب ٠

وكأنهم يعتمـدون فى ذلك على كتـــاب تاريخ الادب العربى السابق ذكره فكلاهما مكمل لصاحبه ٠

والمنتخب من أدب العرب فى هذا الكتاب يربو على ثلاثة آلاف بيت ، بينما لا يتعدى المختصر ثمانمائة وألفا ٠

والنماذج النثرية قليلة نسبيا وان اشتملت على نماذج مختلفة للخطب والرسائل والتوقيعات ٠

(هـ) فى ميدان التربية وعلم النفس :

علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم

ألفه بالاشتراك مع الاستاذ مصطفى أمين فى سنة ١٣٣٣هـ ـ

١٩١٥ م ، حينما صدر هذا الكتاب لم يكن للتربية وعلم النفس كتب بالعربية غير كتاب كان قد وضعه عالم من أبناء دار العلوم هو حسن توفيق العدل ، وغير كتاب وجيز فى التربية وحدها للشيخ عبد العزيز جاويش ٠

ومن هنا يتضح أهمية الكتاب

ولقد سار فيه المؤلفان على طريقة تتمشى مع أصول التأليف فى علم النفس التربوى حيث مزجا علم النفس بفن التعليم ، وهذا فى حد ذاته ، وفى هذا الوقت المبكر يدل على وعى ونضج واستعداد لتنمية هذا العلم ٠

أما الموضوعات التى تناولها فى أبواب كاملة وبشىء من التفصيل فهى دراسة العقل ومعرفة أسراره ـ العزيزة ـ تداعى المعانى ـ الحافظة والذاكرة ـ الخيال ـ الفكر ـ اللغة ـ الارادة ـ العادة ـ الخلق ٠

وهذا من غير شك يدل على سعة آفاقه ، وتعدد اتجاهاته ٠

الباب الثاني

شعر الجارم

الفصل الأول

الشاعر ومفهوم الشعر

١ - مفهوم الشعر عند الجارم على ضوء النقد الحديث :

يقول الجارم في مقدمة الجزء الأول من ديوانه : وبعد فاني لا أريد أن أسهب في الكلام على معنى الشعر وخصائصه ، ومبعث الروحانية فيه ، ذلك لأن هذا البحث طرقه الباحثون كثيرا فاخفقوا، وأطالوا فيه فكانت اطالتهم أول دليل على العى والحصر ، ومن العى اطالة الكلام ، وتكرار تاء التمتام .

أرادوا أن يحدوا روحانيته بالالفاظ ، فعجزت الالف ، وضلت الباء وكيف يحيط المحدود بغير المحدود ؟ وكيف تكشف ظلمة المادة توهج النور ؟

ان شرح آثار الاحساس الجسمى من أبعد الامور تأتيا ، وادخلها في باب الاستحالة . أرأيت لو انك ذقت سكرا أو ملحا ، ثم سألك سائل متعنت أن تشرح له طعم السكر أو الملح ، أكنت مستطيعا ؟ أرأيت لو شممت وردا أو نرجسا ، ثم بدهك انسان يفقد حاسة الشم أن تبين له في وضوح ودقة ذلك الأثر الذى شعرت به ، أكنت قادرا على أن تجد له اللفظ ان وجدت المعنى ؟ .

فاذا كان هذا الشأن ، وتلك الحال في احساس الاجسام ، فكيف في إحساس العقول ؟ واذا كانت الالفاظ عاجزة عن وصف

اثر المادة الجامدة في الاجسام · فكيف تكون اذا همت بوصف اثر الروح النورانية في النفوس والارواح ؟ ٠١٠هـ

وواضح من هذه المقدمة ان الجارم يدرك تماما قيمة التذوق الفني · كما يدرك عجز التعبير عن اماطة اللثـــام عن سر الفن ، وروعته وسحره ، ان الشعر شيء فـــوق الشرح واللفظ والمعنى · فليس الشعر الوزن وحده ، ولا القافية وحدها ، ولا الكلمات التى تملأ فراغ التفاعيل ، وان عذبت ولطفت ، وانما الشعر ما وراء كل بيت من ضوء روحاني ، وجد له بين الفاظه منفـذا ، ومن ســـحر سماوى زحزح البيت دونه طرف الستار ·

فاذا ما تحدث الجارم بعد ذلك عن الشعر ، فانما يتحدث في الواقع عن مقومات الشعر ، وعن رسالته ·

ومقومات الشعر في رأيه عاطفة وفكرة ، عاطفة قوية مؤثرة في عواطف الآخرين ، وفكرة جلية واضحة اذا قورنت بغيرها من الأفكار يقول :

الشعر عاطفة تقتاد عاطفة
وفكرة تتـــجلى بين أفكار

الشـــعر ان لامس الارواح الهبها
كما تقـــابل تيـــار بتيار

الشـــعر مصباح أقوام اذا التمسوا
نـــور الحيـــاة وزند الامة الوارى

الشعر انشودة الفنان يرسلها
الى القلوب فتحيا بعد اقفار

الشعر همس غصون الدوح مائسة
ودمعة الطل في اجفان أزهار

أما ان الشعر عاطفة قوية فهذا ـ من غير شك ـ عنصر الشعر الأول والأهم ، ولكن مع تقييده بالفكرة • ان التقييد هنا مهم « حقا ان كل شعر لا بد أن تتوفر له مقوماته من العاطفية ، ولكن العاطفة ليست القول الفصل في أمر الشعر عامة ، ان نفث المصدور لكل ما اضطرب في صدره من عواطف قوية ليس شعرا جيدا ، بل هو «عاطفية» أو ضعف عاطفي » لا فن ، والشاعر الذي يتلذذ بما يجيش في صدره من عواطف ولا يشغل نفسه بالتأمل والخلق يصبح انسانا منخوبا مائع العواطف •

والفكرة عنصر مهم في الشعر وفي الفن ، والشاعر الممتاز هو ذلك الذي يستطيع الغوص في أعماق الواقع ليستخرج حقائق الأشياء •

لقد كانت كلمة الشاعر تعني دائما انه خالق ، وكان الشاعر خالق صور حتى الآن ، وسيظل كذلك الى الابد ، ولكن يمكن أن يصبح الشاعر الى جانب ذلك خالق أفكار ، أو موقظ أفكار ، وخالق عواطف عن طريق هذه الافكار •

وأما أن الشعر عاطفة قوية مؤثرة في عواطف الآخرين فهذا هو الدليل الواضح على نجاح التجربة الشعرية ، ان الشاعر لا يصوغ أحلامه وآماله وآلامه فحسب ، وانما هو في الواقع يصوغ أحلام البشرية وآمالها وآلامها من خلال تجربته الخاصة التي يشترك معه فيها الآخرون ، وفي هذا معنى خلود الادب ووجوده ، والا فما قيمة شعر يؤلف أو ينشد فلا يهز القلوب ، ولا يحرك الوجدان ؟

ان الشاعر الانجليزي ت اس اليوت قد عبر عن هذا المعنى بالمصطلح الذي أطلق عليه «المعادل الموضوعي» ويعني به تلك الصورة التي يعبر بها الشاعر عن عاطفته لكي تثير هذه الصورة عاطفة مشابهة عند القاريء ، والعاطفة ليست هي المشاعر ، بل هي

تحويل للمشاعر الى صـورة أخرى اذ ان الشـعر ليس تعبيرا عن المشاعر بل هربا منها ، هو مجهود الشاعر ليحول آلامه الخاصة الى شيء خصب غريب • شيء كوني عام ، يستجيب له الكون كله •• »

وأما انه مصباح يكشف ظلمة الحيـاة ، ويبـدد الغياهب ، ويسبق خطى الامم ويدفع الى التطور ، فهذا ما كان يفهمه القدماء، وعلى أساسه نظروا الى الشعراء نظرة التقديس والاعجاب ، وهو ما يفهمه كثير من المحدثين •

استمع الى الشاعر الانجليزى شيلي حينما يقول: ليس الشعراء محدثي اللغات ، ومبتدعي فنون الموسيقى والرقص والتصوير فقط ، بل هم أيضا واضعوا الشرائع ، ومؤسسوا المدنيات ، ومبتكروا فنون الحياة ، وهم الاساتذة الذين يصلون ما بين الجمال والحق ، وبين عوامل هذا العالم المستتر الذى يدعوه الناس الدين •

ولقد كان الشعراء فى العصور الاولى التى مرت بهذه الدنيا يسمون تارة مشرعين وطورا أنبياء حسب العصور التى ظهروا فيها، والامم التى نبغوا منها • صدق الاولون فأن الشاعر جامع أبدا بين هذين فى نفسه لأنه لا يقتصر على رؤية الحاضر كما هو ولا يجترىء باستطلاع القوانين والانظمة التى ينبغى أن ينزل على أمورها هذا الحاضر ، بل يستشف المستقبل من ورائه ، فليست خواطره الا بذور الزهرة التى يجنيها الزمن الاخير وثوارته •

وما الشعر الا موقظ الامم ، وباعث الشـعور ، ورسـول الانقلابات فى الآراء والتقاليد والشعراء هم قساوسة التنزيل الالهى ورسل الوحى القدسى ، وشراح الحكمة الربانية وهم المرايا التى تتراءى فى صقالها اظلال المستقبل الضخمة الكثيفة الملقـاة على الحاضر •

وهم اللفظ الناطق بما لا يفهمون ، المعبر عما لا يدركون ، وهم قبل وبعد المشرعون الذين لا يعترف بهم الناس ٠

ومن هنا يتبين لنا ان مفهوم الجارم عن مقومات الشعر لم يخرج كثيرا عما تحدث به كثير من النقاد والشعراء والفنانين ٠

وبموازنة سريعة بين مفهـــوم الجـــارم وبين رأى المدرسة المجددة فى الشعر العربى ـ ونعنى بها مدرسة الديوان ـ يتضـــح لنا مدى الاتفاق والاختلاف ٠ فالعقاد يرد على من يقولون بأن الشعر وجدان فقط بقوله :

ومن الكلمات التى تلاك ولا تفهم ، قول القـائلين ان الشـعر وجدان ، وان الشاعر لا يتأمل ولا يفكر ٠٠ والحقيقة التى ينبغي أن نحفرها فى أخـــلادنا هى ان الادب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير ، وان الشاهد على ذلك أدب الفحول بين شعراء الامم العالميين ومنهم أمثال شكسبير وجيتـــه والخيـــام ، وأبو الطيب ، ونخص الشعراء بالذكر لان صدق هذه الملاحظة عليهم يجعلها اقمن بالصدق على الادباء الناثرين ٠

٢ ـ رسالته :

(أ) والجارم فى حديثه عن مفهوم الشعر لم يستطع ان يجرد هذا المفهوم عن غايته لأن الشعر عنده ذو رسالة سامية عليه أن يؤديها : ففى قوله : الشعر عاطفة تقتاد عاطفة ، وفى تشـــبيهه للشعر بتيار الكهرباء الذى يلتقى بتيار آخر فيولد الحرارة والضوء والنور ، ويكشف ظلمة الحياة ، ويبدد الغياهب ٠ معنى التأثير ، التأثير الموجه المفيد من جانب المنشىء ، فالعاطفة المؤثرة فى عواطف الآخرين ، والفكرة الواضحة ، والتيار الملهب ، والمصباح المنير ،

والانشودة الباعثة كلها وسائل ايقاظ ، ورسل توجيه وكلها من لوازم الشعر كما يرى الشاعر ٠

(ب) وكما ان من غاية الشعر التأثير من جانب المنشيء فمن غايته أيضا ان يساعد المتلقى على تفريغ ما عنده من انفعالات ضارة ، وعواطف ضاغطة ، فينتشى بخمره ويرتفع بروحه عن أوضار الجسد واكداره وكأنه يترجم هنا عن ارسطو رأيه الذى يقول فيه : ان النفس لا تضطرب بامثال هذه الأغانى الا لتهدأ فى عاقبة الأمر كأنها صادفت طبا وتطهيرا ، ويقول : والأغانى التطهيرية تسبب للناس السرور بدون ايلام ولا ضرر ٠

استمع الى الجارم حينما يقول :

كم ثملنا برشفة منك يا شعـ ـــر فصرنا روحا بلا اشباح
كم عناء كشفت بعد نضال وجبين مسحت بعد كفاح

(جـ) ومن غايته أيضا ابراز الحقائق البعيدة المنال ، وتفسير ما ينطوى عليه الكون من بدائع ورموز ، ورسم اللوحات الرائعة لهذا الكون الرائع المعجب ، وفهم لغى الطيور ، والاصغاء لهمس الغصون ، وكشف الستار عن هذه الصلة الوثيقة بين تفتح اقاصى الروض فى الأرض ، وضحك البروق فى السماء :

ورأينا من الحقائق ما عز على كل باحث كداح
وقرأنا فى كل شيء رموزا فوق طوق البيان والايضاح
ورسمنا بدائع الكون فى لوح تعالى عن جفوة الالواح
وفهمنا لغى الطيور وأصغينا لهمس الغصون فى الأدواح
ورأينا البروق تضحك فى الرو ض فتهفو لها ثغور الاقاحى

(د) ثم ان هناك غاية مهمة ، بل لعلها غاية الغايات في نظر الشاعر تلك هي ايقاظ الأمة ، والدفاع عن مجدها فالشعر جيش قوى يغزو وينتصر دون خسائر في الأرواح والعتاد ، والشاعر وحده جيش قوى ... لقد كان حسان جيشا في قصائده ناصر رسول الله ودافع عنه ، ولقد ازدهى ملك بنى مروان بهذه الجيوش من الشعراء ، كما ازدهت دولة بنى العباس بأمثال حماد وبشار .

الشعر للملك جيش لا يصاوله ... جلاد مرهفة أو فتك بتار
يغزو وينصر لا اشلاء معركة ... ترى ولا وثبات حول اسوار
اذا تخطر في الافواه تنشده ... غض الجفون حياء كل خطار
وان اغار تنادى كل ذى هلع ... الى الفرار ، وأودى كل مغوار
قد كان حسان جيشا في قصا ... ئده أشد من كل زحاف وجرار
وكان ملك بنى مروان في اطم ... عال من الشعر يرمى الشهب بالنار
وهل زهت ببنى العباس دولتهم ... الا بأمثال حماد وبشار

***

رب جيش من الحديد تولى ... واجف القلب من حديد اللسان

***

الشعر للأملاك خيـ ... ـر ذخيرة واعز بند
صاغت سرائره لهم ... تاجين من مجد وخلد
ولرب قافية بها ... ما شئت من خيل وجند
تسرى فلا صعب يصعـ ... ـب لا ولا بعد ببعد
تثب الجبال ومالها ... بين الكواكب من مصد
الشعر زند للقوى ... وعدة للمستعد ......
كم زان من ملك كما از ... دان المهند بالفرند

وهنـا لا نسـتطيع ان نغفل رأى الفنان الأسـبانى المعاصر بيكاسو فانه يكاد يتفق مع رأى الجارم حيث يقـول : ماذا يظنون الفنان ؟ وماذا يطلبون منه ؟ هل يريدونه اذا كان مصورا ان يتحول الى عينين فقط، وان يتحول الى اذنين فقط اذا كان موسيقيا ... ؟ الفنان أكبر من هذا بكثير ... الفنان كيان سياسى متيقظ لـكل ما يدور فى العـالم من حوله ولا يستطيع الا ان يتأثر به ، بل ويتشكل به .... لا ... لم يخلق الفن أبدا لتزيين الحوائط ... انما هو اداة حرب للهجوم على العدو وللدفاع عن الانسانية ، وفى أعماق الخيال يلتقى الواقع بالخيال .

(هـ) وأخيرا يرى ان الشعر يسـجل مفاخر الأمم ، ويخلد فضائل الناس فرب قصيد

.... بنى لصـاحبة الخلد مطلا من قمـة الازمـان

***

وما الشـعر الا ترجمان مخلد يقص على الأجيال مجدا مخلدا

***

يغـرد للخلود بكل أرض وما عرفت له الآفاق حـدا

***

يصعد الشعر حيث لا تصـل الشمس، ويبقى على مدى الآناء

***

هو خط الجمال فى صفحة الكو ن فهل للجمـال من قـراء

ومن الواضح ان مفهوم الجارم عن رسـالة الشعر لم يخرج كثيرا عن طبيعة الشعر العربى ، ولا عن طبيعة آراء كثير من النقاد

العرب ، لقد كان الشعر العربي غالبا فى خدمة القبيلة ، وفى خدمة الدولة ، وفى خدمة المذهب السياسى ، وفى خدمة الممدوح ، وقليلا ما كان يهتم بما يسمونه الفن للفن ٠

كما لم يبتعد هذا المفهوم عن آراء كثير من النقاد وفلاسفة الجمال المحدثين الذين لا يهتمون بالفن والشعر كفن وشعر فقط بل كوسيلة لتحقيق الأغراض التى يستخدمان من أجلها ، ويمثل رأيهم الشاعر الروسى نيكراسوف ٠

فى قصيدته الانتقام والاسى حيث نسمع المواطن ينشد وهو يخاطب الشاعر فيقول :

وأنت ايهـــا الشـــاعر يامن اصطفته السمــــــاء
انت صـــوت الحق الابـــدى لا تفكر في عويل الجيـــاع
المكتوب عليهم الفنـــاء فليست لهم أناشيد الانبياء
ولا تفكر فى الصرعى الساقطين فان الله حي فى كل انســان
وبكـــاء القلب المؤمـــن يصـــل دائما الى الاعمـــاق
كن مواطنـــا واخدم الفن وعش لخير بنى الانســـان
سخر العبقريات والمواهب لتبعث أحاسيس الســلام

كما يدافع عن هذا الرأى الناقد الفرنسى « ج ٠ م جويو » فى كتابه (مسائل فلسفة الفن المعاصرة) خير دفاع ٠ لقد أخذ يرد على أصحاب مذهب الفن للفن ، ويدلل على انه لا تعارض بين لذة الجمال، ولذة اللعب ، وعلى ان الفن ليس لعبا ، وعلى انه لا تعارض بين لذة الجمال والشعور بالمنفعة ، والحاجة والرغبة ، كما انه لا تعارض بين لذة الجمال وبين الفعل والشعور بالواجب ٠

ومن الذين آزروا هذا المفهوم المعلم الأول « ارســطو » ، ودانتي الايطالي وجديو الفرنسي وباوند الانجليزي ونيكراسوف الروسي وبيكاسو الأسباني ، وابراهيم عبد القادر المازني — وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد الشايب ، والدكتور محمد مندور ، والدكتور عز الدين اسماعيل ، من النقاد العرب .

وما دمنا قد وصلنا الى هذا الرأى فمن الواجب أن نشير الى الرأى المقابل الذى يقول بأن الفن بعامة والشعر بخاصة ، لا غاية له لأنه غاية في ذاته فالتعبير الجميل والصورة الرائعة ، يجب أن يقفا عند حدود الجمال المحض دون قصد الى شرف المعنى في ذاته ، لا سيما وان من نادوا به كبار فلاسفة الجمال من أمثال الفيلسوف كانت وسبنسر ، وجرانت آلن ، وكروتشه ، وبودلير ، فلوبير ، وكثير من الرومانتيكيين ، والبارناسيين ، وعبد القاهر الجرجاني من النقاد العرب ، والقاضي عبد العزيز الجرجاني ، وطه حسين .

فكروتشه في أثناء تعريفه للفن بأنه رؤيا أو حدس يعد من الانكارات التى ينطوى عليها تعريفه لبعض المفهومات العالقة بالفن خطأ قولهم : ان غاية الفن ان يوجه الناس نحو الخير ، ويبث فيهم كره الشر ، ويصلح من عاداتهم ويقوم اخلاقهم ، وان على الفنانين أن يسهموا في تربية الجماهير ، وتقوية الروح القومى ، أو الحزبى في الشعب ، أو اذاعة المثل الأعلى الذى يفرض على المرء أن يعيش حياة بسيطة جاهدة وما الى ذلك .

والحق ان هذه أمور لا يستطيع الفن ان يقوم بها أكثر مما تستطيع الهندسة فهل عجز الهندسة هذا يجردها من حقها في الاحترام ؟ فليت شعرى لم يجردون الفن من مثل هذا الحق في مثل هذه الحال .

وهنا يكاد يلتقي عبد القاهر الجرجاني مع كروتشة • فلقد نعى عبد القاهر على من يرون الحسن في الحكمة السائرة ، والخلق السائد ، لا يتجاوزون هذه الحدود ولم يذكر سوى الصورة الأدبية أساسا للحسن ، وهي التي يتوافر فيها حسن النظم سواء اشتملت على حكمة أم لا ، ولا يشترط عبد القاهر غاية اجتماعية أو خلقية للكاتب ، ومتى حسنت الصورة الأدبية باستكمال حسن النظم ، وحسن الألفاظ في مواقعها فقد حسن الكلام •

الا أننا نرى الأمر يأخذ وضعا آخر على يد « سارتر » الذي لا يقر الالتزام في الشعر فهو بذلك يوافق رأي كروتشة وعبد القاهر ، وان أقره في النثر ، ذلك ان لغة الشعر كثيفة ،ولغة النثر شفافة ، فالشاعر يعتمد في جلاء مشاعره على الصور لا على الشخصيات والأحداث ، وتعتمد الصور على قوتها الايحائية في الألفاظ والجمل ••• وبذلك تصبح الكلمات في التصوير أشبه بالألوان في الرسم ، أو الأنغام في الموسيقى فتسيطر على العواطف وتنفذ فيها ، وتصبح بذلك لها كثافة الأشياء كلوحة الرسام ، فاللغة الشعرية ليست أداة للوصول الى حقيقة ما •

٢ ـ موقف الجارم من الصراع بين القديم والحديث

ويبدو أن مفهوم الجارم عن الشعر كان نتيجة الدراسة ، لا نتيجة الاستعداد والفطرة ، اذ الواقع ان الجارم كان ينحاز دائما الى جانب الشعراء التقليديين الذين لم ينتفعوا بالثقافة الأوروبية ، على الرغم من معرفته بها ، ودراسته لها ، وعلى الرغم من هجوم كثير من النقاد عليه ، ومحاولتهم الخروج به من عزلة التقليد الى خصوبة الابتكار والافتنان •

يقول الأستاذ أحمد الشايب في عام ١٩٢٩ موجها حديثه الى

الجارم فى صحيفة كوكب الشرق: مهما يكن من شيء فما رأى الأستاذ الجارم اذا قلت له : انك مقصر فى الانتفاع بالأدب الغربى ، والشعر خاصة ما دمت تجيد اللغة الانجليزية ، نعم مقصر على رغم انتفاعه بذلك ، فكان المنتظر من مثله وهو يتقن الأدب العربي أن يهضم فيه من أدب الغرب ما يلائم حياتنا الأدبية الحديثة التى ترتكز الى درجة قوية على الثقافة الأجنبية ، ومنه وحده كنا نحصل على تلك الروح الجديدة تختال فى حلل عربية جميلة ، فيريحنا من تلك الطائفة التى تحاول نقل الروح الانجليزية أو الفرنسية فاذا بهـــا تتعثر فى أساليب خاطئة ، وتتسـكع فى ألوان من اللفظ تنبو عن الذوق الصافى والطبع السليم ، وعلى كل ، فللجارم شعر فى فنون شتى تقوى فيه الروح العربية ، وتتوارى الروح الانجليزية ٠

ولكن الجارم يصم اذنيه ، أو قد لا يواتيه طبعه فيمضى فى طريقه التقليدى غير آبه بكلام النقاد ، ولا ملتفت اليه ٠٠ والأدهى من ذلك هجومه على المجددين من الشـعراء فى أخريات حياته ٠ ففى سنة ١٩٤٧ يقول فى ذكرى حافظ وشوقى :

سكت العندليب فى وحشة الدو ... ح ، وغنت نواعق الغربـــان

فسمعنا من النشـوز افانيــ ... ـن يروعن صادح الأفنـــان

اسمعونا برغمنا فصبرنـــا ... ثم ثرنا غيظـــا على الآذان

جلبوا للقريض ثوبا من الغر ... ب ولم يجلبوا سوى الأكفـان

ثم قالوا مجددون فأهلا ٠٠٠ ... بصناديد أخريات الزمـــان

لا تثوروا على تراث امرىء القيـ ... ـس وصونوا ديباجة الذبيانى

واتركوا هذه المعاول باللـــ ... ـــه ، فانى اخشى على البنيان

واحفظوا اللفظ والأساليب والذو ... ق ، وهاتوا ما شئتم من معان

ما لسـان القريض من عربى ... كلسان القريض من طمطمانى

انما الشعر قطعة منك ليست — من دمـاء اللاتين واليونـان
كل فن له مكـان وأهـل — ان غدا العلم مـاله من مكان
ان رأيتم اخوة العود للجـز — بند فابكوا سـلالة العيدان
لا يهز التخيل الا حنان النـ — ـساى في صمت ليلة من حنان
وجهة الشرق غير وجهة الغـ — ـرب فأنى وكيف يلتقيان

« .... ولكن الواقع أن احدا من أنصار التجديد فى مصر لم يجلب للقريض ثوبا من الغـرب ، وقد احتفظوا جميعا باللفظ والأساليب والذوق ، وبخاصة فى مصر التى تختلف فيهـا حركة التجديد الشعرى والأدبى عنها عند شعراء المهجر الذين قد يمكن مؤاخذة بعضهم بالتهاون فى الصياغة اللفظية ، وفى فصاحة اللغة. كما ان انصار التجديد لم ينكروا ان الشـعر قطعة منهم ومن مجتمعهم ، وليس من دماء اللاتين واليونان ، ولكنهم اختلفوا مع المقلدين انصار عمود الشعر فى مادة الشعر ذاتها ، وطالبوا بالا تظل تلك المادة حبيسة فى نطاق مالاكته السنة القدماء ، والا تظل صياغتها خاضعة للقوالب القديمة ، كما طالبوا بالا يظل الشـعر صناعة زخرفية لا تسـتند الا الى المهارة اللفظية ، أو التوليدات المتعفنة ، وقد هدتهم ثقافتهم الواسعة التى أخذوها عن الغرب الى ان هناك اغوارا فى النفس البشرية واسرارا فى الطبيعة ، كما ان هناك من مواضع الجمال ومثيرات الشجون والآلام والآمال ما لم يقع عليه قدماء العرب بينما نفذ اليه الغربيون، وذلك فضلا عما استنبطه الغرب من اسرار الصياغة الشعرية ، ووسائل التصوير والايحاء ، وهم لا يريدون استعارة الأثواب من الغرب ، ولا اسـتعارة مادة الشعر من حياة اليونان أو الفرنسيس وانما يريدون أن يسلكوا فى الشعر العربى الحديث المسـالك والاتجاهات التى سـلكها

الغربيون ، وذلك ليســـتخرجوا من حياتهم ومن طبيعة بلادهـم اسرارها المماثلة لما استخرجه الغربيون من حياتهم وطبيعة بلادهم ، ومجتمعهم ، وان يستعينوا بنفس المبـــادىء والأصـــــول اللغوية التى طبقها الغربيون على لغاتهم ٠

٣ ــ أثر البيئة والنشأة فى تشـــــكيل شعره ، وتحـــديد اغراضه :

وبطبيعة الحال لن نستطيع أن نحمل الجارم وحده وزر هذا الاتجاه المحافظ فان للبيئة والتربية والثقافة وأسلوب الحياة الذى فرض عليه أثرها فى تشكيل شعره ، وطبعه بهذا الطابع ، ومن العبث أن نطلب من الجارم أن يجدد ويثور ، فلن يثور الجارم حتى لو اراد لانه ابن بيئته وتربيته وثقافته التى طبعته بطابعها ٠

لقد نشأ فى رشيد فى بيت علم ودين ، ورشيد بلده تمثل جلال التاريخ على الأقل فى نظر ابنائها ، وبيت الجارم فى رشيد يمثل على الأقل فى نظر ابنائه موقفا معينا اتجهت اليه فيه الانظار أثناء الحملة الفرنسية وقبلها بقليل ٠ وآباء الجارم علماء ، وأجداده لامه تجـــار ، وتربيته فى بادىء حياته اتجهت الى الـكتاب ثم الى الأزهر ، والأزهر يمثـل الى حد كبير بمبانيه التاريخية الأثرية ، وكتبه الصفراء القديمة ، وأساتذته المقلدين أكثر من اللازم أكبر معقل للمحافظة استطاع ان يمتد داخل القرن العشرين بأفكار ما قبل القرن العشرين ، ثم دار العلوم وحيرتها بين التجديد والتقليد وميلها فى حقيقة الأمر الى التقليد لعدم معرفتها باللغات فاساتذة دار العلوم ٠

فتنوا بالعذيب والسفح والجز   ع ووادى العقيق والصمـــان

كل ذلك طبع الجارم بهذا الطابع المحافظ المقلد ، الذى تعذر عليه التخلص منه حتى بعد ان سافر الى البعثة ، ومكث فى انجلترا

أربع سنوات درس فيها اللغة الانجليزية واتقنها ، ونال بها دبلوما في التربية وعلم النفس لان الرواسب القديمة كانت تشده دائما الى المحافظة فبعد الثلاثين لن يستطيع الانســـــان ان يتخلص من طبيعته التي نشأ عليها ..

والأديب الدرعمي بخاصة حينما كان يسافر عضوا في البعثة في مطلع هذا القرن كان يضع نصب عينيه دائما ما قاله الأستاذ « عادل الغضبان » وهو يودع صديقه « محمد عبد الغني حسن » عضو البعثة لانجلترة .

وكن هنالك شرقيا يجول به دم العروبة من بدو ومن حضر

يقدس اللغة الفصحى وينصرها شأن امرىء في سبيل الحق منتصر

ولقد كان محمد عبد الغني حسن يقدس اللغة الفصحى كما اراد صديقه ، وكان الجارم قبله يقدسها الى درجة أعمت كليهما عن أن يريا غيرها ، لقد كان كلاهما يعيش في انجلترا ولا يشعر الا بلهيب صحراء البادية ..

كان الجارم دائما ينعت اللغة العربية بأنها اللغة الشريفـة ، ويعلل أزدهار الأدب في العصر العباسي بأن الأعاجم الذين قذفت بهم أمواج الفتوح الى الشاطىء العربي ، والذين توثبوا بعد ذلك الى الملك لم تكن لهم لغة جديرة بالاحياء والانتعاش وكان يحس أنه اذا مات فستندبه الفصحى .

ستندبني الفصحى اذا مت قبلها وما الذي في الناس ليس له ند

لقد كان الجارم وأمثاله يشعر بشعور «محسن» ويفكر بتفكيره في كتاب « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، يوم ذهب بعـد الحرب العالمية الأولى الى الغرب فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن

الروح ··· وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هى روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها · ثم يسيرون خلف « محسن » الآخر فى كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافى والروحى فى رواسب الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر وريفها وأهلها الصادقين ·· ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصرى ··· ويرددون الفاظه المباهية بعراقته وحضارته ··· من الخير بالطبع أن ندع هذا الشاب يعيش فى مثل هـذه المشـــاعر والأفكار ، لكن من الخير أيضا أن نقول له : قدس ماضيك دون ان تذهب فى ذلك التقديس الى الحد الذى يجعلك توصد روحك دون تلقى كل جديد ينفعك ولو كان ذرة من أشعة · اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث لتثرى نفسك ، ويتسع أفقك ·

ولقد اتصل الجارم بالأدب الغربى واستوى له ، وكان يملك فى مكتبته دائرة المعارف البريطانية كلها ، ويقرأ كثيرا فى الأدب الانجليزى ولكنه كان يحس من أعماقه بحاجة ملحة الى التبحر فى اللغة العربية ، وفى الشعر العربى بخاصة لكى يجد فيه حاجته من غذاء متصل لموسيقى النظم مما لا سبيل الى ابتغاء العوض عنه فى غيره ، ولقد نضجت اللغة فى نفسه ولكن لم يقف من نواحى البحث عند هذا الحد ، بل اندفع فى هذه الناحية الى درجة التأثر بالشعر القديم ، وأخذ كل شىء عنه ·

ولقد ساعده على ذلك اتصاله بالمجمع اللغوى ، وفى المجمع وجد الشاعر بيئته فكان مهيا لما خلق له « ان الارستقراطية حتى لو كانت عقلية محضة كصفوة مختارة ، أو مجمع علمى ، أميل فى الغالب الى المحافظة فاذا سلمنا بأنها تضم أقدر العقول على فهم الفن فى المرحلة التى وصل اليها العصر فانها لا تضم دائما أقدر الناس على فهم فن النقد ، والعبقرى لا ينصاع لذوق عصر من العصور ، اذا

كان هذا الذوق فاسدا بل يحاول أن يصلحه ، واصلاح ذوق عصر من العصور ، أسهل في الغالب من اصـــــلاح ذوق مجمع علمي ـ أكاديميا ٠

ج ـ حديث الجارم عن شعره :

والجارم كثير الحديث عن شعره ، كثير الافتتان به ، والمدح له، ولقد فكرت في ذلك ، وأخذت أبحث عن سر هذه الظاهرة ، وأستوحى أبياته وقصائده وأتساءل : لم ينتهز الجارم الفرصة دائما فيعرج في أثناء قصائده على شعره ليصفه ويؤكد روعته ؟

ومما زاد في محاولتي للاجابة على هذا السؤال وجود عـــدد كثير من الشعراء الذين عاصروا الجارم ، وكانت لهم روائع خالدة كفيلة بأن تحد من هذا الاطراء المبالغ فيه بالتأكيد ٠

وعندى ان ذلك يرجع الى :

(أ) حالة نفسية ٠

(ب) ظاهرة أدبية تقليدية ٠

(أ) أما الحالة النفسية فلقد سيطرت على الشاعر فأعمته عن رؤية هذه الكثرة النابغة من الشعراء المعاصرين ، وبخاصة بعد موت شوقي وحافظ ٠ لقد كان يدرك عن عقيدة ان الشعر العربي انمـــا يتمثل في أمثال حسان والبحتري ، والمتنبي ، والبارودي ، وشوقي

أما هؤلاء الذين ينتمون الى مدرسة الديوان فليسوا بأمثـلة رائعة في الشعر الحديث لأنهم لم يعطوا لنا النماذج القـــوية التي تستطيع أن تقف أمام شعراء العربية العظام الذين يحترمهم ويعجب بفنهم ، لقد طغت المعاني ، وطغى التحليل العقلي ، والاتجاه الواقعي على هذه المدرسة التي لم تفتن الجماهير ، ولم تسيطر على عواطفهم ٠

وكذلك الشعراء الذين يلتفون حول مجلة « أبوللو » لأنهم فى نظره يترسمون خطى الغربيين ويقلدونهم ، فهم خارجون على امارة الشعر متمردون على تراث الآباء والأجداد ·

ولقد مات شوقي وحافظ ، وخلا الميدان من فارسيه ، والجارم شاعر كبير ، يسير على منوال الامير الراحل ، ويتتبع خطاه ، ويقول الشعر عن موهبة وفطرة ·

والطير ان صـــدحت بـلا بلد صـــدحن بغير كد

فلم لا يكون أميرا للشعراء ؟ لقد أصبح وحده في الميدان ·

ان القصر الملكي لينتظر منه الكثير في كل مناسبة ، والمجمع اللغوى يعده من أقطابه ، ومنصبه في وظائف الحكومة ، وانتدابه في كثير من المؤتمرات الأدبية كشاعر رسمي للدولة ، كل ذلك يؤهله لامارة الشعر ·

ولقد تتبعت نماء هذه الحالة في شعره فوجدته يقول مادحا:

غناك شـــعرى فاستمع لغنائه ان البلابل فى الخميلة نـــدر

ما كل من عرك المزاهر معبد يوما ، ولا كل المواضع عبقـر

ان الرماح حدائد منبـــوذة حتى يثقف جانبيها ســـمهر

وفي هذا اعتراف بأن هناك بلابل غيره ، ولكنها نادرة ·

ثم يقول بعد ذلك فى المدح :

شدوت باسمك حتى صرت من طرب
أظنني ذا جناح بين اطيـــار .

فان سمعت رنينـــا كله عجب
فالعود عـــودي والأوتار أوتاري

وفى هذا اعتداد بنفسه ، وبشاعريته الى درجة طغت على غيره من الشعراء لأن الرنين المعجب انما هو من عود الجارم وأوتاره ·

وتظل الحالة تنمو الى أن يوجه خطابه فى سنة ١٩٣٧ الى أحد الأعياد الرسمية فيقول :

أصبحت وحدك فى الزمـــا ن وصرت فى الشــعراء وحدى

عندى لك الدرر الحســـا ن وأين ان لم تلف عنـــدى

وفى تعبيره بصرت دليل واضح على نماء هذه الحالة فى نفسه لأن الصيرورة تدل على انتقاله من حالة الى أخرى · فلقد صار فى الميدان وحيدا · فاذا ما عدنا الى ما قبل وفاة الشاعرين وجدنا هذه الظاهرة غير ظاهرة اطلاقا ، وذلك باستقراء شعره طيلة أربعين حسنة من حياته ·

(ب) وأما كونها ظاهرة أدبية تقليدية فالأدلة عليها كثيرة فى شعر كبار الشعراء العرب ، فصعوبة الخلق الفنى ، وســـيطرة الشاعر عليه ، وامتلاكه لناصيته قد دفع بكثير من شعراء العربية الى التغنى بجمال أشعارهم وروعتها اليس المتنبى هو القائل :

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشــدا

فسار به من لا يســـير مشــــمرا
وغنى بــــه من لا يغنى مغــــرداً ··

أجزنى اذا أنشدت شـــعرا فانما
بشـــــعرى اتاك المادحون مرددا

ودع كل صـــوت غـــير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى والآخـــر الصـــدى

ثم ألم يقل شوقي في كارثة دمشق سنة ١٩٢٦ ونكبتها بالاحتلال ، والمقام هنا مقام حسرة وحزن ، ولكن أمير الشعراء لم ينس نفسه ، ولا روح الدعاية لفنه :

وحولي فتية غـر صباح — لهم في الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لسن — وفي اعطافهم خطباء شدق
رواة قصائدي فاعجب لشعر — بكل محلة يرويه .. خلق

ولعل من النادر ألا نجد شاعرا حدثنا عن شعره ، ودواوين الشعراء مملوءة والجارم بعد هذا ليس بدعا حينما يقول مخاطبا بلدته رشيد :

غنى لك القلم الذي أرهفته — أرأيت كيف تغرد الأقلام ؟
هذا وليدك جاء ينشد شعره — ما كل ما تحوى الخيوط نظام
اصغى له الوادى وغنت باسمه — بغداد واهتزت اليه الشام
ان قال مال له الوجود بسمعه — ورنت له الأسماع والافهام
ملك العصى من القريض بسحره — طوعا فما استعصى عليه خطام

وأخيرا لا بد أن نعرض للنواحي التي لفتت ذهن الشاعر فتحدث عنها مفتخرا بها ، أو مؤكدا لمعناها .

وأهم هذه النواحي :

(أ) عملية الخلق الفني .

(ب) مقومات شعره من ناحية الشكل والمضمون .

(جـ) الوحدة الشعرية .

(د) قصور شعره أحيانا .

(أ) أما عملية الخلق فلقد تحدث عنها فى أكثر من موضع ، وحديثه لم يخرج عن ان عملية الخلق تتم فى هدوء الليل حيث كان يجلس فى احدى حجرات داره وفى يده قلم يخط به كلمات يثبتها حينا ، ويشطب فوقها حينا ، ثم يقف مفكرا حينا ، وعيناه ذاهلتان فى السقف ، وفى أرجاء الحجرة كأنه يتلقف الخيال الطائر ، أو يستهوى الوحى الحائر ، ثم يستعين بهذا الهدوء على استهواء عرائس خياله المراوغة ، بالضراعة حينا ، وبالتغريد بالشعر أحيانا فتلين له ، وتنثنى عائدة اليه، فيمسك بالقادمتين بعد أن تكون قد وقعت فى شركه :

كم ليلة سامرت شعرى لاهيا   والنجم يلحظنا بعين حسـود

حينا يراوغنى فأنظـر ضارعـا   فيلين بعد تنكر وجحـود

ولقد أغرد بالقريض فانثـنى   فأنال قادمتيه بالتغـريد

وعرائس خياله هنا ذلولة ، لطيفة ، سهلة القياد ٠

(ب) مقومات شعره :

وأما مقومات شعره ، فلقد تحدث عنها كثيرا ، تحدث عن الشكل والمضمون كما يتحدث كثير من نقاد العرب وشعرائهم ، وأوهمنا انه من هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يفرقوا بين الشكل والمضمون لأن العمل الادبى الممتاز لا بد أن يخلق بالكيفية التى خرج بها الى الوجود فالألفاظ والمعانى من هذه الناحية ممتزجتان لأنهما يمثلان الخلق الأدبى فى وحدة تامة « ان جمال الشعر فى نظمه وجرسه ، ورنينه ، وفى انتقاء الفاظه وتجانسها ، وفى ترتيب هذه الألفاظ ترتيبا يبرز المعنى فى أروع صورة وأبدعها ، وفى اختيار الاسلوب الذى يليـق بالمعنى ويليق به فمرة يكون اخبارا ، ومرة يكون استفهاما ومرة يكون

استنكارا ومرة يكون نفيا ، ومرة يكون تعجبا ، كل ذلك يكون مع المحافظة على الأسلوب العربى الصميم ٠

ثم في المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم فى صـــورة جديدة رائعة ثم فى الخيال وحسن تصويره ، والتزام الذوق العربى فيه ، ثم فى احكام القافية والتمهيد اليها ، ثم فى انتقاء البحر الذى يلائم موضوع القصيد ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية ، ثم فى روح الشاعر وخفـة ظله ، وانسياقه مع الطبع وتعمده لمس مواطن الشعور ٠

ولا يكون جمال الشعر دائما بالمجاز والتشبيه وضروب التزويق اللفظي وانما جماله في استعداده للنفاذ الى النفس ، والوصـــول الى القلب على أى صورة كان ، وفى أى ثوب يكون ، ولأمر ما كان لبعض الشعر الجاهلي منزلته التى لا تسامى ، ومحله الذى لا ينازع ولأمر ما هوى الشعر صريعا يلهث حينما أثقله المتأخرون بنفائس الحلى وأنواع الحلل ٠

هذه هى نظرية الجارم فى الشعر ، وهى كما ترى واضحة غير أن ترتيبها على هذه الصورة يفيد ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى ويفضل الشكل على المضمون ، وان كان قد حاول مرارا أن يوهمنا بأنه لا يستطيع أن يفرق بين الشكل والمضمون ٠

لقد بدأ بالنظم والجرس والرنين وانتقاء الالفاظ وتجانسها وترتيبها ثم ذكر المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم ، وفى الاتيان « بثم » التى تفيد الترتيب ما يدل على ذلك ، وبنفس التعليل نستطيع أن نقول ان الخيال يحتل المرتبة الثالثـــة ، ثم البحر الذى يلائم موضوع القصيدة ثم الوحدة الشعرية ٠

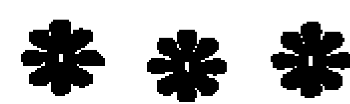
ولا يدخل فى روعنا ما ذكره الجارم فى ثنايا شعره عن ان

المعانى العظيمة لا بد أن تخرج فى أثواب تناسبها فى العظمة والجلال والا فالعيب كله فى الثوب الذى لا يتناسب ، أما لأن المعنى فيه قزم فهو فضفاض ، وأما لأن المعنى عظيم فهو قصير غير مستوعب ٠

واذا جلت المعـــانى تسـامت عن قيود الافعـــال والأسـماء
يتـــأبى السـيل الذى يصـــدع الاجيال أن يحتويه جوف اناء
واذا لم تع المعـــانى فنقب تجد العيب كله فى الوعـــاء
بين معنى قزم يجـــر رداءه ، ومعنى ضـخم قصير الرداء
رب فكر فى النفس وهو مضى ء أخمدته فهـــاهة الفأفـاء

وبقليل من التتبع نجد ان الشاعر يتغنى بالصناعة بل لعلى لا أكون مبالغا حينما أقول ان افتنان الجارم بشعره كان يتجه دائما الى جمال اللفظ ورنينه أكثر مما يرجع الى عمق المعنى وابتكاره ٠

لقد قطفنا لك الأزهار باسمة وفى عقود من الفصحى نظمناها
وقد جمعنا من الالحان أغنيـــة لو يفهم الطير معناها لغناهـــا
ولم ندع من فنون السحر سانحة طافت بمعنى العلا الا لحناهـا



والجارم يعيش حياته للفن بين الظلال وبين السلسل الجارى يشدو فيفتن الطير حتى ترق يراعه وقد حسبته سن منقار :

وعشت للفن أحيـــا فى بدائعـه
بين الظلال وبين السلسل الجـــارى
اشدو فان شئت أن تصغى لساجعـــة
من الخلود فانصـــت تحت أوكارى

كادت تزق يراعي الطير تحسبه
وقد تغني بشعرى سن منقــار

قد علمته التغـــنى فوق ايكتـــه
ففاقهــا فى التغنى فوق اسطـــار

كأن داود القى عنــد بريتــه
اثـــارة من ترانيـــم وأســـرار

ومالنا نذهب بعيداً والشاعر قد صرح بأن المعانى عبيد للألفاظ حينما يقول :

قد نقدنا لك القوافى صحاحــا مثلما ينقد الشحيح النقــودا
وجمعنا حر الكلام الذى عـــز فأضحت له المعانى عبيــدا!
وحشدنا الألفاظ أنقى من الما ء وأشهى مســاغة وورودا
وبعثنا الخيال سحرا من السحـ ر ونهجا من البيان ســديدا
طار فى الجو ما يمل رفيقـــا وطوى الأرض ما يمل وخيـــدا

والجارم هنا يتمشى مع طبيعة المذهب الكلاسيكى الذى يفضــل الشكل على المضمون سواء أكان فى الأدب العـــربى أو فى الأدب الأوروبى .

وهو هنا يسير مع الجاحظ فى رأيه الذى يقول فيه : ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها كل أحد ، وانما الفضل للصياغة ، ومع أبى هلال الذى يقول : وليس الشعر فى ايراد المعانى لأن المعـــانى يعرفها العربى ، والعجمى ، والقروى ، والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب ولا يطلب من المعنى الا أن يكون صوابا .

وهذا شبيه بقول « جيرودو » الكاتب الفرنسي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤) المسألة أولا مسألة أسلوب وتأتي بعد ذلك الفكرة .

ولست أدرى لم لم يلتفت الجارم الى نظرية عبد القـاهر فى النظم مع انه قد قرأ كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز »

كما لم يلتفت الى ابن رشيق الذى يقول : ان اللفظ جســـم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم واختل بعض اللفظ كان نقصـا للشعر وهجنة عليه ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ

مع أن هذا هو الرأى الاصوب فى مشكلة « الشكل والمضمون» وهو يتمشى مع نظرية كبار النقاد وفلاسفة الجمال يقول«بندكروتشة» فسيان اذن أن نعد الفن مضمونا أو صورة شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز فى صورة وأن الصورة ممتلئة بالمضمون أى أن الشعور المصور ، وأن الصورة هى الصورة المشعور بها .

فاذا ما اتجهنا الى المقومات المعنوية نراه يكاد يحصرها فى أمور محددة وواضحة .

أولها : الاتجاه الخلقى فى شعره ، فهو يكثر من الحديث عن الأخلاق والدين ، ويقول عن شعره :

طهرته من كل ما تأبى النهى   ويعافه سمع الحسـان الخـود

وبعثت فيه تجاربا مذخـــورة   هى كل أموالى وكل رصيدى

ويقصد بالتجارب هنا الحكم التى كان يجيدها كثير من أمثاله ولا شك أن للنشأة والتربية أثرها فى هذا الاتجاه فهو يقول :

ان دعاتا الهوى لغير سـديد   سددتنا كرائم الأحســـاب

والقائل :

قد ولجنا الحياة فى كل باب   فرأينا الأخلاق باب النجـاة

أما الدين فهو طب النفس ، وسلوة الحزين ، وكثيرا ما تخلل رثاؤه ذكرى الدين كآية على عظمة المرثى ، كما تخلل مدحه ذكرى الدين كآية على عظمة الممدوح :

الدين طب النفس من آلامهـا   وهداية الحيران فى بيدائه

الدين سلوى النفس فى آلامها   وطبيبها من أدمع وجـراح

أودعته حزنى فلم تعبث بـه   شكوى ولا صدع الدجى بنواح

* * *

لا تضل الشعوب مصباحها العلـ   ـم يؤاخيه راسـخ الايمان

ولعل هذا الاتجاه الأخلاقى الدينى عنده هو الذى جعله يقف فى طريق « نجيب محفوظ » حينما تقدم بثلاث من رواياته الىمسابقة الرواية التى يقيمها المجمع اللغوى ، وكانت الروايات « القاهـرة الجديدة » و « خان الخليلى » و « زقاق المدق » واستقر رأى أغلبية أعضاء اللجنة على أن تكون الجائزة لرواية « زقاق المدق » ما عدا عضوا واحدا رفضها رفضا باتا ، بل هدد بالاستقالة ، كان ذلكالعضو هو المرحوم الأستاذ « على الجارم » وكان رفضه مبنيا على أن رواية ، « زقاق المدق » تضم عددا كبيرا من الشخصيات ذات الاخلاقالفاسدة وأنها لا يمكن أن تحظى بجائزة من هيئة موقرة كالمجمع اللغوى ،وأن كاتبها يستحق العقاب أكثر مما يستحق التقدير .

ولقد وقع أعضاء اللجنة فى معركة بين العقل والعاطفة ،فالعقل يقول : لا يجوز الحكم على عمل فنى على ضوء الاعتبارات الخلقية ، والعاطفة تقول : لا ينبغى أن يستقيل الجارم !

وأخيرا تمكن المرحوم « عبد القادر المازني » من حل المشكلة ، فاقترح اعطاء الجائزة على رواية غير زقاق المدق حتى لا يغضب الجارم .

والواضح من هذه الحادثة أن الجارم كان يرى أن غاية الفن يجب أن تكون أخلاقية اجتماعية ، وهو على ضوء الدراسات السابقة المتقدمة يوافق أغلبية النقاد الذين يرون فى الأدب والفن هذه الغاية .

ومن المقومات المعنوية التى تحدث عنها الجارم هذه الرسالة التى حملها اباؤه فلقد كان شعره صدى لروحه ، وخفقة لنفسه ، ثم أهداه الى مصر وأبناء مصر ، وأشاد فيه بالشرق ، وأبناء الشرق ، وشدا بالبطولة والابطال ، وحفز به شباب العروبة الى الاعتزاز بقومهم والتغنى بالشرف التالد والمجد القديم .

أعددته قيسا يذكى توقده　　عزم الشباب ويهدى ليلة السارى
ويكشف الأمل المحجوب ساطعه　　واليأس يغشى بأسداف وأستار

شعر نصر الفصحى فنصرته ، وصان لها ديباجتها فصانته ، وخط للناشئين مثالا فيه نبل القديم ، وجدة الحديث ، وأبان أن العربية تستطيع أن تقول فى كل شىء دون أن يمسها من آفات الضحمة شىء .

ضننت به فلم يهتف لعمرو　　ولم تستهوه بسمات سعدى
وصنت لهاته عن كل لغو　　له خد الفتى العربى يندى
تلثم بالاباء فعاش حرا　　ولو عرف الرياء لمات عبدا
يهز حمية الفتيان نصلا　　ويحشد رابض العزمات جندا
ويشعل فى القلوب وميض نار　　كنيران الكليم هوى ورشدا
ويشدو بالمروءة ان تراءت　　وبالصنع الجميل اذا تبدى

وهو بذلك يضع الخطوط العريضة لأغراض شعره ومعانيه ٠

(جـ) الوحدة الشعرية

يحدثنا عن الوحدة الشعرية فيقول : « ان جمال الشعر يكون أيضا فى احكام القافية ، والتمهيد اليها ، ثم فى انتقاء البحر الذى الذى يلائم موضوع القصيد ، ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية ٠

ولست أدرى أين هى الوحدة الشعرية فى هذه القصيدة التى ينتقل فيها الشاعر فى فنون شتى من القول

أهى وحدة الموضوع ؟! أهى وحدة العنوان ؟!

أما الجارم فلقد سمع من غير شك عن هذه الوحدة للقصيدة التى نادت بها مدرسة الديوان ، ولكنه لم يتأثر بها ، أو تستطع هـذه الوحدة ان تطغى على ثقافته العربية الأصيلة ٠

فاذا أخذنا مثلا « قصيدته الطويلة التى ألقاها فى المؤتمـر الطبى الذى عقد ببيروت سنة ١٩٤٤ ، وجدناه يستهلهـا بالغـزل فيقول :

ألقيت للغيد الملاح سـلاحى ورجعت أغسل بالدموع جراحى

ثم ينتقل الى وصف الرحلة الذى يبدأه بقوله :

سر يا قطار ففى فؤادى مرجل يزجيك بين متـالع وبطـاح

وان يكن من الحق أن نلاحظ أنه لم يقل سر يا بعير !! ثم ينتقل الى وصف لبنان ومفاتنها ، وفى النهاية يصل الى المؤتمر ، ما يرجى منه من خدمة للعلم وللانسانية ، مثيرا همة العرب ، مسديا اليهـم غالى النصح ، وفى النهاية يعود الى لبنان ليطربه ويطرى ضيافته ٠

(د) هذا الشعر الرائع العظيم ـ كما يقول الجارم ـ لا يعجزه شيء الا وصف مناقب ممدوحه ،ولعل الجارم هنا كان مقلدا أيضا ، فكثير من الشعراء عجزوا عن وصف مناقب ممدوحيهم ٠

يقول أبو فراس الحمداني لسيف الدولة :

ألا قل لسـيف الدولة القرم أنني على كل شيء غير وصفك قادر

ويتضاءل حافظ ابراهيم أمام الخديوى عباس وشاعره فيقول :

لم يبق أحمد من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولاتعب

ويذيع الشيخ عبد العزيز البشرى سنة ١٩٢٣ بمناسبة عيد ميلاد فؤاد فيقول : ان من الغرور وشدة الذهاب بالنفس أن أزعم أو يزعم غيرى أنه يستطيع فى كلمات أو فى خطبه مهما أسبغها وأضفاها أن يلم بمناقب صاحب الجلالة وآثاره الضخام فذلك ما ينبغى أن تحفل به الكتب ويرتصد لنظمة التاريخ الطويل ٠

ولهذا لا نعجب أن يقول الجارم مثل :

عجز الشعر أن ينال مداكـم وكبت دون وصفكم أمـدا حى
كن كما شئت أيها الشعر فنا نا فلن تسـتطيع لمح صـفاته

ومثل :

أجهد الشعر أن يرى عزمـات يعجز الوصف دونها وجهودا
ومعانيك لا تحد فمــاذا يعمل الشعر قاصـدا مجهودا
واذا ما البيان عق لبيـدا فى المقام المهيب فاعذر لبيدا

ومثل :

حوت ريشة الرسام بعض صفاته وعزت على ريش القريض مناقبه

ومثل :

حار القريض وكيف أبلغ غـاية هى فوقطوق براعتى وجهودى؟
أعددت أيامى لأرسم صـــورة أين السها من ساعدى المكدود؟

وبعد :

فى هذه الدراسة نرى أن الجارم يرسم لشعره رسالة انسانية كبرى ، وينظر الى الحياة نظرة عميقة نافذة ٠

وليت شعرى هل استطاع أن يؤدى رسالته الشعرية كما تحدث عنها وكما تناولناها بالتوضيح والتمليق آنفا ، أم أنها فقط خيالات شاعر استطاع أن يتصل لحظة بالعالم الكبير ليستلهم ربة الشعرمقدمة لديوانه ورحلة ممتعة لخياله ؟

أما أنا فأرى أن الاجابة على هذا السؤال ستتولاها الفصول الآتية ، وسوف نحاسب الجارم على أساس ما قدمه فى هذا الفصل من نظرات !!

الفصل الثانى

أغـــراض شعـــره

المـــدح :

١ ـ منزلة المديح فى العصر الحديث :

لقد هاجم كثير من النقاد فن المديح فى النصف الأول من القرن العشرين ، وبنوا هذا الهجوم على أن الحياة فى العصر الحديث ، عصر الشعوب ، تختلف اختلافا بينا عن الحياة فى العصور السابقة ـ عصر الخلفاء ، والسلاطين ، والملوك !

ولونوا هذا الهجوم بأساليب وبراهين وحجج تدل على الصدق والاخلاص فى الرغبة فى القضاء على هذا اللون الأدبى الذى غمر الشعر العربى فى تياره وحال بينه وبين الانطـلاق فى أجواء فنية أروع وأعظم من شعر المديح ٠

ومن ثم فلقد أعلنوها حربا شعواء على شعر المناسبات ، وعلى الشعراء التقليديين وأثاروا معارك فيها كثير من العنف ، وكثير من القسوة ولكنها لم تسفر عن نتيجة واضحة لأن هؤلاء المهاجمين قد انتقلوا دون أن يشعروا الى صفوف خصومهم ، ووقعوا فيما أرادوا أن يمنعوا غيرهم من الوقوع فيه !

ومن العجيب أنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يسألوا أنفسهم أين يقفون من الميدان ٠ ولا الى أى طريق يسيرون !

وانما اندفعوا وراء هـذه النظريات المســتحدثة ، والأفكار الرائعة والرغبة المخلصة فى الخروج بالأدب العـربى من عزلته ، وانفراديته الى أجواء فسيحة من الحرية والانطلاق ٠

ان أدبنا كان يجب منذ عام ١٨٨٢ أن يكون شعبيا ثوريا يكافح بالفكرة والكلمة هؤلاء المستعمرين، والمستبدين، وكان يجب أن يكون على الدوام مع الشعب يقف الى صف الفلاح الذى يحمل الفأس ، والحوذى الذى يسوق فرسيه ، والصانع الذى يصــوغ الأساس ، والطالب الذى يعجز عن أداء المصروفات ، والموظف الذى يعمل طول النهار لقاء جنيهات لا تكفى طعام أولاده ٠

هذا صحيح ، ولكنهم نسوا روح هذه الفترة التى شنوا فيها هذا الهجوم لقد كانت روحا فـردية بحتة ، فالمليـك فـرد يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، والوزراء وكبار الحزبيين أفراد يتمتعون فى وزاراتهم وفى مقاطعاتهم بروح فردية شبه مطلقة أيضا ، والصحافة حزبية وفردية تعيش على الاستجداء والنفاق ومعونات الحزبيين وكل شىء يدل على الفرد الحاكم صاحب الصولة والدولة والجاه ٠٠

ومن هنا كان الكلام عن الشعب ، وروح الشعب ، وعن الحياة الديمقراطية السليمة كلاما لا يمثل الواقع تمام التمثيل ٠

والا لقضى على شعر المديح ، دون هذه الضـجة المفتعلة التى أثارها كثير من النقاد لأن الفن بعامة والشعر بخاصة يذبل حينما لا يجد القارىء الذى يستمتع به ، ويضعه فى موضعه اللائق من التكريم ٠٠

ولكن القارىء (والمستهلك) فى هذه الفترة كان على استعداد لقبول شعر المديح ٠ والأدب ينمو حيث يجد غذاءه من المستمعين ٠
ولعل هذا هو ما جعل كثيرا من النقاد يتناقض مع نفسه ،

فبينما نرى هذا الهجوم المنظم على شعر المناسبات بعامة ، وشعر المديح بخاصة نجد كثيرا من هؤلاء النقاد يقعون فى جاذبية فن المديح فينسون ما قالوه ، ويدرون فى فلكه دورات قد تقل وقد تكثر ولكنها تدل على شيء من التناقض بين النظريات والتطبيق العلمى ٠

ومن المهم أن نعرض لموقف بعض النقاد ، ولشيء من هذا التناقض الذى أوقعهم فيه من غير شك اخلاصهم ، ثم اندفاعهم دون أن يشعروا مع التيار العام للفترة الزمنية التى نتحدث عنها من جهة أخرى ٠

ففى مطلع هذا القرن نجد للزعيم الوطنى محمد فريد فى مقدمة ديوان وطنيتى لعلى الغاياتى لفتة طريفة يحمل فيها على شعر المديح الذى يدبجه الشعراء فى أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، ويدعوهم الى استخدام مواهبهم فى خدمة الأمة وتربيتها بدل أن يستخدموها فى خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء فالحكام زائلون ، والأمة باقية ٠

وهذه اللفتة تدل على وعى ونضج وفهم لمقتضيات العصر الحديث وهى من غير شك قد عفت على ما كتبه محمد فريد نفسه فى عام ١٨٩١ بعنوان « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية ٠

كما عفت على ما كتبه مصطفى كامل على صفحات اللواء فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وهو يدعو الى الاحتفال بالعيد المئينى ويقول : خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات الى النور ، وخروجها من الجهالة الى العلم والحضارة ، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة مالكة اجلستها على العرش بارادتها وصافحتها للنهوض الى ذرى العلياء ونوال المنن ٠

وقريبا من هذا التاريخ نرى الشاعر احمد شوقى يهاجم فى مقدمة ديوانه القديم المتنبى لأنه اتجه بشعره الى المديح فاضاع على العربية هذه الموهبة العالية واوقف ثلث شعره تقريبا على الحمدانيين وكافور ، وعضد الدولة ، وغيرهم • هذا بينما كان شوقى نفسه منغمسا فى مديح الخليفة بالاستانة ، والأمير ، وما بالقليل ذا اللقب ••

والمازنى هاجم شعر المديح بأسلوبه الساخر فى حصاد الهشيم فقال : وليس بعجيب أن يبسط الخلفاء أكفهم للشعراء بالنوال والمبرات فان ذلك أطلق لالسنتهم بالمديح ، واكف لها عن القدح والطعن ، وأصون للملك واحفظ له من الضياع • هذه حقيقة الحال وواقع الأمر ، وليس فى ذلك ما يدل على أكثر من أن الشعراء كانوا بمنزلة الخيول والسيوف والدروع أو ما يتفكه به على الشراب من من النقل ، وما تزين به مجالس اللهو من الريحان والورود ، أو لم يقل ابن رشيق فى كتاب العمدة « ان العرب كانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج بلى ؟ • لقد قالها والله ، وكفى بذلك هوانا •

والعقاد كان متناقضا مع نفسه فى أضيق الحدود فهو لم يرفض شعر المديح رفضا باتا وانما جعله يتجه الى الممدوح الذى يمثل امته ، ويقوم على أمرها ، وينتزع مع ذلك اعجاب الشعراء ، يقول فى مقدمة ديوانه « بعد الأعاصير » •• وسمعوا كذلك أن المديح تقليد لشعر الصنعة الذى ننعاه على الأقدمين فخيل اليهم أن المديح كله باب قديم لا يطرقه الشعراء المعاصرون •• وهذا جميعه ضلال على معنى النقد فى الأدب الحديث فالشاعر العصرى يعاب على مديحه أن كان يثنى على الممدوح بما ليس فيه ، وبما يعلم انه ليس فيه ، مستجديا رفده ، مغالطا نفسه وقومه ، ولكنه اذا أحس

الاعجاب برجل عظيم فصدق فى الاعراب عن احساسه بعظمته فهو أحد المجددين •

ثم يركز هجومه فيصبه على هذه النواحى :

(أ) ـ سذاجة شعر المديح •

(ب) ـ سطحيته واتجاهه الى الصنعة •

(جـ) ـ مبالغاته وتكلفه •

واذا صح هذا التفريق الذى يقول به العقاد فاننا لا نرى عندئذ أى فارق بين هذا القول وبين ماقاله على الجارم :

قد حسبنا المديح عن كل مستا   م وأجدر بشعرنا أن يصانا
لو مدحنا من لا يحق له المد   ح لوى الشعر رأسه فهجانا
الرسول الكريم انطق حسا   نا ولولاه لم يكن حسانا
وابن حمدان علم المتنبى   غرر المدح فى بنى حمدانا
يصدق الشعر حينما يصدق النا   س فيشدو بمدحهم نشوانا
واذا عزت المكارم ولى   مطرق الرأس واجما خزيانا
ومضى يشتكى الزمان ويبكى   دارسات الطلول والاظعانا
فاذا شئت أن أكون زهيرا   فاعنى وهات لى ابن سنانا

ولا يبعد كثيرا عن العقاد فى هجومه مصطفى صادق الرافعى، فالمدح كما يقول : اذا لم يكن بابا من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ، وتراه مدحا حين يتلى على سامعه ، ولكنه ذم حين يعرى الى قائله ، وما ابتليت لغة من اللغات بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية •

أما طه حسين فلقد هاجم فن المديح من الناحية الاخلاقية ، وعلل لابتعاد أبى العلاء عن التكسب بالشعر بشىء خطر له وهو بشاعة الكذب وقبح أثره فى نفس الكاذب ، ونفس المكذوب عليه •

وفى الحقيقة لم يرفض المدح رفضا باتا غير شعراء المهجر الشمالى فلقد حمل « ميخائيل نعيمة » فى غرباله » على أغراض الشعر التقليدية وبخاصة تسخيره للمناسبات كمدح « بطريارك ، أو مطران ، أو باشا أو قائمقام أو شيخ، ولتهنئة صديق بغلام ، أوبيك بوسام ، ولتقريظ كتب « نعيم البطون » و « وسلوى الهموم» ولرثاء كل من يزور التراب •

ولقد تورط كثير من الشعراء فى هذا المديح ، افتح معى أى ديوان من دواوين شعراء هذه الفترة فانك واجد كثيرا من المدائح التى زين بها هذا الديوان ـ أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ،وخليل مطران ، وأحمد زكى أبو شادى ، وعبد الحليم المصرى ، ومحمود حسن اسماعيل ، ومحمد الأسمر ، وعلى الجندى ، ومحمد عبدالغنى حسن ، وعزيز أباظة ، وعلى محمود طه •

كما كان لتحريف التاريخ المصرى على يد المؤرخين الاجانب من أمثال « هانوتو » و « دوان » و « كرابيتس » و « ساماركو » و « شارل رو » وغيرهم أثر كبير •

٢ ـ مسألة التكسب بالفن :

وقبل أن نغادر هذا المكان يحسن بنا أن نناقش مسألة التكسب بالفن وأثرها فى الأدب العربى ، ومن الأفضل أن نعرض رأينا فى ظل الحقائق الآتية :

(أ) لقد كان الادب فى الماضى يعيش فى ظلال الخلفاء والملوك والأمراء فى الشرق العربى ، وفى الاندلس ، وفى أوربا أيضا ، ولن نستطيع أن نغفل بلاط عبد الملك ، وهرون الرشيد ، والمأمون ، كما لن نستطيع أن نمر عابرين على ندوة الحمدانى فى حلب ،ومجلس

ابن العميد ، وابن عباد ، أو نغفل قصر « لويس الرابع عشر » في فرنسا وأثره في ازدهار الادب الفرنسي الكلاسيكي ٠

(ب) استطاع شعراء البلاط بعامة ، وشعراء المديح منهم بخاصة أن يبدعوا روائع في الأدب العربي ، وان المرء ليقف مشدوها أمام رائعة أبي تمام في فتح عمورية تلك التي بدأها فتحدث عن السيف وأثره ووازن بينه وبين الكتب وأقوال المنجمين ، ووصف الفتح فخلده ، وفي النهاية يجمل مديحه في بيت شعري يعتبر وحده قصيدة مدح رائعة لأنه جاء نتيجة طبيعية لهذا الفتح العظيم فهو يدل على عظم الممدوح ٠ يقول أبو تمام : تدبير معتصم ، لله منتقم ٠٠

كما يقف عاجزا أمام مدائح المتنبي بتخليده لسيف الدولة الحمداني « الحق أن المال كان باعثه ، ولكن الفن كان غايته ٠٠٠ ماذا يعنينا أن يكون حافزه استجداء مال ، أو مدح ذي سلطان ، أو خدمة مجتمع أو تملق شعب ؟ المهم أن يكون هناك فن قبل كل شيء ٠

(ج) لقد تكسب كثير من الفنانين في الشرق والغرب باسم الفن ، وعلى رأس هؤلاء الموسيقى الالماني العظيم « فولفانج اماديوس موتسارت » الذي صحبه أبوه في رحلة عرضه فيها على أكثر قصور الملوك والأمراء الألمان وانتهى الى « فيينا » والى قصر « شون برن » ليعزف الطفل العجيب أمام الاسرة المالكة ٠

ولم يكد يعود الابن الى « سالزبورج » حتى هب من جديد ليبدأ رحلة يطوف خلالها قصور أوروبا ، رحلة من تلك الرحلات التي أطلق عليها كبير أساقفة « سالزبورج » رحلات التسول باسم « الفن » ولو أن موتسارت كان شاعرا ينظم على هواه ، وينشر على الناس ما يريد لكان اخفاقه المادي حتما مقدورا ، ولكنه كان موسيقيا

يتسابق الملوك والأمراء على الحانه التى يطلبون تأليفها فى المناسبات العديدة من زفاف أميرة ، أو تتويج ملك ، أو حلول عيد دينى ، أو اقامة مهرجان سنوى ، ولم تكن تمر مناسبة من هذه المناسبات الا وكان « لموتسارت » مكان فيها ، ومع ذلك كان يعيش فى شظف . ويعمل دون كلل أو ملال .

ولقد كان «بيتهوفن» يعيش فى ظلال «البرنس لخنفسكى» وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا ، ولقد خلق «السانفونية» التاسعة من أجل خمسين جنيها « بناء على طلب « دار من دور النشر الموسيقى وها هو ذا « شكسبير » كان يحشر أحيانا فى بعض مسرحياته الفكاهية ما يعجب جماهير الملاعب ، ويربح ما يقيم أوده ويكفل معاشه ، فلا الانتاج من أجل المال ، ولا العمل على ارضاء الجماهير منع الفنان الحق من أن يخرج فى الفن روائع ، لأن العبقرية اذا تفجرت فانها تستمد وحيها من السماء ومن الارض ، من الروح ومن المال ، ومن السحب ومن الوحل ، كل شىء لها منبع وحى ومصدر غذاء .

(د) هناك فرق بين الفن الاصيل الذى ينبع من أعماق الفنان وقد يكون مبعثه المال وبين فن التملق .

صحيح أن الفنان لن يأمل فى الحصول على مثل الجراية اليسيرة التى وهبتها يد ملكية « لكورنى » ثم منعتها عنه ، ولا فى الحصول على صدقه « المائة قرش » التى منحتها « ساستيان » لكامونس ، ولكنه فى مقابل ذلك لن يضطر قط الى أن يحترف مهنة التملق ، وهى مهنة لا تتطلب من الوقت أقل مما تتطلبه كثير من المهن الأخرى ، فضلا عن أنها تسىء الى الكرامة .

٣ ـ رأى الجارم في المدح :

من الغريب أن الجارم قد أخلص لنظريته في المديح ، فلم يمدح غير الملك وقليل من أصدقائه وخلانه كعلى ابراهيم ، وعلى توفيق شوشة الطبيبين والأستاذ الامام محمد عبده مع أن المدائح كانت تطلب منه ، طلب منه أن يمدح بعض وزراء المعارف فأبى ، لأنه كان يخاف هجاء شعره له ! ولقد مدح مصطفى النحاس بقصيدة سنة ١٩٣٦ ثم انحرف النحاس في نظره فأرسل الى عامل المطبعة فحذف القصيدة من الديوان •

وحينما ظهر فاروق على حقيقته ، شابا طائشا ، يطلق الملكة المحبوبة ويستبد بالشعب ، ويتحرك بأمر الاستعمار ، ضعف انفعال الجارم وأحجم كثيرا عن مدحه ، أما هذه القصائد القليلة التى قالها بعد سنة ١٩٤٠ في الأعياد الملكية فيظهر عليها أثر التكلف والبرود •

بل لقد ثار على هذا الملك في أخريات أيامه كما حدثنا ابنه بدر الدين ، غير أن خوفه من السياسة ، قد ألجم لسانه فلم يعبر عما يعتقد ، وان كانت سلبيته قد اتخذت صورة ايجابية حينما امتنع عن مدح الملكين فاروق وعبد العزيز آل سعود على الرغم من اغراء السعودى بهدايا العباءة والعقال •

أما قصيدته في الذكرى المئوية لابراهيم باشا سنة ١٩٤٨ والتى مطلعها

طموح ، والا ما قراع الكتائب وعزم ، والا فيم حث الركائب

فليست الا من وحى العاطفة الصادقة ، والايمان المخلص ببطولة ابراهيم !!

هذا ولست أدرى هل أحمد للجارم موقفه ذاك ، أم أن نزعة المديح عنده كانت كفيلة بأن تمحو كثيرا من حسناته ؟ !

أما مسوغات المديح عند الجارم فهى تنحصر فيما يأتى :

(أ) يقول الجارم : انه يمدح لأنه يدعو الى كريم صفات الممدوح ، فهو مولع بالمجد وبأهليه ، وبالباقيات من ذكرياته.
(ب) ويقول أيضا : انه يمدح ليدعو الممدوح الى أن يترسم خطى السابقين ويسير على منوالهم فى الاصلاح .

(ج) ويمدح الجارم لكى يشيد بمجد مصر ، ويرسم للشباب النهج الذى يسيرون عليه . يقول فى مدح على توفيق شوشة « باشا » وكيل وزارة الصحة اعترافا بفضله فى استئصال وباء « الكوليرا » من مصر سنة ١٩٤٧

مدحتك كى أشيد بمجد مصر　　وأرسم للشباب النهج قصدا

بل لعله قد يبحث عن الممدوح ، ويبالغ فى البحث عنه اذا نزلت بقومه نازلة . يبحث عن بطل يكشف عن قومه ما حل بهم ، ويأسى ويأسف اذا لم يجده ، فشعره قد ظمىء الى الثناء والحمد ، يقول وقد تفشى مرض الفيل برشيد سنة ١٩٤١ .

يالعارى ، فليت لى بين قومى　　بطلا يكشف الشدائد جلدا
ظمىء الشعر للثناء فهل آ　　ن له أن يفيض شكرا وحمدا

(د) ويمدح العروبة ، يقول فى ابراهيم بطل الشرق :

عرفنا لحامى القبلتين جهاده　　وكم هان مطلوب لعزة طالب
له العرب ألقت فى اباء زمامها　　وكانت سرابا لا ينال لشارب
فوحدها فى دولة عربية ..　　تزاحم في ركب العلا بالمناكب
يقولون:قف بالجيش ماذاتريده　　وماذاترجى من وراءالسباسب؟

فقال: الى أن تنتهى الضاد أنتهى   وحيث تسير العرب نجائبى

٤ ـ علاقة الجارم بالأسرة المالكة :

وقبل أن تبلور هذه العلاقة يجب أن نشير الى حقيقتين هامتين الأولى : أن الأمراء والأميرات من بيت محمد على قلما كانوا يتعلمون اللغة العربية ويدرسـونها ،بل قليـلا ما كانوا يتخاطبون بها ، وكانت التركية هى لغة التخاطب والتفاهم فى بيوتهم ، وقد عنوا بدراسة اللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية ، والأدلة على ذلك كثيرة ٠

الحقيقة الثانية : أن القصر كان يلعب دورا خطيرا فى توجيه أحداث العصر ، وأنه كان يصطنع لذلك كثيرا من الصحفيين والأدباء والشعراء ٠

فلقد اتخذ الملك فؤاد مصطفى صادق الرافعى شاعرا رسميا له ، ولما غضب الرافعى من معاملة رئيس الديوان زكى الابراشى اتخذ القصر الشيخ عبد الله عفيفى شاعرا رسميا له ، لقد كان القصر فى عهد فؤاد يحرص على ذلك تقليدا لعباس وشوقى ٠

ومن هنا نستطيع أن نفسر مدى ما فى هذه العلاقة المتبادلة بين الشعراء والقصر من صدق واخلاص ٠

فلجنة الاحتفالات بعيد الجلوس الخديوى فى سنة ١٩٠٢ ٠ التى اقترحت أن يتبارى الشـعراء فى نظم قصائد التهنئة بهـذه المناسبة تشبه الى حد كبير لجنة أعياد الزفاف سـنة ١٩٣٨ التى تكونت من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشـعر والنثر برئاسة محمد العشماوى (بك) وكيل وزارة المعارف ٠

وكلتا اللجنتين اما مخدوعة فى القصر أو مخادعة له تبغى من وراء هذه الصلة غنما وفيرا ·

والجارم أحد أعضاء اللجنة الأخيرة ، ولعله كان مخادعا للقصر حتى يظفر بأمنيته !! وما أمنية الشاعر ؟ انها على ما أعتقد مكانة اجتماعية مرموقة عن طريق المدح ، ولقب كبير من هذه الألقاب التى يعتز بها الناس ويرهبونها !!

وعن طريق القصر ظفر شوقى أمير الشعراء بما يريد ، فلم لا يحاول الجارم ؟

لقد كان للرتب والنياشـين موزعون معروفون يبيعونهـا بأسعارها من رتبة الميرميران الرفيعة بألف جنيه الى رتبة البكوية من الدرجة الثانية بثلثمائة أو أربعمائة جنيه ·

وأنى للجارم أن يظفر بالمال الذى يدفعه مقابل هذا اللقب !! استمع اليه وهو يقول فى عيد جلوس فؤاد :

شعرى استبق فى الحاشدين مبـادرا
لا يدرك الآمـال من يتأخـر

ثم وهو يقول لفاروق حينما مر على رشيد :

أغدق عليها سحابا ···
وهو طلب مكشوف

ثم وهو يقول فى زواج فوزية :

أميرة النيل غنى النيل من طرب | لولا قرانك ما غنى ولا فاها
انى وألحان شعرى صنع بيتكم | فكم من الفضل أولانى وأولاها
لولا مدائحكم ما كان لى قلم | يوما على الأيك وابن الأيك تياها

وحينما يقول لفاروق :

أبــوك راش جنـــاحى حتى بلغــت الســـحابـا
وكان يصــغى لشــعرى وكان شـــعرى عجابـــا

وبأى شيء راش أبوه جناحه ؟ لقد راشه بوسام (نيشان) النيل من الدرجة الخامسة ، ولكن الشاعر الطموح لن يقنع بهذا الوسام المتواضع ، اذن فليطلب وليلح فى الطلب ، وليقل لفاروق :

أنا فى فيـض له متصـــل أنعـم تمضى فألقى أنعمـــا
ليس بدعا أن زهى شعرى به يزدهى الروض اذا الغيث،همى

وكأنه يقول زدنى عطاءك أزدك شعرا .

وعلى يد هذا المليك ظفر بأمنيته

نالأسمى الألقاب والفضلفضل كيفما قـد رفعت من درجاتـه
ورضـاء المليـك أنفس ما يد عو ، ويرجوه قانت فى صلاته

وفى البيت الأخير ما يدل على تفانى الشـاعر فى تقربه من القصر ، واخلاصه له . ثم يزداد انفعاله فلا يترك مناسبة ملكية تمر دون أن يقول فيها شعرا يظهر به فروض الولاء ، عيد الميلاد ، وعيد الجلوس ، وعيد الأميرة ، وزواج الامبراطورة ، ووفاة الملك ، وصلاة الملك فى عيد الفطر الى آخره :

غمرتنـا نعماك فى كل حــال فحمدنا نعماك فى كل حال ..
أيها الراكبــون فى طلب الغيـ ـث سراعا والغيث ملء الرحال
لا تريمـوا مكانكم لا تريمـوا ساحة الملك مورد الســؤال

٥ ـ علاقته بغير الأسرة المالكة من الممدوحين :

وللجارم مدائح فى غير الأسرة العلوية بمصر ، لقد مدح الملك غازى فى العراق ورثاه ، وكان الدافع الى المدح الاعجاب ووسام « الرافدين » كما مدح الملك عبد الله أثناء زياراته المتعددة لعمان ٠ أما علاقاته بغير الملوك فكانت شخصية مبعثها الحب والاحترام ٠ مدح استاذه الامام بقصيدة تقليدية جامدة ، كما مدح الأستاذ « أحمد لطفى السيد » عندما انتخب رئيسا لمجمع فؤاد الأول للغة العربية سنة ١٩٤٥ واستطاع أن يفرض مدحه بسبعة أبيات :

وقالوا: غدا لطفى رئيسا فحيه　　　وهنئه واهتف باسمه فى المحافل

فقلت : وهل يرضى لى الشعر انه
اذا صغت مدحا قيل تحصيل حاصل

ومدح أيضا أمير الشعراء فى حفل تكريمه ، والدكتور على توفيق شوشة وكيل وزارة الصحة فى أكثر من قصيدة ٠

أما مدحه للدكتور على ابراهيم فلقد كان فوق صداقته وليد تجربة واقعية ٠ مرضت اخت زوجة الشاعر ٠ وشكت الما فى جنبها أعجز الأطباء معرفته حتى كاد أن يقضى عليها ، ثم فكر الشاعر أخيرا فى الدكتور على ابراهيم جراح المستشفى الاسرائيلى بغمرة ٠ ولما ذهب اليه جس موضع الداء ، وعرف انه « خراج » داخلى قد فتح وبدأ ينز ويسمم الدم ، وكان انقاذها على يده ٠٠

وها هو ذا يصور تجربته فى أبياته الرائعة فيقول :

سموت اليه والظلام يلفنى　　　فيملؤنى رعبا واملؤه هما

أسير وفى قلبى من الحزن لوعة　　　تكاد تذيب الصم لومست الصما

تركت ببيتى جثة آدمية　　　كأن هلال الشك بات لها جسما

شكت جسمهاحتى بكاهاوسادها   وكادعليهايشتكى السهدوالصما
يمزقهـا الموت العنيف صراعـه   بأظفاره حمرا ، وانيابه سـمـا
ففى البطن قرح لا يجف لهيبه   وفى الرأس نار لا تبوخ من الحمى
اذا قلبتها العائدات حسـبنها   خيالا فلا عظما يرين ولا لحما
وقد وقف الطب الحديث حيالها   عييا يكـاد العجز يقتله غمـا
وغادرها جمع الاسـاة كأنهم   طيور رمى الرامى بدوحتهاسهما
فلم يبق الااليأس واليأس قاتل   وأقتل منه نية لم تجد عزما
فقلت على ليس للأمـر غيره   اذا ماأدار الدهر صفحته جهما
أبو الحسن الجراح فخر بلاده   واكرم من يرجى وأسرف من يسمى
فزر داره يلقاك قبل ندائـه   فثم الذى ترجـوه من أمل ثما
فما سرت نحو الباب حتى رأيته   تقدم بسـام الاسـارير مهتما
وقـد فهمتنى عينـه وفهمتـه   وكان بحمد الله أسرعنا فهما
وجاءو جبريـل الأمين أمامـه   يمد جناحا من حنان ومن رحمى
وجس مكان الداء أول نظـرة   كأن له علما بموضـعه قدمـا
فما هو الا مبضـع فى يمينه   أطاح بناب الموت واستأصل السما
ورد الى أهلى حيـاة عزيزة   وبدلهم من بؤس أيامهم نعمى
متى ذكروه فى خشوع تذكروا   مآثره الجلى ونائله الجمـا
اذا ما أمرؤ اهدى الحياة لميت   فذلك قد أهدى الوجود وماضما

(العروبة) :

١ ـ الفكرة العربية ، تطورها ، ودعاتها ، وموقف مصر منها.

من طبيعة الصراع في المنطقة العربية برزت فكرة العروبة ، وتبلورت وأصبحت مبدأ وعقيدة .

برزت مبكرة فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى على يد أديب اسحاق ثم الكواكبى فى كتابه أم القرى ١٩٠٥ وعلى يد كثير من شعراء الشام المقيمين والمهاجرين وكثير من شـعراء العراق من أمثال فتح الله مراش ، ورزق الله حسون ، وابراهيم اليازجي والزهاوى ، والرصـافى ، والكاظمى ، ونجيب حداد وغيرهم كرد فعل لتعصب الأتراك واستبدادهم وسيطرتهم باسم الخلافة الاسلامية .

ومن أوائل الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة كتاب (يقظة الأمة العربية فى آسيا) لنجيب عازورى ، وهو عربى نصرانى ظهر نشـاطه بباريس فى الأعوام الأخيرة للعهد الحميدى ، لقد دعا فى كتابه الى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين .. أما مصر فقد كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ وكان عازورى يدرك تماما أن الانجليز لن يسمحوا لمصر أن تفلت من أيديهم الى شقيقاتها العربيات .

وفى سنة ١٩٠٤ شكل فى باريس جمعية عرفت باسـم (رابطة الوطن العربى) وفى سنة ١٩٠٧ أصدر بالفرنسية مجلة شهرية اسمها (الاستقلال العربى) توقفت عندما نشر الدسـتور العثمانى سنة ١٩٠٨ .

ولقد حاولت الفكرة العربية أن تأخذ طابعا عمليا فى وقت

مبكر حينما تألفت الجمعيات السرية من أحرار الشام والعراق من أمثال « العربيه الفتاة » و « العهد » و « الاصلاح » وما ثورة الشريف حسين سلطان مكة على الأتراك فى العقد الثانى من هـذا القرن الا ترجمة عملية لما كان يجيش بصدور دعاة العروبة من آمال ٠

ولقد أدرك الانجليز ذلك فوعدوا العرب بالخير حتى انتهت الحرب العالمية الأولى ٠

وبانتهاء الحرب تصاب آمال العرب بنكسة مروعة ، فلقد قسمت البلاد العربية بين الحلفاء المنتصرين ، وصدر وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ ، وتحول الصراع من أجل الوحدة الى صراع من أجل الاستقلال ، بل لقد تعرض العرب لحرب نفسية قاسية تهدف الى القضاء على كل أمل للوحدة ، فهذه فرنسا تتقدم الدول الأجنبية التى تزعم أن السوريين ليسوا بعرب ، وان كانت لغتهم عربية ، وأن اللبنانيين فينيقيون وأن المصريين فراعنه ٠

غير أن هذه المحاولة قد باءت بالفشـــل ، لأن آمال الوحدة كانت تجيش بصدور العرب فى كل مكان ٠

وليس من هدفنا هنا أن نتتبع تطور الفكرة العربية فى كل البلاد العربية فذلك أمر يطول ويخرج بنا عما نرمى اليه ٠

وان كنا قد آثرنا أن نعطى تطور الفكرة فى مصر شيئا من الأهمية حتى نستطيع أن نساير نمو الدراسة ٠

لقد مرت الفكرة العربية فى مصر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : وتبدأ من أواخر القرن الماضى ، وتســتمر حتى أوائل الثلاثينيات من القرن الحاضر ، وتتميز على غيرها من

المراحل بكثير من الدعاوى المغرضة التى تهـدف الى القضـاء على الفكرة العربية وهى لا تزال فى مهدها بشتى الوسائل ٠

فهناك طائفة ترمى الى ربط السـياسة المصرية بالسياسة العثمانية المتهاوية بدعوى الجامعة الاسـلامية والاستقلال المصرى تحت ظل الراية العثمانية ٠

وهناك طائفة أخرى تنادى بالاقليمية الضيقة وتعلن على الملأ بأن مصر للمصريين ٠

وثالثة تحاول جاهدة أن تربط مصر الحديثة بمصر الفرعونية، وتتخطى بذلك ثلاثة عشر قرنا لتقول : ان بعض العادات والتقاليد وبعض الألفاظ والألعاب ترجع بدورها الى ذلك الزمن السحيق ٠

ورابعة ترى أن مصر الحديثة أقرب الى اليونانية منها الى الاسلامية ٠

والاستعمار مع كل ذلك يغذى كل نزعة اقليمية ، ويستغل أصحابها ، اما بقصد أو بغير قصـد ، ليعمق جذور الانفصال ، وليقضى على فكرة الوحدة العربية التى كانت حتى ذلك الوقت مجرد أمانى وأحلام تراود قليلا من المفكرين ٠

ولقد بلغت الجرأة بالمستعمرين أن نظموا حملة دعاية واسعة تهدف الى القضاء على العربية الفصحى ، واستبدال بالعامية المحلية بها برئاسة المهندس الانجليزى « وليم ولكوكس » والقاضى « مستر ويلمور » و « مسترمان » و « اسكندر معلوف » السورى ٠

غير أنه والحق يقال : ان كثيرا من العلماء والزعماء الوطنيين وقد وقفوا بجانب اللغة العربية ودعوا الى احيائها ، والاهتمام بها من أمثال الشيخ ابراهيم اليازجى ، وأحمد فتحى زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ٠

وتنتهى هذه المرحلة بظهور رجال «جمعية الاتحاد والترقى» على مسرح الأحداث ، فبظهور هذه الجمعية تتوارى شيئا فشيئا فكرة الجامعة الاسلامية لتحل محلها فكرة العصبية التركية ، كما تنتهى أيضا بانتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وتمزيق أوصال الوطن العربى الى مناطق مستعمرات ونفوذ .

المرحلة الثانية : مرحلة ما بين الحربين :

وبعد الحرب العالمية الأولى تتوحد المأساة فالاستعمار الانجليزى فى مصر يمتد الى العراق : وفلسطين والأردن ،والاستعمار الفرنسى فى الجزائر يتسلح فيستولى على سورية ولبنان .

وهنا يتحد الشعور ويتحد الهدف ، فاذا ما قامت فى مصر ثورة ١٩١٩ فان صداها يمتد الى كل بلاد العروبة تقريبا ، فهذه موقعة ميسلون فى سنة ١٩٢٠ ، وهذه ثورة العلماء والعشائر فى بغداد والفرات فى نفس العام .

أما فى فلسطين فان الثورات تلتهب فى سنة ١٩٢٠ وما بعدها ودلالة هذه الثورات على وحدة الشعور واضحة .

المرحلة الثالثة : اعلان ميثاق جامعة الدول العربية .

ويبدو أن السياسة البريطانية لم تكن تمانع فى انشاء جامعة الدول العربية لتستطيع عن طريقها توجيه العالم العربى الى حيث تريد .

ففى ٢٩ مارس (أيار) من سنة ١٩٤١ أدلى مستر ايدن وزير خارجية بريطانيا بتصريح بشأن الوحدة العربية ، وفى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٣ أدلى بتصريح آخر .

ثم رأى رئيس الحكومة المصرية (مصطفى النحاس) ان الوقت

قد حان لتقف حكومة مصر الى جانب الوحدة العربية ، وتعمل على تحقيقها ، وأعلن ذلك في بيانه الشهير بمجلس الشيوخ في ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ، وعلى أثر ذلك جرت مشاورات بينه وبين كل واحد من رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة على انفراد ، ثم اجتمعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام في مدينة الاسكندرية المكونة من وفود الدول العربية ثماني جلسات من ٢٥ سبتمبر الى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ وانتهت الاجتماعات بتوقيع (برتوكول الاسكندرية) وصدر قرار بتأليف لجنة فرعية لاعداد مشروع ميثاق جامعة الدول العربية ، وعرض المشروع على اللجنة التحضيرية في ١٧ ، ١٩ من مارس سنة ١٩٤٥ ، وأخيرا اجتمعت وفود الدول العربية على شكل مؤتمر عربي عام في قصر الزعفران في ٢٣ مارس سنة ١٩٤٥ ووقعت على الميثاق وبذلك أصبحت (جامعة الدول العربية) حقيقة واقعة ·

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أطوار القومية العربية في ظل جامعة الدول العربية ، أو واكبنا وثبتها المباركة في ظل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والرئيس جمال عبد الناصر ·

وحسبنا هنا ما يلقى أضواء على موقف الجارم ·

٢ ـ موقف الجارم من الدعوة الى العروبة :

والجارم ثمرة ناضجة من ثمرات هـذا الصراع ، فلقد أسهم بدوره كمصري في ابراز المفهوم العربي في شعره ، بل وفي تثبيته وتقويته منذ أن شب وبدأ يدرك ·

فهو لم يمدح الخليفة في الآستانة يوم أن كان مدح الخليفة مذهبا وعقيدة !!

وهو لم يدع الى اقليمية محلية محدودة يوم أن كانت مثل هذه الدعوات تعتبر تقدما وتجديدا ·

وانما اتجه الى العروبة وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة حينما أدرك وهو طالب فى الأزهر الدور الذى يجب القيام به للفصحى فقال :

ستندبنى الفصحى اذا مت قبلها
ومات الذى فى الناس ليس له ند

وعندى أن هذه الخاطرة العفوية التى قالها فى سياق قصيدة تقليدية فى الفخر دليل على اتجاه قوى الشاعر الروحية الى العروبة والعربية من زمن مبكر ·

وليس هذا الاتجاه غريبا على شاعر كان يؤمن عن عقيدة أن نسبه ينتهى الى قريش ، فأهل رشيد من قريش نزحوا اليها بعد فتح العرب بقليل ، والعرب أجداد كانوا مثالا للانسانية والرحمة والعدل ·

ملكوا الأرض لم يسيئوا شعب ، ولم يحكموه حكم العبيد
هم جدودى وأين مثل جدودى ان تصدى مفاخر بالجدود

ومن هنا نراه يفتخر دائما بالانتساب اليهم ، ويتغنى كثيرا بأمجادهم وشمائلهم ·

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه سقى العهود الخوالى كل منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرها لأنها صلة القرآن والنسب

ثم يقول للرسول عليه السلام :

ولى نسب ينمى لبيتك صانني وصانته منى عزة واباء

ولقد نمى هذا الشعور فى نفسه عوامل متعددة من أهمها :

(أ) نشأته فى بيت علمى محافظ ، على يد والده الشيخ محمد صالح الجارم القاضى الشرعى ، ومن الطبيعى أن تكون الرعاية الأدبية هنا متأثرة بالثقافة العربية ، ومؤثرة فى خيال الشاعر الفنى .

(ب) اتجاهه الى الأزهر ودار العلوم ، وكلاهما معقل للفصحى والعروبة وفى دار العلوم يقول الجارم :

تخذت فيك بنت عدنان دارا ... ذكرتها بداوة الأعراب
عادها الحسن فى ذراك وروا ... ها على غلة نمير الشباب
وغدت فى عكاظ بين شيوخ ... فتنتهم بسحرها الخلاب

وفى أساتذة الدار يقول :

فتنوا بالعذيب والسفح والجز ... ع ، ووادى العقيق والصمان

ولقد فتنوا الشاعر معهم بهذه الاماكن فكثيرا ما كانت تحلق روحه هناك الى العهود الخوالى فى جزيرة العرب فيعيش فى صحرائها وبين خيامها !!

ولعلنا لا نعدو الصواب حينما نقول : ان الجارم كان مغتربا بروحه الى جزيرة العرب ، والاغتراب فى حد ذاته سمة كل فنان أصيل ، لا سيما اذا استطاع أن يثقل أساطير الماضى السحيق بمعانى الواقع الحى .

(جـ) شعوره بالتبعة فى كل ما يتصل بالعروبة والعربية :

ولقد لعبت الوظيفة دورها فى ذلك ، فارتباطه بتفتيش اللغة العربية ، ودار العلوم ، والمجمع اللغوى ، وانتدابه الى كثير من

المؤتمرات العربية جعلته يشعر بأنه مسئول عن العربية أولا ، وعن العروبة التى يقوم بين أقطارها بدور السفارة الادبية ثانيا ، ولعل صدى هذا الشعور هو الذى جعله يردد قوله :

لنا نسب فى المجد يجمع بيننا تعالت أواسيه وشدت أواصره

ألسنا حماة القول فى كل محفل تتيه بنا فى كل أرض منابره

(د) الصراع بين العروبة كفكرة ، وبين أعدائها من دعاة الاقليمية ومن المستعمرين ، وانفعال الشاعر بهذا الصراع مع كثرة الأحداث وكثرة الدعاة الى العروبة والعربية فى الشرق وفى المهجر ·

كل هذه العوامل استطاعت أن تنمى الاتجاه الفطرى فى نفس الشاعر وأن تحيطه بجو صالح ، وبيئة مهيأة ·

٣ ـ منهجه :

(أ) تثبيت دعائم الفصحى وفهم مقتضيات التطور اللغوى ·

(ب) تتبع أطوار التاريخ العربى بروح المؤرخ الفنان ·

(ج) التعاطف والمشاركة الروحية مع أبناء العروبة ·

(د) الدعوة الى الوحدة العربية وتوثيق الروابط ·

(هـ) الدعوة الى النهضة ·

(أ) تثبيت دعائم الفصحى ، وفهم مقتضيات التطور اللغوى

وهنا يضع الجارم الأساس الأول والمهم فى تثبيت الفكرة العربية وتعميقها ، فاللغة هى الرابطة الموحدة لشعوب المنطقة ، وهى أساس التاريخ المشترك ، والهدف المشترك ، بل هى فى الواقع عنوان الوحدة الصحيحة ·

ولقد بدأ من حيث يجب البدء ، فلقد فتح عينيه والعربية تكاد تلفظ أنفاسها على أيدى الجامدين من الادباء والشعراء ، ثم على أيدى المستعمرين الذين بلغت جرأتهم حدا جعلهم يعينون « المستر روب » مفتشا للغة العربية ، ويهاجمون هذه العربية بأنها لا تصلح لتعليم العلوم اذ تفتقر الى الاصطلاحات العلمية والفنية ؛ ثم يبعدونها عن المدارس كلغة أولى للتعليم ٠

لقد كانت العربية في مطلع هذا القرن لغة « ان لم تكن أجنبيه فهى قريبة من الاجنبيه ، لا يتكلمها الناس في البيوت ، ولا يتكلمها الناس في الشوارع ، ولا يتكلمها الناس في الانديه ، ولا يتكلمها الناس في المدارس ، ولا يتكلمونها في الأزهر نفسه أيضا ٠ ولعل الازهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعا لها ، وسيطرة عليها ٠ انما يتكلم الناس في هذه البيئات كلها لغة تقرب منها قليلا أو كثيرا ، ولكنها ليست اياها على كل حال ٠

وفتح الجارم عينيه والعربية على هذه الحال ، فهاله الأمر وانبرى يدافع عن لغة قومه ، ويرسم المنهاج الواضح لانقاذها ، يسانده في ذلك كثير من الشعراء والكتاب النابهين من أمثال حافظ وشوقى وعبد المطلب والمويلحى وغيرهم ٠ بل لقد شاهد بالفعل محاولات صادقة تسير فى نفس الطريق على يد الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمرحوم أحمد فتحى زغلول ، والشيخ محمد الخضرى ، وأساتذة دار العلوم ، وأعضاء المجمع اللغوى ٠

يقول الجارم لأساتذة الدار :

شيخة الدار أنتم خدم الفصـ ... حى وحراس ذلك البنيان

لبست جدة الصبا فى ذراكم ... وغدت من حلاه فى ريعان

. . . .

ذللوا شباب مستعصى الفصـ حى فان الرجاء فى الشـــبان
وانثروها قلائدا وعقـــودا تتحـــدى قلائد العقبـان

ثم هو فى الوقت نفسه يدرك عن فهم وعمق مقتضيات التطور اللغوى ، ومدى الاهمية الملقاة على عاتق المجمع ، والوسائل الصحيحة التى تهدف الى تطوير اللغة فى حدود امكانياتها الفنية ، فالعربيـه لم تضق فى يوم من الايام بمجاراة التطور فى الشرق والغرب ، بل لقد كانت رائدة التطور فى العصور الماضية ٠

يقول فى دور الانعقاد الثالث لمجمع فؤاد الاول للغة العربية سنة ١٩٣٤

الدهـــر يسرع والأيام معجلة ونحن لم ندر غير الوخدوالخبب
والمحدثات تسد الشمس كثرتها ولم تفز بخيال اسم ولا لقب
والترجمات تشن الحرب لاقحـة على الفصيح فيا للويل والحرب
نطير للفظ نستجديه من بلد ناء ، وأمثاله منا على كثب
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا لعينه بارق من عارض كـذب

ويقول فى المؤتمر الطبى بلبنان سنة ١٩٤٤ مطالبا بتعريب لغة الطب :

وانفوا عن الطب الرطانة انهـا نمش يعيث بوجهـــه الوضاح
كم فى حمى الفصحى وبين كنوزها من مشرفات بالبيان فصـــاح
ما أنكرت أم لسان جدودهـــا يوما وسارت فى طريق فـلاح

ثم يسهم بانتاجه العلمى فيؤلف النحو الواضح بأجزائه السبعة والبلاغة الواضحة ٠

٢ ـ تتبع أطوار التاريخ العربى بروح الفنان

وكانت وسيلته الى ذلك شيئين :

١ ـ بعث عصور العربية فى ثمانى روايات تاريخيه تتمثل فى « مرح الوليد ، والشاعر الطموح ، وخاتمة المطاف ، وفارس بنى حمدان ، وسيدة القصور ، وهاتف من الاندلس ، وشاعر ملك ، وغادة رشيد ثم فى ترجمته لكتاب « العرب فى اسبانيا اذ الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء ·

٢ ـ تتبع تاريخ العروبة والعربية من العصر الجاهلى الى العصر الحديث فى خمس قصائد طويلة اثنتان منها انشئتا من أجل المجمع اللغوى فى سنة ١٩٣٤ والثالثة من أجل دار العلوم ، أما الخامسة فبعنوان مصر ، وعلى الرغم من ان هذه الاخيرة قد أنشئت من أجل « مصر » على منوال قصائد شوقى التاريخية الا ان الجارم قد هرب سريعا الى العرب فى مصر واطنب فى ذكر عمرو ، ونهضة العرب وتقدمهم العلمى فى العصور المزدهرة ، ولم يظفر رمسيس العظيم من الشاعر الا بهذه الأبيات :

اين رمسيس والكماة حواليــــه مشاة فى الموكب المشـــهود
ملأ الارض والســـماء فهــذى بجنود وهـــذه ببنـــود
وجموع الكهان تهتف بالنصــر وتتلو النشـــيد اثر النشيد
وبنات الوادى يمسن اختيـــالا ويحيين بين دف وعـــود

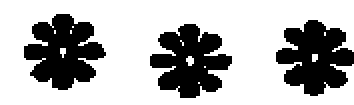
ثم يذكر عمرو بعد ذلك فى أكثر من ثلاثين بيتا :

اين عمرو فتى العروبة والاقدام أوفى مجاهد بالعقـــود ؟

ولعل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من اغتراب الجارم الروحى الى

شبه الجزيرة العربية وبخاصة حينما نراه يؤكد هذا المعنى فى كثير من شعره :

جمح الخيال فما اطمأن ولا استقر الى خلود
جاز القرون النائيات ، وفك أسرار العقود
ذكر العهود فأن للذكرى وحن الى العهود
واهتاجه الطيف البعيد فجن للطيف البعيد
وصبا الى ظل العروبة فى حمى الملك العتيد



وبهذه الروح العربية المفتونة بماضى العرب أنشأ قصائده ، وبكل بساطة انتقل من عصره الى العصر الجاهلى ، والعصور المتتابعة ومن مصر الى جزيرة العرب ، انتقل بخياله وأسلوبه وصوره الى هناك ليفتننا بجوه الاسطورى ، وبقصه الساحر الجميل ويستمر فى عرض شريط تخيلاته باستعمال الافعال المضارعة مكان الأحداث الماضية أرى ، وأشهد ، ولست أسمع ، والمح ، وابصر ، واحضر ، ثم يدير شريط تخيلاته ٠

وأغمض العين حينا ثم افتحها على جلال بنور الحق مؤتشب
نور من الله هال القوم ساطعه وليس يحجب نور الله بالحجب

ويستمر الشاعر القاص فيحدثنا عن الاسلام ، وعن دوله ، ويقف بنا وقفة طويلة أمام بغداد ، بلد الرشيد ، وموطن الحب ، وراية الاسلام ، يقف فيحدثنا عن الشعر فى بغداد ويتساءل :

بغداد أين البحترى ؟ وأين أين ابن الوليد ؟
ومجالس الشعراء فى بيت ابن يحيى والرشيد

أين القيـان الضاحكـات يمسن في وشي البـرود ؟

. . . .

كما يحدثنا عن جيوش بغداد وانتصاراتها ، وجهود جباريها ، وعن هذه السفارات الاجنبية الآتية اليها :

الرسل تتلو الرسل من بيض ، صقالبة وسود
ساروا لقصر الخلد يمشي طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم يمشون في حلق الحديد
الجو يسطع بالظبا والأرض تزخر بالجنود
حتى اذا رجعوا بدا بجباههم أثر السجود

وكما يحدثنا عن النهضة فيصور مجالس العلماء ، وجدال الفلاسفة واختلاف الائمة ونهضة الترجمة ، وتعدد المؤلفات ، وهو في كل ذلك معجب مفتون .

فهذه هي الامة التي كانت تعيش في القفار ، وتأكل القد ، والدعاع من الجوع ، وتهفو لحب الهبيد ، وتئد البنات ، قد استطاعت أن تطلق العقل من سلاسله السود بفضل الاسلام واشراقة النبوة .

هذه أمة من الفخر كانت في قفار من الحياة وبيد
تأكل القد والدعاع من الجوع ، وتهفو شوقا لحب الهبيد
وتثير الحروب شعواء جهلا وتدس الوئيد اثر الوئيد
نبع النور بالنبوة فيها فطوى صفحة الليالي السود
ومضى يملأ الممالك عدلا باسم الوعد مكفهر الوعيد
اطلق العقل من سلاسله الدهم ، ونحاه عن صليل القيود

ولاينسى نكبة بغداد على أيدى التتار ، ثم يتتبع عصور الضعف والتجاء العربية الى مصر التى :

بقيت فيهـــا تلاقى شظفـــا في أحايين ، وفى حين رفاهـــا

حتى أشرقت شمس النهضة الحديثة مع أسرة محمد على ·

واوذا العلم يدوى صوتـــه واذا الضاد أضاءت صفحتاهـــا

واذا العربية تزهى شرفا حين ينشأ المجمع اللغوى لأنها استقرت فيه بعد طول اغتراب ·

والحق يقال ان هذه القصائد التاريخية قد استطاعت أن تجلو لنا بوضوح عصور العربية فى تسلسل واطراد ، وأن تبرز نهضـــة العرب والمسلمين فى أبهى ثياب مستخدمة فى ذلك بعث الماضى وقوة التخيل والتهاب العاطفة ، فهى وان كانت قصائد تاريخية الا انها قد بعدت عن الجفاف والسرد ، وان كانت كل قصيدة تختلف عن الأخرى فى مستواها الفنى ·

(ج) التعاطف والمشاركة الروحية مع أبناء العروبة :

ولقد أسهم شعره فى هذا المضمار ، واتجه الى ذلك فى فترة مبكرة · ففى سنة ١٩٣٣ يقول فى رثاء « داود بركات » رئيس تحرير جريدة الاهرام مخاطبا أهل لبنان :

بنى لبنان خطبكم جليـــل دعونا نقتسمه على الســـواء

مضى شيخ الصحافة أريحيـــا مبيد الوفر جماع الثنـــاء

خلال كلها أنفـــاس روض ونفس كلهـــا قطرات مـــاء

فعزى فيه لبنانا ونبـــكى فمن أولى وأجدر بالعـــزاء

مصابكم ـ وقد أدمى ـ مصابى ورزء العبقرية والذكـــاء
له اهتزت بواسق نخل مصر وهال الأرزارجاف الفضـــاء

وتبلغ مشاركته الروحية لأبناء العروبة غايتها فى مأســـاة فلسطين • فلسطين العربية التى اغتصبها الصهيونيون تحت سمع الامم المتحدة وبأغلبية الاصوات فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ •

وان كانت هذه المشاركة قد اتخذت صورة سلبية فى أول الامر حينما كان يقول :

قلبى وفيض دموعى كلما خطرت ذكرى فلسطين خفاق وهتــان
لقد أعاد بها التاريخ اندلســا أخرى وطاف بها للشر طوفان
ردوا تراث أبينا مالكم صـــلة به ولا لكم فى أمرنا شــأن
مصيبة برم الصبر الجميل بها وعزفيها على السلوان ســلوان
بنى فلسطين كونوا أمة ويــدا قد يختفى فى ظلال الورد ثعبان
وكيف يأمن رعيان وان جهدوا اذا تردى ثياب الشاء سرحــان

استسلام نراه ونلحظ مبعثه على ما نعتقد استسلام الشيخ للسن ـ اذ قالها فى سنة ١٩٤٧ وسنه اذ ذاك خمس وســـتون سنة ـ ونظرته الوقور للاحداث ، وسلبيته الدائمة أمام مشــكلات السياسة •

غير انى ما زلت فى حيرة من موقف الجارم ازاء مشكلة فلسطين فليس له فيها غير هذه الابيات ، وغير قصيدة أخرى قالها فى سنة ١٩٤٨ والجيوش العربية على أرض الوطن السليب •• ولا أدرى أكان ذلك عن سوء تقدير منه لهذه المأساة ونتائجها ؟ أم ان الروح العربية

لم تكن من القوة بحيث تلهب الشعور العربى العام ؟ أم ان كل اقليم عربى كان فى شاغل من أمر المحتلين الجاثمين فوق أرضه ؟

ولكن هل كل هذه الاسباب لا تعفى الجارم من التبعة مع انه القائل :

حب العروبة قد جرى بمفاصلى   بالرغم من حذر الحديث ملاحى

والقائل :

الشعر مصباح أقوام اذا التمسوا   نور الحياة وزند الامة الوارى

ألم يكن من الواجب عليه أو يضىء مصباحه لينير الطريق أمام قومه ؟ .

وكأن الشاعر أراد أن يكفر عن موقفه فى فلسطين فأنشأ قصيدة ملتهبة فى سنة ١٩٤٨ ، ولكن الفضل فيها لا يعود إليه وحده ، وانما يشاركه فيه الشعور العربى العلم ، فلقد ذهب الفدائيون العرب الى فلسطين لمحاربة اليهود . بل لقد دخلت الجيوش العربية الى ميدان المعركة .

ولقد ألهبت الاحداث شعور الجارم الشيخ فعاد اليه شبابه ليقف موقفا ايجابيا من المعركة الدائرة فى فلسطين فى قصيدته التى مطلعها :

تألق النصر فاهتزت عوالينا   واستقبلت موكب البشرى قوافينا

ولقد حشد لها كل ما استطاع وما يتناسب وروح المقام من اثارة وتمجيد وسخرية وتهكم .

ولولا ما فيها من العوالى والسيوف التى لا تتناسب مع أسلحة الجيش المصرى فى سنة ١٩٤٨ لعدت من روائع الشعر العربى الذى أنشىء على نغمات المعركة .

والشاعر يمجد فيها الجيش المصرى المحارب ، ولكنه لا ينسى أن هذا الجيش عربى جرى فيه دم عدنان :

هزته كف من الفــولاذ قبضتهـــا
في الهول ما عرفت رفقـــا ولا لينا

من صخر «خوفو» لها دون الورى عضل
جرى به دم عـــدنان شراييـنـــا

ثم يمجد الفارس المصرى الذاهب الى ميدان القتال فىفلسطين ويفتخر به كما يفتخر بأمته التى تلبى دعوة الحق ، وترد سطوة الجور .

عشنا أعزاء ملء الأرض مالمست جباهنـــا تربها الا مصلينـــا
لا يتزل النصر الا فوق رايتنـــا ولا تمس الظبا الا نواصينا

ويسرع خاطره فيأتى بالصورة المقابلة صورة اسرائيل التى شبهها بالقبرة التى تزحم الصقور فى أوكارها ، وصورة الاسرائيلى التائه الذى سطا على ديارنا وطردنا منها ، ويستثير عليه حتى ظواهر الطبيعة المتعددة فيطلب من الجبال ان تقذفه بالحمم ، ومن السماء أن تمطر عليه المهل والغسلين ، ومن الكواكب أن ترجمه ، ومن البحار أن تجعل الماء الأجاج دما لأن العهد عند اليهود خلف ومجحدة ومرآة ، لقد وضعوا السم فى الآبار ، ووصـــلوا بذلك الى منتهى الخسة والدناءة :

ما ذلك السم في الآبار ويلكم ومن نحارب ؟ جندا أم ثعابينا؟

أما دولة اليهود فكانت فى زعمه مزعومة ماتت يوم مولدها ، وانقلب المهنئون بها الى معزين :

وآض تصفيقهم ... نوحا ومندبة

وأصبح الشر تقطيبا وتغضينا

رواية ما أقاموا سبك حبكتها

ولا أجادوا لها لفظا وتلقينا

قد حيرتنا ، أماساة ؟ أمهزلة ؟

فالسخف يضحكنا والجهل يبكينا

ثم يستمر في سخريته من هذه الدولة التى ضاق الفضاء بها فتحا وغزوا ومن قوانين العدل والرحمة التى نفذوا بعضها فى « دير ياسين » ومن أسطولها وجيشها :

ثم يتجه الى فلسطين أولى القبلتين ، وقلب العروبة ، وقلعة الشرق وأسطر التاريخ المجيد ، صاحبة تراب حطين الذى شرب من دماء بطولتنا ، والمسجد المختار الذى نزل فى ساحته المصطفى والرسل عليهم السلام ليلة الاسراء :

أرض بذلنا بها الارواح غالية داعين لله فيها أو ملبينا

ومسجد نزل المختار ساحته نموت فيه ونحيا مستميتينا

ولا يألوا جهدا فى دفع العرب الى المعركة ، فيستثير نخوتهم وعروبتهم ، ومجدهم السليب فى الاندلس ، وتشريد العرب فى فلسطين واستياق الحرائر :

أنرتضى ان نرى ميراثنا بددا ونكتفى بدموع من مآقينا

. . . .

وما نقول لأبطال لنا سلفوا اذا تهدم ما كانوا يشيدونا

ولا ينسى أن يذكرهم بأعداء الشرق الموتورين الذين يسممون سهامهم الخفية ، وينمقون صورا شتى للغدر والفتك •

وأخيرا يمتدح جيش مصر وشجاعته ، واقدامه وفدائيته وعزمه:

صان الاله لجيش الشرق عزته   وصان أبطاله الغر الميامينـــــا

(د) الدعوة الى الوحدة العربية وتوثيق الروابط :

ثم تتجمع الانغام المتفرقة لتؤلف النشيد الخالد فى ملحمـــة العروبة ويفصح الشاعر عن أمله فى وحدة عربية شاملة ترتكز على أسس من الدين واللغة والتاريخ •

لقد جاب بلاد العروبة فما شــعر بغربة ، فهناك الأهل ، والأخوان والحب الأكيد •

تشابهت نزعات من طبــائعنا   لما التقت خطرات من أمانينـــا

ولقد اصطحبت « فتاة القريض » فى رحلة ممتعة الى أرجاء الوطن العربى الكبير ليحيى أبناء العروبة فى الحجاز وفى الموصل وفى كل مكان •

تعـــالى نطير بريش الأثـير   ونعلو به حيثمـــا يعتـــلى

نمر كما مر طيف الخيــــال   الم لمامـــا ولم يحفـــل

فبينا نحدث أهل الحجـــاز   اذا صوتك العذب فى الموصـل

نحيى بنى العرب الاوفيـــاء   ونسمعهم غـــرد البلبـل

أولئك قومى بناة الفخـار   وزين المحـافل والجحفـل

ثم هو لا يكتفى بهذا الشعور الطيب وانما يحاول أن يبـرز الاسس التى تدل على عمق الروابط والتى من أهمها :

١ ــ الدين :

يجمعهم قلب على الحب واحـد وان مزقت أوطانهم وتشـعبوا
اذا صاح فى جيحون يوما مؤذن أجاب على التاميز داع مشـوب
وان ذرفت من جفن دجلةدمعة رأيت دموع النيل حيرىتصبب
وان مس جرح منفلسطين اصبعا شكا حاجر منه وان المحصب

٢ ــ واللغة :

وحببوا لغة العرب الفصاح لهم فان خذلانها فى الشرق خذلان
قولوا لهم انها عنوان وحدتهم وانهم حولها جند وأعـوان

٣ ــ والتاريخ المشترك :

اخاء على الفصحى توثق عقده وشدت على الايمان أوتاره شدا
لنا فى صميم المجد خير أبـوة زهينا بها أصلاوتاهت بنا ولدا
اشع فى غلس الأيام حاضرنا وضاء فى ظلمة التاريخماضينا
مجدعلى الدهرفاسأل من تشاءبه عمرا اذا شئتأو انشئتآمونا

٤ ــ والمشاركة الروحية :

ففى العراق :

أهـلوك أهلونا وأبـ ناء العشـيرة والجدود
بين القلوب تشـوف كتشوف الصـب العميـد
حتى يكاد النخل يحـ ـسب نخلَ أهلِ فى رشنيد
شطت منازلنـا وما أحـ تـاج الفـؤاد الى بريد

الرافــــدان تمازجـــــا في الحب بالنيل السعيد

وفي السودان :

اني نزلت بجـــيرة بسل على النجدات حشـــد
أنسيت أهـــلي بينهـــم وسلوت اخـــواني وولدى
الضـــيف في ســـاحاتهـــم يجتاز من رفـــد لرفـــد
ومضت أواصرنا تمـــــــ ـد الى العروبة خـــير مـــد

وفي لبنان :

الأرز فيك ونخل مصر كلاهمـــا اخوان في الافـــراح والاتراح
والنيل منك فلو بكيت لفـــادح غمر الشطوط بدمعه النضاح

وأخيرا يضرب الشاعر المثل الرائع للوحدة العربية المبنية على الاخاء والمحبة ، حينما يشترك في الصلح بين قبائل شمر والعبيـد في العراق مع حمد الباسل (باشا) سنة ١٩٣٩ فيقول :

أخي انت درعي ان الملت ملمـــة وان فدحتني عابسات النوازل
أخي انت من نفسي دماك دمي فان كنت مأكولا فكن خير آكل
أأرمي أخي ياويل‌ماصنعت يدى فيا ليتها كانت بغـــير أنامـل
اذا مسني خطب فأول راكب يخوض لي النجلي واسرع نازل
أكلت دما ان لم أذد عن حياضه كريما وادفع عنه كيد الغوائـل
أضاحكه والقلب ما عبثت بـــه لئام المساعي أو سموم الدخائل
وابسط كفي نحوه غير جافل ويبسط نحوى كفه غير جافـل

ومن الواضح انه يسن هنا قانون الوحدة ، المبنى على الاخاء والمحبة وهذا الموقف الرائع يشبه موقف البحترى من المتوكل على الله حينما أصلح بين بطون قبيلة تغلب ٠

فاذا ما تحققت أحلام الشاعر بتوقيع ميثاق الجامعة العربية فى ٢٩ مارس سنة ١٩٤٥ استقبلها بقصيدة رائعة يقول فيها :

لقدكان حلماأن نرى الشرق وحدة ولكن من الأحلام ما يتوقع
اذا عددت راياته فهى رايه وان كثرت أوطانه فهى موضع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا لنا الشرق حد والعروبة موقع

(هـ) الدعوة الى النهضة .

أما وقد تحققت أحلام الشاعر فى الجامعة العربية فاننا نراه يحث العرب دائما على النهوض ليأخذوا مكانهم المرموق وسط الامم الناهضة ٠

وانه ليرغب فى ذلك أشد الرغبة ، فالحضارة العربية فى الماضى هى التى زانت الدنيا ، ومدنت العالم ٠

هو لا يريد أن يستجدى النهضات ، وانما يريد أن ينفخ فى رماد الماضى فتشتعل الجذوة المقدسة ، وينهض النسر ليحلق من جديد ، ويصفق فى اذن الجوزاء :

أمة العرب آن أن ينهض النسر فقد طال عهده بالركود
صفقى بالجناح فى اذن النجم ومدى فضل العنان وسودى
وأعيدى حضارة زانت الدنيا فكم ودت المنى أن تعيدى

انما المجد أن تريدى وتمضى ثم تمضى سباقة وتريدى
لا ينال العلا سوى عبقرى راسخ العزم كالصفاة جليد

ثم يكرر هذه المعانى فى كثير من أبياته :

يا أمة العرب اركضى ملء العنان ولا تحيدى
سودى فآمال المنى والعبقرية أن تسودى
هذا أوان العدو لا الابطاء والمشى الئيد
المجد أن تتوثبى واذا وثبت فلا تحيدى

ولا يكتفى بذلك ، بل يرسم الخطة للشباب العربى ، وحسبه منها أمران بنى عليهما العرب الأوائل مجدهم ، وعليهما تبنى الأمم المجيدة مجدها ، وهما العلم والأخلاق :

بنى العروبة مدوا للعلوم يدا فلن تقام بغير العلم أركان
جمعتموا لشباب الشرق مؤتمرا بمثله تزدهى الفصحى وتزدان
فقربوا نهجهم فالروح واحدة وكلهم فى مجال السبق اقران
لا تبتغوا غير اتقان وتجربة فقيمة الناس تجريب واتقان

ويقول :

وكملوهم باخلاق ومرحمة فانما المرء أخلاق ووجدان

الرثاء

١ ـ طبيعة فن الرثاء لدى الجارم :

لعلنا نستطيع أن نقرر شيئا من الحقيقة عن طبيعة فن الرثاء عند الجارم حينما نفصل بين تاريخين ، بين هذه القصائد التقريرية الجافة التى تتمثل فيما قاله من رثاء قبيل ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وبين القصائد المنفعلة الباكية التى قالها بعد هذا التاريخ ، أى بعدوفاة ولده البكر « محمد » الطالب بكلية الهندسة ٠

وتتمثل قصائد الفترة الأولى فى رثاء اسماعيل صبرى سنة ١٩٢٣ ، ورثاء عاطف بركات سنة ١٩٢٤ وسعد زغلول سنة ١٩٢٧ ، ونجيب مترى سنة ١٩٢٨ ٠ وداود بركات سنة ١٩٣٣ ، والطيارين حجاج ودوس سنة ١٩٣٢ ٠

بينما تمثل قصائد الفترة الثانية رثاء صديقه محمد أمين لطفى ، وأبى الفتح الفقى ، وعبد الوهاب النجار بعد عام ١٩٣٥ ٠

ومن الممكن أن نتتبع قصيدته فى رثاء الطيارين لنرى مدى التقريرية والنبرة الخطابية التى حفلت بها هذه القصيدة ، كما انه من الممكن أيضا أن نتتبع تدفق الانفعالات فى قصائده الأخرى ٠

ولقد انشأ الجارم قصيدته الأولى والشعب المصرى يرتدى ملابس الحداد حزنا على فقد شابين من رواد الطيران فى مصر ، والكتاب والشعراء يعبرون فى صدق واخلاص عن أثر المأساة ،

ويفتنون فيصورون الحدث بخيالهم الخالق حتى لتكاد تشعر انك تشارك الشابين الطائرين ساعة الهول والضيق ·

ومن هنا كانت تبعة الجارم باعتباره شاعرا تتمثل فى تصويره لأحزان الأمة ، وفداحة الكارثة ، وبث العزيمة والعزاء والصبر حتى لا تلجأ النفوس الى اليأس والقنوط فتحجم عن الأقدام والمخاطرة فى هذا الميدان الجديد ، ميدان الطيران ولكنا نرى الأمر على العكس ، فالجارم يبدأ قصيدته بقوله :

جمع الشجون وبدد الاحلاما ... خطب أناخ بكلكل وأقاما
أخلى الكنانة من أمر سهامها ... عودا ، وراع النيل والا هراما
وعدا على روض الشباب وظله ... فغدا به روض الشباب حطاما
غصنان هزهما الصبا فتمايلا ... وسقاهما الأمل الروى جماما
نجمان غالهما الزمان فأصبحا ... بعد التألق والسطوع رغاما
نسران لورضى القضاء لحلقا ... دهرا على أفق الديار وحاما

يبدؤها بهذه النزعة الخطابية ، لم يهيىء للحدث ، ولم يصوره التصوير المناسب ·

يبدأ فينتقى من ذاكرته صورا محفوظة مطمورة عفى عليها الزمن ، ولكنها ما زالت تعتمل عنده فى منطقة اللا شعور ، فالخطب الذى أناخ بكلكله فجمع الشجون وبدد الأحلام ، وأخلى الكنانة من أمر سهامها وروع النيل والأهرام ، وعدا على روض الشباب فحطمه لا يمثل شيئا من هول الكارثة ، وانما يمثل فى الحقيقة شيئا من محفوظات الجارم وخيالاته التى تدور مع هذه المحفوظات ·

فاذا ما تركنا هذه الحقيقة التى لم نعثر فيها على الانفعال أو الحرارة وسرنا مع الشاعر فى قصيدته وجدناه يدعو الى البكاء على

الشباب الغض ويدعو أيضا الى أن تنثر الأزهار على الزهر الذى كانت له كل القلوب كماما ، ويدعو أخيرا الى أن تبعث أنينك للسحاب • •

وابعث انينك للسحاب شكاية فالام تحتبس الدموع الام ؟

ولست أدرى هل يكفى أن تدعو شخصا الى البكاء فيبكى ؟ أم أن هذا الشخص فى حاجة الى اثارة وانفعال مبعثهما تصويرك للحدث ، وتقدير آثاره •

ثم أى عجز وأى قصور هذا حينما ترى مناحة الأمة فتقوم فيها بدور النادب الداعى الى البكاء • الا تحتسبهما أيها الشاعر فى سبيل الله والوطن ومستقبل الطيران ؟ بل أين المثل العليا التى ترسمها للشباب فى هذه المناسبة ؟

وتقع الكارثة ولا عجب ؟

والموت يلقى الأسد فى عريسها ويغول حول كناسها الآراما

لا الدرع تصبح حين تبطش كفه درعا ولا السيف الحسام حساما

وأخيرا يحاول أن يصور الحدث ، وان يسرح بخياله مع الطائرة ، ولكنه لا يستطيع فخياله أوهن من أن يحلق ، فالجو جامح ، والسماء مريضة ، والليل داج ، والموت يخفق فى جناحى طائر •

ركبا جموع الجويلوى رأسه كبرا ويأنف ان ينيل زماما
فى عاصفات لم تزعزع منهما عزما كحد السيف أو اقداما
والجو أكلف والسماء مريضة والليل داج والخطوب ترامى
والموت يخفق فى جناحى طائر ملأ الفضاء شراسة وعراما
بسما الى الخطب العبوس وانما يلقى الكمى قضاءه بساما

وهو فى كل ذلك يلجأ الى صـوره القديمة ، وخياله البدوى حينما يشبه الجـو بالفرس الجموح الذى يلوى رأســه فلا يثنيه شيء •

غير انه والحق يقال ختم قصيدته بهذا التساؤل الرائع الذى يثير فى النفس الوانا من الأسى ، وان لم تكن فيه حرارة العاطفة :

هل أخطرا فيـه على باليهما	النيـل والآبـاء والاعماما
والموطن الصديان يرقب عوده	ويلاه قـد عادا اليـه رماما
اتقاســما فيه الوداع بلفظة	ام لم تدع لهما المنون كلاما
هل فكرا فى الأم تندب حظها	والزوج تسـكت والهين يتامى
ان الســلامة قـد تكون مذلة	ويكون أقدام الجرىء حماما ••

أين هذا من قصيدة على محمود طه المهندس :

ادنـا المزار وقـرت العينـــان	وفرغتمـا من لهفة وحنـــان ؟
وهززتما بالشوق كف مسـلم	وهفت الى تقبيله الشـفتان ؟
وحلا العنـاق على اللقاء وأومأت	لكما الديـار فرفرف القلبـان ؟
يـوم تطلعت المنى بصباحــه	وتحـدثت عنـه بكل لســان

فلقد رسم الحدث بكل ما يملك من احساس وصور ، وعرض المنظر وما فيه من جوانب خارجية ، وأحاسـيس داخلية متتبعا الجزئيات مصورا لها مكونا منها لوحته الحية الباسمة التى تفجؤها الكارثة كما تفجؤنا ، فاذا بهذه اللوحة المبدعة التى خلقها بخياله الحى تحترق : ١

طاش الزمام فلا السحاب مقارب   لكما ولا الجبل الاشم مدانى
وهوى الجناح فلا الرياح خوافق   فيه ، ولا الأرواح طوع عنانى
سدت طريقكما الحتوف وانتما   تتحرقان هوى الى الأوطان

اتجاه جديد استغل فيه الشاعر كل طاقته الفنية ليبرز الحدث بعيدا عن التقريرية الجافة ، والصور العتيقة البالية فى الرثاء .

ثم يصور بعد ذلك فداحة الخطب ، وهول المصيبة ، وقد كان بوده ان يكون شعره ذاك اكليل غار ، ولكن حسبه ان هذه الدماء كانت فى سبيل الوطن .

تبنون للوطن الحياة وهكذا   تبنى الحياة مصارع الشجعان

ويلتفت الشاعر التفاتة طريفة فحجاج ودوس ، انما يمثلان وحدة الأمة وحدة الهلال والصليب :

مثلتما فى الموت وحدة أمة   ذاقت من التفريق كل هوان
مسح الهلال دم الصليب وضمدت   جرح الاهلة راحة الصلبان

وهو بعد ذلك يلح فى تصوير الحدث ، ووقع أثره فى النفوس ، كما يتلهف بصدق على سلاح الجو الذى يحمى الوطن ، ويدافع عنه ، وأخيرا يدعو الى التضحية والفداء :

ليضن بالأعمار كل معاجز   وليخش حرب الدهر كل جبان
ليثر على القضبان كل مناجز   وليحطم الأصفاد كل معانى
هذا الزمان الحر ما لشعوبه   صبر على الاصفاد والقضبان
لكم الغد المرجو فتيان الحمى   واليوم يومكم العظيم الشان

لا تثنينكم المنـايـا انهـا	سر البقـاء وسـنة العمران
كونوا من الفادين ان عز الفدا	كم فى الفداء من الخلود معانى

٢ ـ مأساة الجارم فى فقد ولده :

فاذا ما طويت هذه الصحيفة من حياة الجارم وبدأت صحيفة أخرى فيها قسوة التجربة وعنفها وروعتها ، فيها فقد الولد البكر ، أمنية العمر رأينا عواطف الحزن وقد تفجرت فى نفسه فمنعته حتى عن ان يصور مأساته ٠

تمنيت لوأرسلت شعرىمعالبكا	بغير قـواف أو بغـير ضروب
وصيرت أناتي تفاعيـل بحـره	وجئت بوزن فى القريض عجيب
فانى رأيت الشـعر تنفر طيره	اذا دهمت من فادح بهبـوب

ولكن حتى هذه الأمنية قد استعصت عليه ، فلقد نفر طائر الشعر حينما دهمه هذا الخطب الفادح ، فبقى رثاؤه حائرا يحوم فى نفسه وتحول العبرات ، وشدة الأحزان ، وقسوة التجربة عن ابرازه وان كان قد استطاع أن يشير اليه من خلال قصائده فى الرثاء التى قالها بعد هذا التاريخ ٠

أنـا أبـكى لكل باك ونفسى	حسرات تـذوب فى حسراتـه

والواقع أن الجارم قد استطاع أن يبكينا فى قصائده بكاء صادقا صادرا عن نفس حزينة تتجرع الأحزان والأوصـاب لأن الأسى يبعث الأسى كما يقول متمم بن نويرة ، ولأن فقـد الولد يهز دائما كيان الوالد بعنف وقسوة فلا يستطيع أن ينسى :

خـذوا منى الرثاء دمـوع عين	تـكل المعـصرات ولا تكـل

والبكاء والدموع احدى مراحل الحزن التى مرت بها نفس الجارم والتي تحدث عنها شعره فى المرحلة الأولى من المأســاة :

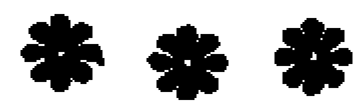
قالـــوا أجـــدت المراثــــي فقـــلت : ان وانـــــي
دمـــوع عينـــي قريضـــي وزفـــرة الوجـــد لحـني
عـلى أداوي حزينـــــا فالحــــزن يمحى بحـــزن
أو يشـــــتفي ببكـــــاء من شــــأنه مثل شـــأني

ولقد ظن أن ذلك يتمشى مع طبيعة النفس الحزينـة بعامة ، فالحزن يمحو الحزن ، والبكاء يشفيه البكاء كما يقول بذلك هيجل غير أنه لم يلبث ان عاد فرأى ان الأمر على العكس ، فالأسى ، والبكاء يدعو الى البكاء ٠

بكينا لعل الدمع يطفىء حرقة من الشوق فازدادت بتذرافه وقدا

والواقع ان الجارم لم يظن فى بادىء الأمر خطأ ، ولم يرجع عن ظنه بعد ذلك ، وانما هو الحزن الذى يدفعه الى البكاء تارة ، والى فلسفة البكاء تارة أخرى ، ثم يدعوه أخيرا الى الاستسلام :

بكينا فلم يشف البكا حرقة النوى ولكن اذا ضاق الفتى كيف يصنع
تهيج بنا الذكرى فيغلبنا الأسى وتدركنا رحمى الاله فنخضـع



بكينا وما تبكى الرجال وانما يعود الفتى للطبع ان لم يجد بدا

والجارم وان لم يظفر منه ولده الفقيد برثاء مستقل الا انه قد ظفر منه بعد ذلك بكل خاطرة ، وكل حديث ، وكل بيت رثاء قاله بعد هذا التاريخ :

أكلما مر نعش أو طاف نعى بأذنى
طار الفؤاد فلولا بقية ند عنى
لولا التقى لم أجده بجانبى أو يجدنى

وحديثه عن المأساة ، وأثرها فى نفسه مرحلة أخرى من مراحل الحزن ومحاولة يائسة من محاولات التنفيس عن النفس :

بى جرح مضى عليه زمان حرت فى أمره وأمر أساته
كلما صاح نادب هاج شكوا ه ومس الأليم من ندباته
أنا أبكى لكل باك ونفسى حسرات تذوب فى حسراته
بائع الصبر ان يكن عشر مثقا ل بأغلى ما فى الحياة فهاته

ثم يقول فى رثاء صديقه محمد أمين لطفى :

رمتنى الليالى قبل نعيك رمية عرفت بها كيف القلوب تقطع
نصال حداد قد ألمت لحملها وأعلم انى هالك حين تنزع

كما يتحدث عن الشباب والنبوغ فى رثاء قاسم أمين ولعله يشير من خلال ذلك الى مأساة ولدة :

كلما اختال فى الزمان شباب عصفت ريحه بلدن شبابه
والنبوغ النبوغ يمضى وتمضى كل آمال قومه فى ركابه
غرد ما يكاد يصدح حتى يسكت الدهر صوته بنعابه
وحباب اذا علا الماء ولى فاسأل الماء هل درى بحبابه
وسفين ما شارف الشط حتى مزق اليم دسره بعبابه

فاذا ما استرد لاهث أنفاسه ، وجمع شيئا من قواه ، واجتاز

مرحلة من مراحل الحزن الى مرحلة أخرى أخف وأهدأ أخذ يصور هذه المأساة في أكثر من مناسبة رامزا للفقيد بالزهر حينا :

ورب زهـــر شـــذاه يــزرى بأرواح عـــدن
. . . .
النـحل ترشـــف منــه رحيقـــه وتغنـــى
تجنى ولم تـدر يومـــا ان الردى ســـوف يجنـــى
طغت عليـــه ســـموم حـــرى كأنفـــاس جـن
فعاودتـــه ركامـــا أجـف من عـــود تبـن

وبالغصن أحيانا أخرى :

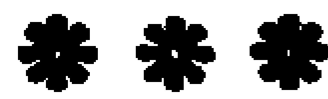
بنفسى فى الثرى غصنا رطيبا يرف من الشـباب ويخضئل
تضاحكه لدى الأصباح شـمس ويلثمه لـدى الامســـاء طل
. . . .
وكنت أشـــم ريح الخلد منه واهنـأ فى ذراه وأســـتظل
وقلـت لعـله يبقى ورائـــى بدوحتــه فمـــا نفعت لعـل
فسل عنـه العواصف أى نوء اطاح بــه ؟ وأى ثرى يحـل
نأى عنـى وخـلف لى فـؤادا يـذوب أسى عليـه ويضـمحل

ـأو مصرحا بأنه الأمل الذى سقى فروعه بدمه ، وغذى منبته بأمانيه ، وحنى عليه حتى لا يمسه هجير الصيف ، أو يهزه نسيم الربيع ، وزاد عنه الطير ، واستمد له من عناصر الطبيعة أسباب البقاء والحياة فالليل ينفحه بذائب طله ، والصبح يمنحه اشعاعة نوره ، حتى اذا قوى واستحصد ، وأزهر عصفت به هوج الرياح فحطمته قبل أن يحين حينه ، ثم وقف لينظر لحطام آماله ، وقد تفتتت افلاذه مثل تفتت هذا الأمل المحطم .

قد كان لى أمل سـقيت فروعه … بـدمى وغـذيت المنى بعذاتـه
احنو عليه من الهجير يمسـه … ومن النسـيم يهز من اسـلاته
واذود عنه الطير ان حامت على … زهر يضىء الأفق فى عذباتـه
الليل ينفحه بذائب طله .. … والصبح يمنحه شـعاع اياته
حتى اذا قويت لدانُ غصـونه … واسـتحصد المرجو من ثمراته
وأخذت استجلى السنا من نوره … وأشـم ريح الخلد من نفحاته
وافاخر الزراع ان غراسـهم … لـم يزل مثـل زكائـه
عصـفت بـه هوج فخر معفرا … وجنى عليه الحين قبل جناتـه
ووقفت أنـظر للحطام محطما … متفتت الافـلاذ مثـل فتاتـه

ويظل الحزن يعتمل فى نفسـه لا يعصمه منه الا الصـبر والايمان :

نحن لله راجعـون وكـل … بالـغ فى مجـالة العمر حـدا
غير أن الفتى يغالبه الدمـ … ـع فلا يستطيع للدمع صدا
كل مهد يصـير من بعـد حين … قصر العمر ـ أو تطاول ـ لحدا



تهيج بنا الذكرى فيغلبنا الأسى … وتدركنا رحمى الاله فنخضع

والا التسليم بالقدر :

هو القدر الماضى اذا انساب سهمه … فلن يسـتطيع العالمون له ردا

٣ ـ الشخصيات التى رثاها :

(ا) رثاؤه لأصدقائه وزملائه :

وفيه تتجلى العاطفة الصادقة ، والعبرة المخلصة ، والحيرة ، والاستسلام والضعف أمام سطوة الموت ، ورهبة الغد ، وحلكة المصير .

ومن الطبيعى أن يكون رثاؤه لأصدقائه واخوانه كذلك ، لأن فيه معنى الرثاء لنفسه ، فلكل منهم بالشاعر علاقة وثيقة ترجع الى أيام الشباب ، والشباب هو حلمه الذى مضى ولن يعود :

يهدم المرء كل يوم ويبنى ... ثم يهوى فلا ترى بنيانه
نحن حب فى قبضة الدهر يلقيـ ... ـه ، ويجنيه مدركا ابانه
نحن فى دوحة الأمانى زهر ... يهصر الموت للبلى افنانه
ان هذى الحياة بحر وكلٌ ... بالغ بعد سبحه شطآنه
قد قضى الله أن نكون فكنا ... وقضينا وما قضينا لبانه

ولقد استعان على بلوغه الغاية القصوى من هذا الفن فى رثائه لأصدقائه وزملائه بخاصة ، بأمور :

أولا ـ تصويره الساذج البسيط لأثر المأساة فى نفسه ، واثارة العاطفة فى كل كلمة من كلماته :

يموت صديقه الأستاذ أبو الفتح الفقى ، فتهد الكارثة البقية الباقية من كيانه ، ويملك المصاب عليه كل جهاته ، فيشتد حزنه ، ويختلط الدجى بنبرات صوته السوداء ، ويبكى .. ثم ينظر فى السماء نظرات الحائر الذى لا يبتغى من وراء تطلعه شيئا ، فهو يقلب طرفه لا يرجو ، ولا يخاف ، ولا يدرك :

أسوان تعرفه اذا اختلط الدجي بالنبرة الســـوداء فى أناتـه

يبكي وينظر فى السماء مصعدا ما يبتغى الحيران من نظراتـه

ويفجع بفقد صديقه عبد العزيز جاويش فى سنة ١٩٢٩ ، فيفزع ، يفزع من صوت الناعي الذى يشبه الى حد بعيد صوتا رهيبا فى ظلام حالك ، ثم يلجأ الى الشك ، لعل الشك يريحه أو يغير شيئا مما نزل به ، وهو فى كلتا الحالتين خائف حزين :

نعاه لنا النـاعي فأفزع مثلما تراع بصوت فى الظلام رهيب

فقلنا ابن رحماك طارت عقولنا فلم نستمع من فيك غير نعيب

شككنا وكان الشك أمنـــا وراحة

وكم من يقين فى الحياة مريب

ثانيا ــ اثارته لبعض الذكريات القديمة التى تربطه بالفقيد ، وكشفه عن مصدر حبه لهم ، واعجابه بهم ·

يقول فى رثاء عبد العزيز جاويش :

لقد كنت تصلى فى الحيـــاة قصائدى

وتهتز عجبا أن سمعت نشيـــدى

ويقول فى رثائه لأبى الفتح :

ورفعت من شعرى وكنت تحبه

وتحس سر الفن فى أبيـــــاته

هذا بالاضافة الى حديثه عن أيام الشباب التى جمعته بكل منهم حديثا يتسم بالصدق ، والمحبة ، والانفعال الحار :

قد كان عهدك فى بشاشة أنسه

عهد الشباب مضى الى طيـــاته

كان الزمان يظلنا ... بربيعـــه
فتركتنى للقـــر من مشـــتاته

أبكى الشباب وزهـــوه وصحابه
والمشرق الوضـــاح من بسماته

كنـــا كفرعى بـــانة فتفرقـــا
والدهـــر لا يبقى عـــلى حالاته

أما عهده مع المرحوم محمد أمين لطفى فلقد كان عهد الذكريات الجميلة التى قضاها مع الفقيد فى انجلترا أثنـاء الدراسـة ، ولن يستطيع أن ينسى هذه الذكريات التى لها فى نفس كل منهمـــا أثر عميق يتجلى فى هذه الصور وفى هذه العـــاطفة القوية التى تخللت كل أبياته :

أأنسى أمينا والشبـــاب يحفنـــا
جديدا ، وروض الود بالود ممرع

بأرض اذا غص النهـــار بغيمها
فوجه أمين أينما لاح يســـطع

نسيت به أهلى ويارب صـــاحب
أبر من ابن الأم قلبـــا وأنفع

يغالبنى شـــوق الى الفن رائع
ويجذبه ميل الى العـــلم أروع

نروح ونغـــدو لاهيين ولـم نكن
نخـاف رزايـا الدهـــر أو نتوقع

ونضحك للدنيا اللعوب وزورهـا
ونمرح فى زهـو الشـباب ونرتع

وكنـا نرى الأيام أحـــلام نائم
فأيقظنـــا منهـــا الأليم المـروع

وكانت غنـاء كلهـــا ثم أصبحت
وليس بهـــا الا الرثاء المفجـع

* * *

أتذكر اذ نمشى الى الدرس بكرة
بنو تنجهـــام تستحث فأسرع ؟

ولا شك أن فى سرد الشاعر لهذه الذكريات الماضية أثرا عميقا فى الهاب عاطفته ، وتجسيم مأساته ٠

ويزوره صديقه الشيخ عبد الوهاب النجار زيارة مودع ، يجر خطاه ويجر وراءه سبعين عاما ، فيهرع اليه الشاعر ويتعانقان ، وكأن هذا العناق ذمام المودة الذى لا ينفصم :

رأيتـــك والردى يدنو رويدا اليك كما دنا للفتك صـل
فوجهك ذابل والصـوت همس ومشيك واهن الخطوات دال
تجر وراءك السبعين ٠٠ عاما وللسبعـــين أرزاء وثقـل
مشيت كأن رجلا فى بساطى تسير بها وفوق القبر رجل
أتيت تزورنى فهـــرعت أسعى اليك ودمع عينى يســـتهل
وكان عناقنـــا لمـا افترقنا وثاقا للمودة لا يحـل ٠٠

ثالثا ـ التجاوز الى بعض الصور الرمزية فى المشبه به ليبتعد بذلك عن التعبير المباشر الذى يفقد التجربة حرارتها وصدقها ، والا فما باله يحدثنا عن هذا الأليف الذى فقد أليفه ، فهو يصيح به فى كل روض ، ويسائل عنه كل أفق ، يسائل عنه الطيور الحالمة والطيور المتجمعة ، ويستخبر الأمواه ، ويتأمل الروض ، ويتطلع الى النجوم

باحثا عن أليفه ، يظن حفيف الدوح خفق جناحه ، ويحسب تحنان الغدير هديله ، فقد أمل الغاب من كثرة بحثه ، وأمل صماخ الليل من كثرة ترجيعه ، له أنة المجروح الذى أعيا طبيبه فهو آنا يضحك لأمل خائب ، وآنا يجبهه اليأس والعبوس · يرى لـدى كـل عش صاحباه وعشه خلى مقفر مصدع :

فقـــدناه فقدان الأليف أليفـــــه
يصيح به في كل روض ويسجع

يسائل عنه الأفق والطـــير حوم
ويستخبر الأمواه والطـــير شرع

يدف فيحوى الأرض منـــه تأمل
ويعلو فيعلو النجم منـــه تطلع

يظن حفيف الدوح خفق جنـــاحه
اذا همست منه غصون وأفـرع

ويحسب تحنان الغـــدير هديله
فيحبس من زفراته ثم يســـمع

لقد ملت الغابات مما يجوسهـا
ومل صماخ الليل ممـــا يرجـع

له أنة المجروح أعيـــا طبيبـــه
وضج لمـــا يشكو وساد ومضجع

كأن جناحيـــه شراع سفينـــة
دهتهـــا من الأمواج نكباء زعـزع

تضاحكه الآمال حينـــا فيرتجى
ويجبهه اليأس العبوس فيخشع

لدى كل عمن صاحباه وعشه
خلي من الآلاف قفر مصدع

وأخيرا تتفجر براكين الحزن في نفسه فما يستطيع لها رداً فتارة يحدثنا عن هؤلاء الذين :

أقاموا بعض يوم فاستقلوا
فطار القلب يخفق حيث حلوا

وتارة أخرى يحدثنا عن الجنازة ، وعن هذه النجائب المصعدة التى لا تمل السير ، والتى رآها آدم ، وعدت بنوح ، ولى بعدها نسل ونسل •

وتارة ثالثة يحدثنا عن تطلعه وتشوفه الى هذا الركب ، وعن هذه الكثبان الرملية التى غضت طرفه ، وعن هذا النداء الذى نادى به الحبيب فبح صوته وعاد مكدودا اليه :

طفقت أمد نحو الركب طرفى
فغض الطرف كثبان ورمل

وقمت أطل من شرف عليهم
فخانتنى الدموع فما أطل

وناديت الحبيب فعاد صوتى
وفى نبراته هلع وخبل

أصاخ له من الصحراء نجد
فردده من الصحراء سهل

(ب) رثاؤه للكتاب والشعراء :

فاذا ما اتسعت دائرة الرثاء ، وتعدت هؤلاء الأصدقاء الى طائفة من أعلام الشعر والأدب تربطهم بالشاعر وشائج تبتعد عن معنى

الزمالة والشباب ، ولـكنها تقترب من معنى الفن الذى يحبه ويؤثره رأينا لقصائد الرثاء عند الجارم اتجاها آخر ، فهو لايحكي لنا بحرارة ذكريات شبابه مع هؤلاء الراحلين ، ولا أثر الفجيعـــة في نفسه ، وانما يحدثنا كثيرا من آثارهم الفذة بلمسات رقيقـة • وهو عـلى ما أعتقد موفق في هذا الاتجاه ، لأن هذا هو مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة •

ولقد رثى من هؤلاء الأعلام ثمانية ، رثى اسماعيل صبرى ، وداود بركات ، وشوقى ، والزهاوى ، وقاسم أمين ، ونجيب مترى صاحب دار المعارف ، وحفنى ناصف ، وجبرائيل تقـلا صـــاحب الأهرام •

غير أننـــا نلاحظ ان في رثائه لونا من التعميم ، كان أجدر بالشاعر أن يخصصه أو أن يقرر به بعض الملاحظات النقـــدية ، لا سيما وأنه يتعرض تعرضا مباشرا لآثار هؤلاء •

ففى رثائه لاسماعيل صبرى يتحدث عن شعره ، وعن روعة هذا الشعر الذى سمعه فى المزاهر لحنا ، وفى الحمام هديلا ، وشمه فى الـكمائم زهرا ، وشربه فى الـكئوس شمولا ، وعن هذا الدر الذى ينهبه منعقود الغوانى ثم يدعوه فاعلاتن فعولا ، وعن هـذا الشاعر الذى :

يخدع الجامع الشموس من القو
ل فيلقى العنان سهلا ذلـــولا

وعن هذا الغزل الذى يذيب القاسي ويكاد يبعث فينا من جديد « كثيرا وجميلا » ثم يوازن بينه وبين البحترى ، فالبحترى لو وعى بالواء الحسن أحزاب الهوى :

لو وعاها ما اهتز ينشـــد يوما
(ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا)

وكان الواجب على الجارم أن يدرك أن اسماعيل صبرى انما هو امتداد لمدرسة الندماء ، فهو ليس بشاعر ممتاز ، وليس غزله بغزل عاشق متيم ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر الى حيث يقصد قصيدة وهـــو نـــادر .

وأما قصيدته التى ولع بها الجارم فشطرها

يا لواء الحسن أحزاب الهـــوى   أيقظوا الفتنة فى ظـــل اللواء

فرقتهم فى الهــــوى ثاراتهم   فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء

فليست الا من قبيل غزل الجارم المتكلف الذى ولع به وبأمثاله من قصيدة صبرى .

ولو أنه انصف الحكم فتحدث الينا عن فن صبرى بهذه الروح الخالية من المبالغة والتعميم فى الأحكام ، وختم قصيدته كما فعل بتصويره للموت ولأخلاق الفقيد وطباعه ، وبهذه الطائفة من الحكم :

انما نحن فى الحياة الى حيـــــ   ـــن شبابا وفتيـــة وكهولا

وبهذا اللون المخلص من الوفاء والصدق لـكان أولى .

أما فى رثائه لشوقى فالأمر جد مختلف ، فشـــوقى فى نظره أمير الشعراء الذى قرأه وأعجب به ، بل وأفتتن بشعره :

يا خليلى لا تهيجا لى الذكـــــ   ـــرى فقد نالنى الذى قد كفانى

ناولانى بالله ديوان شــــوقى   لأراه كعهـــــــــده ويرانى

ثم سيرا على الأصابع فى صمـــ   ـــت وفى حضرة «الأمير» دعانى

ولذلك كان رثاؤه رثاء المتفجع المصور لأثر الفجيعة فى الطبيعة التى كان يؤثرها شوقى وفى كرمة ابن هانىء بخاصة .

أما فى الطبيعة فلقد فقدت الشمس أخاها ، والنجوم سميرها ، وفقد الروض واصفه ، والخيال ترجمانه ، وأما فى الـكرمة ، فلقد فقدت الطيور ، طيور الشعر خميلتها التى :

كن فى ظلهـــا يغنين للشر   ق وينهضن للعلا شبـــانه
كن فى ظلهـــا يحيين مجـدا   صاعدا ضلت النجوم مكانه
كن فى ظلهـــا يناغين آما   لا ويبعثن همـــــة وهنانه

وكان رثاؤه أيضا رثاء الدارس لشعر شوقى من جميع نواحيه وبقدر ما تسمح به قصيدة شعرية لا تتجاوز المـائة بيت .

فهو يحدثنا عن قدرة شوقى على اصطياد المعنى النافر بتصوير جميل لايستطيعه الا من مر بتجربة الخلق الفنى ، فهذا المعنى كالصيد الذى يزدرى صائده ، ويعبىء أسلحته فتارة يثب الى الوادى ، وتارة يثب فوق الجبال ، وأحيانا يسابق السهم فيتلوى تلوى الخيزرانة :

ثم يخفى فلا تراه عيـــون   ثم يبدو فلا نشك عيـــانه
أجهد الفـــــارس الملح وأفنى   نبله حوله ، وأضنى حصـــانه
وهويعدو لاالرأسمال من الآيـ   ـن ، ولا قلبه شـــكا خفقانه
مد شوقى اليه نظرة ســـــحر   عوقت دون شـــــوطه جريانه
فأتى مشية المقيــــــد يسـعى   بين هول وذلـة واستــــكانه

ثم يتحدث عن غزله الذى يشبه غزل الجارم فى برودة عاطفته غير أن الجارم يمجده فيقول :

تسمع الحب فى نواحيه همسا   يتناجى ويشتـــــكى أشجانه
وتحس الهوى يرف حنانا   شرك الحب أن تحس حنانه

كما يتحدث عن وصفه للطبيعــــة ، وعن رثائه ، ورواياته ، وطريقة نظمه :

يغمض العين فى اضطراب اذا حـــس طروق الالهام أو غشيانه
ثم يملى كأنه من كتـــاب قارىء فى ســـهولة ومرانه

ومن حبه لتاريخ مصر ، وعشقه للنيل ، والجزيرة ، والجسر ، والسفائن وريف عين شمس ، ومدح فؤاد ، أو عن سبقه وفنه ، وحكمته في شعره وصدق خياله ، وروعته ، ورصانته ، وعن أسلوبه البحترى وقوته ٠

ويتحدث أيضا عن مجير الفصحى ، وبيعة الامارة ، وأخيرا يحدثنا عن أخلاقه التى تتميز بالصبا والحجا والسماح ، وبالشمم فى تواضع ، والحياء فى وقار ، والفطنة فى لقانة ، والحديث الحلو واليقين بالله ٠

وعلى العموم فرثاء الجارم لشوقى رثاء الدارس المحب المفتون فاذا ما انتقل الى رثاء الزهاوى عاد الى مبالغته التى رأيناها فى رثاء صبرى ، ولكنه يبدأ قصيدته بحديثه عن الروض الذى شبه به الشعر والأدب ، ويوازن بين الروض فى حالين مختلفين ، حـال البشاشة والأنس ، وحال الذبول والأسى ٠

تلفت أين الروض أين مــكانه وأين مجاليه وأين بواكـره ؟
وأين الذى لم تطرق الاذن مثله اذا صدحت فوق الغصون مزاهره ؟

* * *

سل الروض ان أصغت اليك رسومه متى روعت اطـــلاؤه وجـآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده لذى الغلة الصادى وطابت مصادره

يتحدث عن الروض في سبعة وعشرين بيتا ، ثم يتحدث عن شعر الزهاوى وعن نبوغه ولوذعيته ، واعجاز بيانه ، وعن أمنيات العذارى :

تمنى العذارى لو تقلـدن دره ورفت على أجيادهن جواهـــره
ويزهى العيون الدعج انسوادها شبيه بما ضمت عليه محابره
وما جاشت الصهباء الا لأنهـا وقد صفقوا مشمولها لا تناظره
تمر به مرا فيسبيك بعضـــــه وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره
ترى فيه هذا الكون صورة حاذق أحاطت بأسرار الحياة بصائره

واعتقد أن كل هذا من مبالغات الجارم ، وأن الزهاوى كان جاف العاطفة عميق الفكرة الى درجة أوشك معها أن يدخل فى شعره المعادلات الرياضية ، وان أصدق بيتين فى هذا الرثاء قول الجارم :

تمر به مرا فيسبيك بعضـــــه وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره
وتلمح فيه الرأى فى بعد غوره كما غاص تحت الماء للدر زاخره

ثم يتحدث عن ثورته ، وجرأته ، وبعد رأيه ، وعن العـلاقة الوثيقة بين مصر والعراق والعرب بعامة اثر زيارته لبغداد ٠

فاذا ما رثى بعد ذلك «حفنى ناصف» رأيناه يتجه اتجاها آخر فيوجه حديثه الى القبر ، ولقد سبقه الى ذلك حافظ فى رثائه لمصطفى كامل ٠ يقـول الجـارم موجها حديثه الى القبر : ماذا صنعت بحفنى ؟

مـــاذا صنعت بعـــــلم ؟ وما صنعت بفـــــــن ؟
ومـــا صنعت بفـــــكر ماضى الشـــباب وذهن ؟

ثم يترك حفني وقبره ليتحدث عن نفسه ، وعن شعره ، وعن مأساته في فقدولده ، وأخيرا يتحدث قليلا عن شعر الفقيد ، ويصفه بأنه نقي خال من العلل لطيف مملوء بالنكات والروح الخفيفة التى تستمد خفتها من هيئة صاحبها :

قد كان ضخما جسيمـــا يبـــدو كشامخ حصـــن
اللحـــم رخـــو بـــدين لـــه نعـــومة قطـــن
والصـــدر رحب فســـيح ما جاش يوما بضـــغن
فى وجهه الجهم حســـــن من روحه المســـتكن

ثم يذكر زياراته وهذه الفكاهات التى أفاضت الحديث زلالا .

فـــكاهة مـــن لـــــدنه ونكتـــة من لـــــدنى

وفى رثائه لداود بركات نلمح أثر الفجيعة تغطى على ملامح الفقيد الخاصة فترة طويلة من القصيدة ، ويندمج الشاعر مع المأساة وينظر اليها نظرات عميقة نفاذة ، فيحدثنا عن سير الجنازة ، وعن أصحابه الذين وقف ليلقى عليهم النظرة الأخيرة ، وعن هذه الطريق التى عبدت من قبل نوح ، والتى يجتمع بها الأضداد ، ويلتقى القريب بالبعيد ، والتى يختمها بقوله :

اذا لبس الربيـــع شباب قوم فأسرع ما يفاجأ بالشـــتاء
وكـــل نضيرة فالى ذبـــول وكل مضيئة فالى انطفـــاء
وهل تهوى ثمـــار الأرض الا اذا أدركن غايات النمـــاء

ثم يعود فيهدأ ، ويتحدث عن ملامح الفقيد الخاصة ، وعن هذا القلم الجرىء والقلب الذكى ، وعن أثرهما فى كتاباته الصحفية ، وعن هذا البيان الواضح :

يكاد يسيل فى القرطاس لطفا فتحبسه علامة الانتهاء
بيان لو صدعت به الليالى رأيت الصبح منها فى العشاء
له نور يكاد يسير فيه رهين المحبسين بلا عناء

ثم يعزى أبناء لبنان :

وفى رثائه لقاسم أمين يصف نفسيته المحطمة ، ويتكلم عن الشباب والنبوغ كما يتحدث عن قاسم الخطيب صاحب الرأى الجرىء ، وعن دعوته الى حرية المرأة ·

ولا يخرج عن هذه المعانى فى رثائه لنجيب مترى صاحب دار المعارف العصامى الذى يمثل فى بيته خير الآباء ، ومثله جبرائيل تقلا الصحفى الشجاع صاحب الأهرام ·

حـ ـ رثاؤه للزعماء الوطنيين :

من أمثال «سعد» و «محمد محمود» و «محمود فهمى النقراشى» و«عاطف بركات» · ولا شك أن لكل من هؤلاء دورا خطيرا فى أحداث مصر ، وفى ثورتها ، الا أن «سعدا» قد استأثرت بهأحداث الثورة فهو أشد اتصالا بها أما « عاطف بركات » فبالرغم من أنه نفى مع من نفى من زعماء مصر فى جزيرة «سيشيل» الا أنه قد اشتهر بالعلم والعمل من أجل العلم فهو الذى أنشأ مدرسة القضاء الشرعى ·

وأما «محمد محمود» و «محمود فهمى النقراشى» فلقد لمع نجماهما رئيسين للوزارة المصرية · ولقد رثى الجارم كلا من هؤلاء ·

والسمة العامة لهذا الرثاء تتمثل فى ذكر المجيد من أعمالهم

الوطنية ، ومواقفهم من أحداث الثورة ، وان اختلفت بعض العناصر الجانبية الأخرى تبعا لشخصية المرثى وبقية أعماله ٠

كما تتمثل فى تصوير حالة مصر قبيل الثورة ، ففى رثائه لسعد نرى صورة الدولة المحتلة الخاضعة للحماية التى تعيش على أعصاب أبنائها ، فالذعر يعصف بالقلوب ، والأرض ترجف ،والسماء مريضة ، والنفس حيرى ، والهموم توالى :

والناس فى صمت المنون كأنهم	صور كساها الحزن ثوب خيال
ان حدثوك فبالعيون ليتقــوا	رصد العيون وشرة المغتـــال
والموت يخطر فى الجموع وحوله	أجناده من أنصـــل وعـــوال
واذا بصوت هـــز مصر زئيره	غضب الليوث حمـاية الاشبال

وفى رثائه لمحمد محمود يقول :

دعته مصر وللأحداث ملحمـــة	والخطب ما بين تهدار وتهديد
وأنفس الناس فى ضيق وفى كمد	كأنها زفرة فى صدر معمـــود
حيرى تلوذ بآمال محطمـــــة	كما يلوذ غريم بالمواعيـــد ٠٠
طارت شعاعا وهولا مثلما عصفت	هوج الرياح برمل البيد فى البيد
والجو أكلف والدنيا مقطبـــة	أيامها البيض فى ليلاتها السود
فجاءها خالدى العزم فى نفـــر	شم الأنوف صناديد مناجيـــد

صورة واحدة فى كلتا القصيدتين رأى فيهما الشاعر وسيلة لاظهار فضلهما وقوة شخصيتهما لأنهما أنقذا البلاد وفرجا الغمة ٠

وان كان قد استعاض عن هذا التصوير بوصف «عاطف

بركات» وهو منفى فى جزيرة «سيشيل» كأنه الأسد الهصور الذى يزدرى ألم الأسار وقوة الاصفاد :

سيشيل منه رأت هصورا يزدرى ألم الأسار وقسوة الأصـــفاد
لهفى عليه والديار بعيـــــدة وخيال مصر مراوح ومغـــادى
متوثبا نحـــو المحيط كـــأنه صقر الفلاة بكفـــة الصـــياد
ما دكه عصف الخطوب ولا ونى لزعازع الابراق والايعـــــاد

وهذه السمة العامة نلحظها فى القصائد الثلاثة ، ولو أن سعدا قد استأثر باعجابه فحدثنا عن شخصيته القوية التى رشقتها أحداث الخطوب فأقصدت ولم تخطىء المقتل :

رشقته أحداث الخطوب فأقصدت حرب المنايا الدهم غير ســجال

وعن تاريخ هذه الشخصية التى اتسمت بالقـــوة والارادة والشرف ، ووضوح السريرة والشجاعة فى الخصام :

يزداد فى عصف الشدائد قوة ويجول حين يضيق كل مجـــال
كالشعلة الحمراء لو نكستهـــا لأضفت اشعالا الى إشـــعال
والسيل ان أحكمت سد طريقه دك الحصون فعدن كالاطـــلال

كما حدثنا عن سعد الخطيب ، وعن اعجاز بيانه ، ولعبـــه بعقول السامعين

انقام يخطب قلت حيدرة انبرى للقول فى سمت وصدق مقـال

وتحدث أيضا عن شخصيته وأخلاقه ، ومواقفه فى دارالنيابة ثم أبدع فوصف موته وجنازته ، ودعا الى السير على هداه ٠

أما عاطف فلقد مات فى سنة ١٩٢٤ صغير السن ، وبشائر النصر تلمح فى الأفق ، فلم يهنأ بها ، وان كان قد ترك وراءه أثرا خالدا فى مدرسة القضاء الشرعى ·

وأما محمد محمود فلقد رثاه بوطنيته وبيته الكريم ·

٤ ـ نظرات فى الحياة والموت :

ليست للجارم فلسفة عميقة تتعلق بمشكلة الحياة والموت ، وان كانت له خطرات أوحت بها هوة العلاقة بين سطوة القدر وضعف الانسان · وتتلخص هذه الخطرات فيما يأتى :

أ ـ كل شىء يصير الى نهاية محتومة ، فالربيع يفاجأ بالشتاء ، والشباب تدركه الشيخوخة والفناء ، والقصر العامر يصير بعد حين الى خراب :

كل مهد يصير من بعد حـــين قصر العمـــر أو تطاول لحـدا

* * *

اذا لبس الربيع شباب قـــوم فأسرع ما يفاجأ بالشـــتاء
وكل نضيرة فالى ذبـــــــول وكل مضيئة ـ فالى انطفـــاء
وهل تهوى ثمـــار الأرض الا اذا أدركن غايات النمـــــاء

* * *

دورة الأرض كم أمدت قبيـــلا بحياة ، وكم أبادت قبيـــــلا
نضرة فى أزاهر الصبح تمسى بعد لأى تصوحا وذبـــــولا
رب قصر قد كان ملعب أنس صيرته الأيام ربعـــا محيــلا
وفتاة طوى محاسنها الدهـــ ـر بنانا غضا وخدا أســـــيلا

ب ــ واذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نستسلم لسطوة القدر الذى تحكم فى الأنام فسوى بين الجميع ، بين السيد والعبد، والنملة والأسد ·

والفتى فى الحيــاة رهن عــواد لا يرى دون ملتقاهن بــــدا
حكم الموت فى الأنام فســـوى لم يدع سيدا ولم يبق عبـــدا
بينما يسحق النمال تـــراه باسطا كفه ليقنص أســـدا

* * *

للموت أسلحة يطيح أمامهــا حول الجرىء ، وحيلة المحتــال

جـ ــ وكما خلقنا من تراب نعود الى التراب :

نعـــود الى التراب كما بدأنا فكل حياتنا نقض وغـــزل

ونحن نأكل الأرض ثم تأكلنا الأرض :

نأكل الأرض ثم تأكلنـــا الأر ض دواليك أفرعا وأصـــولا

* * *

وليس تراب الأرض غير ترائب وغير عقول حطمت وقلـــوب
سلوا وجنات الغيد فى ذمة الثرى أتزهى بحسن أم تــدل بطيب
وكانت شباكا للعيون فأصبحت ولست ترى فيهن غير شــحوب

د ــ ولقد تتبع فى رثائه كل ما يتعلق بأهوال الموت ومفازعه فصور ساعة النزع ، وفزع الموت ، كما تتبع ركب الموتى فوصف النعش والجنازة والقبور · يقول فى رثاء اسماعيل صبرى مصورا ساعة النزع ، وان كان يستمد تشبيهاته من محفوظاته مما جمد الصورة :

لو شهدت الردى يحـــوم عليه　　والمنايا ترمي لـــه الا حبـــولا
لرأيت الصمصام لا يقطع الضغـ　　ـث وقد كان صارمـا مصقولا
ورأيت الروح الخفيفـــة حيرى　　ان عبء السقام كان ثقيـــلا

ولقد شبه ركب الموت بركب الابل ، التي لا تمل الطريق ولا يعوقها ظلام الليل ، أو ثقل الحمل :

مضت بهم النجائب مصـعدات　　تمل بها الطريق ولا تمـــــل
زوامل لم يعوقهن ليــــــــل　　ولم يثقل كواهلهن حمـــــل
رآها آدم وعدت بنــــــــوح　　وولى بعدها نســـل ونســـل

كما شبه المشيعين بالحـداة ، والحياة بضحى الصباح ، والموت بدجى السماء .

مضت بهم النجائب مصـعدات　　وللباكين رنات الحـــــــــداء
تجلوا في النجاد ضحى صباح　　وغابوا في الوهاد دجى مســاء
وقفت أزود النظرات منهـــم　　وأصغي للنـــوادب من ورائي
فلم ار اذ نظرت سوى جـــلال　　يهول وما لمست سوى هبـــاء
وناديت الصحاب فبح صـــوتي　　وعاد الى مكدودا ندائـــــــي

وهو هنا يعتمد على الايحاءات والمقابلات في البيت :

تجلوا في النجاد ضحى صباح　　وغابوا في الوهاد دجى مســاء

بين تجلوا وغابوا ، والنجاد والوهاد ، والضحى ، والدجى، والصباح والمساء :

وجعل الركب بمن فيه ينحاز الى الذين من آدم :

وانحـــاز للركب الذى من آدم ما زال يزعجنا رنين حـــداته
سارت به الأجيال تستبق الخطا والقلب مكظوم عـــلى حسراته

وأخيرا يجعل دار الموتى الفلاة عـلى عـادة العرب فى الجزيرة العربية :

فوقفت أنظر فى الفلاة فلمأجد الا جلالا فى فسيح فلاتــه

***

وأبعث فى الصحراء أنات شيق وهل تسمعالصحراء أناتشيق

كما يجعلها غير ذات آفاق يسيرون اليها على غير أنيق :

ذكرت أحبائى وقد سار ركبهم الى غير آفاق على غـــير أنيـق

٥ ــ وقبل أن نغادر هذا الموضوع يحسن أن نشير الى بعض ملاحظات لم يكن الشاعر فيها منطقيا مع طبيعة موضوعة ، أو طبيعة عصره ، أو لم يكن جو القصيدة النفسى فيها واحدا :

أ ــ يقول فى رثاء سعد :

سارت مطية نعشه عجبا به تختال بين الوخـــد والأرقـال
فيها كتابوت الكليم سكينـــة وبقية من هيبـــة وجـــلال

هل هذا التصوير يتمشى مع سير الجنازة ؟ مطية مختالة تسير معجبة بين الوخد والأرقال ، ثم ناس يبكون وهم يودعون الراحل ٠ أين جلال الموت ؟ ثم هل هذا يتمشى مع البيت الذى بعده ٠

فيها كتابوت الكليم سـكينة وبقية من هيبـــة وجلال ؟

ولم جعل فيها بقية فقط من هيبة وجلال ؟

ب ــ يشبه سعدا بالجواد حينما يقول :

ومضى يغبر لا العسير بخـــاذل   أملا ولا نيل السها بمحـــــال

كما يشبه الراحلين بالابل :

بنفس الراحلين مضوا سراعـا   لورد الموت كالهيـــم الظمـــاء

جـ ـ ويقول فى رثاء أبى الفتح أيضا :

فاذا تخطر للجدال مصـــــاولا   فاحذر فتى الفتيـان فى صولاته

السيل فى دفعاته والسيف فى   عزماته ، والموت فى وثبـــاته

وكذلك يقول فى رثاء الاسكندرى :

كأنى أراك اليوم تخطب صائلا   وتهدر تهدار الفنيق المشـــق

وعندى أن هذا لا يفتخر به ·

د ـ من مبالغاته فى رثاء أبى الفتح قوله واصفا حزنه :

خفقان نجم الأفق فى خفقـــانه   وهجـير قيظ البيد من زفراته

الشعر الاجتماعى :

١ ـ تحرير المرأة :

يقول الجارم فى ذكرى قاسم أمين سنة ١٩٣٨ :

قد ذكرناه حين قام ينـــادى   وفهمنا معناه يوم احتســـابه

رب من كنت فى الحياة له حـــر   با شققت الجيوب عند غيـــابه

وتحديت شمسه فـــاذا ولى   تمنيت لمحـــة من ضـــبابه

لم يفز منك مرة بثنـــــاء   فنثرت الأزهار فوق ترابـــه

يعرف الورد حينما ينقضى الصيـ   ـف ، ويبكى النبوغ بعد ذهابه

والمتأمل فى هذه الأبيات يرى أن الجارم قد عبر تعبيرا صادقا وموضوعيا عن موقف الرأى العام والمتنورين منه بخاصة من دعوة قاسم أمين الى حرية المرأة ، فلقد أنكروا دعوته حينما قام ينادى وأكبروا معناها عند وفاته ، لأن الدعوة فى المرحلة الأولى كانت ثورة فى مجتمع رجعى متزمت ، وفى المرحلة الثانية كانت شيئا طبيعيا يساير الحياة والتطور ، فلقد خرجت المرأة الى المجتمع ، واختلطت الطالبات بالطلاب فى ساحة الجامعة ٠

وما دعوة قاسم غير هذين : تحرر من أسر الحجاب ، وتربية وتعليم ٠ والجارم فى أبياته يعبر عن موقفه ، وعن موقف كثير من الكتاب والشعراء من أمثال عبد المطلب ومحرم والرافعى ورجال الدين والقصر ٠ موقف واضح يرفض الدعوة رفضا باتا لأنها خروج على الدين وتقاليده ، وان كان يقابله موقف آخر من بعض المتنورين المتطورين الذين يحاولون الجهر بآرائهم ، ولكن فى هناة ويسر وممالأة وتقية من الرأى العام من أمثال شوقى وحافظ والزهاوى٠

وليست مهمتنا هنا الاستقصاء ، وان كنا نود أن نسلط الأضواء على موقف الجارم ٠

والجارم قد أنكر دعوته حينما قام ينادى ٠ يقول موصيا ابنته ومهاجما عادة التبرج والتزين ، ومفضلا للخمار على السفور فى سنة ١٩١٨ :

يا بنتى ان أردت آية حسن ... وجمالا يزين جسما وعقلا
فانبذى عادة التبرج نبذا ... فجمال النفوس أسمى وأعلا
يصنع الصانعين وردا ولكن ... وردة الروض لا تضارع شكلا
صبغة الله صبغة تبهر النفـ ... ـس تعالى الاله عز وجلا
واجعلى شيمة الحياء خمارا ... فهو بالغادة الكريمة أولى

ذاك نصحي الى فتاتي وسؤلي وابنتي لا ترد للأب سؤلا

ويقول أيضا أنه فهم دعوة قاسم يوم احتسابه !! فهل هذا صحيح ؟ الواقع أنه أبدى تحفظات معينة لو وعاها صاحب الدعوة لما قامت المعارضة في وجهه ، فلو أن قاسما نادى أولا بتطهير المجتمع من الذئاب ، ونادى ثانيا ببعث روح العفة والحياء فى المرأة لما وجدنا في دعوته نكرا فرب جرائم تختال فى ثياب المدنية أنكى وأفتك من ضراء الوحوش فى الغابات !! ورب منقبة متحفظة تحمل فى خبايا نفسها روحا شريرة لأنها حرمت الحياء ، وبعدت عن روح العفة :

يا نصير النساء والدين سمح لو وعينا السرى من آدابه
قد خشينا على الحمائم فى الدو ح أظافير بازه أو عقابه
ان أردت الظباء تمرح فى السهـ ل فطهر أكنافه من ذئابه
كم ضراء وسط المدائن أنكى من ضراء الضرغام فى وسط غابه
وشباك من الجرائم والختـ ـل حواها شيطانهم فى جرابه
واذا الحياء لم يستر الحـ ـسن فماذا يفيده من نقابه

وأما الشق الآخر من دعوة قاسم وهو « تعليم المرأة » فقد تحقق وانه لفرح بذلك :

قمت تدعو البنات للعلم فانظر كيف حلقن فوق شم هضابه
وزها النيل بابنة النيل فاختا ل ، يجر الذيول من اعجابه
وغدا البيت جنة بالتى فيه خصيبا بالأنس بعد يبابه

٢ – تصويره للحياة الاجتماعية :

وللجارم لمسات رقيقة تصور بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في عصره ، وأقول : بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لأنه لم يتفاعل

في الواقع مع المجتمع الذى عاش فيه تفاعلا كاملا ، رغم نشـــأته في بيئة متوسطة برشيد ، ورؤيته لأنماط مختلفة من الناس تضطرب في محيط هذه البيئة ، بين غني مترف ، وفقير معدم ، بين صيادى السمك الذين يجوبون المياه ، ويتحدون صراع الطبيعة ، وغضب البحر ، وبين الفلاحين الذين يخرجون من ديارهم مع الصباح فيعملون ويكدحون ويتصبب العرق من جباههم ليختلط بتراب الارض التى يستغلها ملاكها ، ثم يعودون آخر النهار وقد ازدادوا حرمانا على حرمان .

وحينما انتقل الى القاهرة سكن في « درب السلحدار » بحى الأزهر في غرفة بسطح أحد المنازل ، ورأى بالتأكيد على مد البصر منه ألوانا متعددة لأنماط من الناس يتفاوتون في درجات البؤس والشقاء ، رأى كثيرا من المبانى الاثرية المتهدمة التى تحوى بين أنقاضها أكداسا بشرية تعيش على الجوع وتكافح في سبيل العيش كما رأى كثيرا من المتسكعين ، والمتعطلين ، والجالسين على المقاهى وسائقى عربات الكارو ، ومقاطيع الحسين ، وعصابات الشحاذين، والنشالين ، ومتعاطى الأفيون والمخدرات ، وبنات الهوى ، فلم يلفت نظره من كل ذلك الا « الأعمى والشريد » ولم يساعده على هـذا الالتفات الا دعوة « جمعية رعاية العميان » بمصر حينما أقامت في ١٥ ابريل سنة ١٩٣٧ حفلة بدار الاوبرا الملكية لحض المحسنين على مد يد الاحسان الى هذه الطائفة المسكينة ، وطلبت من الجارم أن يقول قصيدة في الحفل ، والجارم شاعر مرموق المكانة ، فلم لا يقول ؟ لا سيما وأن حافظ ابراهيم كان له في الشعر البائس ألوان متعددة ، والشعر في أمثال هذه المناسبات تقليد متبع !

وما على الشاعر اذا أراد القول الا أن يسترجع بعض الصور التى خبرها عن قرب أيام أن كان طالبا في الأزهر فعرف بؤسها وشقاءها ، فاذا قال فانما يقول عن خبرة قد انشغلت بها نفســه

فى يوم من الأيام ، والطالب المبصر فى الازهر كثيرا ما يختلط بزميله المكفوف ، وكثيرا ما يعطف عليه ، ويتجسم هذا العطف فى قراءته له بعض ما عليه من المواد ·

ومن هنا نرى الجارم يصور حياة العميان فيبدع التصوير حيث يقول على لسان الأعمى :

من مجيرى من حالكات الليالى	نوب الدهر مالكن ومالى
قد طوانى الظلام حتى كأنى	فى دياجى الوجود طيف خيال
كل ليل له زوال وليلى	دق أطنابه لغير زوال
كل ليل له نجوم ··· ولكن	أين أمثالهن من أمثالى
تثب الشمس فى السماء وشمس	عقلت دونها بألف عقال
لا أرى حينما أرى غير حظى	حالك اللون عابس الآمال

ثم يستطرد فى تصويره حياة ذلك الاعمى ، وتصوير الجب الذى يعيش فيه وذلك الظلام الكثيف الذى يلف حياته ، وتلك المشية المترددة الحائرة التى تتلمس الطريق مستعينة بكفها :

أتقرى الطريق فيه بكفى	بين شك وحيرة وضلال
وأحس الهواء فهو دليلى	عن يمينى أسير أو عن شمالى

ولا يكتفى بذلك ، وانما يستمر فى ابداعه فيصور الاعمى مترديا فى هاويات الوهاد ولاهثا فوق شامخات الجبال :

عند صحراء للأعاصير فيها	صخب الجن أو نحيب السعالى
لم يزرها وشى الربيع ولكن	لك ماشئت من نسيج الرمال

ثم يصوره هاويا فى لجة ، تحيط به الظلم من كل جانب :

يفتح الموج بما ضغبيه فيهوى ثم يطفو محطم الأوصال
لا ترى منه غير كف تنادى حينما عقه لسان المقبال
والرياح الرياح تعصف بالمسكين عصف الأيام بالآجال

وهنا وبعد أن يبلغ الشاعر هذه المرحلة يأتى بصور تضطرب فيها الالوان بالصخب والضجيج فتنفطر نفس الأعمى ، ويفتح كفيه وينادى :

يسمع السفن حوله ماخرات من يبالى بمثله من يبالى؟
يسمع الرقص والأهازيج تشدو بين وصل الهوى وهجر الدلال
شغل القوم عنه بالقصف واللهو وهامرا بحب بنت الدوالى
ما لهم والصريع فى غمرة اللجـ ـو يصد الأهوال بالأهوال
لا يريدون أن يشاب لهم صفـ ـو بنوح للبؤس أو أعوال

ثم يكون تعليق الشاعر على هذه الحالة قاسيا وشديدا فيقول:

هكذا تمحل القلوب وأنكى أن تباهى بذلك الأمحال
هكذا تقبر المروءة فى النا س ويقضى على كريم الخلال

ثم يعود ثانية الى الأعمى ، وعصاه ، وبؤسه ، والى حرمانه مما يتمتع به الجميع مع أنه حق مشاع للجميع ، فهو مارأى الروض فى مآزره الخضر ، وما رأى صفحة السماء وما ركب فيها من باهرات اللالى ، وما رأى النيل يختال بين الخمائل ، وما رأى فضة الضحى، ولا عسجد الأصيل :

فدعوه يشهد جمالا من الاحسان ان فاته شهود الجمال
ودعوه يبصر ذبالا من الرحمـ ـة ان عقه ضياء الذبال
قد خبرت الدنيا فلم أر أزكى من يمين تفتحت عن نوال

ويعود أخيرا الى الأغنياء ، ويدعوهم الى الانفاق ، ثم تتزاحم رواسب المناظر القديمة البائسة التى شهدها أيام أن كان فى «درب السلحدار » تتزاحم لتخرج الى الوجود بعد أن طال حبسها فيصورها أيضا تصويرا رائعا حينما يقول :

ان فى بلدة المعـــز جحـــورا   متـــرعات بأدمع الأطفـــــال
كل جحر بالبؤس والفقر مملو   ء ، ولكنه من الزاد خـــــالى
بسقت فيه للجراثيم أفنـــــا   ن تدلت بكل داء عضـــــال
لو رأيت الأشباح من ساكنيــه   لرأيت الأطلال فى الأطلال !

والأعمى وان حرم نعمة الابصار ، فلقد عوضه الله خيرا منها اذ أعطاه البصيرة الكاشفة التى يلمح بها الخطرة الخفية للنفس ويرى بها الحق فى جلالة معناه ، ولقد كان شيخ المعرة كوكبا ساطعا أتى بما لم تستطعه الأوائل !

وأخيرا يدعوهم الى أن ينقذوا هذا العاجز المسكين فيعلموه ويفتحوا أمامه مغاليق الامور ، حتى لا يكتفى بصنع السلال !!

لقد نزل الوحى يدعو الى الترفق بالاعمى ، أما التاريخ فسوف تتلوه الاجيال فأعدوا التاريخ للأجيال ٠

ومن هذا التصوير نرى كيف استطاع الشاعر أن يحرك أوتار الرحمة على كل هذه الطائفة ، وأن يعطينا نموذجا بشريا لكل العميان وهو هنا شاعر حديث كأحدث ما يكون الشعراء « لقد كانت الرحمة فى الأدب القديم تنصب على شخص بعينه : كهكتور ، أو آنتيجون ، أو بولكسين ، أو السيست ، أما الشاعر الحديث فانه يفعل غير ذلك : انه يوقظ فينا العطف على طبقة بأكملها ، أو شعب بأسره ، او طائفة من الناس بتمامها ٠

وكما صور الشاعر حياة الاعمى صور حياة الشريد ،والشريد مشكلة اجتماعية ما زالت فى حاجة الى حل سريع حاسم ، ولقد أسهم الكتاب والشعراء بنصيب موفور فى التنبيه الى خطرهذه المشكلة ، وقلما خلا ديوان شاعر معاصر من تصوير حياة هؤلاء المشردين ٠

والجارم فى وصفه للشريد لا يقل روعة عن غيره ، ولا يقصر انفعاله عن قصيدته السابقة « الاعمى » فالشريد فى كل مكان ، نراه طفلا يحبو ولقيطا ضالا ، ومتشردا يحترف النشل ، أو يتسكع فى الطرقات ٠

ومن المظاهر البائسة التى هزت كيان الشاعر بعنف ، وألهمته صورا واقعية « مظهر الوباء » الذى استشرى فى مصر سنة ١٨٩٥ ، وعرف باسم « وباء الكوليرا » ذلك الذى حصد الارواح وأعجز الأطباء ، ثم عاود زيارته الثقيلة فى سنة ١٩٤٧ ثم وباء مرض « الفيل » برشيد ، فهذه الأمراض تدهم البلاد بين الحين والحين فتقضى على عدد كبير من الأبرياء الذين يسلمون أمرهم لله ،ويستقبلون الموت مكرهين ٠

واذا كان طه حسين قد صور فى « الأيام » هذا المنظر الفاجع متمثلا فى أخيه الشاب الذى دهمه الوباء فقضى عليه ، واستطاع أن يستولى على عيوننا وقلوبنا ، وأن ينقلنا الى قريتهم البعيدة لنشارك أسرته أحزانها ، ونذرف الدمع الحار مع أفرادها ، ونندمج بكل ما أوتينا من أحاسيس وانفعالات مع ما يبدو فى هذه القرية من مظاهر البؤس والحسرة ، فان الجارم قد استطاع أن يعطينا بعض الصور لهؤلاء الذين أصيبوا بالوباء ٠

بعض صور سريعة فيها انفعال وحسرة ومشاركة للآخرين وان

لم تبلغ ما بلغته صورة « طه حسين » في أيامه التي تنقلنا بهدوء الى جوه الحزين في قريته البعيدة ·

وصور الجارم على أى حال تعتبر مشاركة حية ومعبرة عن انفعال صادق لأنه رأى المأساة التى رآها طه حسين ، بل لقد عاشها وهو وان لم يصب بفقد أخيه الا أنه قد أصيب بفقد الناس من حوله ، فلقد أطلق عزرائيل من قيده فبدأ يحصد النفوس ويفترس الأبرياء !!

وشعره هنا يعتمد على الأسلوب الخطابى وان أتى أحيانا بصور سريعة متوالية · ففى سنة ١٨٩٥ ينشىء قصيدته «الوباء» ·

أى هذا « المكروب » مهلا قليلا ... قد تجاوزت فى سراك السبيلا
لست كالواو وأنت كالمنجل الحصـ ... ـاد ان أحسنوا لك التمثيلا

ثم يأتى بصورتين سريعتين صورة طفل فقد أمه فى زحمة « الوباء » وفتاة طرقها ليلة العرس فكان لها الحليل بدل الحليل ، لم يرحم أعينها النجل ولا جمالها الخلاب ·

رب طفل تركت من غير ثدى ... يضرب الأرض ضجة وعويلا
وفتـاة طرقتها ليلة العـر ... س وقبل الحليل كنت الحليلا
كحلوا جفنها فكحلت فيها ... كل جفن أسى وسهدا طويلا
خضبتها يد المواشط صبحا ... فمحاه المطهرين أصيلا
لو رآها جبريل ـ استغفر اللـ ... ـه ـ لألهت عن وحيه جبريلا

وفى سنة ١٩٤١ يسمع أن مرض الفيل قد انتشر برشيد موطن صباه ومرتع أحلامه فيتألم ، ويشتد أله حينما يراها وحدها تبتلى بهذا الوباء :

أرشيد دون المدائن تبقى مستراضا لكل داء وورداً
يفتك السم فى بنيها فلا تر فع كفا ولا تحرك زنداً ؟
ثم تلقى السلام القاء ذل والجراثيم حولها تتحدى

والحق يقال : ان عاطفته هنا ملتهبة ، وانفعاله صادق ، ومن يستطيع أن يستمع الى هذا الاستفهام المنكسر ، ويحبس جيشان العاطفة حينما يقول مخاطبا رشيد :

أصحيح أن الخطوب أصابتـ ـك وأن الأمراض هدتك هدا
وغدا الفيل فيك داء وبيلا نافثا سمه مغيرا مجدا

بل من يستطيع أن يحبس جيشان العاطفة حينما يرى ذلك العامل الذى هده الداء فأرداه ، والذى كان يسعى وراء لقمة العيش ويكد ويكدح فى الحياة :

فغدا كالصريع يلتمس الجهـ ـد ليحيا به فلم يلق جهدا
ان يمش مشى بائسا مستكينا كأسير يجر فى الرجل قدا
خلفه من بنيه أنضاء جوع وهو لا يستطيع للجوع سدا
كلما مد كفه لسؤال أشبعتها اللئام نهرا وطردا

أو يحبس دمعه حينما يرى تلك الفتاة ، الرائعة الجمال ،

الرشيقة القد التى تسبى القلوب حينما ترتدى خمارها ، وتخبىء حسنها فتلعب بالألباب وتثير عليها كوامن الدهر وأحقاده ، فيرميها بسهام من الكوارث عمدا يرميها بحمى خبيثة تغتال محاسنها ،ويلقى برجليها داء الفيل العضال الذى لا يرحم بكاء أمها ، ولا فتنة سحرها ولا صراخ جمالها ، ولا اغراء ابتسامتها أو فتك عيونها •

كم بكت أمها عليها فما أغـرى نواح ولا التحسـر أجـدى
ويحها ،أين سحرها؟أين صارت؟ أين ولى جمالها ؟ أين نـدا ؟
أين أين ابتسامها ؟ ذهب الأنـس ومال الزمان عنها وصدا
أين فتك العيون؟لم يترك الدهـر سيوفا لها ولم يبق غمدا
أين خلخالها ؟ لقـد خلعتـه وهى تبكى أسى وتنفث صهدا
طار خطابها فلم يبق فـرد وتولى حشد يحـذر حشـدا

والبعوض عند الشاعر هو أس الداء ، ولعل لمرض الشاعر بالملاريا وخوفه المزمن من وهم المرض أثرا مباشرا فى حملته المحقة على البعوض القاتل فهذه الفتاة :

لسعتها بعوضـة سكنت بئـرا ، وقد كان جسمها مستعدا
ان هذا البعوض أهلك «نمروذ» وأفنى مالا يعـد وأعـدى
فاحذروه فانه شـر خصـم وتصدوا لحربه ان تصدى

وكان مصر قد ابتليت بهذا البعوض الحامل للسم ، الناقـل للأمراض ، فهذه بعوضة « الجامبيا » تفتك بصعيد مصر سـنة ١٩٤٤ فلا ينج من شرها الا بعد أربع سنوات :

دهمت البلاد بعوضة أجميـة جاءت على قدر لمصر متـاح
دقت لغير ترحـل أطنابهـا ورمت مراسيهـا لغـير براح
وغدت على الماء القراح جيوشها فغدا النمير العذب غير قـراح

السم أقوى فى شنباخرطومها من حد كل مهنـــد ســفاح
كالجن تهوى الليل فى وثباتها وتفر ذعـمـرا من بزوغ صباح

ولذلك فحينما يرى بارقة من الامل تبشر بانتصار الطب على المكروب متمثلة فى همم رجال وزارة الصحة ، وعلى رأسهم الدكتور « على توفيق شوشة » وكيل الوزارة سنة ١٩٤٧ ، نراه يبادر فيمدحه اعترافا بفضله فى استئصال الاوبئة فى مصر ، مصورا فى قصيدته هذه ذلك الصراع الخالد بين الموت والحياة ، بين المكروب والكفاح ، بين اليأس والأمل :

تــداركـ مصر والمكروب يطغى وينفث سمه ويــؤد أدا
طوى آجال أهليهـــا هبـاء وبدد نسلهـــا فتكا ووأدا
فشد عليه مقداما جريئـــا كما هيجت يوم الروع أسـدا
تحداه وصال فلو ســواه أراد لما استطاع ولا تحدى !

ثم أنه يفرح أشد الفرح حينما يرى أن معمل المصل قد تم على يد توفيق شوشة :

معمل المصل وهو فتح مبين بعض ما نال مصر من مآثـراته

ويصف الأطباء بأنهم ملائكة ، وجند شجعان ، وفدائيــون أبطال :

ملائكة اذا لمســـوا عليــلا أزاحوا الداء واستلوا السقاما
وجند فى شجاعتهـــم حياة اذا جلب الجنود بها الحمامـا
فكم أودى بهم داء عقــــام اذا ما حاربوا داء عقـاما

ولا يكتفى بتصوير بعض ما يرى من بؤس وشقاء فى المجتمع بل يتعدى ذلك الى وصف لبعض الادواء الاجتماعية المنتشرة من نفاق

وضيعة نتيجة للتربية الفاسدة ، وللظروف الاجتماعية والسياسية التي ترغم الناس على المالأة والتلون .

وعلى العموم فنظرة الشاعر الى الانسان تميل الى التشاؤم ، فالانسان لم يستطع أن يتغلب على طبيعته فيرتفع الى مستوى الملائكة أو يتمادى فى حيوانيته فيهوى الى مستوى الوحوش فى الغابات ، وانما هو متعب وشقى لأن الله أعطاه الحس والشعور والفكر والارادة فهو فى صراع دائم بين هذه القوى .

متعبة الانسان فى حسه	وشقوة الانسان من فكره
كيف يرجى الصفو من كائن	الحمأ المسنون فى ذره
لم يسم للأملاك فى أوجها	ولا هوى للوحش فى قفره

* * *

كيف نصفو ونحن من عنصر الطين	فسادا وظلمة وجحودا

وحينما تقوم الحرب العالمية الاولى يتجه الى الله فيقول :

يا خالق الناس طغى شرهم	فاهد الحيارى واكشف المهيعا
لم يشبهوا الانسان فى خلة	وأشبهوا الحيات والأسبعا
قد رفع الاحسان من بينهم	وأوشك الايمان أن يرفعا
لولا سنا هديك فى بعضهم	لدكت الأرض بهم أجمعا

والغريب أن كثيرا من الناس يحاولون أن يوفقوا بين الارادات المتصارعة فيظهرون بغير طباعهم ، وينافقون المجتمع الذى يعيشون فيه ، فتزدوج شخصياتهم :

وكم من فتى يقضى بنفسين عيشه	مظاهره نفس ونفس مخابره
تراه مع النساك فى خلواتهم	وفى الحان قد نمت عليه ستائره

لسان كما طال الجرير مسبح ... رياء،ومن خلف اللسان جرائره

* * *

كم رأينا فى الناس من يبهر العيـ ... ـش ، وما فيه غير حسن ثيابه
يملأ الأرض والسماء رياء ... وعيوب الزمان ملء عيابه

* * *

شغل الناس بالفضول وبالحقـ ... ـد ، فان تلق نعمة تلق حقدا

* * *

وهكذا نرى أن الشاعر قد استطاع أن يصور بعض مظاهر الحياة الاجتماعية البائسة فى عصره .

فاذا ما تجاوزنا هذه الحياة البائسة الى حياة المجتمع الاخرى العابثة اللاهية لم نجد للشاعر فيها لا قليلا ولا كثيرا ، اللهم الا وصفه لليلة عرس فى بيت صديقه « محمد بدر الدين » وهروبه سريعا من الوصف الى الفخر بأسرته وبأسرة الممدوح .

أما تتبع مظاهر النهضة فليس للشاعر فيها شيء ، الا اذا اعتبرنا قصائده التى أنشأها بمناسبة افتتاح دار الاذاعة فى سنة ١٩٣٤ ، ثم فى ذكرى هذا الافتتاح فى سنة ١٩٣٧ ، وسنة ١٩٣٨ من هذا القبيل ، والا اذا اعتبرنا قصيدته فى العيد المئوى لوزارة المعارف وقصائده فى المجمع اللغوى تتبعا لمظاهر النهضة كذلك .

وأهم ما يلفت النظر فى هذه القصائد دعوته الشباب الى العلم فبالعلم تسلق مركونى الى العلا :

زمر الشباب ولى ملامة ناصح ... لو تسمعون نصيحة النصاح
بالعلم « مركوني » تسلق للعلا ... وبعزمة الوثابة الطماح
رجل عصامى الأرومة لم ينل ... مجدا بأمون و لا بفتاح

تتطلع الدنيـــا اليه وتمتطي ذكـــرى مآثره متـون رياح
ان التفاخر بالقديم تعـلة والجهل للمجد المؤثل ماحي
والعلم مصباح الحياة فنقبـوا من قبل أن تثبـوا عن المصباح

ودعوته الى الطموح ، والمضاء ، والقوة ، والمزاحمة في الحياة :

يا شباب الحمى ويا جنده الاحـ رار ان فتش الحمى عن كماته
زاحموا في بسمة الدهر أرسا لا ولا تكتفوا بجمع فتـــاته
الطموح الحياة والمجد في الدنيـ ـا مباح لطـالبي هضباتـه
لا ينال الفتى مدى المجد الا بمضاء يربى على وثبـــاته

---

٣ ـ الحرب وأثرها في شعره :

كان يخاف الحرب ، ويخشى خطرهـــا ، ويفزع من دوى القنابل ، ويهرب مسرعا حينما يسمع « صفارة الانذار » الى جوف أحد الخنادق ، ولقد حدث الشاعر محمود غنيم بذلك فقال : (كلفتنا اذاعة الشرق الأدنى بحديث أثناء الحرب العالمية الثانية ، فذهبنا أنا والشاعر محمد عبد الغني حسن الى بيت الجارم باعتباره أكبرنا سنا لنعد الحديث ، وفجأة انطلقت « صفارة الانذار » فتركنا الجارم في بيته ثم حضر بعد ساعة ، ويقول محمود غنيم مفتخرا بينمـا أخذنا أنا ومحمد عبد الغني حسن نشاهد شظايا القنابل ، وهي تتساقط من الطائرات) .

ولقد عاصر الشاعر حربين عالميتين ، وعاش مأساتهمـا بعمق وشاهد أثرهما السيء في بلاده ، وقرأ عن ويلاتهما وما جرتاه على العالم من خراب ودمار ، فاهتزت نفسه من هول ما رأى وما ســمع ، واشتدت آلامه لما يصيب الانسانية في سبيل اطماعها وعبر عن ذلك كله ، وعن مأساة الانسانية من خلال مشاعره فقال :

من سلب الاعين أن تهجعـــا وبذات الطوق أن تسجعا ؟
ومن رمى بالشوك فى مضجعى فبت مكلوم الحشا موجعــا ؟
روعنى والليل فى زيــه من مرجفات الخطب ما روعا٠٠

والواقع ان ارتياع الشاعر من اعلان الحرب يعتبر مشـــاركة صادقة للانسانية فى كل مكان ، مشاركة تخطت الحدود الجغرافية للوطن لتنفعل بما يجرى خارجه من فناء ودمار ٠

والحرب تبدأ كالحصـاة بزاخر لم يدر ان قذفت مدى منداحها
كم هزت الدنيا صواعق نارهـا وأصاب وجه الأرض من لوآحها

ولقد ظفرت الحربين العالميتين من الشاعر بأربع قصائد صور فيها :

(أ) الحرب ومآسيها ٠

(ب) أثر العلم فى فناء البشرية ٠

(ج) أمل الشاعر فى اعلان السلام

(د) أمل مصر بل ارادة مصر فى الحرية والاستقلال ٠

(أ) أما تصويره للحرب ومآسيها فيتضح أولا من هذهالابيات السريعة التى بدأ بها قصيدته « الحرب » فى سنة ١٩١٤ والتى يذكر فيها : نار الوغى التى أطاحت بأهل الغرب ، والريح الزعزع التى هبت عليهم ، والردى الطائف الذى يخترم الانفس ، والصيحة المهلكة التى تصم الآذان ، والموت الذى لم يترك لهم موضعا فى البر أو فى البحر أو فى السماء ، وهذا الجبار الذى يجمعهم عنـــوة ويسوقهم الى الموت ، ويحسو دم القتلى ، وينهش اللحم :

لم يكفه رمح ولا مرهـــف فاتخـــذ المنطاد والمدفعـــا

وخب فيها راكبا رأسه ... للشر ما خب وما أوضعا
قد غصت الارض بأشلائهم ... وأصبح البحر بها مترعا
وآن للعقبان أن تكتفى ... وآن للحيتان أن تشبعا

وها هو ذا قد :

أطلق عزرائيل من قده ... يرتع أنى شاء أن يرتعا
تطربه الحرب بأزجالها ... ويستبيه السيف آن قعقعا
كأنما فى صدرهم .. غلة .. ... أبت لغير الموت أن تنقعا

ويتضح ثانيا من هذه الصورة العاطفية ، صورة ذلك الفارس العظيم وقد ركب فرسه فى فرح وسرور ، واتجه الى ميدان القتال فمشت بنات الحى فى اثره يودعنه ، ويرشقنه بالزهور ، ويكفكفن دموعهن ، ويحبسن زفراتهن خوفا عليه وعلى شبابه ، ثم يودى به الموت فلا قبر هناك ولا مشيعون :

كم فارس يمرح فى سرجه ... يهتز كالغصن وقد أينعا
كأنه الصمصام اذ ينتضى ... وعامل الرمح اذا أشرعا
ماضن بالرفد على وافد ... ولا لوى حقا ولا ضيعا
مات فلا قبر له ماثل ... ولا بكى الباكى ولا شيعا

ويتضح ثالثا من هذا الخراب الذى حل بأرجاء العالم ، فها هى ذى « ليج » و « نامور » المدينتان البلجيكيتان قد أصبحتا بلقعا وها هو ذا الروض وقد ذوى نبته وجفت أزهاره . وها هى ذى باريس عش النسر يغلبها الخطب فتستسلم ، تستسلم بعد أن كانت معهدا لطلاب العلم ، وروضا ممرعا لطلاب الهوى :

ما أحسن السين وجيرانه ... وأحسن المصطاف والمربعا

أريت الحسناء في خدرها   نعم ، دعاها الذعر أن تهلعا
عهدي بها كانت نؤوم الضحى   ملولة ناعمة رعرعا
ما خطبها والنار من حولها   والموت لم يترك لها مفزعا

تستسلم باريس فى الحرب العالمية الاولى ، وتستسلم فى الحرب العالمية الثانية فيأسى الشاعر ويلتاع ، ويتحسر لسرعة استسلامها ، وينشىء قصيدته بأريس فى سنة ١٩٤٤ التى مطلعها :

عرس أقيم على الدم المسفوك   أأردد الألحان أم أبكيك
باريس حيث القريض فمرة   يشدو ، وحينا والها يرثيك
نهكتك داهية الخطوب فلم تدع   للفوز غير حشاشة المنهوك

تتضح مآسى الحرب فى استسلام باريس ، باريس ذات الماضى المجيد ، أم (هو جو) ، ربيبة الشعر والفنون تلك التى تلتقى فيها الثقافة بالمجانة ، كعبة الدنيا :

. . . .   الآن كيف الحال فى ناديك ؟
أترى البلابل لا تزال صوادحا   أم راعها الغربان عن واديك ؟
والغانيات ؟ أفزعت أسرابها   وتفرق السمار عن شاديك؟

وتتضح المأساة أكثر حينما يفر الحماة ، ويهرب المدافعون ، ويتركونها للموت الزؤام ثم يمضون حيارى ذاهلين يقذفون سلاحهم فيصنع منه العدو غلا من حديد كاد يردى باريس ، ثم تنعى الى الدنيا فتشب فى القلوب لوعة حرى :

ولقيت من عسف العدو وكيده   دون الذى لاقيت من أهليك
ولى الحماة فما أجابوا دعوة   لما دعاهم للردى داعيك
تركوك للموت الزؤام وأدبروا   يا ليتهم للموت ما تركوك ..

ومضوا حيارى ذاهلين فما رأوا كفيك ضارعة ، ولا سمعوك
قذفوا السلاح فصبه أعداؤهم غلا فكاد حديده يرديك
ونعيت للدنيا فشبت لوعة أصلى القلوب بحرها ناعيك

ويقول « الباريسيون » انهم اسلموا باريس خوفا على معالم الحضارة فيها أن تمحى ، وياليتها محيت دون هذا التسليم لأن هذا الخوف لن يمنع التاريخ أن يسجل الهزيمة ، ولو طال بهم التصبر ساعة لنجت :

باريس هالتك الدماء غزيرة فسقطت بين نصال جزاريك
خفت القذائف أن تهد معالما فتهدم التاريخ فى أيديك
ما كان أحرى لو دككت الى الثرى وتركت ذكرا ليس بالمدكوك
مابرج « ايفل » حين يسلم مانع همسا يطل غدا باذن بنيك
لو طال صبرك فى المكاره ساعة لرأيت أن الموت قد ينجيك

والواقع أن المأساة الكبرى التى هتكت ستائرها الحرب هى شباب باريس ، فالنعومة والجبن والصعلكة هى مأساتهم الكبرى ، بل مأساة أوطانهم :

ويل الشباب من النعومة انها أعراض سم للشعوب وشيك
ما أتعس الزمن الجديد بفتية قتلوه فى التصفيف والتدليك
قلب كقرط الغانيات مفزع وارادة من حيرة وشكوك
عاشوا صعاليك الحياة وليتهم فازوا بصدق عزيمة الصعلوك
أبقت ليالى الأنس من أخلاقهم فزع النعامة وازدهاء الديك

وتتضح مأساة الحرب أخيرا فى بلاده ، فى هذه الاغارات الجوية والقنابل المتساقطة على مدن هذا الوادى الآمن فى القاهرة وبور سعيد والاسكندرية ، وفى كل مكان :

غير ان مصر لم تستسلم كما استسلمت باريس ، وانما بذلت كل ما في وسعها ، ففي صحرائها لمع النصر ، وهزم «روميل» في معركة العلمين :

بذلت مصر فوق ما يبذل الطو ق ، وقد يسعف النديد النديد ا
في فيافي صحرائها لمع النصر ، وولى « روميل » يعدو طريدا

وان الشاعر ليأس لما أصاب بلاده من هذه الحرب التي هدمت البنيان ، وأزهقت الارواح ، ولقد صور ذلك في قصيدته «الاسكندرية» التي أنشدها في احتفال المؤتمر الطبي الذي عقد بحديقة النزهة سنة ١٩٤٢ ، يذكر فيها نار الصواعق التي نزلت على الثغر الآمن ، والابابيل الملعونة التي تسوق أمامها الموت الزؤام واسراب الجحيم المطلقة في السماء تقذف الضرام واللهب ، فلا تترك أما ولا رضيعا ولا شيخا هرما ولا غلاما :

وخلفك رابض جيش لهـــام يصول مناجزا جيشا لهامـــا
الى العلمين أبدى ناجــذيه وزمجر غاضبا وسطا وحـــاما
وهول ما يهول واستطـــارت بروق تنشر النبـــأ الجســاما

وتستبسل المدينة العظيمة فلا تستجير كما استجارت باريس ، بل تتحدى الخطوب فاذا بعمود السواري يقف مرتفع القامة يناطح السحب في أنفة واعتزاز ، لا كما يقف برج « ايفل » في استسلام وتخاذل :

فما أطلقت صيحة مستجـير ولا شردت عن عين منـــامـا
تحديت الخطوب تزيد هـــولا فتزدادين صـــبرا واعتزامـــا
اذا عزفت بجوك عازفـــات ملأت الجو هزءا وابتســـاما
عمودك في سمائك مشمخـــر عليه السحب ترتطم ارتطامـا
وحصنك لا يلين له حـــديد ولو شهب الدجى كانت سهاما

ويكفى مأساة الحرب أسى انها أظلمت الثغر ، بعد أن كان وضيء المحيا مشرقا ، وأنها حولت هذا الظلام الى حداد مطرز بدموع الثكالى واليتامى ، وأن الملاعب الجميلة أصبحت طللا ركاما ، وأن البحر أصبح مقفرا فلم ينعم بوجه صبوح :

ولم تمش السواحر فيه صبحا   لم تملأ شواطئه غراما

(ب) وأما العلم فمسئول فى نظره عن هذه المأساة فهو الذى دبر العتاد للفتك ، والجنود للدمار ، و

أبدع المهلكات ثم تـوارى   خلفها يملأ الورى تهـديدا

وهو الذى فتت الجبال فمادت ذعرا، وحقت من أفانين كيده ان تميدا:

وقلوب النجوم ترجف أن يجتاز   يوما الى مداهـا الحدودا

ان العلم الضار يشبه الخمر :

فهو كالخمر تنشر الشر والاثـ   م وان كان أصلها عنقودا

والمخترعات :

محدثات عزت على عقل ابليـ   س فعض البنان فدما بليـدا

والعلماء :

عالم فى مكانه ينسف الأر   ض ، وثان يحز منهـا الوريدا

❋ ❋ ❋

نثروا كنانتهم وكل سهامهـا   للفتك والتدمـير والاهـلاك

دخلوا على العقبان فى أوكارها   وتسربوا لمسابح الأسـماك

(ج) اعلان السلام :

وحينما تنتهى الحرب الكونية الثانية فى أوائل مايو سـنة

١٩٤٥ ينشر قصيدته « يوم السلام » فى صباح انتهاء الحرب قصيدة عظيمة فيها انفعال وصدق ، وفرحة مخلصة .

مولد للزمان ثان شهـدنا ه فيا من رأى الزمان وليـدا ؟

يبدأ قصيدته بقوله :

داعب الشرق باسـما وسـعيدا وائتلق يا صباح الناس عيـدا
نسيت لحنهـا الطيور فصـور لبنات الغصون لحنا جـديدا
فزعتها عن الرياض خفافيـ ـش تسد الفضاء غبـرا وسودا
ألفت موحش الظـلام فودت أن تبيد الدنيا وأن لا تبيـدا
فاسجعى يا حمامة السلم للكو ن ، وهزى أعطـافه تغريدا

ثم يعود بذاكرته الى أيام الحرب السود فيصورها ، ويصور مآسيها فى الأرواح والمدن ، وأسبابها ويتمنى ان لو كانت الرجال أسودا اذن لقنعت بالقوت :

قد رأينا الأسود تقنع بالقوت فليت الرجال كانت أسودا

ثم يتسائل أخيرا :

أصحيح عاد السلام الى الـكو ن ، وأضحى ظـلا به ممـدودا
ورنين الأجراس يصدح بالنصـ ـر ، فيا بشرة صباحا مجيدا
سايرتها قلوبنـا ثم زدنـا فأصغنا لشدوهن القصيـدا
رددى رددى ترانيم اسـحا ق ، وهزى الحسان عطفا وجيدا

(د) أمل مصر بل ارادة مصر فى الحرية والاستقلال :

وأخيرا يتساءل : ماذا سنجنى من النصر ؟ وهل الحريات الأربع فى ميثاق الأطلنطى عهد وميثاق ؟ وهل انقادت الممالك للعدل فلا

سيدا ترى أو مسودا ؟ وهل صار الحق حقا ؟ وهل سيسترد العرب حماهم ؟ انه ليترقب نتيجة الحرب ، وتحقيق أمل مصر ففي صحرائها لمع النصر ، وهزم روميل :

ومصر ترجو ، لا بل تريد ...

ليت شعري ماذا سنجني من النصـ ... ـر وهل تصدق الليالي الوعودا ؟
وهل « الأربع الروائع » كانت ... حلمـا أو مواثقـا وعهودا ؟
وهل انقادت الممالك للعـد ... ـل فلا سيدا ترى أو مسودا ؟
وهل الحق صار بالسلم حقا .. ... وأذابت لظى الحروب القيودا ؟
وهل العـرب تسترد حماها ... وتناجي فردوسها المفقودا ؟
وترى السلام مجدا طريفـا ... جاءيحيي بالأمس مجدا تليدا ؟
بذلت مصر فوق ما يبذل الطو ... ق وقد يسعف النديد النديدا
في فيافي صحرائها لمع النصـ ... ـر وولى روميل يعدو طريدا
فهي اذ تنثر الورود تناغي ... أمـلا ضاحـكا يفوق الورودا
وهي ترجو لا بل تريد وأجدى ... بابنة النيل وحدها أن تريدا

الشعر القومي :

١ ـ مفهوم الأدب القومي في العصر الحديث وعند الجارم :

أما في العصر الحديث فلقد كفانا مئونة ذلك المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابيه « ثورة الأدب » و « أوقات الفـراغ » حيث يرى أن مفهوم الأدب القومي ينحصر في شقين :

أولهما : أن نتجه الى تاريخ مصر القديم فنصوره ، ونتغنى به ونخرج منه أدبا حيا يربط مصر الحديثة بمصر الفرعونية لأن الكثير من عاداتنا وتقاليدنا يرجع الى العادات والتقاليد في مصر القديمة .

ثانيهما : أن نتجه الى الطبيعة فنستلهمها أدبا حيا راقيا ولقد أخذ يضرب الأمثلة ، ويقيم الأدلة على أن مصر الحديثة أقرب الى الفرعونية منها الى العربية ، كما أخذ ينشىء كثيرا من القصص مثل : ايزيس وراعيةهاتور وأفروديت ثم حديثأبيس ، وحديثسميراميس ثم أخذ يتغنى بجمال النيل ويحاول أن يكشف عن مفاتنه لأدبائنا وشعرائنا ويغريهم بالذهاب اليه والتملي من محاسنه ، حتى يكون احساسهم بالجمال عميقا ، وحتى يستلهموا هذا النهر الذى يفوق فى جماله كل أنهار أوربا وما يحيط بها ، بل أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات ، الميمون الروحات •

ولقد أحدثت هذه الدعوة رد فعل لدى العقاد ومدرسة الديوان وعند سلامة موسى الذى كان يرى أن نجعل الأدب انسانى الغاية ، عالمى المشكلات •

فالعقاد قاوم فكرة الأدب القومى كما فهمها أصحابها فليس « هو الأدب الذى تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالأسماء والتواريخ والحوادث ، وهكذا كان جيل شوقى وحافظ يفهم«القومية» التى تنبغى لشعراء المصريين فليس من الأدب القومى عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الانسانية أو يصف المحيط الأطلسى أو نهر دجلة ، أو مناظر لندن وباريس لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم وأخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية ، وهى فكرة خاطئة ناقصة تنفيها أمثلة العظماء من الشعراء فى كل زمن وكل أمة •

وهيكل والعقاد كلاهما يمثل من وجهة نظره أسلوب مدرسة جمالية •

فسارتر يرى أن الطريق الفعلى للخلود هو الخصوصية المحلية

والارتباط بقضايا الوطن والشعب ، وقضايا العصر لـكى يضيف جديدا الى الملامح الانسانية العامة ، وما ينبغى لأديب أن يولى ظهره لوطنه وهو يحترق ليتجه الى ما يسمى بالقضايا الانسانية العامة ٠
وهو يكاد يلتقى مع القوميين فى فهمهم للأدب القومى ٠

والناقد الفرنسى ج٠م٠ جويو يرى أن الوطن فى نظر المفكر الحديث « انما هو وطن وحدة تامة هى الانسانية حتى لقد أصبحنـا لا نرى فى الدرامة والروايات الحديثـة كروايات فيـكتور هوجر ودراماته ، ذلك التطرف فى حب الوطن الذى عبر عنـه « كورنى » تعبيرا قويا فى « هوراس » ٠ لقد أصبح حب الوطن ممتـزجا بحب الانسانية ، ولعل كثيرا من الفلاسفة والشعراء أن يقلعوا عن محبة الوطن الذى ولدوا فيـــه ، وعن التغنى به لو بدا لهم على فرض المستحيل أن بقاءه مضر بالانسانية ٠

وأما الجارم فاعتقد أن مفهوم الأدب القومى عنده لم يخرج عن الارتباط بالقوم ، وتصور حالهم ، واحياء تاريخهم ، وتمجيد آثارهم والتغنى بالمناظر الجميلة التى تموج بها ديارهم ٠

ومصر فى النصف الأول من هذا القرن كانت أشد ما تـكون حاجة الى هذا الأدب كما فهمه الجارم ، فهو الذى يحيى ميت الآمال ويبث الهمة فى القلوب ، ويهاجم الأعداء ، ويدافع عن الوطن ، ولقد حمل لواءه فى صدق واخلاص أمثال شوقى ، وحافظ ، ونسـيم ، ومحرم ، وعبد المطلب ، وكان لـكل منهم موقف خاص مع الاستعمار ومع النهضة ، ومع الثورة الوطنية ٠

٢ ـ فما موقف الجارم ؟

لعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر آسفين أن الجارم قـد وقف موقفا سلبيا من أحداث وطنه ومن المستعمرين ٠٠

فالمتتبع لاشعاره لا يرى فيها تلك الروح الثائرة التى ألهمت حافظا فى أوليات حياته شعره الوطنى ، والتى دفعت أمثال شوقى ومحرم ومحمود محمد صادق الى تتبع أحداث الثورة والهاب العاطفة فى قلوب الوطنيين ، مع أنه كان يدرك بعمق هذه الحقيقة التى تغنى بها كثيرا فى شعره ، والتى من أجلها زعم أنه سيوظف شعره فى خدمة الدولة حيث يقول :

الشعر للملك جيش لايصاوله   جلاد مرهفة أو فتك بتار

ولكنه عند التطبيق يقف موقفا سلبيا بفلسفه بصراحة حيث يقول فى مخاطبة « قمرى النيل » وهو فى طريقه الى السودان فى سنة ١٩٤٢ أى فى أخريات حياته :

خذ الحياة بايمان وفلسفة   فرب شر غدا بالخير مقرونا ..
فكم وزنا فما أجدت موازنة   فى صفحة الغيب مايعيى الموازينا
الكون كونه الرحمن من قدم   فهل تريد له يا طير تكوينا ؟

ومن المعروف أنه أنشأ هذه القصيدة والروح الوطنية عالية ، ونغمة الاستقلال يتردد صداها فى أنحاء الوادى رغم ما كان يحيط بمصر فى ذلك الوقت ـ أى فى أثناء الحرب العالمية الثانية ـ من حلوكة وظلام .

ولعل فى هذه السلبية تنمية لنظرية الأستاذ الامام محمد عبده فى السياسة حيث يقول فى أمر الحكومة والمحكوم : انى تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره .

وهذه السياسة اليائسة الهاربة ينميها الجارم فى شعره ، ويصرح بها فى كثير من الاحيان ، ويزعم أن شعره سلمى يخاف من المعارك ويرتاع من حفيف النبال ، ويفزع من الفخ كالطائر :

أنا في السلم عبقرى القوافى
ليس لى فى الظبا ولا فى النصال
أنا شـــعرى كالطير يفزعه الفـــ
ـــخ ، ويرتاع من حفيف النبال
لا تعيش الطيور بين كفـاح
راكب رأسه وبين نضـــال
خفـت ان اشـــعلت لظى الحـــ
ـــرب أنأنشد بيتا جرىمع الامثال
لم أكن من جناتهــا (علم اللـ
ــه) وانى بحرها اليـــوم صال

واعتقاد الشاعر ان الفنون لا تعيش بين نضال راكب رأسه ، يخالفه واقع وطنه المستعمر ، كما يخـــالف رأى الجارم نفسه فى وظيفة الشعر ٠

وكيف لا يشترك الفن والشعر منه بخـاصة فى ذلك الواجب المقـــدس ؟ ان مالك حداد الشاعر الجزائرى شاعر ثورى ، ولكنه شاعر انسان يؤمن بالمحبة بين البشر ، ويعشق السلام ، ولكنه يرى الثـورة ضرورة لاقرار السلام : « ليس للدم مذاق ســـائغ انى لأوثر الندى ، ولكن هذا لا يدعوك لتجنب الجبل ، أنت ربان طائرة تعرف ذلك جيدا ٠ ان وجود السحب هو الدافع لصعود الجبل ، هذه السحب الكثيفة المزعجة التى تبدو تجاعيدها فى بعض الاحيان كجبين كئيب » ٠

بل لعل هذه السلبية هى التى دفعته الى أن يختار زمن روايته « غادة رشيد » أيام الاحتلال الفرنسى ، وقد كان من الممكن أنيختار سنة ١٨٠٧ زمن أن انتصر أهل رشيد على حملة فريزر الانجليزية كما فعل بعد ذلك الرئيس جمال عبد الناصر ٠

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن :

٣ ـ العوامل التى جعلت من الجارم هذا الشاعر السلبى :

(أ) نشأته فى أول عهد الاستعمار

ومن العجيب انه ولد فى عام ١٨٨٢ ، وعاصر كل الاحداث ، وفتح عينيه أول ما فتح فرأى الهزيمة المنكرة بعد فشل ثورة عرابى، ورأى النفوس المضعضعة ، كما رأى جبروت المستعمر فى عنفوانه .

يقول مخاطبا الوباء فى مصر سنة ١٨٩٥ :

ان فى مصر غير موتك موتا

ترك الاروع الأعز ذليلا

ولو أنه قد نشأ قبل عهد الاحتلال ، وشاهد الثورة العرابية، والتهب شعوره مع الاحداث الوطنية لكان قادرا على الموازنة بين الحالتين مفضلا للحرية على العبودية ، متغنيا بأناشيد الاحرار .

٢ ـ وحينما شب وشبت الروح الوطنية على يد مصطفى كامل والحزب الوطني دخل فى سجن الوظيفة فابتعد عن السياسة ومشكلاتها خوفا من ضياع وظيفته ، حيث لم يكن عنده من الدخل ما يغنيه عنها .

٣ ـ وتشاء الظروف أن يسافر الى بعثة دراسية فى انجلترا، وفى البعثة نرى روح الصداقة والاعجاب بالانجليز تنعكس على نتاج الشاعر نرى ذلك فى غادة رشيد كما نراه فى شعره .

ففى غادة رشيد نرى صداقة محمود العسال مع التاجر الانجليزى الرشيدى « نيكلسون » تزيد وتنمو أواصرها الى درجة المصاهرة فيتزوج « محمود » من « لورا » ابنة «نيكلسون» .

وفى هذا دليل على روح المودة والاعجاب ..

بل لقد صرح بهذا الاعجاب فى آكثر من موضع ، فها هو ذا يقول على لسان نيكلسون سنة ١٧٩٨ لمحمود العسال ونابليون يهدد الجزيرة البريطانية :

انى واثق ان بلادى لن تنـــال ، وان لهـــا من قلوب أهلها وشجاعتهم سورا من الفولاذ يصد عنها كل فاتح ، ان غزوها محال.

ويقول على لسان محمود العسال للورا « اننى كلما فكرت فى انك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولمحت مافيك من الاعتزاز بقومك الذى لا يحوم بخيـــال غاصب أن يقترب من شواطئهم أدركنى ما يشـــبه الحسد ووددت أن أفخر ببلادى كما تفخرين .

وفى شعره يتمنى ان لو كان منهم ، اذن لامتنع على الدهر ، فأرضهم قد أودعها الله بدائع الحسن :

أرض كأن اله الارض أودعها
بدائـع الحسن من عـون وأبكار
القوا خدود العذارى فى حدائقها
ولقبوها بأثمـار وأزهار

. . . .

. . . .

لوكان فى عنصرى صلصال طينتها
ما راعنى الدهر فى يـوم بأكدار
أو كنت أظفر فى الاخرى بجنتهـا
غسلت بالدمع آثامى وأوزارى .

ومن الغريب انه وصف شباب الانجليز بالكرم والشجاعة ، واعتدال القامة ، فهم كرماح الخط ، وكأنهم فتيان العرب الذين تغنى بهم شعراء العربية • يقول الجارم :

وفتية كرماح الخط ان خطروا
فديت بالنفس منهم كل خطار
بيض الوجوه مساميح الاكف منا
جيد الصريخ سراة غير أغرار
لا ينزل الضيف صبحا عقر دارهم
الا ويمس عشاء صاحب الدار

وفى الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ يقترب الالمان من « باريس » فتهرب الحكومة الى « بوردو » ويتوقع الناس سقوط العاصمة بين لحظة وأخرى وهنا يتجه الى ضراغم الماء ، الى الانجليز ، فهم أولو النجدة ، وقد دعاهم الجار الى نجدته فليلبوا النداء :

ضراغم الماء ثبوا وثبة ... آن لهذا الغيل ان يمنعا
دعاكم الجار (١) فكنتم الى ... دعائه من صبوته أسرعا
وسرتم للموت فى جحفل ... ماضيم رعديدا ولا امعا
من كل شعشاع خفيف الخطا ... ذى مرة منجرد أروعا ..
لو مادت الأجبال من تحته ... أو خرت الأفلاك ما زعزعا

وهنا يجب أن ننبه الى أن الجارم لم يكن وحده فى هذا الاعجاب ، فشوقى مدح الانجليز فقال :

الله أدركه بكم وبأمة ... كالمسلمين الأولين عقولا

---

(١) بلجيكا

وحافظ مدح فقال :

يا دولة فوق اعلام لهـــا أسد   تخشى بوادره الدنيـــا اذا زأرا

فاذا ما انجابت هذه القيود وجدنا النغم الخافت يعلو فبينما هو يقول فى سنة ١٨٩٥ مخاطبا الوباء ، ومعبرا عن حالة المصريين المعنوية :

ان فى مصر غير موتك موتـــا   ترك الاروع الاعـــز ذليـــــلا

اذا به يصف احداث ثورة ١٩١٩ ولكن للأســف بعد حوالى عشر سنين فى رثاء سعد زغلول فيصور الأحداث المترسبة فى أعماق نفسه بعد أن مرت العاصفة :

أرأيت مصر تهب لاســتقلالهـــا   والسيف يلمع فوق كل قذال

والذعر يعصف بالقلوب كماجرت   هوج الرياح على كثيب رمـــال

والأرض ترجف والسماء مريضة   والنفس حيرى والهمـــوم توالى

والناس فى صمت المنون كأنهم   .. ..

ثم اذا به وقد أحيل الى التقاعد ينشىء قصيدة « اعلان السلام» فى سنة ١٩٤٥ صبيحة انتهاء الحرب العالمية الثانية فيصور فيهـــا مآسى الحرب ويتساءل بصراحة وشجاعة : ماذا سنجنى من النصر ؟ وهل الحريات الاربع فى ميثاق الاطلنطى عهـــد وميثاق ؟ وهـــل انقادت الممالك للعدل فلا سيدا ولا مسودا ؟ وهل صار الحق حقا ؟ وهل سيسترد العرب حماهم ؟

انه هنا لا يمدح الانجليز كما فعل فى الحرب العالمية الأولى لأنه لا يرجو ولا يخاف .

ثم انه يترقب نتيجة الحرب ، ويود ان يتحقق أمل مصر . ففى صحرائها لمع النصر ، وهزم روميل .

نغم جديد غير انه متعقل لانه يصدر عن شـيخ وقور هذبته الاحداث ، وعن ماض سلبى لم يشارك فى عظائم الأمور ·

٤ ـ عنايته بالتاريخ القومى :

والتاريخ القومى وبعثه هو لب الدعوة التى نادى بها هيكل فى ثورة الأدب ، والشاعر الذى خاض هذا الميدان ووفق فيه غاية التوفيق هو شـوقى الذى تحدث عن الاهرامات ، وابى الهـول ، وسيزوستيريس وتوت عنخ آمون ،ورمسيس ، وقمبيز وكيلوباترا·

أما الجارم فله محاولة من هذا اللون فى قصيدته « مصر » التى مطلعها :

صور الله فيك معنى الخلـود   فابلغى ما أردته ثم زيـــدى
أنت يا مصر جنة الله فى الأر   ض وعين العـــلا وواو الوجود

وهى قصـــيدة طويلة تبلغ التســعين بيتا أنشدها بقاعة المحاضرات بالجامعة المصرية فى افتتاح المؤتمر الطبى العربى الثانى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٩ · ولقد جعل مصر فى هـــذه القصيدة « فتاة » حينما كان الدهر ما يزال طفلا يلهو بطوق الوليد كما جعل الزمان يشيب وهى ما زالت غصن ريحان أخضر ، وجعلها كذلك بسمة فى فم الحسن ، ودمع الحنان فوق الخـدود ، ووردة برية يحيط بها الشوك من كل جانب ليحميها ويدافع عنها :

قد رآك الدهر العتى فتـــاة   وهو طفل يلهو بطوق الوليـد
شاب من حولك الزمان وما زلـ   ـت كغصن الريحانة الاملـود
أنت يا مصر بسمة فى فم الحسـ   ـن ودمع الحنان فوق الخدود
أنت فى القفر وردة حولها الشو   ك وفى الشوك عزة للـــورود

صور جميلة لمصر دلت على خصب شاعرية الجارم ، ثم أخذ يتحدث عن أمجاد مصر من علم وآثار ورجال ٠

عظم يبهـر السـماء وشأو عاق ذات الجناح دون الصعود

ثم أخذ يتساءل ويسأل عن رمسيس ومجده وعظمته وجنوده وكهانه وبنات الوادى اللائى يمشين اختيالا ويحيين بين دف وعود:

أين رمسيس والكمـاة حواليـه مشاة فى الموكب المشهود؟
مـلأ الأرض والسـماء فهذي بجنود وهـذه ببنـود
وجموع الكهان تهتف بالنصـر وتتلوا النشيد أثر النشيد
وبنات الوادى يمسـن اختيالا ويحيين بين دف وعـود

ثم انتقل سريعا بعد ثلاثة وعشرين بيتا اذ أن نفسه لم يحتمل أكثر من ذلك الى الحديث عن العروبة فى مصر :

اين عمرو فتى العروبة والاقدام أو فى مجاهد بالعقـود

كما أخذ يتحدث عن العرب ونهضـتهم التى اشتملت على الحكمة والترجمة والطب واستمر على هذا المنوال متتبعا لعصور العربية فى مصر حتى انتهى الى أسرة محمد على ٠

جاء والناس فى ظلام من الظلـم وعصف من الخطوب شديد
فأزاح الغطـاء عنهم فقامـوا فى ذهول واقبلوا فى سـمود

وأخذ يتحدث عن مظاهر النهضة على يد هذه الأسرة ٠

وعلى أى حال فلقد هرب من تاريخ مصر القـديم الذى دعا « هيكل » الى احيائه ليتحدث عن امجاد العروبة ، وعن تاريخ مصر الحديث ٠

وتعليل هذه الظاهرة فى رأينا لا يخرج عن أن ثقافته فى التاريخ المصرى القديم كانت محدودة ، وان روحه كانت تتجه الى العروبة لا الى الفرعونية .

وحديثه عن مصر الحديثة لا يتعدى الحديث العابر ، فمصر هى كعبة الشرق التى انجبت العلماء والابطال والشعراء والكتاب والخطباء :

أصبحت كعبة يحج اليها الشرق بين الخشوع والإقنات
تتهادى وحق أن تتهادى . بين ماض زاهى الجبين وآت
كل تاريخها كتاب من المجد كريم مطرز الصفحات
بعثت دارس الفنون وأحيت بعد يأس الزمان أم اللغات
وأعادت الى العلوم منارا كان صبح الدجى وهدى السراة
انجبت للبلاد ابطال عزم هم دروع البلاد فى الازمات

وحديثه عن الاسكندرية ذات الماضى العظيم لم يخرج عن هذا التعميم :

جرى التاريخ بين يديك طفلا وشمس الافق لم تعد الفطاما
وصال البحر حولك منذ «مينا» عظيما يدفع الكرب العظاما
يحوط حماك أبيض أحوذيا كما جردت من غمد حساما
فكم غازبه أمسى رميما . وكم فلك به أمست حطاما

الوصف :

قدرة الجارم على التمثيل وبث الحركة ـ تقصيره فى الوصف واسهابه . . .

لم نظفر للجارم بقصيدة مستقلة خلد فيها النيل ، أو وصف فيها الطبيعة ، على الرغم من نشأته برشيد على ضفاف النيل والبحر المتوسط ..

وان كنا قد ظفرنا له بلمحات متناثرة هنا وهناك تتخلل قصائده ساعدتنا على تقييم طاقته الفنية أمام هذا الجنس الادبى الخالص الذى توزن به قيم الشعراء الحقيقية ، كما ساعدتنا على معرفة طبيعة شعره الوصفى .

والجارم وان لم يغن للطبيعة غناء خالصا ، الا انه قد اضطر فغنى لها فى كثير من قصائد المديح ، لقد فرضت الطبيعة نفسها عليه .

وهل يستطيع الجارم ان يتخلص من تأثر نشأته باقليمه الجميل رشيد ؟ أو هل يستطيع أن يقاوم انفعالاته اللاشعورية بمواطن الجمال فى بلاده ؟

لقد غنى للطبيعة فى خلال مدائحه ، وفى خلال ذكرياته عن رشيد والاسكندرية . واستطاع رغم غنائه القليل ان يصور مظاهر الطبيعة المختلفة تصويرا سريعا ساذجا ادى به بعض ما عليه من دين لطبيعة بلاده الجميلة .

فلقد وصف النيل والبحر المتوسط ، كما وصف الروض ، والنخيل والصحراء ، وصور الليل ، وانبثاقة الصبح ، والربيع والشتاء وتحدث عن الطير ، وسجل رحلته الى السودان .

وسوف نتتبع كل مظهر من مظاهر الطبيعة تحدث عنه الجارم على حدة ثم تستنبط من كل ذلك طبيعة شعره الوصفى .

(أ) فلقد وصف النيل والبحر المتوسط عند رشيد فقال :

النيل والبحر الخضم يحوطه والباسقات على الطريق قيام
والتوت والصفاف يهتف طيره فتردد الكثبان والآكام
والزهر فى جيد الرياض قلائد والنهر فى خصر الرياض حزام
والموج كالخيل الجوامح اطلقت وانحل عنها مقود ولجام
تجرى السفائن فوقه وكأنها والريح تدفع بالشراع حمام
ومناظر يعيا القريض بوصفها ويضل فى ألوانها الرسام

وهو هنا يرسم لوحة بسيطة فى خطوطها ، والوانها ، وظلالها تعتمد على احساسات البصر ، فالنيل ، والبحر المحيط به ، والنخيل القائم على الطريق ، والتوت والصفصاف ، والطير المحلق الهاتف ، والكثبان والاكام ، والزهر ، والنهر ، والموج ، والسفائن ، وما يحيط بكل ذلك من اضواء وظلال يكمل اللوحة .

ولقد كنا ننتظر منه أن يعمق احساسه بهذا المنظر ، فيستحضر كل المعانى العميقة المحيطة به ، والتى تتوارد على ذهنه وخواطره ، « فاحساسات البصر احساسات تمثيلية فهى تستمد عمقا جديدا من المعانى الكثيرة التى ارتبطت بها حتى اصبحت مركزا تتجمع حوله اجزاء كاملة من وجودنا ، انها الحياة كلها مكثفة مختصرة فالذكرى عند من وهبت له حاسة البصر ، سلسلة من اللوحات اعنى من الصور والالوان ، وقد تماسكت هذه الصور فاصبحت كل صورة تستدعى الصورة الأخرى ، فاذا نظرت الى وردة فى ابريق مثلا حضرتنى على الفور ذكرى كل الاحساسات والعواطف التى ترتبط عادة بمنظر الوردة فاذا انا أتصور حديقة وغياضا ونزهة وقد أتصور نزهة مع شخص آخر ، وقد أتصور يدا تقطف الزهرة لتقدمها لى ، وقد أتصور الصدر الذى تصلح زينة له ، وهكذا ترى أن اللون البسيط وحده شىء تعبيرى» .

غير أن الجارم لم يفعل من ذلك شيئا ، وانما حاول أن يصور هذا المنظر فى لوحة ساذجة خالية من هذا التوارد المعمق للاحساسات البصرية ..

وهل يعفيه من مسئوليته قوله :

ومناظر يعيا القريض بوصفها ويضل فى ألوانها الرسام ؟

فاذا ما بعد عن رشيد – موطن صباه – وأراد أن يتحدث عن النيل ضعف نفسه ، حتى وهو فى رحلته الى السودان حيث النيل الخالد يشق طريقه الصخرى فى عظمة وجبروت ، وحيث بيوت النوبة العطشى ، التى تمثل الجفاف الصخرى ، والتى تغسل أقدامها فى مياه النيل ثم تحرم منه كالباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لم تلهم شاعر رشيد بشىء من الجلال والعظمة، وان تحدث عمن نزلوا على الشطين

سر أيها النيل فى أمن وفى دعة وزادك الله اعزازا وتمكينا
أنت الكتاب كتاب الدهر أسطره دعت حوادث هذا الكون تدوينا
فكم ملوك على الشطين قد نزلوا كانوا فراعين أو كانوا سلاطينا
فنوتهم كن للأيام معجزة وحكمهم كان للدنيا قوانينا
انا قرأنا الليالى من عواقبها فصار ما يضحك الأغرار يبكينا

واذا أراد كذلك أن يصف البحر المتوسط بعيدا عن رشيد على شاطىء المكس بالاسكندرية لم يجد الا الحديث السريع عن المكس المشرق ، والرمل الطيب المقام ، والموج المترامى فوق الثرى صبا ، والنزهة البديعة :

فمكسك مشرق البسمات ضاح ورملك جنة طابت مقاما
ترامى الموج فوق ثراه صبا وكم صب تمنى لو ترامى
ونزهتك البديعة ما أحيلى وما أبهى اتساقا وانسجاما

اذا انتشرت ازاهرهـا نثـارا   جمعن الحسـن فانتظم انتظاما

فاذا ما أراد أن يخلص وصفه لرشيد بعيدا عن النيل والبحر ضل فى متاهات الصور الجزئية دون تنسيق لها فى لوحة متكاملة، فرشيد وردة بين الرمال ، ودرة البحر ، ودوحة الشعر ، وروضة الأمل ، وصحوة المجد ، وطلعة الحسن :

يا زينة بين الثغور وفتنة   سحر الممالك ثغرك البسام
يا وردة بين الرمال نضيرة   تزهى بها الاغصان والاكمام
يا درة البحر التى بوميضها   ضحك الصباح وأشرق والاظلام
يا دوحة نبت القريض بأرضها   فأصولها وفروعها الهام
يا روضة فتن العيون جمالها   وتحدثت بأريجها الانسام

(ب) الروض :

ويحتل الروض فى شعر الجارم جانبا مهما وان ذكره فى مقدمة بعض قصائده ليستعين بتصويره على ما فى نفسه من خواطر وانفعالات .

وروضة الجارم أحيانا زهراء مثمرة تتيه بغصونها وزهورها وطيورها ، واحيانا أخرى مصوحة مهشمة تبكى طيورها على أصائلها وبكورها ، وعلى زهورها ، وجمال مفاتنها ، على حسب الغرض الذى من أجله سيقت القصيدة .

ففى سنة ١٩٣٧ احتفلت وزارة المعارف المصرية بعيدها المئوى وكان للشاعر فيها قصيدة رائعة صور فيها الروض فأبدع التصوير لان وزارة المعارف روضة العلم والمعرفة :

أخرج الروض أطيب الثمرات   هات ما شئت من قريضك هات

ولا عجب ، فخريجو هذه الوزارة ثمارا ، وطلابها زهرات :

لم تفارق كمامها وشـــذاها ينشر الطيب فى جميع الجهات

ومدارسها غصون ، وأساتذتها حمائم ، وعلمها الغيث •

فى هذه الروضة غرس العلم ، وبذرت القلوب الصغـار ، وسقيت بماء الأزهار ، وحميت بسياج الخلق ، الذى حفظهـا من الرياح ووقاها شره الحشرات •

وقبل ان يلجأ الى عقد موازنة بين الروض ووزارة المعـارف فيستعير صور هذه لتلك ، يتحدث عن روضـة حقيقية فى اثنين وعشرين بيتا ، روضة تتيه غصونها بالازهار ، وازهارها بالغصون فتصير صفحة الرياض سماء ، وتنشر الطيب فى جميع الجهات ، وتسير فيها الريح بخشية وأناة ، تصغى لغناء الحمائم ، وتضحك الأزهار لبكاء الغيث :

واذا ما جرى الغـدير تدانت	لتحيى الغـدير بالقبـلات
ان للروض فى معانيه حسـنا	فوق حسـن الملامح الفـاتنات
فانظر الروض لا ترى غير تبر	من تراب ودرة من حصـاة
حبة انبتت سنابل سبعا	ثم ملء الفضـاء من سنبلات
ونواة جادت بنخـل ونخـل	وارف الظل دائم الثمـرات

وحينمـا يموت شوقى أو الزهاوى نرى روض القـريض هشيما ، وريحانه مقصفا ، وطيره مفزعا يبكى خمائله الذابلة التى كان يغنى فى ظلها ، ويغرد فيبعث فى النفوس الآمال والهمم •

ذوى نبتة بعد البشاشة وارتمت

مصـوحة اثمـاره وزاهـره

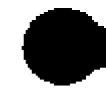
تلفت أين الروض ؟ أين مكانه ؟
وأين مجـــاليه ؟ وأين بواكره ؟
وأين الذى لم يطـرق الأذن مثله ؟
اذا صدحت فوق الغصون مزاهره ؟
حمائم الهاها النعيم عن البكـــا
وأذهلهــــا عن عابس العيش ناضره
اذا أرســـلت الحانها فى خميلة
توثب زهـر الروض واهتز عاطره

(جـ) النخيل والحمائل :

أما النخيل عند الجارم فلقد ارخت شعورهـا ، ومدت ظلهـا فتموج ، وصفت حول اجيادها عقـد العقيق من البلح ، فهى تشبه العذراء دائمـا .

هذه العذراء التى يدنو بها الشوق ، ثم ينأى بها اللوم :

والنخيل النخيل أرخت شعورا	مرســلات ومدت الظل مــدا
كالعذارى يدنو بهاالشوققربا	ثم تنأى مخافة اللوم بعــــدا
حول أجيادها عقـــود عقيق	ونضار صفاؤه ليس يصـدا



أرخت شعورا للنسيم كأنمـــا	أظلالها تحت الغمــــام غمـــام
تهفو ويمنعهـــا الحيـاء فتنثنى	كالغيد روع سربهــــا اللوام

أو هذه العذراء التى تميس فى الحبرات ، تتناهى بها الظلال لتتجمع ثم تدنو لتتفرق ، مثل الرسام ، أو وجه الحسناء الذى يبدو ويخفى !

كم تهادى مع النسيم اختيالا كالعـــذارى يمسن فى الحبرات
تتناءى به الظـــلال لجمع ثم تدنو مدلة لشـــتات
أو كوجه الحسناء يبدو ويخفى بين ميل الهوى وخوف الوشاة

ومثل ذلك الخمائل الحذرة فى الظلام التى تتقى عيون الرائين الراكبين فى القطار :

وللخمائل فى ثوب الدجى حذر كأنها تتـــوقى عين رائينا
كأنهن العذارى خفن عاذلة فمـا تعرضن الا حيث يمضينا

(د) الصحراء :

ولقد أبدع فى وصف الصحراء التى مر بهـــا فى طريقه الى العراق ، أو صحراء العطمور التى اجتازها قاصدا الخرطوم ، فلقد وصف اتساع رقعتها وتموجها بالرمال ، وتخلص النظر بهـــا من مرمى بعيد الى مرمى بعيد :

طالت بنـا الصحراء حتى خلتهـــا أبد الأبيـد
يتخلص المرمى المـديد بها الى مــرمى مـــديد
كتخلص الحســـناء من وعد طوته الى وعـــود

كما وصف اثر الرحلة فى نفسه :

وسفينتى نرن بهـــا ما فى فؤادى من وقــود

❋ ❋ ❋

تطوحنا الصحراء ليس بعيدها بدان ولم نعرف لآخـرها حدا

❋ ❋ ❋

ثم انتقلنا الى الصحراء توسعنا بعـدا ونوسعها صبرا وتهوينا

* * *

عددنا بها الساعات حتى تركتنا وقد سلمت منها اصابعنا عدا

وشبهها بالبحر من غير شاطىء :

بحر بلا شـطين يزخر بالتنائف والنجود

* * *

والرمل يزخر فى هول وفى سعة كالبحر يزخر بالامواج مشحونا

وما أدق تشبيهه لكثبان الرمال الجاثمة على أرضـــها بجمال أنيخت لا تساق ولا تحدى :

كأن الرمال الجاثمـات بأرضها جمال أنيخت لاتساق ولا تحدى

وجعل هذه الكثبان ناعسة تمد طرفها ثم تغفى :

تطل من خلفها الكثبان ناعسة يمـددن طرفا كليلا ثم يغفينا

وصور السراب الخادع ، وربـط بينه وبين المرائين فى توارد خواطر جميل :

وكم سراب بعيـد راح يخدعنا فقلت : حتى هنا نلقى المرائينا

وجعلها أرض النوم والاحلام :

أرض من النوم والاحلام قد خلقت فهل لهـا نبأ عند ابن سيرينا

كأنمـا بسـط الرحمن رقعتها من قبل أن يخلق الامواه والطينا

(هـ) الليل :

وكما استهوته الامـكنة فوصفها ، اســتهوته كذلك الازمنة والفصول ، فتحدث عن الليل ، والصباح ، والربيع والشتاء .

وحديثه عن كل ذلك لم يخرج عن تصوير احساساته أمام هذه الازمنة التى أثارت انفعاله ، بصرف النظر عن كونها جميلة فعلا ، أو أنه استطاع أن يلمح فيها موطن جمال خفى •

فحديثه عن الليل يرتبط دائما بروح هادئة طيبة فى ليلة عيد أو فى ليلة ندوة أدبية ، وتصويره لليل يرتبط بصورة الزنجى أو الراهب •

فالزنجى يستمع الى غناء بلابل الأدب فيبتسم ، فتفتر مشافره عن زهر النجوم ، وهو مع ذلك متعصب لزنجيته متمن لها أن تزداد اظلاما حتى يتمتع في هدوئه بهـذا الغنـــاء ؟ فلو ان الغيد ضمت شعورها الى شعره فطالت غدائره ، ولو أن الفجر عوق سيره، وطاش به الطريق ، وزلت بشطآن المجرة رجله لتحققت أمانيه :

يصيخ اليها أسود الليل باسما فتفتر عن زهر النجوم مشافره
يود لو ان الغيد ضمت شعورها الىشعره الداجى فطالت غدائره
ويرجو لو ان الفجر عوق سيره وطاش به نائى الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله فطوحه فى غمرة اليم زاخـره

أما الراهب فلقد تردى الليل مسوحه ، وسارت ذوائبه تسد الخافقين ، ثم أخذ ينظر من عليائه الى الارض فى ليلة العيد ، تتلألأ أساريره للاحسان ، ويتموج فيعلو البر والبحر موجه ، تسبح عليه سفائن النجوم التى لم يعرف لها الدهر ساحلا :

تردىمسوح النسك فىزىراهب وسارت تســد الخافقين ذوائبه
وأعجبه ان دارت الارض تحته كدور شريط ما تناهى عجائبه
اذا أبصر الاحسان فيها تلألأت أساريره واهتز بالعجب جانبه
يموج فيعلو البر والبحر موجه وتملك أرجاء الفضـاء مذاهبه

فاذا ما ترك ظلام الليـــل الذى ألهمه هاتين الصورتين التى سبقه الى احداهما أبو العلاء فى قوله :

ليلتى هذه عروس من الزنـــــج عليها قلائد من جمان

وأراد أن يصور صورة مشرقة لليلة عرس عجز ، فلم يتحدث الا عن سرعة مــــرورها وتمنى الكواعب الا تنتهى ، حتى ولو مدت بغدائرهن السوداء أو بحبات عيونهن :

يا ليـــلة حمـــدت بهـا عقبى الموارد والمصـــادر

مـــرت كحسوة طـــائر قصرا وكرات الخـــواطر

ود الـــكواعب لم تمـــد بمـــالهن من الغدائر

أو لـــو وصلن ســـوادها بسواد حبـــات النواظر

أين وصف ليلة العرس ؟ وأين التقاليد المصرية المتعارف عليها فى الأفراح ؟ ماذا حدث فى هذه الليلة التى مرت كحسوة الطائر أو كرة الخاطر ؟ لم يقل الشاعر شيئا ، وكان أولى به أن يعكس ما رأى من خلال مرآته الفنية لـكى يضيف الى أدبنا العربى مشهدا حيا لليلة عرس مصرية ..

غير أنه والحق يقال صور فى أدبه النثرى ليالى الأنس والطرب وغناء بلابل الأدب .

(و) الصباح :

فاذا ما أشرقت الشمس بعد هذا الليل الطويل المظـــلم الذى عاشه الشاعر كثيرا وهو ينظم أشعاره ، وعادت الى الـكون حياته ، فصحت الأزهار من وسناتها ، واستقبلت الأطيار بســــمة نوره ، وصعدت على الأفنان سكرى من السنا فبدأت تغنى استقبله الشاعر حفيا به مرحبا بحماله الذى بدد غياهب الظلام التى كانت تلف الكون بأردية غليظة لولا ما فيها من نجوم :

وللصبح عندى منة كلما بدا	بى الليل أو طالت على هيادبه
أراه فألقى البشر فى قسماته	طهورا كثغر الطفل حين تداعبه
وأشعر أن الكون عادت حياته	اليه وأن الأنس قد آب غائبه
يهش اليه كل حى كأنما	اشعته حلم الصبا ورغائبه
وتصحو له الأزهار من وسناتها	تضاحكه والطل لم يجر ذائبه
وتستقبل الأطيار بسمة نوره	فيبهرنا من كل لحن غرائبه
تراها على الأفنان سكرى من السنا	يناجى أليف ألفه فيجاوبه
قياف أرق الله أوتار عودها	فأحيت أغانيه وأشجت مضاربه

فاذا ما أراد أن يصور الصباح وما فيه من جمال ونشوة لجأ الى الصور الجزئية والتشبيهات السريعة : فعمود الصبح الأبيض يشبه السلسل الضحضاح فوق جليد ، أو اليد البيضاء الكريمة ، أو جيد العذارى ، أو اقتبال الحسن ، أو ابتسام الدل بعد صدود :

أسمعت شدو الطائر الغريد	هزجا يناغى فجر يوم العيد ؟
وبدا عمود الصبح أبيض ناصعا	كالسلسل الضحضاح فوق جليد
أو كاليد البيضاء تنضح بالندى	والغيث، أو جيد العذارى الغيد

(ز) الربيع والشتاء :

وأراد أن يصف الربيع فوصف الشتاء ، لأن الشتاء فى مصر قارص البرد ، كثير المطر ، أما الربيع فمظهره ـ رغم تفتح الأزهار ، وتغريد الطيور وتسلسل المياه ـ غير مثير لأحاسيس الشعراء ، ان رياح الخماسين التى تحمل الهبوب وما يشبه الأعاصير فى مطلع الربيع كافية فى أن تقتل الاحساس بالربيع فى نفوس الشعراء .

ولعل أبا تمام الشاعر الواعى لم يكن عابثا حينما جعل من الربيع مقدمة للمصيف فى قوله :

نزلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديرة لا تكفر

ولعل الجارم هنا كان يتأثر خطى أبى تمام حينما ذكر الربيع والشتاء فى مطلع قصيدته :

اقتبال الربيع فى بسماته نبه الكون بعد طول سباته
ينثر الزهر كالدنانير غضا أين حر النضار من زهراته

غير أن أبا تمام استطاع أن يرسم لوحة رائعة لمظاهر الطبيعة فى الربيع فصور نهار الربيع الممطر الرائق الذى يكاد من الغضارة يمطر ، وصور وجوه الروض ، والزهر وألوانه .

أما الجارم فلقد تحدث عن الشتاء المظلم البارد الممل الممحل ، كما تحدث عن الانسان الفرح ، باقتبال الربيع ، قد تخلص من الشتاء :

قد سئمنا دجى الشتاء فجئنا نرهف النور من سنا لمحاته
وخلعنا الدثار مثل أسير حل من قيده ومن وخزاته
قد ظنناه فى الشتاء وقاء فجمعنا الشتاء فى طياته
تبخل الكف أن تشير من البر د ، ويخشى المقرور من لفتاته
جمدت صولة اللسان وكادت تجمد الهاتفات من كلماته
واختفى الطير واختفى كل صوت موصلى الأداء فى لهواته
ورأينا الأشجار يسلبها الحسـ ـن سنا حليه وسحر شياته
مال فيها برأسه كل فرع باحثا فى التراب عن ورقاته
يهرم الدهر فى الشتاء ويلقى ما مضى فى الربيع من صبواته

فاذا وصل الى الربيع صوره بأنه تخت الوجود غنى به الطير ، وسايرته الأزهار فى الغناء فهى تهفو يمينا وشمالا على هوى نغماته ، واذا صفق للغدير انثنى الغصن راقصا :

هو تخت الوجود غنى به الطيـ ـر فهز الغصـون فى دوحاته
سايرته الأزهار تهفو يمينـا وشمالا على هـوى نغمـاته
واذا صفق الغدير انثنى الغصـ ـن نضـير الشباب فى رقصاته

أين هذا من تصوير أبى تمام المفتن الذى يصور الأرض فى الربيع وما عليها من زهور صفراء وحمـراء تتبختر على وهادهـا ونجادها بفئتين من الراقصات :

حتى غدت وهداتها ونجادهـا فئتين فى حلل الربيـع تبختر
مصفرة محمـرة فـكأنها عصب تيمن فى الورى وتمضر

تقصيره فى الوصف وأسبابه :

ومن الدراسة السابقة نجد ان الجارم لم يفتن بالطبيعة رغـم نشأته فى رشيد ، ورغم تفتح عينيه على النيل والبحر وهما يطوقان بلدته ، ويحملان على امواجهما البواخر السـابحة فى الصباح والاصائل والأماسى ، ورغم كثرة النخيل الضارب فى عنان السماء ورغم اعتراضه على أبى الطيب المتنبى لانه قصر فى وصف مصر ، ومن المهم أن نكرر هنا ما قاله الجارم على لسان عائشة بنت رشدين « فى الشاعر الطموح ، لنسأل بدورنا الجارم نفس الأسئلة التى وجهها الى أبى الطيب : يقول الجارم : قالت (عائشة) دعنى اعاتبك يا أبا الطيب : أقمت بيننا أشهرا فمـا اهتزت شاعريتك لوصف ما ترى من روائع المشاهد ولا اجتذب نظرك جمال يوقظ وسـنان القريض . أين من شعرك النيل وأمواجه ، وسفنه السابحات وهو يتهادى بين الشاطئين كالملك بين رعيته ، يجود على الأرض بمائه

نبرا ، فتنثر عليه من أزهارها ياقوتا ودرا ؟ وأين من شعرك تلك الاهرام العاتية التى لم ينحن ظهرها لعواصف الدهر ، وأحداث الزمان ، والتى لو تحدثت بأخبار الملوك الذين أقاموا فى ذراها ، والجيوش التى مرت بها لسمعنا حديثا عجبا يهدى الى الرشد؟أين من شعرك رياض مصر الباسمة ، ومروجها الفاتنة ، ونخيلها الباسقات، ودواحها الظليلات ؟ أحب يا أبا الطيب ان تكون شاعر الدنيا لا شاعر الملوك • أحب أن تصور لنا الحياة حلوة لذيذة كما نحب أن تكون ، أحب أن يكون فى شعرك أمل اليائس ، وعلالة العاشق، وسلوة الحزين ، وهداية الحائر • ان الشعر دنيا جديدة خلقها الله للناس ليفروا اليها كلمات ضاقت بهم دنياهم ، وجعل مفاتيحها فى أيدى الشعراء ، فافتح للناس يا سيدى من أبوابها ما ينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء صور لهم جمال الحياة يا أبا الطيب تصويرا يحبب اليهم الحياة ، واخلق لهم من روائع خيالك كونا جديدا ، فقد ضاق بهم على اتساعه هذا الكون اللعين •

لقد كان الجارم يدرك مدى تقصير أبى الطيب فى وصف مصر، ولكنه للأسف لم يكن ليدرك مدى تقصيره هو لأن مرآته الفنية لم تستطع ان تعكس مدى هذا التقصير ، ولأن هناك عوامل متعددة ساعدت على تقصيره فى هذا الفن الأدبى الخالص ، منها :

(أ) طغيان شعر المناسبات على أغراضه الفنية ، واذا كان شعر المناسبات قد قضى على شاعر عظيم كالمتنبى فدمغ ثلث شعره تقريبا بطابع المديح، وأبعده عن الفن الخالص فى بقية شعره ، فانه حرى من باب أولى ان يقضى على شاعر كالجارم ، افتتن بالمتنبى نفسه ، كما افتتن بغيره من شعراء المديح •••• وساعدته حياته التى كان يحياها ، والظروف المتعددة التى جعلت له مكان الصدارة بعد موت شوقى وحافظ على ذلك ، لقد كان قائد المداحين الى قصر

عابدين . أما الطبيعة فكانت وسيلة ومقدمة الى مدائحه ، لقد حلت محل البدء بالغزل فى الأدب العربى القديم .

(ب) اغترابه الروحى الى الجزيرة العربية .

ولقد أثر هذا الاغتراب فى نظرته الحية الى مواطن الجمال فى بلاده ، لقد كانت مخيلته الفنية تعيش هناك فى جزيرة العرب ، وبالأخص فى العصر الجاهلى حيث تشهد القوم قد اجتمعوا للشورى

من كل مكتهل بالبرد مشتمل   للقول مرتجل ، للهجر مجتنب

وحيث تلمع النـار :

.... فى الظلماء قد نضبت   لطارق الليل والجيران والسغب

وحيث تبصر القوم :

.... يوم الروع قد حشدوا   للموت يجتاح،أو للنصروالغلب

وحيث يحضر :

... الشعراء اللسن قد وقفوا   وللبيان فعال الصارم الذرب

ولا شك أن هيام الشاعر بذلك ، وسيطرته على أغلب شعره الفنى الخالص ــ البعيد عن المدح والرثاء ــ أثر فى بعده عن مواطن الجمال فى بلاده ..

(ج) ولقد نشأ على ضفاف النيل ، وتفتحت عينه على الجمال فى رشيد ، غير ان هذا الجمال لم يثر دهشته لألفته له ، والدهشة مرحلة مبكرة من مراحل الشاعرية وكلما بعد الانسان عن الطبيعة كان أحس بها ، وأصبى اليها ، وكانت فكرتها أبرز فى ذهنـه ، وصورتها اعلق بخاطره .

ولعل هذا هو السر في غناء على محمود طه لمواطن الجمال خارج بلاده على نهر «الرين» أو على «بحيرة كومو» أو أمام مياه «فينيسيا» لقد اندهش على محمود طه لهذا الجمال الذى تفتحت عينه عليه لأول مرة ولقد كان لاندهاشه هذا أثر فى تحويل خياله الى مواطن الجمال فى بلاده حيث النيل ، والبحر ، وبحيرة المنزلة ٠

(د) ولقد كان لتعلق الجارم بتراث العرب المدون أثر لا يقل شأنا عما تقدم من الأسباب ، لقد كان يعيش بين الكتب الصامتة أكثر مما كان يعيش بين الطبيعة الحية ٠

ومع أن تقصيره فى وصف الطبيعة الحية كان ظاهرا الا أننا نلاحظ أنه قصر أيضا فى وصف المخترعات الحديثة ، رغم أن ذلك كان اتجاها بعينه فى الأدب الانجليزى وسايره من شعراء العربية شوقى والبارودى وغيرهما ٠

الغزل :

الحب عند الجارم يضغط غالبا فى منطقة اللاشعور ، لأن الجارم بطبيعته رجل متدين ، نشأ فى بيئة محافظة ، واتجه فى تعليمه الى الأزهر ، وكان له من اخلاقه ونشأته، واتجاهه التعليمى ما يمنعه من ممارسة تجارب عنيفة فى ميدان الحب ، فاذا حدث شىء من ذلك ضغطه فى منطقة اللاشعور ولم يتحدث عنه الا لماما ٠

ونتيجة لهذا فلقد التبس على الدارس غزل الجارم التقليدى بغزله الصادق ، وأصبح فى حاجة الى كثير من الأناة والهدوء ليبرز تجربته الحية فى هذا الميدان حتى لا تختلط بالغـــزل التقليدى الموروث ٠

لقد أحب الجارم بالفعل ، وأحب أكثر من واحدة ، وكانت له مع كل منهن ذكريات حرص أشد الحرص على حجبها عن قرائه ، وان نمت عنها بعض أبياته وقصائده :

(أ) ففى سنة ١٩٠٤ والشاعر على أبواب الدراسة العليا ، وسنه لما تتجاوز الثانية والعشرين نراه يتعلق بفتاة رشيدية أسمها « زينب » ويظهر أن هذه الفتاة كانت جميلة ، وكانت تستغل الحجاب فى أبراز جمالها شأن «فتيات البلدة» اللائى يحاولن دائما لفت الأنظار اليهن عن طريق السفور المحجب ٠

ولقد وقع الشاعر فى غرامها ، ولعبت فعلا بلبه ، وتمادى فى ذلك فقلبه متفتح للتجربة الأولى ٠

زينب اين منك زينب ، والشمـــ
ـــل جميع والعيش خصب الجناب ؟
وبنـــات الثغور يلعبن بالالـــ
ـــباب لعب الشمول بالالبـاب
يتظاهرون بالحجـــاب وهل أذ
كى الجوى غير لؤم ذاك الحجاب
كم وجـــوه تنقبت بســـفور
ووجوه قد أســـفرت بنقـــاب

ثم تكشفت له الحقيقة المرة ، فزينب فتاة هلوك لا تفهم الحب النظيف الذى يفهمه الشاعر المحافظ ، ولا تعرف الا نظرات الدلال والتفنن فى لفت الأنظار ، وماذا عليها اذا هام بها أكثر من واحد بل لعل ذلك كان من لوازم الدلال والجمال ٠

واشركت مع المحب الولهان غيره فثار :

علقت غيرى وترجو صـــلتى عجبـــا ممـا ترجى عجبـــا
هل يحل الغمد سيفان معا ؟ أو يضـــم الليل الا اغلبا ؟

ثم يأتى بأقيسة منطقية يبرر بها ثورته فيقول :

ان هـــذا الحسن كالماء اذا كثر النــاهل منه نضبا
وهو مثل الزهر ان اكثرت من شمه يا زين أمسى حطبـــا

وأخيرا تشتد ثورته فيقول أنه يبغضها ، ويبغض من أجلها كل شيء جميل رغم تعلق قلبه :

قـدك المائس قد بغــض لى كل غصن بين أنفاس الصبا
وجنى خديك قـد زهدنى فى حديث الورد يزهى فى الربا
ابصروا البدر فقالوا وجههـا فتغشـيت بثوبى هربـا
فاحتجب يا بدر عن أعيننــا وعزيز عنـــدنا أن تحجبـا

(ب) وفى سنة ١٩١٣ يعد الشاعر قصيدة ليهنىء بها صديقه محمد بدر الدين بزواجه فيبدؤها بالغزل ويقول :

هذى الديار وأنت شــاعر فانثر كريمات الجواهــر
وافعل كما يلى الهــوى فاكتم حديثك أو فجــاهر
هى من علـــمت مـكانها فاربأ بنفسك أن تخــاطر
حـاذر عـلى وليت شـــعـ ـرى هل يردك قول حاذر ؟
حوراء تسرح فى القـــلو ب كأنهـــا مرح الجـآذر

ثم ينتقل سريعا الى وصف ليلة العرس :

يا ليـــلة حمدت بهـــا عقبى المــوارد والمصادر

وانى لأتساءل لمـاذا بدأ قصيدة التهنئة بالغـزل ؟ ألمجــرد التقليد ؟ أم أن ذلك خضوع لسيطرة اللاشعور ، وان هذه الأبيات ترمز فعلا الى قصة حب كانت للشاعر فى هذه الديار ؟ وانها فى الواقع صراع بين اللاشعور والرقيب فكلما حاولت الظهور منعهـا الرقيب بقوله :

هى من علمت مكانها فاربأ بنفسك أن تخاطر
حاذر على ... ...

ولكن طغيان الرواسب المضغوطة تهتف به :

... ... وليت شعرى هل يردك قول حاذر

وأخيرا لا يستطيع الشاعر الا أن يهرب الى وصف ليلة الزفاف ليبتعد عن هذا الصراع فلربما جرد الشاعر من أثوابه فبرزت لنا قصة حبه ٠

ومن الغريب أن الجارم قد تزوج بعد ذلك بأخت صديقه محمد بدر الدين ٠٠

(جـ) ثم بعد عودته من انجلترا وفى سنة ١٩١٥ تلمح من خلال قصيدته « حنين طائر » أثر الذكريات حبيبة الى نفسه ، جدد أشجانها ذلك الطائر الذى كان يغنى فى الصباح الباكر ، والكون صامت ، والنسيم عليل ٠

وبدلا من أن يستقبل الشاعر شدو الطائر بالارتياح النفسى فيعلل ترديد الصوت بالغناء ، اذا به يلون هذا الغناء بلون نفسه الحزينة فاذا بالطائر يبكى :

هزه شوق الى سكن فبكى للأهل والسكن
ويك لا تجزع لنأى زلة ما لطير الجو من وطن

ثم يأخذ فيذكر قصة قلبه فى انجلترا :

كان لى ألف فأبعده قدر عنى وأبعدنى
أنا مد الدهر أذكره وهو مد الدهر يذكرنى
قد بنينا العش من مهج غسلت من حوبة الدرن
... ...

وظننـــا أن نعيش بــه عيشـــة المستعصم الأمن
فـرمت كف الزمان بــه فــكان العش لــم يكن

وأخيرا يطلب من الطـائر أن يذهب الى « التـايمز » ليصف حاله :

صف له يا طير ما لقيت لأبى الدمــع لم تصــن
صف له روحا معـــذبة مهجتى فى الحب من غبن
صف له عينـــا مقرحة ضـاق عن آلامهـــا بدنى

أما غزله التقليدى فخال من التجربة الحية ، والعاطفة الجياشة وان كان يمتاز بروعة السبك ، وجزالة اللفظ ، وفخامة الموسيقى :

(أ) فله قصيـــدة بعنوان « الحب والحرب » ويقصد بالحرب الحرب العالمية الأولى .

تحدث فيها عن حبه ، وعن حبيبته الهاجرة ، وعن صديقتها التى تدخلت لاصلاح الأمر ، وبدأها بقوله :

ما لى فتنت بلحظك الفتـــاك وسلوت كل مليحــة ألاك
يسراك قد ملكت زمام صبابتى ومضلتى وهداى فى يمناك
فاذا وصلت فكل شىء باسم واذا هجرت فكل شىء باك
هذا دمى فى وجنتيك عرفته لا تستطيع جحوده عينـــاك

ثم يستغل الحوار الجانبى استغلالا رائعا فى قوله :

قالت خليلتها لها لتلينهــا ماذا جنى لـمـا هجرت فتاك ؟
هى نظرة لاقت بعينك مثلها ما كان أغناه وما أغنـــاك ؟
قد كان أرسلها لصيدك لاهيا ففررت منه وعاد فى الاشراك ؟

عهدى به لبق الحديث فما له لايستطيع القــول حين يراك
اياك أن تقضى عليـــه فانه عرف الحياة بحبــه . اياك

ولـكنه للأسف يتخلص من الحب الى الحرب بجامع المشـابهة بين الدماء التى سفكتهـا الحسناء والدماء التى تسـيل فى ميـادين القتـال .

وهذا وحده دليل على الصنعة والتكلف ، وانى لأتساءل : أين هى التجربة ؟ وأين هو الصدق العاطفى ؟ وهل هو يغـار فعلا من الـكؤوس حينما يقول :

انى أغـار من الكئوس فجنبى كأس المدامة أن يقبـل فاك ؟

(ب) للجارم كلام فى الحب لم يربطه بتجربة ، وانما عرضـه عرضا مجردا فجاء باردا متكلفا لا حياة فيه ولا حرارة .

لقد أراد أن يفلسـف الحب ، وأن يحيطه بسـياج متين من الاخلاق ونسى ان الحب الصحيح يهذب الطباع ، ويصقل النفس ، والا فما هو بحب وانما هو فجور وعربدة ..

يقول الجارم :

عاج الخيال فلم يبل أواما
ومضى وخلف فى الضلوع ضراما
مالى وللكحلاء هجت عيونهـا
فملأن قلبى أنصـلا وسـهاما
يا قلب ويحـك ما سمعت لناصح
لما ارتميت ولا اتقيت ملاما
لعبت بك الحسـناء تدنو ساعة
فتثير ما بك ثم تهجر عاما

وكيـف يكون محبا ذلك الذى تلعب به حسناؤه ، فتدنو منه ساعة ، ثم تهجره عاما كاملا ؟

لا ليس هذا هو الحب ..

ثم أستمع الى الجارم حينما يقول :

والحب ما لم تكتنفه شـمائل غـر يعـود معرة وآثاما

ألا يتبادر الى الذهن قول حافظ ابراهيم :

والعلم ما لم تكتنفه شـمائل تعليه كان مطية الاخفـاق

ثم استمع اليه حينما يقول :

والحب أحـلام الشباب هنية ما أطيب الايام والاحـلاما
والحب نازعة الكريم تهزه فيصول سيفا أو يسـيل غماما
والحب نـيران المجـوس لهيبها يحيى النفوس ويقتل الاجساما

أين هو الحب ، أهو هذه التقريرات الجامدة التى أتحفنا بها الشاعر ؟ أين الحرارة ؟ وأين التجربة ؟

(ج) فى سنة ١٩٠١ بدأ فشطر قصيدة اسماعيل صبرى .

يا لواء الحسن أحزاب الهـوى أيقظوا الفتنة فى ظـل اللواء

ومن الواضح انه لم يفهم فى هذه القصيدة معنى الحب ، ولم تمر بها تجربته وانما أراد أن يتلاعب بمعانى اسـماعيل صبرى المتكلفة الخالية أيضا من حرارة التجربة .

(د) صور الجارم اله الحب (كيوبيد) فى شعره كما رآه الغربيون الذين آمنوا به ، وارتقبوا آياته :

قد آمنـوا باله الحب وارتقبوا | آياته بين اجلال واكبـار
وصوروه فتى أعمى اذا رشقت | يداه بالنبـل أصمت كل جبار
عريان ان مسه برد الشتاء فما | له سوى زفرات الوجد من نار
يغشى الفتاة ولم ترقب زيارته | وخدرها بين اغـلاق واستار
فطرفها خاشع من بعـد زورته | وقلبها نهب أوهام وأفكار
تشكو الى أمهـا طيفا ألم بها | والأم أن تستطع باحت بأسرار

أما صاحبنا فلقد كان بنجوة منه ، ولقد كفر باله الحب أخيرا ولم يؤمن به الا ليرتد عن هذا الايمان ٠

الفخر :

والفخر من أغراض الشـعر التقليدية التى قضت عليها روح العصر الحديث بما تحمل من معانى الديمقراطية والاشتراكية ، ونمو الروح الجماعية ٠

ولقد افتخر « الجارم » فى أول حياته الادبية ، ثم خضع لروح العصر فانصرف عن الفـخر بعد أن ترك فى ديوانه قصيدة تقليدية وبضعة أبيات ٠

أما فى القصيدة فلقد افتخر بنفسه ، وبفضـائله ، وبعزمه وحلمه وأشار الى حساده والحاقدين عليه ، وذكر تبرمه وملله من هؤلاء الحاسدين الحاقدين :

سئمت حياتى بين قوم فضائلى | لديهم يغطيها التـدابر والحقد
اذا ما بدت ترنو اليهم فضيلة | تصدى لهـا نذل وكر لها وغد
اذا كان عيبى بينهم اننى فتى | صغير وشعرى بالشبيبة مسود
فمهلا أنا النجم الذى يبصرونه | صغيرا ويخفى قدره عنهم البعد

والتقليد هنا واضح ، وشخصيته تائهة وراء المبالغات الجوفاء التى ملأ بها أبياته ·

وأما فى الابيات فلقد افتخر بجده ، بعلمه ، وبشجاعته الادبية ، وبمكانته الاجتماعية فى رشيد · استمع اليه وهو يقول لصديقه وصهره محمد بدر الدين :

عصر بجدى ثم جد	دك كان بالعلياء زاهر
سهرا فنام البائسو	ن محصنين من المخاطر
وتقاسما فضل الفخا	ر ، وناديا هل من مفاخر
جدى بعلم ناصع	يهدى ، وليل الشك عاكر
وبمقول يفرى الحد	يد ويصرع الخصم المكابر
فى حين جدك بالسما	حة يخجل السحب المواطر

وبهذه اللمحات المحدودة فى ديوانه تحدث الينا عن نفسه وأسرته ·

الحكمة :

وقد جاءت « حكم » الجارم فى ظل النص الادبى فهى بعيدة عن التقرير والتجريد وان كان من الممكن بسهولة استخراجها من النص للاستشهاد بها تبعا لنظام القصيدة العربية القديمة التى تعتمد على وحدة البيت ·

واذا تتبعنا فهارس الديوان ، والفهرس الذى يشتمل على أهم الموضوعات التى فيه بخاصة رأينا ان الحكمة قد احتلت مكانا بارزا ظاهرا تفوق فيه غيرها ·

ولم يكن هذا العمل من الجارم محض اتفاق ، وانما اعتقد انه

كان يهتم للحكمة يزين بها قصيدته الشعرية ، ويرى ان ذلك غاية الاحكام .

وحكم الجارم تخضع لجو النص العام الذى تقع فيه ، وتلون بلونه ، فهناك حكم تأتى فى ظلال المديح ، وحكم تأتى فى ظلال الرثاء أو فى ظلال الشعر الاجتماعى مثل :

واذا الله رام اصـــلاح شعب   سلك القائد الطريق الاسـدا

ومثل :

قد خبرت الدنيا فلم أر أزكى   من يمين تفتحت عن نـوال

ومثل :

رب من كنت فى الحياة له حر   باشققت الجيوب عند غيـابه
وتحديت شمسـه فاذا ولى م   تمنيت لمحة من ضبابـه
لم يفـــز منك مرة بثنـاء   فنثرت الازهــار فوق ترابـه
يعرف الورد حينما ينقضى الصيـ   ـف ويبكى النبوغ بعد ذهـابه

ومثل :

لا تضـــل الشـــعوب مصباحها العلم   يؤاخيـــه راسخ الايمان
فـاذا أطفي السراج فمين   وضـــلال ما تبصر العينـــان

الفصل الثالث

دراسة فنية لشعر الجارم

١ ـ النقد الحديث وتوجيهه للشعر بعد البارودى :

تسلم « البارودى » الراية وتصدى للقيادة فى مجالين ، فى المجال الحربى حيث ظهر نبوغه العسكرى فى المعارك التى خاضها مع جيوش الدولة العلية ضد الثوار ، وفى الثورة العرابية •

وفى المجال الأدبى ، فلقد استطاع بما أوتى من ثقافة عربية خصبة ، وقريحة نفاذة متقدة ، وصبر على الاطلاع على عيون الادب العربى أن يضرب المثل أمام شعراء عصره ، فيأتى بنماذجه القوية التى تعد ثورة على شعر الضعف والركاكة •

وخير النماذج التى حلق بها البارودى الى سماوات الفن قصائده التى عكست انفعال نفسه ، وصدق تجربته فى أحداث الثورة العرابية ، وفى المنفى ، مما حدا بكثير من الشعراء الذين أتوا بعده أن يقفوا أمام هذا التطور المفاجىء فيتأملوه باعجاب ، ويسيروا على هديه ، فيغترفوا من نبع الثقافة العربية الأصيلة التى اغترف منها •

واذا كان البارودى قد ضرب المثل الرائع فى ميدان الثقافة العربية الاصيلة فان كثيرا من المثقفين والمستغربين قد استطاعوا فى أواخر القرن الماضى أن ينقلوا الى الأدب العربى كثيرا من نماذج الأدب

الأوروبى شعره ونثره ، وأن يعرفونا ببعض الاجناس الادبيةالخالصة كالمسرحية والرواية والقصة والأقصوصة والملحمة •

كما استطاعوا فى الوقت نفسه أن يعرفونا بشىء عن الشعر الاوربى وأن يوازنوا بينه وبين الشعر العربى من حيث نظامالقصيدة ومن حيث المعانى والأغراض •

هذا بالاضافة الى هجومهم على القصيدة العربية التى تبـــدأ بالغزل والنسيب لمجرد التقليد •

ولم يقتصر الامر على ذلك وانما وجدنا تيار الثقافة الاوروبية يشتد ويتفاعل مع البيئة المثقفة الجديدة التى فتحت عيونها المبهورة على الادب الرائع الذى أنتجه شعراء الانجليز والفرنسيين منذ عهد النهضة الى مطلع القرن العشرين فأخذتهم روعته وقوته ، وتفاعله مع الحياة ونظرياته النقدية ، وفلسفته الفنية !!

وتأثرت به فى مصر طائفتان :

طائفة تمثل المدرسة الانجليزية فى الادب العربى ، وطائفة أخرى تمثل المدرسة الفرنسية •

وعلى رأس المدرسة الأولى العقاد ، والمازنى ، وشكرى ، وعلى رأس المدرسة الثانية خليل مطران ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومن خيرة شعرائها شوقى ، وعلى طه ، وابراهيم ناجى •

على أن المتتبع لآراء هاتين المدرستين لا يكاد يبعد قليلا فى فهم نظريات كل منهما حتى يقترب فيجد أن كلتا المدرستين تدعو الىوحدة القصيدة من الناحية الفنية ، وان اختلف مفهوم الوحدة تبعا لاتجاه المدرسة •

فالمدرسة الانجليزية تدعو الى البنية الحية فى القصيدة على لسان العقاد •

أما المدرسة الفرنسية فتهاجم القصيدة العربية على لسان خليل مطران لأنه « لم يجد ارتباطا بين المعانى التى تتضمنهاالقصيدة الواحدة ، ولا تلاحما بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها •

كما أن المدرستين قد اتفقتا أيضا على مهاجمة الشعر التقليدى الذى لا يتمشى مع العصر ولا البيئة ، وضربت المثل بنماذج حية رائعة •

ولقد سار التياران الى جانب التيار التقليدى ــ على ما بينهم من اختلاف وتنافر ــ الذى حافظ على الاغراض العربية القديمة من مدح ورثاء وغزل وهجاء ووصف كما اهتم بصحة الالفاظ والتراكيب ومقاييس البلاغة العربية القديمة وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه

وليست مهمتنا دراسة مدارس النقد الادبى بالتفصيل وانما غايتنا لتعريف بالمدرسة لتى ينتمى اليها الجارم ، وتبيين خصائصها الفنية •

٢ ــ المدرسة التى ينتمى اليها الجارم :

واذا كنا نعد شوقى من رجال المدرسة الفرنسية فى الأدب العربى فما ذلك الا لأنه قد تأثر بالمسرح الفرنسى فى نظم مسرحياته العربية تأثرا واضحا ، كما تأثر بالمدرسة الرومانسية الفرنسية فى تغذية اتجاهه للتاريخ القديم ، واهتمامه بالطبيعة والشعر الاجتماعى •

أما فى غير ذلك فلقد كان جل اعتماده على الادب العربى مما جعله فى الطليعة من حيث اشراق الديباجة ، ونصوع الفكرةوجزالة اللفظ ، وقوة الأسر والسيطرة على موسيقى الشعر •

ولقد شاعت مدرسة شوقي في الأوساط التي تميل الى المحافظة كالأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ، كما شاعت بين كثير من المدنيين الذين يدرسون الأدب العربي والأدب الفرنسي .

والجارم أحد أركان المدرسة الدرعمية المتأثرة بشوقي بل ان الجارم كان أكثر شعراء دار العلوم تأثرا بأمير الشعراء لصلته الشخصية ولاعجابه المنقطع النظير الذى جعله منه بمنزلة مهيار من الشريف .

يقول الجارم :

جزيت بشعرك شعرا وهـل — تجازى الخمائل أمطارها
فكنت شريف قوافي البيا — ن وكنت بفضلك مهيارها

ولقد سار الجارم على منوال شوقي في أغراضه الشعرية التقليدية المتوارثة عن الأدب العربي ، كما نهج نهجه في الاهتمام بالتاريخ القديم وان اختلفت البيئة عند كل من الشاعرين ، فشوقي قد اهتم بتاريخ الفراعنة وتاريخ مصر ، والجارم قد اهتم بتاريخ العروبة والعربية في عصورها المختلفة . ونهج نهجه أيضا في كتابة الرواية التاريخية وان اختلفا في الشكل حيث لم يستطع الجارم أن ينافس أميره في مضمار الشعر فلجأ الى النثر ، واتجه بأغلب رواياته النثرية الى التاريخ العربي في عصوره المختلفة الى العصر الحديث .

ومن هنا يتبين أن مدرسة شوقي الادبية قد سيطرت على الجارم وكانت مثله الأعلى بالاضافة الى ما استفاده الجارم من خصائص المدرسة الدرعمية في الأسلوب .

والمدرسة الدرعمية كما حدد أبعادها العقاد مدرسة لغوية عربية سلفية عصرية ، ولكن على منهج فريد بين مناهج المعاهد

السلفية ، والمدارس الأفرنجية ، وبين مناهج المحافظة والتجديد ، ومناهج الابتداع والتقليد ٠

ولا يسعك وأنت تقرأ قصيدة لشاعر من أركان المدرسة الدرعمية أن تحجب فكرة « اللغة » عن خاطرك وأن تنسى أن قائل هذا الشعر يثبت على القديم وان أخذ بنصيبه من الجديد ، وحرص على انتسابه اليه حرصه الى انتسابه الى التراث القديم ٠

وأقرأ هنا وهناك ما شئت من قصائد (المدرسة الدرعمية) فانك ترى التشطير وبيت التخلص ، ومحسنات الاشباه والنظائر ولكنك لا تلبث أن ترى القبعة الى جانب العمامة وأن ترى « الشجون المعتادة » بين الوطن الثقافى الاصيل والوطن الثقافى المستحدث ، وهما حيث كانا يتلاقيان وبينهما برزخ لا يبغيان ٠

٣ ـ موقفه من الثقافة الغربية ، ومذاهب الأدب الحديثة :

ولقد حدد الجارم موقفه من الثقافة الغربية تحديدا واضحا حينما قال فى معرض هجومه على المجددين من الشعراء فى ذكرى شوقى وحافظ سنة ١٩٤٧ ٠

انما الشعر قطعة منك ليست ... من دماء اللاتين واليونان
كل فن له مكان ٠٠ وأهل ... ان غدا العلم ماله من مكان
ان رأيتم اخوة العود للجز ... بند فابكوا سلامة العيدان
لا يهز النخيل الا حنان النا ... ى فى صمت ليلة من حنان
وجهة الشرق غير وجهة الغر ... ب فأنى وكيف يلتقيان ؟

وهو بذلك يقف من الفنون الغربية موقفا حاسما فلا يسمح لها بأن تؤثر فيه أى تأثير لأعتقاده بمحلية الفن ، وبعدم التقاء الشرق والغرب فى مجال الفنون اذا صح أن يلتقيا فى ميدان العلم !!

ولقد هاجم كثير من النقاد شعر الجارم واتهموه بالتقليد والسير فى ركاب القدماء ومن هؤلاء النقاد الدكتور بشر فارس ، وسلامة موسى ، والناقد الكلاسيكى أحمد الشايب الذى كان يقول للجارم فى فبراير سنة ١٩٢٩ فى مجلة كوكب الشرق :

« مهما يكن من شيء فما رأى الاستاذ الجارم اذا قلت له : انك مقصر فى الانتفاع بالادب الغربى والشعر خاصة ما دمت تجيد اللغة الانجليزية ، نعم مقصر على رغم انتفاعه بذلك ، فكان المنتظر من مثله وهو يتقن الادب العربى أن يهضم فيه من أدب الغرب مايلائم حياتنا الادبية التى ترتكز الى درجة قو ية على الثقافة الاجنبية ، ومنه وحده كنا نحصل على تلك الروح الجديدة تختال فى حلل عربية جميلة فيريحنا من تلك الطائفة التى تحاول نقل الروح الانجليزية أو الفرنسية فاذا بها تتعثر فى أساليب خاطئة ، وتتسكع فى ألوان من اللفظ تنبو عن الذوق الصافى والطبع السليم ، وعلى كل فللجارم شعر فى فنون شتى تقوى فيه الروح العربية ، وتتوارى الروح الانجليزية ٠

ولكن الجارم لا يستجيب لكلام النقاد لأن هناك كثيرا من العوامل الوراثية والبيئية والثقافية طبعته بطابع الثقافة العربية الاصيلة ذكرناها فى غير هذا المكان ٠

واذا كان الجارم لم يستفد من الثقافة الغربية بعامة فهو بطبيعة الحال لم يهتم بمذاهب الادب الحديثة ولم يعطها أى اعتبار ٠

وعلى العموم فليس فى شعر الجارم أى أثر للثقافة الغربية اللهم الا اذا استثنينا ترجمة لبعض الاناشيد الاسبانية من اللغة الانجليزية فى كتابه « العرب فى أسبانيا » الى اللغة العربية ٠

والحق أنه قد نجح فى هذه الترجمة ، واعتمد على الجزئيات البسيطة التى تصور الموقف الشعرى فى اطار الحدث العـــام ، والعمل الفنى المتكامل • وهو بذلك يضرب المثل الرائع لما كان يجب عليه أن يفعله •

لقد صور الجارم اعتمادا على الأنشودة الاسبانية المترجمة من الانجليزية هزيمة « لذريق » على يد العرب ، واعتمد على « الحوار الداخلى » والحديث النفسى للمهزوم ، وتصوير الحدث تصـــويرا يعتمد على الجزئيات التى تثير العاطفة والانفعال •

يقول الجارم :

ومزق جيش لذريق وخـــارت ... بمن فيه العزائم والقـــلوب
وحين رأى العزيمة فر يعـــدو ... وحيدا مســـتكينا لا يؤوب
عليه من غبار الحرب ثـــوب ... ومن لون الدمـــاء به لهيب
وتحمل كفه ســـيفا خضيبـــا ... كمنشار أفلتـــــه الحـــروب
فلأمة صدره فيهـــا شـــقوق ... وخوذة رأسه فيهـــا ثقـــوب
أطل بقمـــة فرأى دمـــارا ... له كادت حشاشـــته تذوب
وأعلاما ممزقـــة تبـــدت ... وكل بالدم القـــانى خضيب

كما صور «برنارد » الاسبانى وهو يقود فرســـان ليون فى مذبحة لجيش الافرنج بأسبانيا أيام عبد الرحمن الداخل •

تقول الأنشودة الاسبانية وقد ترجمها الجارم :

مشى برنارد فى جيش خضـــم ... يسوق الى الفرنج به أســـودا
ليحمى أرض اسبانيا ويعـــلى ... شعار « بلاى » والشرف التليدا
وانا سادة الأحرار لكـــــن ... رضينا أن نكون له عبيـــدا

تتابع ريش خوذته ونمضى قريبا كان يقصد أو بعيـدا
وعاهدناه أن نفنى جميعـــا وانا خير من حفظ العهـــودا

وفي غير هذين النصين لم نلمح أثرا جادا للتأثر •

٤ ــ القديم والجديد في شعره من حيث الاغراض والصور والمعاني:

(أ) الأغراض :

أغراض الشعر عند الجارم كثيرة ومتنوعة ، بعضها موروث . والبعض الآخر تظهر عليه روح العصر وملامحه •

أما الاغراض التقليدية التى تمسك بها رغم منافاتها لروح العصر فمن أهمها « المدح » ولقد رأينا من دراستنا لشعره أن المدح يعتبر من أهم الاغراض التى قال فيها اذا ما أحصينا عدد أبيـــاته وقصائده •

ومعنى هذا أن هناك ظاهرة قديمة قد سيطرت على شعوره ولم يستطع التخلص منها ، بل لقد حاول أن ينميها وأن يوظفها في سبيل أغراضه ومطامحه •

والرثاء غرض تقليدى آخر ولكنه يمتاز على المدح بما فيه من صدق الوفاء وروعة الذكرى ، وحرارة العاطفة ، وبتمشيه مع روح العصر ، وكل عصر آخر •

ولقد أجاد فيه الجارم وبخاصة بعد موت ولده البكر الطالب بكلية الهندسة ، وصب فيه كل ما يملك من صدق وانفعال عاطفى ، واستطاع أن يجعل منه نماذج رائعة لفن الرثاء فى الادب العـربى الحديث •

أما الغزل فعلى الرغم من اثراء الشعر العربى بنماذجه الحية

الا أن الجارم لم تمر به فى الواقع تجربة قاسية تستطيع أن تلهم عرائس أحلامه شيئا من لوعات المحبين وصدق عواطفهم ، وهو لذلك يعتبر مقلدا ، فأحيانا يبدأ قصيدته بالغزل وأحيانا أخرى يتمادى فيصور غزلا متكلفا لا أثر فيه للصدق ولا لانفعال ، وربما زاد على ذلك فشطر قصيدة اسماعيل صبرى « يا لواء الحسن أحزاب الهوى .. » واستعار عواطف شاعر متكلف فى حبه فزاده ذلك تكلفا على تكلفه .

وكذلك بعض قصائده فى الفخر التى لا تتمشى مع روح العصر

أما الأغراض العصرية التى افتتن فيها الجارم فقليلة وأهمها شعر العروبة .

والجارم أحد الرواد القلائل فى الشعر العربى بعامة ،والشعر المصرى بخاصة فى بلورة الفكرة العربية . والعمل من أجلها على منهج تخطيطى وفلسفى فريد .

ولقد أكثر الجارم من شعر العروبة ، وتغنى بها فى كثير من المناسبات ،مايجعلنا نؤكد صدق الرجل فى اتجاهه ، واخلاصه له.

أما الشعر القومى فلم يصل فيه الى مستوى حافظ ابراهيم الذى اشتهر به وأجاده .

وكذلك لم يصل بشعره الاجتماعى الى مستوى شوقى أو حافظ أو حتى أحمد محرم .

(ب) الصور :

أما الصور فغالبيتها تقليدية بحتة وان حاول أن يضفى عليها شيئا من رونق الأسلوب ، وبهاء العبارة ، وبحسبك أنه قد استخدم

لابراز الصورة المجاز اللغوى وما يتفرع منه من تشبيه واستعارة أو كناية متوارثة .

ولقد بالغ فى ذلك واشتط فيه فالحبيبة تحكى الظبى فى كناسه ، والبدر فى سمائه ، والممدوح يحكى النجم فى عليائه وفتاة باريس :

عهدى بها كانت نؤوم الضحى ملولة ناعمة رعرعا

وهكذا الى آخر ما حفظه الشعر العربى من تشبيهات واستعارات

ولقد وقف به خياله فى ابراز الصور الى نفس الحيل التى كان يلجأ اليها القدماء من تجريد شخص يتحدث اليه الشاعر أو الى اللجوء الى المحسنات اللفظية كالطباق والجناس ، ورد العجز على الصدر وبراعة التقسيم وحسن الابتداء وان لم يبالغ فى ذلك ولم يجعله هدفه .

يقول الجارم : ولا يكون جمال الشعر دائما بالمجاز وضروب التزويق اللفظى ، وانما جماله فى استعداده للنفاذ الى النفس والوصول الى القلب على أى صورة كان ، وفى أى ثوب يكون ، ومع تيقظه لهذا الأمر الا أن سيطرة القديم عليه جعلته يدور فى فلكه !!

يقول مجردا شخصا يتحدث اليه :

ظننت الدمع يسعد بالعزاء فهل أجدى بكاؤك أو بكائى

* * *

ماذا طحا بك يا صناجة الأدب هلا شدوت بأمداح ابنة العرب

أو شخصين :

يا خليلى خليانى وما بى أو أعيدا الى عهد الشباب

ويقول مستخدما الطباق لابراز الصورة الادبية وهو يخاطب الطائر :

أنت في خضراء ضـــــاحكة   من بكاء العـــارض الهتـــن

أو متحدثا عن الحب :

يا خليــلي والهـــوى أحن   لارمـــــــاك الله بالاحـــن
ان رأيت العين ناعســـــة   فترقب يقظـــة الفتـــن
أو رأيت القـــد في هيف   فاتخـــــذ ماشئت من جنـــن
قد نعمنـــا بالهـــوى زمنـــا   وشـــــقينا آخر الزمن

وقد يستخدم الجناس فيقول عن بيت محمد على في مصر :

بيت له عنت الوجوه خواشـــعا   كالبيت يمسح ركنه ويزار

والتشبيه المقلوب كقوله :

كأن ضياء الصبح والكون مشرق   سنا طلعة الفاروق لاحت ركائبه

وحسن التقسيم كقوله :

هنـــــاك بذا العيدان : وجهك والضحى   مشارقه وضـــــاءة ومغاربه

وقوله :

رأى ملكا كالنيل : أما عطـــاؤه   فغمر ، وأما المكرمات فساحله

وبراعة لاستهلال كقوله :

خشعت لفيض جلالك الأبصـــار   وذكت بمسك خلالك الأشعار

وقوله :

بهر الوجـــوه بلؤلئي ضيــــائه   نجم تالق في بديع سمائــه

وقد يأتي بصور تقليدية بحتة كقوله في مديح الأسرة العلوية :

ندب اذا حل الحباء لغـــارة   ألقى السلاح الفارس المغوار

وقوله وقد أرق لاعلان الحرب العالمية الاولى :

من سلب الأعين أن تهجعا ... وبز ذات الطوق أن تسجعا

ومن رمى بالشوك فى مضجعى ... فبت مكلوم الحشا موجعا

وقوله مفتخرا بشعره :

اقبس النور من شعاع الراح ... والثم الحسن فى جبين الصباح

وابعث اللحن من سمائك ياشعر ... ونافس به ذوات الجناح

وقوله فى رثاء الشيخ أحمد الاسكندرى وقد شبهه وهو يخطب بالبعير يخرج من فيه ما يشبه الرئة اذا هاج ويسميها العامة (القلة) ٠

كأنى أراك اليوم تخطب صائلا ... وتهدر تهدار الفنيق المشقشق

واذا كان النقاد القدماء قد عابوا أبا تمام بتجسيمه للمعنويات فان الجارم قد وقع فى نفس العيب حينما جعل الدهر فى انقياده لممدوحه جوادا ذل لراكبه بعد جموحه :

كما جعل الدهر فى بيت آخر حيوانا غير مستأنس يجرح بنابه وبظفره :

جرحه الدهر فمن نابه ... تلك الاخاديد ومن ظفره

وجعل له لعابا يلعق به دمه :

ما الذى تبتغى يد الدهر منى ... ودمى لا يزال ملء لعابه

ثم شبه الخطب بالجمل اذا برك بصدره على الشىء :

جمع الشجون وبدد الأحلاما ... خطب أناخ بكلكل وأقاما

أما الجديد في الصور فقليل كقوله وهو يتحدث عن الصباح الأبيض الناصع بأنه في صفائه واشراقه وانتشاره في الأفق يشبه الماء العذب الذي يترقرق فوق الجليد ·

وبدا عمود الصبح أبيض ناصعا كالسلسل الضحضاح فوق جليد

وقد تتبلور الصورة وتتكامل وتأخذ وضعها الاصيل كقوله مصورا أمله في ابنه ومشبها له بنبت حرص على نموه كل الحرص وزاد عنه كل ما يهدده حتى اذا قوى واستحصد عصفت به هوج الرياح فقضت عليه ·

(ج) المعانى :

ومعانى الجارم وأفكاره كثيرة ومتنوعة بتنوع أغراضه وكثرتها ولكنها تكاد تخلو من الابتكار، ومن النظرة الفلسفية العميقة الشاملة ويرجع ذلك الى اعتماده على الشعر العربى القديم مما ضيق من نظرته الى الكون والحياة ·

وحسبك أن الأعلام كلها قديمة ، وبالقاء نظرة سريعة على فهرست الاعلام يظهر ذلك فآمون ، وأبو العلاء المعرى ، واسحاق الموصلى والبحترى ، وبلال وجميل ، وحاتم ، وحسان ، وخالد ، وأبو نواس ، والأخطل ، والأعشى ، وبشار والجاحظ ، وحماد ، وردينة ، وزلزل ، وزهير ، وعنان ، ولبيد الى آخره تتردد دائما فى أشعاره ·

ولقد يأتيك بجديد من المعانى كقوله مادحا :

أرأيت آثار الملوك وما بنوا مما يضيق الجن عن انشائه
ولدوا وشمس الأفق فى ريعانها والدهر يرقل فى ثياب صبائه
درسوا كتاب الكون أول طبعة ووعوه من ألف الوجود لبائه

وأتوا من الاعجاز ما ترك النهى حيرى فلم تملك سوى اطرائه
ذهبوا ولم تذهب صحائف مجدهم وطواهم المقدار فى أطوائـــه
المجد فى الدنيا سـجل خـالد تتعاقب الأجيـال من قـرائه

٥ ـ بمن تأثر ؟

ولقد اختلفت نظرة النقد الحديث فى مسألة التأثير والتأثر عن نظرة النقد القديم ، وبعدت به عن معنى السرقة والسلخ كما كانوا يقولون ، كما بعدت به عن معنى التقليد المحض ، فالتأثير والتأثر شيء يتمشى مع سنة التطور والارتقاء •

ومن هنا كانت سمو نظرة المحدثين اليه حتى أفردوا له فنـا مستقلا بالدراسة ـ حينما يكون التأثير من لغة الى لغة ـ يسـمى بالادب المقارن •

غير أن التأثير والتأثر يبعد كل البعد عن معنى التقليد المحض يرى الكاتب الفرنسى بلتيه Pliter ١٥١٧ ـ ١٥٨٢ أنه لا يصح أن يقع الكاتب المتطلع للكمال فى زلة التقليد المحض بل يجب عليه أن يطمح ـ لا الى اضافة شيء من عنده فحسب ، بل الى أن يفضـل نموذجه فى كثير من المسائل •

ويقول الاستاذ أحمد الشايب •• وكثير من دواوين الاحيـاء حافل بالترجمة والتقليد ، وعندى أن ذلك لا بأس به فهو غذاء للشعر العربى ، وتقريب بين الثقافات الفنية ، ولكنه ليس كل شيء وليس خير الوسائل •

ويبدهى أن الجارم وقد تعددت روافد ثقافاته ، وأوتى مقـدرة فذة على السيطرة على موسيقى الشعر لم يضع نموذجا بعينه لينسج على منواله حتى نستطيع أن نقول : انه ساوى نموذجه أو زاد عليه وانما كل ما فى الامر أنه عاش بخياله الفنى فى رحاب الاقدمين فاذا

به وكأنه واحد منهم قد تخلف عن عصر العباسيين الى العصر الحديث ٠

وحسبنا هنا أن نرد بعض ما يبدو فى شعره الى روافد ثقافاته التقليدية المتعددة ٠

فلقد تأثر بالقرآن الكريم فى كثير من المعانى والصور ٠

تأثر بالعبارة والمعنى فى قول الله تعالى : « لو أنزلنا هـذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » حينما كان يتكلم عن البيان النبوى فى قوله :

وبيانا هاشميا لو رمى قلل الأجبال لانهدت قواها

وتأثر بقول الله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» فى قوله :

صبغة الله صبغة تبهر النفس تعالى الاله عز وجلا

وتأثر بقوله تعالى : « ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » فى قوله :

عبثت بالوليد ثم أرته منه أنقى معنى وأقوم قيلا

وتأثر بقوله تعالى : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد ٠٠ »

فى قوله :

هبطت حكمة البيان عليه فاذكروا فى الكتاب اسماعيلا

وبقوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا

أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » فى قوله :

اذا لبس الربيع شباب قوم ... فأسرع ما يفاجأ بالشتاء
وكل نضيرة فالى ذبول ... وكل مضيئة فالى انطفاء
وهل تهوى ثمار الأرض الا ... اذا أدركن غايات النماء

وفى قوله فى معرض رثائه لابنه البكر :

قد كان لى أمل سقيت فروعه ... بدمى وغذيت المنى بعذاته
أحنو عليه من الهجير يمسه ... ومن النسيم يهز من أسلاته
وأذود عنه الطيران حامت على ... زهر يضىء الافق من عذباته
الليل ينفحه بذائب طله ... والصبح يمنحه شعاع اياته
حتى اذا قويت لدان غصونه ... واستحصد المرجو من ثمراته
وأخذت أستجلى السنا من نوره ... واشم ريح الخلد من نفحاته
وأفاخر الزراع أن غراسهم ... لم يزك مثل زكائه ونمائه
عصفت به هوج فخر معفرا ... وجنى عليه الحين قبل جناته

وتأثر بالحديث الشريف : « ان أرواح الشهداء فى مناقير طير خضر من طيور الجنة تشرب من مياهها، وتسبح فى أنهارها ، وتأكل من ثمارها » فى قوله :

ونسبح فى أنهار عدن كأنما ... سرائرنا من مائها المتدفق
ونخترق الأجواء بين مدوم ... يمد جناحيه وبين مصفق

وتأثر بالشعر ، تأثر بقول الشاعر :

لكل شىء اذا ما تم نقصان ... .

وبقول الآخـر :

ما طـــاز طير وارتفع الا كما طـــار وقـــع

فى قوله :

وابتداء الكمال فى عمل العا مل بدء الشـــكاة من أوصابه

كما تأثر بالشعراء وعلى رأسهم ، البحترى :

واقرأ ان شئت قصيدة البحترى :

محـل عـلى القـــاطول أخلق دائره
وعادت صروف الدهر جيشا تعاوره

* * *

ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه
واذ ذعـــرت أطلاؤه وجـــآذره

ثم اقرأ رثاء الجارم للزهاوى فى قوله :

سل الروض أن أصغت اليك رسومه
متى روعت أطـــلاؤه وجـــآذره

واقرأ تهنئة البحـــترى للخليفة بالعيـــد ، وتهنئة الجـارم لفاروق بالعيد أيضا .

وتأثر بقصيدة المتنبى عن الحمى حينما كان يقول فى رثاء صديقه الأستاذ محمد أمين لطفى :

رمتنى الليالى قبـل نعيك رميـة
عرفت بهـــا كيف القلـــوب تقطع

نصـــال حـــداد قـــد ألمت لحملهـــا
وأعلـــم أنى هالك حين تنـــزع

وتأثر برثاء أبى العلاء فى قوله :

وليس تـراب الأرض غـير ترائـب
وغـــير عقـــول حطمت وقلـــوب

وفى قوله :

نأكـــل الأرض ثم تأكلنـــا الأر
ض دو اليـــك أفرعـا وأصـــولا

وفى قوله :

بهـا الأضـداد تجمع فى صعيـد
وفيهـــا يلتقى دان بنـــاء

وتأثر أيضـا بعلى بن الجهم فى توليده للمعـانى بأبياته المشهورة لما سجن وأولها :

قالوا حبســت فقلت ليس بضائرى
حبسى وأى مهنـــد لا يغمـــد

ثم بتلك الأبيات الأخرى لما صلب وأولها :

لم ينصبوا «بالشـاذياخ» عشية اثنين مســـبوقا ولا مجهولا
ان يبتذل فالبدر لا يرضى بهم ان كان ليلـة تمـه مبـــذولا

يقول الجارم لزينب وقد اهتم بتوليد المعانى :

قـدك المـــائس قـد بغض لى كل غصن بين أنفـاس الصبـا
وجنى خديـك قـد زهدنـــى فى حديث الورد يزهى بالربا
أبصروا البـدر فقالوا : وجهها فتغشـــيت بثوبى هربـا
فاحتجب يا بـدر عن أعيننـا وعزيز عنـدنـا أن تحتجبـا !

وتأثر بعمر بن أبى ربيعة وبحواره فى قصيدته الحب والحرب والتى يقول فيها :

قالت خليلتها لهـا لتلينهـا ماذا جنى لما هجرت فتـاك ؟
هى نظرة لاقت بعينك مثلهـا ما كان أغنـاه وما أغنـاك !
قد كان أرسـلها لصيدك لاهيا ففررت منه وعـاد فى الأشراك
عهدى به لبق الحـديث فماله لا يسـتطيع القول حين يراك
اياك أن تقضى عليـه فانـه عرف الحيـاة بحبـه ايـاك
ان الشـباب وديعة مردودة والزهد فيه تزمت النسـاك

٦ ـ مكانة الجارم فى عصره :

قلنا أثناء دراستنا عن مكانة الجارم الاجتماعية : لقد تمتع الرجل فى حياته بمكانة يغبطه عليها الكثيرون ، وطن اسمه فى كثير من الآذان وبخاصة فى ميدان التربية والتعليم : فى البلاغة الواضحة ، والنحو الواضح ، وفى المجمع اللغوى ، ودار العلوم ، ويرجع كل ذلك الى اخلاص الرجل وتفانيه فى عمله ، وحبه لقومه ولغته ٠ أما شعره فكان له محبوه ، والمعجبون به من أنصار المدرسة القديمة وبخاصة الدرعميون والأزهريون ، كمـا كان له ناقدوه ومهاجموه وبخاصة الدكتور بشر فارس ، وأنصار المدرسة المجددة فى الشعر الحديث ٠

وهنا نحب أن نوضـح جانب النقد والهجوم حتى يتسنى ابراز منزلة الجارم فى عصره كشاعر وفنان ٠

لقد تعرض الجارم فى حياته وبعد مماته لهجوم متواصـل لاتجاهه الأدبى الذى يسير به فى دروب الأقدمين ، واتخذ لذلك مظهران :

(أ) مظهر سلبي : ويبدو واضحا في موقف كثير من النقاد ازاء أدب الجارم واهمالهم له ، ولقد تتبعنا الصحف الأدبية والسياسية في الفترات التي كانت تعقب ظهور أي جزء من أجزاء ديوانه فاذا بها اشارات سريعة عن صدور الديوان أو غمزات تكشف عن سر طبع وزارة المعارف للديوان ، وتعلل لذلك بصلة الرجل بالوزارة ، ونستطيع أن نقول : أن ديوان الجارم لم يثر أي دراسة مهمة ، على العكس من بعض الدواوين الأخرى المعاصرة ، كالملاح التائه وليالي الملاح التائه ، ووراء الغمام ٠

(ب) ومظهر ايجابي : ويبدو واضحا في هجوم النقاد وسخريتهم أو غمزاتهم وهاك بعض نماذج من هجومهم عليه :

يقول العقاد في تعليقه على قصيدة الحب والحرب لعلي الجارم متجاهلا اسم الجارم ومشيرا اليه بقوله : أسمعنا بعض المتعلمين قصيدة يصف فيها الحرب ويستهلها بالغزل ، وأظنه استطرد من الغزل الى وصف الحرب بجامعة المشابهة بين الدماء التي سفكتها الحسناء ، والدماء التي تسيل في ميادين القتال ! وكان بعض السامعين يعجب ويستحسن ، ويشتد اعجابه ويعظم استحسانه لهذه المشابهة الطريفة ، وهذا الانتقال البارع ! وكل أولئك ممن يقرأون الشعر ويتصفحون كتب الأدب ويعرفون أن هناك شعر صناعة ، وشعر سليقة ، وان من الكلام ما يتكلف ، ومنه ما يرسل عن وحي البديهة الصادقة والذوق السليم ! فعجبت لاعجابهم ، ودهشت لاستحسانهم ، ورأيت أن المسافة بينهم وبيني في النظر الى ذلك الشعر كالمسافة بين من يقبل على المائدة متشهيا ملتذا وبين من تغثى نفسه من الخلط والغثاثة ٠

نعم فان للنفس غثيانا كغثيان المعدات ، وان للمعاني لخلطا كخلط الطعام ، وان رجلا لا ترفض نفسه احساس الغزل ممزوجا باحساس النكبات والكوارث لأعجب عندي من رجل لا ترفض

معدته العسل ممزوجا بالخل والتوابل ، وذوب السكر ممزوجا بذوب الملح وما اليه) .

واليك نقد الدكتور بشر فارس لتأبين الجارم للسكندرى ووالى ونلينو فى دار الأوبرا :

اليك المطلع وما فيه من براعة استهلال (حسب الدستور الأكبر المسمى بعلم البديع) .

غدا في سماء العبقرية نلتقى

وتجتمع الأنداد بعد التفرق

أما المصراع الأول ففيه « فخر » لطيف مع شيء من «المبالغة»

وأما المصراع الثانى ففيه « تأكيد وطباق »

وفي القصيدة ما تشاء من « محسنات معنوية ولفظية » لايقوم مثل هذا الشعر الا بها لأن لبابه يتفتت اذا خطر لك أن تقبض عليه فمثله مثل الفتاة المصدورة تحمل وجهها مالا يطيق من ألوان الطلاء المعروضة فى جميع الحوانيت .

ويقول الأستاذ أحمد الشايب معلقا على قصيدة الجارم « ذكرى الغرب » فى قصيدته : «يا دار فاتنتى حييت من دار » ..

كانت ملاعب أنس قد لهوت بها

وظبية من بنات الغرب معطار

فقال الشايب ، وهناك أسأل الأستاذ الجارم هل يرضى الانجليز عن تشبيه فتياتهم بالظباء ؟

فعدل الجارم البيت فى الديوان بقوله :

كانت مجـال صبابات لهوت بهــا
ومستراض لبـــانات وأوطـــار

٧ ــ رأى النقاد المعاصرين فى شعره :

(أ) رأى العقاد :

لست أوفيه حقه ، انه حق بيا ... ن عن البيـــان غــنى
وارث الأصمعى فى لغة الضـــا ... د ، وفى الشعر وارث البحترى
والأديب الذى له فطنــة المصـ ... رى زانت ســليقة البــدوى
والمربى الذى تعهـد جيـلا .. ... عهـد علم منـــه وعهـد رقى
ومعيد التـاريخ وهـو جـذور ... شـــجرا مثمـرا بكـــل جنى
وأخو النشــأتين شرقا وغربا ... من قديـــم باق ومـن عصرى
كم شهدناه فى شـواهد نص ... ورأينـــاه فى معـــارض رأى
وســـطا بين ممعن فى وقوف ... عنـد ماض ، وممعن فى مضى
قائلا ناقلا ســـميعا مجيبــا ... حسن تبيــانه كحسن الصغى

(ب) رأى الشاعر السودانى الكبير أحمد محمد صالح :

مـلك القـــريض ووارث ... الحسب المؤثـل فى معـــد
غرد كمـا شـــاء البيــا ... ن محدثـــا عن خير عهـــد
أيـــام كان لواؤنـــا ... يجتـاز من ســـهل لوهـد
واذكر لنـا عهــد الجـدو ... د وصــف لنـا أيام أحـد
فى القادسـية يوم سـار ... النـصر من بنـد لبنـد
قلب صـحائف مجدنـا الغو ... اح من مســـك ونـــد
وتغــن من فـــن الى ... فتن ومن غـــور لنجـــد

يا وارث الأدب التليـــــد وباني الأدب الأجـــد

(جـ) رأى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

ألفت فى عقد البيان توائمـــا يكفيك فخرا أن تكون الجارمـا
سبحان من جعل البيان موطأ لك والفصيح على لسانك قائما
واختص شـــعرك بالخيال كأنه ينهل من فوق الســـماء غمائما
أبدعت في وصف الطبيعة حلوة والروض مخضل الخمائل باسما
وكأنمـــا أعطيت ريشـــة ماهر صنع ، وألهمت الروائع ناظما

(د) رأى الأستاذ أحمد العوامرى

ويبهرك من الجارم عمق معانيه ، وصفاء ديباجته فى فخامة وجزالة وفحولة تقرؤه فكأنما تقرأ لمهيار وعلى بن الجهم ، وأضرابهم من أمراء الشعراء فى العصور المزدهرة بالعلم والأدب ، ولا غرو فقد آثر الجارم هؤلاء ، وتوفر عليهم ، وأشرب فى قلبه فنهم فتأثر بأساليبهم فى القول ، ومناحيهم فى تصريف المعانى ، فجاء نتاجه على غرارهم ، فمدح ، وتغزل ، ووصف ، ورثى ، وأتى بالحكمة الباهرة ، وضرب الأمثال البارعة ، كل ذلك على سننهم ومنهجهم فلم نر فى شعره على كثرته وتعدد فنونه نزوعا لما يسمونه الآن بالتجديد فى أى صورة من صوره ، وأى مظهر من مظاهره ، وانما كنا نود حقا لو أنه قد أتيح له أن يقبس من أدب الغرب فى بعض شعره وهو الذى حذق الانجليزية ، وتخرج فى بلادها ، ولو أنه أتحف العربية بروائع من قصص القوم أو شعرهم اذن لرأينا فى مرآته الصافية صورا من تفكيرهم ، وقبسا من أخيلتهم ، وتصورهم للحياة .

(هـ) رأى الأستاذ أحمد الشايب :

وأما اذا التمست فى الشعر الحديث ذلك الأسلوب العربى الصافى الذى يجمع الى القوة والجزالة رقة وسلاسة ، ونصوع ألفاظ ، وسمو أساليب ، فلن تجد ذلك الا عند الأستاذ الجارم ، تلك ميزته بين المعاصرين لا يشاركه فيها أحد ، وميزة أخرى لا أقول : أنفرد بها ، وانما أقول : سبق فيها ، وافتن هى التصرف فى المعانى ، والعبث بها حسبما يوحى اليه فنه ، وقوة عبقريته ، وأما اذا عرضنا لفصاحة اللسان وحسن الالقاء الخطابى والشعرى فقد لا نجد للجارم ثانيا ، اللهم الا عند الأستاذ توفيق دياب فى الخطابة .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٣/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥/ ٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ **الجيزة** : ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ **المنيا** : شارع ابن خصيب ت:٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ **اسيوط** : شارع الجمهورية ت:٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ **اسوان** : السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة قاطة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر



بقلم

محمد ابراهيم نصر

أعلام العرب
٩٦

ابن سناء الملك

بقلم
محمد ابراهيم نصر

الهيئة العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد ظل « ابن سناء الملك » زهاء ثمانية قرون مجهولا من قراء العربية ، لا يعرفون من ديوانه غير قصيدة كانت تختار لطلاب المدارس من نماذجه الجيدة في الفخر ، وهي : —

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

وقد بذل المؤرخون جهدا يذكر فيشكر فى ازالة الغموض عن هذه الفترة الحافلة بالأحداث السياسية ، والتغيرات الاجتماعية والفكرية .

أما حظ هذه الفترة من كتب الأدب ومن الدراسة الأدبية المعاصرة ، ومن نشر مغاليقها ودواوينها فقليل ، ولذا لا تصدر الأحكام الأدبية عليها وافية كاملة ..

ولقد كانت دراستى لابن سناء الملك ، ونشر ديوانه احدى الدعائم التى يعتمد عليها فى التعرف على أدب هذه الفترة .

وقد يكون لهذه الدراسة فى هذه الظروف وفى تلك الأحوال

أهميتها لأنها تروى لنا صورة عن ماضينا تشـــبه الى حد كبير ما نحن فيه اليوم ٠٠ فهى قصة لعصر من عصور الافاقة واليقظة ٠٠ فلقد عاث الصليبيون فى الارض فسادا وقتلا وانتهابا ، حتى قيض الله لهم البطل الأيوبى « صــلاح الدين » فوحـــد العرب ، وجمع شملهم ثم لقى بهم أولئك الصليبيين فبدد شملهم ، وكتب بالسيف نهايتهم ، وعلم الأجيال التى أتت من بعــــده أنه لا عز للعرب اذا اختلفوا وتفرقوا ، ولا بقاء للأجنبى الدخيل اذا اتحدوا وائتلفوا ٠

وكان ابن سناء واحدا من الشعراء المعـــدودين الذين تغنوا ببطولة « صلاح الدين » ، وبعث الحماسة فى نفوس المسلمين ، وأثار الحمية والشجاعة فى قلوب المحاربين ، لذا كان الى البيت الأيوبى أثيرا ، والى نفوس وزرائهم وأمرائهم قريبا ، فلا غرابة أن يكون علما من أعلام عروبتنا ، ورائدا من رواد نهضتنــــا تجـــذبنا آثاره ، ويستهوينا روض أشعاره ، وقد سرنى أن المشرفين على الهيئـــــة يتيحون بنشر هذه الدراسة فرصــــة لقراء الأعلام على اختلاف ثقافاتهم ــ كى يطلعوا على شاعر التقت عنده الشعراء ، والتف حول أدبه الأدباء ، وفى ذلك النشر ارهاص لصدور الديوان الذى قمت بتحقيقه ، والذى يجمع شعر الشاعر كله ٠

وقد يكون لهذه الدراسة أهميتها فى هــذا التوقيت الزمنى الذى يجتمع فيه ملوك العرب ورؤساؤهم ليتدارسوا فيه موقفهم من ذلك العدو الذى يتربص بهم الدوائر ويتخذ من فرقتهم ســـبيلا لتحقيق أهدافه ومطامعه ٠ وفق الله العرب لتوحيد الكلمة وجمع الشمل والله الموفق والهادى سواء السبيل ٠

محمد ابراهيم نصر

١
عصر ابن سناء الملك
(٥٥١هـ - ٦٠٨هـ)

حال مصر والشام فى أخريات العهد الفاطمى :

كان العصر الفاطمى الثانى الذى بدأ فى أواخر عهد المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) بداية ضعف هذه الخلافة ، وظهور الوزراء العظام الذين استأثروا بالسلطة وتنازعوا الحكم ، وساعدوا على ارتباك البلاد ووقوعها فى خضم من الفتن والثورات والقلاقل .

وكانت الوزارة كلعنة الفراعنة تصيب من يسعى اليها فلا يلبث أن يقتل أو يفر أو يموت ، ولم يترفع الخلفاء ولا الوزراء عن تدبير المؤامرات ، وارتكاب جرائم القتل ، وحسبنا أن نعلم أنه منذ وثب بدر الجمالى على كرسى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر

حتى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية ـ ولى الوزارة ما يقرب من أحد عشر وزيرا قتل منهم سبعة وزراء ، ومات اثنان وفر الباقون ٠

ولقد كان في مصر أربع قوى تتنافس على الحكم والسلطة : **أولها** : قوة المغاربة الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية فى بادىء الأمر ، **ثانيها** : قوة السودانيين : الذين وفـــدوا الى مصر كجنود مرتزقة حين استعان بهم الحاكم بأمر الله على المصريين السنيين فهجموا على المـــدن ، ونهبوا الأسواق وظلوا خطرا على الـــدولة حتى بدد صلاح الدين الأيوبى شملهم وكتب بالسيف نهايتهم فى وقعـــة العبيد ٠

ثالثها : قوة الأتراك وقد كانوا خطرا على الدولة تمكن أمرهم ، واستبدوا بالسلطان وخلعوا الخلفـــاء ودبروا المؤامرات لقتلهم ٠٠ اشتبكوا فى قتال مرير مع المغاربة حينا ، ومع السودانيين حينـــا آخر ٠

رابعها : قوة الأرمن : وقد قدم بهم والى عكا « بدر الجمالى » عندما استغاث به الخليفة « المستنصر » ليخلص البـــلاد من الفتن والقلاقل ، فاشتبكوا تارة مع السودانيين ، وأخرى مع الأتراك ، وخلا لهم الجو حينـــا ، فاستبدوا وظلموا ، واســـتطاع « بهرام الأرمنى » والى الغربية فى عهد الحافظ بالله أن يحاصر القاهرة فى سنة ٥٢٩ هـ ٠ وأرغم الخليفة على أن يلى الوزارة على الرغم من عدم دخوله الاسلام ٠ وظلت مصر نهبا لهذه القوى ، وتلك المنازعـــات بين هذه القوى الأجنبية الدخيلة حتى قضى على الخلافة الفـــاطمية نهائيا على يد البطل « صلاح الدين الأيوبى » فى سنة ٥٦٧ هـ ٠

الصراع بين المذهب الشيعي وبين المذهب السني :

ولقـــــد كان من بين الظواهر الهامة التي فرقت العـــرب ومزقت شملهم ذلك الصراع الحاد بين المذهب الشيعي الذي دان به الفاطميون ، وتعصبوا له ، وبين المذهب السني الذي التزمت به الخلافة العباســـية والتفت حوله ، وأدى هـــذا الصراع الى الحرب بالدعاية حينا والى التقاء الجيوش حينا آخر ، وتم للفاطميين (١) بسط نفوذهم وسلطانهم على معظم البلاد الساحلية وبيت المقدس ، ثم حلب ، غير أنهم لم ينعموا بحكم البلاد الشامية طويلا بل لم تنعم هذه البلاد نفسها بالاستقرار والأمن والسلام فظلت مسرحا لهـــذا الصراع الحاد بين المحاولات الفاطمية من جهة والحركات الاستقلالية التي تنبعث أحيانا داخل البلاد ، أو القوات العباسية أو القوات السلجوقية ـ من جهة أخرى ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين فأحيانا يتقدم السلاجقة حتى يهددوا مصر نفسها بالغزو كما حدث في سنة ٤٦٥ هـ حيث تمكن السلاجقة من فتح الرملة وبيت المقدس ثم فتح دمشق سنة ٤٦٧ هـ وتقدمت جيوش السلاجقة صـــوب مصر سنة ٤٦٩ هـ ثم يكر الفاطميون من جـــديد في وزارة بدر الجمالي سنة ٤٨٢ هـ فيســتعيدون ســـلطانهم على معظم المـــدن الساحلية ..

الحروب الصليبية :

وقد هيأ هذا الخلاف بين القوى الاســلامية ، وهذا الصراع العنيف الدامي ـ الفرصة أمام جحافل الغزو الصليبي فدنســـوا بأقدامهم أرض الشرق ، وكونوا لهم امارات صليبية في قلبـــه

---

(١) ابن خلدون : ٤ : ٩٠ ، اخوان الصفا من ١٥ ـ ١٨ .

بعد أن قتلوا آلاف المسلمين ومثلوا بهم شر تمثيل ، فبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودخلوا المســـاجد بخيلهم ورجلهم ولم تستطع قوى الفاطميين الثبــات أمامهم على الرغم من القوة العظيمة التى جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢هـ لأن الخلافة العباسية أبت أن تمد يدها للخلافة الفاطمية فى اتخاذ موقف موحد أمامهم ٠

سقوط الدولة الفاطمية :

ولم تعد الخلافة الفاطمية فى حال تساعدها على استعادة نفوذها فى بلاد الشام فاضمحل سلطانها منذ أواخر القرن الخامس الهجرى بحيث لم يعد فى مقدورها أن تحافظ على سيادتها فيما وراء الحدود المصرية(١) ٠

هذه عجالة سريعة لمـا كانت عليـــه الأحوال السياسية فى مصر والشام فى أخريات العهد الفاطمى ٠

٢

الحياة الاجتماعية :

ولقد حرص الفاطميون أشد الحرص وأقواه على دعم سلطانهم، ونشر مذهبهم ، وستر عيوبهم ، وانعكست صورة هذا الحرص على حياتهم الاجتماعية ، وتقاليدهم المرعية ، وتجلى ذلك واضحا فى :

الأعياد والمواسم وحفلات اللهو : فلقد كثرت الأعياد والمواسم والحفلات الدينية فى هذا العصر كثرة ملحوظة ، واهتم الفاطميون

---

(١) النفوذ الفاطمى : ٦٨ ، ٦٩ ٠

بالحفاوة بها فى كثير من الأبهة والعظمة ، ففى ليلة عيــــد الفطر تفرش البسط الثمينة الضخمة بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة ، وتمد عليه الموائد ، وتنثر عليها صنوف الفطائر والحلوى ، وتلبس المساجد حلة من الضوء والزينة ، وعندما ينتهى الخليفة من صلاة الفجر يعود الى مجلســه ، وتفتح أبواب القصر والايوان على مصاريعها ، ويسعى الناس من جميع الطبقـــات لينعموا بمشاهدة الخليفة ، ويتناولوا الطعام بمشهد منه ، ومن وزرائه (١) ، وعنـد بزوغ الشمس يتجه ركب الخليفة فى موكب حاشد الى الصلاة ، وبين يديه العسكر من الأتراك والديلم ، والعزيزية ، والاخشيدية والكافورية ، كل فى زيه ٠٠ وأهل العراق يخرجون بالديبــــاج والسيوف ٠ والمناطق الذهبية ٠ وبين يدى الخليفة يخرج بالمظلة المثقلة وعليها رجال مدججون بالســـــلاح ويخرج الخليفة بالمظلة المثقلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام فيصلى على نحو ما كان يفعل الرسول ثم ينصرف ، واذا عاد من الصلاة وجد سماطا آخر فيجلس عليه وأمامه مائدة من الفضة يقال لها « المدورة » وتوضع عليها أوانى الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام وقد نثرت عليها الأزهار والرياحين ، وكان يجلس اليه رجال الدولة والعظماء ٠

أما فى عيد الأضحى فضلا عن ذلك كله يخرج الخليفـــة الى المذبح فى أيام العيد الثلاثة ، ويشترك فى اجراءات النحر ، واذا انقضى اليوم الثالث من أيام العيد يمنح الخليفة وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد(٢) ٠

ومن أشهر الأعياد والمواسم ليالى الوقود الأربع ، وهى أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، ففى هذه المواسم تضاء جميع

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ : ٩٧ ٠

(٢) صبح الاعشى : القلقشندى جـ ٣ : ٥١١ ، ٥١٢ ٠

المساجد ، وتبدو القاهرة فى حلل بديعـــة من الأضواء والزينات ، واستمع الى قول ابن سوار الشاعر يصف أحد الجوامع مع ليـــلة النصف : ـ

ما أحسن الجـامع في ليـــلة النصـ
ـف وقـــد لاح عليــــه السرور
وأشــــبهت زهر قنـــاديله
كاســـات راح للندامى تدور
وقـــارن النســـر الثريا به
وقابل البـدر هنــاك البـــدور (١)

وكان الناس يخرجون الى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل ، ويعقد فى صـــحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة (٢) .

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظـاهر الفرح والسرور الا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام تعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون الى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين ، وفى نفس اليوم يقام سماط الحزن فى بهو بسيط ، وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن ويحضره الخليفة ملثما ومرتديا ثياب الحزن القاتمة (٣) .

وقد عنى الفاطميون كذلك ببعض العادات التى تسربت اليهم ممن سبقهم كالاحتفال بوفاء النيل الذى اتبع منذ قدماء المصريين فقد كان يحتفل به بحضور الخليفة الذى يركب جواده المطهم وفى

---

(١) فوات الوفيات : جـ ٢ : ٤٣٦ .
(٢) الخطط : للمقريزى : جـ ١ : ٤٦٦ ، ٤٦٧ .
(٣) المقريزى : خطط : جـ ١ : ٢٤١ .

ركابه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بالديباج المطرز باسم الخليفة ، ويليهم صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند (١) ، وعندما يصل ركب الخليفة مقياس النيل بالروضة ومعه رجال حاشيته والوزراء يصلى ركعتين ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى اناء خاص ويسلمه لصاحب بيت المال الذى يقدمه للموظف المختص بالاشراف على المقياس فيعطر المقياس به بينما يقرأ المقرئون آيات الذكر الحكيم .

وكان الخليفة فى كل مناسبة من هذه المناسبات يمنح الشعراء والأدباء والوزراء خلعه وحلله الحريرية الخالصة المزركشة بالذهب (٢) مشفوعة ببطاقة رقيقة ذكر المقريزى صورة منها (٣) .

هذه بعض المواسم والأعياد التى اهتم بها الفاطميون ، والتى ظل معظمها ينساب عبر الزمن حتى وصل الينا فمازالت القرى المصرية تقرأ الأدعية فى ليلة النصف من شعبان ، وتقيم الموالد للصالحين كمولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى ، وقد وقف الأيوبيون من بعض هذه العادات موقف العداء الشديد ، وتركوا بعضها يسير مع الزمن ، واستحدثوا بعضا آخر جديدا منها فحاربوا منها ما كان يتعارض مع المذهب السنى ، ويدعو الى سيادة المذهب الشيعى والتعصب له كالاحتفال بمولد الحسين ، ولبس السواد يوم وفاته ، والاحتفال بمولد السيدة زينب ، والحداد

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٦٦٩ .

(٢) الخطط : للمقريزى : ٤١٠ .

(٣) صبح الاعشى : ج ٣ : ٥٠٥ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية للدكتور محمد جمال الدين سرور : ٢١٤ .

العام والبكاء ولبس السواد يوم عاشوراء .. لقد نظر الأيوبيون الى هذه العادات ، وأمثالها نظرة عداء شديد فأبطلوا منها بالتدريج ما قدروا عليه ، بل انهم كانوا فى يوم عاشـــوراء يتزينـون ، ويكتحلون ، ويخضبون أيديهم بالحناء ، ويوسـعون على أولادهم ، فتذبح الذبائح ، وتوقد المطابخ ويلبس الأولاد الجديد من الثياب ، وينعى شعراء الشيعة هذا العمل الذميم ، ويبكون الحسين ، ويسبون من يشمت فيه وفى ذلك يقول الشاعر المصرى أبو الحسين الجزار :ـ

ويعـود عاشـــوراء يذكرنى
رزء الحســين فليت لم يعـــد
ياليت عينـــا فيه قـــد كحلت
لشـــماتة لم تخـــل من رمد
ويـــدا به لمسرة خضـــبت
مقطوعة من زندهـــا بيـــدى
اما وقـد قتـــل الحســين به
فابو الحســين احق بالكمد (١)

وهذا الشاعر نفسه هو الذى داعب الشريف شـــهاب الدين ناظر الأهراء فكتب اليه ليلة عاشوراء : ـ

قل لشهاب الدين ذى الفضـــل والندى
والســيد ابن الســيد بن الســـيد
اقســم بالفرد العـــلى الصـــمد
ان لم يـــادر لنجـــاز موعـــدى
لأحضرت للهنـــاء فى غـــد
مكحل العينـــين مخضـــوب اليد

(١) فوات الوفيات لابن شاكر : جـ ١ : ١٤٨ ، دراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين : ٣٤ .

فقد أعطانا الشاعر بهذه المداعبة صـــورة لما كان يجرى بين المتعصبين من أصحاب المذهبين ، أصحاب المذهب الســـنى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهناء ، وأصحاب المذهب الشـــيعى الذين كانوا يخرجون للعزاء .

أما ابن سناء فقد وقف من هذا العيد موقف المحايد فلا يفعل فعل الشيعة ، ولا يشارك الأيوبيين فى فرحهم وسرورهم : —

ونظمتهـــا فى يـــوم عا ... شـــوراء من همى وحـزنى
يـــوم يناســـب غبن من ... قتلوه ظلمـــا مثـــل غبنى
يـــوم يســـاء به وفيـــ ... ـه كل شـــيعى وســـنى
ان لم اعـــز المسلمـــ ... ـين بـه فـانى لا أهنـــى
أو كنت ممـن لا ينـــو ... ح بـه فـانى لا أغنـــى (١)

ومازالت مصر الى اليوم وخاصة فى قراها تحتفل بيـــوم عاشوراء ، فيصنعون الحـــلوى ، ويذبحون الطيـــور ، وما طبق « عاشـوراء » الا أثر من آثار هـــذا النزاع المذهبى بين الأيوبيين والفاطميين .

عيد الربيع : ومما استحدثه الأيوبيون الاحتفال بعيد الربيع فكانوا يخرجون فيه بالمهرجانات ، ويقيمون الزينات ، ويستعدون له قبل حلوله وهذا التقليد الشعبى استحدث ردا على ما كان يفعله الصليبيون فى عيد الفصح بالقدس ، فقد كانوا يحملون الســلاح ، ويسيرون المواكب فى عرض عسكرى عام لارهاب السكان ، فأنشأ «صلاح الدين» هذا العيد مناوئا له يمثل عرضا عسكريا تشترك فيه مدن فلسطين ، ويخرج المسلمون ، وأرباب القوة والفتوة ، ويصعد بعضهم على أكتاف بعض ، وينشدون ، ويهزجون واتسم هـــذا

---

(١) ديوان ابن سناء الملك : تحقيق المؤلف قافية النون .

العيد بالطابع الديني ، كما يتسم « عيد الفصح » بهذا الطـابع ، وانتقل الى المدن الغربية كلها ، وغدا من أجمل أعيادها .

اللهو : أما اللهو في العصر الفاطمي : فقد انتشر في عواصم المدن الكبرى ، واشتهرت فيها أحياء خاصة باللهو والمجون والخلاعة ففي القاهرة كنت تجد بركة الفيل ، وفي دمشق « خان العتيقة » بظاهر البلد يقول عنه ابن جبير في رحلته : « انه جمع أسـباب الملاذ ، ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحد ولا يوصف » (١) .

وكثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فأقبل وجـــوه القوم في مجالسهم الخاصة ، ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيـــات ، وكان معظم المغنيات من الجوارى ، وكان الفاطميون يحذون حذو خلفــاء بغداد ويجارونهم في أنسهم وطربهم ، فيحكى أن الأمير « تميم بن المعز لدين الله » اشـــترى جارية من بغـداد تجيـد الغناء فغنت له ولجلسائه حتى طرب ، فقال لهـــا : « تمنى ما شئت ؟ فتمنت أن تغنى ما غنته في هذا المجلس ببغداد (أى تعود اليها) فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها بما طلبت ، وأرسلها الى بغداد .

وكان المستنصر يحب الغناء ويطرب له حتى انه سمع مغنية بجوار القصر تغنى يوم استيلاء « البساسيرى » على بغداد واقامة الخطبة باسم « المستنصر » فطرب لغنائها ، وأجزل لها العطاء (٢) .

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد في قصـور الخلفاء والوزراء حيث يجتمـــع العلماء والأدباء للسمر والأنس ، وســـماع النوادر والفكاهات أو لعب الشطرنج والنرد اللذين نقلا اليهم من الفرس (٣) .

---

(١) رحلة ابن جبير .
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٥ : ١٢ .
(٣) الحضارة الاسلامية : جـ ٢ : ٢١٤ ، ٢١٥ .

وكان للشعراء مجالسهم الخاصة ، ولهوهم البريء أحيانا والخليع أحيانا أخرى ، وأصبح المجون فى الشعر والاستهتار أمرا شائعا ، ومألوفا بين الشعراء .

ولم يكن ابن سناء فريدا فى ذلك ولكنها روح العصر أملت ذلك على الشعراء حتى المتصوفين منهم ، قالوا فى المجون مجاراة لروح العصر حتى لا يكسد شعرهم ، وقد ذكر ابن الوردى نفسه فقال معتذرا عما كتبه فى المجون والاستهتار واضطراره الى افتتاح قصائده بالغزل فى المذكر لتروج أشعاره وتنتشر فيقول :

أستغفر الله من شعر تقدم لى فى المرد قصدى به ترويج أشعارى

ويقول فى موضع آخر :

ما المرد أكبر همى ولا نهاية علمى
ولست من قوم لوط حاشا تقاى وعلمى
وانما خرج دهرى كلا فنفقت شعرى (١)

ويرجع السبب فى شيوع هذا اللون من الغزل الماجن الى كثرة سبى الحروب الصليبية من غلمان الفرنج الصباح الوجوه وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الترك من أصقاع آسيا .

وأصبح من المعانى المطروقة فى الغزل وصف العارض وقد خط فيه الشعر فبدا سواده الى جانب بياض الوجه ، ومن ذلك قول أحد الشعراء : (٢)

لقد أثرت صدغاه فى لون خده ولاح كفىء من وراء زجاج
ترى عسكرا للروم فى الزنج قد بدت طلائعه تسعى ليوم هياج

---

(١) ديوان ابن الوردى : طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .
(٢) الجامع المختصر : جـ ٩ : ١٤٢ .

أم الصبح بالليل البهيم موشحا   حكى آبنوسا فى صفيحة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده   فسيجه من شعره بسياج

وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة فلعبت بعقول العامة والسذج كفرقة الحشيشية – وهى من فرق الاسماعيلية – وكانوا يسقون مريديهم الحشيش ، ويذهبون بهم الى البساتين ، ويقودون لهم النساء ، ثم يقولون لهم : هذه صورة مصغرة من جنة الآخرة ، فاذا ما طلبوا العودة الى هذا المكان قالوا لهم : لا يمكن الا بتنفيذ الأوامر ، وغالبا ما تكون أوامرهم كلها فسادا وافسادا ، وقتلا ونهبا ، وتحت هذا الوعد يوجهونهم الى ما يشاءون (١) .

٣

الحياة العقلية والفكرية

المذهب الشيعي وأثره :

لقد تسرب المذهب الشيعى الى المغرب على يد الامام « ادريس ابن عبد الله بن الحسن » الذى فر من أيدى العباسيين فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ ، وأسس الأدارسة فى «موريتانيا» دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ولما ذهب «أبو عبد الله الشيعى» الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة لنشر هذا المذهب ، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ، واعتنقه كثير من الأغالبة الذين قامت دولتهم فى تونس سنة ١٨٤ هـ وظلت

---

(١) الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى : حافظ حمدى : ٢١ .

قائمة حتى استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ ، ومد نفوذ الفاطميين الى أكثر أجزاء المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان (١) .

ولما استتب الأمر للفاطميين فى المغرب طمعوا فى فتح مصر لكثرة خيراتها من جهة ولتوسطها من جهة أخرى ، ولم يجد الفاطميون عنتا فى فتح البلاد ، وسرعان ما وصل المعز واتخذ القاهرة مقرا لخلافته سنة ٣٦٢ هـ . وقد أعطى « جوهر الصقلى » المصريين عهدا التزم فيه باطلاق حريتهم فى المعتقدات الدينية ، وأمنهم على ديارهم وأموالهم .. ولكن الفاطميين تنكروا لهذا العهد ، وتركز اهتمامهم فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى ، فأسندت المناصب العليا الى الشيعيين واتخذت المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية كمسجد عمرو بن العاص ، ومسجد أحمد بن طولون ، والجامع الأزهر ، واهتموا بتعيين أحد كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وكان يعرف بداعى الدعاة ، كما كان عالما بجميع مذاهب أهل البيت .

وأمعن الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالآذان بحى على خير العمل ، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء ، وعيد الغدير المعروف بغدير « خم » (وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) ، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير « خم » فى طريقه الى المدينة ، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال : « ألستم

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٥٠ ، ٥١ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية : محمد جمال الدين سرور : ١٠ .

تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى ! فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » (١) .

ويعلق الشيعة على هذا الحديث أهمية كبرى اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب (٢) .

وقد استاء المصريون السنيون كثيرا لنشر المذهب الشيعى ، وأرغموا على المشاركة فى اظهار شعائر الشيعة .

وفى عهد العزيز كان لزاما على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الشيعى واذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل عن وظيفته ، وقد أدى ذلك الى اعتناق الكثيرين لهذا المذهب (٣) .

وبالغ « الحاكم بأمر الله » فى التعصب للمذهب الفاطمى فأمر فى سنة ٣٩٥ هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب .

ثم اتجهت السياسة الفاطمية نحو اللين زمن الخليفتين : الظاهر والمستنصر ، فتمتع السنيون بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم ، ولما تقلد « بدر الجمالى » الوزارة فى عهد المستنصر كان شيعيا مغاليا ، فأظهر روح العداء والكراهية ازاء أهل السنة سنة ٤٧٨ هـ وأمر باضافة حى على خير العمل الى الآذان ، وأعاد لعن الصحابة على الجدران وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى .

---

(١) الخطط : للمقريزى : جـ ١ ص ٣٨٩ ، ظهر الاسلام : أحمد امين : جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) اتعاظ الحنفا : للمقريزى حاشية رقم ١ ص ١٩٥ ، ومصر فى عصر الفاطميين : ٤٨ .

(٣) الخطط : للمقريزى جـ ٢ : ٢٨٦ .

ولقد ظل كثير من المصريين على مذهب أهل السنة والجماعة وساعدهم على ذلك أن الفاطميين تركوا لهم الحرية فى تدريس مذهبهم بل تركوا الفسطاط حاضرة لهم ، فدرسوا تعاليم الامام « مالك » و « الشافعى » و « ابن حنبل » أما مذهب أبى حنيفة فلم يوافق الفاطميون على تدريسه لأنه مذهب العباسيين .

ولقد كان للتشريعات التى استحدثها الفاطميون فى مصر ، وخاصة ما يتعلق منها بالوراثة أكبر الأثر فى احتفاظ أهل السنة بمذهبهم اذ رءوا فى تلك التشريعات منافاة صريحة لنصوص القرآن ، فقانون الميراث عندهم يجيز للبنت أن ترث كل ما تركه أبواها اذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبة ، وهذا يخالف المذهب السنى الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة(١) .

وقد غالى دعاة الشيعة فى نشر مذهبهم ، واختلط بالدعاة الفاطميين بعض الدعاة من الفرس ونادوا بألوهية الحاكم ، وأدى ذلك الى الصدام والتحدى لا فى مصر وحدها بل فى كثير من البلاد الاسلامية (٢) .

وقد روى صاحب النجوم الزاهرة : أن الفاطميين كانوا باطنيين زنادقة ، دعوا الى مذهب التناسخ ، واعتقاد حلول الجزء الالهى فى أشباحهم وقد قال الحاكم لداعيه : « كم فى جريدتك ؟ قال : ستة عشر ألفا يعتقدون أنك الاله » قال أبو المحاسن : وهذا أعظم كفرا من النصارى لأن النصارى يزعمون أن الجزء الالهى حل بناسوت عيسى فقط أما هؤلاء فيعتقدون بحلوله فى جسد الخليفة ، وهذا اعتقاد باطل(٣) .

---

(١) مصر فى عهد الدولة الفاطمية : ٥٣ .
(٢) الادب فى عصر صلاح الدين : محمد زغلول سلام : ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٤ .

وعلى الرغم من جهود الدعاة الفاطميين في نشر مذهبهم فانه لم يجد صدى في نفوس المصريين ، وكان يتأرجح بين الفناء والبقاء حتى كتب الله نهايته على يد « صلاح الدين الأيوبى » الذى حاربه بسلاح العلم فأنشأ مدرســـة لتدريس المذهب الشافعى ، وأخرى للمذهب المالكى ، وعزل قضـــاة الشيعة ، واختفى المذهب الشيعى تدريجيا حتى لم يستطع مؤيدوه أن يعلنوا عن آرائهم ، بل ان كثيراً منهم تعرض للأذى والاهانة .

وعلى الرغم من انقراض هذا المذهب بزوال الخلافة الفـاطمية الا أنه ترك أثرا واضحا فى الشعراء والأدباء فقد كان الشعراء يمدحون الخلفاء العباسيين أو سلاطين الأيوبيين بالصفات نفسها التى أغدقتها العقـائد الفاطمية على الأئمة ، وقد تأثر ابن سناء الملك بالعقيـدة الفاطمية تأثرا واضحا فهو حين يمدح صلاح الدين يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف ... وجددت فيها من سميك موسما
واحييت فيها الدين بعد مماته ... فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت الى أن تملك الأرض كلها ... ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين صـلاح الدين وبين يوسف عليه السـلام فى الاسم حقيقة ، ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب ، وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهـذا لا يقبل الا على أساس واحـد وهو الجرى على حسب العقيـدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن احياء الموتى معناه نشر الدين، واحياء النفوس بالعبادة .. ثم يقول ابن سناء فى مدح السلطان على ابن صلاح الدين :

مولى الأنام على هكذا نقلت ... لنا الرواة حديثا غير مختلق

فقد نقل الشـاعر الحـديث النبوى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى السلطان على متبعا سنة

الشعراء الفاطميين ·· وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره ، وشاركوه هذا الاتجاه كابن النبيه ، وابن الساعاتى ، وابن مطروح · الا أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا الى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيهم أن يلموا بتلك الخصائص · وانما انسابت اليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين ·

التصوف :

وكان من بين الأساليب التى حارب بها صلاح الدين هذا المذهب تشجيع حركة التصوف لما بين المذهب الشيعى والتصوف من تقارب فى الآراء ، ولقد كانت هذه حركة بارعة فسرعان ما اتجه كثير من الناس الى التصوف والزهد حتى لم ينج منه الأمراء والملوك (١) ·

ومما يذكر عن الصوفية أن بعضهم كان يذوب وجدا حين يستمع الى نشيد صوفى ، أو معنى من معانى الصوفية الرقيقة فقد استمع يوما صوفى يدعى « أحمد بن ابراهيم الدارى » مغنيا يغنى قول الشاعر :

أعاذلتى أقصرى	كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن	وشيب كأن لم يزل
وحق ليالى الوصال	وآخرها والأول
وصفرة لون المحب	عند استماع الغزل
لئن عاد عيشى بكم	حلا العيش لى واتصل

فتحرك الصوفية وطربوا ، وطرب الشيخ المذكور، وتواجد، ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت(٢) ·

(١) الكامل : لابن الاثير جـ ٩ : ٢٢٨ ·
(٢) الكامل جـ ٩ : ٢٦٦ ·

واشتهرت الدولة الأيوبية بتشجيع حركة التصوف ، فبنوا أماكن للعبادة يقضي فيها المتصوفة كل أوقاتهم ، وتنفق الدولة عليهم أثناء اقامتهم بهـذه الأماكن التى كانت تسمى بالخوانق ، وكان من عمل الخانقاه ايواء الغرباء من المسلمين والسماح لهم ، ولأسرهم بالاقامة فيها • وكان المتصوفة يغادرون الخانقاه للصلاة فى المسجد يوم الجمعة فى مشهد رائع يغرى الناس جميعا بالنظر اليهم ، والتبرك بهم فى طريقهم الى المسجد •

وقد أثر عن « نور الدين محمـود » أن أصـحابه قالوا له يوما : ان لك فى بلادك ادارات كثيرة للفقراء والفقهاء والصوفية، فلو استعنت الآن بها لـكان أمثل ، فغضب نور الدين وقال : « والله انى لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صـلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟! » •

وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه «نور الدين» ومن المؤكد أن « صلاح الدين » هو أول من أحدث الخوانق بمصر ، فبنى خانقاه « سعيد السعداء » (١) • وقـــد أصبح التصوف فى هذا العصر تيارا من تيارات الفكر الاسـلامى ، ورافدا كبيرا من روافد الأدب كذلك •

وقد جمـع التصـوف كثيرا من الأفكار الدينية عنـد الأمم القديمة ، ووفق بينها وبين الاسلام ، كما استعان ببعض الاتجاهات الفلسفية والأخلاقية (٢) ومن أبرز الظواهر الفكرية فى العصر

---

(١) الادب المصرى فى العصر الايوبى : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) وفيات الاعيان : جـ ٥ : ٢١٣ .

الأيوبى معاداتهم لـكل الآراء الفلسـفية حتى ولو اعتمدت عليها العقيدة الدينية ، فقد اشـتد صراعهم للمعتزلة والأشـعرية ولكل ما يمت الى الفلسـفة والمنطق بصلة ، وقد انعكس تيار التصـوف على الشعراء والأدباء وتأثر به ابن سناء الملك وغيره من الشـعراء فظهر فى صورة تبرم بالدنيا ، وسـخط من تصرف الأحـداث ، واستسلام للقضاء والقدر ، ومن ذلك قصيدته التى مطلعها : ـ

عز اله العـالم وذل ابـن آدم

وفيها ينعى على الناس سخطهم على القضاء والقدر ، وتفسيرهم كل شيء بالعقل والعقل قاصر على الحـكم ، وأن التسـليم بالقضاء والقدر والرضى بهما هو طريق السلام والنجاة ، ويسخر من مدعى العلم الذين يقولون بقدم الزمان مع أن فعلهم يحمل دليل البطلان : وهى اشارات سريعة لبعض معتقدات الفرق الصوفية : استمع اليه يقول بعد البيت الأول : ـ

يخاصـمون ربهـم والـرب لا يخاصـم
وحاكمـوه للنهـى وعنـده نحـاكم
وقائل لـم كان ذا وقائل لـم لا ولـم
ومـدع بأنـه فى العـلم لا يقـاوم
رأى الـزمان حادثا فقـال قد تقـادم
ومـا درى بأنـه بفعـله قد صـادم

وفى قصيدة أخرى يرجع فيها الى ربه ، ويثوب الى رشـده ، فيخاف الله ، ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ويذكر غرورها وباطلها، وأوطاره التى قضاها بها ، وأن جنة الدنيا فانيـة ، وجنـة الآخرة باقية ، وهى قصـيدة رقيقة تجـاوب فيها مع تجربته الحقيقيـة ، ومشاعره النفسية ، لذا تحس بأسرها للنفس والقلب ، ولو كان له غيرها فى قوتها وما تحمل من صدق التجربة لكان من شعراء الزهد

دون منازع ، ولصح أن نسلكه فى ميدان شعراء الزهد الكبار من أمثال أبى العتاهية : استمع الى هذه القصيدة وما فيها من حسن جرس ، ونغم هادىء رزين : ـ

قد كان ما كان من جهل وطغيانى
وجاء ما جاء من نسكى وايمانى
وسر من بعد غم النفس بى ملكى
واغتم بعد سرور النفس شيطانى
فما المعمم بعد النسك من اربى
ولا المقنع بعد الزهد من شانى
نسيت الفة بخيلا ليس يذكرنى
بذكر رب كريم ليس ينسانى
وخفت عصيان من لو شاء اهلكنى
واخترت طاعة من لوشاء أنشانى
وعفت دنيا تسمى من دناءتها
دنيا والا فما مكروهها الدانى

وهى قصيدة تقع فى واحد وثلاثين بيتاً .. وله عدا ذلك مقطعات لا تتجاوز خمسة أبيات يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس أو عن الدنيا ودناءتها ، أو عن الآخرة وتفريغ قلبه لها ، أو عن الزمان وعدم وفائه ، وهى خطرات تفد الى نفسه عندما تتشبع من الباطل وتحن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف مؤلمة من الحياة فيعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره وأحاسيسه ، وكان هناك غير المذهب الشيعى والتصوف كمظهرين من مظاهر الحياة العقلية والفكرية ظاهرة ثالثة كان لها أثر فى تنظيم الحياة العقلية والفكرية وهى « ديوان الانشاء » ..

ديوان الانشاء :

فقد بلغت عناية الفواطم بديوان الانشاء حدا عظيما لاتساع دولتهم وطموحهم فى بسط سلطانهم ،وكان ديوان الانشاء عندهم أداة الدعاية ومظهر الاعلان ، فهو الذى يذيع مآثرهم ، وينشر فى الآفاق محامدهم ، ويبرز من أفضالهم ما دق أمره ، وما خفى فضله ، ووضعت الدولة الفاطمية نظاما دقيقا لديوان الانشاء ، وحددت عمل كل موظف فيه فرئيس ديوان الانشاء يتسلم المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة ، ويليه فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى يجالس الخليفة ، ويوقع على المظالم ، ويليه صاحب القلم الجليل ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ليعرضها على الخليفة (١) • وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الانشاء ادارة البريد (٢) •

وقد انعكس على الكتابة الديوانية فى هذا العصر بشكل بارز أثر العقيدة الفاطمية فلا تخلو رسالة من رسائلهم من البدء بالحمد لله ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى ، والأئمة من أهل البيت ، ويبرزون فى رسائلهم أن النبى هو جدهم ، وانهم أحفاده ، وكأنهم يردون فى كل رسالة على العباسيين الذين يتهمونهم فى نسبهم • وكذلك كانوا يختمون رسائلهم بالدعاء للوصى على بن أبى طالب ، وللأئمة من ذريته العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون وفيما يفعلون •

كما شاعت فى رسائلهم المصطلحات الاسماعيلية ، والتأويلات الباطنية التى تناسب المقام الذى تكتب فيه الرسالة •

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى : جـ ٣ : ٤٩٠ — ٤٩٢ •

(٢) الخطط : للمقريزى : جـ ٢ : ١٤ ، ومصر فى عصر الدولة الفطمية : ١٨٧ •

ولقد دفعت الحياة الرخية الى التأنق ، فكما تأنق الناس فى زيهم ، وطعامهم تأنق الكتاب فى فنهم حتى تبلور الفن الـكتابى ، وتحددت قواعد الرسالة ، فأصبح السجع مظهرا عاما لدى كتاب الرسـائل ، وظل ملتزما بعدهم حتى غالى فيه القاضى الفاضـل ، فعرفت طريقة الرسالة البديعية فى العصر الأيوبى « بطريقة القاضى الفاضـل » .

كما كثر الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين الرسالة بعض معانيه وآياته ، وأولع الكتاب باستخدام الجناس ، وكلفوا بمراعاة النظير ، والجمل القصيرة فى غالبها التى تتفق فى الوزن والموسيقى وينتقل الكاتب من معنى الى معنى فى خفة وانسياب مما يدل على فطنة الكاتب وقدرته ، كما يدل على تمكنه من صنعة الكتابة ، وأنها تجرى فى دمه وفى عروقه .

وبالجملة فقد أصبحت العناية بالألفـاظ فى ذلك العصر ، وزخرفها وحسن تنسيقها ، مظهرا أصيلا فى فن الـكتابة فى مصر والشام ، وانساب هذا الفن عبر الزمن فلم تتخلص منه الكتابة الا فى عصرنا الحديث .

فى العصر الأيوبى :

وقد تسلمت الدولة الأيوبية ديوان الانشاء منظما ذا رسوم وقواعد ، وكتابته ذات طابع فنى أصيل ، وقد بدأ الاشراف عليه كاتب ألمعى قدير ، شهرته فى فن الترسـل كانت حديث رجال البلاغة العربية بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبى وقد كتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده (١) ، ذلك هو القـاضى الفاضـل

---

(١) شذرات الذهب : لابن العماد جـ ٤ : ٣٢٥ .

ذو العبارة الرشيقة والسجع والتجنيس ، والوصف المحكم الدقيق، فكأنه مهندس بارع ولذا خطا بديوان الانشاء خطوة موفقة .

والمتطلع للرسائل الديوانية فى هذا العصر يجدها أدق تعبيرا ووصفا وابداعا أنها فاقت الشعر فى هذا الميدان ؛ ذلك لأن هذه الرسائل كانت توجه وخاصة فى عهد الحروب الصليبية — الى مقام الخليفة العباسى تزف اليه بشائر النصر على العدو ، أو تصف له بلاء الجند فى الحرب ، فكانت الرسالة كأنشودة النصر التى يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلذا كان الكتاب يتوخون الجزالة فى اللفظ ، والفخامة فى المعنى ، وذلك بما يتفق ومكانة الممدوح ، وعلو منزلته بين الناس ، وبخاصة اذا كان الممدوح هو السلطان أو الخليفة ، وبما يتفق وموضوع الرسالة من قوة أو رقة أو لين(١) .

وعلى هذا النهج سار الكتاب بعد القاضى الفاضل ، وكان لزاما على من يتولى رياسة الديوان أن يكون قديرا فى هذا الفن ، وأن ينحو نحو القاضى الفاضل ، والحقيقة أن أثر هذه الطريقة لم يصب كتاب الدواوين وحدهم بل تأثر به كثير من الكتاب ، وكتبت معظم الكتب التى ألفت فى هذا العصر على هذا النمط — ديوانية أو غير ديوانية — تأثر بها الأسعد بن مماتى . وتأثر بها الوهرانى ، على الرغم من أنه وفد الى مصر ، ولم تكن له قدرة على الكتابة الجدية، فسلك طريق الهزل فقد كتب على لسان بغلته الى الأمير « عز الدين موسك » أحد أمراء الدولة الأيوبية : « بسم الله الرحمن الرحيم .. المملوكة (ريحانة) بغلة الوهرانى تقبل الأرض بين يدى المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين ، نجاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره

---

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة : ١٧٧ .

قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير ، وسـق مائة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيـل والبغال والحمير ، وينهى ماتقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام والتعب فى الليل والدواب نيام ، فقد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف ولا يحل به البلاء العظيم الا فى وقت حاجتها الى القضيم ، ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب الى شعر أبى تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغـال التى تشتغل فى جميع الأشغال .. شبكة من القصـيل أحب اليها من كتاب التحصيل ، وقفة من الدريس أشهى اليها من فقه محمد بن ادريس ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات ، فان لم يجد الا كتاب الرضاع ضاع ، ولو قيل له أنت هالك مالم تأكل موطأ ابن مالك ما قبل ذلك ، وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل ..

فعلى الرغم من ميل الوهرانى الى الهزل الا أنه التزم الطريقة الفاضلية ، وان كره القاضى الفاضل وأبغضه ، فاستهواه السجع وأعجبه الطباق ، واصطنع التورية .

أثر هذا المذهب :

لقد أثر المذهب الفاضلى على كثير من الشعراء وبخاصة الشعراء الكتاب فمالوا الى المبالغة فى استخدام الموسيقى اللفظية ، واختيار الالفاظ الفخمة ، ذات الجرس الموسـيقى الذى يؤثر فى السمع ، وتلاعبوا بالالفـاظ تلاعبا ظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ، وأسرفوا فى ذلك كله اسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن ، ومال هؤلاء الشعراء الى استخدام البديع من جناس وطباق وتورية، وبالغوا فى ذلك حتى ظهر فى فنهم هذا التكلف المصنوع الذى يبعد كل البعد عن الطبع ، وأصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر ، وأصبح

على كل شاعر أو أديب يطمح فى الوصول الى القصر أن يلتزم هذا المنهج ، ولا سيما وأن القاضى الفاضل وهو الوزير الأول ، وصاحب الحل والعقد فى الدولة الايوبية ـ قد بالغ فى التزام هـــذا الفن حتى عرف به ونسب اليه ، وانعكس هذا اللون على الشعراء وتأثروا به كثيرا ، نذكر من هؤلاء «ابن الساعاتى» و «ابن سناء الملك» و «المهذب بن الزبير» و «ابن قلاقس» و «الأسعد بن مماتى» و «ابن النبيه » وغيرهم من شعراء هذا العصر(١) .. وان كان بعض هؤلاء الشعراء قد حاول الخروج على هذا المذهب وهجنه ، «كالأسعد بن مماتى» الذى لم يكن يميل الى الجناس ، ودعا الى الابتعاد عنه فى الفن ، فهو الذى يقول :ــ

طبع المجنس فيه نوع قيــادة
أو ما ترى تأليفـــه للأحــــــرف ؟ (٢)

واليك ما كتبه القـــاضى الفاضل فى مدح العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبى لنتبين مدى انعكاس هذا الفن على الشعر حتى استحال الشعر الى لون من الهندسة اللفظية ، ومطلع هذه القصيدة :ــ

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا
لكن أحبـابنا بالوصل ماجادوا

وفيها يقول :ــ

فيهن من شـبه الغزلان أربعة
ثغر ، وطيب ، والحداق ، وأجيـاد
وقد بكت للفتى العشـاق أربعة :
صب ، وفرش ، وسـمار ، وعـواد

---

(١) خزانة الادب للحموى : ٥١ .
(٢) الحموى : خزانة الادب : ٢١ .

هيهات يصدق منك الظن أربعة
عهد ، وود ، واقوال ، وميعـاد

له من الغصن الريان أربعـة
عال ، ويأه ، وميـال ، ومياد

ولى من الدهر عما رمت أربعة
قلب ونطق واخـلاد واحماد

يدبر الملك من عثـمان أربعة
عزم ، وحـزم ، وأفكار وأرصاد

وفيه من صادقات السحب أربعة
فيض وسـيل وابراق وارعـاد

يأوى الى بابك المفتـوح أربعة
ضـعفى ولهفى ووراد وزواد

وبهذه الطريقة ، نظم القـاضى الفاضل أربعة وأربعين بيتا فى نهاية الشطر الأول من كل بيت لفظ أربعة ، وفى بقية البيت توضيح هذه الأربعة ، وبهـذا استحال الفن عنده الى نـوع من الهندسة والموسيقى اللفظية ، ولا بن سناء الملك قصيدة فى مدح العزيز عثمان بن صلاح الدين ، تأثر فيهـا كذلك بالفن الفاضلى فى الكتابة ، والمغالاة فى البديع وفيها يقول :ــ

من منصـفي من حاكم جـائر	أبلج مثـل القمر الزاهر
قـد كسر الجفن فطـار الحشا	ما أفتـك الكاسر بالطائر
(يا هاجرى) ليت ندائى اذا	ناديتـه كان (بيـا زائرى)
قم نزجـر الهم بكأس الطـلا	ليـلة لاناه ولا زاجر(١)

(١) هذا الشطر من البيت مقتبس من قول وضاح اليمن : فأسـقط علينا كسقوط الندى ليلة لاناه ولا زاجر .

ولابن الساعاتي قوله :ـ

والطـير يقـرأ والغدير صحيفة
والريح تكتب والغمامة تنقـط

فقد اهتم بمراعاة النظير اهتماما منقطع النظير ، ولذلك ترى « العماد الأصفهاني » يقول : « ان مذهب القاضي الفاضل كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع»(١)

وكان العماد الأصفهاني يلتزم الألوان البديعية محتذيا الطريقة الفاضلية كغيره من الشعراء الكتاب الذين التفوا حول القاضي الفاضل وقلدوه ، وقد كتب رسالة الى القاضي الفاضل وتحدث عنها فقال : « وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع والمقابلة ، والموازنة والتوشيح(٢) » • وقد شاع الجناس والطباق حتى لايكاد يخلو شعر شاعر من التزامهما• وأما التورية والاستخدام فكما يقول ابن حجة الحموي : « ما تنبه لمحاسنهما وتيقظ ، وتحرى وتحرر الا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتطلع من العلوم ، وتضلع من كل باب ، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هـــو الذي ذلل منهما الصعاب ، وأنزل النـاس بهذه الساحات والرحاب حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر، وخفقت رياحهم بالاخلاص في نصره كالقاضي السـعيد هبة الله ابن سناء الملك ، ومن انخرط معه في هــذا السلك ، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين باحسان الى أن جاء بعدهم حلبة أخرى(٣) •

---

(١) العماد : الخريده : جـ ١ : ٣٦ •
(٢) المصدر السابق •
(٣) خزانة الادب : ٥١ •

في هذه الظروف السياسية ، وتلك البيئة الاجتماعية ، والحياة العقلية والفكرية نشأ «ابن سناء الملك» • وســـوف نجلو للقارىء نشأته ، ونميط اللثام عن أسرته وعلاقاته بالوزراء وبالأدباء وبغيرهم فى الفصل القادم •

ابن سناء :

- مولده
- نسبه وأسرته
- نشأته
- علاقته بالقاضي الفاضل
- علاقته بالوزراء والأمراء
- المناصب التى وليها
- مجالسه ومنادماته
- أخلاقه
- مذهبه الدينى
- آثاره العلمية
- وفاته

٢

ابن سناء الملك

(٥٥٠ هـ – ٦٠٨ هـ)

مولده :

في سنة ٥٥٠ هـ فتحت الدنيا ذراعيها لاستقبال مولود جديد هو ابن سناء الملك ، فقد روى ابن خلكان في وفياته نقلا عن العماد الكاتب في فريدته : « أنه كان عند القاضي الفاضل في خيمته بمرج الدلهمية في دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٧٠ هـ فأطلعه على قصيدة لابن سناء جاءته من مصر ، وذكر أن عمره لم يبلغ العشرين .. » (١) . ونحن نرجح هذا التاريخ لمولده لأنه في سنة ٥٧٣ هـ عرض ابن سناء في احدى قصائده بمن مدحهم من الشخصيات البارزة في المجتمع ولم يلتفتوا اليه فقال :ـ

(١) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٨ .

تكمل فضلى قبـل عشرين حجة
فكيف وقـد جاوزتها بثــلاث

وأنفقت عمرى فى مدائـح معشر
كمـوتى ولو أنصفت كن مراثى

وبذلك يكون الشاعر قد حدد عمره ، وتاريخ مولده ، وأنه ولد فى سنة ٥٥٠ هـ ٠

نسبه وأسرته :

لقد شب أبو القاسم القاضى السـعيد هبـة الله بن القــاضى الرشيد جعفر بن المعتمـد سناء الملك ٠ فى ظــل أسرة عرف المجد طريقه اليهــا ، ونعمت بالغنى والثــروة ، واغترفت من الفضــل والمعرفة ، وكانت موضع التقدير من ذوى المكانة والمنزلة ، فنعم ابن سـناء بما أضفته النشأة عليــه ، وكانت سـببا فى رفع ذكره ، وعلو شأنه ، وطالما شكا الى أستاذه القــاضى الفاضل حسد أعدائه وحقدهم عليـــه ، وتعبيرهم له بأنه لولا أبوه ما كان يدخل دائرة العلماء ، ويحظى بمايحظى به الشعراء ، لأن أباه فى الوظيفة ، ولولاه لكان خادما فيها ، وقد أشار ابن سناء الى ذلك فى قصيدة وجهها الى القاضى الفاضل جاء فيها :ـ

تقــول أعادى لـولا أبو ك لمــا كنت تدخل ذاك الحرم

ومن ثم نعلم أن والده كان يشغل منصبا هاما ، ولقب الابن والوالد يشيران الى أنه كان ينظر اليهما من السلطان نظرة التقدير والاكبار ٠ ويبدو أن والده ـ فضلا عن منصب القضــاء الذى كان يشغله ـ كان بالأدب شــغوفا ، وبرجاله ولوعا حتى أنه اشترى نصف نسخة من كتاب «صــحاح الجوهرى» بما يعادل وزنها من

الدراهم ، وليس ذلك ـ أيما كان الدافع الا فهما لقيمتها ، وتقديرا لكنوزها ، فلا عجب أن يكون شاعرنا قد ورث عن أبيـه حب الأدب والولوع به ، لأنه غذى به فى طفولته ، وتنسمه مـع كل اشراقة من أبيه ، ومع كل من يتصل به من عارفيه ومحبيه ٠ والى ما عرف به والده من علو كعب فى الكتابة والادب ، يشـير الابن الى ذلك فى قصيدته النائية التى مطلعها :ـ

ما هزة الغصن الا ملك هزته
وذلة الصب الا طـوع عزته

فيرى أن أنامله اذا امتطت القلم سال على القرطاس درا وجوهرا لا صنعة فيه ولا تكلف ، بل يرى أنه ينبت روضا وارفا ، تتعـرف على ثمره الشهى قبل أن ينضج :

اذا امتطى القلم العـالى أنامله
أبدى الجـواهر من مكنـون مكنته

وينبت الطرس روضـا من أنامـله
يكاد يبـدو جناه قبـل منبته

ما أظهر الله هـذا الفضل من بشر
الا وأودع سرا فى سريرته

ثم يفتخر بانتمائه الى ذلك الوالد العظيم ، ويعترف بأن المجد قد تسرب اليه لأنه تشرف ببنوته لذلك الوالد :ـ

لا تعجب الصد من مجـدى فان يدى
لم تبتن المجـد الا من بنوته

وفى قصيدة أخرى يفتخر بعلمه ومنزلته ، وذكائه المتقد الذى يجعل الشمس شرارة اذا ما قيست بنـاره المتقد ، وذكائه المتوقد

فاستمع اليه يقول :ــ

وبسطة في علمه لم تزل   تبسط عندي حجج الحسد
ورتبــة ما فوقهــا رتبة   لأنهــا أعلى من الفــرقد
ونار فهم خلت شمس الضحى   شرارة من جمرها المــوقد

ثم يرى أن مما يسعد والده أنه كان سببا فى طيب أصله وعلو محتده ، فيقول :ــ

يكفيك أني بك يا سـيدي
قــد طاب أصلي وزكا محتدي

وفى ذلك فخر بنفسه واعتداد بوالده •

فالخـلق لمــا كنت لي والدا
تشــهد أني طــاهر المولد
وأنني للدهــر مســتعبد
وهو لغــيري أي مســتعبد

ويبدو أن شاعرنا كان أثيرا لدى والده ، وكان يحب أن يمنحه الاستقلال الشخصى ويثـــق فى حسن تصرفه ولذا كان يهبه بعض ممتلكاته وعقاره ، وبالطبع مثــل هــذا التصرف لا يتم الا اذا أنس الوالد في ولده رشدا ، وحسن تصرف ، فقــد وهبه والده قصرا وحديقة جميلة ، فشكره ابن سناء عليهما ، وأفاض في وصفهما بما لا يدع مجالا لواصف فقارن بينها وبين جنة الخلد ، ووجد بينهما صلة ونسبا حتى أن آدم لو حلها بعد ما أخرج من الجنة لم يحزن ولم يكمد بل ان الكافر لو طمع فى مثلها يــوم القيامة لم يكفر ولم يعرف الجحود طريقا الى قلبه ، فقد كان في وسط الحديقة نهر تنعكس عليه الشمس ساعة الأصيل فتتوهج زرقته ، وتداعب النسمات

العليلة الندية صفحته ، فتفرق بين حبات المياه حتى ليخالها الرائى برادة من العسجد • وزهرها المتعالى فوق أشجارها حبات عقد ثمين فى جيد فتيات حسان • وقد علت على أغصانه الطيور المغردة التى كانت تغنى فتعيد الى الذاكرة صوت معبد بن وهب الذى عرف بجمال الصوت وضرب به المثل فى بنى أمية فاستمع اليه يقول مخاطبا والده :

شغلت عن شكرك عن جنة
تشغلنى عن همى الأنكد
لى راحة فيها ولى راحة
تملك أقصى عيشى الأرغد
جنة ملك حين ملكتها
شككت فى أنى لم أخلد
لو حلها آدم من بعد ما
أخرج لم يحزن ولم يكمد
أو طمع الكافر فى مثلها
فى الحشر لم يكفر ولم يجحد
يحكى أصيل الجو فى نهرها
سحالة العسجد فى المبرد
وزهرها يحكى بأشجارها
قلائداً تعلو على خرد
فكم على الأغصان من منشد
بل كم على الأغصان من معبد

لا ســـيما منزمتها مقعـــدا
ما مثلهـا في الخلد من مقعد

أقامه الحسن فمـا مقعد
الا اذا جـاراه كالمقعـــد

أما جده : سناء الملك فقد ادعى الصفدى نقلا عن ياقوت الذى أسنده بدوره الى الصاحب الوزير جمال الدين الأكرم ــ أنه كان يهوديا غنيا يسمى « رازن » ثم اعتنق الاسلام ، وكان يشتغل فى تغيير النقود فى القاهرة ، ومات بعد ذلك مورثا ابنه القاضى الرشيد عمليات اقراض النقود ، وعمليات أخرى كون منها ثروة عظيمة ، ويضيف الصفدى الى ذلك أن القـاضى الرشيد كان محدود الثقافة قليل المعرفة ٠

وبمناقشة الصفدى يتضح لنا بعد هـــذا الادعاء عن الحقيقة والصواب ، فأولا : كيف يتأتى وصف جده بأنه يهـــودى مع أن والده (أى والد جده) يسمى محمدا ٠ وثانيا : لم نعثر لياقوت الذى أسند اليه هذا القول على ما يؤيد ذلك بل على العـــكس أشار فى الترجمة التى أوردها لابن ســناء بالتقدير والاحترام لكل من أبيه وجده(١) ٠ فجده لم يكن يهوديا ، وانما ذلك كله اتهام وصمه به أعداؤه رغبة فى التشهير به ، والنيل منه ، والحط من شأنه ، وقد كان جده يتمتع بمكانة عليه جعلت شاعرنا يحزن كثيرا لفقده على الرغم من طول عمره فقد مات عن ستة وتسعين عاما فى سنة ٥٨٠هـ، وقد حرص على أن يسير فى جنازته وهو فى شـدة المرض ، ورثاه بقصيدة حزينة بلغت تسعة وثلاثين بيتا ، مطلعها :ــ

---

(١) معجم الادباء جـ ١٩ : ٢٦٥ ٠

خانت جفوني لمـا لم تفض بدم

لـكن وفى الجسم لمـــا فاض بالسقم

وقد أشار فيها الى حرصه على الخروج فى جنازته على الرغم من شدة مايعانيه من المرض حتى لم يستطع السير فحمل على الأعناق وقد تحسر على أنه لم يكن فى صحته ، اذ لو كان صحيحا معـــافى لسار على رأسه أو قدمه :ـ

خرجت خلفك محمــولا كما خرجوا

بجســمك الطهر محمـولا على القمم

يا حسرتى اذ رآنى راكبا لهم

وما مشيت على رأسى ولا قدمى

وقد كانت عاطفة الشاعر نحو جده قوية شديدة ، فأحبه حبا دافقا ظهر ذلك فى حرصه على حضور الجنازة على الرغم مما يقاسيه من المرض ، كما ظهر ذلك فى شعره حيث صرح بأنه قد حاز الحزن كله على فقده ، وأنه أولى الأبناء جميعا وأحقهم بهذا الميراث ولا يكون ذلك الا اذا اتقدت درجة الحب ، وأن الجـد كان يخصه بالفيض الغزير منه :ـ

قـــد حزت حزنك مـيراثا فكنت به

أولى وأحـــرى من الأولاد كلهم

وقد انصرف جده الى عبادة الله وطاعته ، والبر به ، والتزود بخير الزاد من التقوى للآخرة ، فأطال الركوع والسجود ، وسهر منتصبا فى عبادة الله :

خمسا وتســعين تسـعى فى عبادته

لم تشـــك من ملل فيهـــا ولا سأم

قــد انحنى الظهر وانهـدت قوائمه
من الركوع اليــه لا من الهـرم

سـهرت منتصبا لله محتسبا
ومن يرد جنة الفردوس لم ينم

وجنة الخلد بالأعمـال تدخلها
لا بالحظوظ كما قالوا ولا القســم

من يعلم الله فيه الخير أسمعه
بشرى السعادة قبل الخلق فى القدم

ومن صـفت منـه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فــوق اللوح بالقــلم

يا راحلا وجميـل الذكر يخلفه
بقــاء ذكرك مسلاة عن العـدم

وهذه القصيدة من بين القصـائد التى طار ذكرها ، واشتهر أمرها ، وأرسل القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد (والد شاعرنا) يعاتبه فيها ويلوم ابنه لأنه سمع بخبرها من أفواه الشعراء ، وكان يتوقع أن تصله فقال فى رسالة بعث بها اليه « وقد بلغنى حديث المرثية ، ومن العجب أن يبلغنى خبرها من غيركم ، ومن القبيح أن تحوجونى الى أن أطلبها من سواكم ، ولقد تكفى الاشارة » . وقد جاءت هذه الرسالة كاملة فى كتاب (فصوص الفصول)(١) .

وقد كانت منزلة جده فى المجتمع عالية ، حتى أن ابن سناء

---

(١) فصوص الفصول وعقود العقول : لابن سناء الملك مخطوط بدار الكتب

لم ينس تلك المنزلة بل افتخر بهـــا وأبرزها وجعل قدره ومكانته عالية حتى فى الموت فلن يسوى الموت بينه وبين غيره من الموتى :ــ

لا تحســـبوا كل ميت مثـــل ميتنا

هيهات هيهات والموتى ذوو قيم

ثقافته ــ أساتذته :

فى هـذه البيئة التى جمعت بين الثقـافة والغنى ، والمنـزلة والجاه ، نشأ شاعرنا وترعرع ، رعاه والده ، واهتم بتعليمه وثقافته فأحفظه القرآن الكريم على الشريف الخطيب (١) . ثم درس اللغة والنحو فى حلقات « عبد الله بن برى » المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ، وفى سنة ٥٧٠ هـ اتجه الى الاسـكندرية ليدرس الحديث على المحدث الحافظ أبى طاهـر السلفى (٢) . ولقــد كان الســلفى صاحب مدرســة يقصــدها طلاب العلم ومحبو المعرفة ، والحديث من كل حدب وصــوب ، وكان الحافظ مثـلا أعلى فى الحفاظ على الدين والتقوى ، واحترام النفس حتى أمه صلاح الدين وجلس اليه كما يجلس سائر التلاميذ ، ووجد فى مجلسه زادا فكريا ودينيا دفعه الى أن يختلف اليه كلما سنحت له الفرصة ، وواتاه الوقت . على هذا الشيخ الجليل تتلمذ ابن سناء الملك ، ووجد عنده خير زاد حتى أحب الاسكندرية وفتن بها ، على الرغم من أنه كان يضيق بالغربة والبعد عن القاهرة وكان اذا ترك الاسكندرية يتركها مغتم النفس كئيب الفؤاد ، وقد مدح أهلها ، ووصفهم بأن غايتهم كسب المعالى ، وهمهم أن ينالوا رضى الناس وثناءهم ، فلا يفعلون الا البر ، ولا يتضجرون من الغرم بل يعدونه مغنما وكسبا ، واستمع اليه يقول : ــ

---

(١) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٨٣ .

(٢) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٠٠ .

فهل عنـــدكم أني نـزلت ببـلدة
هي الثـغر الا أنـه بـارد الظـلم
ترى أهله كسب المحامد في النهى
وحوز العلى في البر والغنم في الغرم
شـــكرتـكم يأهـــل اسـكندرية
لأنـكم أنأى الأنـام عن الـذم
فان أنا واصـلت المقـام فعن رضى
وان أنا أزمعت الرحيل فعن رغمى
ســـأحبوكم رق القوافى فانني
بغير اختـــلاق مالك النثر والنـــظم

وقد أشاد بأستاذه الســلفي ومدحه بما يمدح الفاطميون به أئمتهم فجعله كعبة الاسلام يحج اليه فيجد في رحابه الهدى ، ويجد في جنباته العلم والمعرفة فهو علم العلم ، وأبو العلماء ، وهو خير امام يقصده الطلاب الخيرون فيجدون منه خير مرشد ، وأعظم هاد وهو بعمله وعلمه وتدريســـه يحيى الشريعة الأحمديـة ، ويذيع محاسنها ويثبت دعائمها في نفوس المسلمين ، وقد صفا قلبه حتى ليجيب الله دعاءه ، ويسمع نداءه لذا كان جديرا بالحمد والثناء ، ومنطقه القول الفصـــل في كل القضايا فاذا ما احتدم الجدال بين شياطين الضلال وأذاعوا ما يزيغ القلوب والأبصـــار جاءت أقواله ككوكب الرجم ، تبدد زيفهم ، وترسخ الحق في النفوس ، فاستمع اليه يقول : ــ

فجئت الى الاســـكندرية قاصـــدا
الى كعبة الاســـلام أو علم العـلم

الى خير دين عنــده خير مرشــد
وخير امـام عنـده خير مؤتـم

الى احمـد المحيي لشريعـة أحمـد
فلا عدمت منـــه أبا أمة الأمي

حمى بدعاء أو همى بفوائـــد
فبورك من مازال يحمى كمـا يهمى

تقوس تقويس الهـلال تهجـدا
وذاك هلال يفضـح البـدر فى التم

اذا ما شــياطين الضـــلال تمردت
جـدالا فمن أقـواله كوكب الرجـم

أتيت لـــه مستشفعــا بدعائه
يقيل به جرمى ويشـــفع فى اثمى

ويبدو من هذا أن ابن سناء أنس فىاستاذه أباً روحياً ، وصفاء نفسيا جذبه اليه ، فهام بالآخرة ، وتجرد من باطل الدنيا ، وتاب الى ربه وأناب على يديه ، والتمس الغفران من الذنوب وحفظ لأستاذه فضله ، ولأهل الاسكندرية جميعهم حبه وبره.

لقد هيأ « ابن سناء » نفسه بذلك الرصيد من علوم الفقـــه والدين واللغة للعمق فى الأدب ، ولذا لم يكن سطحيا فى شعره .

وكان ملما ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة فى تلك الحقبة ، فهو يجيد الفارسية ، ويتقنها ، ويشير الى ذلك بقوله فى احـــدى قصائده التى وجهها الى القاضى الفاضل :

وعز على العـــرب أنى حفظ ـــت برغمى بعض لغات العجـم

وقد استطاع أن ينشد باللغة الفارسية ، ويستخدمها فى كتابة خرجة الموشحات ، وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية استمع اليه يقول فى موشحته التى مطلعها :

فى خديك من صبير اللاذ

ثياب الياسمين

الى أن قال :

وخود كما شبت طفلة	كغصـــن	مـايس
أرادت أن تكون خلة	لظبيـــى	كانس
فلمـــا جئت منه قبلة	شـــدت	بالفارس
دانستى كى بوسه بن داد	دهـــا	أنكسترين
اوار كواى دست من باسن	ببواسـته	شـــبين

ومعنى هذه الخرجة : « هل تعرف متى قبلنى ، ان فمها كان شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى اياها » (١) ٠

والظاهر أن الفارسية كانت منتشرة فى أرجـــاء الوطن الاســـلامى آنذاك انتشـــار اللغة الانجليزية فى بلادنا الآن ، وبخاصة بعد ترجمة كثير من كتب العلم والأدب عنها ، ونبوغ كثرة من أبناء الفرس فى الأدب والفن والعلم ، مما جعل الآباء المتفتحين يعدون أبناءهم بهذه اللغة الحية ، وكان القاضى الرشيد من الوعى والفطنة بحيث أغرى ابنه وشجعه على تعلم الفارسية ٠

---

(١) دراسات فى الشعر للدكتور محمد كامل حسين ٠

وكان ملما بعــلوم الفلك حتى كثرت اشــاراته لأسماء الكواكب والنجوم والأفلاك ، ومنازلها ومايدور حولها من قصص وأساطير استمع اليه يقول : ـ

أيا بصرى لا تنظــرن الى بصرى
فانى أرى الأحبــاب فى بلدة أخرى
وما بلدة لم يســكنوها ببلدة
ولو أنها بين الســماكين والشعرى

ويقول فى مطلع قصيدته التى يمدح فيها صلاح الدين :

أرى كل شيء فى البسيطة قد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

ثم يشير « الكف الخضيب » وهو أســم نجم فى السماء ، ويتحدث عن رصد النجوم ، والمنجمين ، ومنازل النجوم فى السماء الى غير ذلك مما يدل على ثقافة واطلاع فى علم الفلك الذى كان من علوم ذلك العصر وأسس الثقافة آنذاك .

علاقته بالقاضى الفاضل :

وكان القاضى الفاضل أثيرا لدى الشاعر لأنه كان له أستاذا وموجها ، وكان لوالده صديقا محبا ، وكان ابن سناء مدينا له بشهرته الأدبية ، ومنزلته السنية ، ومناصبه الهامة ، وتوجيهاته الفنية التى خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره بعد أن صادف فى بداية أمره من المتاعب ماجعله يعرض بمن يمدحهم فيقول فى سنة ٥٧٣ هـ :

تكمل فضـــلى قبل عشرين حجة
فكيف وقــد جاوزتها بثــلاث

وأنفقت عمـــرى فى مدائح معشر
كمـــوتى ولو أنصفت كن مراثى

وقد عاونه القاضى الفاضل معاونة تذكر فتشكر ، ذكرها ابن سناء وشكرها ، وأشاد بهذه الصـــلة فى كتابه « فصوص الفصول » حيث يقول : « وهو الغنى وأنا المحتاج اليه ، وهو المعطى وأنا الآخذ منه ، وهو الاستاذ وأنا التلمـــيذ له والمتعلم منه » .

ولقد كانت رسائل الشاعر وقصائده تصل تباعا الى القاضى الفاضل عندما كان فى دمشق ، كما كانت ردود القاضى الفاضل ورسائله تصل شاعرنا فى انتظام ، وكتاب « فصوص الفصول » حافل بالرسائل التى أرسلها القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد والى «ابن سناء» ، وموضوعاتها تدور حول الشاعر ، ورأى القاضى الفاضل فى قصائده ، وتعليقه عليها ومن تلك الرسائل نفهم أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين الشاعر صلة وطيدة ، قواها صلته السابقة بأبيه القاضى الرشيد ، وزادها تأكيدا قرابة الأدب ونسبه ، وعلى الرغم من أن القاضى الفاضل أعلى مكانة ، وأرفع منزلة ، وأكبر سنا الا أنه وجد فيه ميلا شديدا الى الأدب، وقدرة على الشعر ، لذا رضى أن يكون له موجها ومرشدا ، وكان فى نقده قصائده رقيقا رفيقا ، يميل الى تشجيعه والأخذ بيده ، فكان يرى أنه مايقول من قصيدة الا وتكون أحسن من أختها ، وما يرينا من آية الا وهى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروســا الا وقد جمع بين حسنها وبختها وقلما يجمع الحسن والبخت ، ولهذا

قيل : « وقد تمنى المليحة بالطلاق وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هـــذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ،فالمعلقات بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجدتها وجودتها ٠٠ »

وهكذا كان القاضى الفاضل يدفع الشـــاعر قدما بآرائه وتقريظه ، وكان لهـــذا الاتجاه أثر مشكور فى تقـدم الشاعر واحرازه قصب السبق والتفوق حتى حسده الشعراء الآخرون وحقدوا عليه ، وقد اعترف ابن سناء بفضل أستاذه عليـــه حيث يقول : « ٠٠٠ انه كثر قليلى ، وسمن هزيلى ، وفخم ضئيلى ، وأعطانى من المدح ما لا أستحقه ، ومنحنى من الوصف ما لا أستوجبه ورفع أقوالى فوق قدرها ، ودفع لعقائلى فوق مهرها فضلا منه ومنا ، واحسانا وحسنى ٠٠٠ (١) »

ولقد خص الشاعر القاضى الفاضل بسبع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التى بلغت الخمسة والسبعين ، ثم اتجه بما بقى الى السلاطين كصلاح الدين والعزيز والأفضل ، والعادل والكامل وغيرهم من الملوك والوزراء كالملك المظفر تقـــى الدين ، والملك الظاهر غازى والوزير صفى الدين بن شكر ، كمـــا مدح والده القـاضى الرشيد ، والقـــاضى الأشرف ابن القـاضى الفاضل ، وشخصيات أخرى كالطبيب اليهودى الرئيس موسى ٠٠

وقد أمكن أن نميط اللثام عن تاريخ أكثر هذه القصائد وتكشف بذلك عن تطور العلاقة بين الشاعر وبين القاضى الفاضل، ففى سنة ٥٧٤ هـ مدحه بقصيدة رائية هنأه فيها بمطلع العام الجديد ومطلعها : ــ

---

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

يا ليـلة الوصل بل يا ليـلة العمر
أحسنت الا الى المشـــتاق فى القصر

وبعد مقدمة غزلية بلغت الثـــلاثين بيتا خلص الى المـــدح ، فشكره شكر الأرض للمطر ، وشكر سواد العين للنظر ، وبين فضله وعطفه المتزايدين عليه ، ويبدو أن القاضى الفاضل كان قد ألحقه بديوان الانشاء فى ذلك الوقت فأشار الى ذلك ، والى النعم التى غمره بها بقوله : ــ

دخلت جنة عدن فى الحيـــاة به
فلست أقـــرأ الا آخر الزمر (١)
وقلت قـــولوا لأيام مغـــيرة
غـــرى المهـــدد يا أيام بالغـــير
وصرت ألهو وليل الأمن يشملنى
طورا مع السمر أو طورا مع السمر
قبلت ثغر الأمـانى اذ ظفرت به
والثغـــر يحسن بعد الفتح والظفر

وقد بالغ فى مدحه مبـــالغة خرجت به عن حـــدود الصدق الفنى ، اذ جعل الدهر مفتقرا اليه ، يمد كفه مستجديا بينما يمد الفاضل لحظة محتقرا اياه ، وقلمه فى يده قدر الله يخط به مصائر الناس فينفع هذا ويضر ذاك : ــ

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » آية ٧٢ من الزمر .

والدهـــر مـد اليه كف مفتقـر
فمد للدهـر منـــه لحظ محتقر

فى كفه قلم ان شـئت أو قـــدر
يصرف الخلق بين النفــع والضرر

وفى سنة ٥٧٤ هـ توجه القاضى الفـاضل الى بيت الله الحرام فهنأه بعودته من حجته الأولى ، وقد صادفت عودته انتصارات «صلاح الدين» على الصليبيين فى «بانيـــاس» واستيلائه على حصونهم ، وأسره ملـكهم · ومطلع هذه القصيدة :

ما ثنـــاياك لـؤلـؤ مكنون
مثلهـا لم تقع عليه العيـون

وقد أشار فى هذه القصيدة الى ما امتاز به القاضى الفاضل من حسن الرأى ، وجمال التدبير ، والقوة فى موضع القوة ، واللين فى موضع اللين ، وأشار ببيانه وروعته فى الكتابة ، وأن قلمه قد غلب الحسام المرهف فمنه ترجى المنى ويخشى المنون : ــ

دبر الملك منه حـل وعقـــد
وتلافاه منه شـــد ولـين

بايعته يد السعادة والبيـــ
ـعة قد كررت عليها اليمين

واصطفاه الرأى الرشيد على العا
لم فهو الأمين والمأمون

واذا خط فى اليراعة خطا
فهو نار تذكو وماء معين

بشبا من ذلك القلم المر
هف ترجى المنى وتخشى المنون

وقد توجه القاضى الفاضل الى حج بيت الله الحرام مرة ثانية فى سنة ٥٧٦ هـ ثم عاد من مكة مباشرة الى مصر بعد رحلة شـــاقة فمدحه الشاعر بقصيدته القافية التى مطلعها :

نعم المشوق وأنعم المعشوق
فالعيش كالخصر الرقيق رقيق

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة تسعة وأربعين بيتا جعل للغزل منها ثلاثة وعشرين ، ثم انتهى منها الى مدحه بالبلاغة ، وبلوغ المدى فى الكتابة حتى ليظن أن كلامه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » : ـ

لولا اعتقادى للشريعة مخلصا
ماقلت ان كلامه مخلوق

كما مدحه بالرياسة الأصيلة فيه ، وبطلاقة الوجه ، والنوال الطليق وبالتعمق فى الجود حتى لا يستقر المال فى كفيه ـ كما كان أبو تمام يقول ـ وبأن كل من يتوق الوصول الى هذا المستوى يعجزه ذلك حتى الشمس نفسها .

ورث السيادة كابرا عن كابر
فالعرق فى افق العلاء عـريق

معنى الرئاسة فيه بكر لا كمن
معنى الرئاسة عنـــده مطروق

الحكم فصل والكلام مفصل
والوجه طلق والنـــوال طليق

متعمق فى الجود لولا جــوده
ماكان يشكر فى الورى التعميق

لا يستقر المال فوق بنـــانه
حتى كأن بنانه مخروق

ياطالبين ذرا عـــلاه توقفوا
ومؤملين ندى يديه أفيقـوا

لو رامت الشمس المنيرة شأوه
يوم الفخار لعـــاقها العيوق

وقد مكث القاضى الفاضل بمصر حتى نهاية عام سنة ٥٧٧هـ ثم غادرها فى صحبة صلاح الدين حيث رافقه فى هجومه على حلب ، وفى هذه الفترة وجه اليه ابن ســـناء عدة قصائد منها قصيدة لامية هنأه فيها بمولد ابنه القاضى الأشرف ويحتمل أن يكون قد نظمها سنة ٥٧٣ هـ لأنها هى السنة التى ولد فيهـــا الأشرف (١) ، ثم قدمها اليه مؤخرا ، ومطلعها : ـ

هـــلال ولكن السعود منازله
ونهـــر ولكن البحار جداوله

وفيها يقول :

فبشراك يامولى الأنام بقـــادم
الى قمة العلياء تطوى مراحـــله

(١) وفيات الاعيان : ترجمة القاضى الفاضل جـ ١ : ٢٨٦ .

أتاك كريم النفس والصحب فالعلا
تسائره والمكرمات تعادله

وأنك مولى لا يرد مراده
وأني عبد لا ترد وسائله

وما الدهر الا خادم أنت ربه
وما الخلق الا عالم أنت فاضله

وانه ليردد هنا بعد أن مدح المولود وهنأه به ماردده فى مدائحه الأخرى من أن الفاضل رب والدهر مربوب ، وأن مراده لا يرد وهى مبالغة ممقوتة ، بل دأب على أن يجعل نفسه عبدا للقاضى الفاضل ، ولعل هذه الصفات مما شاعت فى مدائح هذا العصر .

وقد دفع الشاعر طموحه أن يسعى للحصول على جائزة تقديرية من السلطان « صلاح الدين » (خلعة شرف) وبالطبع لم يجد غير الوزير القاضى الفاضل من هو جدير بالتوسط له فى تحقيق مطلبه هذا فوجه اليه قصيدة دالية سنة ٥٨٠ هـ التمس منه أن يحقق وعده ومطلعها : —

شيب فودى رماد نار فؤادى
من رمى لمتى بهذا الرماد

وبعد أن خص الغزل بخمسة عشر بيتا خلص الى المدح فقال : —

كيف لا يرفع الزمان عمادى
وعلى الفاضل الأجل اعتمادى

وقد استعمل هذا المعنى فى الخلوص الى المدح أكثر من مرة ، ووصفه بالسيادة كابرا عن كابر ، وبأصـــالة الرأى وسداد الفكر : —

ما أتته تلك السيادة عن جد
م ولكن أتته عن أجـــداد

ان يكن معرق الأبوة فى السؤ
دد فالرأى معرق فى السداد

ثم صرح بمطلبه فقال : —

اننى سوف أقتضى منك وعدا
أنت باد به فنعم البــادى

مطلب فيـه ملبس العز اذ يلـ
ـبس ذلا جمـــاعة الحســاد

لم تزل تنبت الرياض ولــكن
لا على الروض بل على الأجساد

هو وعد قد كان لى وسؤالى
منك انجــاز ذلك الميعـــاد

ويبدو أن ملبس العـــز هذا هو خلعة شرف ، أو عبـاءة سلطانية ، تكون فخر لابسها لأنها هدية السلطان ، ودليل رضاه.

وبعد ذلك وصل القاضى الفاضل كثير من القصائد التى مدح بها « صـــلاح الدين » فى مناسبات عدة كتكذيبه المنجمين بانتصـــاراته وكسره صليب الصلبوت ، وكسر الصليبيين فى « حطين » مما سيأتى ذكره عند الحديث على موقف ابن ســناء

من الحروب الصليبية وفى سنة ٥٨٣ هـ مدح الفاضل بقصيدتين هنأه فى احداهما يفتح عسقلان أولهما بائية ومطلعها :

سرى طيفه لا بل سرى بى سرابه
وقد طار من وكر الظلام غرابه

وبعد المقدمة الغزلية التى بلغت واحدا وعشرين بيتا خلص الى مدحه بما هو مألوف من الصفات ، كالمجد والرفعة ، والفضل والنوال ، واعتماد الناس عليه ، ثم شكا اليه جور دهره وقسوته ، وصرح بمطالبه وطموحه فقال : ـ

أمولاى أشكو جور دهـــر مبرح
تطاول بى لما انتشى بى انتشابه

أتانى لكن أين منـــى رجوعه
وأقبل لكن أين منى ذهابه

قسا قلب دهرى بعد لين ألفتـــه
ومن لى بدهر لا يخاف انقـــلابه

ولم يشر فى هذه القصيدة الى فتح عسقلان ، لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنه أشار الى ذلك فى قصـيدته الرائية التى مطلعها : ـ

باتت معـــانقتى ولـكن فى الـكرى
أترى درى ذاك الرقيب بما جــــرى

فبعد أن انتهى من المقدمة الغزلية التى خصها باثنين وثلاثين بيتا مدحه بما هو مألوف من الصفات ، ولكنه زفها اليه فى أجمل ثوب وأزهى عبارة فهو يقرى ضيوفه شـــعاع التبر الأحمـر ، والقضاء يسعى لخدمته ، والأفق داره ، والكواكب معشره ،

وجعله يفوق الملوك لأن اسمه الفاضل ، وجعل بلاغته تفل حد الحسام ، ثم أشار بعد ذلك الى كسر الصليب ، وتحويل الكنيسة الى مسجد :

كسر الصليب سـميه من رأيه
فسل العدا من كان أصلب مكسرا

ولقـد أقـر الله عـين نبيـه
بمطهر جعـل الشـآم مطهـرا

مازال أو جعـل الـكنيسـة جامعا
والأنبـل المخفـوض منهـا منبرا

فتـح الشـآم بـه وقـال زمانـه
ان كنت فاتحـه فلـن يتغـيرا

الشام دارك لو أردت أخـذته
بالارث عن آبائك الشـم الـذرا

وقد أجاب الفاضل على هذه القصيدة بكتاب أورده ابن سناء فى كتابه (فصوص الفصول) جاء فيه : « ووصل كتاب القاضى السعيد وقصيدته ووقفت من قصيدة القاضى السعيد على أدوية للشفاء ما كانت فى قدرة الأطباء ، ونسـخ استعملتهـا القلوب فعادت بصحة الأعضـاء ، فجاءت والعافيـة فى قرن ، ورخصت ما أبقت العلة من درن ، وقامت بينى وبين الحمى فوفرت هذيانهـا وتلت علينـا آيات محاسن عرفت الحمى مـع اساءتها احسانا ، فنكصت على عقبها ، ودخلت فى حسها ، وكأنما كانت فى الحقيقة ماء عذبا صافيا ، ألقى على نارها فسبقها الى حطبها ، ولقد أتاه الله وله الحمد فصل الخطاب وألان له ما ألان لصاحبه من صم الحديد

الصلاب ، ولو أدركها فتليت عليه ، لنلابها مرامر المحراب ، فما أرخص وما أغلى ذلك البياع ، وما أشد وما أسد ذلك المتاع :

انا بعثنـاك نبغي القـول من كثب
فجئت بالنجم مصفودا من الأفق (١)

وقد تمكن القاضي الفاضل من الحصول له على خلعة شرف من الملك الناصر « صلاح الدين » تلك التى سعى اليها وشغل بها ، وكتب الى القاضي الفاضل ملحا ومصرحا بطلبها بل ومدح الملك الناصر وطلبها في قصيدتين من شعره ، وهذه الخلعة مرتبة أدبية ، ومنزلة اجتماعية ، ترفع قدر الشاعر بين الشعراء ، ولعلها أشبـه بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية التي يمنحها الأدباء والمفكرون والتى تدل على أن الحائز عليها قدم خدمات سنيـة للدولة فـكوفىء عليها أجل مـكافأة ، ولهذا حفظ ابن سناء هذا الجميل لأستاذه الفاضل ومدحه بقصيدة حائية مطلعها :

راحت وحق الله روحي بين المليحـة والمليـح

وأشاد فيها بتلك الخلعة

وكسوتني خلعا هـزز ت بهن عطفي كالصفيـح
خلـع على خلع أتتـ ني كالفتوح على الفتـوح
لولاك لم يعلم بأشعا رى ولم يقرأ مـديحى
وجميـل رأيك حين صر ح جاء بالجـود الصريح

ولنقف قليلا عند قوله : لولاك لم يعلم بأشعارى .. فهـل هذا اعتراف من الشاعر بقصور شعره عن أن يصـل الى السلطان « صـلاح الدين » لولا مساعدة القـاضي الفاضـل ؟ أم أنه اقرار

---

(١) فصوص الفصول : الفصل ٤٣ ، ٤٤ .

بالأمرالواقع لأن قصائد الشاعر فى مدح الملك الناصر كانت تسعى اليه عن طريق القاضى الفاضل ؟ أم أنه تواضع الشاعر ومجاملته القاضى الفاضل ، ورغبته فى اظهار فضله ، واعلاء شأنه وتجسيم الدور الذى قام به فى مساعدته وعونه ؟

الواقع أن التواضع والرغبة فى الاشادة بالقاضى الفاضل هى التى دفعت الشاعر الى هذا القول لأنه لايقل جودة عن شعراء عصره ان لم يفقهم ، ولأن صلته بالقاضى الفاضل وعمق هذه الصلة هو الذى يدفعنا الى هذا الترجيح ٠

وبعد أن استولى « صلاح الدين » على بيت المقدس قام ابن سناء بزيارته سنة ٥٨٣هـ ، ثم توجه الى دمشق لرؤية القاضى الفاضل قال : « فوجدته مريضا مدنفا فى خطة صعبة ، وفى حالة مخطرة فخشيت أن أقيم فيجرى من المحتوم عليه مالا طاقة لى بمشاهدته ، فأقمت عنده أياما قلائل ، واعتذرت اليه بأننى وردنى عن أبى رحمه الله خبر مزعج ، وحديث مقلق ، فأعطانى دستورا بالعود عن نفس غير طيبة ، وعلى كراهية غير خافية ، فلما عدت ومن الله تعالى بعافيته كتبت اليه كتابا ، ونظمت قصيدة أعتذرفى كل منهما وأستغفر من انفصالى عن خدمته ، وخروجى من جنته ، فأما قصيدتى فمطلعها : —

تذكرت أيام الصبابة والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وبعد مقدمة غزلية طويلة اعتذر عن مفارقته اياه وهو مريض ، فقال : —

بسوء اختيارى كان لى عنك مذهب
على أن قلبى لم يجد عنك مذهبا

ولولا أبى ما كان لى عنـــك مـرغب
وكيف أرى عن جنـــة الخلـد مرغبـــا

وكم لك لـولا سـوء بختى نعمـــة
مننت بهـــا لو شئت سميتهـــا أبا

وبعـــد أبى كم نعمـة منك نلتهـــا
فألفيتها أحلى وأهنـــا وأعجبـــا

أبى لى أن أبقى السعـــيـد بزعمهم
شـقاء أبى أن يســعد المرء ان أبى

وقد وصلت تلك القصيدة القاضى الفاضل ، وأعجب بها ، ثم كتب الى ابنه القاضى الأشرف كتابا تعليقا على تلك القصيدة ، وهـذه الحادثة ، وقـد أورده ابن سناء فى النصوص جاء فيـه : « وأما اعتـذارك عن معلمك القـاضى السـعيد فى كونه فارقنى فأرقنى ، وأوحدنى فأوقدنى ، فهذه حجج ملفقة علمك اياها فانه يعلمك السحر ولكنه سحر البيان وما أحق أقواله أن توصـــف بما وصف به ابن المعتز كتابته بأنها سحارة تحكم عقد اللسان ، وقـــد عقد لسانى عن عتبه بالسحر من كتبه ، فانى لما قرأت كتابه ، وتأملت قصيدته التى اعتذر فيها عن فراقى ، وهربه منه ، وتركه اياى .. أشواقى آخذة بأطواقى ، كنت كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد ما فقد منه ما فقد ، وما هرب الا خوفا أن يقضى على بالمحتوم وهو حاضر بحضرتى ، فينفر ويتجرع حسرتى دون أسرتى وهذا عذر استحى أن يقوله فقلتـــه عنه ، وخجل أن يجعله عـــذره فعذرته من عند نفسى منه ، ما عليه والله عتب ولا له ذنب ، ومن أين للوجه الجميل ذنوب ، ووددت لو كان البحترى حيا فكنا نلسعه من تلك القصيدة بحيه ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ،

وتستر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الحلوب وأيهما أحق بملك القلوب ، ولاشك أن الغالبة هى زينب الغـــالب وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب (١) .

وقصيدة البحترى التى يعنيها الفاضل هى التى مطلعها :ـ

اجدك ما ينفك يسرى لزينبا   خيال اذا آب الصباح تأوبا

وفى سنة ٥٨٤ هـ رأى صلاح الدين أن تصحيح الأوضـــاع الاقتصادية فى مصر لن يتم الا بعلاج حاسم سريع فعول على القــاضى الفاضل وأمره بالسفر الى مصر ، فكتب الى ابن سناء يذكر تبريزه من دمشق عائدا الى مصر فقال ابن سناء قصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر   وحاشاكثم من وجهها ضحك الثغر

ثم هنأه فيها بالقدوم من السفر :

هنيئاً لمصر أنها حلهـــا الندى   وبشرى لمصر أنها جاءها البحر

هنيئا لها أن يسر الله يسرها   فلا عسر الا جاء من بعده يسر

وقـد جاء مصرا نيلها فى أوانه   فليست تبالى ضن أو سمح القطر

وعاد الى صدر الأقاليم قلبه   فعاش ولولا القلب لم يخلق الصدر

وقد أعد هذه القصيدة ليعرضها عليه اذا وصل ، ولكن الله قدر أن يتأخر ، فأرسل اليه هذه القصيدة مع كتاب يشرح قصتها(٢) وقد أعجب بها القاضى الفاضل أيما اعجاب ،وكتب : « مارأيت أغرب من مطلع تلك القصيدة ، ولا أدل منها على شطارة طبــع ولا من بيت الكأس المكسورة ، وهو يعنى قوله : ــ

---

(١) فصوص الفصول : خط .

(٢) « فصوص الفصول » :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا أدل منه على صـــــلابة نبع ، ولا من بيت الورق الخضر ، وهو يعنى قوله : ـ

فلا تنكروا منها الخضاب فانما

هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ولا أدل منه على رقة طبع ، وشدة نزع ، ماهو الا مالك عنان الفضل فى عصره ، وواحـد كل دهره ، ولا أسمح بهذه المنقبة لدهره وما تغصصت الا بغيبه ابن المعتز عن أن يسمع كما تسمع ، فيقطع بفضله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ، ويغض عن غلواء توجيهه ، ونوافقه على أنه آتكأ واتكل على ذى الرمة فأخذ فى طريقه مستأنساً برفقته ، فما ترك له تشبيها الا نقله وصقـله ، واستعمله واستنزله ..... (١) »

وفى نهاية سنة ٥٨٤ هـ رحـل القاضى الفاضل الى مصر ، وبينما كان فى بيت المقدس ، وصلته قصيدة بائية يشير الشاعر فى مطلعها الى قصيدته الرائية السابقة :

رأت منك رائيتى ما تحب وبشرى لها أنها لم تخب

وقد أرسل مع هذه القصيدة كتابا هنأه فيه بالقـــدوم ، جاء فيه : « ولما علم المملوك بالاياب سارع الى عمل قصيدة للهناء بالقدوم وأملاها عليه بلسان الجذل اقتضابا ، وأذن له الفرح وقال صوابا وجعل القافية على باء ، وأراد تسـيرها لتلقى مولانا فى طريقهـا ، فوجدها مقيدة والمقيد أسير ، لايطيق المسير ، وتأسى بها المملوك لأنه يجب عليه أن يسعى الى أول البـلاد الشاميـة لتلقى مولانا ،

---

(١) فصوص الفصول : ١٣ ، ١٤ .

فكان هو أيضا مقيدا من الاحسان بقيوده ، لايطيق معها القعود ، فلما أبطأ ايابه سيرتها اليه ، وكتبت عليها كتاباجاء منه فيذكرها :

« .. فلما وصلت القصيدة والكتاب أجاب الفاضل الى أبيه القاضي الرشيد : « وما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها في الهناء بالأمر غير الواقع وبالوصول الى مصر ، وبينه ما شاءت الأقدار من الموانع ، وبالجملة أن أهل هذه الصناعة ، وقفوا خلفا ، ووقف أماما وأتت السماء بهم دخانا ، وأتت به غماما ، وتأخروا وان تقدموا ، فقصروا وان سبقوا .. » (١)

فشهد له بالسبق على أقرانه ، والتقـــدم على نظرائه ، وأنهم وقفوا خلفا ، ووقف هو أماما الى غير ذلك .

وقد بقي الفاضـــل بمصر حتى نهاية سنة ٥٨٦ هـ ، ومن المحتمل جدا أن بعض القصائد التي لم تؤرخ في الديوان تكون قد قدمت للفاضل في هذين العامين .

وفي سنة ٥٩٢ هـ مات القاضي الرشيد والد الشاعر فتعرض بعد فقده لأزمات شديدة ، وضنك مرير حتى أحس انصراف الناس عنه ، وشماتة الحساد فيه ، وربما ترك وظيفته ، وصفرت يده ، وساءت حاله ، ولذا نراه في القصيدة النونية التي مطلعها : ـ

جاءت بحسن مطمئن   جاءتك منه بكل فن

يشـــكو اهمال القـــاضي الفـــاضل له ، وأنصرافه عنه ، ثم يستصرخه ويتدنى ، ويسرف في التدني ، ويصرح بجوعه ، ويطلب رفده ونواله : ـ

ثقل الزمان على حتى   م   خف بين الناس وزني

---

(١) نصوص الفصول : ١٦ ، ١٧ .

وسقيت منه مكارها حتى امتلأت وقلت قطني
وأراه جار فكيف جا ر وانت منه لم تجرني
وانفل عزمي واستبيـ ـحت قلعتي وانهدكني

ثم قال :

ومضى أب يحـــنو علـ ـم فليت أمي لم تلدني
وأراك لا تحنو وتشـ ـبع حاسدي وتجيع بطني
افني زماني بالتشـــو ف والتشــهي والتمني

وقد نظم هذه القصيدة يوم في عاشوراء : ـ

ونظمتها في يوم عا شوراء من همي وحزني

وفي هذه المناسبة يظهر موقفه كسني على عكس ما لصق به من تهمة التشـيع ، فالشيعة يفرطون في حزنهم في هـذا اليوم فيلبسون السواد ، ويضربون صدورهم بالحجارة ، ويقيدون أيديهم بالأغلال والسلاسل ، أما السنيون فانهم يحزنون من غير مبالغة ولذا يقول : ـ

يوم يساء به وفيـ ـه كل شيعي وسني
ان لم اعز المسلمـ ـين به فاني لا أهني
أو كنت ممن لاينو ح به فاني لا اغني

وفي قصيدة أخرى دالية بلغت الخمسة والستين بيتا ، نظمها بعد سنة ٥٩٢ هـ أي بعد موت والده أيضا يجأر بالشكوى والاستغاثة بالقاضي الفاضل ، ويضيق باهماله له : ـ

وقل من يفقد الرشيد ابا برا فيلقى من امره رشدا

قد كان لى والد وكان من الـ ـطاعة والبر بى يرى ولـدا
وكان بى جنـة النعيم فمـا بالى رأيت النعيـم قـد نفـدا

ثم غالى فى مدح القاضى الفاضل فجعله قد استعبد الخلق بنواله ولولا خوفه لعبدوه ، والملوك تفد الى بابه ، ورأيه سديد الى غير ذلك من الصفات التى تعود أن يخلعها عليـه ، ثم صرح بأنه جرد من منصبه : —

أصبحت لا منصبا ولا أمـلا فيـه ولا نعمة ولا حسـدا
لا مسعـدا لى على الزمان ولا سعدا ولا عاضدا ولا عضـدا
كسدت فيـه وليس ذا عجبـا منه فمثلى فى مثـله كسـدا
وطف غـيرى وما لحـقت به لا يستوى الأشقياء والسعدا
وكـان لى والـد وكان به عيشى من بعد أن غدا رغـدا
واننى ما يئسـت من أمـلى ان لم يجى اليوم منك جاء غدا

والظاهر أن هـذه الفترة كانت عصيبـة حتى على القاضى الفاضل نفسه ، فلم يكن مستريح النفس للأوضـاع القائمة بعد موت « صلاح الدين » وربما يكون هذا هو السر فى تلك الجفوة التى نوه عنها الشاعر ، غير أن هذه الجفوة سرعان ما انطفأ أثرها وزالت شواهدها لأن الشاعر لم يظهر تلك الجفوة ، وهذا الاهمال فى آخر قصيدة وجهها الى القاضى الفاضل قبل وفاته بثلاثة شهور ، ومطلعها : —

شـربت شرب الهـيم من فـم ذاك الـريم

وقد مدحه وهنأه بعيد النحر ، وذكر فضله وانعامه عليه

قـد أثقلت ظهرى وقـ ـدت بالحيـاة أديمى

أقل ما يوليه تبـ جيلى مع تعظيمى

وكان الشاعر قد أهداه كتابه دار الطراز ، فأثنى عليه ورفع قدره ، وقد أشار الشاعر الى ذلك حين قال :

ومنك تعليـــمى ومــا علمت مع تفهيمى
وعمرت دار الطــرا ز منك بالرقـــوم
كنا موشـــحاتى صر ن منـــك كالطميـم

وهنأه بالعيد : ـ

واهنأ بعيـــد قادم بأســـعد القــدوم
أتاك بالتكميـــل لل آمـــال والتتميـــم

وظل ابن سناء وفيا لأستاذه طيلة حياته ، غير أن القاضى الفاضل قد اعتزل الحياة السياسية بعد موت « صلاح الدين » لما رأى اختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة وقد وافته منيته سحر يوم الثلاثاء أو الأربعاء سنة ٥٩٦ هـ (١) ولم نعثر على قصيدة فى رثاء القاضى الفاضل لابن سناء ، اما لأنه قالها وخشى اذاعتها من ابن شكر الذى كان وزيرا وكان شديد العداوة للقاضى الفاضل ، أو لأنها فقدت • وقد ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوى أبياتا لابن سناء على أنها فى رثاء القاضى الفاضل وهى :

عبد الرحيم على البرية رحمة أمنت بصحبتها حلول عقابها (٢)

ولــكن الصحيح أن هــذه الأبيات من قصيدة فى المدح مطلعها : ـ

فرقت بين بنانها وخضـــابها وجمعت بين سلافها ورضـــابها

وقد هنأه فيها بعيد الفطر •

---

(١) القاضى الفاضل : الدكتور أحمد أحمد بدوى : ٣٣ .
(٢) القاضى الفاضل ص ٣٤ للدكتور أحمد أحمد بدوى •

علاقته بالوزراء والأمراء :

وكان لصلة القاضى الفاضل بصلاح الدين وحاشيته ، وبالبيت الأيوبى كله ، ولثقة صلاح الدين الزائدة به ، كان لهذا أثر بارز فى تطلع ابن سناء الى الاتصال بالأمراء والوزراء ورجال الحاشية ، وقد ساعدته شاعريته على الاتصال بهم ، فمدح من السلاطين : « صلاح الدين » وأولاده العزيز والأفضل ، وأخاه الملك العادل ، كما مدح من الوزراء « ابن شكر » على الرغم مما كان بينه وبين القاضى الفاضل من عداء كما توطدت علاقته بالملك المظفر تقى الدين فمدحه بكثير من القصائد وأشاد بعزيمته فى الغزو والجهاد ، كما مدح الملك الظاهر غازى والملك المعظم شمس الدولة تورانشاه ٠

وقد توطدت علاقته ببعض هؤلاء الوزراء والأمراء فأحبوه وصادقوه ، وكانت علاقته بالأفضل ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى وطيدة حتى أنه عندما كان ابن سناء مارا بعكا أرسل اليه الأفضل رسولا خاصا يستدعيه اليه فى دمشق ونفحه بالهدايا السنية ٠ ويبدو أن ابن سناء اعتذر وسافر الى مصر ولكنه مدحه بقصيدة مطلعها : —

قمر بات بين سحرى ونحرى   وخيول الدموع باللثم تجرى

وفيها يقول : —

وفدى منزلا ثالى النيل فردا   كل ربع لآل مية قفر
كلفى قط لم يسافر وما خف   ركاب الغرام الا لمصر

ثم يقول : —

جل مقدار ذكره لى على البعـ   ـد لقد جل فى البرية قدرى
واقتضى الأمر منه شعرى فار   سلت اليه بمقتضى الأمرشعرى

كما توطدت صلته بالعزيز ، فأشاد بجهاده وبطولته فى فتح « تبنين » على الرغم من العدد العديد الذى كان يحيط بها ، ويدافع عنها ، حتى سدوا كل طريق موصل اليها وفى ذلك يقول : —

الشام للاســـلام دار القرار   وكان من قبـل طريق الفرار

وفيها يقول : —

جئت لتبنــين ومن حولهــا   قوم كأعــداد الحصى للحصار
سدوا عليهـا الطرق حتى لقد   كادوا يسدون طريق القطـار

كما توطدت صلته بالملك الكامل ابن الملك العادل حتى ولاه ديوان الجيش والاشراف عليه ، ولكن ابن سناء اعتذر عن ذلك اعتذارا رفيقا ورأى أنه لايصلح لمثل ذلك ولهذا قال : —

قـد عجز المملوك عن خدمة   ثبـاته فى مثلهـا طيش
للجيش ديـوان ومالى بـــه   أنس ولا عنـدى له عيش
وصرت مهزوما فـلا تعجبوا   من واحــد يهــزمه الجيش

وقد استطاع ابن سناء أن ينفذ الى قلب « ابن شكر » حتى حصل على خلع عديدة من الملك العادل عن طريق وزيره ابن شكر ، كما حصل على هدايا ابن شكر نفسه ، وقد أهداه ابن شكر بغلا يسمى الجمل ، وقد صرح بذلك فى احدى قصائده اذ يقول : —

حملتنى فوق مركوب قوائمـه   كالسيل مع أنها قدت من الجبل
تمثال حسن بـلا مثل يماثله   فى الحسن لكنه فى السير كالمثل
علوت منه على الأفـلاك أورده   نهر المجرة بين القوس والحمل
وياؤه حـــذفت من اسمه غلطا   فهو الجميل وان سموه بالجمل

وهـكذا كان ابن سناء ينفذ الى قلوب الوزراء والأمراء ، فيحملون له الود والحب والاكبار ، ويبدو أن شخصيته الى جوار شاعريته كانا عدته النفسية التى حقق بهما تلك الصلات الوطيدة

المناصب التى وليها :

لقد كان القاضى الفاضل صاحب اليد الطولى فى كل ماوصل اليه ابن سناء من مجد ، وما أسند اليه من وظائف ، فقـد عينه كاتبا بديوان الانشاء ، ولقد كانت قصائد « ابن سناء » تصل الى القاضى الفاضـل تباعا وهو فى الشام ، وكان القاضى الفاضل يعجب بها ، ويذيعها ويشيد بمحاسنها فى أوساط الشعراء ، وقد دفعه فرط اعجابه به الى أن يستقدمه الى « دمشق » ليكون كاتم سره فى ديوان الانشاء ولكنه لم يبق طويلا فى الشام اذ آثر العودة الى مصر لشدة تعلقه بها وفرط حنينه اليها ، وربما ورث هذا الميل وذاك الحنين من أستاذه القاضى الفاضل الذى كان يقول: وأما أحوالى فاننى لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائهـا وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها، ومن لى بمصر فاننى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها ، وأبيع بردى وما عسـاه بشربة من مائها وأمتطى متن السيف فى هجـر سوادها وسودائها ٠٠ (١) »

وفى سنة ٥٧٢ هـ تحققت رغبة ابن سناء فى العودة الى مصر لأن « صلاح الدين » قـد قرر مغادرة سوريا مصحوبا بموظفيه فعاد ابن سناء معهم ٠ وقد قرر الصفدى أنه كان يتقاضى راتبه سواء أحضر الى الوظيفة أم لم يحضر ، ولما رحل القاضى الفاضل

---

(١) الروضتين : جـ ٢ : ص ٥٨ ٠

مرة أخرى الى دمشق فى صحبة « صلاح الدين » لم يرحل معه «ابن سناء» بل بقي فى مصر وكيلا عن القاضى الفاضل يرعى ولاياته الواسعة وهى وظيفة لا تسند الا الى كفء موثوق فيه · وقد ظل ابن سناء فى هذا المنصب الهائل حتى وفاة القاضى الفاضل سنة ٥٩٦ هـ · ومن قصائده التى مدح بها القاضى الفاضل وصلاح الدين فى هذه الفترة نرى أن حالته قد تحسنت فى هذه الوظيفة ·

ولما وافى الأجل المحتوم سيده القاضى الفاضل ، ووصل ابن شكر الى مرتبة الوزارة ، وهو العدو الألد للقاضى الفاضل لم يجد ابن سناء غضاضه فى مدحه ، والتقرب اليه حتى حظى بهداياه وصلاته — كما أسلفت — وبقيت صلته قوية بالحاشية والسلاطين حتى ولاه الملك الكامل ابن الملك العادل المسئولية الكاملة عن ديوان الجيش سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسبا لطبيعته فرفض هذه الوظيفة فى أدب جم · وهذه كانت آخر ماولى ابن سناء من وظائف ·

مجالسه ومنادماته :

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء فقربوهم الى مجالسهم ، واستمعوا الى قصائدهم التى ألهبت مشاعرهم وأذكت حماستهم وعواطفهم ، فتمسكوا بالنصر ، ونعموا بلذة الجهاد ، ونشوة المدح ·

فكان الخلفاء والأمراء والوزراء لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها، ويخمد أوارها فيعقدون الندوات، ويستمعون فيها الى النوادر والفكاهات أو يطربون بتغريد احدى المغنيات ، أو يتبارون مع الشعراء فى مدارسة الشعر ونقده · وكان لبعض هؤلاء الخلفاء ميل فطرى الى الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه ، وانشاده ،

فلقد كان الملك الافضل ابن صلاح الدين شاعرا وذكر «ابن خلكان» أن تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر كان شاعرا ، وترك ديوانا من الشعر ، وكذلك اشتهر الملك الكامل ابن الملك العادل ، وأخوه المعظم عيسى كان يصدر في الشعر عن طبيعة سهلة حتى عرف بذلك بين الشعراء ، وكان الشعراء اذا لم يتكلف أحدهم فى قرض الشعر وصفوه « بأنه يفعل فعلا معظميا » واشتهر كذلك المنصور بن المظفر عمر بن شاهنشاه والى «حماه» بالشعر ، ووضع كتبا فيالشعر منها «طبقات الشعراء»٠وكان ابراهيم بن فروخشاه والى «بعبلك» شاعرا أديبا حتى قيل انه أشعر بنى أيوب ، وله ديوان شعر ٠

وقد اشتهر « صلاح الدين » ونور الدين محمود بميلهما الى الأدب ، وتقريبهما الشعراء ، واستماعهما القصائد التى تسجل انتصارهما ، وتخلد مآثرهما ، وكان كل منهما لا يضن على الشعراء بالمال والعطاء ، وكثيرا ما استدعى «صلاح الدين» بعض مقربيه ليقرأ له فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان «ابن منقذ» الشاعر الشامى المعاصر من أفضل الدواوين اليه ، وكثيرا ما ردد فى مجالسه قول أبى المنصور « محمد بن الحسن الحميرى » :ــ

وزارنى طيــف من أهــوى على حذر
من الوشاة ونور الصبح قــد هتفا
فكدت أوقــظ من حــولى به فرحا
وكان يهتــك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمــالى تخيــل لى
نيـل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول ابن المنجم :ــ

وما خضب النــاس البيــاض لقبحه
واقبح منــه حين يظهر ناصــله

ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

فكان اذا قال : « ولكنه مات الشباب » يمسك بكريمته (يريد لحيته) وينظر اليها ويقول : «اى والله مات الشباب»(١)

وقد قضى الملك الكامل ابن الملك العادل أربعين سنة فى حكم مصر ، دأب فيها على تشجيع العلماء والأدباء ، ورويت عنه أخبار أعادت الى الأذهان سيرة «هارون الرشيد» فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ، فنفقت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الادبية أكثر من أن تحصى . منها على سبيل المثال أنه كان فى ليلة من الليالى جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه «المظفر» فقال له الكامل : «أجز يا مظفر» :ـ

« قد بلغ الشوق منتهاه

قال مظفر : « وما درى العاذلون ماهو »

قال الكامل : « ولى حبيب رأى هوانى »

قال مظفر : « وما تغيرت عن هواه »

قال الكامل : « رياضة النفس فى احتمال »

قال مظفر : « وروضة الحسن من حلاه »

قال الكامل : « أسمر لدن القوام ألمى »

قال مظفر : « يعشقه كل من يراه »

قال الكامل : « وريقه كله مدام »

قال مظفر : « ختامها المسك من لماه »

---

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية ٥٨ ، ٥٩ .

قال الكامل : « ليلته كلها رقاد »

قال مظفر : « وليلتى كلها انتباه »

قال الكامل : « وما يرى أن أكون عبدا »

فقام مظفر على قدميه وقال : « بالملك الكامل احتماه »

العـــالم العـــامل الذى في كل صــــــلاتنا نراه
ليث وغيث وبدرتـــــم ومنصب جل مرتقاه (١)

وقد تأثر ابن سناء الملك بما كان جاريا فى هذا العصر بل ان داره كانت ملتقى الادباء والشعراء ، وكانت له مجالس تجرى فيها المحاورات والمفاكهات التى يروق سماعها ، وكانت داره احـــدى المنتديات التى جمعت أسباب الترف واللهو ، وجمعت بين ما يلذ القلب والعين ويمتع النفس والخاطر ، ففيها الزهور والبساتين التى تزرى بأية روضة على حد قوله : ـ

لقد قصرت عن شأوها كل روضــــة
وقصر عن أملاكها كل أفضـــــل
وأنسى بهـــــا بين الورى ذكر جعـ
ـفر الرشـــــيد فانى جعفر المتوكل

وبها تماثيل مصورة ينساب منها الماء ، فكم من طائر ينبعث الماء من رأسه ، وأسد يثب الماء من فمه :

وكم طائر من راسه الماء طـــائر
على انه فى وكـــره كالمكبـــل

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : ٦٤ .

وكم اسد والماء من فيــــه واثب
وان كان لم ينهـــض ولم يتحلحل

ولو رآها كسرى وقيصر لضرب كل منهما كفـــا على كف ، ولفغرفاه وجحظت عيناه : ـ

يقـابل كسرى قيصرا وكلاهمــــا
يقلب طرف البـــاهت المتـــامل

فكسرى يرى الايوان كسرا وقيصر
يرى القصر خص الناسـك المتبتـل

ويجد العشاق متعتهم فى أبهاء تلك الدار ، فقد صور فيهـا مناظر العشاق الذين يرون العشق فرضا منزلا على حد قوله : ـ

وصور فى أرجائها كل عاشـــق
يرى العشق فرضا فى الكتاب المنزل

جميل بثين مع كثـير عـــزة
يصوغـــان اشعار الهوى والتغـزل

وله فى وسطها منظرة تطل على النيل كأنها الزهرة اللامعـة المتألقة وكأنها جمعت بين حسن الدنيا وجمال الآخرة :

انظر الى المنظـــرة النــــاضرة
تزهـــر مثل الزهـــرة الزاهـــرة

احسن مــــا فى حسنها انهـــا الد
نيا وما الهت عن الآخـرة

فى هذه الدار وفى غيرها (فى القاهرة) كان يلتقى بأصدقائه وأحبابه ، وبالشعراء والنقاد فيناقشون مسائل الادب حينـــا ،

ويعبثون حينا ، ويحتد بعضهم على بعض فى المناقشة حينا آخر ، وكان يدعو أصدقاءه الى مجلسه ، ويهددهم بالهجاء ان لم يجيبوا دعوته ، وهذه احدى رسائله الى أحد أصدقائه : ــ

حضر الحبيب وأنت أشـ ـهى للفـؤاد من الحبيب
فلئن حضرت مسارعا
فلأصفحن عن الذنوب
ولأمدحنك بالفتو
ة فى الحضور وفى المغيب
ولئن قعدت لأهجونـ
ـك فى البعيد وفى القريب
واقول هذا فى النها
ر قد استرحنا من رقيب

ويرسل الى صديق آخر يستدعيه فيقول له : ــ

تهت عنا مذ تهت عجبا علينا
يا كثير الخطا قليل الاصابه
نحن فى دعوة فان غبت عنا
رجعت دعوة عليك مجابه

وقد حدثوا أن ابن سناء بلغه أن « هبة الله بن مقلد الكاتب » قد هجاه فأرسل اليه من أحضره ، وأدبه ، وشتمه ، فكتب اليه نشو الملك المعروف « بابن المنجم » الشاعر :

قل للسعيد أدام الله نعمته
صديقنا ابن وزير كيف تظلمه
صفعته اذ غدا يهجوك منتقما
فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه

هجو بهجو وهذا الصفح فيه ربا
والشرع ما يقتضـــيه بل يحرمه

فان تقل ما لهجو عنـــده الم
فالصفح والله ايضا ليس يؤلمه

وجاء فيما كتبه الصفدى عن ابن سناء أنه حضر اجتماعات الشيخ أبى المحاسن البهنسى اللغوى أبى الوزير البهنسى الذىأصبح وزيرا للأشرف بن العادل ، وكان ابن سناء ذكيا ذا عقل ناضج يفهم ما يقال بسرعة ، وفى هذه الاجتماعات اتصل برجل مغربى تعـود أن يشغل نفسه بتأليف الموشحات المغربية بالاضافة الى الأزجال ، فاتصل به ابن سناء ،وناقشه فى الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا، بل انها تقدمت على يديه أكثر مما تقدمت على يد المغاربة أنفسـهم ، غير أن ابن خلكان وياقوت لم يشر أحدهما الى هذه الحادثة • وقد ادعى ابن سناء فى كتابه « دار الطراز » أنه اعتمد على نفسه اعتمادا كليا فى معرفة الموشحات واستنباط قواعدها ، ونهجها الذى تسير عليه •

وقد مر ابن « عنين (١) الشاعر الدمشقى بالقاهرة فاستهوته مجالسها ، وطابتاقامته بها فترة من الزمن ، انهالت عليهالدعوات من الأدباء والشعراء ، وأجتمعوا معه على أرغد عيش ، وكانوايقولون هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، وبخاصـة مع ابن سناء الملك •

أخلاقه : اذا كان لنا أن نستخلص طرفا من أخلاق ابن سناء فاننا نجد أنفسنا أمام مصدرين رئيسيين ، وفى نظرى أن كلا منهما

---

(١) ابن عنين : ولد فى سـنة ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٤ م وتوفى سـنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م وله ديوان نشره خليل مردم بك بدمشق .

يعطى صورة تختلف عن الصورة الأخرى فأما المصدر الأول فهـــو ظروف نشأته ، وانحداره من أصل جمع بين الغنى والجاه ،والثقافة والأدب ، وكذلك صلته بالقاضى الفاضل ، وهو الوقور الجاد ، والوزير الخطير ، وكذلك ما كتبه عنه الادباء والمؤرخون • أقول : ان هذا المصدر لو اعتمدنا عليه فانه يضفى على شاعرنا صفات عظيمة كالاعتدال والورع ، والتقوى ، والشموخ ، والاعتداد بالنفس • أما المصدر الثانى فهو ديوانه وشعره ، واذا اعتمدنا عليه فانـنـا نلمس منه صورة تختلف عن الصورة الســابقة فأكثر من نصف الديوان للمدائح ، ومعظم هذه المدائح يشتمل على مبالغات غـــير مقبولة فهو يصل بممدوحه حد الألوهية فالدهر لو أخطأ فان هيبة عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) تؤدبه وتقيم عليه الحد وبذا يقسم ابن سناء : —

ويمينا لو عربد الدهـــر ســـكرا
لأقيمت منها عليــه الحـــدود

ويرى أن الدهر خادم وأن القاضى الفاضل سيده :

وما الدهر الا خادم انت ربــه
وما الخلق الا عالم انت فاضله

ويرى أن القدر لا يستطيع أن ينقض ما أبرمه الممدوح :

فلا يقدر المقـــدار ينقض مـــا قضى
ولا يستطيع الدهر يهـــدم ما بنى

ويعيد هذا المعنى نفسه فى مدائحه لصلاح الدين : —

فما يبرم المقـــدار ما كنت ناقضا
وما ينقض المقـــدار ما كنت مبرما

وفى مدح الملك العزيز يرى أنه هـو الذى ينظم أمور الكون ولولاه لا نفرط هذا النظام :

لولاك تنظم عقـد هذا الدهر لا نحل النظـام

بل انه ليعترف هو على نفسه بأنه كاذب فى مدائحه ، صادق فى أهاجيه : -

كآبة الكذب فى مـديحى ورونق الصدق فى هجائى

فماذا نستخلص من وراء هذه المبالغات ؟ لقد جرى فى ذلك مجرى شعراء عصره الذين غلبت عليهم المبالغة ، وتجاوزوا حدود الصدق الفنى فوصل بهم ذلك الى حد الكذب والنفاق .. هـذا اذا تجاوزنا نظرة الدين وأنه بهذه الصفات الخارجة عن حـد المألوف ، والتى لا يوصف بها غير الله - خارج عن حدود الدين .

وقد اشتمل ديوانه على كثير من الخلاعة والمجون والاستهتار وبمراجعة أشعاره فى المجون نرى أن القلم يعف عن ذكرها والتعرض لها ، فكثيرا ما صرح بتجاربه مع غلمان ، وجوار وصرح بأعضـاء التذكير وبأعضاء التأنيث من غير مبالاة ولا اهتمام .

ولكن الحقيقة تعلن أن كثيرا من الشعراء فى هذا العصر حتى الشعراء المتصوفين كانوا يتجهون هذا الاتجاه اذ أن حياة الحرب والحرمان الجنسى ، وكثرة سبى الحروب الصليبية ، وغلمان الأتراك قد جعلت الغزل بالمذكر شرعة لدى الشعراء حتى أن الشـاعر الذى يعف عن ذلك كان لا يقرأ شعره ولا يهتـم به حتى ليصرح بذلك عمر بن الوردى :

أستغفر الله من شعر تقــدم لى
في المرد قصدى به ترويج أشعارى (١)

ويقول فى موضع آخر :

ما المرد أكبــر همى ولا نهـــاية علمى
ولست من قــوم لوط حاشــا تقاى وحلمى
وانما خرج دهـــرى كلدا ففتقت شـــعرى

وبالغ ابن سناء فى فخره ، واعتداده بنفسه ، فهو يحتقر الناس جميعا ، ولا يأبه بهم ، ويرى الزمان عبدا وهو سيده :

وفرط احتقــارى للأنام لأننى
أرى كل عار من حلى سؤددى سدى

وانك عبدى يا زمــــان واننى
على الكره منى أن أرى لك سـيدا

ولو علمت زهر النجوم مكاننتى
لخرت جميعا نحو وجهى سـجدا

أرى الخـلق دونى اذ أرانى فوقـهم
ذكاء وعلمــا واعتلاء وسـؤددا

مذهبه الدينى :

وفى هذا المقام ينبغى أن نتعرض لمذهبه الدينى ، اذأن هذه المسألة كانت هامة فى ذلك الوقت لأن بعض الشعراء كانوا ما زالوا يؤمنون بالعقيدة الفاطمية ويظهر أثرها فى شعرهم ، ومثل هؤلاء

(١) ديوان ابن الوردى طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .

كانوا محاطين برقابة الدولة ، وبعض آخر كان يظهر فى شعرهم أثر العقيدة الفاطمية دون وعى منهم لذلك ، وهؤلاء كثرة من الشعراء ومنهم ابن سناء الملك ولقد اتهم ابن سناء بالتشيع ، فقد قرر ابن سعيد فى كتابه « الاغتباط » أنه كان مغاليا فى التشيع (١) وأيد الصفدى ما ذهب اليه ابن سعيد بأبيات قالها ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ اتهم فيها ابن سناء بأنه كان يكره أم المؤمنين عائشة زوج النبى ، ولم يكن يحب أباها ، ولذا نال ما يستحق وسقط من فوق البغل الذى أهداه اليه « ابن شكر » ، والذى كان يسمى بالجمل ٠

ولا نستطيع أن نمر على مثل هذا الاتهام دون أن نناقشه لنكشف عن وجه الحق فيه ٠

١ ـ فنحن نعرف أن ابن سناء تلقى علوم الحديث عن السلفى، وكان السلفى سنياً شافعى المذهب ، وكان ابن سناء يحترمه ويحبه حتى خصه ببعض مدائحه بطريقة لا يقبلها الشيعى ، فقد خاطبه صراحة بأنه أمام الاسلام ، وأحسن مرشد لشريعة النبى عليه السلام وهذه صفات يتردد الشيعى فى ذكرها ، استمع اليه يقول :

فجئت الى الاسكندرية قاصدا
الى كعبة الاسلام او علم العلم

الى خير دين عنده خير مرشد
وخير امام عنده خير مؤتم

الى أحمد المحيى شريعة أحمد
فلا عدمت منه أبا أمة الأمى

(١) الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٢ : ٢٩٣ ٠

اذا ما شياطين الضـــــلال تمـردت
جدالا فمن أقواله كوكب الرجم

أتيت لـــه مســـتشفعا بلعـــائه
يقيل به جرمي ويشـــفع في اثمي

٢ ـ لم يذكر المؤرخون المنصفون من أمثـال « ابن خلـكان » و « ياقوت » و « أبي الفداء » ما يشير الى عقيدة الشـــاعر وأنه كان شيعيا ٠

٣ ـ من تتبعنا لـكتب ابن سناء لم نعثر على ما يؤيد ذلك من قريب ولا من بعيد ، بل على العكس من ذلك وجدنا ما يؤكد أنه كان سنياً ، ففي مقدمة كتابه « فصوص الفصول » يمدح صـحابة النبي عليه السلام المهاجرين منهم والأنصار دون أدنى تحفظ ، وأكثر من من هذا لا يوجد أي ذكر لعلي أو للأئمـــة الآخرين من بيته ، ومن الطبيعي أن لا يمدح الشيعي أصحاب النبي ثم يهمل ذكر علي والأئمة الآخرين فهاهو ذا يقول : « وصلى الله على السيد الأجل ، النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، ويخرج المؤمنين من ظلل الكفر وظلماته ، محمد وآله وأصحابه الـذين هـــاجروا وهجروا ، وآووا ونصروا ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أظهره الله بهم على الدين كله ، وجمع لهم به الخير أجمعه » (١) ٠

٤ ـ في مدحه الملك المظفر « شاهنشاه » يقرنه في أدب جم ، واحترام زائد بسميه عمر بن الخطاب الخليفة الثـاني ، ويراه مترسما نهجه ، ومعيداً في الناس سيرته :

وســـيرك فينـــا سـيرة عمـرية
فروحت من قلب وفرجت من كرب

---

(١) نصوص الفصول : المقدمة .

وردك فينا من سميك سنة
فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب (١)

٥ ــ وحين يهجو ابن عثمان يقول :

علي وعثمان أبوه وجده
على قوله ــ حاشا علياً وعثماناً

فان سرقوا اسما الكرام فربما
رأينا يهوديا يسمى سليمانا

فالشيعي لا يقرن علياً بعثمان ، اذ يرى علياً هو الخليفة وحده ، وغيره من الخلفاء معتدون ·

٦ ــ وفي مدائحه للقاضي الفاضل ينفي عن نفسه التشيع نفيا صريحا فيرى أنه في حبه للقاضي الفاضل يجمع بين صفة التشيع من ناحية الحب العارم للممدوح ، وبين صفة السنية من حيث مذهبه الديني فيقول : ــ

أصبحت في مدح الأجل موحدا ولكم أتتني من أياديه ثنى
وغدوت من حبي له متشيعا يا من رأى متشيعا متسننا

وفي قصيدة أخرى يقول : ــ

تشيع الخلق مثلي في محبته اذ كان قائم جود غير منتظر

وهو شيعي فقط في حبه الزائد واخلاصه للقاضي الفاضل ، وفي البيت اشارة الى القائم عند الامامية وهو المهدي المنتظر الذي ينتظر الشيعة عودته ·

---

(١) راجع الديوان ·

٧ ـ وفي قصيدة نونية أخرى يمدح بها القاضي الفاضـــل يشير الى يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، والشيعة يلبسون فيه الســـواد ، وينتحبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل الحديدية حتى تسيل منهم الدماء ، ومازالوا يفعلون كذلك فى العراق وخاصة فى كربلاء والنجف موضع قبر علي والحسين ، وهو فى هذه القصيدة ينفى عن نفسه أنه شيعى ، وأن أوضح أنه يوم يشـــارك فيه الشيعى السنى حزنه فيقول : ـ

ونظمتهـــا في يوم عا شـــوراء من همى وحزنى
يوم يناســـب غبن من قتلوه ظلمـــا مثـل غبنى
يوم يســـاء به وفيـــه كل شيعى وسنى
ان لم أعـــز المســـلمين بـــه فانى لا أغنى
قتل الحســـين بـكل ضرب للبغـــاة وكل طعن

وهذا هو رأى السنى فى يوم عاشوراء ..

٨ ـ وثمة حقيقة أخرى ننهى بها هذا الموضوع وهى أن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيا ، فقد قضى على « عمارة اليمنى » لمالأته أهل الشيعة على الرغم من أنه ســـنى ... بينما حظى ابن ســـناء بكثير من خلع الشرف من « صلاح الدين » وخلفائه فى مصر . ومن ثم نؤكد أن ابن سناء كان سنيا ، وأن كل ما قيل عنه رجم من حاقد أو ناقم ، أو ساع له بشر أو مدبر له كيدا ، أو غافل عن الحقيقة .

آثاره العلمية :

لقد ترك ابن ســـناء بعض الآثار الأدبية التى مازالت تعيش بيننا حتى اليوم ولم يتح لها أن ترى النور نذكر منها : ـ

١ ـ روح الحيـــوان : لخص فيه الشـــاعر كتاب الحيـــوان للجاحظ (١) ، وكان الشـــاعر مولعا بمذهب الجاحظ فى الكتابة ومعجبا به ، ولذا درس بعض كتبه دراسة دقيقة ، حتى أخذ على عاتقه تلخيص كتاب الحيوان واحتفظ منه بنسخة خطية دون عليها الجاحظ بعض ملاحظاته بخط يده . وقد أشار ابن سناء فى احدى الرسائل التى بعث بها الى القاضى الفاضل الى تأثير الجاحظ فى الكتاب الذين أتوا بعده ، مثل ابن العميد ، وأبى حيان التوحيدى ، والوزير أبى القاسم المغربى . وقد سر القاضى الفاضل من اتجاه الشاعر ، وأغراه أن يستمر فى دراسة مؤلفاته الأخرى كالبيان والتبيين (٢) .

٢ ـ مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى :

من احدى الرسائل التى بعث بها ابن سناء الى القاضى الفاضل نعرف أنه جمع مختارات من شعر ابن رشيق أعجب بها ثم أرســلها الى أستاذه مع مذكرة نقدية ، ويبدو أن القاضى الفاضل قد أعجب بتلك المحاولات ورآها ذات أثر بالغ فى تكوينه ككاتب فى ديوان الانشاء فأشار عليه أن يجمع مختارات من شــعر ابن الرومى ، ويظهر من الرسائل المتبادلة بينهما أن هذا العمل لم يتم .

٣ ـ دار الطراز : فى فن الموشحات :

وهو من أعظم آثار الشاعر الأدبية ، وقد حققه الدكتور جودة الركابى وجعله موضوعا لرسالته التى نال بها الدكتوراه ، وهـو لا يزيد عن مائة وخمسين صفحة ، وقد قســـمه الشـــاعر ثلاثة أقسام : ـ

---

(١) معجم الادباء جـ ٩ : ٢٦٥ ، وفيات الاعيان : جـ ٢ : ٢٨ .

(٢) فصوص الفصول .

القسم الأول : مقدمة طويلة تحدث فيها عن فن الموشحات ، وقوانينه ، وعرفنا طريقة كتابته، وناقش تفصيلا أشكال الموشحات المختلفة ، وضرب لها الأمثلة من موشحات مغربية ٠

والقسم الثاني : يستعرض فيه الموشحات الغربية التى استمد منها أمثلته فى المقدمة ٠

والقسم الثالث : موشحات ابتكرها وصاغها بنفسه ٠ ويعد ابن سناء قمة شعراء المشرق فى كتابة الموشحات ، بل شهرته فى الموشحات تفوق شهرته فى الشعر (١) كما ادعى الدكتور جـودة الركابى ٠

٤ ــ مساعد الشوارد : وهو أحد كتبه التى لم نعثر عليها ، وانما علمنا ذلك من احدى رسائله الى القاضى الفاضـــل ــ وهى رسالته التى تحدث فيها عن عيونه الملتهبة ، وعن مرضـه الخطير ، وقد ذكر أن هذا الكتاب بأكمله جاء ضمن كتابه المسمى : مســاعد الشوارد ، كما وردت الاشـــارة اليه فى قائمة كتبه التى ذكرها الصفدى ٠

٥ ــ فصوص الفصول وعقود العقول : وقد قسمه قسمين : القسم الأول منه يحتوى على خطابات المؤلف التى كتبها الى القاضى الفاضل ، وردود القاضى الفاضل عليها ٠ والقسم الثانى يحتوى على الخطابات التى كتبها الفاضل عن الشاعر الى والده القاضى الرشيد، والى ابنه القاضى الأشرف ٠ وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة فى دراسة شـعر الشـــاعر اذ أنه ينير الطريق عن بعض قصـــائد الديوان ومناسباتها ، والملاحظات النقدية التى أبداها القاضى الفاضل ٠

---

(١) دار الطراز ، تحقيق جودة الركابى ٠

٦ ـ ديوان شعره :

وهو ديوان ضخم يحوى أكثر من ثمانية آلاف بيت من الشعر، مدح فيه القاضى الفاضل وصلاح الدين الأيوبى ، وأبناءه من بعده ، ويستطيع الباحث فى الديوان أن يتعرف على كثير من حوادث العصر وما قام به صلاح الدين الأيوبى وأبناء البيت الأيوبى الذين مدحهم من بطولات رائعة فى صد الصليبيين وهزيمتهم ٠ وقد قمت بتحقيق هذا الديوان ٠

وفاته :

وقد وافاه أجله فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٦٠٨هـ ودفن بالقاهرة (١) ٠ ولم يتعرض ابن الأثير الى تأريخ وفاته فى هذه السنة ٠

وقد ذكر صاحب الكمال فى عقود الجمان أنه توفى يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وذكر العماد الكاتب فى الخريدة ما يأتى : « ٠٠٠ توفى والده جعفر فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ وقرر أنه رأى بخط بعض أصحابه أن الشاعر قد توفى يوم الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ٠ وكان مولده منتصف شوال سنة ٥٢٥ هـ والله أعلم ٠

ولكن الحقيقة أن هذا التاريخ الذى عرضه العماد الكاتب انما لمولد والده ووفاته ٠ وأن سنة ٥٨٠ هـ هى السنة التى مات فيها جده ٠ وقد أشار الى تلك التواريخ الشاعر نفسه فى القصائد التى رثى بها والده وجده (٢) ٠

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ٠

(٢) راجع الديوان : قصائد رثاء أبيه وجده ٠

موقف ابن سناء من الحروب الصليبية :

١ ـ الحملات الصليبية وأثرها

٢ ـ عماد الدين زنكى

٣ ـ نور الدين محمود

٤ ـ ظهور صلاح الدين على مسرح السياسة

٥ ـ توحيد مصر والشام والجزيرة

٦ ـ أثر الوحدة العربية فى الحروب الصليبية

٧ ـ موقعة حطين

٨ ـ فتح القدس

٩ ـ نكسة

٣

موقف ابن سناء الملك من الحروب الصليبية

الحملات الصليبية :

وجدت الدعوة الى حرب المسلمين فى بلاد الشرق آذانا صاغية فى أوربا ، فلم يجد « بطرس الناسك » ولا البابا «أوريان الثانى» ، وهما أول من دعا الى الحروب الصليبية ، وحماية قبر المسيح — لم يجدا عناء ولا مشقة فى اقناع الأوربيين ، فقد كانت نفوسهم مهيأة لهذه الدعوة التى سوف تنقذهم من القحط والجدب المخيف الذى تعرضت له كثير من المدن الأوربية ، حتى أن مدنا وقرى بأكملهـــا صارت خرابا لاسكان فيها ، ولا أمن يســـودها بل انتصب قطاع الطرق فى كل مكان يعيثون فى أرجائها فسادا ، وقتلا وانتهابا(١)،

Histoire des Croissades, p. 57; History of the Saracans, by Ameer Ali, p. 323.

وانتشرت الفوضى ، وضعفت الحكومات عن السيطرة على الأفراد والجماعات ، ونصب كل فرد من نفسه حاكما ، يصون حقوقه بسيفه ، ويغسل عن نفسه الاهانة بحديده وناره ، ولمس البابا ذلك كله في نفوس الناس ، فحول نشاطهم من حرب بعضهم بعضا الى حرب المسلمين في الشرق ، وقد رحب بها الملوك ليتخلصوا من منافسات أمراء الاقطاع، ووجد فيها الأمراء فرصة لتأسيس اقطاعات جديدة لهم في الشرق ، ورحب بها الأقنان ليتخلصوا مما كانوا فيه من فقر واستعباد وارهاق ٠

وساعد على ذلك ما بين العرب من تفكك وضعف ، فالصليبيون لم يواجهوا دولة عربية متحدة ، وانما واجهوا دويلات عربية متنافسة متناحرة ، كالسلاجقة في العراق والشام ، والفاطميين في مصر ، وبين الدولتين العربيتين عداء محكم ، فالسلاجقة سنيون ، والفاطميون شيعة ، وحالة الحرب والتآمر سائدة بينهما ، حتى ان الصليبيين عندما توجهوا الى بلاد الشرق وجدوا من العرب من تآمر معهم على العرب ، وتحالف معهم ضدهم ، ونصرهم عليهم ، وكان عداء البابوات ، ورجال الكنيسة للدين الاسلامي وتعصبهم المقوت عليهم من أهم العوامل التى جعلتهم يدعون للحروب الصليبية بحجة استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين وعنتهم في معاملة المسيحيين ، أو اهانة قبر المسيح ، وقد غالى رجال دينهم في تصوير ذلك مغالاة أثارتهم (١) ، ولم يكن لذلك في الواقع ظل من الحقيقة، فلقد كان حكام فلسطين يعاملون المسيحيين ، كما قال المؤرخ الفرنسي : «Michaya» كحلفاء وأنصار ، فشجعوا تجارة الأوربيين ، والحج الى الأماكن المقدسة ، وبنيت من جديد أسواق

(١) أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة : ص ٢٦ ، ٢٧

الفرنج فى مدينة بيت المقدس ، وأقيمت نزل الحجاج ، وأصلحت الكنائس المخربة » (١)

لهذه الأسباب المتقدمة ، ولأسباب أخرى لا داعى للافاضة فيها اندفع موج متلاطم من مسيحى غرب أوروبا الى الشرق العربى يبغون تأسيس امارات واقطاعيات ، واعادة ما فتحه العرب مما كان تحت يد الفرنج ، وقد استمرت هذه الحروب زهاء قرنين من الزمان من (٤٩٠ هـ ــ ٦٩٠ هـ) « ١٠٩٧ ــ ١٢٩١ م) (٢) .

وقد استطاع الصليبيون بسهولة أن ينتزعوا من أيدى المسلمين المتفرقين ما كانوا يحتلونه فى آسيا الصغرى ، ثم كونوا أربع امارات صليبية فى الشرق العربى وهى : « الرها » على أطراف العراق والشام ، ثم «أنطاكية» و «بيت المقدس» وأخيرا «طرابلس» بالشام ، وقد اقتسم أمراء الحملة الصليبية هذه الامارات ، فنصب كل منهم نفسه ملكا على امارة منها ، وأقاموا فيها حكومات اقطاعية، على النمط الذى ألفوه فى أوروبا قبل مجيئهم ، وقد لقيت البلاد المفتوحة على أيدى الصليبيين أقسى ما عرف من ألوان التخريب والتدمير ، ونال سكانها أشد ما ينزل من القتل ، والذبح والاحراق (٣) . ويقول أمير على : « لقد كانت شوارع انطاكية الضيقة ، وميادينها الرحبة تجرى بالدماء الانسانية وأن أقل تقدير

---

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام للدكتور أحمد أحمد بدوى : ص ٩ . Histoire des Croissades, p. 21

(٢) مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية : محمد عبد الله عنان ص ١٠٧ ــ ١١٥ طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ م .

(٣) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية : ص ١١ .

لمن ذبح في أنطاكية يبلغ عشرة آلاف نفس ، وفي « معرة النعمان » ذبحوا مائة ألف من الناس ، جرت دماؤهم في الشوارع ، ثم أعاد « بوهمند »(١) النظر في أسراه فمن كان منهم قويا جميلا احتفظ به رقيقا ، يباع في أسواق أنطاكية ، ومن كان معمرا أو مريضا قتل على مذبح القسوه ..»(٢) . وفي بيت المقدس ذبح المسلمون في الطرقات والمنازل ولم يعد في بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ، فبعض الذين فروا من القتل ، ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار وآخرون جروا جماعات ، واختبئوا في القصور وفي الأبراج وبخاصة المساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من ملاحقة الصليبيين لهم، فدخل المسجد مشاتهم وفرسانهم ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفي وسط أشنع ضوضاء كنت لاتسمع الا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثا ، وقال شاهد عيان : ـ « ارتفعت الدماء الى ركب الخيل وأعنتها في الهيكل ، وتحت ايوان . المسجد (٣) ، وقد بلغ عدد القتلى نحو سبعين ألفا من المسلمين لم يرحموا شيخا طاعنا ، ولا طفلا رضيعا ، ولم تشفع لديهم صرخات الأرامل ، ولا أنين الثكالى ، وانما دفعهم الغيظ والحقد ، وأنساهم التعصب ما وصلته بعض البلاد من رقي وحضارة وتقدم ومدنية ، كما كانت عليه «طرابلس» فأحالوا بهجتها الى وحشة ، وعمرانها الى خراب،ومكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها الى رماد(٤) .

---

(١) بوهمند النورمندى ابن ملك جنوب ايطاليا .

(٢) History of the Saracans والحياة الادبية لاحمد بدوى ص ١١

(٣) الحياة الادبية : ص ١٣ ، والحروب الصليبية في المشرق والمغرب : محمد العروسي المطوى : ص ٣٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ : ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٥ ١٤٨ ـ ١٥٠ .

ولم تكن أوضاع العرب ، وماهم فيه من فرقـة وانقسام وما بين بلادهم من اختلاف المذاهب والآراء ـ لم تكن تسمح لهم بمقاومة هؤلاء الطاغين الباغين ، القساة الظالمين فقد كانت الشام مجزأة ومقسمة فكل بلد كبير منها امارة وعلى كل امارة أمير يطمع فى تقوية ملكه وتثبيت عرشه وتوسيع رقعة بلاده· ورأى الفاطميون فى مصر أول الأمر أن ذلك الاعتداء الصليبى لايهمهم ، فليس عليهم أن يذودوا عن الشام التى تدين بغير ما يدنيون ، والتى تتبع غير ما يتبعون · وشغلتهم المؤامرات والدسائس وانصرفوا عن مقاومة الصليبيين ، وتلك سياسة قصيرة النظر أدت الى استيلاء الفرنج على ما كان الفاطميون يمتلكونه فى فلسطين من مدن (١) ·

وهكذا استطاع الفرنج أن يثبتوا أقدامهم ولو الى حين فى الشام ، وملأ الغرور نفوسهم ، وحاولوا أن يضربوا الاسلام فى عاصمتيه « بغداد » و « القاهرة » ، ولكنهم أخفقوا : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ·· » ·

عماد الدين زنكى :

كانت الحملات الصليبية ، وما أحدثته من تخريب وتدمير ، وظلم وعسف ، وقتل وسلب ، الناقوس الذى دوى فأيقظ المسلمين من سباتهم ، والأمراء من أبراجهم ، وفتح عيون المبصرين منهم الى الخطر الماحق الذى يتهددهم ، وكان أول الأمراء الذين تعرضوا للصليبيين فى قوة وعزم هو « أتابك عماد الدين زنكى » أمير الموصل الذى بدأ يوحد قوة العرب تمهيدا لمهاجمة الصليبيين فضم «حلب» اليه ، وبذلك استطاع أن يهدد امارتين صليبيتين هما امارة «الرها» و «انطاكية» وقد حاصر «عماد الدين زنكى» «الرها»

---

(١) صبح الأعشى ص : ٥٢٣ ·

بعد ذلك ، وكانت أهم معقل للصليبيين فى شمال العراق ، واستمر يحاصرها حتى سلمت له سـنة (٥٣٩) هـ (١١٤٤ م) (١) • وكان ذلك الانتصار ضربة قاصـمة للصليبين اذا انكمشت املاكهم بعد ذلك ، واقتصرت على ساحل الشام ، وظل « عماد الدين زنكى » يتعقب معاقل الصليبيين ، ويقض مضـاجعهم حتى قتل غيلة على قلعة جعبر ، وهى على الفرات بين « بالس » و « الرقة » قرب «صفين» (٥٤١ هـ) (١١٤٦ م) (٢)

نور الدين محمود :

ترك « عماد الدين زنكي » أمر الصـليبيين من بعده لابنه « نور الدين محمود » الذى انتقلت فى أيامه الحرب الصـليبية الى مرحلة ثانية ، فقد قامت فى امارة « الرها » فتنة عاصفة ، وقدمت من أوروبا نجدات صليبية تقصد اعادة « الرها » ولكنها تحولت عنها الى حصار دمشق •

ولم يكد الأمر يستقر «لنور الدين» وأخيه «سيف الدين غازى» صاحب الموصل حتى اتجها الى اخمـاد الثورة فى الرها فتمكنا من اخمادها ، وتصدى « نور الدين » بعد ذلك لمواجهة الحملة الصليبية الثانية التى حصرت «دمشق» واستطاع أن يهزم الصـليبيين ويرغمهم على رفع الحصار عن « دمشق » ، وقد استطاع «نور الدين» أن يضـم « دمشق » سنة ١١٥٤ م ، وبذلك خطا خطوة هامة فى سبيل توحيد الجبهة الاسـلامية ضـد الصليبيين الذين أصبحوا مهددين بقوات « نور الدين » من الشمال والشرق ، وقد حاول بعض

---

(١) الحروب الصليبيـة فى المشرق والمغـرب : ص ٤٥ ، والرها : هى مدينة أورفا الحالية بشرق تركيا شرقى الفرات ، وتسمى خليج الاسكندرونه (معجم البلدان) .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ : ٣٨١ •

وزراء مصر كطلائع بن رزيك أن يتفق مع نور الدين على مهاجمة الصليبيين من الشمال ، ومن الجنوب ، حتى يقضوا عليهم قضاء نهائيا ، ولكن الاختلاف المذهبى بين « نور الدين » السنى ، والوزير الفاطمى الشيعى قد حال دون ذلك الاتفاق • (١)

ولما أحس الصليبيون بتضييق الخناق عليهم فى الشام، وجهوا جهودهم الى مصر ، فحاولوا أن يستولوا عليها وشجعهم على ذلك ما كانت عليه مصر آنذاك ـ فى أواخر الدولة الفاطمية ـ من ضعف الخلفاء ، واستبداد الوزراء بهم ومحاولة كل وزير اعتلاء الوزارة بطريق الدس والفتن ، والوشايات والحروب •

مهدت هذه الفوضى الداخلية فى مصر الى تدخل الصليبيين من جهة ، كما مهدت لتدخل نور الدين محمود من جهة أخرى ، حتى آل الأمر الى القضاء نهائيا على الدولة الفاطمية وزوال أسباب الجفوة المفتعلة بين الشام وبين مصر على يد البطل القوى ، والقائد العظيم الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبى » •

وبذلك نكون قد أوضحنا الخطوات التى خطتها الحروب الصليبية حتى ولى الأمر « صلاح الدين » ، وأنها كانت الشر الذى انبثق منه الخير ، فحقا انها عاثت فى بلادنا العربية فسادا ونشرت ظلما واضطهادا ، واستذلت بلادا وسكانا ، الا أنها مع ذلك هيأت الجو لقيادات صالحة ، ومهدت لفجر جديد ، أشرق على البلاد العربية التى وحدتها الأهداف ، وقوتها الأحداث ، وما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشد الشبه الآن بين اسرائيل الدخيلة ، وبين الصليبيين السفاكين ، وكما اجتاحت العروبة الموحدة شأن الصليبيين ، وطهرت البلاد من رجسهم فكذلك سيكون الشأن مع اسرائيل ••

---

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية لاحمد بدوى ص ١٤ •

توحيد مصر والشام والجزيرة وديار بكر وأثر ذلك فى هذه الحروب :

لم يكد «صلاح الدين» يلى وزارة مصر حتى وجه كل همه وذكائه الى استقرار الأمور فيها ، فكان لين العريكة سمحا ، قوى البأس شديدا ، ثاقب النظرة ، يرى ما وراء الظواهر ، حتى استطاع أن يقضى على الفتن والدسائس التى كانت كل هم القصر ، ولم يمكن الوشاة من أغراضهم الدنيئة ، وكانت «وقعة العبيد» احدى الوقعات الكبرى التأديبية لكل من تسول له نفسه الخيانة ، وطلب العون من الفرنج أعداء البلاد ٠ (١)

وفى سنة ٥٦٧ هـ مات «العاضد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية، واستبد « صلاح الدين » بسلطنة مصر ، وخطب للخليفة العباسى فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، ثم وجه عنايته الى استتباب الأمور ، واستقرار الأمن ، وتوحيد البلاد ، فأرسل أخاه « تورانشاه » الى فتح بلاد النوبة ، فوطد الأمور بها ، وأمن جنوب البلاد ٠ وفى سنة ٥٦٩ هـ سار « شمس الدولة تورانشاه » الى اليمن اذ لم يجد فى النوبة طائلا ، فاستقر فيها أمره ، وعاد الى « زبيد » فملك الحصون والجند ، وقد مدحه الشاعر « عمارة اليمنى » بكثير من القصائد ، وحبب اليه فتح بلاد اليمن ٠٠٠

ولما استقرت أمور « صلاح الدين » فى مصر وجه اهتمامه الى الشام لأنه رأى أن القضاء على الصليبيين لن يتيسر له الا اذا توحدت أجزاء الوطن العربى ، وبخاصة بلاد الشام حتى يتيسر حصر العدو وتضييق الخناق عليه ، ووقوعه بين فكى الكماشة ، ولذا انتهز «صلاح الدين» وفاة الملك العادل «نور الدين محمود» سنة ٥٦٩ هـ واتجه الى الشام فى جيش كثيف بحجة أنه سيحمى الملك الصالح

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ : ص ٣ ٠

اسماعيل الذى ولى الأمر فى « دمشق » بعد موت أبيه « نور الدين » لصغر سنه ، وعدم قدرته على مواجهة أعباء الحكم (١) ٠

وسرعان ما استقبل « صلاح الدين » فى دمشق اســتقبال الفاتحين الظافرين ، فوزع الجوائز والمنح ، والتف حوله الشـعراء والأدباء ، يمدحونه ويشيدون ببطولته وانتصاراته ٠

أثر هذه الوحدة فى الحروب الصليبية :

لقد يسرت هذه الوحدة بين أجزاء الوطن العربى توحيد القيادة العربية ، ووفرت الموارد ، وقطعت أسباب العداء والخلاف بين القواد، كما أتاحت وحدة المذهب الدينى ، وانتشار المذهب السنى، وقضت على الدسائس والمؤامرات فى القصور (٢)

ولقد كانت هذه الوحدة أملا يداعب خيال الشعراء ، والأدباء والمخلصين ، وأوحت هذه الوحدة للشعراء بفن جديد أطلق عليه الدكتور « محمد كامل حسين » « فن الشعور بالقومية الاسلامية » وقد اشترك فى هذا الفن عدد كبير من الشعراء في مختلف البلاد الاسلامية ومحيت فكرة تفضيل العرب على الأعاجم (٣) ٠ وسرعان مادب الرعب والفزع فى نفوس الصليبيين فلم تغن عنهم كثرتهم شـيئا ، وضـــاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وتوالت هزائمهم ، وانكشفت ظهورهم ، ووقف صلاح الدين أمام الصليبيين سدا منيعا وصخرة عاتية ، تكسرت عليها آمالهم ، وانهارت مطامعهم ، وكانت قصائد ابن سناء التسع التى مدح بها (صلاح الدين » سجلا رائعا لتلك المعارك ، وهذه الانتصارات التى سجل بها « صلاح الدين »

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٢٤ ٠

(٢) راجع منشور الرقة الذى كتبه القـاضى الفاضـــل فى الروضـــتين جـ ٢ : ص ٤٧ ٠

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبين : د ٠ محمــد كامل حســين : ص ٨٧ ٠

اسمه فى سجل الخلود ، وأملى على الأحداث تاريخه المشهود ، وبهر الشعراء جميعا ، وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية فى صد الصليبيين لونا من الشعر الحماسى ، وحسبنا أن نتتبع قصائد ابن سناء تاريخيا لنعرف دوره فى تسجيل تلك البطولة الرائعة .

ففى سنة ٥٧٥ هـ نازل « صلاح الدين » الصليبيين قرب «بانياس» وأسر فرسانهم ، وشجعانهم ، وانهزمت جموعهم فى أول لقاء فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب جبيل ، وابن القميصية ، وابن بارزال صاحب الرملة (١) وغيرهم ، ولذا مدح «ابن سناء» السلطان صلاح الدين بقصيدة نونية مطلعها : ـ

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى
ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

وبعد خمسة عشر بيتا خصها للنسيب انتقل الى مدح الناصر فقال :

فدى لابن أيوب الملوك فانهم ... اذا بخلوا أعطى وان أفقروا أغنى
فدى كل من يعطى المئين عفاته ... ترى ملكا يعطى الأقاليم والمدنا
ولم يكفه أن أخجل البيض بالدما ... الى أن أرانا جوده أخجل المزنا

ثم تحدث ابن سناء عن نصره الاسلام وتحطيمه الكفر ، وفرار الأعداء أمامه ، وأسر من تشجع منهم ووقف ، وتحدث عن اشتداد المعركة وتشبع السيف من دمائهم ، وسأم الأبطال للنزال ، وهرب ملكهم فزعا يتحسس قفاه ، ويحسبه لشدة الهول مطعونا فيه ، ثم أسره بعد ذلك الملوك والقواد :ـ

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا ... اعنة خيل لا تعود ولا تثنى

(١) الروضتين : جـ ٢ : ص ٨ .

وقـد وقفوا لكن لأسر رقـابهم وقطف رءوس منهم آن أن تجنى
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى وجالدتهم والقرن قد سئم القرنا
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
مضى ملكهم في أول الأمر هاربا يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه ولكنه من بعده قرع السـنا
وأضحى أسيرا بادويل وغـيره قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
أسارى جبارى لا يرجون فدية ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنا
بكى « الكند » واليسكند لا وحشه لهم
ولكن على نفسـيهما أسـبلا الجفنا
غـدا « بادويل » وهو يلعن نفسـه
وحق لتـلك النفس أن تربح اللعنـا

وفي نهاية سـنة ٥٧٧ هـ اتجه السـلطان « صلاح الدين » صوب حلب قاصدا الاسـتيلاء عليها توحيدا للعروبة حتى تقف صفا واحـدا أمام جحافل الصليبيين ، وحتى يكون القائـد الموجه للمعركة واحدا فلا تطل الخيانات برأسها ، ولا تلهى القواد مصالحهم الشخصية عن المصالح الكبرى للأمة الاسلامية ، فأرسل الى واليها « عماد الدين زنكي » الذى كان قد قرر لقاءه ، وتحصن بأجنـاده وعساكره أرسل اليه مهددا متوعدا ، فلما رأى « عماد الدين » أن لا قدرة له على لقائه تراجع وقبل أن ينزل عنها بغير حرب ، على أن يعوضه السلطان عنها « سنجار » فرد السلطان عليه «سنجار» وخلع عليه مدنا أخرى (١) ، واستولى « صلاح الدين » على حلب وأصـبحت جـزءا من الدولة الكبـرى التى تدين لصـلاح الدين بالطاعة ، وهزت انتصاراته تلك قريحة « ابن سناء الملك » فمدحه بقصيدة بائية مطلعها : ـ

(١) الروضتين : جـ ٢ ص ٤٢ .

بدولة الترك عزت ملة العرب
وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

وكان الأتراك عنصرا هاما فى كيان الدولة الاسلامية ، ولذا امتدحهم الشاعر فى مطلع قصيدته ، ثم أشار الى فتح حلب وضمها الى مصر : —

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر وغارت مصر من حلب

وقدترك الغزل فى هذه القصيدة على غير عادته ، وأشار الى ذلك بقوله :

ألهى مديحك شعرى عن تغزله
فجاء مقتضبا فى اثر مقتضب

فلم أقل فيه لا أن الصبابة لى
يوم الرحيل ولا أن المليحة بى

فقد انشغل عنه بمدحه ، وحديثه عن فتوحه فى أرض الجزيرة وسياسته الحكيمة فى التغلب على أعدائه : —

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها
بمالك فطن أو سائس درب

وكانت أوصال الدولة الاسلامية مفككة ، وعلى كل جزء منها ملك ليس له من الملك غير الاسم ، أما قيادته وتصريفه ففى يد مملوك خصى ، ليس له من الفهم والدراية أكثر مما لصبى ، ويسجل ابن سناء هذا كله فى تلك القصيدة فيقول : —

ممالك لم يدبرها مدبرها
الا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت
من الفساد كما صحت من الوصب

واســـتعمل الجد فيهـا غير مكترث
بالجـــد حتى كأن الجـــد كاللعب

وقـد حواها وأعطى بعضهـــا هبة
فهو الذى يهب الدنيـــا ولم يهب

ثم يشير الى تفضله على حاكم « حلب » وتعويضه عنها ببعض المدن : —

ويمنح المدن فى الجدوى لسـائله
كما ترفع فى الجـدوى عن الذهب

ومذ رأت صـده عن ربعهـــا حلب
ووصـــله لبـــلاد حلوة الحلب

غـارت عليـه ومـدت كف مفتقر
منهـا اليه ، وأبـدت وجه مكتئب

وكان الشاعر فى هــذه القصيدة موضوعيا ، وما أجدر هذه القصيدة أن توضع الى فرائد المتنبى فى سيف الدولة — ســـجل الأحداث وانفعل بها ، وعبر عن مشـــاعره وأحاسيسه ، وتجربته الواعية الصادقة ، ولذا نخرج بهذه القصيدة عن نطاق العقم فى شعر « ابن ســناء الملك » الذى وصمه به الدكتور الأهوانى فى كتابه « العقم والابتكار » (١) ولعل عذره فى ذلك أنه لم يدرس شعر ابن سناء دراسة تفصيلية ٠

وقد استولى صلاح الدين على حلب فى نهاية عام ٥٧٩ هـ ثم استمر فى مناوشاته الصليبيين حتى كانت موقعـــة حطين الكبرى سنة ٥٨٣ هـ وفى هذه الأثناء كان ابن سناء يسجل هذه الأحداث،

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ — ١٥٢ ٠

ويشعل الحماس فى نفوس المحاربين ، ويغوى عزائمهم ، ويشيد ببطولة صلاح الدين ، ففى سنة ٥٨١ هـ ارسل من مصر قصيدة سينيه يمدح فيها صلاح الدين ، وقد أرسلها اليه عن طريق أستاذه القاضى الفاضل ومطلعها : ـ

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس
لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

وقد تأثر فى هذه القصيدة بقصيدة المتنبى التى مطلعها : ـ

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقد خص الشاعر من هذه القصيدة عشرين بيتا للغزل ، ولكنه مدحه فى الباقى منها ، وهى من الشعر الحماسى ، تحدث فيها الشاعر عن بطولة « صلاح الدين » وأنه شاد للجهاد دارا منيعة ، بناها الرمح ، وهندسها الحسام ، والقسى تنحنى لراحة السلطان ، والسلطان يرى فى وسط المعارك جذلا ضاحكا ، مستهينا بالحرب ، وجواده هو الذى يعبس ويهتم ، ورءوس الأعادى وأيديهم تتطاير فى المعركة ، وتتقدم اليه معتذرة ، وجحفله يجر الدروع ، وحصانه ملثم بالحديد ، : ـ

وماذا تقول المدح فيه ومدحه
بآثاره يروى ويقرا ويدرس

ومن شاد دارا للجهاد فأصبحت
بها الرمح يبنى والحسام يهندس

لراحته تحنى القسى وبعضها
هلال له فوق السماء مقوس

يرى جذلا فى حومة الحرب ضاحكا
فلا القلب منحوب ولا الوجه معبس

وبين البيت الأخير وبين بيت المتنبى : —

تمـر بك الأبطـال كلمى هزيمـة
ووجهك وضـاح وثغرك باسـم

تشابه واضح فى المعنى • ويقول « ابن سناء » فى حصان السلطان : —

أغار عبـوس الوجه فيهـا جواده
ومن عجب أن الجـواد يعبس

تطير اليـه طالبـات أمانـه
ومعتـذرات منـه أيـد وأرؤس

وكل حصـان بالحديـد ملثم
عليـه كمى بالحـديـد مقلنس

وهو من قول المتنبى : —

أتوك يجـرون الحديـد كأنمـا
سروا بجيـاد مـا لهن قوائـم

ويقول ابن سناء :

تزاحمت الأبطـال فيـه فخرقت
ثيـابا لهـا من عهـد داود تلبس

وهو شديد الشبه بقول المتنبى : —

تقطـع مالا يقطع الـدرع والقنـا
وفر من الفرسـان من لا يصـادم

ويقول ابن سناء : ـ

لك المـدح منى تنتشى السامعون به
كأن مـــديحى فى معـــاليك أكؤس

كـلانا بديـع الصنع مـدحى مطبق
وجأشـــك فى قهـر الملوك مجنس

وهو قريب الشبه بقول المتنبى : ـ

لك الحمـد فى الدر الذى لى لفظه
فانـــك معطيـــه وانى نـاظـــم

وقد وصلت قصيدة « ابن سناء » الى القاضى الفاضل ، وهو فى دمشق ، وكان الملك الناصر مريضا مرضا خطرا « بحران » فأخر انفاذها اليه حتى عوفى ·· فكتب «ابن سناء » قصيدة أخرى فائية فى مدح الناصر مطلعها : ـ

نظـــر الحبيب الى من طـرف خفى
فـأتى الشـفاء لمـدنف من مـدنف

وكتب معها رسالة الى القاضى الفاضل جاء فيها : ـ

« والقصيدة السينية قد صادفها زحل فى الطريق ، وحرمها التوفيق ·· » فأجابه القاضى الفاضــل فى كتابه الى ابنه الأجل الأشرف : « والقصيدة السينية ماوافقها زحل فى طريقها ، بل يقوم المشترى أحسن القيام فى قضاء حقوقها ، وتأخرت عندى الى أن سيرتها مقترنة بالفائية ، لتكون البلاغة أكثر نفـــيرا · ويكون بعضها لبعض ظهيرا ، ولو أنصفناه لكان أدنى مافيها من بيت يعمر ألف بيت ، وكان يوسف عروسها قد قال لها وأغناها عن أن تقول: هيت ، وقرنتها بفصل الى المقام الناصرى نبهت فيه على أنها من القال الفصل ، وأقمت الشهادة فى بابه وان كان صـــــغيرا فانه

كبير أهل الفضل الذى علمهم الفضل وأن الدولة بمدحه قد أنزل الله عليها فى الغابرين ، وأبقى لها ذكرا حسنا فى الذاكرين » .
ويهمنا فى هذا المقام أن نشير الى موضوع القصيدة الفائية . فلقد خص منهـا ثمانية عشر بيتا للغزل ثم هنأ السلطان بالشفاء من مرضه ، وأشار الى كمد الصليب بشفائه ، وبشر المسلمين بنجاته ، وأن الله قد اصطفاه لنصرة دينه ، وحمى به الدين من أن يمحى ، وجعل أكبر كافر يعنو لأصغر مسلم ، ثم أشار الى أمله فى أن يكون فى حاشيته « صلاح الدين » لأنه نذر أن يحج بيت الله اذا شفى السلطان ، وقد شفى فحق عليه أن يحج ، وحبذا اذا كانت تلك الحجة ، وهو فى ركابه وحاشيته حتى يفوز بأمر مضاعف : —

ولقـــد نـذرت عـلى شـفائك حجة
ولقـد شفيت فقــــد تعـين أن أفى

سهلت لى حجى فمنـــك موصـــلى
لمنى وجـــودك مـوقفى فى المـوقف

ولئن تيسر مـــع ركابـــك قابـلا
حجى فيا فوزى بأجـــر مضـعف

انى بـذا أدعـــوا وأســأل ملحفا
والله ليس يـــرد دعـــوة ملحف

وقد قرظ هذه القصيدة القاضى الفاضل ، وقرنها بالمعلقات بل جعل المعلقات دونها جودة وبلاغة ، لأن هذه فضلتها بجودتها وجدتها : « وأما الفائية فالوأواء عندها فأفاء ، ومن هو الـــوأواء الركيك ، بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندهـــا فأفاء ، وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفـاء ، ولو وفى سار بنظرة عندى لوفت ، ولو كفى مؤنس من ابنه لكفت ، ولو استعطفت

الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ، ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الولد الذى ماقضى حقه أن أحبه » (١) ، وقد وصلت القصيدتان الى « صلاح الدين » ولكنه لم يفعل شيئا للشاعر ، اذ أن انشغاله بالحروب الصليبية آنئذ قد الهاه عن التفكير فى الشاعر .

وفى سنة ٥٨٢ هـ ظهر نجم فى السماء له ذؤابة ، ولم تجر العادة بظهور مثله فكان حديث المنجمين ، وشغلهم الشاغل ، ويبدو أن ظهوره قد خالف ما ارتأوه قبلا من أنه لن يظهر الا وقت اقتران الكواكب فى الوقت الذى حددوه ، ولذا أشار ابن سناء الى خطئهم بقوله فى هذه القصيدة : ـ

نجومك ما أعيت على راصد لها
وذا النجم أعيا راصدا ومنجما

وقد استهل هذه القصيدة بقوله : ـ

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما

بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

وهو تعليل لطيف لطول ذؤابة ذلك النجم ، وكان هذا النجم يسمى « الكف الخضيب » ، وقد رأى الشاعر أنه أخر ظهوره فى السما حتى تحلى الدهر بظهور « صلاح الدين » فظهر هو كذلك فى السما تكريما له :ـ

وما برح « الكف الخضيب » معطلا

فلما تحلى الدهر منك تختما

---

(١) فصوص الفصول .

فلا تفتخر كف السماء بنجمه

فكم أطلعت أفعالك الغر أنجما

وبعد أن خص النجوم فى مطلع القصيدة باثنى عشر بيتا انتقل الى مدحه وبالغ فيه مبالغة غير مقبولة حتى جعل المقادير رهن اشارة السلطان ، فلا يستطيع أن تغير ما يبرمه ، ولا أن تبرم ما ينقضه .

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا

وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وجعله فريدا لا يدانيه أحد من الملوك والعظماء ، فهوالحليم وهم الجهلاء ، وهو العظيم وهم الأذلاء ، وهو يعطى اذا بخلوا ، ويعفو اذا عاقبوا ، ويفى اذا غدروا ، ويسموا اذا هبطوا وأن سيرته لم تدع فى الأرض ظلما ، وكرمه وعطاؤه لم يبق معدما فنائله يسعى الى كل سؤاله حتى أفسدت كثرة عطاياه قصاده لأن عطاءه كالربيع بعد المحل : ــ

فلا تقرنوه بالملوك فانه	**أجلهم أرضا وأعلاهم سنا**
يخفون جهلا حين يحلم قدرة	**ويخفون ذلا حين يبدو تعظما**
اذا بخلوا أعطى ، وان عاقبوا عفا	**وان غدروا أوفى،وان هبطوا سما**
فسيرته لم تبق فى الأرض ظالما	**ونائله لم يبق فى الخلق معدما**
له نائل يسعى الى كل سائل	**فيطلبه بالماء والزاد أينما**
وكم أفسدت أمواله قاصدا	**له،وقديرجع الشىءالصحيح مسقما**
أتاه فألفاه ربيعا وقبله	**رأى كل جود فى الأنام المحرما**

ثم انتقل الى بطولته وشجاعته ، ودفاعه عن الاسلام ، وعن

البيت المحرم الذى أنقذه من براثن الكفر ، ولولاه مابقى زمزم ، ولتحطم الحطيم : —

لقـــد نصر الاســـلام منهـم بناصر
يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما

يـــذب عن البيت المحرم جنـــده
فلـولاهـــم ما كان بيتـا محـرمـا

ولـولاهـــم ما كان زمـزم زمـزما
ولـولاهم كان الحطـــيم محطمـــا

وقد تنسك بالاسلام ، ولكن الشرع أحل له أن يشرب دماء الأعداء ، وكل حمى أمامه لايحمى صاحبه : —

تنســـك بالاســـلام لـكن رأيتـه
يحـل له بالشرع أن يشرب الـدما

فـكم سل لمـا سـل من بطن غمده
لســـان دم من ضربة خلقت فمـا

اذا ما صـلاح الدين ســار بجيشه
فليس الحمى ان أمـه الجيش بالحمى

تـكاثف فيـه النقع واستلت الظبى
بآفاقـــه حتى أضـــــاء وأظلمـــا

وهى كما ترى من الشعر الحماسى، الذى خلقته الحروب الصليبية وقد اعتذر الشاعر عن تأخير النسيب لأن مدائح السلطان أوجبت تأخيره : —

ففى مدحه صار النسيب مؤخرا
ومن أجله عاد المديح مقدما

رأى مادحوه المدح أولى فأقبلوا
عليه ، وخلوا ذكر سعدى وكلثما

وفى هذه السنة نفسها زعم المنجمون أن الكواكب الستة سوف تجتمع فى الميزان وعندما تهيج رياح زعزع تهلك الحرث والنسل ، وخوفوا الناس حتى شرعوا فى حفر مغارات وسراديب ، ونقلوا اليها الماء والطعام ، ولكن لم يحدث شىء فى هذا التاريخ الذى حددوه فكتب الشعراء معرضين بكذب المنجمين ، ساخطين عليهم وفى هذه المناسبة يكتب ابن سناء هذه القصيدة الى الملك الناصر ويبدؤها بالتعريض بالمنجمين : —

سعودك ردت ما ادعاه المنجم
وقد كذبته فى الذى كان يزعم

يبشر بالريح العقيم وانها
كما قال عما قاله بك يعقم

ويقسم أن الأمر لابد كائن
وبالأمر قد أحنثته حين يقسم

وجودك أمن للوجود من الذى
عن الريح يحكى أو به النجم يحكم

وقد قيل أحكام النجوم على الورى
وأنت على أحكامها تتحكم

ثم يهنؤه بالسلامة من المرض الذى كان قد أصابه ، وبحلول شهر رجب : —

نهنيــــك بالشـهر المـرجب انــه
يـرجب فينـا كاسمـــه ويعظـم

وبالبرء من بعــد البشــارة انــه
لجسـمك برء بعــده ليس يسـقم

ونشهد أن الشهر شهر مبـــارك
عليــك وأن البـرء بـرء متمم

وهذه القصيدة أشبه ما تكون بروح المتنبى قوة وسهولة ، ووصف بطولة ، وقـد أخر فيها النسيب كما أخـره فى القصيدة السابقة وأشار الى ذلك بقوله : ــ

فياناصر الـدين الحنيف حســامه
ونائــله الفيــاض يســلو المتيم

لمدحــك أخرت النســيب تهيبــا
وعنــدهم أن النســيب يقــدم

وهذه القصيدة قالها الشاعر قبل سابقتها ، لأنه أشار هنــا الى أن النجم المذنب لم يظهر ، وهناك أشـــار الى ظهوره ، وهــذا يؤكد أسبقية تلك القصيدة •

موقعـــة حطين :

وفى نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١) قصد « صلاح الدين » بعدد كبير من عسكره نحو طبرية (٢) ، على

---

(١) الروضتين : جـ ٢ : ٧٥ •

(٢) طبرية : بلدة مطلة على بحيرة طبرية الواقعة بين الاردن واسرائيل وسوريا •

سطح الجبل ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في عـــدد كبير « بمرج صفرية » بأرض عكـــا ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ، فهجم « صلاح الدين » على طبرية ، واستولى عليها في ساعة واحدة ، ولما بلغ العدو ماجرى قلقوا ، وتحركوا للدفاع عن أنفسهم وملاقاة « صلاح الدين » فاستهان المسلمون بالموت ، وأحسوا قوة المبادىء التي يدافعون عنها ، وأرضهم الطيبة التي دنسها هؤلاء المعتدون ، وصاحوا في قوة وايمان : « الله أكبر » فألقى الله الرعب في قلوب الكـــافرين ، وشتت شـــملهم ، وراحوا يلوذون بالفرار ، وتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، واطلقوا عليهم السهام ، وحملوا عليهم بالسيوف ، وسقوهم كأس الحمام ، واعتصمت طائفة منهم « بتل حطين »(١) فضايقهم المســـلمون ، وأشـــعلوا حولهم النيران ، واستبد بهم العطش ، فاستسلموا للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدمتهم ، وقتل الباقون ، وكان من أسر منهم الملك«جودفرى» وأخوه الملك « بلدوين » و « أرناط » صاحب الكرك والشـــوبك ، وألهب هذا النصر قرائح الشعراء ، فراحوا يتغنون به ، ويزدهون بقائد الاســـلام ، ويندون بهـــذه الهزيمـــة النكراء التي لحقت بالصليبيين ، وفي ذلك يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة مطلعها :ـ

حططت على حطـــين قـــدر ملوكهـــم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا (٢)

وقال ابن الساعاتي قصيدة عظيمة في هذا الفتح مطلعها : ـ

جلت عزمـــاتك الفتـــح المبينـــا
فقـــد قرت عيـــون المؤمنينـــا(٣)

---

(١) وهى قرية عندها ، قبر النبى شعيب عليه السلام .
(٢) الروضتين : جـ ٢ ص ١١٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٤ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٤ ، والنجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٤ .

وأدلى ابن سناء بدلوه فأنشد قصيدة طنانة منها : ـ

هل الكرك الشـــكلى بأولادهـــا انتهت
عن النسل مما جرعتـــه من الشـــكل

وكانوا لهـــا كالعقـــد لكنـــه وهى
وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغـل

أتاهم بمثـــل الرمل ينقل خيـــلهم
الى الأفق ما فوق الطريق من الرمـل

ثم يقول : ـ

فنابلس لمـــا أن نزلت بربعهـــا
أقـامت بهم حق الضيـــافة والنزل

أحســوا بطل للخريف فجـــاءهم
ربيع من النبل المســـدد كالوبـــل

ولم أر أرضـــا جادها الغيث قبلهـا
وتصبح تشكو بعــــده غـــلة المحل

وما شرقوا بالمـــاء والريق اذ رءوا
جيوشك لكن بالفوارس والرجـــل

وفى هذه القصيدة لم يطلب شيئا ، ولم يشر الى شيء اذ أن الحماسة والرغبة التى امتلكت الملايين المتطلعـــة الى القضـــاء على الصليبيين جعلته ينسى نفسه فى هذه القصيدة ، ولا يذكر شيئا غير اعتزازه ببطولة الملك الناصر ، والحقيقة أن هذه القصيدة تتدفق فيها حرارة العاطفة ، وصدق الوطنية ، وثورة الشعب ، وأمله فى القضاء على الغازين المعتدين :

وقد رجمتهـــا المنجنيقـــات اذ رمت
لشـــــيخ لعين كافر جاهـــل رذل

فالكلمات تتسابق على لسانه بالغيظ والضـيق ، والأمل في الخلاص والرغبة في تحطيم أولئك الكافرين الجاهلين الأراذل ، ومن هنا نرى أن الشاعر قد خرج على ما استخلصه الدكتور الأهوانى من أن جهد الشاعر كان منصرفا الى هذا الافتنان العقلي حتى في أمس الموضوعات بالانفعال العاطفى ، وهو انحراف الشعر عن وضـــعه الطبيعي ، وعن وظيفته ، أو مهمته الأصلية ، وأن الفن كله والشعر لم يخلق ليكون مجالا لهذا النوع من الجهد العقلي ، الذي يكون على حساب التعبير العاطفى ، والذى من شأنه أن يطمس هـــذا التعبير ويخرج الفن الى نوع من الصناعة العقلية تشبه الرياضيات والعلوم العقلية(١) .

فتـــح القـــدس :

كان لهزيمة الفرنج في موقعة « حطين » أثرها الواضح في تقوية الروح المعنوية لدى جنود المسلمين ، فتهاوت أمامهم معـــاقل الصليبيين وحصونهم حصنا وراء حصن(٢) ، وأحاطوا بالقدس من جميع الجهات . ففي يوم الأحد الخـــامس عشر من شـــهر رجب سنة ٥٨٣ هـ التقوا بالأعداء الذين وهن عزمهم ، وضعف قتالهم ، ودب الرعب في قلوبهم ، فانهزموا رغم كثرتهم اذ قدر عددهم في هذه الواقعة بستين ألفا عدا النساء والصبيان ، وسلموا المدينة في سبع وعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ أي ليلة المعراج ، فارتفعت

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) كتاب الروضتين ج ٢ : ٨٧ .

ألسنة الشعراء بتمجيده وتعظيمه ، فمدحه فخر الكتـــاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر بقصيدة مطلعها : ـ

جند الســـماء لهـــذا الملك أعـــوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان (١)

وقد مدحه كذلك الشريف النسابة المصرى محمد بن أســعد المعروف بالجوانى نقيب الأشراف فى مصر بقصيدة مطلعها : ـ

أترى منــــاما ما بعينى أبصـــــر
القــدس يفتح والفرنجـــة تكسر(٢)

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسى : ـ

اطــــلت عـــــلى أفقك الـــــزاهر
ســـــعود من الفـــلك الـــدائر

فأبشر فـــان رقــــاب العــــدا
تمـــد الى ســــيفك البــــاتر(٣)

ومدحه العماد الكاتب بقصيدة مطلعها : ـ

استوحش القلب مـــذ غبتم فمـا أنســـا
وأظلم اليوم مـــذ بنتم فمـــا شمســــا

ومنها : ـ

رأيت صلاح الدين أفضل من غـــدا
وأشرف من أضـحى وأكرم من امسى

---

(١) الروضتين جـ ٢ : ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) الروضتين جـ ٢ : ١٠٥ .
(٣) الروضتين جـ ٦ : ١٠٦ .

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القصى

ومن العجيب حقا أننا لم نعثر لابن سناء على قصيدة فى هذه المناسبة وأغلب الظن أن قصيدته قد فقدت اذ أنه لم يكسر قلمه ، ولم يسد فمه بعد ذلك ، وانما انطلق مغردا فى كل مناسبة حتى بعد وفاة صلاح الدين ، ولم يعرف أنه حنق أو تغير على صلاح الدين ٠

نكسة :

وآذن سقوط « القدس » فى يد المسلمين بسقوط كثير من بلاد الفرنج وحصونهم(١) ، ولم يقف فى سبيلهم غير مدينة «صور» وقد حاصرها « صلاح الدين » واستدعى أسطولا من مصر لمعاونته ، ولكن أسطول « صور » خرج بالليل فأوقع بأسطول المسلمين على حين غرة ، وقتل عددا كبيرا مما أجبر « صلاح الدين » على الانسحاب ، ففرق عساكره ، ورحل الى « دمشق » ولم يكد يقيم بها أكثر من خمسة أيام حتى وافاه النبأ بأن الفرنجة قصدوا « جبلة » فاغتالوها ، فخرج مسرعا يجمع عساكره من هنا ومن هناك ، حتى وصل الى « ارتنطوس » فحاصرها وقهرها واستولى عليها ، ثم اتجه الى « جبلة » فاستولى عليها أيضا ، وتبعتها «اللاذقية» ورفع العلم الاسلامى عليها وظل السلطان يطهر البلاد والحصون من الفرنجة ، ويستولى عليها حصنا بعد حصن حتى كان اليوم الثالث عشر من رجب سنة ٥٨٥ هـ فبلغه أن الفرنجة قصدوا عكا فاتجه اليها ودخلها بغتة ليقوى بها قلوب المسلمين، ولكن الفرنجة تكاثروا، واستفحل أمرهم ، وتوالت عليهم الامدادات ، برا وبحرا حتى

---

(١) وقد ذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير منها : جـ ٢ ص ٨٨ ٠

استظهروا على الجماعة الاسلامية، وضايقوهم وأخذوا عكا عنوة (١)٠ وقتل فى هذه الموقعة زهاء ثلاثة آلاف مسلم ٠

وتتالت المعارك بعد ذلك بين السلطان « صلاح الدين » وبين الفرنجة ، غير أن جنده كان قد سئم الحرب ، وضاق بها ، فقويت شوكة الصليبيين ، ولذا استقر رأى السلطان « صلاح الدين » على الصلح ٠

وأبرم الصلح(٢) بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من اليوم العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ ، ٢ سبتمبر ١١٩٢ م فوضعت الحرب أوزارها لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر ، وفرق « صلاح الدين » عساكره ، وعكف على تنظيم البلاد واعادة بنائها فأصلح القدس(٣) ، وتفقد أحوال البلاد الساحلية ، ودخل «دمشق» ونشر جناح عدله ، وهطلت سحائب انعامه ، وأنشده الشعراء حتى وافاه أجله فى ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته دمعة فى كل عين ، وشجى فى كل حلق ، وأسى فى كل قلب ، مات رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة (٤) ٠

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنهم وكأنها احلام (٥)

وانتهت بذلك صفحة مشرقة من صفحات الجهاد أمام الغزو الصليبى ٠

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٦ : ص ٤٥ ٠
(٢) الروضتين جـ ٢ ص ١٩٩ – ٢٠٠ ٠
(٣) الكامل لابن الاثير جـ ٩ : ٢٢١ ٠
(٤) الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٢ : ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ٠
(٥) المرجع السابق : ص ٢٢٦ ٠

الحروب الصليبية فى عهد خلفاء صلاح الدين
وموقف ابن سناء منها

١ ــ الملك العزيز عثمـان

٢ ــ الملك الأفضـــل

٣ ــ انتقال الملك من أسرة صلاح الدين

٤ ــ الملك العــادل

٥ ــ الملك الكامل محمــد

٤

الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين
وموقف ابن سناء منها

لم يكن تاريخ الأيوبيين منذ سنة ٥٨٩ هـ وهى السنة التى رحل فيها صلاح الدين من عالم الفناء الى عالم البقـــاء ــ حتى سنة ٦٤٨ هـ ، وهى السنة التى هلك فيها آخر ســـلطان أيوبى بمصر ــ لم يكن سوى قصة للمطـــامع الشـــخصية ، والمؤامرات السياسية التى أشعلت نيران الحروب بين أبناء البيت الواحـــد الأيوبى ، فطمع كل منهم فيما فى يد الآخر ، ودفعه الحقد والغضب أحيانا الى أن يستعين بالصليبيين أو بالروم أعداء البلاد الألداء ، كما تفعل بعض الشراذم المغلوبة على أمرها اليوم فى التجائها الى الانجليز أو الفرنسيين يلتمسون منهما العون على اخوان لهم حين تعميهم مصالحهم الشخصية عن المصالح الوطنية الكبرى للبلاد ــ وقد استمرت الحروب بين الأيوبيين ما يزيد على ستين سنة ، ودخلت

الحروب الصليبية فى عهدهم مرحلة جديدة امتازت بأن ما أحرزه الصليبيون بالمفاوضات الدبلوماسية يفوق ما أحرزوه بالحروب(١) وسوف نتتبع خلفاء مصر والشام فى هذه الفترة لتوضيح هـــذه الخلافات وموقف كل واحد من الصليبيين ، ثم موقف ابن سناء من ذلك .

الملك العزيز عثمـــان :

لقد حاول « صلاح الدين » أن يحسم الخلاف بين أبنائه بعد وفاته بتقسيم امبراطوريته العظيمة عليهم ، فآل أمر مصر الى ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان مازال شابا لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، وكان فى مصر جل عساكر أبيه من الأسدية والصلاحية والأكراد ، وقد سولت له نفسه وزين له أتباعه من عساكر الصلاحية وقوادهم أن يستولى على دمشق من أخيه الأفضل وقد فر من بين عساكره الأسدية (عبيد أسد الدين شيركوه) وانضموا الى الملك الأفضل ، لأنهم كانوايؤثرونه ويفضلونه ، وبالطبع قويت الوحشة بين الأخوين ، ودبت عقارب الفتنة فى نفسيهما ، ولم يتهيأ للعزيز الاستيلاء على دمشق ، وقد سجل ابن سناء حادثة فرار الأســـدية سنة ٥٩٢ هـ فى قصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتا مطلعها : ـ

من فـــر منـــك فمـــا يـــلام
وطريـــــد بأســـك ما ينـــــام

فجعلهم غلمة قد خافوا مقامه العظيم فلم يستقر لهم قرار ، ولم يطب لهم مقام ، وعجب الشاعر من فرارهم كالحمام على الرغم

---

(١) مصر فى عهد الايوبيين : والسيد الباز العرينى ١٠٧ .

من أنهم الأسود فليس لهم من صفة الأسدية غير الاسم وجعلهم في شرودهم كالنعام ، ثم جعلهم لاينفعون ولايضرون ان مضوا ، أو ان أقاموا • فاستمع اليه يقول : ـ

فـــرت لخوفــــــك غلمـــــة
ولطــــالمـــــا فـــر الغـــــلام

خـــــافوا مقـــامك ذا العـــظ
يم فـلم يـــكن لهـــم مقــــام

وهـــم الأســـــود فمـــالهـــم
طـــاروا كمـــا طـار الحمام

ونعـــم لهـــم نعـــم فـــلم
شـــردوا كمـــا شـــرد النعــام

لا ينفعـــــون ولـــــن يضــــــر
م وا ان مضــــوا وان أقامــــوا

وابن سناء في مدائحه الملك العزيز تتمثل في شعره حماســة الحرب التي طبعت أسلوبه ، وأثرت على فنه ، ولذا نراه في هـــذه القصيدة ـ على الرغم من أن الخلاف كان بين الملك العزيز وأخيه الملك الأفضل ، وأن هؤلاء الأسدية الذين انضموا الى أخيه الملك الأفضل لم يكن انضمامهم بالطبع لأعداء البلاد من الصـــليبيين ، ـ يهيج حفيظته عليهم ، ويثير حقده ضـــدهم بروح لا تقل عن تلك التي كان يثير بها صلاح الدين على الصليبيين : ـ

ولـــو انهـــم تحت الرجـــا
م لمـــا أجنهـــم الرجــــام

أو فى الغمـــام لكـــــان يمــــ
طـــرهم بســـــاحتك الغمــــام

قم فامـــلك الدنيـــــــا جميـــ
عـــا فلقـــد آن القيـــام

ورم الســـماء تنـــل كـــوا
كبهـــــا فمـــا يغنى المـــرام

وشـــــم الحسام فمـــا يشـــ
يم الذل ان شيم الحســام

فاحســـم به داء النفـــــا
ق فـــانه الـــداء العقــــام

فالأرض لا تجنهم ، والغمام لا يحميهم ، وفى قدرة العزيز أن يملك الأرض جميعا ، وأن يبلغ مرامه ولو كان فى السماء والحسام وحده هو الذى يستطيع به أن يحسم داء النفـــاق الذى دفع هؤلاء الى الهرب • وهى كما ترى روح مشبعة بالحماسة ، والشعر ملتهب لا يختلف فى درجة حرارته وقوة الدوافع فيه عن الشعر الحماسى الذى قيل فى صد الصليبيين •

ولما انتهى أمد الهدنة التى كان « صلاح الدين » قد عقدها مع الصليبيين جددها العزيز مرة أخرى غير أنه فى سنة ٥٩٤ هـ جرت عدة مناوشات بين الفريقين ، وقد استطاع العزيز أن يخلص قلعة « تبنين » من أيدى هؤلاء الفرنجة ، ولذا نجد ابن ســـناء يشـــيد ببطولته ، ويسجل ذلك الانتصار فى قصيدته التى مطلعها : —

الشـــام للاســـلام دار القـــرار
وكـــان من قبـــل طريق الفـــرار

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا • وكان الفرنج الألمانيون قد وصلوا من المغرب متجهين الى الشام ، وحاصروا تبنين فأرسل الملك العادل الى ابن أخيه العزيز بمصر يطلب اليه أن يحضر بنفسه لحفظ الثغر ، فخرج العزيز بجيوشه ، ووصل فى الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وكان الفرنج قد نزلوا أول صفر وقاتلوا من وجدوه فى الحصن ، وكادوا يستولون عليه ، فلما أحســـوا بوصول الملك العزيز ، واجتماع المسلمين رحلوا عنه • وفى ذلك يقول ابن سناء : ـ

جئت لتبنـــين (١) ومن حولهـــا
قوم كأعـــداد الحصى للحصـــار

سدوا عليهـــا الطرق حتى لقـــد
كادوا يســـدون طريق القطـــار

ســـاق اليهـا الكفر أجناســـه الـ
عظـــام قادتهـــا الملوك الكبـــار

من كل من يـــزأر من غيظـــــه
كأنـــه من مغرب الشـــمس نـــار

ثم يبين كثرتهم ، وأنهم سلكوا طريق البحر ، وطريق البر ، فملئوا البحر بسفنهم حتى لم يكد يظهر ماؤه ، وأحدقوا بعد ذلك بالثغر كأنهم الغل الذى يحيط بالعنق ، فهم : ـ

امـــا على البـــر أتى راكضـــا
أو بجنـــاح القلع فى البحر طـار

---

(١) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر تطل على بلدة بانياس بالقرب من دمشق (ياقوت جـ ١ ص ٨٢٤) •

وطبقـــوا البحر ســفينا فمـــا
بان وســـاروا فوقهـــا فى قفار

وأممـــوا الثغـــر وطـــافوا به
وأحدقـــوا كالغـل لا كالســـوار

ثم وصف فرارهم ، وأنهم أصبحوا كالشرار المتطاير بعد أن كانوا جمرة متقدة عندما أحسوا بقدومه ، وانهزموا هزيمة منكرة صوب البحر لما رأوا بحر وغى يجتاحهم ، ولا يبقى لهم أثرا فكان العزيز كالنهار وكانوا هم كالليل الذى يراع عندما يهاجمه النور ٠٠ وتستروا بالليل لأن الوقت كان آخر الشهر العربى ولولا أن الليل أرخى عليهم ازاره لعجل فيهم العزيز حد سيوفه فأشبعهم من دمائهم، وتطاير رءوسهم ٠ استمع اليه : ـ

وكان أهـــل الكفر فى جمـــرة
فعنـــدما أطللت طـــاروا شرار

وانهزموا للبحـــر اذ أبصـــروا
بحـــر وغى تغرق فيـــه البحار

وعذرهم اذ هـــربوا واضــــح
هل يثبت الليل أمام النهـــار ؟ !

أقســـم ما شـــدوا ازارا لهـــم
الا لأن الليـــــل مرخى الازار

لـــولا سرى القـــوم وتعجيلهم
عجلت فى القوم شـــقاء الشـــفار

لو لم يعق ســـيفك ماســـح من
هـــام مطير ســـح هام مطـــار

وقد مدح ابن سناء الملك العزيز بست قصـــائد أخرى لم نستطع أن نتعرف على تواريخها لأن ماورد فيها من مدح أوصاف عامة لاتحدد مناسبة ، ولا تشير الى أحداث ووقائع يمكن أن نستغلها في معرفة التواريخ ٠

وقد تمكن العادل من الايقاع بين الأخوين الأفضل والعزيز ليشق لنفسه طريقا يحقق بها آماله ، وقد مكنته الظروف من ذلك كما سنوضح بعد قليل ٠ وقد كان العزيز ميالا الى العبث واللهو حتى زاح ضحية لذئب كان يطارده عند الفيوم فوقع من فوق جواده فى ٢٠ من المحرم سنة ٥٩٥ هـ مفارقا الحياة ، تاركا أمر مصر من بعده لابنه الأمير المنصور بن العزيز الذى لم يتجاوز العـــاشرة من عمره ، وأنى له أن يستمتع بملك مصر ، ومن ورائه عمه الأفضـــل ، وعم أبيه الملك العادل الذى لا يقف طموحه عند حد ٠

الملك الأفضـــل :

لما مات العزيز اجتمع رأى الأغلبية فى مصر على استدعاء الملك الأفضل ليكون وصيا على ابن أخيه المنصور ، وأيدهم القاضى الفاضل على هذا الرأى ، واشترطوا على الأفضل ألا يذكر اســـمه فى خطبة الجمعة ، وألا ينقشه على النقود ، وألا تتجاوز وصايته سبع سنوات ، وبقى الأفضل فى مصر فأصلح أمورها ، وقرر قواعدها وحسنت فى الناس سيرته فى مطلع أيامه ٠ غير أن عمه الملك العادل اســـتطاع أن ينتزع منه مصر فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ٠

وقد تتبعت قصائد ابن سناء التى مدح بها الأفضل فوجدتها احدى عشرة قصيدة احداها لامية ومطلعها : ـ

هــــــواى لمحبـــــوبى الأول
فقصر من العـــذل أو طـــــول

ويدعوه فى هذه القصيدة الى العودة الى مصر ، ويبين تعلق المصريين به ، وتطلعهم الى عودته وحكمه العادل ، وفضله على أهلها فيقول : ـ

بكت مصر بالدم شـــــوقا اليك
وحنت الى حكمـــــك الأعـــــدل

تنـــاديك عن كمـــد مســــرف
وتـــدعوك عن سقم معضـــــل

وكم لك فضــــل على أهلهــــــا
فســـمتك بالأفضــــل المفضــل

وقد جئت منها رســـــولا اليـك
فكن بالرجـوع لهـــا مرســــــلى

فأنت فتــــاها ونعـــم الفتى
وأى فـــتى كـــان الا عــــلى

وقد وجه اليه قصيدة أخرى رائية مطلعها : ـ

ســـافر فوجـــه العيد ســـافر
فلترجعن وأنت ظــــــافــــر

ولتظهـــــرن عــــــلى عــدو
ك ان حـــزب الله ظـــاهــــر

وفى هذه القصيدة يشير الى حياة الورع والزهد التى انصرف اليها الأفضل : ـ

كم ليـــــلة احييتهـــــا
نـــام الأنـــام وأنت ســـاهر
لله فيهـــــا قائمـــــا
وعـــلى ســـواك الكـــأس دائر

ولهذا نرجح أن تكون هذه القصيدة قيلت حوالى سنة ٥٩١هـ اذ أن انصرافه عن اللهو ، وترك الملذات كان فى هذه السنة ·

وقد أوضحت فى الفصل السابق أن الصلة قد توطدت بين الشاعر وبين الأفضل حتى أن الأفضل استدعاه الى سوريا كمـــا يفهم ذلك من قصيدته التى مطلعها : ـ

قمر بات بين ســـحرى ونحرى
وخيـــول الـــدموع باللثم تجـــرى

وفيها يقول :

هو فى الدســـت جالس وعطـــايا
ه الى الخـــلق والأقـــاليم تسرى
أنـــا ممن سرت اليـــه وجـــازت
كل بر وجـــاوزت كل بحـــر
طرقتنى فى كل ليـــل بصـــبح
وأتتنى فى كـــل عسر بيســـر
جل مقـــدار ذكـــره لى على البعـ
ـد لقـــد جـــل فى البرية قدرى

وفى قصيدة أخرى دالية مطلعها : ـ

عاد قلب المشوق اذ عـــدت عيده
ووفى وعده ووافت ســــعوده

وقد أشارت بعض نسخ الديوان الخطية الى أن هذه القصيدة مدح بها الشاعر الملك العزيز ، ولكن الظاهر أنهـــا فى مدح الملك

الأفضل لأنه يشير فى أحد أبياتها الى الجفوة التى كانت بين الأفضل وأخيه العزيز فيقول : ـ

خمــدت نار من عصــــاه ونور الـ
ـدين هيهـــات ليس يخشى خمــوده

بعـــده لا عصــــاه عـــاص ولا يخـ
ـفق فى الخافقـــين الا بنـــوده

و « نور الدين » هو لقب الملك الأفضل ، وقد أشار فى هذه القصيدة الى حياة التنسك والزهد : ـ

مـــلأ الليــل بالتهجــد حتى
فاض عنـــه ركوعـه وسجوده

والمعروف أن الملك العزيز كان ماجنا عابثا ، ولم ينصرف الى العبادة والزهد ، ولكن الأفضل هو الذى انصرف اليهما • وربمـــا كان الشاعر قد أعد هذه القصيدة ليمدح بها العزيز ، فلمـــا حضر الأفضل الى مصر بعد موت العزيز غير الشاعر بعض أبياتها وزاد عليها ثم وجهها الى الأفضل •

ولم يدم حكم الأفضل طويلا فى مصر فسرعان ما حل العـــادل محله ، وغادر الأفضل مصر ٥٩٦ هـ حيث قضى بقية حيـــــاته فى التقشف والزهد ، ولا نظن أن الشاعر قد وجه اليه أية قصـــيدة اذ أنه لا يكن أى تقدير للنجوم الآفلة •

انتقال الملك من اسرة صلاح الدين :

لما قبض العادل على زمام الأمور فى مصر عمل على أن يقضى على ملك أبناء أخيه ، ويمكن لنفسه ولأولاده من بعده على نحو ما فعل « صلاح الدين » ، فقسم الملك بين أبنائه واحتفظ لنفسه بنوع من

السيادة العليا ، فأصبح ابنه الكامل أميرا على مصر وابنه المعظم عيسى امتدت امارته من العريش الى حمص ، كما تولى الأشرف موسى البلاد الشرقية .

ولكن البلاد في عهده لم تسلم من غارات الصليبيين وافسادهم ونهبهم ففي سنة ٦٠٠ هـ تعرضت مدينة « فوة » احدى البلاد المصرية لغارة مفاجئة من أسطول الفرنج ، فأقاموا بها خمسة أيام يسبون وينهبون ، وعساكر مصر مقابلهم ، وقد صالحهم العادل من جديد ، وجدد الهدنة لخمس سنوات أخرى بعد انقضاء الهدنة الأولى وأعطاهم بعض البلاد ، وشجعهم ما بين الأمراء والملوك المسلمين من تفكك أن يعيثوا في الأرض فسادا ولكن الشعب العربي بعامته وفلاحيه خرجوا للقائهم بعد أن فر القواد والأمراء فهزموهم هزيمة منكرة .

وقد تعرضت البلاد في عهد العادل لهزة اقتصادية عنيفة فكثرت الأوبئة والمجاعات ، وقل النيل ، ولم تستطع الحكومة أن تتصرف في مياهه لانعدام الوسائل العلمية ، وانصراف الفلاح عن العناية بأرضه ، وتعسف بعض الحكام ، وكانت أشد المجاعات فتكا في مصر سنة ٥٩٧ فقد هرب الناس ، وانعدمت الحبوب ، واشتد البلاء ، وكتب العماد الأصفهاني في ذلك يقول : ـ « اشتد الغلاء وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى فكيف الضعيف ، ونحف السمين فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر في الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة على الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم ، تسترق الجياع باللقم »(١) .

---

(١) مرآة الزمان جـ ٨ : ٤٧٧ .

موقعة دمياط :

وفي سنة ٦١٤ هـ ١٢١٨ م تدفقت جموع الصليبيين الى «عكا» استجابة لملك روما الذى كان ذا مكانة عظيمة بين ملوك أوروبا ، وتمكنوا من نهب البلاد وأسر ما لا يحصى سـوى ما قتلوا وخربوا وأحرقوا(١)· ثم ارتحلت الجنود الصليبية فى سفن صوب مصر . وفي صفر سنة ٦١٥ هـ ألقى الأسطول الصليبى مراسيه أمام دمياط على الشاطىء الأيسر للنيل ، وبذلوا كل جهد مستطاع ليتغلبوا على برج السلسلة ، ودام حصارهم أربعة أشهر ، وقد استطاع الملك الكامل أن يثير في نفوس حامية دمياط روح الجهاد والحماسـة الدينية حتى خسر الصليبيون كثيرا من أسلحتهم ، ولجئوا الى اقامة برج ضخم من الخشب نصبوه على سفينتين يصل بينهما جسـور وحاملات ، وبهذا الحصن المتحرك استطاع الصليبيون أن يستولوا على برج السلسلة ، فلما ملكوا برج السلسلة قطعوا السـلاسل لتدخل السفن من البحر الى النيل ، ويتحكموا فى البر فقطع الكامل عليهم غرضهم باقامة جسر عظيم فى النيل ، ولكنهم قاتلوا عليـه قتالا شديدا حتى قطعوه ، فأغرق الملك الكامل بعض السـفن الكبيرة فى النيل حتى سدت عليهم الطريق ــ فما أشـبه الليلة بالبارحة ــ وما أشبه ما حدث فى قناة السويس بما حدث منذ ثمانية قرون تقريبا ، وجرت محاولات لم يظفروا من ورائها بطائل غير أن الملك العادل لما بلغه سقوط برج السلسلة فى يد الصليبيين حزن حزنا شديدا عجل بوفاته فتوفى فى جمادى الآخرة سنة٦١٥هـ· وقد تتبعت قصائد ابن سناء التى اشتمل عليها الديوان فى مدح الملك العادل فوجدتها ثمانى قصائد واحدة منها دالية مطلعها : ــ

---

(١) الكامل جـ ٩ : ٣١٥ .

على كل حال ليس لي عنك مــذهب
ومــا لغرامي عنـد غــيرك مطلب

ويبدو أنه مدحه بها بعد سنة ٥٩٧ هـ أى بعد انتهاء القحط وعودة مياه النيل لأن الشاعر قد تحدث عن ذلك وجعله هو الذى أعاد النيل للبلاد : ـ

أعــدت لأهل النيــل رى بلادهم
بأبحر نيــل عندها النيــل مذنب

هنيئــا لمصر وصله ووصـــوله
فقــد كان يؤذى مصر منه التجنب

وقد مدحه بقصيدة جيمية مطلعها : ـ

سجاليل همى بالعذار الذى ســجا
وعرج قلبى نحــوه حين عرجـــا

وكانت هذه فى حياة صلاح الدين ، وقد مدحه فيها بالبطولة والقوة فى مجالدة الأعداء ، ونزالهم ، وذلك لأن العادل كان كثيرا ما تسند اليه قيادة الجيوش لاخماد الفتن ، أو فى ملاقاة الصليبيين، ولذا فهى من القصائد الحماسية : ـ

يجر جيوشــا يركد النقع بينهــا
فلم يلق من بين الأســنة مخرجــا

وان أظلمت من نقعــه جنبــاته
فكم صبح سيف بينـه قد تبلجــا

وما هو جيش مثل ما يزعم العــدا
ولكنــه بحــر الحديد تموجــا

ومـــا ذاك لمع للــدروع ولا الظبى
ولكنـــه جمر العزائم أججـــا

غـــدا سيف سيف الدين خدا موردا
وان كان ثغرا بالفـــلول مفلجـــا

وكل القصائد الأخرى التى مدحه بها قد قيلت بعد توليته أمر البلاد وتخلصه من منافسيه ، ومدحه فيها بالكرم والقوة فى مجالدة الأعداء ، والقدرة على التغلب على الأعداء ، والدهاء والمكر الى غير ذلك من الصفات التى ترسم وتحدد معالم شخصية العادل، وبعض هذه الأوصاف صريح واضح، وبعضه يفهم من بين السطور٠٠ ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة الديوان ٠

الملك الكامل محمد :

كان الملك الكامل محمد مشغولا بلقاء الصليبيين فى دميـــاط لما بلغه نبأ وفاة أبيه الملك العادل ، وكان من الممكن أن يتبدد خبر هذه الوفاة فى حماسة الحرب والدفاع عن البـــلاد لولا ما دبره « ابن المشطوب » أحد أمراء الأكراد من الاطاحة بالكامل وتوليــة أخيه الفائز مكانه ، فلما بلغ الكامل خبر هذه المؤامرة نسى كل شيء عن الجهاد وعن الدفاع وسارع ليقضى على المؤامرة الأثيمة فأصبح الفرنجة فلم يجدوا أمامهم من المقاتلة أحدا ، اذ أن العسكر حين علموا بفقد سلطانهم وذهاب قائدهم تفرقوا أيدى سبا ، وركب كل منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم الا القليل ، وتركوا ما بقى فوقعت الأســلحة والذخائر ، كما وقعت دمياط أيضا فى أيدى الصليبيين صـــفوا عفوا ، بغير تعب ولا مشقة ، اللهم الا ما بذله أهل دمياط من جهد ومقاومة لم تغن عنهم شيئا أمام العدد والعدد فكثر فيهم القتــل

والجراح والامراض ، وسلموا البلد فى ٢٧ من شعبان سنة ٦١٦ هـ (١) .

استرداد دمياط : وقد شرع الصليبيون فى تحصين دمياط وعمارتها بعد استيلائهم عليها حتى أصبحت منيعة لا ترام ، وقتلوا من أهلها ما شاءوا ، ونهبوا من أموالها كل ما استطاعوا ، ثم بثوا سراياهم فى البلدان المجاورة يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل « محمد » فقد أرسل الى أخويه ، والى ملوك الاسلام يستنجدهم ويستغيث بهم (٢) ، وسرعان ما وجدت دعوته مكانا فى نفوس ملوك الاسلام ، وتناسوا ما بينهم من الأحقاد والخصام ، وتتابعت النجدات الى الكامل ، وبعد أن كان يسعى حثيثا للصلح مع الفرنجة ، ويعرض عليهم أن يتخلوا عن دمياط على أن يستولوا على « بيت المقدس » و « عسقلان » و « طبرية » و « صيدا » و « جبلة » و « اللاذقية » وجميع ما فتحه صلاح الدين (٣) ، والصليبيون يغالون ويغالبون ، ويمكرون ويرفضون اضطر الى مقاومتهم ومصابرتهم ، وأقام الاستحكامات عند المنصورة ، وتقدم الفرنج وقت الفيضان صوب معسكر الكامل واتخذوا طريقهم بين الترع ، فقطع الكامل عليهم الجسور ، ففاضت المياه ، وحصر الصليبيون ، وضاق بهم المقام ، وراموا العودة فلم تمكنهم الارض المبللة من السير فيها ، وفت ذلك فى عضدهم .. ووقعت النجدات والسفن القادمة لعون الفرنج فى أيديهم ، فلما تيقنوا أن المنايا قد كشرت عن أنيابها ، ذلت نفوسهم ، وتنكست صلبانهم ، فطلبوا الصلح من الكامل على الجلاء من دمياط بلا قيد

---

(١) مصر فى عصر الصليبيين : ١١٤ .

(٢) الكامل : جـ ٩ : ٣١٤ — ٣١٨ .

(٣) الكامل : جـ ٩ : ٣١٤ — ٣١٨ .

ولا شرط ، وتم النصر للمصريين ، وقدمت التهانى للملك الكامل من الشعراء • وجلس الكامل محمد واخوته بعد رحيل الفرنج عن دمياط مجلس أنس بمدينة المنصورة (١) فأمر الملك الأشرف موسى جارية له يقال لها (ست الفخر) فغنت على عودها هذه الأبيات : —

ولما طغى فرعون عكا ببغيه
وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض

اتى نحوهم موسى وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضاً على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها كررى فشق ذلك على الملك الكامل وأمرها فسكتت ، وقال لجاريته هو « غنيه أنت » فغنت على العود : —

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنا وتجددا

أعباد عيسى ان عيسى وقومه
وموسى جميعا ينصرون محمدا

فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسمائة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف بمثلها ، وتوافد الشعراء يهنئون الملك الكامل بالنصر ، ومنهم « شرف الدين بن عنين » ومن قصيدته قوله :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
اذا جهلت آباءنا والقنا اللدنا

---

(١) الادب المصرى : د . عبد اللطيف حمزة ٨٣ .

غداة التقينا دون دمياط جحفلا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

كما مدح « كمال الدين بن النبيه » الشاعر المصرى الملك الأشرف موسى بقصيدته الطويلة التى منها : ـ

للذة العيش والأفراح أوقات
فانشر لواء له بالنصر عادات

أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وآراء ورايات

وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات

ومن الشعراء كذلك « البهاء زهير » وقد بعث للملوك الأيوبية وهم بالمنصورة قصيدة رائعة منها : ـ

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر

فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدرة الحمد والشكر

يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شىء من النثر (١)

ألا فليقل ما شاء من هو قائل
ودونك هذا موضع النظم والنثر (٢)

---

(١) النثر : هو النثار وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة .

(٢) الادب المصرى للدكتور عبد اللطيف حمزة : ٩٠ .

وبالطبع ليس لابن سناء في هذا المقـــام شيء اذ أنه كان قد واراه الثرى قبل هذه الحادثة بعشر سنوات ، ولكنه كان قد مدحه قبل ذلك ، وأشاد ببطولته فى الحوادث التى تعرضت لها البلاد فى اعتداء الصليبيين سنة ٦٠٠ هـ بقصيدة مطلعها : ـ

على خاطرى يا شغله منـــك أشغال
وفى ناظرى يا نوره منـك تمثـــال

وقد أشار الى بطولته وصولته فى وسط المعارك ، وقتـل أعدائه بالرعب والذعر فقال : ـ

بأســـيافه فى الحرب يخترم الوغى
وتقتل اقيـــال وتبطل ابطـــال

جنى عســـل الفتح المبين برمحـــه
ولا غرو أن اسم الردينى عســـال

له صولة الرئبال فى مائس القنـــا
ولا ريب أن ابن الغضنفر رئبـــال

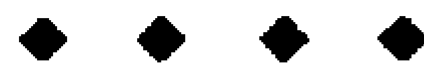
اذا صال فى يوم النزال تفصـــلت
لأعـــدائه بالرعب والذعر أوصال

ويعول جرح القرن منـــه كانمـــا
به صوت ضرب السيف للجرح اعوال

ويطربه صـــــوت القـــراع وانه
له طربات وهـــو للقـــوم أهـــوال

وليس له بعد هذه القصيدة سوى أبيات يعتذر له فيهـا عن توليه ديوان الجيش والاشراف عليه :

قد عجـز الملوك عن خـدمة　　ثبـاته فى مثلهـا طيش
للجيش ديـوان ومـالى به　　أنس ولا عنـدى له عيش
وصرت مهزوما فلا تعجبـوا　　من واحـد يهـزمه الجيش



ومن الذين حظوا بمدح ابن سناء من أبناء البيت الأيوبى الملك المعظم « تورانشاه » فقد مدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها : ـ

تقنعت لـكن بالحبيب المعمم　　وفارقت لكن كل عيش منعم

وقد أثار هذا المطلع ضجة النقاد فمنهم من هجنوا التقنع بالحبيب ، ومنهم من دافع عنه ، وقد جعل منها ثلاثة وعشرين بيتا للغزل ثم حشدها بالاشارات الأدبيـة والتعبيرات الغزلية التى استعملها الأقدمون ، ثم مدحه بالمألوف من الصفات ولكن فى ثوب خاص به فهو المعطى الممالك مجدا صميما ، وملوك البرايا يخرون له رهبة ، ويسجدون فى حضرته ، ويلثمون الأرض بين يديه حتى تظهر أثر مباسمهم عليهـا ، وقد غدا ينصر بالرعب حتى ليحمى بأسه حماه ، وان سمعته اذا تعوذ بها الطير أمن شر اعتداء النسور الكاسرة عليه ، وقد أرهب الكفار ، وأمن فى ظله الاسلام ، وقد تعلم السيف منه العزم والحزم ، ودروع الأعداء لا تحميهم من سهامه بل انها لتصير مثل البرود تمرق فيها سهامه فى يسر وسهولة ، واذا صاد غيره الغزلان فهو لا يصيد غير الضياغم ، وركض الخيل عنده نوع من الاستراحة ولبس الدرع نوع من التنعم ، وأجمـل ما يتطيب به نقع المعارك ، وألين مهاد له ظهر خيله وابله ، وكثـير من أهل الصليب اذا رأوه أسلموا . وهى قصيدة حماسـية تمجـد البطولة ، وتشيد بالعزم والحزم الذى اتصـف به الملك المعظم

« تورانشاه » أخو صلاح الدين وقد بلغت هذه القصيدة سـبعة وخمسين بيتا . جاء فيها قوله : ـ

غدا بأسه يحمى حماه وقد غدا
به الدهر منه يستعيذ ويحتمى

فلو ذكرته الطير أو سمت اسمه
لما راعها فى جوها بأس قشعم

أخو فتكات لا تزال سيوفه
تخط سطور النصر فى جبهة الكمى

فقد أرسلت حتفا الى كل كافر
وقد أرسلت فتحا الى كل مسلم

وأصبح يعلى السيف تصميم عزمه
فمن ذا يسمى بالحسام المعمم

وأسهمه فى صد كل مدرع
فما الدرع منها غير برد مسهم

ويحتمل أنه وجه اليه هذه القصيدة بين سنة ٥٧٤ الى ٥٧٦ هـ اذ أن ذلك هو الوقت الذى استقر فيه تورانشاه فى الاسكندرية وظل حتى مات سنة ٥٧٦ هـ :

وبعد : فقد استعرضت فى هذا الفصل موقف ابن سناء من الحروب الصليبية التى جرت فى عهد خلفاء صلاح الدين ، وتعرضت لبعض الشخصيات الايوبية التى مدحها ابن سناء الملك ، وقد وجهت اهتمامى لابراز الناحية الحماسية فى شعره التى خلقتها الحروب

الصليبية .. وحقا ان له مدائح أخرى وجهها الى شخصيات لمعت آنذاك في الحروب الصليبية مثل الظاهر غازى ، والمظفر تقى الدين ، ولكنها لا تختلف كثيرا عن تلك القصائد التي تعرضت لها فى منهجها ولا في الصفات التي كان يغدقها على ممدوحيه .

وسوف أخص الفصل القادم بالحديث عن أغراض شـــعره الأخرى التي تحدث فيها ، حتى تتضح صورة ابن سناء الشاعر في ذهن القارىء .

شعر ابن سناء الملك

أغراض شعره :

١ ـ المدح

٢ ـ الغـزل .

٣ ـ الرثـاء .

٤ ـ الهجـاء .

٥ ـ الوصـف .

٦ ـ الفخـر .

٧ ـ الزهـد .

٨ ـ الاعتذار والاستعطاف .

٩ ـ الحكمة .

٥

شعر ابن سناء الملك

الأغراض التي تعرض لها :

١ ـ المدح :

من تتعبنا لديوان ابن سناء نرى أن ما إشتمل عليه من الشعر يقرب من ثمانية آلاف بيت • خص المدح منها ما يقرب من خمسة آلاف وهو ما يزيد على نصف الديوان ، ثم تلاه ما يقرب من ألف بيت في الغزل والمجون ، وهذان هما الغرضان الرئيسان في الديوان ، وقد ظهر الى جانبهما أنواع أخرى من شعره كالرثاء والهجاء ، والفخر ، والحكمة والوصف ، والزهد ، والاعتذار والشكوى •

وقد تأثر ابن سناء تأثرا واضحا بالحروب الصليبية ، وانعكس في شعره أثرها فأدى دوره في معركة التحرير ، وكانت له حظوة

وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء ، وطبع بطابع الحماسة والبطولة فيشيد بجهاد السلاطين وبطولتهم ، ويدفعهم الى خوض المعارك ، ويبدى مهارتهم فى الضرب بالسيف والطعن بالرمح . وقد تقدم من النماذج ما يؤيد ذلك .

٢ ـ الغزل :

أما غزله فقد استطعت أن أقسمه ثلاثة أقسام أولها : غزل تقليدى (نسيب) خالص نهج فيه منهج الأقدمين ويتجلى هذا الاتجاه فى مطالع مدائحه ـ التى كانت مظهرا عاما لدى شعراء هذا العصر ـ ويتحدث فى هذا النسيب عن الأوصاف القديمة المألوفة كالوصال والهجر ، والوشاة والعاذلين ، والقد السمهرى ، والثغر الأقحوانى ، والطيب والنشر ، وصورة البدر واشراقة الشمس ولكن فى روح مصرية يتجلى فيها الخفة وروعة الافتنان ، وحسن السبك ويسرف ابن سناء فى هذا النسيب فتبلغ مطالعه أحيانا الثلاثين بيتا ، حتى لنظن أنه هو الغرض الأساسى . استمع معى الى مطلع قصيدته فى مدح القاضى الفاضل : لقد بدأ الحديث عن ليلة الوصل التى هى أحلى ليالى العمر ، والتى مضت مسرعة فأحس بها قصيرة ولم يملك الا أن يتمنى بقاء النجم ، وعدم قدوم الصبح من سفره فقال : ـ

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر
احسنت الا الى المشتاق فى القصر

يا ليت زيد بحكم الوصل فيك له
ما اطول الهجر من ايامه الأخر

او ليت نجمك لم تقفل ركائبه
او ليت صبحك لم يقدم من السفر

أو ليت لم يصف فيك الشرق من غبش
فذلك الصفو عندي غـــاية الكدر

والقسم الثاني : غزل عفيف رقيق : يفيض عذوبة ورقة ، وينساب في يسر وسهولة ، ويتجاوب فيه مع مشاعره وعواطفـــه يغترف فيه من بحر ، ويصقل ما ينحته من صخر ٠٠ انه يحكى نبضات قلبه ولوعة نفسه ، وفيض احساسه استمع الى قوله : ــ

أواصـــــل اللثم من فرع الى قدم
وأوصل الضم من صـــدر الى كفل

وبات يسمعني من لفظ منطقـــه
ارق من كلمى فيـــه ومن غـــزلى

وددت أعضائي أسماعا لتســـمعه
ولو تحملن فيه وطـــأة العـــذل

ودمعة الدل تجريهـــا على جسـدى
فهل رأيت ســقوط الطل في الطلل

ونلت مـــا نلت ممـــا لم أهم به
ولا ترقت اليـــه همـــة الأمـــل

ومر والليـــل قد غارت كواكبـــه
لما نوى الصبح تطفيلا على طفـــل

لم أسحب الذيل كي امحو مواطئـــه
لكنني قمت امحـــو الخطو بالقبـــل

يا ليـــلة قـــد تولت وهي قائلة
لا تنظمني مـــع أيامـــك الأول

فهذه المعانى الرقيقة التى تحكى تلك التجربة الذاتية تنساب في خفة ورشاقة زادتها العبارات والقوالب الفنية روعة وسحرا ، فما أحلى هذه الموسيقى التى تنساب من حروف الصفير في الكلمات والعبارات : « يسمعني ـ من لفظ ـ غزلى ـ أسماعا ـ لتسمعه ـ العذل ـ جدى ـ سقوط » لقد تكررت السين والزاى والدال والظاء والصاد وتوالت فانبعثت منها نغمات موسيقية راقصة ، فضلا عن الايحاءات الجميلة التى تستتبع تلك التعبيرات الحلوة ، فكل ثغرة من ثغرات جسمه يود أن تكون أذنا لتنعم بحديثها ، فكأن حديثها هاروت ينفث فيه سحرا ، وهذا جسده يذوب بين يديها فلا يبقى منه الا طلل بينما تشتعل روحه وتتوهج نفسه ، وهذه دموع الدلال تتساقط على جسده المتهالك فلعله كان يفترش صدرها ، أو يضع رأسه على ساقيها فتتساقط دموعها على جسده ، انها لوحة فنية انه اندماج الأرواح ، فليست متعة جسدية فحسب ، ولكنها متعة روحية ونفسية معا لذا لم تزل تلك المتعة بزوال أثرها ، فما زال يذكر تلك السعادة بعد ذهاب صاحبته ، وكان حريصا على استبقاء تلك الذكرى فوجدها جديرة أن ينحنى على الأرض ويلثم خطواتها التى تركت أثرا فوقها ٠٠ « لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل » ٠٠ وهذه ليلة العمر لذا لا ينبغى أن تحسب مع الليالى الأخريات ٠

ومما زاد العبارات جمالا وروعة هذا الانسياب الذى يتمثل في حروف المد التى زادت عدتها فى هذه الأبيات « أواصل ـ الى وأوصل ـ وبات ـ يسمعنى ـ منطقه ـ كلمى ـ غزلى ـ أعضائى ـ أسماعا ـ لتسمعهو ـ ٠٠ » الخ ٠ ان حروف المد وتواليها فى هذه الأبيات أكسبها حلاوة وطلاوة ، وزاد فى جمال النغم الموسيقى الذى ينبعث عنها ، وهي توحي بالتعلق والرغبة واللذة حتى ليود ألا تنتهى الكلمة ذات الدلالة على المعنى ٠

والعاشق المتيم يجد صدى هذه الأبيات فى نفسه ، ويحس بالترجمة الصادقة لما ينطوى فى قلبه ، وتزيده تعلقا بها ، وتكرارا لها اذا كان قد مر بهذه التجربة ، فأمضى ليلة سعيدة مثل هذه الليلة مع من يهوى أو من يعشق •

القسم الثالث : غزل فاحش وتهتك سافر :

وقد كثر هذا اللون فى شعر هذا العصر لانتشار الشذوذ الجنسى ، حتى أصبح اللون المفضل الذى يجـــذب أنظار القارئين ويرجع ذلك الى كثرة سبى الحروب الصليبية ، ووجود الغلمان من الترك والأكراد وهم صباح الوجوه ، وانتشار البطالة والفراغ لدى بعض الناس • وكان ابن سناء واحدا من شعراء عصره ، استهتر كما استهتروا ومجن كما مجنوا ، فتغزل بالمذكر ، وتغزل بعمياء ، وتغزل بشائب ، وتغزل برومى أعجمى ـ وهو فى هذا كله يثبت للشعراء أنه يستطيع مجاراتهم ، ولا يعز عليه غرض من الأغراض • واستمع اليه يتغزل فى عمياء : ـ

ان الكمـــال أصـــاب فى محبوبتى
لمـــا أصـــاب بعينه عينيهـــا
زادت حلاوتهـــا فصرت تخالهـــا
وســـنى وقد كسر الكرى جفنيها
وكـذا علمت وللدبيب حـــلاوة
فـــكأننى أبـــدا أدب عليـــها
ولئن علمت السـكر من الحاظهـا
فلقـــد وجـدت السكر فى شفتيها

وقد صرح كثيرا بما يستقبح ذكره ، وديوانه ذو حظ عظيم من المجون والاستهتار ، والتصريح بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، مما لا يجمل ذكره هنا •

٣ ــ الرثاء :

وقد بلغت قصائد الرثاء في ديوانه ثلاثة وعشرين قصيدة ، وقد وزع هذه القصائد بين أهله كأبيه وأمه وجده وبعض أقاربه من جهة ، وبين أصدقائه الذين لم تربط بينه وبينهم المطامح والأهواء كعفيف التلمساني ، والسيد شريف أبي القاسم عبد الرحمن الحلبي ، وصديقه وثاب ، وبين جاريته التي أحبها من أعماقه ، وبذل النفس والنفيس لانقاذها من مخالب الموت من جهة أخرى ، كما أن بعض قصائده كان عزاء ومجاملة كعزائه الأسعد بن مماتي .

ومن قصائده في الرثاء تلك القصيدة التي رثى بها أمه ومطلعها :

صح من دهرنا وفاة الحياء فليطل منكما بكاء الوفاء

وهي قصيدة تبلغ تسعة وتسعين بيتا ، وفي هذه القصيدة يضيق صدره ولا ينطلق لسانه فيقول : ــ

أنت عندي أجل من كل تأبين صغت بالثريا رثائي
في ضميري ماليس يبرزشعري لا ولو كنت أشعر الشعراء

ثم يخاطب القبر ويناجيه فيقول : ــ

واذا ما دعوت قبرك شوقا
فبحقي ألا تجيبي ندائي

هل دري القبر ما حواه وما أخـ
ـفاه من ذلك السنى والسناء

فلكم شف باهر النور منه
فرأيت الاغضاء في اغضائي

ثم يقول : —

اذكرينى يوم القيامة يا أم
م لئلا أعــد فى الأشقياء

واشفعى لى فجنتى تحت أقدا
مك من غير شبهة وامتراء

فقريبا لا شـك يأتيك عنى
بقدومى عليك وفد الهنـاء

عجل الله راحتى من حياتى
انهـا فى الزمان أعظم دائى

واذا ما الحياة كانت كمثل الدا
ء كان المـات مثـل الدواء

ومن دراستنا لرثائه نستطيع أن نصل الى خصائص هذا الفن عنده ٠

١ — يتجلى الحزن الحقيقى ، والأسى العميق فى رثاء أقربائه الأدنين فيتجاوب فيه مع واقعه النفسى ، وان خالفه التوفيق فى التعبير أحيانا ٠

٢ — وحين يرثى أصدقاءه تحس بجو الأسف والحزن الفكرى الهادىء الرزين ٠

٣ — كما ينبعث من العزاء جو المواساة والتصبر والسلوان ، وهو مخالف حتما لجو الحزن والأسف ٠

٤ — يختلف معجمه اللغوى باختلاف المرثى ففى أقربائه ألفاظ حزينة وعبارات باكية ، صادرة من قلب باك حزين ، وفى أصدقائه ألفاظ رزينة ، وعبارات هادئة صادرة عن عقل وتأمل ، وفى رثاء

جاريته ألفاظ وعبارات ملتاعة فيها الحركة ، واستعذاب الألم ، وفى العزاء ألفاظ السلوان وعبارات التصبر ، والعبارات متجاوبة مع ما توحيه المجاملة ٠

٥ ـ ينعكس على أسلوبه أثر الثقافة والقراءة ، كما تجلى فى رثاء أمه حين استبد به بكاء الأطلال والدمن ٠

٤ ـ الهجاء :

لم يعد النقاد قديمهم وحديثهم « ابن سناء الملك » من شعراء الهجاء ، وذلك لمكانته الاجتماعية من ناحية ، ولقلة أهاجيه التى اشتمل عليها الديوان من ناحية أخرى ٠ وحقيقة لم تزد مقطعاته وقصائده عن مائتى بيت ، غير أننى أعده من الهجائين ، أو أن فى مقدوره وفى استعداده الخفى ما يجعله فى عدادهم ، فلا تنقصه سلاطة اللسان وحدته ، ولاتعوزه القدرة على السخرية والاستهزاء ، كما أن له قدرة على النقد الاجتماعى اللاذع ، وهو وان لم يبلغ بأهاجيه مبلغ جرير والفرزدق، ولا بتصويره الساخر (الكاريكاتيرى) مبلغ ابن الرومى الا أنه جاراهما بل وفاقهما ذرابة لسان ، وقدرة على الشتم والسباب ٠ استمع اليه يطعن فى شرف شخص يسمى الرضى فيتهمه بأنه كان يقود على نفسه فأصبح يقود على زوجته ، ويشبهه بالتيس الذى يستعير قرنين من نعجته فيقول :

فكان يقود على نفسه ... فصار يقود على زوجته
وكيف يغار على عرسه ... فتى لا يغار على مهجته
ولا بأس بالتيس أن يستعير ... قرونا على الرأس من نعجته
فاشبعنا الله من هجوه ... وجوعنا الله من عجته

٥ ـ الوصف :

لم تتجاوز أبيات الوصف في ديوانه مائة بيت الا قليلا ومع هذا فقد وصف البستان ، ووصف القصر ، والفرس ، والجلنار ، والسوسن ، كما وصف الجرب الذى أصابه ، ومنظرته الجميلة ووصف قوما سكارى ، ووصف جارية صافية السواد واستمع اليه ينسجم مع الطبيعة ويتجاوب مع نفسه تجاوبا تاما في هذا المقطع عن بستانه حين هاج الذكريات فراح يقبل الطل ويلثم الزهر ، وكأنه ينال ذلك من لمى المحبوب وثغره ، حتى كأن أصحابه بين لائم وبين عاذر فيقول :

جلست ببستان الجليس وداره
فهيج لى مما تناسيته ذكرا

أقبل ذاك الطل أحسبه اللمى
وألثم ذاك الزهر أحسبه الثغرا

وكم لائم لى في الذى قد فعلته
وكم قائل دعه لعل له عذرا

ووصفه بصفة عامة وان كان قليلا الا أنه يدل على قدرته واستعداده الكامن القوى للنبوغ في هذا الغرض .

٦ ـ الفخر :

ليس له في الفخر سوى قصيدتين . أولاهما عاتب فيها الدهر لأنه يحاول صده عن مطلبه ، ويصطنع له العقبات ثم يفتخر بآبائه، وبانتسابه الى والده الرشيد الذى فاق به الأنام لعلو منصبه ونصابه ، حتى أنه يستطيع بفضل ذلك النسب أن يتخذ من النجوم له نعلا ، ومن الهلال مركبا يجرى به في نهر المجرة فيقول :

أيدفعني الدهر عن مطلبي ويكثر من لومه المطل بي
ولم يدر أني كثير الاباء وأن الرشـيد المرجى أبي
وأني به قـد فخرت الأنـــام بفضـل النصاب مع المنصب
وأني لو شئت من سعده لأنعلت رجلي بالكوكب
ولو شئت كان لدى الهلال بنهر المجرة كالمركب

وهكذا يتسم فخره بالمبالغة الشديدة ، والغلو الزائد ٠

وفي القصيدة الثانية لا يرهب الدهر مهما ناصبه العداء بل ولا يخاف الموت الزؤام اذا عدا عليه ، بل ان الدهر لو حاول أن يمد له يدا لينال منه لرد اعتداءه باعتداء مثله ٠٠ وهي قصيدة مشهورة منها :

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى
وغير يهـوى أن يكون مخلدا

ولكنني لا أرهب الدهر ان سـطا
ولا احــذر الموت الزؤام اذا عدا

ولو مـد نحوي حادث الدهر طرفه
لحـــدثت نفسي أن أمد له يدا

توقد عزمي يترك المـــاء جمرة
وحلية حلمي تترك السيف مبردا

وفرط احتقاري للأنام لأنني
أرى كل عار من خلا سؤددي سدى

وإظمأ ان أبدى لي المـــاء منة
ولو كان لي نهر المجرة موردا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا ، وهي من أشهر قصائده على الاطلاق ، ولسهولة ألفاظها ، وبعدها عن التوعر كانت من بين المختارات من شعره ، ومن شعر العصر الأيوبي لتلاميذ المدارس ، وقلما خلا منها كتاب يختار من شعر ابن سناء ، وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم ، وما لديهم من طموح كاذب ، ولهذا نرجح أنه نظمها في سن شبابه قبل أن يجابه حقيقة الحياة التي جعلته يتودد الى الملوك والرؤساء ٠

٧ ـ الزهد :

لم يكن ابن سناء من شعراء الزهد والتصوف على الرغم من أن الحياة المصرية في ذلك العصر كانت تدعو الى شيء من الاستسلام للمقادير ، والاتجاه الى الله والزهد في الدنيا ٠ وقد نبغ في الزهد والتصوف شاعران عظيمان هما ابن الفارض ومحيي الدين بن عربي وهما اللذان رفعا علم التصوف فاهتدى به المتصوفون من بعدهما ٠

أما ابن سناء فكان يثوب أحيانا الى رشده ، فتستيقظ أحاسيسه وتصفو نفسه ، فيخاف الله ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ، ويذكر غرورها وباطلها ، فينطلق ذلك في نغم شعري يعبر عن تجربة انسانية صادقة فيقول :

قد كان ما كان من جهلي وطغياني وجاء ما جاء من نسكي وايماني

وسر من بعد غم النفس بي ملكي
واغتم بعد سرور النفس شيطاني

فما المعمم بعد الزهد من أربي
ولا المقنع بعد النسك من شاني

ضحكت فيها واني قد بكيت بها
فالجهل أضحكني والعقل أبكاني

ثم يقول :

اليك عني يا دنيا اليك فلي
في وصل مثلك شأن المبغض الشاني

نسيت الفا بخيلا ليس يذكرني
بذكر رب كريم ليس ينساني

وعفت دنيا تسمي من دناءتها
دنيا والا فما مكروهها الداني

وخفت عصيان من لو شاء أهلكني
واخترت طاعة من لو شاء أنشاني

سلني عن الدهر لا تسأل سواي به
ولا تسلني عن همي وأحزاني

في وحشة القبر والدود المقيم به
شغل لنفسي عن داري وبستاني

أقول داري وجيراني مغالطة
والقبر داري والأموات جيراني

سأوسع القبر بالأعمال أصلحها
جهدي وألبس زهدي قبل أكفاني

وهي قصيدة تقع في واحد وثلاثين بيتا ، وما عداها فمقطعات لا تتجاوز خمسة الأبيات ، يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس ، أو عن الدنيا ودناءتها ، أو عن الآخرة وتفريغ قلبه لها ،

أو عن الزمان وعدم وفائه ، هى خطرات تفد الى نفسه عندما تتشبع من الباطل وتحن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف مؤلمة من الحياة ، فيعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره وأحاسيسه ·

٨ ـ الاعتذار والاستعطاف :

ويلى الزهد فى الديوان ما اشتمل عليه من بعض القصائد والمقطعات فى الاعتذار والاستعطاف ، وعلى الرغم من أنه كتب قصـيدة طويلة الى القـــاضى الفاضل حين غادره وهو مريض فى دمشق والتى مطلعها :

تذكرت أيام الصـــبابة والصـــبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وهى قصيدة تقع فى واحد وخمسين بيتا ، الا أن طابع المدح يغلب عليها · أما ما ورد فى الاعتذار والاستعطاف فقليل نادر ، وأغلبه مقطعات يرق فيهـــا غاية الرقة ، ويبتعد عن الاغراق فى الصنعة ويترك نفسه على سجيتها كاعتذاره لمن عتب عليه فى ترك القيام له فقال :

أمانا فانى من عتـــابك خائف
وعفوا فانى بالجنـــاية عارف

على أن لى عذرا فان كنت منصفا
فكن قابلا أولا فانك خائف

وما كان شغلى عنك الا لأننى
بفكرى على تحبير شكرك عاكف

وان كان جسمى عند لقياك قاعدا
فان فؤادى قبل لقيـــاك واقف

وهكذا نلحظ رقة اللفظ ، وخفة الوزن ، وهدوء النغم ، وبساطة الفكرة ، ولكننا لا نعده من شعراء الاعتذار لقلة قصائدة فيه ٠

٩ ـ الحكمة :

لم ترد الحكمة فى شعر « ابن سناء » غرضا مستقلا ، وانما وردت فى تضاعيف شعره ، ولم يجد دافعا يدفعه الى الغرام بها ، وكان يستمد حكمته من تجاربه ومواقف الحياة ٠ والحكمة ليست الا موقفا من الحياة ينطوى على شحنة عاطفية ، وتجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ومثلها كمثل الأمثال العامية تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئا آخر غير التفكير الفلسفى ، والقضايا العقلية والمنطقية فابن سناء حين يقول فى قصيدته التى رثى فيها جده :

وجنة الخلد بالأعمال تدخلها
لا بالحظوظ كما قالوا ولا القسم

كم قام غيرك للدنيا وقد قعدت
عنه وقامت لك الدنيا ولم تقم

قد عبر فى هذين البيتين عن شعور صادق ، وان بدا فى ظاهره التناقض لأن الصدق والكذب فى مثل هذه الأمور لا يخضع لمبادىء عقلية ، وانما يرجع الى حالات النفس ومشاعرها ، واختلاف مواقفها من الحياة :

وقوله :

ومن صفت منه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فوق اللوح بالقلم

مستمد من مشاعر التصــوف ، وهى مشاعر تمتزج فيهـا العاطفة بالخيال وبالنظريات الفلسفية ، ولا تقف عند حدود النظرة الفلسفية وحدها .

وحظ ابن ســناء من الحــكمة قليل ، وان تعمق فى جزئيات المعانى تعمقا عقليا يستوحيه من التلاعب اللفظى ، ومن منافسه غيره من الشعراء فلسيس على شيء من العمق فى تأمل الحياة والتدبر فى شئون الأحياء ، وقل أن يتجه الى استبطان نفسه أو مراقبة عواطفه، واستخلاص العبر مما يمر تحت سمعه وبصره (١) .

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر : ١٤٨ .

٦
منزلة ابن سناء في موكب الأدب

ظهر « ابن سناء الملك » فى عصر عرف كثيرا من الأدباء ، كتاب وشعراء فى مصر والشام وفى العراق ، فقد عاصر فى مصر المهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، وعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩هـ ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ ، وابن أبى الأصبع العدوانى المتوفى سنة ٦٥٤هـ ، وسيف الدين الياروقى المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

كما ظهر فى الشام فى هذا العصر كثير من الشعراء منهم « ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ ، وبهرام شاه ابن فرخشاه

المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، والشواء الحلبى المتوفى سنة ٦٣٥ هـ ، وأمين الدين الحلبى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، ونور الدين الأسعردى المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، وصدر الدين البصرى المتوفى سنة ٦٥٩هـ ٠

وقد تعددت ألوان الشعراء ومذاهبهم فى هذا العصر فمن شعراء فنيين ، اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على مايدره عليهم من رزق كالقيسرانى ، وابن منير ، والعرقلة ، وابن النبيه الى شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجيش فى أنفسهم لا يريدون على شعرهم مالا ولا جزاء كالشعراء من الملوك والأمراء والوزراء ٠

ومن هؤلاء من ينحدر من العرب الخلص ، ومنهم من ينحدر من الأتراك أو الأكراد أو القبط ٠

وفى وسط هذا السيل الجارف من الشعراء والأدباء لمع « ابن سناء الملك » ٠ ظهر نبوغه وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقد أشار الى ذلك العماد الكاتب فى خريدته ، والقاضى الفاضل فى رسائله التى حواها « فصوص الفصول » (١) ٠ وعده « ابن خلكان » أحد الفضلاء الأدباء ، الرؤساء النبلاء وقالوا عنه : « انه كثير التنعم والتخصص ، وافر السعادة ، محظوظ من الدنيا ، يجتمع فى مجلسه الشعراء المجيدون ، واستحسن من شعره قوله فى مدح القاضى الفاضل :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها
لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

ومن قال ان الخيزرانة قدها
فقولوا له اياك أن يسمع القد

(١) فصوص الفصول : ٥٦ ٠

كما استحسن قوله :

لا الغصن يحـــكيك ولا الجؤذر
حســنك مما كثروا أكثر

يا باســما أبدى لنا ثغره
عقـدا ولكن كله جوهر

قال لى اللاحى ألم تســتمع
فقلت : يا لاحي أما تبصر (١)

وابن سناء واحد من ألمع شعراء العصر ، يرجع فى أصــوله الفنية والمعنوية الى ما رجع اليه الشعراء ، وان كانت له شخصيته وطابعه المستقل ، وقد ظهرت اتجاهاته الفنية فى ديوانه ، كمـا ظهرت فى موشحاته ، فلقد كان حريصا على الجناس اللفظى ، وعلى المقابلة بين المعانى ، والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار ، وتمثل التراث الشـعرى القديم ، من ناحية التشـبيهات والاستعارات ، ومحـاولة الزيادة فيه والاضافة فى الجزئيــات اليه ، ومواصــلة ما اصطلح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ، ومن جعل المحبوب مثلا أعلى فى الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد ، وعزل العازلين ، وعذاب المحب وألمه وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر ووصف لونها ، وحببها وأثرها فى شاربيها ، وما تنطوى عليه من لذة ، ومن الاشارة الى الرياض ، واقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، ولقـد تغزل فى أشعاره وفى موشحاته بالغلمان وبالأتراك منهم خاصة ، كما ظهر فيهما سمات الحضارة وسمات البـداوة فى الحـديث عن المعشوق .

---

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان .

وقد شغف ابن سناء بحسن التعليل وبالمفارقات ، وبايراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ، وقد ظل هذا قائما في الموشحة ولكنه لم يتوسع فيه توسعه في الشعر لأنه شغل نفسه بتلمس القوافي الكثيرة ، ولذلك كان تجديده في المعاني ، وابتكاره فيها أوضح في شعره منه في موشحاته (١) .

وعلى الرغم من تأثر ابن سناء الملك بالقاضي الفاضل لأن كلا منهما أولع بالزينة اللفظية ، وكلاهما أفرط في التلاعب اللفظي وكلاهما بلغت به المبالغة حدا كبيرا حتى قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضي الفاضل ، ولكن الواقع أن ابن سناء كان مثل القاضي الفاضل تماما له ثروة لفظية استطاع بها أن يتلاعب ، وأن يكثر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هي أصل من أصول الفن عند القاضي الفاضل ومما يدل على استقلال شخصيته واعتداده برأيه أنه كان يبدى عجبه بابن المعتز بينما كان أستاذه القاضي الفاضل يعيب شعره ، ويحط من قدره ، وجرت بينهما محاورات في ذلك دافع كل منهما عن وجهة نظره ، ومن ذلك كله نرى أن ابن سناء كان واحدا ممن بلغوا منزلة مرموقة في موكب الأدب العربي في عصره .

بمن تأثر وفيمن أثر :

كان الشعراء الجاهليون يصدرون في شعرهم عن الحياة وما تمليه عليهم من أحداث ، ولم يكن للزاد الثقافي كبير أثر في شعرهم فلما كثر رصيدهم من الشعر ، ويسر تقدم العلم والمعرفة وسائل التسجيل والتدوين ، وأصبح في العصور الأدبية المتعاقبة

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ .

زاد كبير وفيض عظيم من التراث الأدبى لم يقنع الشعراء بما يستمدونه من أحداث الحياة ووقائعها بل اطلعوا على آثار من سبقهم ، فاتخذوا منه مددا وعونا ، وتأثروا به تأثرا متفاوتا ، فابن سناء شاعر من أولئك الذين اغترفوا من الثقافة العربية ، ولم يدعنا نستنبط ذلك بأنفسنا بل دلنا على بعض من جعلهم رمزا للتفوق الأدبى ، والتمس من أدبهم فى أفكاره ومعانيه ، وبديعياته ما يعزز اتجاهه الأدبى ، فهو يبدى تعجبه بابن المعتز ، وتأثره العميق به ، فحين اعترض القاضى الفاضل على استعماله « يعزل بيت الوجه منه ويكنس » فى قوله :

صلينى وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

حين كتب اليه يقول : « .... وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ، فأجاب ابن سناء : « وعلم المملوك مانبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وهو : « صلينى وهذا الحسن باق .. البيت » .

وقد كان مشغوفا بهذا البيت مستحليا له متعجبا منه ، معتقدا أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته المشهورة :

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ،ولا مال المملوك الا الى طريق من مال اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من دله عليه سمعه » .

ومن نافلة القول أن نقرر تأثره بالقاضى الفاضل ، فقد كان القاضى الفاضل له معلما وأستاذا ينقد شعره ويرسم له الطريق ويأخذ بيده اليه ، وكان دائم التشجيع والمساعدة له ، وكتاب « فصوص الفصول » يحوى عديدا من الرسائل بين القاضى الفاضل وبين ابن سناء أو أبيه ، وجلها فى تقريظ قصيدة أو نقد فكرة آمن بها ابن سناء ، أو فى توجيه أو ارشاد ...

كما تأثر ابن سناء بكثير من الشعراء الذين قرأ قصائدهم واطلع على أدبهم ، ومن هؤلاء امرؤ القيس ، ومهيار الديلمى ، وجرير، والشريف الرضي والمتنبى، وأبو العلاء المعرى، وأبو العتاهية، كما أعجب بالبحترى وعاب أبا تمام ، وانعكس ذلك كله على شعره ، فعندما مدح القاضى الفاضل قال فى مقدمته الغزلية :

سحبت ذيل دموعى اثره وغدا
سواى يسحب أذيالا على الأثر

ألا تجد أنك أمام تلك الصورة التى أتى بها امرؤ القيس تماما فى قوله :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل

فالصورة واحدة وان اختلفت العبارة .

وقد ظهر تأثره بقصيدة « مهيار الديلمى » التى يمدح فيها أبا القاسم فى يوم المهرجان ، والتى مطلعها :

ما كان سهما غار بل ظبى سنح ان لم يكن قتل الفؤاد وما جرح

فعندما مدح « ابن سناء » القاضى الفاضل وهنأه بالقدوم من السفر قال :

يا قلب ويحك ان ظبيك قد سنح
فتنح جهدك عن مراتعه تنح

وكانت العرب تتفاءل بالطير السانح الذى يتجه صوب اليمين وتتشاءم بالبارح الذى يتجه صوب الشمال ، وفى المثل : « من لى بالسانح بعد البارح » ، وقد جرى فى هـذه القصـيدة على نهج قصيدة مهيار .

كما تأثر بجرير فى غزله ، فاختار بعض أفكاره التى أعجب بها وأخرجها اخراجا جديدا ، فقوله :

دع قضب نعمان أو كثبان يبرين
ما قلب القلب الا أعين العين

وقد تعشـق قلبى من بنظـرته
يميتنى وبأخـرى منه يحيينى

مأخوذ من قول جرير الذى عده ابن رشيق فى عمدته ، أغزل بيت قالته العرب :

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

غير أن ابن سناء قد أخذ المعنى وزاد عليه فجعل نظرة المحبوب تحيى وتميت بينما جعلها جرير تميت فقط .

وقد عارض قصيدة الشريف الرضى التى مطلعها :

يا ظبية البان ترعى فى خمائلها

ليهنك اليوم أن القلب مرعـــاك

فقال فى قصيدته التى مطلعها :

يا منية القلب لولا أن يقال سلا

لقلت ماكنت أعصى العذل لولاك

ولم يكتف بالمعارضة فى الوزن والقافية ولكنه أخذ كثيرا من معانى القصيدة ، فقوله :

رميت من مصر قلبا بالشآم فما

أسراك سهما الى أحشاء أسراك

هو مأخوذ من قول الشريف الرضى :

سهم أصاب وراميه بذى سلم

من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وقرأ ابن ســـناء لأبى العلاء المعرى ، وتأثر ببعض معـانيه فقال يذم الشمس :

أنت عجوز لم تبرجت لى

وقد بدا منك لعاب يسيل

وقد أخذ هذا المعنى من أبى العلاء فى قوله :

وفضل الشمس فى الأيام باق

وان مدت من الكبر اللعابا

وان قلب ابن سناء المعنى وعكسه ٠

وقد انعكست عليه نفسية المتنبى فى طموحها وغرورها وكبريائها فقال مفتخرا :

تملكت در القول منتخبا له
فأدنى الذى أدنى وأقصى الذى أقصى

وهو شبيه بما قاله المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

وقوله : —

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا (١)

وتأثر بأبى العتاهية فى قوله : —

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها (٢)

فأخذ ابن سناء هذا المعنى وقال : —

زهت الوزارة باسمه وتوشحت
منه بمن لبس الفضائل واتشح

جاءته خاطبة فكان المصطفى
وسعى سواه لها فكان المطرح

---

(١) ديوان المتنبى : ٢٨١ ٠

(٢) ديوان أبى العتاهية :

والحق أن ابن سناء قد أعجب بالأدب العباسي ، واغترف منه ولكنه اصطفى من أدبائه ابن المعتز فعده أستاذا ومعلما تتلمذ على يديه كما ازداد اعجابه بالبحتري ، وعاب أبا تمام .

وظهر كثير من الشبه بين شعر ابن سناء ، وشعر شمس المعالي (١) وأسامة بن منقذ مما يؤكد اطلاع ابن سناء على قصائدهما، وتأثره بهما ، ومما نجده من تشابه واضح في الاصول الفنية بينه وبينهما قول شمس المعالي حين سمع أن مصر سوف تخضع للخليفة العباسي وينتهي فيها حكم الفاطميين : —

ليهنك يا مولاي فتحا تتابعت
اليك به حوص الركائب توجف

أخذت به مصرا وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف

وقد دنست منها المقابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف

فطهرها من كل شرك وبدعة
أغر غرير بالمكارم يشغف

فعادت بحمد الله باسم امامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف

ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت الى عليائه تتشوف

---

(١) وهو شمس المعالي أبو الفضائل الحسين بن محمد ابن تركان كان صاحب أبي هبيرة .

تملكها من قبضة الكفر يوســـف

وخلصها من عصبة الرفض يوسف

يريد بيوسف الأول « يوسف الصديق » عليه الســـلام وبيوسف الثاني « المستنجد بالله » الخليفة يومئذ . وقاله على سبيل الفأل . ألا تراه قال بعد هذا البيت : ـ

فشابهتـــه خلقا وخلقـــا وعفـة

وكل على الرحمن فى الأرض يخلف (١)

وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر « صلاح الدين » يوسف ابن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس وجاء « ابن سناء الملك » فمدح صلاح الدين وتأثر بهذه القصيدة وبهذا المعنى حين قال : ـ

أعدت الى مصر سياسة يوســـف

وجددت فيهـــا من سميك موسما

وأحييت فيهـــا الدين بعد ممـــاته

فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريمـا

وحين تقرأ مدائح أسامة بن منقذ (٢) (٤٨٨ ـ ٥٤٨) هـ تحس كأنك تقرأ ديوان ابن سناء ، فالأفكار والمعاني والمبالغات التى طبعت عمود الشعر فى هذه الفترة واحدة عند الاثنين ، فحين يمدح « أسامة بن منقذ » « طلائع بن رزيك » : يجعل له الفضل من دون الناس جميعا فهو أكرم من حاتم ، وهو قد تكفل للاسلام بمنع حماه

(١) الروضتين : ١٦٧ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (خط بدار الكتب المصرية) .

وهو هادم ما بناه الكفار ، وعزمه القوى يحمى سرحة الاسلام وهو قد أيد الاسلام بعدله ، وببذله وبتقواه ، وهـــذه المعانى شــاعت فى مدائح ابن سناء • استمع الى أسامة يقول :

لك الفضل من دون الورى والأكارم
فمن حاتم ما نال ذا الفخر حـــــاتم

ومنهـــا :

تـــكفلت للاســــلام أنك مــــانع
حمــــاه مبيح ما حمى الكفر هادم

فأصــــبحت ترعى سرحــه بصريمــة
من العزم لم تبلغ مداهـــــا العزائم

وأيدته بالعــدل والبــــذل والتقى
وضرب الطــلا والصالحات دعــــائم

رميت العـــدا بالأســد فى أجم القنا
على الجرد تقتـــاد الردى وهو راغم

تسير جيوش الطير فوق جيوشـــها
لهـــا كل يوم من عــــداه ولائم

فان خفض الفرسان للطعن فى الوغى
رماحهم انقضــت عليهـــا القشاعم

تعرض منهـــا فوق غزة عــــارض
ســحاب المنــــايا فوقه متراكم

ثم استمع الى ما قاله ابن ســـناء فى مدح الملك النـــاصر « صلاح الدين » :

لقد نصر الاسلام منهم بنـــاصر
يرى مغنما في الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنـــده
فلولاهم ما كان بيتـــا محرمـا

ومنها قوله : ــ

اذا ما صلاح الدين سار بجيشـــه
فليس الحمى ان أمــه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واســتلت الظبى
بآفاقه حتى أضـــاء وأظلمـــا
طليعته الوحش الضـــوارى مشيحة
وساقته الطـــير الجوانح حومــا
يقول الذى يلقـــاه كم فيه فارسـا
فيخبره المهـــزوم كم فيـــه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمى مقنعـــا
بفرحـــة من يلقى الحبيب معممـــا

فما أشد الشبه بين الاتجاهين .

تأثير ابن سناء فيمن بعده من الشعراء :

وكما تأثر ابن سناء بمن سبقه من الشعراء نجد أثره كذلك واضحاً فيمن أتى بعده من الشعراء بل وفيمن عاصره ولعـل ذلك يرجع الى المنزلة الأدبية والاجتماعية التى حظى بها أكثر من غيره

وكذلك للصلة العميقة القوية بينه وبين القاضى الفاضل ، والتى كانت سببا فى ذيوع قصائده وانتشارها ، فقد حدثنا القاضى الفاضل أنه كان اذا وصلته قصيدة من « ابن سناء الملك » جمع شعراء الشام وقرأ عليهم تلك القصيدة ، فاذا أبدوا تعجبهم أخبرهم أنه مما يزيد فى العجب والدهشة أن الشاعر حدث السن ، قد ظهر أثر شعره فى البهاء « زهير » (١) الذى اتخذ المنهج التقليدى فى المدح ذلك الذى سار عليه معظم الشعراء الايوبيين ، وظهر واضحا فى شعر « ابن سناء » فقد مدح البهاء زهير « ابن اللمطى » والملك العادل ، والملك الكامل ، ففى مدح الملك الكامل يقول : ـ

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر

ومن أجله أضحى المقطم شامخا
ينافس حتى « طور سيناء » فى القدر

تدين له الأملاك بالكره والرضى
وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر

فيا ملكا سامى الملائك رفعة
من الملأ الأعلى له أطيب الذكر

يهنيك ما أعطاك ربك انه
مواقف هن الغر فى موقف الحشر

به ارتجعت دمياط قهرا من العدا
وطهرها بالسيف والملة الطهر

---

(١) بهاء الدين زهير بن محمد على ينتهى الى المهلب بن أبى صفره (٥٨١ ـ ٦٥٦) هـ راجع تاريخ ابن الوردى جـ ٢ : ٢١٩٩ البهاء زهير : أحمد الشايب : ٧٢ .

ورد على المحراب منهـــا صـــــلاته
وكم بات مشتاقا الى الشـفع والوتر

فـــلازلت حتى أيـد الله حـــزبه
وأشرق وجه الأرض جـذلان بالنصر

كذلك كانت مدائحه فى الأمير « جلدك » والملك المســـعود صـــلاح الدين والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل . ولا شك أنه قرأ مدائح « ابن سناء الملك » وتأثر بها ، وانك لتجد الشبه واضحا فى المعانى والصور والأساليب اذا ما تصفحت مدائح ابن سناء فى مدح الملك الناصر صلاح الدين اقرأ قوله : —

تخر له الأمـلاك ذلا وانمـــــا
تعـــز اذا خرت لديه من الذل

أليس هو ما قاله البهاء زهير :

تدين له الأفلاك بالـكره والرضى
وتخـدمه الأفلاك فى النهى والأمر

وقوله : —

أبدت النصارى واليهـــود بمعرك
وما جاء هذا قط فى سالف النقل

وكانت بهم تلك البلاد تنجســـت
فناب دم منهم عن الماء فى الغسل

تكبر فيها الله فى الجـــامع الذى
جمعت به بين الفريضـــة والنفل

وصليت فيهـــا جمعة بجمـــاعة
تناديك للاسلام يا جامع الشمل

واذا قرأت قول ابن سناء فى مدح الملك الناصر فى قصيدته الميمية التى مطلعها : ـ

أرى كل شيء فى البسيطة قد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

ومنهـــا : ـ

يذب عن البيت المحرم جنـــده
فلولاهم ما كان بيتـــا محرمـا

ومنهـــا : ـ

أعدت الى مصر سياسة يوســـف
وجددت فيهـا من سميك موسما

فاذا قرأت قول ابن سناء هذا ثم قرأت مدائح البهاء زهير تجد أنه متأثر حتما بهذه المدائح دون أدنى شك لأنه يسير على المنهج نفسه الذى سار عليه ابن سناء ٠

علم الدين أيدمر المحيوى (١) ٠

ومن يقرأ مختار ديوان « علم الدين أيدمر » يجد شـــبها واضحا بين مدائحه ومدائح ابن سناء ، فالمنهج الذى سار عليـــه الشعراء فى هذا العصر من تمجيد الكرم والكياسة ، وبعد النظر والسياسة والشجاعة ، واحتمال الأحداث بجلد وثبات من غير هلع ولا يأس يتفق مع اتجاهات ابن سناء ٠٠ ففى قصيدته التى يمدح فيها الصالح أيوب ويهنؤه بفتح دمشق والتى مطلعها : ـ

---

(١) هو عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد الذى كان وزير الجزيرة عاصر ابن سناء ، ومختار ديوانه طبعته دار الكتب ١٣٥٠ هـ راجـــع ترجمته فى الحياة الادبية : ٢١٢ ٠

نصرت بالرعب قبل البيض والأسل

ولطف صنع كصنع الله والرســـل

نجد أن معاني هذه القصيدة قد كررها كثيرا ابن سناء وتأثر بها هذا الشاعر وغيره من الشعراء . وحقا لم يكن ابن سناء وحده هو الذى أثر فى اتجاه هؤلاء الشعراء بل كل ما نؤكده أن الاتجاه الفنى الذى ظهر فى شعر ابن سناء الملك بل والشعراء الأيوبيين يكاد يكون واحدا ، وأن شعر ابن سناء ذا أثر واضح فى شعرهم ، ولكنه لم ينفرد بهذا التأثير لأن الطابع الذى ظهر فى شعره برز كذلك فى شعر الايوبيين بصفة عامة ، وبخاصة فى المدائح . والفروق بين اتجاهات هؤلاء الشعراء لا تكاد تحس .

العماد الأصفهانى وابن الساعاتى :

والعماد الأصفهانى وابن الساعاتى كل منهما عاصر ابن سناء وقد كان أولهما كاتبا فى ديوان الانشاد لنورالدين محمـــود ، ثم شاعرا بارزا من الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين حين آل اليه أمر الشام بعد نور الدين ، وقد سبق ابن سناء فى شهرته كأديب وشاعر لأنه سبقه فى الزمن اذ ولد فى ٥١٩ هـ وبقى حتى عـــام ٥٩٧ هـ ، ولكن القارىء لقصائده يجد التشابه القوى فى المعانى والأساليب والطريقة التقليدية التى سار عليها كل منهما فى المدح فقصيدته فى مدح نور الدين والتى منها : ـ

عقـدت بنصرك راية الايمــــان

وبدت لعصرك آية الاحســــان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد

الليـــوث وفارس الفرســـان

شديدة الشبه فى ألفاظها ومعانيها بشعر ابن سناء الملك ، فلا شك أن ابن سناء قد اطلع على هذا الشعر ، وتأثر به ، وكان العماد الأصفهانى يقرأ قصائد ابن سناء وهو فى الشام فيعجب بها ، ويزيد عجبه حين يعلم حداثة سنه ٠

أما ابن الساعاتى (١)

فقد تأثر بابن سناء كما تأثر به ابن سناء ، وانك تلمح ذلك واضحا من اطلاعك على ديوان كل منهما ، فالصنعة البديعية لفظية ومعنوية ، وغرام ابن الساعاتى بالتشبيه والاستعارة ، والتجنيس والطباق يشير الى هذا التأثير المتبادل بينهمـــا ، اقرأ ما قاله ابن الساعاتى فى فتح طبرية يمدح « صلاح الدين » :

أدرت على الفرنج وقـد تلاقت — جموعهم عليك رحى طحــونا
ففى بيسان ذاقوا منك بؤسا — وفى صفد أتوك مصفدينـــا
لقد جاءتهم الأحداث جمعـــا — كأن حروفها كانت كمينـــا
وخانهم الزمان ولا ســــلام — فلست بمبغض زمنا خئــونا
لقـــــد جردت عزما ناصريا — يحدث عن ســـناه طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقــا — له هوت الكواكب ساجدينـــا
لقد أتعبت من طلب المعــــالى — وحاول أن يسـوس المسلمينا
وان تك آخـــرا وخـلاك ذم — فان محمـــدا فى الآخرينـــا

فالتجانس بين صفد ومصفدينا ، والمشابهة بين يوســـــف الصديق ، ويوسف « صلاح الدين » والمعانى التى أوردها كل ذلك يشهد بالتشابه الواضح بين الشاعرين ٠

(١) هو على بن رستم بن هردوز خرسانى الاصل ولد سنة ٥٥٣ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٤ هـ راجع ديوانه ، الاعلام جـ ٢ : ٦٧١ ٠

آراء النقاد فى شعره :

لقد حظى أدب ابن سناء بدراسة مستفيضة فى عصره فلم يكد يلتقى بالقصيدة حتى يجتمع حولها النقاد والادباء ، فهذا مادح وذاك قادح ، ذلك يعنى باستخراج جيدها ويتغاضى عما فيها من ضعف أو اسفاف بل وربما التمس لهذا الضعف أو ذاك الاسفاف وجها من الحسن أو ناحية من الجمال ، وذاك همه أن يتصيد مرذولها وقبيحها ، وغايته أن يبرز نواحى الضعف فيها ٠٠ وهكذا كان شأن النقاد والدارسين الذين عكفوا على دراسة شعر ابن سناء يدفعهم النقد الذاتى أكثر مما يحركهم الموضوع ، ولعل اهتمام الدارسين بأدبه يرجع الى قربه من القاضى الفاضل من ناحية والى منزلته الاجتماعية التى كان يتمتع بها من ناحية أخرى ٠ وقد حظى ابن سناء بتشجيع القاضى الفاضل واذاعة شعره ٠ كما يحس المتصفح لخزانة الأدب لابن حجة الحموى أنه من الذين يتعصبون لأدبه ويدافعون عنه ، ويرون له منزلة سامية فى الأدب تفوق منزلة كثير من أبناء عصره فلنستمع لآرائهم :

راى القاضى الفاضل :

يرى القاضى الفاضل أن ابن سناء له فى قصائده آيات محكمات ، وفرائد فاقت المعلقات ، وكتاب فصوص الفصول شاهد على ما نقول ، فقد كتب القاضى الفاضل على أثر القصيدة الفائية التى مطلعها : ـ

نظر الحبيب الى من طرف خفى
فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

قوله : « وما يريناً من آية الا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا الا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يجمع الحسن

والبخت ولهذا قيل ، وقد تمنى المليحة بالطلاق ، وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق ، وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها وفضلتها هذه بجودتها وجدتها ، ثم يقول : « ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه وما أنصرف عن بيت أشهد له بالسبق الا استأنفت بيتا أشهد بأنه الأحق ، وكل يدلى الى القلب بحجة ، ويفد اليه بمقتضى لذة ومستطرف بهجة ... »

ولما كتب ابن سناء قصيدته : —

تذكرت أيام الصبابة والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وجرى فيها على نهج قصيدة البحترى التى مطلعها : —

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا
خيال اذا آب الصباح تأوبا

وكان يعتذر فى قصيدته للقاضى الفاضل من تركه اياه فى حالة مرضه ومفارقته وهو فى دمشق أشد ما يكون احتياجا اليه ... فكتب اليه القاضى الفاضل ردا على هذه القصيدة : « .... كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى ، فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد فقد منه ما فقد .... ووددت لو كان البحترى حيا فكنا نلسعهمن تلك القصيدة بحيه ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ، وتستتر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب ، وأيهما أحق بملك

القلوب ، ولا شك أن الغالبة هى زينب الغالب وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب (١) » .

وكان القاضى الفاضل كما ذكرت يذيع قصائده ، وينشر محاسنه ، وقد حفظ « فصوص الفصول » رسالة من القاضى الفاضل تنبىء عن ذلك فقال :

« ... وقد علم الله ابتهاجى أن أنشأ الزمان مثله ، وتصورى الغاية التى يخرج اليها فضله ، وتهادى الشام وشعراء الوقت هذه القصيدة العينية ، واشتدت بها الأعين ، وأثنت عليها الألسن فاستغربوا الحسن قبل أن ذكرت السن ، فلما ذكرته فمنهم من عرفنى فى لحن القول السعيد ، وأبرع من خطابه ، وأحسن من صوابه ، فانه كتاب يغنى الكتب والأقلام أوصافا ، ويشتمل على جواهر حق لخواطرها أن تسمى بحارا ، ولقراطيسها أن تسمى أصدافا ، عين الله على ذلك الكمال ، ولله در تلك الأنفاس التى تستخف عقول الرجال بل عقود الجبال ، وقد ألان الله له ما ألان لنبيه عليه السلام من الحديد الذى له بأس شديد ، وأجرى على قلمه ما أجرى على النضار الذى فيه غنى عتيد ، وما وقفت على جديد من قوله الا انصرف قلبى عن الخليع ، ويفعل بالأعطاف مايفعل بالغصن الرطيب الريح الخريع ، ولقد أبقى للآباء فى الآثار ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلدات ، نأرهفها مجردات ، وأثارها أوابد فنظمها قلائد ، فسار بها من لا يسير مشمرا وغنى بها من لا يغنى مغردا » (٢) .

ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته النونية التى مطلعها :

---

(١) فصوص الفصول .

(٢) فصوص الفصول : تحت عنوان : « فصل من كتاب الى أبى بخط ابن الحصين » .

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى
ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنـــا

فلما وصلت هذه القصيدة القاضى الفاضل وهو بالشام كتب اليه :

« وصلنى من القاضى السعيد قصيدة من نظمه ، وما أعرف كفئا لها بفنه ، وقد حضر جمـــاعة فرأى منهم ما أهمه وغمــه ، وتحققوا أن البيان قد عصاهم وأطاعــــه ، لزيادته فيه تنبيه عن الشاعرين القاصرين عن أمده ، ووددت لو سمعاها ليعرف كل منهما أن يومه قد نسخ بعده ، والذى ذكره فى القافية وأنها مباعدة غير مساعدة وجامحة غير جانحة ، وبارزة غير واقدة ، صحيح لا يعلمه الا من ركبها فركلته ، وطالبها فأجلته ، وبالجملة ان محاسنه لا أقيس بها محاسن بليغ لأن البليغ له نادرة لا يلحقها لاحق ، كما لايسبقه أبدا سابق ، ومن السعادة أن المثنى عليه بالفضل صادق » (١) .

ومن هذا العرض لرأى القاضى الفاضل نرى أنه لا يقوم على على التحليل والتعليل ، وبيـــان أوجه الحسن ، واقامة الدليل ، وانما يقــوم نقــده على الذوق ، والمحب لا يرى الا بعين الحسن ، ويغتفر كل ما هو قبيح ، وان كان القاضى الفاضل قد وجه ابن سناء أحيانا ، وقام بينهما جدل وحجاج ، وقد سبق أن تحدثت عن عدم استحسانه استعمال الشاعر كلمتى « يعزل ويكنس » فى قوله :

صلينى وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

---

(١) فصوص الفصول : ٧٤ ، ٧٥ .

فقد قال :

« وبيت « يعزل ويكنس » أردت أن أكنسه من القصيدة ، فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ، وقـد سبقت الاشارة الى ذلك .

رأى ابن حجه الحموى :

وكثيرا ما استحسن ابن حجة شعر ابن سناء ، ورأى أن النقاد والشعراء الذين نقدوه ، وحاولوا أن ينالوا منه اما حاسدون، واما متجنون ، وان ابن سناء سابق وهم لاحقون .

لما قال ابن سناء قصيدته التى مطلعها :

تقنعت لـكن بالحبيب المعمم
وفارقت لكن كل عيش مـذمم

وباتت يدى فى طاعة الحب والهوى
وشاحا لخصر أو سـوارا لمعصم

علق ابن حجة فى خزانته بقوله على البيت الثانى بقوله :

« هذا هو التشبيب ، ومخلصه من أحسن المخالص ، وقال.. لقد أحرز القاضى السعيد قصـبات السبق برقة هـذه الألفاظ ، وغرابة هذه المعـانى ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الأفهام ، وأظنه من المخترعات » (١) .

وكان ابن سناء قد تعرض لعاصفة من النقد الشديد عندما قال هذه القصيدة فى مدح « شمس الدولة تورانشاه » ، وهجنوا

---

(١) خزانة الادب : ١٥٥ .

هذا الافتتـــاح فعابوا التقنع بالحبيب ، وقالوا كيف يكون الحبيب قناعا حتى يتقنع به ؟ ورد على هذا النقد جماعة آخرون وعدوا هذا النقد من قبيل التحامل والحسد ، فالتقنع فى رأيهم من القناعة أى الاكتفاء ، وقد رشح لذلك بالمعمم ، وفى قوله : « الحبيب المعمم » اشارة الى قول أبى الطيب فى قصيدته التى بدأها بقوله :

فراق ومن فارقت غير مذمم　　　وأم ومن يممت غير ميمم

والبيت المشار اليه هو قوله : ـ

ولـــو أن مـــا بى من حبيب مقنـــع
عـذرت ولـكن من حبيب معـــمم

وقد شبب فى هـذه القصيدة بأمرد ، ولعـل السبب فى تعصب الشعراء على ابن سناء تلك التورية فى التقنع كما يتضح ذلك من هذين البيتين لابن المنجم حين أجاب الوجيه الذروى : ـ

ذرويـنـــا قتلته قـــلة عقـــله
فى نصـــر بيت شـــائع عن ضـــفدع
شىء من الشـــعر الركيـــك رويتـــه
لمخنثـــين معصــــب ومقنــــع

وليس السبب هو غرابة اســتعمال حرف الاســتدراك كما صرح بذلك Das nuwawabr هورتمان فى كتابه Hortman

ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته التى مطلعها : ـ

أبى صدهـــا أن يجمع الحســـن والحسنى
ووجدى بهـــا أن أجمـــع الجفن والجفنـــا

قال فى مقدمتها الغزلية : »

« تغنى عليهـا حليهـا طـربا بهـا
وفاحت فقلنـا هـذه الروضـة الغنا »

فقال « ابن حجة الحموى » فى كتابه خزانة الأدب » حين وصف « نوع التهذيب والتأديب » : « ان هذا النوع ليس له شاهد يخصه لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن ترداد النظر فى الكلام بعد عمله ، والشروع فى تهذيبه وتنقيحه ، ثم قال « رأيت العلامة زكى الدين بن أبى الاصبع ، قد استحسن من الشواهد اللائقة بهذا النوع قول القاضى السعيد ابن سناء الملك هذا البيت « تغنى عليها حليها طربا بها ... الخ . وقال وقوله الصحيح :

« لو لم تقدم فى صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء ، حصل بها فى البيت من الرونق ما لا يحسن بدونها ، وكان البيت خاليا من التهذيب فبوجودها حصل فى بيته تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب ، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف، وقلق القافية ، وبذلك تقدم التهذيب ، فانه لو قال : « زهت بأزاهير الجمال وحسنه » لظهر قلق القافية . وتمكين تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : « تغنى ... » (١)

وعلق ابن حجة على قصيدته :»

سـواى يخاف الدهـر أو يرهب الردى
وغـيرى يهـوى أن يعيش مخـلدا

قائلا : وممن افتتن فى قصيدة كاملة ، وتفنن ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر ، الى رقة الغزل وأحسن ، القاضى السعيد

---

(١) خزانة الادب : ، بديع القرآن لابن أبى الاصبع تحقيق حفنى شرف : ١٥٨ .

ابن سناء الملك رحمه الله ، فانه قسم القصيدة شـطرين وتلاعب في ميدان البلاغة بالفنين ، وهذه القصيدة تقف دونها فرسـان الخماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، وينثنى من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها ، وممن حذا هـذا الحذو ونسج على هذا المنوال ، ومشى على طريق ما سلكها أحـد قبـله الصاحب « بهاء الدين زهير » ـ ثم ذكر ابن حجة قصيدة زهير ـ قال أو قد اشتهرت قصيدة ابن سناء هذه بين الشعراء والنقاد حتى قال ياقوت الحموى فى كتابه ارشـاد الأريب (١) : « ومن شعره الذى سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية : ـ

سـواى يهـاب الموت أو يرهب الردى
وغـيرى يهـوى أن يكون مخـلدا

والقصيدة طويلة كل بيت منها غريدة فى عقد ، وشعره كثير وأكثره جيد (٢) » .

ويحلو لنا أن نصحب القارىء الى تلك المعارك الأدبية الحامية التى اندلعت حـول أدب ابن سـناء الملك بين القادحين والمادحين والمؤيدين والمعارضين :

المعركة الأولى بين النقاد :

قال ابن سناء فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس ، البيت رقم ٨ :

بشـوك القنا يحمون شـهد رضا بها
ولابد دون الشهد من ابر النحل

---

(١) ارشاد الاريب جـ ٧ : ٢٣٧ .
(٢) خزانة الادب : ص ٦٣ .

ذكر الصــفدى فى شرحه على لاميــة العجم أن شرف الدين ابن جبارة أورد ما أورد على بعض الأبيــات من هذه القصــيدة من فساد المعنى ونقضــه ، ثم قال فى هــذا البيت : أراد أن يمدحهم فهجاهم بهذا المثل الذى جعله ككفن الميت ، لأنه جعل طعن زماحهم كابر النحل ، وابرة النحل لا أثر لها ، ولا ألم يحصل منها ، ولو أن كل عاشق انما يمنعه من معشوقه ، ويحجزه عنه لسع الزنابير ولدغها لسهل عليــه صعبها ، وذل له منعها ، ولله در المجنــون اذ يقول : ــ

وحقــكم لا زرتــكم فى دجنة   من الليل تخفينى كأنى سارق
ولا زرت الا والسيوف هواتف   الى وأطــراف الرماح عواشــق

ولأبى عبد الله عثمان المعروف بابن الحداد الأندلسى : ــ

انــى أراع لهــم وبين جوانحــى
شــوق يهــون خطبهــم فيهــون
أوهــل يهاب ضــرابهم وطعانهــم
صــيب بألحاظ العيــون طعــين
وكأنمــا بيــض الصــفاح جــداول
وكأنمــا ســمر الرمــاح غصــون

ثم ذكر أشــياء غير ذلك وقال : لولا وقوع هذا الشــاعر فى شعره ، وقلة معرفته ، وقصور فكره ، لما قال : « بشوك القنــا يحمون شهد رضابها » وكيف يحمى الشهد بالشوك ، ولو اتفق له أن يقول : « جنى رضابها لكان أسوغ وأبلغ ثم قال فى أول البيت « شهد » وفى آخره « شهد » وانما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ لأنه اذا كرر بلفظه فكأنه هو وانما القصــد أن يكشف

المعنى بلفظ موجز وقول مجموع معجز ، واذا تؤمل أكثر الشعر المضمن للأمثال وجد على هذا المثال ، وهذه العلوم تدق عن فهمه، ويخفي غرضها عن مرمى سهمه » انتهى .

ثم قال الصفدى : « أما كونه يدعى أنه لا ألم في ابر النحل، ولا ضرر في الزنابير فهذا مما لا يسمع وهو تحامل أليس فى ابر النحل والزنابير سما يمنع القرب منه والدنو اليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، ومن مسائل النجاة : « كنت أظن العقرب أشد لسعا من الزنبور فاذا هو هى أو فاذا هو اياها ، ولعل بعض الناس لسعه زنبور فتورم منه ومات وبالجملة ففى ابر النحل سم تعاف النفوس الاقدام عليه ، وهو ما أراد أن طعن قومها مثل لسع ابر النحل كما قال المعرى : —

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسمهرية دون الوخز بالابر

لأنه ما أتى بمثل ولا بكاف التشبيه بل نبه بالمثل الذى ذكره على أن حلاوة ريقها لا تنال الا بعد مشقة وعناء وأهوال ، كما أن الشهد من دونه ابر النحل ، وكل لذيذ محفوف بالألم ، فالجنة حفت بالمكاره ، وهذا غير وارد عليه . واما انكاره شوك القنا فهو استعارة حسنة ، والتشبيه مطابق لأن الأسنة أشكال مستدقة ملسنة حادة، كما هو الشوك ، وأتى بها ليطابق الكلام المثل فى قوله

« ولا بد دون الشهد من ابر النحل » فقوله «شوك»يناسب ابر النحل وقد شبه الشعراء القنا بالشوك قال الأرجانى :

ورد الخدود ودونه شوك القنا
فمن المحدث نفسه أن يجتنى

وقال ابن خفاجة : ـ

والخيـــل تعثر فى شـــبا شـــوك القنا
وتظل تســـبح فى الـــدم المـــوار

وما أعجبنى شيء مما أورده عليه غير انكاره تكرار الشهد ، وكان الأحسن لو قال :

« بشـــوك القنا يحمون رشف رضابها »

وأما المصراع الأخير من كلام المتبنى حين خاطب العــاذلة فى قصيدته : ـ

تريدين لقيان المعالى رخيصـــة
ولا بد دون الشـــهد من ابر النحــل

فيقول : لا يمكن حصـــول المعالى رخيصـــة ،ومن أراد جنى الشهد فعليه أن يقاسى لســـع النحل ، فلا تحصل حلاوة الشـــهد الا بعد مقاساة اللسع (١) .

معركة ثانية :

وقال ابن سناء فى قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين بعد فتحه « نابلس » : ـ

لهـــا ناظر يا حـــيرة الظبى اذ رنا
به كحـــل ناداه يا خجـــلة الكحل

---

(١) الغيث الجزء الاول ص ٢٢٤ .

وقد عاب هذا البيت ابن جبارة من ناحيتين. الاولى : انه قال « يا حيرة الظبى » ولم يحار مع وجود المقاربة ، وعدم المباينة كما أنه جعل العلة فى حيرته ، وجود الكحل .. ان هذه قريحة وفكرة غير صحيحة .. وهذا ان سلم له فهناك مأخذ آخر وهو أنه استعمل « اذ » شرطيه تدل على الجزاء وليست هى من حروف الشرط والجزاء، وهل ينبغى أن يقول قائل « اذ يقوم زيد قام عمرو » ، ويريد بذلك التعليق . والظاهر أنه أراد أن يقلد المتبنى فى قوله :

« وليس التكحل فى العينين كالكحل » فأخفق .

وقال ابن سناء بعد هذا البيت : —

« وأثقلها الحسن الذى قد تكاثرت
ملاحته حتى تثنت من الثقل

فقال ابن جبارة : هذا قلب للمعنى ، وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شخص فيستحسن به ، والملاحة وهى وان كانت البياض فى الأصل فهى فى الاستعمال صفة صورة الذات من الحاجب والعين والأنف والفم ، ولهذا يقال فى العرف : مليح حسن يعنى أن الذات مكملة بالملاحة فى صورة مستحسنة عند تأملها لبلوغ الأمل ثم قال ولا ينبغى أن يقال : « هو حسن مليح » لأنه يجعل الوصف الذاتى تبعا لغيره ، وكان الصواب أن يقول: « أثقلتها الملاحة التى تكاثر حسنها ، ولكنه قال : « حتى تثنت من الثقل » لو رفع الثقل لكان أليق بالبيت وبصنعه فلا يقال له : « أهويت ولا أوهيت » وهل يتثنى الانسان من الثقل وانما يمشى قطعة واحدة فى حال الثقل . ثم قال وقد وكلت شرح هذا البيت لعجزى عن معناه الى عريف الحمالين فعساه أن يعرف معناه ، ولقد أحسن الأعشى حيث يقول : —

كأن مشـــيتها من بيت جارتها
مر الســـحابة لا ريث ولا عجـــل

وقال بشار : ــ

اذا قامت لحـــاجتهـــا تثنت
كـأن عظامهـــــا من خيزران

ثم قال الصفدى : « هذا لعمرى نقد حسن ، وسبيل ألقى عليـه العنان والرسن ، ولو كان لى فى البيت الأول حـكم لقلت : « لها ناظر يا حيرة الظبى عنده » وخلصت من « اذ » وعدم وضعها للمجازاة ، وأما قوله : « وأثقلها الحسن » فابن جبارة معذور فيه لأن حسنا يثقل صاحبه سمج بارد غث لأن الحسن انما يفيد الخفة والحركة والنشاط وما مدح شيء بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر ، ورشاقة القد (١) .

معركة ثالثة :

لما قال ابن سناء قصـيدته التى مدح فيها القاضى الفاضـل والتى مطلعها : ــ

باتت معانقـــتى ولـــكن فى الـــكرى
أترى درى ذاك الرقيت بمـــــا جـــرى

جاء فيها قوله : ــ

يقــرى الضـــيوف شـــعاع تبر أحمـــر
فشـــعاع ذاك التبر نيران القــرى

---

(١) الغيث جـ ١ : ٢٤٣ .

ولقــد ســمعت ومـا ســمعت بواهب
جلت مـواهب كفــه أن تشــكرا

قال ابن جبـارة عن قوله : « يقرى الضـــيوف » لقـد ألم ابن سناء أولا بقول ابن عمار » :

قـدح زناد المجـد لا ينفـك من
نار الوغى الا الى نار القرى

وزاحم فيه أبا الطيب قوله : ـ

تركت دخـان الرمث فى أوطانهـا
طلبـا لقـوم يوقدون العنبرا

وقوله : « يقرى الضــيوف شعاع تبر أحمـر » • والتبر لا يكون الا كذلك وانما قصد المبالغة ، وشبه ذلك بشـعاع النار التى توقد على اليفاع ليهتدى بها الجيران ، وتهتدى الى مواضـعها الضيفان وقد جعله يدفع الى الضيوف صلة الانعام ، ويمنعهم من الطعام وكم من ضيف يمتنع من أخذ ذلك ويعده عيبا شنيعا • هذا ما قاله ابن جبارة •

أما الصفدى فيرى أن ذلك النقـد تعنت زائد من ابن جبارة فليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار ، ولا بقول أبى الطيب ، نعم لو قال : نظر الى قول أبى الطيب : ـ

ومللت نحـــو عشــارها فأضــافنى
من ينحـر البــدر النضــار لمن قرى

لكان فيه بعض سرقة •

وأما قوله : « التبر لا يكون الا أحمر» فلا نســلم له هـذه

الدعوى لأن التبر ما كان من الذهب غير مضروب ، والشاعر هنا ما أراد الا الذهب المضروب ، ولكنه قال تبرا مجازا ، والذهب منه ما يكون أحمر ومنه ما يكون أخضر ، ومنه ما يكون أصفر ، وهذا أمر يشاهده الحس ولولا أن ذلك لازم لما قيل في بعض المواطن : الذهب الأحمر كما يقال « الثلج الأبيض » وما بقي له من النقد عليه الا قوله : « ان الأضياف فيهم من لا يقبل الانعام » وهذا نقد حسن فان الضيف قد يكون أكبر قدرا ممن أضافه ، وأجل نعمة ، وأشرف همة ، ولا كذلك العفاة • فانهم لا يكونون الا دون من يسألون ويستعطفون فلو قال : « يقرى العفاة » لزال الايراد ، مع أن فيه نظرا من اثبات القرى ، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ، ويستعطفونه (١) •

وما أورده الصفدى ردا على ابن جبارة في هذا المقام هو ما نميل اليه ، غير أن الاعتذار عن الشاعر بأنه يمكن تخصيص « القرى » بالأضياف الذين يسألونه ويستعطفونه فيه تحمل ظاهر اذ أن الأضياف ليس من صفاتهم السؤال والاستجداء •

معركة أخرى :

لما قال ابن سناء قصيدته الفائية التى مدح بها «صلاح الدين» جاء في مقدمتها الغزلية : —

لا أرتضي بالشمس تشبيها لها والبدر بل لا أكتفي بالمكتفي

وهو يشير الى قول ابن المعتز : —

والله لاكلمتها ولو انها
كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي

---

(١) الغيث جـ ١ : ٢٦٤ •

فتعنت عليه ابن جبارة وقال :

هذا نوع من الجنون والاختلاط ، ذلك أن الشاعر كثيرا ما يسمع الشعر ويختلط فيه ذهنه فيفهمه على غير معناه ، فابن المعتز كان يقصد : « أنها فى حسنها كالشمس التى هى آية النهار أو كالبدر الذى هو آية الليل ، أو كالمكتفى الذى هو خليفة الأرض فى عظم الشأن وكبير السلطان ، فنقله هذا الشاعر الى الحسن ، ولم يكن المكتفى الا أسمر أعين قصيرا » وليست هذه من صفات الحسن ، وقد أخطأ ابن سناء الفهم ، ونقل هذا المعنى على الحسن ، ويصدق فى هذا المقام قول ابن السجناء : —

الشعر كالروض ذا ظام وذا خضل
او كالصوارم ذا ناب وذا خصم

مثل العرانين هذا حظه خنس
يزرى عليه وهذا حظه شمم

هذا ما قاله ابن جبارة .

ثم انبرى للرد عليه الصفدى قائلا : « ليس ابن سناء مما يخفى عليه هذا الذى ذكره ، وانما ذكر ابن المعتز المكتفى خروجا الى المديح بعلاقة الحسن ، ومازال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح وذلك مشهور لا يحتاج الى شاهد يؤيده ، وانما قول ابن المعتز قد شاع وذاع وملأ الأسماع ، وسار وطار فى الأقطار بالاشتهار فلما ذكر ابن سناء الملك حسن محبوبته ، وذكر الشمس والقمر والقافية ثائية كان المكتفى جالسا فى طريقها ، وكان فى ذكره اشارة الى ابن المعتز مع زيادة الجناس فقال : — « بل لا أكتفى بالمكتفى الذى جعله ابن المعتز غاية فى الحسن عنده لأنه انتقل من أدنى الى أعلى

ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه « بل » التي هي للاضراب ، وهذا غاية في حسن النظم ، والتلاعب بالكلام ، وما ينكر هـــذا الا من ليس له ذوق بالادب ، فانه قد جاء هذا النوع كثيرا في كلام المتأخرين · أنشدني صـــفي الدين الحلي ســنة احدى وثلاثـــين وسبعمائة : ـ

يقبـــل الأرض عبـــد من عبيدكمو
عليكمو بعـــد فضـــل الله يعتمد

ما دارمية من أســـنى مطالبـــه
يوما وأنتم له العلياء فالسند (١)

وابن جبارة قد جاوز الحد في تعنته على ابن سناء الملك ، وأنكر دلالة التاريخ متعمدا ليؤكد زلات الشاعر · فقد ذكر أصحاب التاريخ أن المكتفي كان وسيما مليحا بديع الحسن دري اللون ، معتدل الطول ، أسود الشعر (٢)

وأما البيت المنسوب الى ابن المعتز فلا يوجد في ديوانه الذي بين أيدينا ، وذكر « ياقوت » (٣) أن الثعالبي نسب هذا البيت الى ابن المعتز وهو في الحقيقة لأبي بكر محمد بن السراج النحـــوي ثم ذكر هذه القصة في ترجمة ابن السراج (٤) : «حكي أن أبا بكر بن السراج كان يهوى جارية فجفته فاتفق وصول الامام المكتفي في تلك الايام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما شاهد أبو بكر جمال المكتفي تذكر معشوقته وجفاءها له فأنشد بحضرة أصحابه :

---

(١) شرح لامية العجم للصفدي : جـ ١ : ١٢٨ ·

(٢) دول الاسلام للذهبي : جـ ١ : ١٤١ ·

(٣) ارشاد الاريب : جـ ٢ : ٢٣٢ ·

(٤) ارشاد : جـ ٧ : ١٠ ·

ميزت بين جمالهـــا وفعالهـــا
فاذا الملاحـــة بالخيـــانة لا تفى

حلفت لنا أن لا تخون عهودنـــا
فكأنمـــا حلفت لنا ألا تفى

والله لا كلمتهـــا ولو انهـــا
كالبدر أو كالشـــمس أو كالمكتفى

ثم ان أبا عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب أنشدها لأبى العباس ابن الفرات وقال هي لابن المعتز، وأنشدها أبو القاسم ابن عبيد الله الوزير فاجتمع الوزير بالمكتفى وأنشده اياه ، وقال للمكتفى هي لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر فأمر له بألف دينار ، فوصلت اليه ، فقال ابن زنجي ، ما أعجب هذه القصة ، يعمل أبو بكر ابن السراج أبياتا تكون سببا لوصول الرزق الى عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر فيظهر من هذه الواقعة أن ابن السراج عمل هذه الأبيات بعد أن شاهد جمال المكتفى ، وأراد بقوله ، اظهار صفة حسنه وجماله فيثبت أن زعم ابن جبارة في خروج الشاعر الى المكتفى كونه خليفة الأرض فى عظم الشأن ، وكبر السلطان ظن من الظنـــون لا تؤيده الحقائق ، ونسج على هذا المنوال الكاتب الشهير الصاحب بن عباد فى قوله : —

والله لا راجعتـــه ولو انـــه كالبدر أو كالشمس او كبويه

وعندى أن اقتباس ابن سناء الملك أحسن من اقتباس الصاحب ابن عباد » • ولا شك أن رأي الصفدى له وجاهته وحسنه فلا ضير أن يكون المكتفى غاية فى الحسن والبهاء كما يمكن أن يكون غاية فى المنزلة وعظم السلطان سواء أنسبت هذه الأبيات الى ابن المعتز أم الى غيره •

رأى آخر للصفدى :

لما قال ابن سناء مقطوعته التى يتغزل فيها بعمياء وكان الشاعر قد أعدها مع مقطوعة أخرى تحديا جاء فى احداهما قوله : ـ

رأيت منها الخد فى جـــؤذر
وناظرى يعقوب فى يوسف

فأشار فى الشطر الثانى الى ذهاب بصر « يعقوب » فى فراق يوسف ، وشبه العمياء بيوسف ، وشبه عينيها بناظرى يعقوب ،وقد علق الصفدى قائلا : «هذا البيت الثالث ماله فى الحسن وارث، ولقد تلطف فيما تخيل ، واختلس رقة المعنى وتحيل » • وقد ذكر أن الشيخ جمال الدين محمد بن نباته أخذ هذا المعنى عنه (١) •

آراء النقاد والدارسين المحدثين :

ولقد حظى ابن سناء من الأدباء والنقاد ودارسى الأدب الصليبى فى عصرنا الحديث ببعض العناية لكونه أحد الشعراء اللامعين فى العصر الأيوبى فمنهم من خصه بنتف سريعة ، أو رأى مقتضب ، يميل فيه الى الاجمال تاركا التفصيل ، ومنهم من اهتم بدراسة موشحاته وحدها كالدكتور جودة الركابى ، ولم يتناوله بدراسة واســـعة سوى الدكتور عبد العزيز الأهوانى وسنشير الى هذه الآراء اشــارة سريعة •

رأى الدكتور أحمد أحمد بدوى :

لقد أفرد الدكتور أحمد أحمد بدوى لشاعرنا صفحات محدودة ترجم له فيها بقدر ما استدعته طبيعة بحتة وقال عنه : ـ

---

(١) الغيث جـ ٢ : ١٨٨ •

لقد بدت مقدرته في الشعر والنثر منذ وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضي الفاضل الذى كان مغرما بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله في أوائل ما أنشده من شعر ونثر ٠٠ الخ (١)

رأى الدكتور جودة الركابي :

لقد حقق الدكتور جودة الركابى كتابه « دار الطراز » الذى جمع موشحاته ومختاراته من الموشحات الأندلسية ، وقد تعرض فى الحديث عن ترجمته الى الحديث عن شعره فقال : « كان ابن سناء واقعا تحت تأثير التأنق اللفظى الذى كان يسيطر على الادب فىذلك الوقت يعجب على الاخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحترى ويود لو يستطيع مجاراة ابن المعتز الذى يذكر له باعجاب هذين البيتين : —

وقفت بالربع ابكى فقد مشبهه
حتى بكت بدموعى اعين الزهر
لو لم تعرها دموع العين تسفحه
لرحمتى لاستعارته من المطر

وكان للقاضى الفاضل أثر عظيم فى توجيهه وتكوين أسلوبه الادبى الخاضع للمدرسة اللفظية ، وكنت ترى فى خلال مدائحه « صلاح الدين الأيوبى » نفسا عربية مخلصة تجيش بالاكبار والاجلال والاعظام نحو الرجل الذى صان الديار الاسلامية ، وطهر بيتالمقدس

(١) الحياة الادبية : ١٩٦ .

عن المغيرين على أرضه ، فيترك الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث وترجع نشوى فى أجواء النصر والمجد (١) .

رأي الدكتور عبد العزيز الأهواني :

ولقد تعرض الدكتور عبد العزيز الاهوانى فى كتابه «ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى شعره » الى دراسة نمـــاذج من قصائده وأخرى من موشحاته وانتهى الى : أن الاصول الفنية والمعنوية التى رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هى التى رجع اليها فى نظم موشحاته الحرص على الجناس اللفظى والمقابلة بين المعانى ،والاعتماد على العقل فى توليد الافكار ، وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات .. أما ما شغف به ابن سناء فى ديوانه من حسن التعليل ، ومن المفارقات ، ومن ايراد ما يشبه القضـــايا المنطقية ، والحجج العقلية ، فقد ظل قائما فى الموشحات ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأن جهده فى تلمس القوافى الكثيرة صرفه واستنفد بعض نشاطه فى الجهد العقلى ولذلك كان تجديده فى المعانى وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته » (٢)

رأى الأستاذ عمر الدسوقى :

وقد تحدث عنه الأستاذ عمر الدسوقى أثناء عرضه لقصائد الحماسة فى الشعر العربى ، وهو يرى أن شعره كان أضيق حدودا من أن يمثل أمجاد « صلاح الدين » الحربية ، وبطولته التى تكسرت عليها سيوف الصليبيين ، وما كان أحوج هذه البطولة لشاعر من طراز المتنبى أو أبى تمام ليتقابل شاعر اللفظ مع شاعر المجد ،ولكن

---

(١) دار الطراز تحقيق جودة الركابى : (المقدمة) .

(٢) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ – ٢١٣ .

الشعر العربى كان قد تحول عن قوته وروعته القديمة ، فأصبح تكرارا مملا لمعان محفوظة ، ولم يعدهم الشاعر الكبير مثل ابن سناء الملك الا أن يخرج هذه المعانى والصور اخراجا جديدا ، فاذا هو لايصل الا الى ضروب من التكلف الواضح (١).

رأى الدكتور محمد كامل حسين :

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن فن القاضى الفاضل قد أثر تأثيرا قويا على فن ابن سناء الملك ، وكلاهما أولع بالزينة اللفظية وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى ، وكلاهما بلغت به المبالغة حد الاستحالة فلذلك قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء مع ما حدث من افراط فى استخدام تلك الخصائص • ويظهر أن ابن سناء الملك كان مثل القاضى الفاضل تماما ، له ثروة لفظية استطاع بها أن يكثر من التوريات ،فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى النثر والشعر » (٢)

هذه بعض الآراء التى قيلت فى دراسة شعر ابن سناء الملك وموشحاته ، وقد اكتفينا بذلك عن غيرها من الآراء الاخرى الكثيرة التى لا تعدو هذه الآراء ولا تزيد عليها • ويهمنى بعد أن قدمت آراء النقاد قديمهم ومحدثهم أن أشير الى نتيجة بحثى فى شعره ودراسته دراسة مفصلة وأوضح معالم المدارس الادبية التى كانت آنذاك ثم مدرسة ابن سناء •

---

(١) الحماسة : ١٠٤ لعمر الدسوقى وآخرين •

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين : ١٢٦ •

معالم المدارس الأدبية :

لقد اجتهد بعض النقاد ودارسو الادب الفاطمي الأيوبي أن يلحقوا كل أديب من هذا العصر بمدرسة من المدارس الأدوبية ، فهذا يلحق بمدرسة العقائد لأن أدبه قد تأثر بالعقائد الفاطمية ، وذاك من مدرسة الرقة والسهولة لأنه أكثر من الغزل الرقيق ،وذاك من مدرسة الكتاب لأنه تأثر باتجاهات الكتاب وطابع الكتابة ونحا منحى القاضي الفاضل ، ودارس آخر ينزع في تقسيم المدارس ناحية أخرى وهي أن هذا الاديب من مدرسة المجددين وذلك من مدرسة التقليديين ، فهو من المدرسة الاولى اذا نزع بأدبه نزعة تجديدية في الصور والأخيلة والمعاني ، وهو من المدرسة الثانية اذا سار على نهج الشعراء الاقدمين في خياله وتفكيره وتصويره .

ما مدرسة ابن سناء اذن ؟

هل نستطيع أن نلحقه بمدرسة العقائديين ؟ لقد تأثر شعره تأثرا واضحا بالعقائد الفاطمية ، وان لم يكن شيعي المذهب فقد ظهرت في شعره بعض المصطلحات والعقائد الفاطمية ، واستخدم فيه من غريب الالفاظ ما أدى أحيانا الى شيء من التعقيد فهو حين يمدح « صلاح الدين » يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف
وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته
فانت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت الى أن تملك الأرض كلها
ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين « صلاح الدين » وبين يوسف عليه السلام فى الاسم حقيقية ، ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل الا على أساس واحد ،وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنيـــة التى وردت فى المسيح بأن احياء الموتى معناه نشر الدين واحيـــاء النفوس بالعبادة ، ويقول ابن سناء فى مدح السلطان على بن صلاح الدين : :

مولى الأنام على هــكذا نقلت
لنا الرواة حديثــا غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوى الذى ادعاه الشيعة :

« من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى الملك «على بن صلاح الدين» متبعا فى ذلك سنة الشعراء الفاطميين وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره من الشعراء ، وشاركوه هذا الاتجاه ، كابن النبيه ، وابن الساعاتى وابن مطروح .

وبعد فهل ابن سناء من مدرسة العقائديين ؟ الواقع أن هـذه المدرسة قد بدأت فى الانقراض بمجرد قيام الدولة الايوبية حتى لم يعد لها مقومات المدرسة ، وان ألم بعض الشعراء باتجاهاتها وظهر أثرها فى شعرهم ، لأنهم لم يقصدوا الى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيهم أن يلموا بتلك الخصائص ، وانما تنساب اليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين ، والذى ينبغى أن نسميه مدرسة هو ما يتجه اليه الشعراء عن عمد ومعرفة بمناهجهـا وطابعها وخصائصها ، فليس ابن سناء من هذه المدرسة اذن وان ألم ببعض خصائصها .

هل هو من مدرسة الرقة والسهولة ؟

يرى الدكتور « محمد كامل حسين » أن هذه المدرسة تعـــد في العصر الايوبي امتدادا وتطورا للفن الذي يلائم الحياة المصرية ، والبيئة المصرية ، وأنها كانت تضم أكثر الشعراء في ذلك العصر ، فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة ، أو قصيرة ، ولا يظهـــر في فنهم أي لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظيــة الا ما جاء للتظرف ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى أن مذهبهم عرف في العصر الايوبي « بالطريقة الغرامية » فقد اهتـــم هؤلاء الشعراء اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية في قصائدهم المختلفة ومن شعراء هذه المدرسة البرهان بن ابراهيم بن الفقيه (٦٤٠هـ) ، القائل : ــ

وا لهف جســدى ووا حـــزنى
ممن الاطفـــه جهـدى ويتعبنى

بذلت روحى فى أدنى تواصــله
ذلا وصبرا وعطفــا وهو يهجـــرنى

وكلمـــا رمت منه ما اهـز به
عطف السرور انزوى عنى وأحزننى

فالألفاظ سهلة حتى كأن الشاعر يتحدث حديثا عاديا ، وقد ظن بعض النقاد أن الشعراء يستعملون الالفاظ العامية ، وقد دفعهم الى ذلك ما لمسوه من سهولة الالفاظ ورقتها ، ومن شعراء هذه المدرسة أيضا « أمين الدين بن أبى الوفاء » المعروف بابن العصار وهــو من شعراء الملك الكامل بن العادل وهو القائل : ــ

أعنـــدكم أن قـــلبى متيـــم مستهـام ؟

الصبر الا عليكم في كل حال حرام
لا اوحش الله منكم فقربكم ما يرام

ومن شعرائها « هبة الله بن عرام » والشاعر النفيس «أبوالعباس أحمد بن أبى القاسم » المتوفي سنة ٦٠٣ هـ ، « والبهاء زهير » ٠ وغير هؤلاء ممن ظهروا فى هذه الفترة ٠

وبعد : فهل يمكن أن نعد ابن سناءمن أنصار هذهالمدرسة ؟ لقد خص كثيرا من شعره في الغزل ، بل ان الغزل هو الغرض الثانى في ديوانه ، وأكثر من ذلك فقد أطال فى مقدماته فى المدائح ، وجعل الغزل يحتل نصف قصيدة المدح ، فحين يمدح القاضى الفاضل : —

قتلى لحبكم شهادة وشقاوتى فيكم سعادة
وكذاك كفرى بالعذو ل على محبتكم عباده
ويح العذول اذا مضى من عزله فى أعاده
والنفس تفرق فى معا داة الأحاديث المعاده
تم الغرام بكم فلا نقص عليه ولا زيادة
بأبى وأمى أغيد واذا اعتبرت وجدت غادة
خفر الشمائل لين الأعـ طاف مستعصى القاده

وهكذا نجد كثيرا من شعره فى المدح قد صدر بهذا الغزل الرقيق ومن أجل ذلك جعله الدكتور محمد زغلول سلام « الشاعر المفتن الرقيق من شعراء هذه المدرسة، وان لم يفصح عن ذلك صراحة(١)٠

أما الدكتور « محمد كامل حسين » فقد جعله من مدرسة الشعراء الكتاب فما معالم هذه المدرسة ؟ ولماذا عده من أنصارها ؟

---

(١) الادب فى عصر صلاح الدين الايوبى : ٣٦٥ .

معالم مدرسة الكتاب :

لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التى يخضع لها الكتاب ، وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء ، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ، ذات الوقع الضخم ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع ، مع حلاوة الايقاع ، وكانوا يتلاعبون بهذه الالفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ، ومراعاة نظير الى غير ذلك من ألوان البديع والبيان ، ومن أنصار هذه المدرسة « الموفق بن الخلال » وابن أبى الشخباء » والقاضى الجليس ، وابن الزبير ، وعمارة اليمنى ، فى العصر الفاطمى • وفى الايوبى : الأسعد ابن مماتى ، وابن المرصص ، وابن عرام ، وابن ظافر ، على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك •

والواقع أن ابن سناء كان تلميذا للقاضى الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ، ويعنى بنقده ، وكان يعنيه أن يستجيد شعره ، والقاضى الفاضل كان كما نعلم زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الايوبى ان لم يكن هو منشؤها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثرا كبيرا ، وان كانت له شخصيته ، والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك •

بقى أن نشير الى أن ابن سناء كان يحاول الابتكار والتجديد وان دفعه ذلك الى نزعة عقلية ابتعدت به عن رياض الشعر المونقة (١) •

فابن سناء اذن ينزع منزع مدرسة الكتاب ، وان تعلق بآثار

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ •

الأقدمين ، فاقتدى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم ، ولكنه كان على كل حال أحد المعدودين فى العصر الايوبى تطاولت اليه أعناق الشعراء فى عصره ، وحسدوه على مكانته ومنزلته التى ربما كان الفضل فيها يرجع الى أستاذه القاضى الفاضل الذى كان على صلة وثيقة به والله ولى التوفيق •

المراجـــع

ابن الرومى : حياته من شعره	عباس محمود العقاد
ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار	د عبد العزيز الأهوانى
اتعاظ الحنفا	المقريزى
أخبار مصر	ابن ميسر
أدب الحروب الصليبية	د عبد اللطيف حمزه
ارشاد الأديب (معجم الأدباء)	ياقوت الحموى
اغاثة الأمة بكشف الغمة	د فريد الرفاعى
الأدب المصرى من قيام الدولة الأموية الى مجىء الحملة الفرنسية	د عبد اللطيف حمزة
الأدب فى عصر صلاح الدين	د محمد زغلول سلام
الأدب العربى ونصوصه	نعيم الحمصى وخليل هنداوى
الأعلام جـ٢	خير الدين الزركلى

الافادة والاعتبار — للبغدادى

البداية والنهاية جـ١٣ — لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن كثير

البيان المغرب — لابرغرانزى

الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة — د محمد خلف الله

الجامع المختصر جـ٩ — لعلى بن انجب بن الساعى

الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى — محمد سيد كيلانى

الحماسة — عمر الدسوقى وآخرين

الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية — د أحمد أحمد بدوى

الحياة الأدبية والفكرية بمصر — د محمد كامل حسين

الحياة الفكرية فى عصر الحروب الصليبية — د أحمد أحمد بدوى

الخريدة جـ١ — عماد الدين الأصفهانى

الخطط — للمقريزى

الدرر الكامنة — لابن حجر (أحمد بن على الكنانى)

الدولة الخوارزمية — ابن بسام

الذخيرة — ابن بسام

الروضتين فى أخبار الدولتين — لأبى شامه (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى)

السلوك	**للمقريزى**
الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى	**حافظ حمدى**
الشرق الأوسط فى موكب الحضارة	**محمد منصور أحمد**
الصناعتين	**لأبى هلال العسكرى**
الغاية فى اختصار النهاية	**عز الدين بن عبد السلام**
الفرق فى أسماء الفرق	**للبغدادى**
الفرق بين الايمان والاسلام	**عز الدين بن عبد السلام**
الكامل جـ٤ ، جـ٩	**لابن الأثير**
المجالس المؤيدة جـ١	**لأبى الفداء**
المختصر فى أخبار البشر	**لأبى الفداء**
المعز لدين الله الفاطمى	**ابراهيم وطه شرف**
المغرب	**ابن سعيد المغربى**
الملل والنحل	**الشهر ستانى**
المواعظ والاعتبار	**أحمد بن على المقريزى**
النجوم الزاهرة	**ابن تغرى بردى**
النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق	**د محمد جمال الدين سرور**
النكت العصرية	**لعمارة اليمنى**

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — ليوسف ابن شداد
بديع القرآن — لابن أبي الاصبع : تحقيق حفنى شرف
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر — لابن خلدون
تأويل دعائم الاسلام — القاضى النعمان
تاريخ الدولة الفاطمية — د حسن ابراهيم حسن
تاريخ التربية الاسلامية — د أحمد شلبى
تاريخ الفلسفة العربية — حنا الفاخورى ـ خليل الجر
تاريخ الشعوب الاسلامية — بروكلمان
تاريخ الاسلام السياسى — د حسن ابراهيم
تاريخ العرب العام — ترجمة : عادل زعيتر
ثمرات الأوراق — ابن حجة الحموى
حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين — د راشد البراوى
حسن المحاضرة — للسيوطى
خطط الشام ودمشق — محمد كرد على
خزانة الأدب — للحموى
دار الطراز — لابن سناء : تحقيق جودة الركابى

دراسات فى علم النفس الأدبى	حامد عبد القادر
دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين	د محمد كامل حسين
ديوان المتنبى	مطبعة هندية بالموسكى
ديوان ابن عنين	نشر خليل مردم
ديوان ابن النبيه	
ديوان ابن التعاويذى	
ذيل الروضتين	لأبى شامة
ذيل تاريخ دمشق	لابن القلنسى
رحلة ابن جبير	لابن جبير
شذرات الذهب	لابن العماد الحنبلى
شرح لامية العجم	للصفدى
صبح الأعشى	القلقشندى
الطبقات الكبرى	الشعرانى
ظهر الاسلام	د أحمد أمين
علم النفس	د عبد العزيز القوصى
فوات الوفيات	لابن شاكر
فصوص الفصول (خط)	لابن سناء الملك
فى الأدب الحديث	عمر الدسوقى
فى الأدب المقارن	د عبد الرازق حميده

قوانين الدولة	لابن مماتى
قوانين الدواوين	لابن مماتى
مرآة الزمان جـ ٨ .	لابى المظفر يوسف بن قزوغلى المعروف بسبط بن الجوزيه
مصر فى عصر الأيوبيين	د السيد الباز العرينى
مصر فى العصور الوسطى	د حسن ابراهيم حسن
معجم السلفى	السلفى
مفرج الكروب	لابن واصل
فصوص الحكم	تحقيق : أبو العلا عفيفى
نقد الشعر :	تحقيق : محمد عيسى منون
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة	للشيرازى
وفيات الأعيان	لابن خلكان : تحقيق محمد محيى الدين

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٤٨٦٠/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.

تليفون : ٧١٠٥٥/ ٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.

تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية	: ٤٩ شارع سعد زغلول	٢٢٩٢٥	**الجيزة**	: ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور	: شارع عبد السلام الشاذلى	٢٦٠٥	**المنيا**	: شارع ابن خصيب ت: ٤٤٥٤
طنطا	: ميدان الساعة	٢٥٩٤	**اسيوط**	: شارع الجمهورية ت: ٢٠٣٢
المحلة الكبرى	: ميدان المحطة	٤٢٧٧	**اسوان**	: السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة	: أول شارع الثورة	٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة

العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت

الاردن : مكتبة المحتسب – عمان

ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس

اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا

تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس

الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة

المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الأحباس – الدار البيضاء

هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

صدر أخيراً عن :

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

أشواق بوذا

شعر : أحمد مخيمر

الثمن ٥٥ قرشا

صيّاد الوَهم

شعر : كمال عمار

الثمن ٣٠ قرشا

تطلب من مكتبات الشركة القومية للتوزيع بفروعها المختلفة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

